

تاريخ الحضارة المصرية

المجلد الثاني

العصر اليوناني و الروماني

و العصر الإسلامي

تأليف : نخبة من العلماء



مطبعة الثقافة والإشراق
المؤسسة المصرية العامة
للثقافة والترجمة والنشر

تاريخ الحضارة المصرية

العصر اليوناني والروماني
والعصر الإسلامي

المجلد الثاني

أحمد بن الحنفى
محمد مصطفى زبادة
إبراهيم نصحي
ممداد كامل
حسين مؤنس
جمال الدين الشيبان
محمد عبد العزيز مرسوق

ألفه
نخبة من العلماء

الترتيب
مكتبة مصر
٣ شارع كائنات في الجيزة

القبيل الأول

العصر الهوناني والروماني

مصر في عصر البطلمية

للكونتور ابراهيم نصحي

الفصل الأول - دولة البطلمية

الفتح المقدوني - قيام دولة البطلمية - الفتح الروماني

جبا الله مصر بولفة من موارد الضخيم
وأسباب الحياة التكرية ما جعلها مهد
الحضارة والرفاه ، وسرع على الراشدين من
حكامها اهلا ، شأنها ، ولقت أنظار الضاميين
اليها حتى أصبحت قبلة كل دولة تشيد بناء
امبراطورية عالمية . فلا عجب انه حين زالت
دولة الفرس و قامت على أنقاضها امبراطورية
المقدونيين طويت صفحة من تاريخ مصر
الطويل وفتحت صفحة جديدة المنبت فيها
الحضاراتان المصرية والافريقية جنباً الى
جنب . فالى أى مدى سلت العلامة ابن
خلدون في قراءه ان المطوب مروج دالما أبدا
بالافتداه بالذالب ؟ مناوول بقدر ما تسمح
لنا المصادر القديمة ، أن بين الى أى مدى
تغيرت أم بلب على حالها مختلف نواحي
الحياة في مصر على عهد حكامها الجدد .

نولا - الفتح المقدوني

١ - الإسكندر في مصر

فتح الإسكندر مصر في خريف عام ٣٣٣ ،
وما كاد يصل الى منف حتى سارع الى شديم
القرابين للالهة الوثنية ، ولتوبج نفسه في
معبد فتاح على منح الفراعنة القدماء ، لكي
يظهر أمام المصريين في ثوب ملك شرعي خليفة
الفراعنة القدماء ، كطسمن اخلاص المصريين
وخضوعهم له . لكن الإسكندر لم ينس أيضا
أنه يوم خرج من بلاد الاغريق قاصدا فتح
الشرق قد أعلن انه رافع لواء الحضسارية
الافريقية ، ولذلك قام في منف حفلا
افريقيا : رياضيا وموسيقيا .

وبعد أن فرغ الإسكندر من مهامه في
منف وضع أساس مدينة الاسكندرية ثم حج
الى معبد آمون في واحة سيوة ، فقد كان

جبا الله مصر بولفة من موارد الضخيم
وأسباب الحياة التكرية ما جعلها مهد
الحضارة والرفاه ، وسرع على الراشدين من
حكامها اهلا ، شأنها ، ولقت أنظار الضاميين
اليها حتى أصبحت قبلة كل دولة تشيد بناء
امبراطورية عالمية . فلا عجب انه حين زالت
دولة الفرس و قامت على أنقاضها امبراطورية
المقدونيين طويت صفحة من تاريخ مصر
الطويل وفتحت صفحة جديدة المنبت فيها
الحضاراتان المصرية والافريقية جنباً الى
جنب . فالى أى مدى سلت العلامة ابن
خلدون في قراءه ان المطوب مروج دالما أبدا
بالافتداه بالذالب ؟ مناوول بقدر ما تسمح
لنا المصادر القديمة ، أن بين الى أى مدى
تغيرت أم بلب على حالها مختلف نواحي
الحياة في مصر على عهد حكامها الجدد .

ورث الإسكندر الأكبر عن أبيه توحيد
الافريق في نصبة كورانا برعلمه مقدونيا
ومشروع محاربة الفرس ، ذلك العسود
الشترك لمقدونيا والافريق ، لدعم زعامة
مقدونيا . ولما كان الفرس يتمتعون بسيادة

الى بابل واقته المنية في ١٣ من يونية سنة ٣٣٣
ولما يتم الثالثة واللاثين من عمره . وبوفاة
الاسكندر يبدأ في العالم الاغريقي العصر
الذي اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر
الهيلينستي . ولما كان تاريخ مصر منذ الفتح
المندوني قد أصبح متصلا اتصالا وثيقا بالعالم
الاغريقي فان عهد البطالمة ينتمي الى العصر
الهيلينستي الذي ينتمي ببوفاة اكثيوم في
عام ٣١ ق . م . تلك المؤسسة التي بسط
الرومان في اقطابها سلطانهم على مصر : آخر
مملكة هيلينستية .

مؤسس بابل

وبعد وفاة الاسكندر اجتمع لواءه في
بابل ليعتصروا مشكفة حكم الامبراطورية
المندونية التي تعوق مؤسسها قبل ان ينظم
وراثة العرش بطريقة الحكم فيها ودون ان
يترك وصية او يرشح خلفا له . وبعد خلاف
عنيف تم الاتفاق على انه يرعى العرش شاب
مستوه يدعى فيليب ارخيدابوس Arrhidanus
كان لها غير شقيق للاسكندر ، مع الاعتراف
بحق جنين روكسانا Roxana (زوجة
الاسكندر الفارسية) اذا كان ذكرا في
مشاركة فيليب الملك بمثابة شريك تحت
الموصاية . وبهذا الحيل امكن الاحتفاظ
بوحدة الامبراطورية لكنها لم تكن الا وحدة
في الشكل فقط اذ انما قسمت في الفصل بين
قواد الاسكندر نتيجة للقرار الذي اتخذه
اولئك القواد بتوزيع ولايات الامبراطورية

ذلك المعبد يتسع بشهرة عالية تضارع ما كان
لاعظم معابد الوحي عند الاغريق . ويبين ان
الاسكندر كان يستهدف من وراء زيارة ذلك
المعبد التالي تحقيق ثلاث غايات : اولها :
اثبت صلة نسبه بالآلهة امام الرعي الدولي
العام ، فقد كان على وشك بناء امبراطورية
واسعة مترامية الأطراف تضم بين جوانبها
عناصر شرقية وعناصر لغربية ، وكان يرى ان
تأكيده أقوى ضمان لسيطرته على هذه
الامبراطورية . وقد كانت غايته الثانية من
الحج الى معبد الوحي في سيوة الحصول
على تأييد الاله آمون لمشروعاته التي كانت
ترمي الى بسط سيادته على العالم . أما غايته
الثالثة فكانت اشباع سوله للشفاطة ورغبة
في القضاء اثر بطل الأساطير الاغريقية
يرسيوس وهرقل اللذين شاع الاعتقاد قديما
ان الاسكندر كان ينحدر من سلالتها وورث
في الأساطير انها تزودا بمشورة آمون سيوة
لبل الاقدام على جلائ اصلهما .

وحيث عاد الاسكندر الى منفاه قضاء
حلالا الرغيفيا لآلها ووضع نظاما دقيقا يحكم
مصر ثم تركيا في ربيع عام ٣٣١ في حماية
جيش وأسطول مدهونين لبسائف منسازلة
الفرس . وفي العام نفسه اتزل الاسكندر
بدارا ملك الفرس هزيمة قاصمة في موقعة
جوجيلا Gaugamela ، ثم دخل في أواسط
آسيا حتى قلب فقليم اليتجاب للاستيلاء على
ولايات الامبراطورية الفارسية . وحيث عاد

فيما يتهم ليحكموها بصفة كونهم ولاية من قبل الأسرة المالكة المقدونية . وقد كانت الأتلياع التي نجيش في صدور أغلب هؤلاء القسود واسعة جلية ، ولذلك فانهم لم يكونوا على استعداد لقبول أوامر الذين كانوا سيحكمون باسم الملكة متى فواترت لديهم القسوة الكافية لمأيستد رغبتهم في الاستقلال . وقد كان كذلك بين قرارات مؤتمر بايل : أن يكون إريديكاس انتالده العام للجيوش والمصن على شئون الأسرطورية ، وأن يكون كراتروس وصياً على الملك المترو وكذلك على طرس ووسانا عندما يولد ، وحامس شطصيهما وحامل أختام الدولة ، لكن المؤتمر لم يقرر أن تكون السيطرة والكلفة الشاففة ، أليريديكاس أم لكراتروس ، وبذلك أضاف عاملاً آخر من عوامل الشقاق

ثانياً - قيام دولة البطالمة

وقد كانت مصر من نصيب قائد فذ يدعى بطليموس . فلما كانت أهداف بطليموس مؤسس أسرة البطالمة التي حكمت مصر من عام ٣٣٣ حتى عام ٣٠ ق . م . وما كانت أهداف خلفائه ، لكني نتمهم سياسة البطالمة ابداعية على طبيعتها يجب أن نفهم أولاً فترة عاجلة على سياستهم الخارجية وذلك لأن النظم التي وضعوها لحكم مصر تأثرت الى حد كبير بالدور الذي رادوا أن يلعبوه في العالم الاغريقي .

ومن الجلي أن سياسة مصر الخارجية

تسبب عادة بسجوعين من العوامل : احدهما هي العوامل الطبيعية التي جعلت مصر أولاً جزءاً من وادي النيل ، بل جعلت جبهتها متوقفة على مياه هذا النهر ، وجعلت مصر ثانياً وفترة الخبرات في بعض النواحي ، مع فقرها الشديد في بعض النواحي الاخرى ، وجعلت مصر ثالثاً حلقة الاتصال بين افريقيا وآسيا واوربا . ويترب على ذلك أن تسعى مصر الى اثناء عمليات خارجية تصرف ما يفيض على الحاجة من منتجاتها واستيراد ما تفتقر اليه ، وأن يكون نشاط السياسة المصرية ثلاث جهات : احدها افريقية ، والاخرى اسيوية والثالثة اوروبية . ومن الطبيعي أن يتباين اهتمام مصر بكل جبهة تبعاً للظروف الدولية المحيطة بها في كل عصر . وهذه الظروف الدولية هي المجموعة الثالية من العوامل التي تتكف بها سياسة مصر الخارجية .

ولي ذلك المصدر من عهد القراعة حين كانت مصر ، أو كانت أن تكون : المركز الأوحيد الحضارة ، كان بينما أن تستنفذ الجبهة الافريقية لنشاط السياسة المصرية . وحين قامت الي جانب مصر مراكز لقططرة في آسيا ، كان طبيعي أيضاً أن يكون للجبهة الأسيوية كدلت شأن كبير في السياسة المصرية ، ومن ثم لم تعد الجبهة الافريقية تتناثر باهتمام السياسة المصرية . وعندما أخذت تظهر في شمال البحر الأبيض المتوسط

ومهما اختلف المؤرخون في تصغير سياسة البطالمة الخارجية فلا خلاف في امرين : أحدهما أن الجهة الأوربية في نشاط سياسة مصر الخارجية على عهد البطالمة قد غلبت الجهة الرئيسية ، والأمر الآخر أن البنائنة كانوا يريدون إنشاء امبراطورية - وسواء أكان بطليموس الأول وابنه وحفيده من بعده يريدون إنشاء امبراطورية عالمية أم امبراطورية بحرية في شرق البحر الأحمر المتوسط ، فقد كان يطمح أولاً وطبع الأساس الذي يقام عليه هذا الصرح ، أي بناء دولة قوية غنية مستقلة في مصر ، ولا ريب في أن بناء مثل هذه الدولة كان يحتم لغصم عرى الامبراطورية المقدونية - وكذلك كل من تعدته نفسه بإحيائها لاسباب الأسرة المالكة المقدونية - أو لاسباب الخاص . ولذلك فإن بطليموس الأول اشترك في عدة محالقات كانت أهمها ثلاث : أحدها ضد يردنيكاس الذي أراد أن يلحسم شحمت الامبراطورية ويوحدها وقرر غزو مصر ليجعل من واليها عطفه للولاة الآخرين لكنه فشل أمام خط التل الحصين ولحق حظه هناك (عام ٣٢٩) وكانت المظلمات الأخيرة ضد ضد أنتيجونوس Antigonos الذي أصبح بدوره خطراً يهدد سلامة الولاة الآخرين وانتهى الأمر بالقضاء عليه في موقعة إبسوس Ipsos عام ٣٠٦ ق. م. وسوت أنتيجونوس ماتت معه فكرة احياء الامبراطورية المقدونية، وكان قد أكد انحلالها واستقلال الولاة كل

مراكز جديدة للحضارة استرعت هذه المراكز في الحال ابتداء مصر ، لكنه لما لم يكن لهذه المراكز الحضارية الأوربية حينذاك شأن يذكر بجانب مراكز الحضارة الشرقية فإنه لم يكن للجهة الأوربية الا حط يسير من اهتمام مصر قبل العصر الهلنستي .

وعلى عهد البطالمة كانت الظروف الدولية المحيطية بمصر قد تغيرت تغيراً محسوساً إذ أنه حين كان لجم الحضارات الشرقية قد أغلقت حضارة الآخرين قد لغزت الى الأمام فنزلت حافظة أوصتها سريعاً الى ذروة المجد حتى تضاعفت الى جانبها الحضارات القديمة طراً ، وغدا بحر ايجة أهم مركز للحضارة في العالم القديم . وقد ازدهرت دعائم هذا المركز رسوخاً حين ألفها الاسكندر امبراطوريته وأدخل في حظيرتها كل مراكز الحضارة القديمة . وعندما توفي الاسكندر في شرح الشباب والنم فواده امبراطوريته كان لذلك نتائج عديدة يبيننا من امرها ثلاث : أحدها أن عرش مصر آل الى أسرة مقدونية الاصل الشرقية الحضارة ، والنتيجة الثانية ، تسوب صراع عابث بين فواده الاسكندر دام أربعين عاماً وتخطى آخر الأمر عن قيام ثلاث دول غنية على انقاض الامبراطورية المقدونية : هي دولة البطالمة في مصر ودولة السليوكيين في سوريا وبابل ، ودولة مقدونيا . والنتيجة الثالثة هي اختفاء المناغسة بين هذه القوى الثلاث ولا سيما بين البطالمة والسليوكيين .

منهم بولايته اتمم حدوا حدوا اتيجوروس
وتلقبوا انفسهم ملوكا (عام ٣٠٦ - ٣٠٥
ق . م .) -

ووسط الألسناخ الجامعة اتنى كانت
تجيش في صدور خلفه الاسكندر اشمر
بطلبوس الحاجة الى جيش كبير واسطول
قوى ليغوز باستقلال مصر ويحافظ على هذا
الاستقلال ويحوز مكانة سامية في الساحة
الدولية . ولما كانت تحت امرة ماضي البطالة
جيوش واساطيل من الطراز الاول ، اذ كانت
مؤلفة من خشيعة جنود المعمر ، وأهني
المتقديين والآخرين ، فقد اعتقد بطلبوس
وخلفساؤه الأرائل انه لتحقيق سياستهم
التحارجية بل التحالفية على كيان دولتهم ، لا بد
من أن يكون لهم جيش واسطول من طراز
جيش وأساطيل منافسهم ، ومنى ذلك
ضرورة استئدام الاغريق وانباهم للخدمة
في قوات البطالة المحاربية . ولما كانت روة
مصر الطبيعية فاصرة عن الوفاء بمحاجات
الجيش والاسطول فانه كان يتمين استيراد
الأخشاب والمعادن اللازمة من الخارج وقد
كانت العريقة المظلي لضممان الحصول على
هذه الطروريات على الاستيلاء على بعض
الأقاليم القريبة النائية بالأخشاب والمعادن .

٢ - بناء امبروطورية البطالة

ولما كانت وفرة المال شرطا أساسا لبناء
العبوش والاساطيل ، وكانت مصر مع غنى
مواردها الضيعة لا تستطيع مواجهة المطالب

الجديدة اذ بقيت شئونها الادارية وحالتها
الاقتصادية على ما كانت عليه عند الفتح
المتقديني ، فانه لم تكن هناك مندوحة عن
اعادة تنظيم شئون الادارة ، والنهوض بمراقن
البلاد الاقتصادية واستغلالها استفلافا منلما
دقيقا ، وتصدير أكبر قدر ممكن من منتجاتها .
وللقيام بهذه الأعمال الانتالبية الواسعة كان
بطلبوس الأول وخلفساؤه في حاجة الى
روس أموال والى اعران مخلصين يستلمون
فهم مراميمهم والتفاني في خدمتهم . ومنى
ذلك ان البطالة الأولى كانوا يستلمون
الحاجة أولا الى الاغريق لا لبناء جيوشهم
واساطيلهم فحسب ، بل أيضا لاعادة تنظيم
شئون البلاد الادارية والاقتصادية ، فسد
كانت تنظر لديهم روس الأموال وكذلك
الخبرة بأحدث الأساليب الاقتصادية ونظم
التجارة السائدة في عالم البحر الأبيض
المتوسط . وثاليا الى السيطرة على الطرق
البحرية لحماية مصر وتنشيط تجارتها
الضاربة . فلا عجب ان اعثر بطلبوس الأول
وخلفساؤه بسادة بحر ابيجه عماد كيانهم السياسي
ومصدر قوتهم وأساس استقلالهم .

واراء كل هذه العوامل لرى ان بطلبوس
الأول حين كان معيا بالعبور باستقلالته ثم
بالذود عنه قد : (١) استولى على يرة لحماية
حدود مصر الغربية ، (٢) استولى على جوف
سوريا (فلسطين وغيتيقيا وجزء من سوريا)
وقبرص وبعض الأقاليم الواقعة على شواطئ

وهكذا يتضح لنا انه على عهد بطليموس
 الأول اتجهت سياسة مصر الخارجية اتجاها
 جديدا لم يكن لها به عهد من قبل ، فقد غدت
 الجبهة الأوربية أو ان شئت الجبهة الأوربية
 الشرقية أو الجبهة الشمالية محور نشاطها
 اترئيسي . وقد أفضت الظروف الى اتجاه
 جديد آخر كان نحو آسيا . حقا ان الجبهة
 الآسيوية كانت منذ امد بعيد موضع اهتمام
 مصر لكن آسيا الصغرى لم تكن قبلها
 من الاعية في هذه الجبهة مثل ما أخذت
 تكتسبه منذ أيام بطليموس الأول . وفضلا
 عن ذلك فان الاتجاه الآسيوي لم يكن يوما
 وثيق الاتصال بالاتجاه الأوربي لسياسة
 المصرية على النحو الذي فراه منذ بداية عهد
 البطالة .

وعلمنا انتمى مرثى مصر بطليموس
 الثاني كانت دولة قوى دولة في العالم
 الهيلينستي . وكانت تلبها دولة السلبيوكتين
 وكانت تشمل ولايات امم الطورية الاسكندر
 في بلاد ما بين النهرين وأغلب الولايات
 الشرقية الجديدة وحانبها كبيرا من آسيا
 الصغرى وسوريا (فسا عدا جوف سوريا) .
 وكانت الدولة الثالثة هي مقدونيا وكانت
 تسيطر على بعض المصدان الأخرضية في شبه
 جزيرة البلقان . وقد عني بطليموس الثاني
 أولا بخدم حدود مصر الغربية ، وفاقيا بارسال
 حملة فاصليه الى قبائل النبط في البتراء ،
 وانحصاع الأديسيين والبحر الميت وشرق

آسيا الصغرى الجنوبية وذلك لحماية حدود
 مصر الشرقية والحصول على المعادن
 والأحصاب التي يفتقر اليها وادي النيل ،
 والتبصرة على بعض منافذ الطرق التجارية
 الآتية من الشرق الأقصى . وضمان سياسة
 مصر في بحر ايجة . (٣٠) سبل الدول
 الحديثة الى الاتجار بالحربة فانه تحت ستار
 القاد نصبة بحر ايجة من ريفه التيجوروس ،
 طرد حاميات التيجوروس من عصبه الجزائر
 ووضع مكانها حاميات بطلمية للذود عن
 الحرب الأخرضية ، ثم سارع الى بلاد
 اليلوبولير فوضع حاميات بطلمية في سكوتون
 وكورتا لحماية للبحرية الأخرضية من أعدائها
 الظالمين ولا شئت في أنه لم يهدف من وراء
 ذلك الا الى القور ببادء بحر ايجة وكسب
 عصفه الاقرين فيسيطر على الطرق التجارية في
 العالم القديم ويحصل من العالم الأخريني على
 ما يحتاج اليه من الرجال وروس الاموال .
 ويجب ان يلاحظ ان السيطرة على عصبه
 جزر بحر ايجة كان لا تكسب البطالة الا
 سيطره جزئية اقتصادية وسياسية على بحر
 ايجة ، وان استكمال السيطرة على هذا
 البحر كان يقتضى فرض حماية مصر على
 شواطئه آسيا الصغرى الجنوبية والغربية
 وكذلك الانسلاء على موانئ فلسطين وفينيقيا
 وقد تبعد بطليموس الأول جانبيا مما من هذه
 الامبراطورية وترك خلفائه استكمال باعها
 لاذن السياسة التي وضع هو اساسها لم يحد
 عنها أحد من خلفائه الأرائل .

بسط نفوذه على كريت وثبت سيطرته على
 عصبة جزر بحر ايجه .
 وهكذا بين أن الاتجاهين الجديدين
 اللذين ظهرا في أفق السياسة المصرية على
 عهد بطليموس الأول قد استترا مسيطرين
 على هذه السياسة في عهد بطليموس الثاني
 أيضا ، بل لعل سيطرتهما قد ازدادت قوتها
 في عهد بطليموس الثاني على نحو ما يتضح
 من اتساع نطاق فتوحه في بحر ايجه وعلى
 لواطية آسيا الصغرى . لكن لعهد بطليموس
 الثاني ميزة خاصة ، فهي معه بدأ اتجاه

الأوروبي . وذلك لقضاء الحصول على التجارة
 الشرقية القادمة بطريق البحر الأحمر وبلاد
 العرب . ويتصل بالهدف نفسه اهتمامه
 بالطرق التي تربط وادي النيل بالبحر
 الأحمر . وثالثا وولد حمود مصر الجنوبية
 واهتم بطرق مالي النيل . وربما دعم سلطان
 مصر في جنوب سوريا . وحامسا استرد
 ممتلكات مصر على شاطئ آسيا الصغرى
 الجنوبي التي كان أبوه قد فقدتها في عام ٣٠٦
 وأنشأ لها ممتلكات جديدة هناك ،
 وعلى شاطئ آسيا الصغرى الغربي . وسادسا



رأس من الرمز بطن انها تصور بربينكي اثناثية
 زوجة بطليموس الثالث .



رأس نينال من الرمز
 لبطليموس الثالث .

جديد كل العدة في سياسة مصر الخارجية .
ويبان ذلك أن مصر في عهد هذا الملك كانت
أول دولة هيلينستية أنشأت علاقات سياسية
مع روما ، ففي عام ٢٧٣ ق . م . أرسل
بطليموس الثاني بعثة إلى روما نجحت في
عقد اتفاق بين الدولتين . ويبدو أن هذا
العصل كان جزءاً من سياسة عامة اتجهها
بطليموس الثاني مع الدول الغربية ، إذ تنهص
الأداة على وجود علاقات قوية حوالي ذلك
الوقت بين مصر وسيراكوز العظيم دولة في
صقلية وكذلك بين مصر وقرطاجنة ومن
المحتمل أن المواقف التي أعلنت على بطليموس
الثاني سياسته الغربية كانت دوافع اقتصادية
قبل كل شيء لأن الأسواق الغربية كانت
تستطيع المساهمة بقد كبير في رخاء مملكته .

إن السياسة الخارجية التي وضع
بطليموس الأول أساسها وسار بطليموس
الثاني على نهجها أصبحت سياسة تقليدية
لدى ملوك البطالمة الأواخر . وآه ذلك أن
بطليموس الثالث أيضاً لم يتعد يرثي العرش
حتى وضع نصب عينيه تحقيق هذه الأهداف
نفسها والوصول بها إلى تسيبها المنطوية .
فلم يستمد فقط الممتلكات التي فديتها
مصر أيام أبيه على شواطئ آسيا الصغرى
الجنوبية والغربية بل أضاف إليها أملاكاً
أخرى على تلك الشواطئ . وكذلك على
شاطئ الدردنيل وفي غاليلوي وتراقيا . أما
العلة التي قام بها بطليموس الثالث حتى

سليوكيا على نهر الدجلة في مستهل حكمه —
عندما توفي بطيوخوس الثاني ملك سوريا
وتب خلفه غيتف بين زوجه الأولى
لاوديكس وزوجه الثانية برينيكس شقيقة ملك
مصر — فانها لم تكن إلا في سبيل نصرته
أخته والدفاع عن حقوق ابنها فهو لم يحاول
هذلك الاحتفاظ بالفتوحات التي تحصنت
عنها هذه العيلة كما أنه لم يحاول فيما بعد
استغلال الأزمات التي فطنت أوصل
امبراطورية الملبوكين لترسيخ رفته
امبراطوريته داخل آسيا ، مع أن الفرصة
كانت مواتية له إذ ذلك لا يتطاع ما يشاء من
الولايات الشرقية في تلك الامبراطورية .
ولا جرداً في أن امبراطورية البطالمة قد
وصلت في عهد بطليموس الثالث إلى أقصى
اتساعها ولا في أن هذه الامبراطورية كانت
امبراطورية بحرية . أما فكره تكوين
امبراطورية ماله فانها كانت بعيدة عن أذهان
البطالمة لأنها حتى لو كان من اليسر تحقيقها
فانه لم تكن من أنيسور المحافظة عليها .
وجملة القول إن بطليموس الثالث اتمى بدقة
خطوات أبيه في اتجاهات السياسة الخارجية
لحو الشمال والشرق والغرب .

٣ = بداية النهاية

وعندما ارتقى بطليموس الرابع عرش مصر
وتملق العنان لشهواته الجامعة ، اعتقد
أنطيوخوس الثالث إذ الفرصة قد سحبت
لسلب مصر جوف سوريا ، غير أنه عندما تها

لتحقيق ذلك ترك بطليموس عبثه وسحره
 وخبه للدفاع عن امراطوريته . ومن اجل
 ذلك «عاد تنضم الجيش واتدمج للمرة الاولى
 قواته المحاربة عددا كبيرا من المصريين
 درجم وسلحهم وفقا لأصون تنون الحرب
 الحديثة فكان لهم الفضل الأكبر في الإتصار
 في موقعة رفح في عام ٣١٧ ق . م . ولما كان
 جيش أطيوخوس يتكون من الإحصريق
 ولقنقوليين الذين كانوا يمشرون سادة
 فنون القتال في ذلك العصر ، فاز النصر الذي
 أوجهه المصريون في هذه المعركة وينض «ليلا
 عني أن الجسدي المصري لا ينقصه
 الا التدريب والسلاح لايات كفايته في ميدان
 القتال ، «عاد الى المصريين لتتم أنفسهم
 وحقهم على القيام في وجه حكامهم الغناه
 الذين أوسعهم ظلما وأرهاقا .

ويتضح مما أسلفناه انه كان للصياحة
 الفارسية التي ابعا البطالة الثلاثة الأوائل
 هذيان رئيسيان وهما : استقلال مصر
 استقلالاً تاماً سياسياً واقتصادياً ، والتمتع
 بأكبر قسط من السيطرة على عالم بحر ايجة .
 وقد نجح أولئك البطالة والتي حد بعد في
 تحقيق هدفين الهذليين ، وكان لسياسمستهم
 الخارجية أول الأمر جبهتان رئيسيتان
 احداهما في الشمال والأخرى في الشرق ثم
 أصبحت ثما جبهة ثالثة في الغرب . أما منذ
 منتصف عهد بطليموس الرابع فان مصر لم
 تعادل الا تحقيق الهدف الأول ، اذ أنها

اضطرت تدريجا الى طرح تحقيق الهدف
 الثاني جانبا ازاء ضغوط ثلاث قوى فنية وثابة
 وهي روما وجلبيلب الخامس وأطيوخوس
 الثالث ، ازاء الضغط الكامن في البطالة
 الأواخر وفي رحاتهم الذين التفت اليهم
 مقاليد التحكم ، ازاء الشهورات المصرية
 الضخمة التي كانت تكاد لا تنقطع منذ عودة
 المصريين مقربين من معركة رفح ، وأخيرا
 اراء الخلافات العنيفة بين أفراد أسرة البطالة
 منذ عهد بطليموس السادس .

فلا عجب ان اعمل المؤرخون على اعتبار
 موقعة رفح حدا فاصلا بين العهد الذي يلمت
 به دولة البطالة أقصى انبساطها وأوح مجدها ،
 والعهد الذي أخذت فيه عوامل السفس
 والاضمحلال تدب اليها حتى سقطت هيبتها
 وذهبت سطوتها لفقدت «ملاكها في الخارج
 وترزخ سلفاتها في الداخل ، وأصبحت
 تتناوبها الغزوات والثورات الى أن انتهى بها
 الأمر الى افول لجسما وزوال استقلالها .

قوال اميراطورية البطالة

وقد أثار مضافا مصر الكسباب
 أطيوخوس الثالث على لم شمل اميراطوريته
 وتوسيع رقعتها ، فسلت مصر على التقرب
 من مقدونيا وروما ؛ لكن اضطرابات مصر
 الداخلية وخوار عزيمة حكامها وقسادهم
 شجعت «صحاب المطامع ، أعداءها منهم
 والحلفاء ، فان جلبيلب الخامس ملك مقدونيا
 وسيديق مصر اتفق مع محسودها اللدود

أفطيخوس الثالث على إقسام ممتلكاتها الخارجية . وهكذا سرعان ما فقدت مصر ممتلكاتها الخارجية ولم يبق لها منها سوى قبرص وقرية . وقد أزعجت روما أطماع فيليب وفتيخوس ، ولذلك فأنها ما كادت تخرج في عام ٢٠٢ ق . م . متحصنة من صراعها مع قرطاجنة حتى اشتبكت مع فيليب ثم مع أفطيخوس وهزمتهما ، الأول في عام ١٩٧ والثاني في عام ١٨٩ ، وذلك بصحة الدفاع عن حرية الأفريق وأملاك بطليموس السلطوية .

٤ - وقد مهدت الأحداث السبيل أمام روما لبسط سلطانها الفعلي على مصر وإن احتفظت مصر باستقلالها الاسمي . ويسرى تطلن النفوذ الروماني في مصر الى مملتين : أحدهما الأخطار الخارجة التي استهدفت لها مصر ولا سيما من ناحية السيلوكيين فأنها ما كادت تخلص من مخاطر أفطيخوس الثالث حتى أقدم أفطيخوس الرابع على الاستيلاء على قبرص وغزو مصر نصفا مرتين ولم ينفذها من رايته إلا تدخل روما التي أرغضته على الانسحاب من مصر ورد قبرص اليها . والعامل الآخر هو استحكام النزاع بين بطليموس السادس وأبيه الأسمندر بطليموس السابع واتخاذهما روما فيصلا وحكما في هذا النزاع الدسوي الذي استنلته روما الى أقصى حد لتحقيق أغراضها . وبرغم هذه الأحداث الداخلية الجسيمة وكابوس

النفوذ الروماني القليل ، فإن مصر لم تنس جوف سوريا وحاولت مرارا استقلال الاضطرابات التي كانت تقطع أوصال امبراطورية السيلوكيين لاستعادة ذلك الجزء الضليل من ممتلكاتها السابقة ، لكنها باءت بالفشل . ولم تلبث أن فقدت أيضا برقة ، إذا أن بطليموس الثامن ابوارجيس الثاني كان قد نزل عنها لابنه غير الشرعي بطليموس فيون وهذا أورثها روما في عام ٩٩ ق . م .

٥ - صعود الموت

وحين بدأ محققا ان أسرة البطالمة مشرول في طرف سنين فلالتي كما زالت من قبلي أسرة السيلوكيين ، نشاء القدر أن تشرق شمس البطالمة من جديد اشراقا يعطف الأبرار قبل أن تنيب الي الأبد . وبيان ذلك أن أرطت عرش مصر بعدد غناه موهوبة تمكنت من استخدام قوة روما لتتبيذ أغراضها حتى كادت أن تيجني من وراء ذلك امبراطورية مانية . فقد سقطت كليوباترة أولا على يوليوس قيصر الي حد انه أصبح ملكا اله عندما يقبضه ملكا على روما سيمن زواجه منها رسميا فتشاركه سلطته الواسع . لكن ليلاء الرومان لم يلبثوا أن اجوزوا على آمان كليوباترة عضدهما "جوزوا على قيصر في عام ٤٤ ق . م .

ومع ذلك لم تلبث كليوباترة أن أوقعت في شباكها مارك أنطونيوس حين أصبح الحساكم المطلق في النصف الشرقي من

الامبراطورية الرومانية . وقد وضح
انطونيوس نفسه وكل ما يملك تحت امره
كليبتره ، فانه تزوجها وقبب بينها وبين
اولادها كل الولايات الرومانية في آسيا
ولما لم تنجح كليبتره بالنصب الشرعي
انعام الروماني فانها دعت انطونيوس لمنازلة
اوكتافيوس من اجل العور بالنصب الشرعي
ايضا وحكم العالم الروماني بجمعه . وهكذا
بدأ الكليبتره بعد عشر سنين من بسبب
احلامها بقتل قيصر انها أصبحت قاب
لوقس او دني من ان تصيح امبراطورة
العالم لكنه لم يكن مقصرا لها ان تعطي
احلامها فهدد اوكتافيوس تلك الاحلام
باتصاها في موقعة اكيروم (عام ٣١ ق. م)
ودخله الاسكندرية في العام التالي ونهضه
مصر الى حثيرة الامبراطورية الرومانية .

ولا بد من ان يسوق النظر فيما قدمناه
ان البطالة لم يولسوا الجبهة الجنوبية من
عنايتهم قدر ما اولاهم القراعة منذ اقدم
العصور . وقد كان ذلك مرا طبعا بالنسبة
لبطالة الاواصر الذين اكتنفتهم المخاض من
كل جانب حتى ثبتت حركتهم . فكيف لفسر
ذلك بالنسبة للبطالة الفاتحين ملوك الأسرة
الأوائل ؟ قسمد مرفسا ان البطالة الأوائل
اصرفوا بوجه عام الى تكوين امبراطورية
بحرية حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط
الشرقية مدفوعين الى ذلك بمدة عوامل أهمها
خزوف النضال مع خلفه الاسكندر الأكبر

على اقتسام الامبراطورية المقدونية ، وطبيعة
صلام ونشأتهم ، وما بينهم وبين الاغريق
من الوشائج حتى انهم جعلوا اعتمادهم على
الاغريق في تشييد صرح دولتهم ، وتقديرهم
ان امراطوريه تتألف من تقاليم تمت بصلة الى
الحضارة الاغريقية وتقع بالقرب من مراكز
هذه الحضارة تكوّن ابنى على الدهر واجدى
عليهم وغير نصير لهم في تحقيق ما كانوا
يهدفون اليه من لعب الدور الأول في سياسة
البحر الأبيض المتوسط الدولية .

ولا بد في ان البطالة قد استمروا ان
مكائهم الدولية - في صالمة تعتبر في
الحضارة الاغريقية ارفع الحضارات طرا -
كاتب تنوفته الى حد كبير على ظهورهم في
نوب رافعي لواء الحضارة الاغريقية بطلع
مسحة ولو ظاهريه من هذه الحضارة على
دولتهم . واذا تصوروا ان ذلك كان اسرا
ميمسورا فيما يخص مصر فيبدو المهم اعتقدوا
انه كان شربا من المحال فيما يخص كل
وادي النيل . ولعل البطالة ان يتكولوا قد
دعروا ان تحقيق وحدة وادي النيل كان
من الممكن ان يحصل في طياته خطرا داهما
عليهم باصبارهم ملوكا افريقيا اخرجوا من اقل
تتكميرهم بما دولة قومية وذلك لان وحدة
الوادي ما تطوى عليه من اعياء سسمية
القراعة العظام ومجد وادي النيل القديم قد
تغضى الى بحث امة وادي النيل من جديد ،
فيتلاشى في ارجاء بلادها القبيصة رسل
الحضارة الاغريقية ولا يقبث ان يرتقى فرعون

في هذا التقدير ، فمن ناحية كلهم انشاء هذه
الامبراطورية جودا مضنية وأمورا ملائمة
ودفعهم الى ممالاة الاغريق على حساب
المصريين واستنزاف موارد البلاد واستارة
عداه الكثيرين عليهم .

ومن ناحية اخرى عندما اشبهت ساعد
منافسهم وأخذت روما تتع باطراد في شرق
البحر المتوسط فقد البطالة امبراطورهم
البحرية ولم يبدوا في داخل دولتهم عطسا
كاليا حتى للاحتفاظ بملكهم من السدوان
الخارجي ، وهكذا استنفذ البطالة
قوتهم واضاعوا الرومهم فالتهمت روما دولتهم.

ولم يتركوا وادي النيل . ومن ثم فقد البطالة
بوجه عام اكتفوا بالمحافظة على سلامة حدود
مصر الجنوبية وعقد أواصر الصداقة مع
جنوب الوندان والاهتمام بتجارة الجنوب
والشرق .

ويتضح فذن من كل ما مر بنا انه ازاء
الطسروف التي اكتسفت البطالة اضلت
سياستهم الخارجية وجهات جديدة صوب
الشمال والشرق والغرب ، فقد قدروا انه كان
يمكنهم الامتناء عن وحدة وادي النيل
بامبراطوريتهم البحرية وبالعلاقات التجارية
التي اتساوها مع الغرب وكذلك مع الجنوب
والشرق ، لكن بين ان التوفيق قد اخطاهم

الفصل الثاني - إدارة الحكم

السلطة المركزية - المبدن الاغريقية - السلطة المحلية - قوات البطالة

١٠٤ - السلطة المركزية

١ - الملك

من بطاقته التي كوز أفرادها على مضي الزمن بلائلا يتقسم طبقات يميز كثر منها عن الآخر القاب معرية . ولذا كان أول هم للملك هو أن تفيض عليه خبصه بالبركات ، فقد كان يرى المالية أحقر مساعدي الملك شالا وأوسعهم نفوذا الى حد أنه كان يتكاد يسيطر ببطرة تامة على كل لواحي الحياة العامة في البلاد . وكان هذا الوزير العطر يدعى ديوبيكسوس Dyoikason . وهو لقب يحصل معنى « مدير الصبغة » ؛ ولذلك ينفذه العلماء دلالة واضحة على أن البطالة كانوا يسيرون مصر شيختهم الخاصة .

وليضمن الملك استمرار الضعيرات من ضبته كان يجب أن يولي اهتمامه لتصرف اعدادة حتى يستتب الأمن وينصرف الناس الى مزاولة أعمالهم ، ولذلك كان الموظف الكبير الذي يدعى أرخبسديكاستس Archidicason ، ومناه كبير اقتصاد يعبر المساعد الثاني للملك .

وعلى عهد البطانة الأرواكي الذين وجوا هذبة كبيرة الى النهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها على نحو لم يسبق له مثل كان يوجد وزير للأشغال Architecron

منذ المنصر بطلمبوس الأول على يرديكاس اعتبر البطانة مصر ضبة آلت اليهم بحق الفتح ، لكن لكي يكون سلطانهم بالمسا وبيادتهم راسعة استغلوا المعتقد الدينية السائدة بين رعياهم ونصبوا أنفسهم آمنة لهم ، وبذلك أصبح سلطانهم لا يمتد الى حق الفتح بحسب بل أيضا الى حق الملوك الاثني ، خلا عجب أن الملك بطلمبوس كان يشر صاحب مصر وسيد رعيته المطلق . فقد كان على رأس الأداة الحكومية وتبجر القضاء والقائد الأعلى للجيش والأسطول ومصدر الفرائض التي يصعب لها جبع سكان البلاد والديارات التي يعيش لى كنفها المبدن الاغريقية وكذلك الجاليات الأجنبية التي تكونت خارج تلك المبدن .

٢ - الوزراء

ولما كان يتعدر على الملك أنه يشار بنفسه لكل السلطات التي يتبع بها فانه كان يعتمد على مساعده عدد من الشخصيات الكبيرة . وكان الملك يختار أغلب مساعديه الرئيسيين

المعقدة . وإذا كان التوفيق قد حالف هذه
الأداة الحكومية على عهد البطالة الأوائل
فإنها فسدت في النصف الثاني من عصر البطالة
وتصبح كل هذا ارهاق الأهالي وابتزاز
أموالهم . غير أن مرد ذلك ليس إلى عيوب في
تصميم الأداة الحكومية بقاها وإنما إلى
الظروف التي كانت تعمل فيها والأهداف التي
وجهت إليها .

إانيا - المدن الأخرية

وقد كانت في مصر البطالية ثلاث مدن
أخرية ، وهي الإسكندرية وقرطاج
وبطوليس . وبالرغم من إنشاء هذه المدن في
سماكة بقوه على رأسها ملك مستمد مطلق
السلطة ، ووسط مدن مصرية تخضع لهذا
الملك وموطنه خصوصا تماما وليس لها أي
رأي في حكم نفسها ، فإن المدن الأخرية وإن
شاركت المدن المصرية في خضوعها لملك
وذلك بوصفه الها لأنه لم يكن لسلطان الآلهة
حد ، وفقدت بها لذلك سيادتها ، فإنها لم
تفقد حق إدارة نفسها بنفسها ، أو بمساعدة
آخرى حق نفسها باستقلال ذاتي يعطى
مواطنيها حق حكم أنفسهم .

وعد كان هذا الاستقلال الذاتي مهم
وإن بسبب المدينة الأخرية عن أندية المصرية
والمواطن الأخرية عن المواطن المصري ، فقد
كان الأخرية يرى أنه يعيش في مدن ويشترك
في حكم الجماعة التي ينتمي إليها ، أما المصري
والمصري من القرين فإنهم في نظرهم كانوا

كانت مهمته تحسين نظم الري وصيانة وسائله
ويرجع أنه كان يوجد كذلك وزير للحرب
يقوم بالإشراف على تجنيد الجيوش ودفع
مربيات الجنود ومنح الاقتاعات .

ولا كان الملك مصدر جميع السلطات
والمرجع الأول والأخير في تنفيذ القوانين .
تستمد منه السلطات المركزية والمحلية نفوذا
وإليه شخصيا كان يتوجه فيس السكواوي
والانتسابات ومنه شخصيا كان يصدر سبل
من الأوامر ، فقد كانت له سكريرية خاصة
كانت تنقسم قسمين يختص أحدهما بشؤون
مراسلات الملك ، ويختص القسم الآخر
بالأوامر ولها بطن أيضا بالتوقيع على
السكواوي المرفوعة إلى الملك .

وعطية العال كان يصدر على الملك
وسكريرته وورائه النهوض بشؤون حكم
وطعت له نظم دقيمه معقدة في بلاد غيبه
تتحصرة دون الاستعانة ببيتة كبيرة من
الموظفين المدربين . ويعبر من أهم أعمال
البطانة إيجابهم في إنشاء هذه الأداة
الحكومية الدسقة في بلد أجنبي من مصر
ثم لتواظف فيها المؤهلات اللازمة مثل هذا
الصل . ولا ثبات في هذه الأداة الحكومية
كانت إلى حد ما من تراث الماضي لكنها غدت
في مجموعها أداة أجنبية منسقة تنظيميا دقيه
ويتألف رؤسائها ومدبرو مصالحها المختلفة
وتساعها المتصددة من فريق لم يسلمهم
ماضيهم للاضطلاع بسبل هذه الأعمال .

الإسكندر قد أنشأها في خلال حملته . ولعل الإسكندر أن يكون قد توسى من وراء تشيد الإسكندرية ثلاثة أهداف : أحدها إنشاء مدينة أفريقية تكون مصدرا لاشعاع الحضارة الأفريقية بين دبرج مصر ، وثانيها أن تخلف هذه المدينة سور في العالم التجاري ولا سيما أن مصر يرغم ازدياد علاقتها مع العالم الأفريقي ازديادا مطردا لم يكن لها على سواضه البحر الأبيض المتوسط ميناء جدير بها ، وثالثها إقامة قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر ابجه وشرق البحر الأبيض المتوسط .

وقد جهل بطليموس الأول مقره في سنة الى أن اطلأن ، بعد انتصاره في عام ٣١٢ على ديستريوس . الى قدرته على الدفاع عن سواضه مصر الشماليه . وعندئذ نقل مقره الى الإسكندرية انى أصبحت منذ ذلك الوقت مقر البلاط وعاصمة مصر . وسرعان ما عذب الإسكندرية أكبر مدينة أفريقية في العالم تعوق في انشائها أكبر المدن الأفريقية العديده ؛ وغذب كذلك في منبته مواسم الحضارة الأفريقية وثلاث سحنطقة بسكان الصدارة طوال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد الى حد أن حضاراه هذين القرنين عثرت باسم حضارة الإسكندرية . وإذا كان ما كتشفته الحفريات عنه لا يمكن أن تصور حقيقة ما كانت عليه هذه المدينة في عصرها الزاهر ، لأن أكثر معالم المدينة

لا يعيشون الا في قرى لأنه مها كان اشعاع مواضعهم ومنها جاورت هذه المواطن المدن الأفريقية فانها لم تتمتع بأى نوع من أنواع الاستقلال وانما كانت تخضع لأي حاكم موافد من قبل السلطة المركزية . وإذا كان إنشاء المدن الأفريقية في مصر لم يؤد الى أى تأثير في نظم المدي أمصرية فان نظم هذه المدن الأفريقية كذلك لم تتأثر نتيجة لوجودها الى جانب المدن المصرية . وإذا قيل أن مدن مصر الأفريقية لم تكن دولا ذات سيادة فانه يمكن الرد بأن ذلك لم يكن خاصة انحدت بهر مدن مصر الأفريقية فقد كان أيضا شأن كافة المدن الأفريقية التي قامت في الممالك التي اشتمت على امراض الامبراطورية المقدونية .

وقد كان إنشاء المدن الأفريقية في مصر أمرا ضروريا ، لأن الأفريق تسبعوا بالفكرة القائلة بأن المدينة هي المنبأ الأساسية لحياتهم العامة ؛ والنظام الطبيعي الوحيد الذي يستطيع أن يعيش في كنفه الرجال الأحرار ، لأن نظم المدينة الحرة كانت تكفل لمواطنيها حرية القول والرأى والمبل وتبيح لهم المشاركة في ادارة دفة شؤونها وتوفر لهم من أسباب الحياة ما هو خليلق بالسان يعثره نفسه وجدير بالاستمتاع بحياته . فلأجيب أن كان الأفريق ينشون مدينة لأنفسهم ميثما نزلوا في مكان وانغذوه مستقرا دائما لهم .

١ - الإسكندرية

وهي أول مدينة تعرف عن يقين ان

الى الشاطئ ، يصبح للمدينة مرفأان على
البحر ، هما الميناء الكبير والميناء القوي .
وكان يمكن استخدام أيهما بما لهبوب الريح .

وقد وضع تخطيط الاسكندرية المهندس
ازروديسى دنيوكراتس وفقا لأحدث قواعد
في تخطيط المدن . وكانت المدينة مستطيلة
الشكل يمتد جانباها الضوعلان في موازاة
البحر من ناحية وبعيرة مربوط من ناحية
أخرى . وكانت تنشق المدينة شوارع تقاطع
عموديا مع بعضها بعضا موازيه بوجه عام
التابعين الرئيسيين فيها ، وكان أحدها يمد
من باب كالموب (أبو قهر) في الشمال الشرقي
الى باب القرب في الجنوب الغربي . أما
الأخر فكان يجرى من باب الشمس غنم
بعده مريوط في الجنوب الشرقي الى باب
الشر شرقي جسر الهيناستاديوم الذي انشأه
أربط جزيرة فاروس بالبر .

وقد كانت المدينة تتألف من حصص أحياء
مطلق على كل منها اسم حرف من حروف
الهجاء الإغريقية الخمسة الأولى ، وكان أهم
هذه الأحياء جبيط هو حي القصور الملكية
وكان يغلظ ربع مساحة المدينة . ولظلتها تقريبا
ويظل على الميناء الكبير ويمتد حتى شارع
كالموب ويحتوي أهم معالم العاصمة ، فقد
كانت توجد فيه القصور الملكية ودار المعلم
والمكتبة والجينازيوم والمحكمة ومدافن
الاسكندر الأكبر : بالعائلة . أما مضممار

التعدية لا يزال مطبورا تحت مباني المدينة
الحديثة فالتا نستطيع ان نتبين ما كتبه
تعماره القرن الثالث منهم كانوا يعثرونها
أعظم مدينة في العالم حيث تتوافر كل نعم
الحياة ومباحها . وحسب أن نستشهد بما
أوردته هيروداس Histories على لسان
امرأة مجوز تحدثت الي شابة وحصل عنها
روجا الي الاسكندرية : لقد انفضت
عشرة شعور مند صافر مائديس Metastasis
الي مصر لكنه لم يرسل اليك كلمة واحدة .
ولاشك في أنه قد لسلك وانهل من سبغ
سرور آخر مصر (يقصد الاسكندرية)
هناك حيث يوجد بمبه الالهة (ارسنوى)
وكل شيء يمكن وجوده في أي مكان آخر ؛
ثم دملاب وسجد وراحه اعظمه ومباح
وفلاسفة وأهلب وشبان وملك كريم ودار
اعظم وخمر وكل الأشياء الطيبة التي يمكن ان
تتولى اليها النفس ، ولما يفتن في عدوهن
ويضارعن في جمالهن الإلهات اللاتي احتسبن
الي باريس .

ويبدو ان الاسكندر قد احتسار المكان
الذي شيدت عليه الاسكندرية لبعده عن
رواسب فرع النيل الكانويين : وسهولة
وصول مياه الشرب اليه وقرب بحيرة مريوط
وجزيرة فاروس من ، فقد كانت البحيرة
تتصل بالنيل ونهى للمدينة ميناء يربطها
بداخية البلاد ، كما أنه يمد جسر من الجزيرة

سباق الخيل وساحة الألعاب فاضحا كانا يمتدان
في أطراف المدينة ، أولهما في الناحية الشرقية
وثانيهما في الناحية الجنوبية الغربية ، في حي
راكوتيس حيث أقيم معبد اليرياموم .

وفي مواجهة حي القصور المكتبة وعلى
صخرة شرقي جزيرة فاروس شيدت منارة
الاسكندرية المشهورة التي كانت إحدى
عجائب العالم القديم ، ورغم الدمار معالم
هذا البناء الدامع مثل عدة فروع فانه بفضل
تألق الأبحاث الحديثة نستطيع أن نكون
مفكرة تكاد أن تكون فامة عن هذه المنارة ،
ولقد كان يربط الجزيرة بصخرة للنار جسر
مائل يرتفع رويدا رويدا ويقوم على ستة
عشر فرسا ويبلغ طوله ٦٨ مترا تقريبا ، وشيد
حول القسم الأول من المنارة ، لعمارة من
طينان البحر ، سور ضخيم يبدو انه كان يحيط
بكل جوانبه من الخارج فربما لا يشرف
عرضه ، وفي الوسط داخل هذا السور أقيمت
المنارة نفسها ، وكانت تتألف من ثلاثة أقسام
يطولها المصباح . وكان القسم الأول رباعي
والثاني تساهي والثالث اسطوانى الشكل .
أما المصباح فانه كان يتكون من ثمانية أعمدة
تطبقا فية أفهم عليها تتألف يلفح ارتفاعه
ثمانية أمتار تقريبا ، ويجمع أنه كان تتشال
بوسيدون اله البحار . وقد بنيت المنارة من
الحجر وزخرفت بلوحات منحوتة من المرمر
والبرونز .

وإذا كان كليومينس القراطيسى هو أول

من بدأ في تسييد الاسكندرية فانه كان
ابطليموس الأول والثاني أكبر نصيب في ذلك
حتى ليبدو أنه في عهد بطليموس الثاني كانت
المدينة قد استكملت أهم المعالم التي
اشتهرت بها في عصر البطالة والرومان . ومع
ذلك فان كل البطلة تقريبا قد أمجموا في
تجميل الاسكندرية .

ولم يتألف سكان الاسكندرية منذ فجر
تاريخها من الأهلين والمقدولين فقط ، الا أن
هذه المدينة بناؤها فيها من أسباب الكسب
والحياة البهيجة الرخدة يوصفها عاصمة البطالة
ولمراهما وركزا صناعيا كبيرا جذبت اليها
الناس من كل فج وغانا سكانها سريرا خليطا
عجيبا من مختلفه الأمم مما جعل استرابون
صفها بأنها « خزان عالم » . وإذا كان من
الصعب تتبع ما سر يسكان الاسكندرية من
تطورات فانه يسكن الجزم على الأقل
بأمرين : أحدهما أنهم كانوا مجموعة جاليات
من أجناس مختلفة يستمتع بعضها بقدر من
الاستقلال الذاتي ، ولعل هذا هو ما حدا
بالفيلسوف لبلون الى القول بأن الاسكندرية
« عدة مدن داخل مدينة واحدة » ، والإمبر
الأخر أهم كانوا ينقسمون دائما طبقات ثلثي
في مقدمتها : طبقة المواطنين ، وكانت تتألف
من أفراد أقدم الأسر الاغريقية وأعظمها
شأنا ، وكانوا يستعصون بحقوق المواطنة
كاملة . ومثل ما كانت الحال في أكثر المدن
الاغريقية كان المواطنين ينقسمون قبائل
وأحياء ووحدات .



لوحة من العسفسفة وجدت في الملكة والآن في متحف الاسكندرية ، وهي تصور الاسكندرية
بوصفها سبطه البحار . ولد ميوزس الاسكندرية في شكل سبعة فرقة خاصة بحرية وتزين رأسها
بقناع بحري وتساك في يدها اليسرى زينة مزخر سبعة .

والرأي السائد اليوم أنه في عهد البطلة
الأوائل كان لبطلة المواطنين مجلس للشورى
Boulé وجمعية شعبية ، لكن يبدو أنه في
عهد أحمد البطلة الأواخر أُلغيت هاتان
المنظمتان التان كانتا تعتبران من أهم مظاهر
الحيوة العامة في المدن الأفريقية . ولما كانت
الاسكندرية تتسع باستقلالها الذاتي وكان
الاستقلال السياسي ينتبع حتما وجود
استقلال قضائي ، فإنه كانت للاسكندرية
محاكم مستقلة . وبوصف الاسكندرية مدينة
مستقلة كان لها حكامها المحليون الذين
يتخيم أفراد طبقة المواطنين

٢ - نقرطيس

أما نقرطيس ، تلك المدينة الأفريقية
التي تأسست في عهد إسبنيك الأول
فالها كانت شديدة الثقب في مظهرها الخارجي
بأي بلد مصري . فقد كانت تتألف من بيوت
مبنية من اللبن على جراب شبكة معدة من
الفوارع واليازقة . تكن نقرطيس متسرة
الاسكندرية و بطوليس كانت تختلف عن
المدن المصرية اختلافا ينافي الناحية المياسية
أو أن مدنى مصر الأفريقية لم تخضع للسلطة
المعطية ، وإن لكل مدينة منها كتابها المنفل
ودستورها الذي يكفل مواطنيها حقساموا
سياسية تمكنهم من الاستعداد السلطة المركزية
ومثلها . وتسير القراني الى أن نقرطيس قد
احتفظت في عصر البطالة بنظمها بوصفها

مدينة أفريقية حرة . ويسود الاعتماد أن
دستورها كان يشبه دستور مسيليا Masilia
ويشار بمجلس نقرطيس . وقد كان طبيعا
أن تتضام أهمية نقرطيس التجارية بمسند
تأسيس الاسكندرية لكن مخطاها الأثرية
تدل على أنها كانت لا تزال مزدهرة في عصر
البطالة الذي احتفظت فيه كذلك بثقافتها
الأفريقية وأصبحت عندها من أبرز رجال الأدب
الأفريقي .

٣ - بطوليس

أما بطوليس التي أنشأها بطنيبوس
الأول غربى النيل في أقاصى الصحراء
(المنشأ بالقرب من أحميم) لتكون مهبطا
للحضارة الأفريقية له الوجه القبلى ومركزا
لثقافته تعرف العاصمة المصرية القديمة حية .
فقد دعا إليها الرمس الى حد أنه يتمر عدنا
الجبرم إذا كانت نفسه نقرطيس
أو الاسكندرية ، وإن كان الأرجح أن
مهندس بطوليس الأول انحصروا من
الاسكندرية لبروزها يحتدونه في تشييدها
بطوليس .

ولا تدع الوثائق سبيلا الى الضمك في أن
بطوليس كانت تسم بكل النظم الدستورية
المألوفة في المدن الأفريقية ، فقد كان لها
مجلس شمسورى وجمعية شعبية ومحاكم
مستقلة وحكام يتخيم هيئة المواطنين . وكان
المواطنون ينقسمون قبائل وأحباء ووحدات
وينتازر لديهم ما كانوا ينتمون به في بلادهم
الأصلية من العباد والمعاهد والمسارح .

ويجدر بالملاحظة أولا أن مديرية النجوم وكان لنا سكانها من الإغريق ، فد اختصها البطالمة بحكم لم تعرفها بقى اندريان ، إذ كانت تنقسم ثلاثة أقسام Mercedes على رأس كل قسم منها إيمتاس . وحوالي منتصف القرن الثالث فست الأسماء إلى لوماوجيات ، والنوماوجيات إلى إقليم . والأقاليم إلى قرى . وثانيا أن المنطقة المسماة من الحدود الجنوبية لمديرية هرموبوتيس حتى أسواز كانت تعرف باسم سطقة طيبة ، وأما منذ عهد بطلموس الخامس وصحت تحت سلطة حاكم عام ، وذلك فضلا عن تعميمها إلى عدة مديريات أسندت إدارتها إلى عدد من المفولا كان لكل منهم نائبه على رأس كل مديرية تقع في دائرة اختصاصه . وثالثا ، أن بطلموس الخامس ذهب إلى حد إقامة حاكم عام على كل أعالي مصر بسبب ما ساد البلاد من اضطراب . ومرد القضاء الإداري الذي انفردت به منطقة طيبة ويزيد فيه القيود والضوابط إلى الشرائع القومية التي اندلع ليهيما على عهد البطالمة الأواخر وكانت مدينة طيبة أهم محالها .

رابعا - قوائم البطالمة

١ - الجيش

عرفنا أن مصر كانت جزءا من امبراطورية الاسكندر التي اقتسمها قواده بعد وفاته ، وأن بعض هؤلاء القواد أردوا بسط سلطانهم على الولايات الأخرى ليعتوا تلك

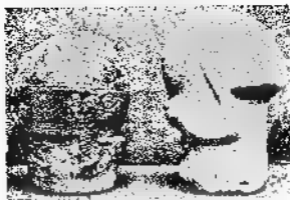
أخذ البطالمة من الفرمانات نظام تقسيم البلاد إلى مديريات ، فقسوا الدلتا ووادي النيل - قريبا عدة المناطق التي خصصت للمعدن الإغريقية - إلى مديريات ، كان لكل منها رؤس وحدة إدارية منفصلة عن الأخرى واستحدثت البطالمة من التعديلات إلى التفاصيل ما يضمن لهم حسن تطبيق هذا النظام والسيطرة على البلاد سيطرة تامة . ومن أمثلة ذلك انه حتى انتزع المشبولي كان يحكم كل مديرية مدير Nomesch لكن البطالمة لم يشعروا أن اختروا كل مديرية منظمة عسكرية يسيطر عليها قائد Strategos جنبي ومدير . ولما كان من اختصاص القائد الأشراف على شؤون المنطقة العسكرية ، المدينة جديدا ، فقد أصبح المدير حربا لتقائد وتضامات اسمه على لم يعد له في القرن الثاني قبل الميلاد نصيب في الإدارة .

وكانت كل مديرية تنقسم إلى وحدات متفاوتة من الأقاليم . وكما كان لكل مديرية عاصمتها كذلك كان لكل إقليم عاصمة حيث تتركز إدارته ، وكان كل إقليم ينقسم إلى وحدات من القرى Nomos ، كان لكل منها حاكمها الإداري epistates وممثل الإدارة المالية . وكان يشترك في إدارة شؤون القرية جماعة من شيوخها كانوا يعرفون في خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد باسم شيوخ الزراعين أو شيوخ مزارعي الملك .

الامراطورية من جديد ، وأن بطليموس
الأول كان يئسد الاستقلال بمصر وساء دولة
هوية عية فيها . ولذلك رأى هذا العاهل
ضرورة تكوين جيش وأسطول قويين يسكنانه
من الفود عن حياض مملكته ومن تحقيق
اهدافه الخارجية .

وقد انعذ بطليموس من القوات التي
كان الاسكندر قد تركها في مصر مائة لنباء
قوات كرم من ذلك واعظم . واداكنا لا نعرف
كيفية تكوين الجيش البطلمي فلما نعرف على
الأقل انه سد ما تم تكويته كان يتألف من
ثلاث فئات رئيسية وهى : الفرق السطامية
والفرق المرتزة والفرق المصرية . وتسيير
القراين الى أن اكثر أفراد الفرق السطامية
كانوا يبندون من مختلف أنحاء شبه جزيرة
البلقان وجزر بحر ايجه . ومع ذلك فان هذه
الفرق كانت تشفى مقدونية بسبب انها
كانت في الأصل كذلك . وبسبب اعتزاز
البطالمة بأصلهم المقدوني ، ولا سيما ان
الجيش كان يعتبر قبل كل شيء جيش الملك
بطليموس . وتدل الوثائق على أن الفرق
النظامية كانت قسامين وهما فرق الفرسان
وفرق المشاة ؛ وعلى أن فرق الفرسان كانت
مرتبين : أولا همسا ارفع مكانة من الثانية .
وقد كانت فرق المرتبة الأولى تميز بالأرقام ؛
أما فرق المرتبة الثانية فلها كانت تميز بحسب
جنسية أفرادها . وكانت فرق المشاة النظامية
تتميز بالأرقام وتعتبر اقل مرتبة من فرق

الفرسان النظامية وتكون قلب الجيش الى
ما قبل معركة رفح في عام ٢١٧ ق . م .
وكان الفرق المرتزة في جيوش
الاسكندر وخلفائه فتيين رئيسيتين . أما الفئة
الأولى فتشمل تلك الفرق القومية التي كانت
يتمسك في الجيش الذي تنسب اليه بملابسها
وأسلحتها القومية وتدمج في ذلك الجيش
بسبب نوع السلاح الذي اشتهرت به ،
وكان هذه الفئة تكون فرق مشاة خفيفة
العدة وتعرف أحيانا باسم سلاحها وأحيانا
باسم جيتها وأحيانا بالأسماء معا . أما
الفئة الثانية فلها كانت تكون من فولانك
الحدود المرتزة الذين كان يعدهم ضباط
مرتزة أما من بين مواطنهم وأما من أسواق
اليهود المروية في العالم الاغريقي . وكان
سكن استخدام جنود هذه الفئة مشاة
أو فرسانا . وإذا كان العنود المرتزة
لا يتقاعدون في الأصل الا على القيام بعمل
واحدة ضد العدو معين فإنه فيما يبدو أصبح
بعض العنود المرتزة يكرهون فرقا دائمة
خدمت البطالمة .
وحيث وقد بطليموس على مصر وأخذ
شيد فيها مسرح مملكته كانت لا تزال توحد
تلك القسمة الوراثية من المعاديين المصريين .
ومن ناحية أخرى كانت تحت امره مناصي
البطالمة جيوش أساطيل مؤلفة من خمسة
جنود العصر وأعلى القديولين والأغريق ،
الذين أثبتت حملات الاسكندر وخلفائه



نموذجان من الحجر الجيري للحسبونات القديمة من طبقات بين اطلال سد
(ميثريهبة) حيث زودت نماذج مماثلة كثيرة .



جزء من الخوذة التي توجد في السارد من العمارة العليا - لاحظ تفاصيل الزخرفة -

جيش أنطيوخوس المؤلف من الألبانيين
والمقدونيين أشعل دوح الوطنية الكامن في
صدر المصريين وأعاد اليهم الثقة بأنفسهم
فانتفضوا ثأرين على البطالة .

وإذا كان المصريون قد أحجوا في صلب
الجيش على عهد بطلمبوس الرابع فانهم كانوا
يؤلفون فرقا مستقلة بهم واستحبوا يتكونون
جزءا مستقلا من الجيش حتى نهاية أسرة
البطالة ليسا يبدو . ولا بد من أن ثورات
المصريين على البطالة الأواخر قد جعلت هؤلاء
البطالة يسعون على بدء بطلمبوس الرابع ،
وذلك لأنهم لم يشهدوا لاية على المصريين في
تكوين قلب الجيش ، لكنهم لم يجرأوا على
إخراج المصريين من الجيش .

٢ - الأسطول

لما كان البطالة الأوائل قد بنوا امبراطورية
بحرية واسعة وأحرزوا انتصارات بحرية
كبيرة ، فلا سبيل الى الشك في أنه كان لهم
أسطول بحري قوى ، لكن ليست لدينا
معلومات عن كيفية تكوين هذا الأسطول
ولا عن قوته في اليهود المختلفة .

وعلى كل حال يجب أن تصرق بين
مصريين من رجاله الأسطول وهما : عنصر
المجذلين وعنصر المصريين . وحبث ان بحارة
الإساطيل القديمة كانوا يتألفون من أفري
طلمات المسكان ، وان البطالة وضعوا المصريين
في أسسفل الدرك ، فلا بد من أن بحارة
الأسطول البطلمي كانوا يتألفون من المصريين
وهذا هو ما تؤكد الوثائق . ولما كان البطالة
الأوائل قد وضعوا جل اعتمادهم على
المقدونيين والأفريق في تكوين قواتهم البرية
فلا بد من أنهم فعلوا الشيء نفسه في تكوين

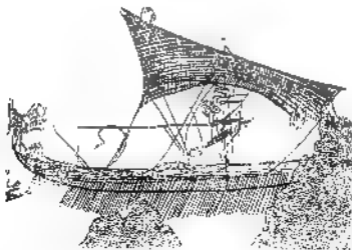
تقومهم على محاربين منازرين كالفرس . فإذا
ضلت البطالة ؟ لا شك في أن البطالة الثلاثة
الأوائل اعتمدوا الى أقصى حد في تكوين
جيشهم على المقدونيين والأفريق لتقتهم
كغايهم ، ولخوفهم من الا يخلص المصريون
الطاعة لهم ، ولرغبتهم في عدم استئناس همة
المصريين وانعاش روحهم القومية ، فالحجيش
في كل دولة وفي كل عصر قلب الأمة النابض ،
لكن لا بد من أن أولئك البطالة كانوا يفتشون
أيضا أطفال أمر الجنود المصريين كلب ، وذلك
لكيلا ينشر أولئك الجنود روح النذير في
البلاد . تكهن حل البطالة الأوائل هذه
المسكلة ؟ بين ان البطالة الثلاثة الأوائل لم
يسمحوا للمصريين المصرية لكنهم كانوا
لا يعتمدون عليها في القتال بل يهدون الى
بعضها بأعمال النقل وما أشبه ذلك من الأعمال
الثاقبة ويسلحون بعضها الآخر بالأسلحة
انجليزية او باستلعتها المصرية العتيبة استمدادا
للطوارئ في حالة الضرورة القصوى ، الى
أن تهددت بطلمبوس الرابع أزمة خطيرة في
وقت غضب فيه بين الرجا في بلاد الأفريق ،
وتمس له عدد الجنود الأجانب الذين كان
البطالة قد أنزلوهم في مصر ، فاضطر
بطلمبوس الرابع ، لواجهة هذه الأزمة ، الى
تدريب المصريين وتليحهم شمل الأفريق
والمقدونيين وتكوين قلب الجيش منهم .
ويحدثنا يوليوس بأن ما فعله بطلمبوس
الرابع كان عملا صائبا فيما يخص العناصر
لكنه كان بدءا خطيرة تهدد المستقبل .
ووصف عمل بطلمبوس الرابع بأنه بدءة
يبدل على أنه لم يسبقه الى ذلك أحد من
البطالة . والخطر الكامن في هذه البدءة هو
ان انتصار المصريين في معركة رفع على قلب

قواتهم البحرية ، اذ لا يعقل الا بعقد أولئك البطالة على المصريين في تكوين قواتهم البرية ثم يعتمدون عليهم في تكوين البحرية .
وعندما أُمسح البطالة المصريين في مطب الجيش منذ عهد بطليموس الرابع ، لا يعد أنهم فعلوا ذلك أيضا في الأسطول . ومع ذلك فاننا نعتقد أنه كما كان الحال في الجيش ، كان أكثر جنود البطالة البحرين وأرضهم .
مقاما ، حتى بعد عهد بطليموس الرابع ، من الأهريق ومن على شاكلتهم .

٣ = الشرطة

ويبدو أنه في القرن الثالث كلف الضباط وأرفع رجال الشرطة مقاما من الأهريق ، ثم أُنسحب مسخوفهم تدريجا للمصريين . أما رجال الشرطة الماهيون فانهم كانوا في الغالب من المصريين منذ القرن الثالث ، وكان رجال الشرطة المصريون يصنعون اقطاعات متواضعة منذ بداية الأمر ، أما غير المصريين فانهم كانوا يشتعون مرتبات ، لكن يبدو أنه منشى الزمن أخذ يشجع نظام منح اقطاعات لرجال الشرطة حتى تشملهم جميعا ، سواء أكانوا مصريين أم غير مصريين .

وكان رجال الشرطة يتصلون بالجيش اتصالا وثيقا ، اذ أنه منذ القرن الثالث كان يوجد بين رجال الشرطة معارون مصريون ، ومنذ القرن الثاني كان رجسالة الشرطة مساهمون في تكوين القوات المعاربة .
ويمكن تصبب رجال الشرطة بوجه عام



هذه صورة إحدى سفن ثلاث شعلها شمس في جسد أو منزله ديونيزوس من ديولوس ، والصورة تمثل سفينة حربية أفريقية مما كانت تنخر عباب بحر إيجس في أواخر العصر الهيلينستي .

الفصل الثالث - سياسة البطالة الدينية

أن بطليموس الأول قد حمل بعض الفساح الفراعنة التنفيذية ، وأن بطليموس الثاني والثالث قد حملوا عبثاً الألقاب جميعاً . ويستخلص من الفرار الذي أصدره الكهنة في منف غضب موفعة رفع أن بطليموس الرابع قد ذهب إلى صدى أبعد من أسلافه في التشبه بالفراعنة ، فهو أم يكتمه بحمل كافة ألقاب الفراعنة التقليدية بل أنه تخرج أيضاً على نهج الفراعنة القدماء ، فكان بذلك أول ملك من ملوك البطالة اتخذ صفات الفراعنة كاملة . وقد كان طيبياً أن يفتنى سائر البطالة المتأخرين ثم بطليموس الرابع لأنهم كانوا جميعاً ملوكاً ضالماً ويميلون على سلالاة المصريين .

٢ - احترام الديانة المصرية

وإزاء رغبة البطالة المفعلة في أن يطهروا أسماء المصريين في ثوب الفراعنة الحقيقيين اتفقوا بالديانة المصرية ديناً رسمياً ، وسبحوا للمصريين بحرية عبادة آلهتهم القديمة . ولكن بشروط احترامهم للديانة المصرية حديثاً عنذو الفراعنة في تقديم القرابين للألهة الوطنية ، ومنح المعابد هبات مالية وعقارية وكذلك حتى حماية اللاجئين إليها ، وانتشاء المعابد والهياكل أو إصلاحها وزخرفتها ،

تقدم عرفنا كيف كان البطالة يمتدرون أنفسهم سادة مصر بحق الفتح ، لكن لكي يكون سلطانهم دائماً وسيادتهم راسخة رأوا أن يتبنوا حكمهم كذلك على حق الملوك الأمازيغ ، وأن يحترموا المعتقدات الدينية السائدة بين كافة رعائهم ، ولذلك كان التسامح الديني أبرز ما تصف به سياسة البطالة الدينية بوجه عام .

١٠ - البطالة والمصريون

١ - (أطال صفات الفراعنة

لما كان المصريون يمتدرون فرعوناً وأهلاً بنعم والعبادة ومالك الأرض والسيد المطلق على أهلها ، فقد كان من العجبة وأسالة الرأي أن يتخذ البطالة صفات الفراعنة ، لينتسبوا بسكاتهم العظيمة وسلطانهم الشاملة المظلمة ، ويكسبوا ولاء المصريين ويصبحوا مركزهم بصفتهم شريفة في نظرهم ، ولا سيما أن الإسكندر الأكبر كان قد رسم نفسه فرعوناً في منف ، وحمل ثلاثة من الألقاب العظيمة التي فرج الفراعنة على سلطانها منذ عاير الزمن . وتبني القرائن التي أن البطالة اتخذوا صفات الفراعنة بالتدريج ، ففي الوثائق الهيرغليفية والديموتيقية ما يثبت

وتصوير أنفسهم على جيرانها وكذلك على
التنود والأحجار الكريمة في شكل آلهة
مصرية .

ان نبوة مثل نبوة « صانع الفخار »
التي تحدثت عن تحرير الوطن واجلاء الأجنبي
وإعادة العاصمة الى منف وإقامة قرقوف وطني
لتحبر تعبيرا يليق بما كان يجيش في صدور
المصريين من الآلام والأمال وتصور لنا حقيقة
مطاسرهم نحو هؤلاء الفرانجة الجدد . وان
دلت هذه النبوة على شيء فهي تدل على أنه
يمتلك البطالة من جهد في العثور اسام
المصريين في ثوب أسلافهم الفرانجة الوطنيين
فبان لسلوب المصري لم تلمس البهم ولم
تتلهم فرانجة حقيقيين ولم تر في الاستكبريه
عاصمة للبلاد . فلا عجب ان كان المصريون
يتوقفون الى قرقوف وطني يقبم في عاصمة
وطنية بعد ان يحرر الوطن من محتصبه
الأجانب .

٤ - موقف البطالة من الكهنة المصريين

كان رجال الدين المصريين يحتلون منذ
عهد بعيد مركزا رفيعا وأهمية خطيرة في حياة
البلاد ، يتصب الملوك حسانهم ويصيرهم
الإمامسالي مرشديهم ورمسأهم الروحيين ،
يستمون الى لصحهم وينزلون على إرادتهم .
وإزاء ذلك استقر رأي البطالة على أن يتخذوا
منهم أداة لشر الهدوء والسكينة في البلاد ،
وكذلك غاصم حين أظهروا إجلالهم واحترامهم

الديانة المصرية استنوا من النظم ما يكفل
تعليم الطائر رجال الدين وخضوعهم لهم .
وقد كان العامل المادي من أهم الوسائل التي
لجأ البطالة اليها للحصول على طاعة التساوسة
غاصم أسندوا إدارة أراضي المسابد الى
الحكومة ، واستوفوا على دخل الضريبة التي
كانت المسابد تجبها من زارعى التروم
والفلاحة والبقول ، وأنفوا احتكار المسابد
وصناعتى الزيت ونسج الكتان لكن يفلوا من
قوة الكهنة ويسطروا لهم أيديهم أو يتكفوها
بما لوقت الكهنة منهم .

ويجب أن نضيق الالتاق على الكهنة
فد زج بهم في صغرفه الثوار ما حدا بالبطالة
الأواصر الى معاولة كسب ود الكهنة بفتى
الوسائل . ومع ذلك يبدو من تجويد النسخ
لكهنة في عهود مختلفة بل في العهد الواحد
نفسه ان الكهنة لم يفلحوا في استرداد كل
حقوقهم وامتيازاتهم السابقة التي كان
البطالة الأوائل قد سلبوهم إياها . وذلك لأنه
عندما ضعفتم السلطة المركزية وفسدت الأداة
الحكومية كثيرا ما عصرت السلطة المركزية
عن حمل المواطنين على تنفيذ قرارها .

ويبدو أن الكهنة لم التسبوا فرقا وأجماعا
إزاء سياسة البطالة نحوهم ، اذ حين كانت
العلاقات متوترة بين البطالة وكهنة آمون في
طيبة كانت العلاقات حسنة بين البطالة
ومناسى أولئك الكهنة ولا سيما كهنة منف .

على هذا النحو سنة تالية حاكم مصر بعد وفاته ، وسرى نوا الآثار البعيدة التي تربت على اتباع هذه السنة .

وتفسير كل الدلائل التي ان بطلموس الثاني هو الذي خطا الخطوة الثانية في عبادة العبادة . وقد كان أول ما فعله ههنا الملك انه اتبع سنة أبيه ، فرغمه الى مصاف الآلهة بعد وفاته . ولم يكن ذلك بدعة فقد كان الاغريق ياتكون تاليه موتاهم الذين أسوا مدنا حرة ، و بطلموس الأول لم يؤسس مدينة لحسب بل مملكة عظيمة . ويبدو انه عندما توفيت بريليكي ثم بطلموس الثاني اشركها في العبادة مع أبيه المؤله .

وقد عهد تاليه بطلموس الأول السبيل لناب سلاته ، لان تاليه رأس أسرة البطالة اكسب سلالته صفة غير عادية سميت بهم فرق مسروق سائر البشر . فلم يكن صيرا عليهم بعد ذلك ان يرفعوا انفسهم الى صف مؤسس هذه الأسرة . لكن على حين ان بطلموس الأول وزوجه رفعا الى مرتبة الأنوية بعد وفاتهما رفعا سلالتهما من ملوك مصر الى هذه المرتبة في حياتهم واحتفلوا بها بعد مماتهم . ولم يهد اليوم حبيلى الى الثالث في ان بطلموس الثاني رفع نفسه وزوجه الى مصاف الآلهة في أثناء حياتهما وبعيد الاتيان معا باسم الاخوان الأخوين (ادلفوى Adelpnoi) ، وتقيم لهما معبد خاص في الاسكندرية وصرات عبادتها عبادة الاسكندر

وكما عنى البطالة بكسب ولاء المصريين وودهم عشوا أيضا بكسب ولاء الاغريق وعظمتهم . وقد كان الاغريق يديون للعبادة بالامتيازات التي منحتها لها ، لكن لما كاف غالبهم رجلا أحرارا نفسوا الى جمهوريات اعتادوا الاشتراك في حكمها ، وكانت مصر في عهد البطالة ملكية تقوم على حكم الفرد المطلق ، فقد لجأ البطالة لتبرير مركز هذا الحاكم المطلق الى انشاء عبادة الملوك عبادة لفرقية رسمية عامة في الدولة حتى لا يرى الاغريق خضاعة في تمتع أولئك الملوك بتلك السلطة المطلقة .

وبرغم ما يتكشفه الشاء هذه العبادة من النقص ، فاننا نستطيع ان نشين أربع خطوات . أما الخطوة الأولى ففسد خطاها بطلموس الأول عندما جعل عبادة الاسكندر الأكبر ههنا افرقيا رسميا عاما في مصر . له تاهن مقدوني أو افرقيا يستع بسكانه رغبة ويهينه الملك كل عام وتؤرخ باسمه كذات الوثائق في طول البلاد وعرضا ، سواء ما كان منها مكتوبا باللغة الاغريقية أم المصرية وما كان بطلموس خليفة الاسكندر في حكم مصر ، ففقد أصبحت سلطته باسم تالي الاسكندر مستمدة من مصدر الهى ، وبذلك حق له ان يستع بالسلطة الشاملة في مملكته . وفضلا من ذلك فان بطلموس قد وضع

وقد كان البطلمة مثل غيرهم من المقدونيين أغريبا في كل خواصي حياتهم : في ثقافتهم وديانهم والى حد كبير في أسماهم ، بل انهم ادعوا انهم من سلالة الالهة الاغريقية . وازاء عواطفهم الدينية واسلمهم السامري الاغريقي وتماليهم الاغريقية ، كان طيبيا ان يظهر با احترامهم للديانة الاغريقية ويترفوا بها ديانه رسميه في دولتهم .

وفضلا عن كل ذلك كان يوجد دافع نفسي له ؛ وان كبير في نظر البطلمة ، فقد كانوا في حاجة الى رجاء وروس اسوان من بلاد الاغريق لتعفي مشروعاتهم الخارجية والداخلية . ولذلك كان يتعين عليهم كسب عطف الاغريق ، بأن يظهر امامهم في ثوب حياء الحضارة الاغريقية ، وان يشتموا للملا اجمع اجلالهم للديانة الاغريقية . فلم يكنتم البطلمة بالاعتراف بالديانة الاغريقية دينا رسميا في مصر ، بل اسبقوا عليها شمس مظاهر العظمة ، فقيدوا المعابد لآلهتها ، ومنحسروا الضباع لمسايدها ، وياحوا للاغريق حرية اقامة شعائرهم ، واثاموا صلات وثيقه مع شهم مراكز المعادة في بلاد الاغريق ، وانضموا حفلات دينية على نمط الحفلات الدينية الاوليمبية او الحفلات الكينية الجامعة ، كان يحج اليها الشعراء والمبارزون من كافة أنحاء العالم الاغريقي . وتصور لنا أثناسيوس نيوكريستوس كيف كانت تجذب في شوارع

الرسية العامة فكان يشرف على مقوس المادتين كاهن واحد أصبح لقبه عندئذ و كاهن الاسكندر والالهين الاخرين ، على حين ان عبادة بطلميس الاول وزوجه ريبكي لم تعترف بعد مع عبادة الاسكندر . وقد خطا بطلميس الثالث الخطوة الثالثة فانه سمح باستمرار قرن الالهين الاخرين في عبادة مع الاسكندر بعد وفاته ، ولذلك عندما اقتضى عطاوات ابيه ورفع نفسه وزوجه في حياتهما الى مصاف الالهة قرن عبادتهما بعبادة كليهما والاسكندر . فكانت هذه هي المرة الاولى التي تعرف فيها عبادة الملث احكامم وزوجه بعبادة كليهما وعبادة الاسكندر . ومنذ ذلك الوقت أصبحت المساعدة ان كل بطلميس وزوجه يراهبان المعرش يؤلهون ويشخل عبيها لقب الهين بسرها عن غيرها من البطلمة المؤلهين وتقرن عبادتهما بعبادة اسلافهما وعبادة الاسكندر ، فبنيت على مر السنين وتمالط ملوك وملكات البطلمة سلسة جديدة من الالهة . وعندئذ لاحظ بطلميس الرابع ان سلسلة البطلمة المؤلهين الذين يقرون مع الاسكندر الاكبر في العبادة الرسمية العامة تبدأ ببطلبيوس الثاني وزوجه ، على حين انه كان عن عيون مؤسس الأسرة وزوجه ان يكونا في العظمة ، خطا الخطوة الاخيرة في تحويل هذه العبادة الى عبادة أسرته بوضع بطلميس الاول وزوجه على رأس سلسلة البطلمة المؤلهين الذين يقرون في العبادة مع الاسكندر .

يوصف قاعة الولايم وكانت على شكل
 سرائق مستطيل شملت أربعة من أعمدته
 المصنوعة من الخشب على طراز مصرى فى
 شكل النخيل . ولم يدخر الملك جهدا ولا مالا
 فى تجميل هذه القاعة وتزيينها ، فقد علفت
 حولها ستائر مراكية وجلود حيوانات
 مخترسمة وسنت على جانيها مائة أوريكلا
 موشاة بالذهب ونشرت أرضها بالطنافس
 الفارسية ونشرت بالورود والأزهار وزين
 المرافق بأبداع ما أخرجه المهرزون من المثالين
 والمصودين وأجمل ما ابتكره أعر الصناع
 من الأقمشة المزركشة بالذهب والدرع
 الموشاة بالذهب والفضة ووضعت فى مكان
 بارز من السرائق أريكة عرضت عليها آنية
 كسيرة من الذهب ومرصعة بالأحجار
 الكريمة .

وبعدنا كاليكسوس بأن المهرجان أقيم
 فى مضمار السباق ودام من الصباح حتى

الاسكندرية فى أثناء إقامة هذه الحفلات
 اصداه مختلف اللهجات الاغريقية . وتدل
 الآنية الجنازية التى عثر عليها فى الاسكندرية
 وكانت تضم رماد جث بعض المبعوثين
 الرسبيين الى هذه الحفلات أنهم توقعوا فى
 الاسكندرية فى أثناء أداء واجبهم الرسمى .

وكانت أهم هذه الحفلات حفلات
 البطوليمياء Ptolemee التى أشاها
 بطليموس الثانى تفليدا لذكرى أبيه المؤقت .
 ويحتل أن هذه الحفلات التى كانت تشمل
 الحفلات الأولمبية تمام كل أربع سنوات ،
 قد أقيمت لأول مرة فى عام ٢٧٩ ق . م .
 بمناسبة الذكرى الرابعة لوفاء بطليموس
 لأول . ويبدو أن المهرجان الذى وصفه
 كاليكسوس Callixenus كان بمناسبة
 إحياء هذا الحفل أول مرة .

وقد بدأ كاليكسوس وصفه الرابع



معبد ولاة بطليموس النسطالى على نحو ما وصفه كاليكسينوس وتصوره أحد العلماء المحدثين

غفيرة من النساء والرجال والأولاد ، يمثل بعضهم مناظر من القصص الدينية الاغريقية ، ويرتدى بعضهم الآخر أيمن الثياب ويحلقون أكاليل الورد أو آنية من الذهب أو القفضة تفيض بالنبيذ أو المأكولات أو البخور أو العطور .

وقد عرضت في المهرجان أنواع كثيرة من النعيران والطيور النادرة واشترك فيهِ ٢٣٣٤٠ فارس و ٥٧٢٠٠٠ رجل كاسملى المدة . ولعل القسم الذى يمثل عبادة

الليل ، ولذلك كان يتقدمه ذلك القسم من المهرجان الذى يمثل نجم الصباح ، ويأتى في المؤخرة القسم الذى يمثل نجم المساء . وقد تبع نجم الصباح القسم الخاص ببطلميوس الأول وزوجه المؤلمين ، ثم تلت ذلك أقسام أخرى خصص كل منها لاله واحد أو أكثر ، وكان أحدهما للإله ديونيسوس وآخر للإلهين الاسكندر الأكبر وبطلميوس الأول ، وآخر للإله زيوس وغيره من الآلهة ، وكان يصور كل قسم جمهرة من التماثيل والأشخاص تشملهم عربات يتقدمها ويسير خلفها أعداد



سورة آية حنازية ما دعى بها الصغرة الأجياب الذين توغوا في الاستكشافية عند تشييل بلادهم في حقل البطوليسايا .

ديونيسوس مظفراً من الهند كان أروع ما في هذا المهرجان الفريد الذي كان يسوده روح الغرقى بحت وينبغي عليه طابع حتميات ديونيسوس . وإذا كان ملك مثل بطلموس الثاني لم يتعصف بالسفه والاسراف بل عرّف بحرصه ودفقة نظمه المالية قد أنفق على إقامة هذا المهرجان ما قيمته اليوم حوالي نصف مليون جنيه مصري ، فإن هذا يدلنا على مدى الأهمية التي كان يلقها على اظهار اهتمامه بظواهر الحياة الدينية الاغريقية وكذلك على استعراض دلائل تراء دولته وفولها أمام مهجري الملوك الأجنبية .

ولاء = الاغريق والعبادة المصرية

وقد كان الاغريق ينظرون الى الديانة المصرية نظرة اجلال واحترام ، بسبب قدم عرسها ولحموض أسرارها . ودرج الاغريق منذ عهد هيرودوتوس على تشبيه الآلهة المصرية بالآلهة الاغريقية ، لكن لا ريب في أن هذا التشبيه لم يكن الا فسسيها سطحيا لم ينفذ الى أعماق عواطف الاغريق الدينية بحيث تحتل الآلهة المصرية مكان الآلهة الاغريقية ، وآية ذلك ان الاسكندر الأكبر والبطلمة شيّدوا معابد مختلفة لكل من آلهة الاغريق وآلهة المصريين . وتفسير القران الى أن لغريق مصر سواء أكانوا ينزلون في مدن مصر الاغريقية أم في خارج تلك المدن قد استسكوا بعبادة آلهتهم القديمة : زيوس وهيرا وديمتير والفروديتي وغيرها . ولعله قد

ساعد على استسك الاغريق بالهتهم ، وعدم اقبالهم بوجه عام على الآلهة المصرية تصوير هذه الآلهة في اشكال تنعاق ذوتهم وعقائهم وتصورهم لما يجب أن يتوافر في مسور الآلهة من صفات توائم مكانتها الرفيعة . ومع ذلك فإن بعض الاغريق ، نتيجة لنلك التفسيرات ، وباعتبارهم نزلاء في تلك البلاد التي تنتع بصداية هذه الآلهة ، وأوا من الفطنة واصالة الرأي كسب عطف هذه الآلهة . ولذلك فانهم عبدوا بعض الآلهة المصرية تحت أسماء اغريقية ، كما عبدوا أيضا بعضها الآخر بأسمائها المصرية حين لم تكن لها مرادفات بين آلهتهم ، لكنها كانت تتسع بحبة كبيرة بين المصريين اضطرت انظار الاغريق ، ومثل ذلك بيس Bes وتورت Turt وسيتك . ولا يبعد أن يبعد لغريق من الاغريق للآلهة المصرية على هذا النحو قد ألفى الى مزج بعض الآراء الدينية الاغريقية بالآراء الدينية المصرية ، لكن يجب الا نبالغ في قيمة ذلك ، لانه اذا كان بعض الاغريق لم يروا فضاضة ل بعض الأحيان في عبادة الآلهة المصرية فإن الاغريق جميعا لم ينقطعوا عن عبادة الآلهة الاغريقية حتى خارج المدن الاغريقية . فقد كان المجال منسحا أمامهم لتسل ذلك ، اما في الجليات أو الجمليات الاغريقية أو في بيوتهم الخاصة .

ومن ناحية أخرى استسك المصريون على الدوام بدياتهم ، التي كانوا يعاخذون بها

ويعتبرون المذاهب الاغريقية صورة مقنة لها ، لكنها حديثة العهد ويشوبها كثير من النقص الى حد يستفز مشاعرهم ضد اتباعها . فلا عجب انه لم يتم دليل واحد على ان الديانة الاغريقية استهوت ولو نفرا قليلا من المصريين .

١ - البطالة وخصائص السكك الاخرى

وكان اليهود اهم العناصر الاجنبية بمد الاغريق في دولة البطالة . ويرجع استقرار اليهود في مصر الى عهد بيدي بسبق عصر البطالة كثيرا ، لكن عددهم ازداد زيادة كبيرة في اعقاب الفتح المقدوني وكذلك بعد ضم فلسطين الى مصر في بداية عصر البطالة . وتشير المصادر القديمة الى انتشار اليهود في مختلف ارجاء مصر ، لكن اكثرهم كانوا يعيشون في النحي الرابع في الاسكندرية . وكان يهود مصر يزاولون مختلفه المهن والحرف ، وكان من بينها الاستئصال بالتجارة واقرض الاموال ، لكن ذلك لم يكن وقفا عليهم ولا عليهم الرئيس . وقد منح البطالة الجالية اليهودية في الاسكندرية قسطا من الحكم الذاتي لم ينحوه لاي جالية اخرى في اي مدينة مغربية ، لكنهم لم يتحورهم حقوق المواطنين .

وقد كانت السياسة الدينية التي اتبعتها البطالة بوجه عام ازاء اليهود ، تقوم على اساس التسامح الديني الذي قامت عليه

سياستهم الدينية ازاء المصريين والاغريق ، فانه باستثناء بطليموس الرابع ، الذي اراد ان يفرض على اليهود عبادة ديوليموس واضطهدهم عندما رفضوا الارتداد عن دينهم ترك سائر البطالة للمغربين لليهود حرية العبادة .

ويبدو ان سياسة البطالة بوجه عام كانت متسمة بروح المظف على اليهود ، لان فلسطين كانت واقعة بين فسقى الرحي ، او بعبارة اخبرى كانت ميدان سلطة من الحروب الضروس بين البطالة ومنتاحهم السليديكيين ، الذين كانوا يتطعمون هواما الى حرمان مصر اياها . وبطبيعة الحال كان عطف البطالة على يهود مصر يكسبهم تأييد يهود فلسطين ويساعدهم على تنفيذ سياستهم السورية .

٢ - الفرس

وتحدث الوثائق عن كثيرين ممن يعملون « فرسا » او « فرس السلالة » مسح ان اقلهم لفظ يعملون اسماء ايرانية ، على حين ان اكثرهم يعملون اسماء اغريقية او مصرية او اسما اغريبا ولقبا مصرية . ولقد الوثائق الي وجود عدد كبير من الفرس بين الجنود وابناء الجنود في مصر البطالية والتي ان هؤلاء الفرس امشروا يكتولون طبقة خاصة حتى في العصر الروماني . ومما اختلف المؤرخون في تفسير كثرة عدد الفرس فلا شك في ان الفرس كانوا يتبعون بالحرية الدينية في مصر البطالية .

كون لجنة من علماء الدين المصريين والاغريق لتبذل فكرته . وقد استقر رأى اللجنة على أن يكون محور الديانة الجديدة ثالوثا يتألف من سيرابيس Serapis ووزوجسه ايزيس وابنها هارپوكراتس Harpocrates ويتفق الجميع على أن ايزيس وهارپوكراتس كذا الهين مصريين . أما سيرابيس ، كسيرة آلهة الثالوث ، فقد تضاربت لأراء حول أصله ، لكن الرأى السائد اليوم انه كان أصلا الآلهة المصرية 'وزيريس ايبس' و الله العالم الآخر في منفه الذى ترونا بردية ارميسيا Armesia ان الاغريق حتى قبل عبده بطلميوس الأول كانوا ينادونه باسمهم 'وزيريس' Ωσειρης . وعلى كل حال فإن آلهة الثالوث خدمت للاغريق في شكل افريقي وللمصريين في شكل مصرى يسدو التباين بينهما في أجلى صورته في حسالة سيرابيس الذى تقدم للاغريق في شكل رجل كهل يشبه عن قرب الآلهة زيوس وضلفت عليه كثير من صفات الآلهة الاغريقية ، على حين عبده المصريون في شكل العجل ايبس ، وكان يعرف بـمه وقاته باسم 'وزيريس ايبس' .

وإذا كان بطلميوس الأول هو الذى أنشأ عبادة سيرابيس واخفاء الصورة التى قدم فيها هذا الآلهة لرحاباء الاغريق : فإن الأدلة الاثرية تثبت ان بطلميوس الثالث هو الذى شيد المسجد الكبير الذى أقيم لهذا الآلهة في حي راقوده بالاسكندرية على ذلك التل الذى

وتشير القرائن الى أن سائر العناصر الأجنبية الأخرى التى استقرت في مصر ، مثل الرقيين والفرجيين والسوريين والفينيقيين والحرب ، قد حضرت معها عباداتها وآلهتها كما فعل الاغريق واليهود ، وإنما قد نعتت جسدًا بحريتها الدينية في عقل ذلك التسامح الدينى الذى كان أحد الدعائم الأساسية التى أدام عليها البطالقة سياستهم الدينية .

خاصة - ديانة سيرابيس

لما كان بطلميوس الأول يعتقد ان ثروة مصر تنوكت على مساهمة المصريين والاغريق معًا في العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ، وان استمرار النشور الدينى الذى كان يهودوتوس قد لاحظته من قبل لابد من أن يعوق الألفة بين الفريقين ، فإنه رأى من الضروري أن يولف بين قلوبهما بإنشاء ديانة جديدة تكون رابطة وحيدة ووثام بين المصريين والاغريق عندما يجتمعون جميعا في التجمد الى آلهتهما ، وبذلك يدركون اهم يتعدون الى نفس الآلهة وانما كل فريق منهم على النحو الذى كان يالته . ولابد من أن بطلميوس كان يدرك أن تحقيق هدفه كان يتوقف على نجاح الديانة الجديدة في أن تخلف ديانة المصريين والاغريق ، وهذا ينسر ذلك الاهتمام الكبير الذى وجهه هو وسلاكه الى الديانة الجديدة .

ويحددنا فلونارك بأن بطلميوس الأول



تمثال للتملح أسس أسيوط
الإمبراطور هادريان لسيفرايوم الاسكندرية .



تمثال لسرافيس

في عداد الآلهة التي ظنوا على ولائهم لها ، ولم تصبح يوما آلهة هذا الثالوث الإلهية الوحيدة التي يعبده المصريون إليها . وكذلك اعتنق الاغريق ديانة هذا الثالوث فقد قدم لهم آلهة في لوب ابريقس بل على انها نظيره لألتهم الاخرقية . ومع ذلك وبرغم ما ظهره الاغريق لآلهة الثالوث المنقلس من رعاية واحترام فالهم لم ينصرفوا الى عبادته دون غيرها ، بل ان هذه الآلهة لم تحتل لشدة الأول في عبادتهم . وآلة ذلك انه حشده كانوا يزولون في مكة ة سواء في مدن مصر الاخرقية أم في خارجها ، كانوا يقيمون عند لأقضهم الاخرقية . ويكاد يكون من الجحني أن الديانة المحببة للاغريق طمسوا عن البطالة كانت الى حد عبادة آلهة اثنان التي

لا يزال قائما حتى اليوم في حين كرموز . وقد ذاعت شهرة مباني هذا المهد بما كانت تضسه من مكتبة وروفة وأمنة تقوم عليها الأعمدة والتمائيل ويؤدي اليها سلم كبير يتألف من مائة درجة .

ولا حيدال في أن الديانة الجديدة قد لجعت من حيث فوزها بعدة كبير من الانساع فالها لم تنشر في مصر فقط بل انتشرت أيضا في أرجاء البحر الأبيض المتوسط ، ثم تخطت نطاقه ووصلت شرقا حتى الهند وغربا حتى بريطانيا . لكن النجاح الحقيقي لهذه الديانة يجب أن يقاس بمدار ما قفلحت في تآدية الغرض المشود من انقامتها . فهل حققت هذا الغرض ؟ حقا ان المصريين عبدوا آلهة الثالوث المقدس ، ولكن في توجهها المصري وباعتبارها

تتمت إمكانية كبيرة ، لكن لا كانت تلك
المكانة نتيجة لإعطاء الحكومة ، وكانت تلك
الديانة ديانة مفتوحة ، وكان البطالة قد أياحوا
لسائر دعاياهم حرية العبادة ، وكانت الديانة
التي هي الحقيقية لكل من المصريين والأتريق هي
الديانة التي كان يألما كل من التريين ،
فلا يجب أن الديانة الجديدة لم تحقق التري
المنشود من أالمتها .

أثرا منها ، والي حد كبير عبادة المذاهب ذات
الأسرار التي كانت معروفة في بلاد الأتريق
ويين أتريق آسيا وانتشرت إذ ذلك في كل
أنحاء العالم الأتريقي ، مثل مذهب ديستر
ومذهب ادونيس ومذهب ديونيسوس
تراجيروم Zagros .

ولا شك في أن الديانة الجديدة قد

الفصل الرابع

السياسة الاقتصادية

الزراعة - الصناعة - التجارة - النقد

من المصالح واستخدام كافة الوسائل الفنية للمرونة وتنظيم الإنتاج تنظيمًا دقيقًا ، يتخلل إلى أقصى حد مجهودات الأهالي والزراعيين الأجانب تحت إشراف إدارة مالية بثقة ، وتداول النقد ، وتصدير المنتجات التي تفيض عن حاجة البلاد ، واستيراد المسواد التي تشتقر إليها ، وتأمين طرق الملاحة .

أولاً - الزراعة

ولما كانت الزراعة في مصر تتوقف على ضبط مياه النيل وحسن تصرفها ، فقد عني البطالة بشق القنوات واقامة الجسور وصيانة هذه المنقعات وقد عنيوا أيضا بإيصال المياه إلى الأراضي المرتفعة ، وإبتكر الأفريق التيئ جديدتين لهذا الغرض وهما المساببة والظهور ، وسارع المصريون إلى الاستفادة من هاتين الآلتين إلى جانب سادوهم المريق . واستعمل البطالة الإثرائي بمساعدة الأفريق الهندسية ، وعناية المصارعين بالزراعة في استصلاح مساحات واسعة من الأراضي في الفيوم ، وكذلك في مناطق أخرى مشابهة لها . وهكذا توفر لدى البطالة من الأراضي

أتمت اعتبارات كثيرة على البطالة سياستهم الاقتصادية ، فقد كان تعقب أهدافه سياستهم الخارجية يتطلب أموالا طائلة لبناء الجيوش والأساطيل واكتساب ود الدول ورجال السياسة . وكانوا في حاجة إلى المال أيضا لتنفيذ مشروعاتهم العمرانية . ولما كانت قد استقرت في البلاد عناصر جديدة من السكان وكان أغلب هذه العناصر من الأفريق أو ممن لهم ميول افريقية فانه كان يجب توفير سهل العيش لهذه العناصر وسد حاجتها .

وقد رأى البطالة ان الاستجابة إلى كل مطالبهم كانت لتفضي زيادة الإنتاج المصري ، ورفع مستوى المنتجات المصرية ، بحيث تسد مصر حاجة كل سكانها ، وتصدر مفاير كبيرة من منتجاتها لتكسب بها الأموال الخارجية ، ليطبخ عليها الذهب والفضة وغير ذلك مما تختار إليه البلاد من المواد مثل الأخشاب والمعادن وازاء ذلك عمل البطالة على زيادة مساحة الأرض المنزرعة ، واستئثار الأرض المنزرعة استغلالا لم يسبق له مثيل ، والاكتار

اليومية من غذاء وكساء : فإن البطالة عتوا
 بتسبب هذه التروء ، وساعدهم على ذلك
 وفرة المراعى فى البلاد ، ومن أجل تحسين
 الأصواف المصرية استقدم بظليوس الثانى
 من الخارج نوعا من الأغنام كانت لأصوافها
 قيمة كبيرة جدا الى حد انها كانت تغلى
 لوقايتها والها كانت تزرع بها بدلا من أن
 تنجز ، وقد أولى البطالة عنايتهم كذلك الى
 تربية النحل ، فقد كان ههنا يستخدم حيث
 استخدم السكر البوم ، والى تربية الدواجن ،
 وخاصة الحمام ، لأنه كان أرخص أنواع
 النرف فى غذاء الأهالى ، وبغضلا عن ذلك
 كانت له أهمية خاصة بسبب غنى روثه
 وولفرته .

وقد كفلت جهود البطالة الأرائل بالتجاع
 إذ كان أبرز نواحي العناية الاقتصادية فى مصر
 فى خلال القرن الأول من حكم أولئك الملوك
 ازدياد مساحة الأراضى المزروعة ، وازدياد
 العاصلات الزراعية بوجه عام والحبوب
 بوجه خاص . لكنه كان من المعال وضد
 عبية الأسياء أن تدوم ههذه النهضة
 الاقتصادية ، ولا أدل على ذلك مما نلاحظه
 منذ آخر عهد بظليوس الثالث من نقص
 مطرد فى مساحة الأراضى المزروعة وكذلك فى
 الماشية وفى عدد سكان القرى . فقد كان
 ضيقا إذ تدهور الزراعة فى كنف ذلك
 النظام المالى الكريه الذى وضعه بظليوس
 الثانى ، لأنه أهبط كعلل الأهالى ، ولا سيما

ما سكنهم من افراء الكثيرين من الاغسريق
 بالاستقرار فى البلاد . ولم يشخر البطالة وسما
 فى استغلال الأراضى الصالحة للزراعة استغلالا
 لم يسبق له مثل : لكنهم كتبلا بضمغوا
 التربة وضغوا نظاما دقيقا للدورة الزراعية ،
 بحيث كانت الأراضى لا تنزوح زراعة تلبية لثلاثة
 أعوام متتابة . وقد كان الحديد من بين المواد
 التى اهتم البطالة باستيراد كميات وليرة منها
 لسد حاجة البلاد ، وترتب على ذلك أن أغلب
 الأدوات الزراعية كالأس والعاروف والمنجل
 والبطلة ومجمل العربات أصمحت تصنع كلها
 أو بطن أجزاءها من الحديد .

ولم يشخر البطالة جهدا فى تونج
 الأسباب التى تكفل الاكثار من زراعية
 الفعوب وغرس الكروم والفلكمة ومختلف
 أنواع الأشجار ، وتحسين أصناف كل هذه
 المردوعات بأفلة أنواع جديدة منها ، وادخال
 أنواع عديدة من العاصلات التى لم يكن
 مصر بها عهد من قبل . فتبعك الوثائق عن
 زراعة القمح السورى والفارسى والحص
 البيرنلى ، وعن استيراد أشجار التين من
 خيوس وليديا ، وأشجار رمان ايس لشرها
 مذور ، وأشجار شمشى تشر فى السام هرين ،
 وكروم تسج أصنافا متمعددة من العنب ،
 واستنابت نوم ليكيا وكرب رودس وأنواع
 كثيرة من الأرحار .

ولما كانت التروء الجوابية تخدم مطالب
 الزراعة ومطالب الديانة ومطالب العجبة

عندما قام على تنفيذ مخطوطة غير أمناء
ما دفع الأهالي إلى الفرار من مزارعهم أو
تخليهم في أداء عاصم ، بل إلى الثورة في
وجه الحكومة . وحين كانت نيران الثورات
القوية تسرى في كل أنحاء البلاد سرعان النار
في الهنيم ، ووسط الاضطرابات العنيفة التي
أثارتها الاضطرابات بين أفراد أسرة البطالة
ورجعت البلاد أصداءها ، هضت وساقى
الري بل عند الأهالي التي تخريبها . وزاد
الطين بلة أهال التخريب والتدمير والسلب
والجلب التي لجست عن غزوة أنضيوخوس
الرابع . وقد بذلت الحكومة كثيرا من
المجهودات لإصلاح الحالة لكن التوفيق لم
يعالها بوجه عام في وقف تيار الدهور الذي
جرف اقتصاديات البلاد .

لأنها - الصناعة :

كملت التلبية مصر العوامل التي جعلتها
مهد الحضارة ، فقد جنبها بوفرة في موارد
الثروة وفي عدد السكان الذين استعمار
التكثيرون منهم بالمهارة اليدوية فلا عجب أن
قامت في مصر منذ أمد بعيد صناعات كثيرة
ناجحة لم يكن لها مناس في بعضها ومثل
ذلك ورق البردي والمسحوجات الكتانية
والرجاج والخزف اللامع وغير ذلك مما كانت
مصر تصدره إلى الكثير من بلاد العالم
القديم .

لكن بلاد الاثريين ما كادت تتقدم في
شوط الحضارة حتى أخذت صناعاتها تنافس

الصناعات المصرية وأصبحت مركز الجاذبية
الاقتصادي ، غير انه عقب وفاة الاسكندر
الأكبر انتقل ذلك المركز إلى المسالك
الهيلينية العظيمة التي قامت في مقدونيا
وآسيا ومصر واسترعت أنظار الاثريين ،
فهرعت أعوجهم إليها وشباركوا في اغتاش
صناعاتها وبقي نواحي حياتها الاقتصادية .
وقد كان مصر نصيب كبير من أولئك
المهاجرين الذين لرحوا إليها من مختلف بلاد
شبه جزيرة البلقان وجزر بحر ايجة وآسيا
الغربية .

وقد كانت المشاكل التي واجهها البطالة
في ميدان الصناعة مسألة لا واجهه في ميدان
الزراعة ، وهي تولد سبل العيش لكثير من
المهاجرين ، ورفح مستوى الصناعة ، وسد
حاجة السوق المحلية والسوق الخارجية .
فقد استقرت في البلاد عناصر جديدة كثيرة
أغلبها من الاثريين أو ممن لهم ميول وعادات
اثرية ، وازدادت القوة الضاربة لدى الدول
الهيلينية ، وكذلك اقبالها على المنتجات
المصرية . ومن أجل مواجهه كل هذه المطالب
واستيراد ما تنتشر اليه مصر بحيث يكون
الميزان التجاري في صالحها ، أنشأ البطالة
مصانع كبيرة ، واشتروا اتسماج بعض
الصناعات ، وشرعوا على إنتاج وبيع
البعض الآخر ، وعطوا أيضا على زيادة إنتاج
صناعات عديدة ، وتحسين أساليبها ومرعاة
فوق المستهلكين .

الأخريق محبب اليهم . فامتلات أسواق العصر
الهيلينستى بأدوات مصنوعة على أساس
الأساليب المصرية فى الصناعة والزخرفة ، وإن
كان طراز المستوعات افرىقيا ، ونجد أمثلة
طرفة لذلك فى الآنية الفخارية والزجاجية
والمعدنية التى كسفت الحفرىات عنها .

والما كان بين ان أكثر الصناع المصريين
بسبب طبعهم المحافظ واعتزازهم بثقائهم
القديمة ولحبتهم لى سد حاجة عملائهم الذين
يفت فاليتم العظمى بعيدة عن كل مظاهر
الحضارة الافرىقية ، لم تستههم بوجه عام
شون الصناعة الاجنبية . ولذلك استمروا فى
اتاج سلعم التقليدية ، فاه بين كذلك ان
بعض الصناع المصريين كانوا ينتجون أيضا
سلما تلمد نظيراتها الافرىقية تحلبدا كاملا
أو فى بعض نواحها فقط مثل الفسككل
أو عناصر الزخرفة أو أساليب الصنة لكنها
مصنفة بالصفة المصرية ، فالتسا نجد بين
الآية الفخارية والحجرية التى صنعها
المصريون فى عصر البطالة اصسكالا كانت
مكوفة بين الاخرى . ولا يبعد أن ما حدث
فى هذه الصناعة قد حدث كذلك فى صناعات
أخرى .

وقد كان من بين نتائج ازدهار الصناعة
فى المدن زوح الكثيرين من الريف إليها ،
وكانت الاسكندرية فى مقفمة المدن التى
هرعت إليها أعداد كبيرة من السسال
والصناع . وما يجدر بالملاحظة أن أرباب

وبفضل مهارة المصيرين ومولعب الاخرى
استطاعت مصر أن تستجيب لكل مطالب
الصناعة . وقد ساعد على ذلك أن تدول
التقد وفر رموس الأموال اللازمة للتفوض
بالصناعة ، وإن الحركة الملية فى معهد
الاسكندرية غزت الصناعة بشرة تقدم العلوم
وإن البطالة الثلاثة الأوائل لهتموا بتشيط
الصناعة اعتمادا لم تعرف له مثيلا فى أى عهد
من عهود تاريخها الطويل . وقد كانت من
أهم الصناعات شأنا فى عهد البطالة صناعة
المسوجات المختلفة وصناعة الزيت والنبذ
والآنية الفخارية والمعدنية والأخشاب والورق
والزجاج . وتستلح أن تبين اهتمام البطالة
بسد حاجة الاخرى من اعتماد صناعة
المسوجات الصوفية ونصين أنواع النبذ
المصرى واقتدار صنعم واستثناء زيت
الزيتون من الزيوت التى كانت الحكومة
تحتكر استخراجها وبهما .

وقد التقى الاخرى فى عهد البطالة فنور
الصناعة التى كان المصريون قد بلغوا بها
عهد النراثة حدا يقرب من الكمال . وبطبيعة
العال كان شأن الاخرى فى مصر شأنهم فى أى
مكان آخر اصلوا فيه بأساليب الحضارة
الريقة القديمة ، ومعنى ذلك اهم المتبسا
أولا فن الصناعة الوطنى ، وتعلموا كل ما لم
يصنوه منه قبالا ، وكذلك أخذوا عنه بعض
المظاهر وأشكال الزخرفة ، ثم صبغوا كل
ذلك بالصغة الافرىقية وجعلوه مواثما لذوق

والبهار والأقمشة النادرة والأخشاب الثينة ،
حما كانت تنقله بكثرة القوس الدبية وحياة
الزراعية والثرف لا في مصر وحدها بل كذلك
في عالم البحر الأبيض المتوسط . وفضلا عن
كل ذلك كان البطالة يستعملون بروج تجارة
مصر الخارجية للقرز بتراء ، يرضي بتميمون
عليه سمائم فوهمه ، وكذلك نشر نفوذهم في
أرجاء العالم المتمدن ، فالتجارة فألما تسبب
العلم . وقد أسلفنا ان البطالة كانوا يشدون
ضمان تفوقهم الاقتصادي على منالهم
ولعب الدور الأول في السياسة الدولية .

وقد حالفه التوفيق البطالة الأوائل ،
لتمتعوا بحبة من الزمن بزيادة مياصرة
وتجارة في بحر ايجة ، وأصبحت الاسكندرية
من أهم المدن التجارية في العالم . وكانت أهم
المواد التي تصديرها مصر الى أسواق بحر ايجة
هي العجوب المذابة وورق البسردى
والمسوجات الكتانية ، فقد كانت مصر أكبر
مركز لإنتاج الفلأن في شرق البحر الأبيض
المتوسط ، كما انها كانت تحتكر صناعة
لثامه البردي وتصديرها الى كافة أنحاء
العالم القديم ، وكذلك كانت تصدر منذ عهد
بيد بسوجاتها الكتانية الدقيقة . وكانت
بلاد الأفرنج ، وأسبا الصغرى تصدر الى مصر
الكثير من منتجاتها ، وكان من أهمها الفلران
والأخشاب والعديد والبيسند والفاكية
والأسطك المجففة وزيت الزيتون ، لكن
المكوس الواقية التي قرضها البطالة حدث

من كمية تلك الصادرات وجعلت الميزان
التجاري في صالح مصر . ولا شك في أن
البطالة كانوا يأخذون قسمة نية لقاء الجانب
الأكبر من صادرات مصر ، بمعنى أن تجارة
مصر مع بحر ايجة كانت تمدها بجانب كبير
ما تحتاج اليه من الفضة .

ومنذ أواخر القرن الثالث تأثرت تجارة
مصر مع بحر ايجة بثلاثة عوامل رئيسية
وهي : أولا ، فباع سيادتها البحرية ، وثانيا ،
اشتل الذي مضى اقتصادها من جسماء .
الاضطرابات الداخلية ، وثالثا ، ما أحرزته
برجم وبشيبا وبوتوس والقرم من التقدم
الاقتصادي ، ولا سيما في الزراعة ، في خلال
القرن الثاني قبل الميلاد . وليس معنى ذلك
انه قضى على تجارة مصر مع بحر ايجة قطاه
تماما ، إذ أن الفرائس تشير الى أن مصر كانت
لا تزال تصدر الى هذه الأرجاء بعض الحبوب
فضلا عن بعض منتجاتها الأخرى مثل ورق
البردي والمسوجات الكتانية والمصنوعات
الزجاجية . وتشير انفران كذلك الى أن مصر
أصبحت تستورد من بحر ايجة كميات كبيرة
من الزيت ، لعله كان من زيت الزيتون

وقد جبرصح البطالة الأوائل في انهاء
علاقات تجارية وثيقة مع الأسواق الغربية ،
وجنوا من وراء ذلك فوائد خائلة ، لأن هذه
الأسواق كانت تستطيع استيعاب الكثير من
المنتجات المصرية ، وكذلك سد الكثير من
المطالب المصرية بمد مصر بالخول من قرطجة

والهند (وكان العرب يحتكرون التجارة الشرقية القادمة بحرا) على العطور والبهار والبخور والمسك والقرحة والماج والأرز والأصداف واللؤلؤ ، والأصبغ والفضة والحسري .

وكانت منتجات أعالي النيل تصل مصر إما عن طريق النيل أو طريق اتقوا على أو عطبة اكسوم والبحر الأحمر . أما التجارة الشرقية لما لها كانت تسلك ثلاثة طرق رئيسية في سبيلها نحو البحر الأبيض المتوسط : وهي أولا ، طريق التماسك ، وكان يتجه من (وسط آسيا نحو بحر فروزين والبحر الأسود واليسور والمريديس . وثانيا ، طريق الوسط ، وكان يأتي من الهند برا وبحرا إلى سيلوكيا على الدجلة ثم يتجه إلى دمشق وسور ، أو إلى طابجة ومنها إلى اقيسوس . وثالثا ، طريق الجنوب ، وكان طريقا بحريا من الهند إلى الموالى في جنوب بلاد العرب أو جنوبيها الغربي ، وكانت جميعا في عهد البطالمة ادفا وجزيرة سقطرى . وكانت المراكب الهندية تفرح حولتها في قبضة العرب ، فقد كانوا يحرصون عند المرض على هذه التجارة إلى حد أنهم كانوا لا يسمحون للمراكب الهندية بدخول بوهاز باب المندب .

ولما كانت منافذ هذه الطرق الثلاثة تقع في آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وقبضتها ، وكان ملوك مصر يحرصون على وضع التجارة الشرقية في قبضتهم ، فإن البطالمة وجهوا عنايتهم في ثلاث القرن الثالث إلى

وصقلية ، وبالقصور من إيطاليا وصقلية ، وبالفضة من اسبانيا ، وبالقصدير من بريطانيا عن طريق قرطبة وإسبانيا ، وبالحديد من إيطاليا ، وأدلة متعددة على أن علاقات مصر التجارية مع البلاد العربية كانت تنسبلة بوجه خاص في القرن الثالث قبل الميلاد حتى تسببت الحرب البولية الثانية فثلت هذه العلاقات ، لكن ينسب من الفرائض المعددة انه بعد أن وضعت هذه الحروب أوزارها احدث تاملت ثابة تجارة مصر مع الاسواق الغربية ، التي احدثت منذ اقرن الثاني مكانا بمصر ايجبه وتعدت أهم موانئ لا متجانب الصالح الهلبسني وما يجدر بالملاحظة أن إيطاليا لم تكن عندئذ في حاجة إلى حبوب مصر فدر حاجتها إلى منتجات الصناعة المصرية ومواد الترف التي كانت مصر تسوردها من الصومال وبلاد العرب والهند . وقد ساعد على وراخ تجارة مصر مع الغرب تمدد قرطبة تدميرا كاملا بعد الحرب البولية الثالثة .

وقد أظهر البطالمة اهتماما كبيرا بالتجارة مع الجنوب والشرق من أجل تصريف المنتجات المصرية مثل المنسوجات والزيتون والأبيسة الزجاجية والأسلحة وغيرها من معدات القتال فضلا عن التبيذ المستورد من البحر الأبيض المتوسط . وكذلك من أجل الحصول من أعالي النيل على العاج وحبوب التماسك وعجول البحر والبيد وريش النعام ، ومن بلاد الصومال ومن بلاد العرب الجنوبية

الاتصال بحرا ببلاد الثوبة حيث توجد مناجم الذهب ، وبلاد الصومال حيث تتوفر مواد لم يكن لمصر عنها غنى منذ عهد الفراعنة ، كان البطالة الأواخر يستمدون تنشيط التجارة مع بلاد الصومال وبلاد العرب الجنوبية والهند . أما حديد الصلبة فقد أصبح نحسب في موضوع نتيجة لاستثناء البطالة عن استخدام النيلة في جيوشهم .

وجملة القول أنه في خلال القرن الأول من حكم البطالة ، ازدهار الزراعة وللهم الصناعة وتداول النقد ، واصبح ملك البطالة وعنايتهم بالسيطرة على الطرق البحرية المؤدية الى مصر وعلى منافذ طرق التجارة الشرقية ، والقضاء العلاقات مع الدول الخارجية ، وراجت تجارة مصر الخارجية فوصلت منتجاتها شرقا حتى الصين وغربا حتى اسبانيا وشمالا حتى بريطانيا وجنوبا حتى أواسط أفريقيا .

وقد صاحب تدهور الزراعة والصناعة ، وانكماش ممتلكات البطالة الطرجيسية ، وضعف موقفهم في السياسة الدولية انكماش تجارة مصر مع بحر ايجة وكذلك مع الشرق . وازاء نقص موارد مصر نقصا خطيرا وزيادة الاقبال على السلع الشرقية وجسه البطالة الأواخر وخاصة بطليموس الثامن اهتمامهم لتنشيط تجارة مصر مع الجنوب والشرق . وقد حالت التوفيق أولئك البطالة فعدا لتلك التجارة شأن كبير كان له اثره في انماش تجارة مصر مع الأسواق الغربية بعهد أن كانت

لاستيلاء على الأقاليم التي تجمع فيها تلك المنافذ . وعندما تلاشى سلطان البطالة من بحر ايجة وطردها من آسيا الصغرى وسوريا وقلسطين وفينيقيا في خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد ، اتجه اهتمام البطالة ولا سيما في عهد بطليموس الثامن عنيد منتصف هذا القرن الى البحر الأحمر ذاته للسيطرة على تجارة طريق الهندسوب قبل بلوغها منافذ ذلك الطريق . ولم يثبت أن استمد هذا الاهتمام الى المحيط الهندي أيضا .

وقد جنى بطليموس الثامن اطلب الثمار من وراء الجهود التي بذلها لتنظيم الطريق الجنوبي وأمينه إذ ازدهرت باطراف مقادير التجارة الشرقية التي كانت تمر بمصر في عهده مما كانت عليه في عهد سابقه وقد ساعد على رواج تجارة مصر الشرقية عدة عوامل وهي : (١) الاقبال المتزايد على السلع الشرقية (٢) كشف طرق الاستفادة من الرياح الموسمية مما يسر الأبحار مباشرة الى الهند دون الالتجاء الى الأهراب ، (٣) ضعف مملكة السبوكين بإطسراه (٤) الهيار مملكة سبأ في عام ١١٥ ق . م .

وهكذا أحيى البطالة الأواخر مسيرة البطالة الثلاثة الأوائل في تأمين وتنظيم الطريق البحري بين مصر وجوزاز باب الهندس ، لكن بينما كان البطالة الأوائل يستهدفون من وراء ذلك تيسير صيد النيلة واستناسها ونقلها من أجل استخدامها في جيوشهم ، وضمان

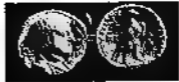
العرب البونية قد شلتها وألحقت بها ضررا
خطيرا .
راجعا - النقود :

حين كانت المدن الاغريقية وبلاد الفرس
تستخدم النقود منذ عدة قرون ، لم تكف
مصر عن تنظيم معاملاتنا على أساس التبادل ،
الا ان هذا لا يبنى أنها كانت تهمل تماما
استخدام النقود ، فقد كشفت الحفريات في
تيراپوليس وسنود وبنى حسن في طيبة من
الأرض سابقة على العهد المقدوني عن نقود
اغريقية وقارسية ، بعضها أصيلة وبعضها
تقليدات محلية . مما يدل على ان هاتين
المطقتين كانتا متداولتين في مصر وتساكن
فيها قبل الفتح المقدوني ، وان كان تداولها
محدودا ، ويبدو أنه كان مقتصرا على
الاثريين والفرس . فقد كان ملوك مصر في
العصر الصاوي يستخدمون جنودا مرزفة
من الاغريق كانوا يأخذون أجرهم نقدًا ، وفي
عهد الفرس كانت توجد في مصر حامية
لارسية وكانت مصر تدفع لحكامها الجدد
جزية نوعية من الحبوب وجزية نقدية .

ومضى الى الاسكندر الأكبر والبطلة
الفضل في ملكه عملة أخذ تداولها ينتشر في
مصر ورويدا وريدا وان لم يحضر كمية على
نظام التبادل . وتتألف العملة البطلمية من
نقود ذهبية ونقود فضية ونقود برونزية .
ومما يجدر بالملاحظة ان التمسود الذهبية
والنقود الفضية نوعان : أحدهما عادي وكان

يسك في عهد الملك الذي تحمل صورته
والآخر فذكاري لتخليد بعض الملوك السابقين
وكثيرا ما تحمل العملة الفضية العادية على
الوجه مسمورة بطلمبوس الأول مؤسس
الأسرة ، واسم بطلمبوس الذي حملته كل
ملوك هذه الأسرة . وبطبيعة الحال تحسب
النقود الذهبية والنقود الفضية غير العادية
سود مختلف ملوك وملكات البطالة الذين
سكت هذه النقود لتخليد ذكراهم . وتحمل
النقود البرونزية على الوجه في حالات كثيرة
صورا مأخوذة من الأساطير ، كانت أغلبها
رأس زيوس آمون ، وفي بعض الحالات رأس
الاسكندر ، أو أحد ملوك أو ملكات البطالة .
وقد كان الطابع الذي يميز كل نقود البطالة ،
فيها عدا فنة محددة أغلبها فذكاري و
يشتمل على النهر ويتألف من لمر واقف
على صاقلية ، وأمامه أو فوق جناحه قرن
واحد أو قرنان للرغاء ، وزي على ظهر
النقود البرونزية التي سكت حينما كان
ابولابوس ولنايوس ينوليان الوصاية على
بطلمبوس السادس لمر واقفا على صاقلية
وشتم جناحه الأيسر صولجان وإلى يساره
زهرة القوس التي تعتبر أهم طابع لشعوبه
بطلمبوس السادس البرونزية . وشتم ظهر
النقود الفضية التي سكتها بطلمبوس الثاني
عشر وابنته كليوباترة السابعة بوجود فرع
فخلة تحت الجناح الأيسر لمر واقف بزمام
أمامه .

أمثلة لتعود البطالة :



- ١ - قطعة ذهبية تحمل على الوجه صورة نصف لبطليموس الرابع ، وعلى الظهر نسرا والفا على الصاعقة .
- ٢ - قطعة ذهبية تحمل على الوجه صورة نصية لبطليموس الخامس ، وعلى الظهر نسرا والفا على الصاعقة .
- ٣ - قطعة نصية من عهد بطليموس الأول تحمل على الوجه رأس الاسكندر ، وعلى الظهر أنها برودانوس .
- ٤ - قطعة ذهبية من عهد بطليموس الأول تحمل على الوجه رأس بطليموس الاول ، وعلى الظهر نسرا والفا على صاعقه .
- ٥ - قطعة ذهبية سكنت تذكارا لارمستوى الثانية ، وتحمل على الوجه رأس همنه الملكة ، وعلى الظهر قرص الرخاء .

كانت الغضة هي القاعدة الأساسية للمعلة انطلبة . لكن عندما قلت الغضة التي كانت مصر تحصل عليها من تجارتها مع بلاد الاعريق وقرطبة نتيجة لانكماش تجارتها الخارجية بسبب سوء حالتها الاقتصادية ، وضاع مستلكتها الخارجية ، وتخلص سيطرتها على الفرق التجارية ، ودخول التعريب اليوية الثانية مرحلتها الحاسمة ، اضطرت مصر الى اتخاذ البرول قاعدة أساسية لتدعها . وادا كان هذا التغيير قد أفضى الى ارياد تدافون العملة البرورية مع ما يقابل ذلك من نقص تدافون العملة العظية ، فإنه لم يؤد الى الغضاء كلية على قاعدة الغضة .

وما كانت حال البلاد الاقتصادية قد اهدت تسير من سوء الى أسوأ ، ولقصدت بما لذلك موارد البضائه يسما لم تنفض التراماهم ، فإلهم لتخفيف هذه الالتزامات على حساب سكاذ البلاد لجأوا الى زيادة النية الأساسية للعملة البرورية ثلاث مرات منذ حوالي عام ١٨٢ في . م . حتى سعوض دولتهم ففي آخر عهد بطليوس الخامس بلغت الأجرور والأسمار ٦٤ مرة كالأجرور والأسمار المائلة في عهد بطليوس الثاني والثالث . وعند منتصف القرن الثاني ارتفعت الأجرور والأسمار الى ٦٤٠ مرة مثل ما كانت عليه في عهد بطليوس الثاني والثالث . وفي خلال القرن الأخير من حكم البطالمة بلغت الأجرور والأسمار ٤٨٠ مرة مثل ما كانت عليه في عهد بطليوس الثاني والثالث .

وقد كانت المعلة الغضة أكثر عملان :بطالمة شيوعا على عهد البطالمة الثلاثة الأوائل . وحتى منتصف عهد بطليوس الثاني لم تكن المعلة البرورية سوى عملة رمزية ، تكن في العهد الثاني من عهد هرذا الملك سبب كميات كبيرة من المعلة البرورية الثقيلة الوزن ليستخدمها الناس بحسب قيمة ما فيها من معدن . ولتفسير أولاده الأثرية والبردية التي ترجع الى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد الى أن المعلة البرورية الجديدة قد صادفت بجأها كثيرا .

ومنذ الفصح المقدوني كاسب المعلة سبب في مصر على قاعدة النظام الأثيني ، لكن بسبب أن اتخذ بطليوس الأول لقب ملك (سبم ٣٠٥ في . م .) بسبب ظيلة تصدع عملين ، لخصه وذهبه ، أهل ورا من السنة القديس لتتيط التجارة الخارجية وانوليق بين المعلة واسعار اعمادن النقيسة التي كانت زواذ باطراد في حالة الغضة وتنافس في حالة الذهب ولم تكن قاعدة المعلة الجديدة اتفاقا بما مع قاعدة أي عملة معروفة عندئذ ، لكنها كانت أقرب جدا من قاعدة النظام البرودس . وبعد ذلك أخص بطليوس وزن الصنطين الفضية والذهبية ثابته بانخاذا قاعدة العملة التينيقية . وقد احتفظ البطالمة حتى نهاية أسرهم بهذه القاعدة التي اسمها أيضا امبراطوريتهم البحرية وكذلك كل البلاد التي صعدت لتعودهم بأي طريقته كانت . وحتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد

الفصل الخامس

النظام المالي

الإدارة المالية - نظام الأراضي - تقديم الصناعات والحرف - نظام التجارة -
صرائب حتى - نظام حياض الضرائب

أولا - الإدارة المالية

المالية في مصر وفي كل مستعانتها الخارجية .
وكانت اختصاصات هذا الوزير فضفاضة
واسعة ، فهو الذي كان ينظم شؤون كل
شئون الإدارة المالية دخلا وخرجا في مصر وفي
ولاياتها ، ويمين موظفي الإدارة المألوفة
وإرفاجهم ويعاقب المقصرين منهم ، وتسميد
سلطاته على كل الذين يشتغلون باستغلال
موارد الدولة مثل الأراضي والاختراعات .

وتسند مملوسات وكثيرة من وثائق
زينون البردية عن إبولونيوس وزير مالية
بطليموس الثاني وبسند أن إبولونيوس
عين في منصبه الكبر حوالي عام ٢٦٢ ق. م .
وأنه بقى فيه حتى وفاة بطليموس الثاني ،
وأنه حين وصوله مصر أملكه قبل العمام
الخامس من عهد بطليموس الثالث . ويتبين
بوضوح من وثائق زيسموند أن
إبولونيوس لم يقصر نشاطه على مهام
منصبه فقط ، فهو لم يكن وزيراً فحسب بل
كان أيضا تاجرا وصاحب غياض ومصانع
وممتلك أسطولا بحريا وآخر نهريا . وتعمل

يجدر بنا أن نذكر 'ولا' التي أن نظم
البطالة المالية كانت ترقية في جوهرها ، فقد
كانت تسند إلى أن الملك صاحب الأرض
وما عليها وما في باطنها ، وإلى أن الأهالي
يلتحون هذا الملك الإله ناطة مبياء . ومع أن
البطالة صبغوا هذه النظم بصبغة افريقية
فوية تصح في دفة سياستها واستلحاحاتها
وحرفة تنظيم الضرائب وأشرفه الإدارة المالية
على موارد الدولة المختلفة ، وخاصة في نظام
المصائب والمراجعة الذي لم يكن لمصر عهد
يشتهر من قبل ، إلا أن هذه النظم أفلحت إلى
حد كبير جوهر النظم الاخرية ، وهو يتلخص
في مبادئ أساسية : الامتلاك الخاص
وحرية النشاط الاقتصادي .

وقد كان يهتم بعضاياتها المتخصص
والعرج خزامة مركزية أطلق عليها اسم
« خزامة الملك » . وكان مدير هذه الخزامة
يسمى ديويكيتس ، ويسكن تشييه بوزر
المالية عندما ، فقد كان مسئولاً عن كل الإدارة

ايرونوليس كان في طليعة أولئك الوزراء الذين لا يكتفون بالاضطلاع بأعمال مناصبهم من مكاتبهم ، إذ تعدوا الوثائق عن طوافه بالمندوبات من أجل الاشراف على أعمالهم مرهوسيه والب فيما يتعرض عليه من انفاكل . وكان يتب في بعض الأحيان عن العاصمة بضعة أشهر ، ولصحبته في هذه الرحلات حاشية كبيرة من الأعضاء والموظفين فقد كانت لوزير ائالة حاشية تبدو كأنها صوره مصره بعائيه الملك .

وكان يوجد الى جانب وزير المناج وعضو اشرافه مرادج عام للمسابب والاحصاء ان oblogian كان له مشيلون محليرب في المديريات ، وكان لوزير ائالسة ساعدون كتيروب hypodoucal يهوا ان كل واحد منهم كان يضمن الاشراف على شيلون بسطه مبية تشمل عدده من المديريات . وكان كداداره ائالسة المركزية سيشلون كشيرون يشتررون في المديريات والاقائيم والفري ، ويضئى كل منهم بهام مبية تحت اشراف دفايه شيفه . وكان هذا الجهاز المعمد يئض ائدولة بسط رفايتها على مختلف مرافق البلاد الائصادية ، ويطبق النظم التي وضعت لئلك ائراف ، ويجمع كافة البيانات الخائسة بالموارد التي ئئئدها الدولة من كافة ائحاء كل مديرية وخصان الحصصون على كل ما ئئئقفه الدولة من تلك الموارد .

وقد لجأ البطانة الى وسائل مختلفة

لعسان أداء الموظفين واجباتهم بأمانة ، مثل حلف اليمين ، وتعيين مختلف المرابين ، لكن هذه الوسائل فشلت في تحقيق الربايه المشروءة . وردد ذلك الى ثلاثة عوامل وهى :
 أولا المشورية المفتاة على اعظم عن دخل الملء . وثابا الرشاوى التي كانوا يقدمونها لسئورين من أجل الحصول على مناصبهم ، وثلا السلفه المظففة التي كانوا يشتررون بها على سبب أدله الحكم الأجهي واخضعتهم الصوره ملا سبب اراء ذلك ان السبب المرفعون اسفلال سلطهم الى حصة ائهم سببوا في الواقع ائد خفرا على البطانة من التاصح الذين وهم عليهم المطالم وهبوا كائرين لعرض ائدها في وجه البطانة .

ثانيا - نظام الاداسي :

لقد مررنا ان ائطائلة كانوا يصيرون مصر شيمه لهم بحق الفئح وحق الملوك الاالى ولقد ترب على ذلك ان الملء كان من الساجه النظرية المائلك الوجود لهذه الصيغه ، ومن ئم يسكن تقسيم الأرض الى عهد البطافة فئصق ريمسئين وهما : أرض الملك ، وأرض ائطلاء .

١ - أرض الملك :

وتشمل كل أرض مصر الصالجة للزراع التي كان الملك يسئئرها مباشرة بتأجيرها بائزاد العئس لزارعين كانوا يدعون « مزارعي الملك » . وكانت علاقات هؤلاء المزارعين بالملك ئنكز على عئود كانت في القرن الثالث قبل الميلاد لمء قصيره الأجل ، ئكته

كان من بين النتائج التي ترتبت على تدهور الحالة الزراعية وقرار المزارعين من أراضيهم اطالة مدة العقود .

ومع ان مزارعي الملك كانوا رجالا احرارا ، الا انه كان يتعين عليهم زراعة الأرض التي استأجروها وعدم جباة جرائم ملوأن موسم الزراعة وحتى يسدوا للطلت جميع التزاماتهم قبله . وفضلا عن ذلك فانه لم يكن للمزارع المستأجر ان يزرع الأرض التي استأجرها كما يشاء ، وانما وفقا لتعليمات التي كانت الحكومة تصدرها سنويا لتحديد بقشفاها المساحة التي يجب زراعتها في كل مديرية تمعا وشعبيا ، وأذرة وكثاا وجبونيا وبنية . ولكني تضمن الحكومة زراعة الأرض وجودا البذور ، كانت ترضى على المستأجر ان يقرض منها البذور لقاء عائلته فدرها ١٠٠ ز . وكان يتعين على المزارع ان يصنع المحصول وينقله الى العرن الملكي وينسبه تحت رقابة حراس مسئولين ، والا يمس به شيئا قبل ان يأخذ الملك كل ما يستحقه . وكان ذلك عبارة عن الايجار السنوي مضافا اليه اجر استخدام مراضي الملك والفائدة عن قرض البذور وسلسلة من الضرائب ، فكان لا يتبقى للعلاج بعد ذلك الا أقل من نصف المحصول في مقابل كل ما انفق من جهد . فلا يجب انه لم يكن سعيدا راضيا عن حاله .

وعندما تدهورت الزراعة ازدادت حالة مزارعي الملك سوءا حتى ان الكثيرين منهم

لم يعدوا متفذا أمامهم الا ترك المسائل والمهرب . وعندما أعيت الحكومة شتى الحيل لضمان استغلال أرض الملك ، اضطرت الى الاتجاه الى الاكراه لتحقيق مبيها ، لكنها بقدر ما أوغلت في استخدام هذه التوسيلة استنفذت دله هرب المزارعين حتى أصبح وباء مبهشيا في كل أنحاء مصر .

٢ - ارضي المعطاء

ويبدو انه لم يكن لمباشرة أرض المعطاء مدلول متقن عليه دوما حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد عندما أصبح تشمل الأرواح التالية من الأرض :

١ - الاراضي المعفاة :

كانت ثروة المعابد موعنا ، وكان النوع الأول ملكا خاصا للآلهة . وكانت اهم أملاك الآلهة ميسارة عن الأرض التي كان الملوك يسهولها منذ ظاير الزمن لاختلاف الآلهة ، حتى أصبحت لآولئ الآلهة ، ملكات واسعة كانت مصدر ثراء الكنيسة وتحد أسباب قوتهم وفردتهم . فقد كان كسبة كل معبد يتولون ادارة أرض مبيدهم . امي أن أسند البطالة الأوائل داره 'واسمى المصايد المصرية الى الحكومة ايجمعوا الدبل الماوي سبنا مصلنا على رقاب الخفة يضمن متطوعهم لمسلطانهم . ولا يعد ان البطالة كانوا يستفيدون أيضا ماديا من وراء قيام الحكومة بادارة أرض المعابد . وعلى كل حال يبدو ان الحكومة كانت ترد الجانب الأكبر من دخل راضي

المعابد في شكل المرتبات التي كانت تدفعها للكهنة وبين أنه حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، ازدهر صنف البطالة الأواخر وازدياد نفوذ الكهنة ، استرد رجال الذين إدارة الأرض المتسعة .

أما النوع الثاني من ثروة المعابد فكان الكهنة يملكون أو يتصرفون بدولة للقبائل بشرى العبادة ، فقد كان يحصل ببعض مناصب الكهنة موارد مختلفة تدعى على شاعلى تلك المناصب دخلا مينا . ويلاحظ أنه قبل عصر البطالة كان الكهنة يستطيعون التصرف في دخل هذه الموارد بالبيع أو التورث ، لكن البطالة جعلوا الحكومة هي التي تتبيع مناصب الكهنة وما يتبعها من الموارد دون أن تعطى المشتري حق التصرف في تلك الموارد ، وقد حرص البطالة على هذا الحق حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد ، ومع ذلك تشير بعض الوثائق إلى أن الكهنة درجوا فعلا على بيع مناصبهم ورهنها وأجبرها وتقسيمها وتوريثها .

ب- الإقطاعات العسكرية :

لقد خلف القول أن البطالة ، ولا سيما والتهم ، اعتمادا إلى عدد كبير على مشغولين من الأجانب في بناء قواتهم العسكرية . وقد درج البطالة على منح توتسمك المشغولين إقطاعات كانت تشير سنابا مرتباتهم في وقت السلم . وكان البطالة يتوخون من وراء ذلك : أولا ، ضمان سد حاجتهم إلى الجند المدربين

كلما اقتضى الأمر ذلك ، دون تحمل نفقات الاحتفاظ بجيش قائم . وثانيا ، ادخال وسائل اقتصادية جديدة في مصر . وثالثا نشر الحضارة الاغريقية في أنحاء البلاد

وكانت مساحة الإقطاع تختلف حسب مرتبة الشخص ، وحمل هو في فرق المنفعة ، ثم فرق الفرسان ذات الأرقام ، ثم فرق الفرسان الغنوية ، وحمل هو في الفرق النظامية ، ثم في فرق الجنود المرتوقة ، أم في الفرق المصرية .

وفي أول الأمر كان الإقطاع ملكا للتاج ، وكان الملك يستطيع استرداده ولا سيما إذا أهمل رب الإقطاع في أداء واجباته أو توفي . ولما كان من مصالح الملك أن يخلق رب الإقطاع المولى جندي جديد في الجيش وفي الإقطاع ، وكان من صالح أسرة رب الإقطاع أن تشير إلى استغلال الإقطاع ، فقد أدت على هذا النحو صيغ الإقطاع الملك ورجال الإقطاعات إلى جعل الإقطاع وراثيا .

وفي القرن الثالث كان الملك يستطيع الإقطاعات عادة من الأربط التي استصلحتها الحكومة ، لكن عندما تطورت ملكية كثر من الإقطاعات إلى ملكية خاصة ، وأفضى تنهوير الزراعة إلى نقص مساحة الأرض المزروعة ، لم يكن هناك مجال لأعطاء الجنود الجند سوى تلك الأراضي التي أصبحت لسبب ما خلال منحن الاضطرابات العسيرة في القرن الثاني قبل الميلاد ضيقة أو غير متمسكة . ولما لم يكن لكثير من أرباب

الاقطاعات غيرة بالزراعة ، وكانوا كثيرا ما يدعون للخدمة العسكرية ، أو القسام ، ماعبدال الحميات في مصر أو الخيارج ، أو لتقيام بالثانويات ، فانهم كانوا عادة غفلون تأجيرها لمزارعين مصريين .

والى جانب الاقطاعات كان الجنود يمنحون ممتلكا . وفي القرى البعيدة كان الملك أو أصحاب الضياع يشيرون لهم بيوتا ، أما في المدن والقرى الجديدة ، فان الجنود كانوا يمنحون مساكن ■ بيوت الأهالي . وإذا كان المصريون ، باقتباسهم الغالبية العظمى من سكان البلاد ، قد تحملوا العالب الأكبر من عبء ابواء الجنود ، فان الاخرى كانوا يشاؤكونهم تحمل هذا العبء ، منذ القرن الثالث قبل الميلاد .

ج - ارض الهبات :

وهذه الأرض نوعان ، كان أحدهما عبارة عن أرض يتم دخلها بمشاة عرب موظف الحكومة الذى منح هذه الأرض . أما النوع الآخر فكان عبارة عن الضياع الكبيرة التى أعدها البطالة على أصحاب الحقوة لديهم من كبار موظفيهم المدليين والعسكريين ، الذى الصغروا بولوجة النشاط ومن التدير .

وتشير الوثائق الى أن الهبات قد تنسل أرضا زراعية فقط ، أو أرضا زراعية وقرية واحدة ، أو عدة قرى فقط ، والى أن الهبة كانت منحة شخصية لا يجوز التصرف فيها بالميسع أو الرهن أو التورث ، والى أن

الأرض الصالحة للزراعة في الضياع الموهوبة كانت تعامل مثل أرض الملك ، أى انها كانت تدفع للتاج ايجارا وخرائب .

د - ارض الامتلاك الخاص :

تتبع من الوثائق انه كانت توجد في جهات متفرقة في مصر مساحات كبيرة من الأرض يمتلكها لأفراد . وتشير الوثائق الى انه في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد كانت زراعة الكروم وبساتين التماكة في الأرض اثنى هجرت سبب جفافها أو طيها المساء عليها تكسب الزراع حق امتلاك هذه الأرض امتلاكا تاما . ولا يمد ان هذه القاعدة كانت شمة منذ القرن الثالث أيضا . وكان الأفراد يمتلكون كذلك امتلاكا حرا اراضى البناء وما عليها من مبان . ويبدو أن البطالة قد عملوا منذ بداية عهدهم على ارباد مساحة أرض الامتلاك الخاص . فقد كان ذلك يساعد على التوسع مساحة الأرض المزروعة ، وعلى نشر لحرس الكروم وبساتين التماكة . وعلى وجود طبقة من أصحاب الاملاك تمد البطالة بأعداد وقيرة من الموظفين والمترجمين وضائمتهم الذين يمكن الرجوع على ممتلكاتهم في حسالة خدم الوفاء بالتزاماتهم .

وتبين من الوثائق انه كانت توجد في جهات متفرقة ، وخاصة في الوجه القبلى ، مساحات من الأرض تزرع حصوبا ويمكن التصرف فيها بالميسع والشراء والرهن

كانت لهذه الصناعة شأن كبير في مصر منذ عهد بعيد ، لكنها ازدادت شأنًا في عصر البطالة ، فقد صاحب استصلاح الأرض البور زراعة مساحات واسعة نباتات زيتية ، وبوجه البطالة عتية كبيرة التي تنظم هذه الصناعة تنظيمًا دقيقًا ، لزيادة الإنتاج وتحسين الصنف . ومعلومًا من هذه الصناعة أوليها من أي صناعة أخرى .

وتبين من الفوائج الخاصة بتنظيم هذه الصناعة أن البطالة كانوا يتوخون ثلاثة أهداف رئيسية وهي : أولاً ، قصر استخراج الزيت على الملتزمين الذين تستروا من الحكومة عن التزام صناعة الزيت من بسب أو الضروع أو القرطم ، لكن الحكومة كانت تسمح للمعاهد بأن تصنع من زيت السمسم في خلال شهرين ، ما يحتاج إليه في عام واحد . وثانياً ، ألا يستخرج أحد الزيت لخدمة إلا قدم للمحاكمة وفرضت عليه عقوبات صارمة ، وذلك ، أن تتوفر المساعدة الخام والأيدى العاملة لدى ملتزمي هذه الصناعة فقد كانت تحدد كل عام مساحة الأرض التي تزرع نباتات زيتية ، وتفرغ على الأهالي بيع المعمول كله بسعر معين للتمتع صناعة الزيت في المنطقة ، وحظر على عمسالة صناعة الزيت مباحة المقديرة إلى مدينة أخرى .

وكان الملتزم يشتري عن الالتزام في

والثبوت . ومع ذلك لا نستطيع اعتبارها ملكاً حراً لأربابها لمدة أسباب ، أهمها أن ثواب هذا النوع من الأرص كانوا يدفعون عنها اجباراً للثمن ، وإن الملك كان يستلج مسترداد هذه الأرض . وإزاء ذلك لا يمد أن أرباب هذه الأرض كانوا لا يملكون أرضهم ملكاً حراً وإنما يملكون فقط حق استغلالها ويستطيعون التصرف في هذا الحق بما جعل هذا النوع من الأرض شدة الشبه بالأرض المملوكة امتلاكاً حراً .

لكننا - نظم الصناعات والحرف

فقد كانت في حدزة البطالة كميات وفيرة من المواد الخام ، كما كانت تمت امرتهم أعداد كبيرة من الصناع المهرة ، وهكذا توافر لديهم العاملان الأساسيان اللذان يكفلان استمرار أو باع وفيرة من الصناعة . وقد ترتب على استغلال هذين العاملين استغلالاً منظماً دقيقاً إلى ما يعرفه باختكارات البطالة أو بالاعتصام الموجه في مبداء الصناعة البطلمية . فقد كان البطالة يحتكرون بعض الصناعات والحرف احتكاراً كلياً ، مثل استخراج الزيت والملح والجبنة واستغلال المناجم والحاجر ودباغة الحلود والمصارف المالية ، وشرفرفرف على البعض الأخرى ويحتكرونها احتكاراً جزئياً مثل صناعة النسيج والورق وخدمة النحل والمائية والدواجن . وسنكتفي في هذا المقام بالكلام عن صناعات الزيت والنسيج وعن الصناعات الخالية .

منطقة معينة لمدة عامين ، ويتمن عليه عمده استخراج الزيت من كل الحبوب الزيتية التي يشترها ، بل اختران كمية معينة منها بمثابة احتياطي للعام التالي .

ولكى يتفبد الملك من احتكار الزيت الى العمى حد لم يتوان في حماية الانتسماج الداخلي من المنافسة الخارجية الشديدة : فقد كان سعر الزيت في العالم الاخرى اقل نكده منه في مصر . واذلك قرر الا يسمح لاحد باستيراد الزيت من الخارج للمنافره به او اكثر من استهلاكه المخصص لسيدة ثلاثة ايام ، وفي هذه الحالة كان عليه دفع حريية تعادل 1/100 حقيقيا من سعره : لكن بين انه في القرن التالي قبل الميلاد ولعبت الحكومة العطر الذي كانت قد فرضت من قبل على استيراد الزيت الاجنبي . وتقدر لأرباح التي كان البطللة يجنوها من وراء احتكار صناعة الزيت وسه بسبعين في المائة في حالة زيت السمسم و 1/300 في حالة زيت الحنظل .

٢ - صناعة النسيج :

ويجب من الرذائل المختلفة ان الحكومة كانت تمدد مساحة الأرض التي يجب زرعها ككتانا ، ولعظم ان يباع لها بسر معين مقدار معين فقط من محصول الكتان . وكان الحكومة تبذل قصارى جهدها حتى يراون النسيج في كل مديرية أكبر عدد ممكن من الأنوال . وكان على كل مديرية ان تقدم

للحكومة كمية معينة فقط من الأقمشة والملابس التي انتجتها . ويبدو ان حمده الكسه كانت نسبة معينة من انتاج الأنوال العامة . وفي حالة العجز من السداد كان يعين دفع ثمن المنسوجات بحسب ما حددته اللوائح . وكذلك في حالة هبوط المنسوجات عن المستوى المطلوب كانت تفرض غرامات من أجل المعافلة على مستوى الصناعة . وفضلا عن ذلك كانت الحكومة تفرض على الناسجين دفع حريية للمسا كانت حريية الترخيص بمراولة النسيج .

ولما كانت الحكومة لا تشتري كل محصول الكتان ولا تفرض على الناسجين ان يقدموا لها كل منتجاتهم فانه تبين من ذلك انها كانت لا تحتكر هذه الصناعة احتكارا كليا ، بل صناعة الزيت ، وان كان تصرف عليها وتسمم فيها . ولا بد من ان الكتان الذي كان تفرض يمه لها سعر ممن كان يصنع في مصانع ملكية فسر مصانع الأهالي .

ويمكننا ان تبين ما أوردناه ان دخلت الحكومة من الصناعات التي كانت لا تحتكرها احتكارا كليا كان عبارة عن نسبة معينة من انتاج المنتجين بها ، وشريية لمزاولة هذه الصناعات .

٣ - المصارف المالية :

ويبدو ان عملية استبدال النقود وسائر الاعمال المصرفية قد وجدت في بلاد الاغريق

الملكية في القرى وفي المدن دفع ما تسلمه من الأموال العامة إلى المصارف الملكية ، كل في منطقته كل عشرة أيام . ومن ثم يتبين لنا أن بيع الترام أعمال المصارف كان يمثل الأرباح التي يجنيها الملك من صفى دخله .

وقد كان مدير المصارف أو علي الأصح مقررهم ادارتها من الأفسرين ، وكذلك كان أيضا عملاؤهم . ولعل التصار أعمال المصارف وحركة تعاملها على الأخرى يرجع إلى قسمة غالبية المصريين وقتها بينهم باستخدام النقود . ولا يبعد أنه كان يرجع كذلك إلى أن المصريين كانوا يفضسون أن يخلوا حسدو آبائهم وأجدادهم ويضعوا أموالهم في حماية الإلهة . فقد كانت المعادن منسكات مالهامة تتوه بالكثير من أوجه نشاط المصارف المالية .

رابعاً - نظام التجارة

١ - التجارة الداخلية

وتبين من الوثائق أن تعارة العسوب احدثالية في مصر كانت حرة فمما هذه الكميات التي كان الملك يهتم على بعض الرواح أن ييسوها إياه بسر معين ليسد بها فيما يبدو حاجة المديرات التي تنتشر إلى ما يتكفها من العسوب . وسنرى ذلك أن الاتجار في الحبوب الغذائية كانت تصوبه بعض القيود ، ومن ثم لا يمكن القول بأنه كان حراً حرية مطلقة .

أما الحبوب الزيتية فنن الحكومة كانت تفرض بيع كل محصولها بسعر محدد للترمي صناعة الزيت . وكان حق بيع الزيت يباع

منذ أخذ تداول النقد ينتشر وبم في تلك البلاد . أما مصر فانها لم تعرف المصارف المالية بأق معاني الكلمة إلا عندما نشأت في كل أرحائها بعد الفتح المقدوني .

وكان وزير المالية يشرف على المصرف الملكي الرئيسي في الإسكندرية وفروعه في عواصم المديرات والإقاليم والقرى . وكانت توجد صلة وثيقة بين هذه المصارف الملكية وبين فروع الخزنة الملكية في أنحاء البلاد ، لكن يجب عدم الخلط بينهما لإيهما وإن اتفقا في الاسم كان لكل منهما اختصاص معين . فقد كانت المصارف الملكية تقوم بالأعمال المصرفية العادية ، أما أعمال فروع الخزنة الملكية فانها كانت مقصورة على تسليم كافة الأموال الأميرية على اختلاف أنواع مصادرها سواء من الأهالي أم من الملتزمين أم من الدولتين المكلفين بهما . وعندما أنشئت في القرن الثامن قبل الميلاد إدارة حساب الملك الخاص أدى ذلك إلى إنشاء خزائن جديدة تدعى « خزائن الحساب الخاص » إلى جانب الخزائن الملكية .

وكان الملك ييسع حق إدارة المصارف الملكية للترمي بمقتضى عقود كانت مسددة سرانها أحياناً ستين وأحياناً خمس سنوات وأحياناً أكثر من ذلك . وكان الملك يضمن للملتزمين احتسكار بيع النقود وشراؤها واستبدالها ، ويخدم هذه المصارف على الأقل جانباً من أموالها . فقد كان يضمن على الخزائن

الزيت والمنسوجات ، ومن المرجح أيضا الملح
 والمعادن والطور . أما انفس الناس فكان
 يشتري السلع التي لم تعدد الحكومة أسعارها
 وكان يبيعها الأشخاص الذين اشتروا من
 الحكومة حتى انها وبيعها . فقد كان كثير
 من الحرف والصناعات خاصة لنظام قوامه
 أن يسأجر ملتزم من الحكومة حتى انتاج
 سلعه وبيعها في سطقة معينة مثل صناعة
 الصمغ . لكن في بعض الأحيان كان حتى البيع
 وحده هو الذي يسأجر مثل بيع اللصوم
 والعدس المطهي ولا شك في أن أغلب
 هؤلاء الملتزمين كانوا يحددون السعر وخطا
 لعانة الرض والطلب ، لكنه لكيلا ينال
 التجار في أرباحهم ، رأى وزير المالية ألا يترك
 لهم العجل على الغارب ، ولذلك طلب الى
 وكلائه أن يحددوا لهم أرباحا معقولة ، ومنى
 ذلك انه حتى في حالة السلع التي كانت
 الحكومة لا تعدد أسعارها رسميا لم يكن
 الاتجار مطلقا ومحروما من كل قيد ، لأن
 الأسعار كانت خاضعة لنوع من الإشراف .
 وليس معنى ذلك ان كافة السلع التي لم تكن
 لها أسعار محددة كانت خاضعة لإشراف
 الحكومة ، إذ تشير الوثائق الى أن أسعار
 الحبوب الغذائية كانت تتفاوت من وقت الى
 آخر ومن مكان الى مكان ، كما تشير الى
 أن الأرباب كانوا يجنون منها أرباحا فاحشة ،
 وأبلى مرء ذلك الى أن الملك كان أكبر تاجر
 للحبوب الغذائية .

الملتزمين بمتقضى مزاد على . ومنه يظهر
 ببالحقة ان الزيادة لم تكن على سعر الزيت
 لأن الملك كان يحدد سعر البيع بالتجزئة ،
 وإنما على كمية الزيت التي تباع يوميا في كل
 مكان .

وكانت الحكومة تضم مع مقدار معين لها
 من محصول الكتان بسعر معين أما بقية
 المحصول فلم يكن خاضعا لأي قيد ، وكان
 يباع في الأسواق بأسعار متفاوتة
 وينبغي من كل ما سبق صحة ما يذهب
 اليه البعض من أنه لم يكن للتجارة الحرة
 وجود في مدن مصر وقراها ، اللهم الا اذا
 استغنيا الإسكندرية فيما يلح .

ويبدو انه في حالة السلع التي كانت
 الحكومة تحتكر صنعها وبيعها أو تضم
 اعطائها نصيبا معيناً منها كانت الحكومة
 تعتبر تجارة التجزئة بمثابة عملاء الذين
 يساعدونها على بيع السلع للأهالي . وأرجح
 أن كل أصحاب الحرايت كانوا يفسطرون
 الى الحصول من الحكومة على تراخيص
 لحراولة البيع ، والى اعطاء الحكومة في مقابل
 ذلك حائبا كبيرا من أرباحهم .

ويتضح من اعدي وثائق القرن الثالث
 قبل الميلاد ان وزير المالية كان يفسم السلع
 تصنيف : أحدها ، السلع التي حددت
 الحكومة أسعارها ، ويبدو أن هذه السلع
 كانت عبارة عن منتجات الصناعات التي كانت
 الحكومة تحتكرها كخبز أو جزيا ، مثل

ويمكن أن توجز موارد الحكومة من التجارة الداخلية في :

(١) الأرباح التجارية التي تجنيها من المواد التي كانت تحتكر صنعها وبمعها أو استيرادها وبمعها .

(ب) الأجر الذي تجنيه نظير السماح بالتزام صنع وبيع السلع أو بيعها فقط .

(ج) الضرائب التي كانت تفرضها على تجار التجزئة .

(د) الضرائب التي كالتب تعرضها على الأهالي لقاء شراء مادة كانت الحكومة تحتكر صنعها أو استخراجها مثل الملح والجمه .

(هـ) المكوس والموارد التي كانت الحكومة تحصلها عند نقل السلع من منطقة إلى أخرى .

٢ - التجارة الخارجية :

ويمكن تقسيم واردات مصر من مستلكاتها ومن سائر بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبلاد الشمالية الغربية لاسمين . وأحدهما المواد التي كانت مصر تفتقر إليها مثل الأخشاب والمعادن والذوول ، ولجميع الال لازم منها لمد حاجه الجيش والأسطول وباهي مصالحي الحكومة والمشائات العامة لكن استيراده وقصما عسلي الملك ، أما ما يلزم من هذه المواد لمد حاجة الأفراد فكان التجار هم الذين يستوردونه ويدفعون عنه مكوسا جبركية مقولة . وكان القسم الآخر يشعل سلعا تنج مصر مثلها ، وكان

التجار هم الذين يستوردون هذه السلع ويدفعون عنها مكوسا مرتفعة . ويتبين من الوثائق أن البضائع المستوردة من الخارج على الأقل في عهد بطلموس الثاني كانت أربع فئات بحسب المكوس الجبركية التي تجبي عنها ، وكان مقدارها ٥٠٪ عن الفضة الأولى و ٣٣٪ عن الفضة الشابة و ٧٥٪ عن الفضة الثالثة و ٤٠٪ عن الفضة الرابعة . وكانت الفضة الأولى تشمل الزيت وعدة أنواع من البند الفاخر فيما يبدو ، والفضة الشابة ليذ خيوس وقاسوس وكذلك التين ، والفضة الثالثة الفسل والجبن والحوم والأسماك المحضنة والكروامح والاسفنج والمجوز والرمان والأبنة المغربية ، والفضة الرابعة الصوف .

وسا يجدر ملاحظته انه اذا كانت هذه المكوس الصركية تدو مرتفعة جدا بالتقاس أي المكوس التي كانت تجبي في باهي بلاد البحر الأبيض المتوسط ، فإن هذه المكوس البطنية كانت تقابل الضرائب المفروضة على منتجات البلاد ، فقد كانت ضريتا ٥٠٪ و ٣٣٪ التي تدفعهما ستورد البند الأخرى تقاسبالبلاد ضريتي النصف والثلث المفروضتين على زراعي الكروم ، وكذلك كانت ضريبة ٢٥٪ المفروضة على الفسل الأجنبي تقابل ضريبة الربع المفروضة على المتعالمين في مصر ، وضريبة ٢٥٪ المفروضة على الأسماك الجفنة تقابل ضريبة الربع المفروضة على صائدي الأسماك المحليين .

أما الزيت فقد كان استيراده محظورا في القرن الثالث قبل الميلاد إلا الاستعمال الخاص ، وكان يفرض عليه مكوس قدرها 50/ وبتعين بيه في الحال للملك بسعر محدد.

ويبين ما سبقناه ان المكوس البحرية المرتفعة لم يتعمد بها حماية المنتجات البحرية لذاتها ، وإنما قصد بها حماية موارد الحكومة من تلك المنتجات .

فإن وردت مصر من الجنوب والشرق فإنه يرجع ان الملك كان يشتكر شراء هذه السلع عندما كان التجار يظفونها الى مصر أو يستلكاتها . وربما يحد ان الملك كان يشتري هذه السلع له بسعر محدد بمجرد وصولها . ولم تكن المطور والبخور والمزيت تملك عادة في شكلها الخام بل تحول الى روائح ومساحيق وأدوية ، لكننا لم نجد بعد في الوثائق شيئا عن النظام الذي كانت تقوم عليه صناعاتها ، وان كنا لا نستبعد ان البطالة كانوا يشترون هذه الصناعة . ولا نستبعد أيضا ان البطالة كانوا يشترون تصدير هذه السلع في شكلها الخام وكذلك سد منها .

وبتقدير اليوم جدل عتيق بين العامة حول من كان يقوم بتصدير السلع الأخرى من مصر ، فقد سبق أن عرفنا ان صادرات مصر الى العالم العربي لم تقتصر على سلع الجنوب والشرق فحسب بل كانت تشمل أيضا منتجات مصرية كانت أهمها العجوب والورق والمنسوجات الكتانية ، وان مصر

كانت تصدر الى الجنوب والشرق كثيرا من مصنوعاتها مثل المنسوجات والزيوت والأبنية الزجاجية والأصباغ وغيرها من معادن القتال ، وكذلك البضائع المستوردة من البحر الأبيض المتوسط . ونحن نرى ان الملك كان يهتم في تجارة المصنوعات لكتمها لم يشتكرها ، وان كان يشتريها عليها اشترافا دقيقا من أجل الحصول من التجار على ضرائب لطيف مزاوتهم هذا المصل ، وكذلك من أجل الحصول على المكوس البحرية ، وقبل كل شيء من أجل ضمان عدم استنزاف كل منتجات البلاد في التصدير ، ونسبة أن يقل المروض في الأسواق المحلية ليرتفع أسعار المعيشة بما لذلك مما يفضي حشا الى زيادة تكاليف الإنتاج فنقل دواحه ا

عالميا - ضرائب شتى

وبالإضافة الى الضرائب المتعددة التي فرضها البطالة على مزارعي الملك ومختلف أرباب الأراضي والمقنطنين بالحرف والصناعات والتجارة ، فرضوا على رعاياهم ضرائب شتى درت عليهم خلال غيرها ، ولعل أهم هذه الضرائب المتنوعة كانت الضرائب التي فرضوها على : (١) المباني (٢) الصيد (٣) تسجيل العقود (٤) البيع والشراء (٥) المراتبات (٦) انتقال ملكية الأملاك الثابتة (٧) الجراث (٨) استخدام الخوانى (٩) استخدام الطرق الخ .. وذلك فضلا عن الخيرة وعدد من الضرائب الإضافية .

وكذلك ملتزم الضريبة . وما كانت مصالح هؤلاء جميعا واحدة ، بسبب ما غرضه عليهم القانون من العقوبات اذا اخطأوا في أداء مهامهم ، فقد كان طبيعيا أن يتعاونوا جميعا على دفع الضرائب . وهكذا كان هؤلاء المتعاونون تحت رحمة أشخاص كل منهم هو الضالعين من المسئولية المقاه على مخالفهم ، دون نظر الى صالح دفع الضرائب الذين ساءت حالهم على مضي الزمن بسبب ما أرتقوا به .

وكان ما يجسه المصلون يودع لحساب الملتزم في العزائن الملتبية ان كان نقدا ، وفي المخازن الملتبية ان كان عبا . واذا بيع بعد الحساب الختامي آخر العام وجود زيادة في ايراد جمعية الضريبة ، فالها كانت تؤول الى الملتزم . أما اذا وجد عجز فانه كان يتغلب الى الملتزم وشامئيه التضامنة الى سداده . وكان ذلك يستتبع الاستيلاء على أملاك الملتزم والضامئين حتى يسدد العجز .

ويبدو ان هيئة التزام الضرائب كانت مصدر ربح غير قليل في بداية عهد البطالة ، بدلين التنافس في المزايدة وكثرة عسده الملتزمين . لكن يبدو ان الحال قد تبدلت في الشرط الثاني من عصر البطالة ، والا لما نعت لوائح بظلمة الخامس على اعطاء الملتزم مرتبا في حالة وقائه بما ألزم به وعدم حصوله على مكسب من عمله .

وقد لجأ البطالة الى نظام الالتزام في جباية الضرائب نوعية كانت أم نقدية . وكان الملتزمون لا يقومون بجباية الضرائب ، لكنهم كانوا يسهون في الاشراف على جبايتها ، لأنهم يمتنعون تعاقدهم مسح الملكة كانوا يضمنون له الحصول على التمسوه من الضرائب على قدر معين من المواد أو المال .

وكان يشترط منوية في المواد دخل كل ضريبة على حدة في منطقته معينة لم يزد اطلاقا في أي حالة على مديرية واحدة ، وكان يعين الاطلاق عن المزايدة وكل ما ينطوي عليه سيدة كافية تسمح للراغبين في المزايدة بعرف نطاق ما سيظهر في المزايدة . وكان المزايدة يرسو على من يضمن للحكومة أكبر حصيلة مسكنة من ضريبة بينها . وتشير الوثائق الى أنه كان يمكن السماح بفتح باب المزايدة من جديد بعد انتهاءها ، بشرط ألا تقل الزيادة المحروضة عن ١٠٪ مما كان المزايدة قد رسا عليه . وثائق يضمن على الملتزمين الذين يرسو المزايدة عليهم أن يقدموا أشخاصا يضمنون الوفاء بما لهم التعاقد عليه . وكان يشترط على المضمنين أن يقدموا ممتلكاتهم رهنا لوفاء بالالتزام المتأمله عليه ، بصرف أن يكون هذه الممتلكات خالية من أي التزامات أخرى .

وكان يقوم بجباية الضرائب موظفون حكوميون تحت اشراف مراقبين مختلفين

الفصل الثاني

القضاء

القانون المدني - القانون الجنائي - الهيئات القضائية

من أجل تنظيم معاملات الاغريق الذين لم يتسوا الى تلك المدن والجميات كان البطالة يصدرود أوامر ملكية مختلفة الأنواع .

والا كان البطالة قد سمحوا للمصريين والاشريين بتنظيم معاملهم وقد لأحسكام القوانين المدية التي كان بالنه كل منهما ، لانهم اسدروا لمصريين قانونا حائيا موحدا وفرضوا عليها اتباع قواعد موحده للاجراءات القضائية .

اولا - القانون المدني

١ - الاحوال الشخصية :

لقد كان طبيحا أن يوجد فوارق جديدة بين التشريعيين المصري والاشري ، ولرى مثلا واصحا لهذه الفوارق في نقره كل منهما الى المرأة ، فقد كانت المرأة تتمتع في كتب القانون المصري بمسكاة احتشافية ولقد من الاستقلال لم تشره بهذا الشرائع الاخرية . وآية ذلك ان المرأة المصرية كانت لا تزوج الا بمسفر ارادها وبشروط كانت عادة تقبله على الزوج الى حد انها كانت تجعل تمدد الزوجات أمرا متقدرا في الواقع وان كان مباحا من حيث

كان المصريون أهالي البلاد ويؤلفون الغالبية العظمى من سكانها ، ولهم عادات وتقاليد راسخة وقوانين ولظم جعلها الرمن بالمهاجرة والوقار ، وكان الاغريق أكثر العناصر الأجنبية عابدا وأجلهم شانا وأوفرهم حظا من العسورة ، ولقد ادخل البطالة كل هذه الاشبهات في معاملهم عند مسح لهم القضاء . وبما ذلك اجم احتفظوا للمصريين بقدر ما مسح الظروف ، بهوانتهم ولظمهم الموروثه ، فكانت تطبق عليهم قوانينهم المدية التقليدية التي أطلق الاغريق عليها اسم « قوانين البلاد » .

اما الخريق مصر فانهم كانوا ثلاث فدت وهي فده موانسي المدن الاخرية ، وفته أعضاء الجميات القومية وفته الاصريين الذين لم يكونوا مواطنين في المسدن الاخرية ولا أعضاء في جميات مومس وما كان لتلك مدينة وجمية مجموعة من القوانين الاخرية الخاصة بها وتعرف « بقوانين المواطنين » وكانت قوانين كل مجموعة تختلف عن الأخرى فانه من أجل التيسر بين القوانين وكذلك

ينقسن الوعد بأن يعين الطرفان معا حياة زوجيه وكذلك شروطا خاصة بالصدان وغير ذلك من العلاقات المدنية بين الطرفين ولا سيما حقوق الأولاد . أما النوع الثاني من الزواج فيفسر بأنه زواج لفترة محددة قد ينحصر بعدها الى زواج كامل أو قد يتنهي في آخر للفترة المقررة ، دون أن ترتب عليه التزامات دائمة بين الطرفين ، ويتفق العلماء اليوم على أن الزواج بين المصريين كان يقوم على العار تنعوى بين الطرفين ، أما المقعد الذي يصحبه فإنه كان لا ينضم الزواج وإنما يثبت وجوده وينظم العلاقات المدنية بين الطرفين ويحفظ حقوق الأولاد .

أما من الزواج بين الأخرى ، فاجم لي الاسكندرية وبطولبيسي كانوا يحرمون عتدين أحدهما مدي والآخر دبي . وكان الأخرى الذين يشون خارج هاتين المديتين يعرفون نوعين من العقود وهما لا عقود الائتلاف و « عقود الماشرة » . وقد كان هذان النوعان من العقود يفتلان نوعين من الترتيب نوع واحد من الزواج ، ويقصد بهما تنظيم العلاقات الشخصية وأدابيه بين الطرفين رابيات حقوق الأولاد .

ووفقا للقانونين المصري والأخرى كان لكل من الطرفين حق انقلاق . وكان الطلاق يتم بمجرد انفصال الطرفين وتحرير وثيقة من صورتين يثبت بينهما انه لم يعد لأحد الطرفين حقوق قبل الطرقة الآخر .

المبدأ . وكانت أيضا تستطيع الانفصال عن زوجها متى شاءت ، وعطالته بالصدان الذي تنس عليه في عقد الزواج ، وانصرف قنفسها وفيما تنكك دون أي قيد أو شرط . على حين ان المرأة كانت في نظر القسماون الأخرى قاصرا ، ومن ثم فله حاجة الى وصي شرعى عليها في كل تصرفاتها ، لكن البطالة ساواها بين المرأة انصرفة والمرأة الاخرى ، لا يرفع الثانية الى المكابه الأولى ، والنساء اليهود بالاولى الى مستوى الثانية حتى لا تضيق المرأة الاخرى بدالتها . وليس للامر الاخرى أيضا في بعض الصلوان الجنسية بالميراث مثل استخدام الوصايا ، وحق أحد الزوجين في اد يرث الآخر ، وحق المصحص في قبول الميراث لو رفضه ومن لاجبة أخرى أثر القانون المصري في القانون الأخرى الخاص بأحوال انشخصيه ، فقد أخذ الأخرى من المصريين عقود الزواج الضامسة بانبات كل امسال المالية ، والقواعد الخاصة بسيرة الأبوين على بنائهما ، وبعض أحكام الميراث مثل حق البنات في الارث بالتساوي مع الولد والعا بشرط عدم وجود وصية . تناف ذلك .

ويعتقد كثير من العلماء ان القسماون انصرى كان بمنزلة نوعين من الزواج يدموا العلماء أحدهما « الزواج الكامل » والآخر « زواج المنة أو التجربة » . وينقسم النوع الأول بأه زواج يثبت وجوده عقد رسمي

ويُفرق القانونان المصري والاعصري
تاريخاً وانحاز بين الأحرار والعبيد . وكان
العبيد ثلاث فئات وهي : عبيد الملك ، وعبيد
الأفراد ، وعبيد المعابد .

وقد كان من حق المصريين والأغريق على
السواء عمل وبيعان ، ولكني تكون الوصية
صحيحة كان ينعين أن يحررها موقوف المقود ،
لكنه كان في وسع الموصي أن يقوم بذلك ثم
يهدمها الى موقوف المتوفى ؛ وفي العائين كان
يجب اتمام ذلك بشهادة الشهود . وفي حالة
عدم وجود وصية كان القانون المصري يربط
الورثة البعات تأتي في مقدمتها طبقة الأولاد ،
وكان يحق للأب الأكبر أن يأخذ نصيبه بحدود
ضخمة نصيب أخيه الأصغر الذي كالف أخته
تساوي منه في مقدار النصيب ، وكان من
حق الأحفاد الحصول على نصيب أبيهم اذا
توفي قبل جدهم . وفي حالة عدم وجود وصية
فإن القانون الاغريقي يملئ الأبناء الأبقرة
في ورثة آبائهم ، وكانت أنصبة الأبناء
متساوية ويحق للبنات المشاركة في الارث اذا
لم يكن قد اُخذن مهرهن .

٢ - الأحوال العقبية ا

ويشير تحرير المقود وتسجيلها ليسر
السبل لأبواب حقوق الملكية في جسامه
متحضرة . ولقد كان تحرير المقود في مصر
الفرعونية وقتها على كسبة يتمون الى انجماعات
المتحدة ؛ أما في عصر اليقاله فان تحرير
المقود لم يمد مقصوراً على أولئك الكسبة ؛

فقد احترف هذه المهنة أفراد من سمسائر
الناس . وقد كانت المقود تحرر اما وفقاً
لأحكام القانون المصري أو أحكام القساوفن
الاغريقي . واتى جانب المقود المكتوبة كان
العرف المصري يعرف الاتفاقات الشفوية ،
وكان على المدعي الذي يصر أنه صادق شفويها
على دين أن يصر على صحة ما يقول .

ولصان تنفيذ المقود بأمانة كان
المصريون والاعريق يتسحبون فيها شروطاً
جزائية كانت مالوفة في القاون الاغريقي ،
سدا يد على أن عالون الدين الاغريقي قد طبق
في مصر على المصريين والاعريق سواء بسواء
منذ بداية عصر البطالمة . ولا بد من أنه قد
سبب ذلك التسماء قانون الملك المصري
بوكورس الذي كان لا يسمح بحسب المدين
أو استعباده .

ومن أجل ضمان حقوق الدائنين كان
القانون المصري يصر في وسائل أخرى ضدهم
العهد غير تسجيل المقود والنس فيها على
شروط جزائية ، فانه منذ القدم كان الدائنون
يحتاجون بوسائل متعددة ضد سوء به
المدنين ، أو سرهم المالي . واحدى هذه
الوسائل تسمى ما نسميه اليوم « برهن
الهيابة » ، ومعنى ذلك أنه عند عمل القرض
يقدم المدين للدائن بشابة ضمان عينا تعادل
قيمتها على وجه التفرير المبلغ الذي
استدان على أن يعهد الدائن برد العين عندما
يسوف دينه . أما الوسيلة الثانية فتسمى

يلجأون إلى الحيلة بادماج الفائدة في المبلغ الواجب سداده دون انصاف المقدم صلى سر الفائدة . وفي حالة عدم الوفاء بالدين في الوقت المحدد كان يتعرض معنى المدين غرامة معينة تنص عليها في العقد . وكان القانون الاخرى يسمح بأن تصل هذه الغرامة الي مثل الدين الاصلى ، أما القابول المصرى فكانت يتكفى بنصف ذلك ، وهو ما كان يحدث عادة حتى في حالة العقود الاخرى .

وكان الصانوران المصرى والاخرى يتفرغان بحق الافراد في مباشرة أعمالهم عن طريق الوكلاء ، + ما لانجاء الى التحكم في حالة حدوث خلاف على تسيير أحكام انقود ، وتآلف شركات تجارية أو مناعية مباشرة أعمال عامة أو خاصة . وكانت الاعمال العامة التي تتكون الشركات من أهل مباشرتها تشمل التزام اضرائب والاحتكارات الحكومة ، وكان الشركاء مسئولين امام أندولة عن العجز الناجم عن عدم الوفاء بالتزاماتهم . وسواء أألفت الشركة لمباشرة أعمال عامة أم خاصة كان يحدد علاقة الشركاء بعضهم ببعض عقد كتابي يثبت فيه حقوق كل شريك وواجباته . وكان القانون المصرى والاخرى ينظمان أحكاما مسببة بين حقوق الطرفين اللذين يتأقدان على استئجار أراض أو مبان أو عية أو مائية أو عمل . وكان يستطيع مستأجر أى نوع من أنواع الأرض أن يوجر الأرض من الباطن الا اذا نص في عقد الايجار الاصلى على خلاف ذلك .

ما نرفهه في بالرحن الضامى وهو في معناه القانونى حق الدائن على عين تبنى في قبضة المدين غير ان قيمتها تضمن سداد الدين . أما الوسيفة الثالثة فانها تماثل ما نرفهه في بابيع الوفاى ، وتنحصر في أن يبيع المدين للدائن العين المقدمة ضمانا للدين مع اجتناب الأول بعن استرجاع عقاره عند سداد الدين .

ووفقا لأحكام القانون المصرى كان التزام المدين قبل الدائن لا ينهى بسداد الدين بل استرداد العقد الذى منح الدين بقتضاء . أما وقف لأحكام القانون الاخرى فان التزام المدين كان في الاصل ينهى بسداد الدين لكن لم يثبت أن سداد بين الاخرى المبدأ المصرى القائل ببقاء الالتزام طالما بقى انعمد مايبا . ولذلك كانت تتخذ عدة وسائل لمواجهة ذلك ، كان من بينها حصول المدين على ايصان يثبت فيه انه لم يعد للدائن حقوق قبله ، أو رد العقد مصحوبا بقصد جديد يضمن انصافه على ذوات كل التزامات الدائن لدى المدين .

ويتصل اتصالا وثيقا بالفروض الفوائد التي تجبى عهسسا . وتعد الفوائد البردية العادية على أن اقتصر سفر مسموح به رسمياً للفائدة على الفروض كان ٢٠٪ شهريا أى ٢٤٪ سنويا . ورغم ارتفاع هذا السعر فإنه لم يكن كافيا لسد جشع المرابين ، ولذلك فاقهم لكيلا يضعوا تحت مظلة القانون كماوا

ثانياً - القانون الجنائي :

وكان القانون الجنائي البطلاني يفرق بين خمسة أنواع من الجرائم وهي :

١ - الجرائم التي ترتكب ضد شخص الأفراد أو مستلكاتهم . وكانت هذه الجرائم تشمل القتل والابتداء على العبير بالقول أو الإشارة أو الفعل أو التهديد بالاعتداء واستخدام القوة لتعذيب مأرب معين والسرقة والحساب الضرر بممتلكات الغير والنسب والتزوير والتدليس .

ومما يسترعى الانتباه انه في كل هذه الجرائم كانت اقامة الدعوى من شأن المعتدي عليه الى حد انه اذا لم يمثل أمام المحكمة لينتولى مهمة الاتهام برئت ساحة المتهم .

٢ - الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة الملكية . وكانت هذه الجرائم ثنتين رئيسيتين: احدهما الجرائم التي تؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر في دخل الخزانة من الضرائب ، وكان يسكن أن يرتكبها دافعو الضرائب أو هائل المالية أو الملتزمون أو ضريهم ممن يسمون في التزام الضرائب .

وكانت التهمة الأخرى تشمل الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة الملكية لساسماً بسرالبع أرضي الملف والاحتكارات .

ومما يجدر بالملاحظة انه في حالة اختصام فرد مع الخزانة الملكية حقر على المعامبن الدفاع عنه ضد مصالح الخزانة والا تعرضوا لمظوبة صارمة .

ولكل صنف من صنفات البيع المصرية كان يحزر عدان ؛ يطلق على أحدها « عقد المالك » وعلى الآخر « عقد التنازل » . وكان ينص في الأول على تسليم البائع لمن اعين المبيعة وعلى أن « قلبه راض » للدلالة على اتمام الاتفاق بين الطرفين بمن طيب خاطر . وكان ينص في العقد الثاني على تنازل البائع للمشتري عن كل مائه من حقوق على العين المبيعة .

وكما كان لتفاسل كل من الشرعيين المصري والإغريقي مع بعضهما بعضا نتائج واضحة في فواين الأحوال الشخصية ، كذلك كان لهذا التفاعل لتأجبه في فواين الأحوال العينية . وتبدو مظاهر الأثر الإغريقي فيما أدخل على القواين المصرية من الأحكام وحماية الملكية الفردية . أما الأخرى فاعلم أخذوا عن المصريين بعض أحكام الفساون المصري الخاصة بالالتزامات و « الرهن الضمالي » و « البيع الوفاي » وأهم نصوص على المال والتنازل التي أدمجوها في عقد واحد شاع استخدامه في البيوع .

ولتين من الوفاي انه في حصر البطالة كاذ الحكم الغنى تصدده معكسة مصرية لا يغير قاطعاً ولهايها إلا اذا صحبه عقد تنازل عن الدعوى . ويبدو ان الفرق الاغريقي قد تأثر بهذا المبدأ المصري في بعض الحالات .

٣ - جرائم الخيانة العظمى ، وقد كان القانون البعلغى لا يفرق بين الدولة والتاج ، ومن ثم يعتبر الجرائم التي ترتكب ضد الدولة جرائم ضد التاج . وقد ترتب على فكرة حق الملوك الإلهي انه أضعفت على هذه الجرائم صبغة دينية وكان يفصل فيها على هذا النحو . وكانت هذه الجرائم تشمل عدم تهديم الاحرام الواجب لليلك وأسرته ، والثورة ضد الملك ، والحد بالقسم الملكي .

٤ - اساءة استخدام العفوق العامة ، كان يغير الشخص بدون وجه حق لقبه الجنسى والسياسى .

٥ - الجرائم الدينية ، وتحدث الوثائق البردية البطلمية من انتهاك حرمة الأماكن المقدسة ، وعن اساءة استخدام حق الالتجاء الى المعابد .

ثانيا - الهيئات القضائية ا

وكان الملك يعتبر كبير القضاة في البلاد ، لكنه كان عادة ينيب عنه قضاة آخرين للفصل في المنازعات بين رعاياه . ونحن نعتقد انه لم توجد عتدائد تفرقة بين القضاء المدنى والقضاء الجنائى ، وان كنا نعتقد انه كانت توجد تفرقة بين الجرائم الخطيرة أو العامة مثل الخيانة العظمى والقتل ، وبين الجرائم العادية أو الخاصة مثل مختلف أنواع الاعتداء على الأستطاس أو أموالهم . ونحن نرجح ان سائر المحاكم كانت تنظر في القضايا المدنية وكذلك القضايا الجنائية العادية ، أما الجرائم الخطيرة

فلا يعد انها كانت من اختصاص محكمة خاصة لعلها كانت ما ندعوها المصادر القديمة « محكمة الملك » .

ويمكن تقسيم الهيئات القضائية في عهد البطانة الى أربعة أنواع وهى : (١) محاكم المصريين ؛ (٢) محاكم الاغريق ؛ (٣) المحاكم المختلطة ؛ (٤) محاكم القضاة الخاص .

١ - محاكم المصريين

وتبين من وثائق القبرون الثانى قبل الميلاد ان محاكم المصريين كانت تتألف من ثلاثة قضاة من الكهنة المصريين ، فسطا من عضو آخر لم يكن ناضياً ولكنه كان يقوم بدور هام جدا ، وهو تليفين الفضايا وتعضيرها وتلاوة الوثائق أمام المحكمة عند انعقادها وتنفيذ ما تصدره من الأحكام . ويدل اسم هذا الطور واسم منيبه على أنه كان أفريقيا . ولعل البطلة له استحدثوا مهله بسيما نصحجه العمالة في المحاكم الوطنية ، ولا سيما بعد ان وضعموا قانونا جنائيا موحدا للمصريين والاغريق . وكانت هذه المحاكم تختص بالفصل في قضايا المصريين وكذلك القضايا المدنية التى يكون موضوع النزاع فيها عقدا مبريا حتى ولو كان أحد طرفى الخصومة أفريقيا .

٢ - محاكم الاغريق

وكانت توجد في مصر عددة أنواع من المحاكم الاغريقية ، وأكثر المطروحات التى

لدينا تخصص « محاكم القضاة الاغريق » ، وكانت محاكم متفصلة الفصل في قضايا الاغريق وغيرهم من الأجانب الذين ينزلون في مختلف أرجاء مصر ولم يكونوا مواطنين في إحدى مدن مصر الاغريقية . ويبدو ان هيئة هؤلاء القضاة الاغريق لم تكن مستديرة وإنما لمدة معينة لا تعرف مدتها على وجه التحديد ، وأن كل هيئة من هذه الهيئات القضاية الاغريقية كانت تتألف من ثلاثة قضاة وعضو يلخص القضايا ويحضرها وكاتب ومحضر ، وكانت كل هيئة تختص بالفصل في قضايا منطقة معينة تشمل عددا من المديريات . ويرجع ان المحكمة كانت لا تعتمد الا في عواصم المديريات المختلفة والمدن الكبيرة .

٣ = المحكمة المختلطة

وقد كان طبيبا ان يؤدي التعامل بين المصريين والافريق الى نشوب قضايا يكون طرفا الخصومة فيها من جنسيتين مختلفتين ، ومحدثنا وقائى القرن الثالث قبل الميلاد عن محكمة مختلطة لا نعرف كيفية تكوينها ولا مدى اختصاصاتها ، لكنها زجج انما

كانت تختص بالفصل في القضايا المدنية وكذلك القضايا الجنائية العادية بين المصريين والافريق . ولا يبعد ان هذه المحكمة قد فقدت كثيرا من أهميتها عندما هتمت اختصاصاتها نتيجة لاحكام القرار الذي أصدره بطلمبوس الثامن ابودرجيس الثانى فى عام ١٦٨ ق . م . بأنه اذا نشب خلاف بين مصرى وافريقى ليجب ان يقدح محرر بينهما فان لفة هذا العقد هى التى كانت تصور نوع الثانوى الذى يلبق وتبا لذلك نوع المحكمة التى يمرض الخلاف عليها . فاذا كان العقد مصرىا فان الفاتون للمصرى هو الذى كان يطبق ومحكمة القضاة المصريين هى التى كانت مختصة بالفصل فى الموضوع ؛ أما اذا

ومذكر وثيقة ردية مشهورة لوجهى جديدين من المحاكم الاغريقية فى الاسكندرية كان أحدهما يتألف من عشرة محلفين ومثلاثين القضايا ومحضرها ، وكان الآخر يتألف من مستحقين يملون تحت اشراف حارس القوائى . ولعل النوع الأول هو الذى كان يتصل فى قضايا هيئة المواطنين عندما يفتل النوع الثانى فى نفس الخلاف ودبا بين المخاصمين . واذا كما سلم بوجود محكمة الفصر أو محكمة الملك فى عاصمة البطلمة ، فانه لا تصبر كيفية تكوينها ولا نستطيع الجزم باختصاصاتها .

وكانت لبثوليمس أيضا محاكمها الخاصة بالفصل فى قضايا مواطنيها باعتبارها

موظفي الادارة وعمل المالية وثانيا القضايا التي يسس موضوعها موارد الملك وثالثا القضايا التي تخص الأشخاص الذين يخشون موارد الخزانة حتى اذا كان موضوع هذه القضايا لا يسس تلك الموارد . وقد كان يفعل في كل هذه المسائل الملك وكبير موفقيه أو هبات قطرية رأسها هؤلاء الموظفين . ولما كان لأكثر هذه القضايا صبغة مالية ، فقد كان يقوم بدور كبير في القضاء الخاص وزير المالية ومساعدوه .

ويبدو ان البطالة قد امتدوا أيضا محاكم خاصة لرجال الجيش ، فقد وصلت الجنا من القوم وثائق تحدتنا عن نقل قضاياء من رجال من الجيش أمام محكمة مثل محكمة العشرة التي مر بنا ذكرها عند الكلام عن القضاء في الاسكندرية .

كان المقعد افرقيًا فان القانون الاغريقي هو الذي كان يطبق ومحكمة القضاة الاغريق هي التي كانت صاحبة الاختصاص في الفصل في الدعوى . أما اذا نشب خلاف بين طرفين مصريين فانه كان يتعين عرض الأمر على محكمة القضاة المصريين . ويبدو ان القرار لم يهر الى القضايا التي تنشأ بين طرفين افرقيين لانه لم يكن هناك أي بس في أن ذلك كان من اختصاص محاكم القضاء الاغريق . ولما كان هذا القرار خاصا بانتساب المدنية فلا بد من أن القضايا الجنائية بين طرفين ينتميان الى جنسيتين مختلفتين قد بقيت من اختصاص المحكمة المختلطة .

٤ - محاكم القضاء الخاص

وقد كان يدخل في نطاق القضاء الخاص ه أولاً الشكاوى المرجية ضد

الفصل السابع

الحياة الاجتماعية

الاغريق - المصريون - الثورات الثورية المصرية

اولا - الاغريق

والمذلت كان يجب أن يكون مظهر مصر افريقيًا وأن تبرز مصر في ذلك العالم باعتبارها دولة افريقية لا دولة شرقية .

وازاء الظروف الخارجية التي أحاطت بعظميوس الأول حين كان يرعى قواعد دولته في مصر ، كان يتعين عليه أن يصل على اجتذاب الاغريق الى مصر والاستقرار فيها بشتى الوسائل ، دون أن يصل الى الوقت نفسه مشاعر المصريين . ولطه لم يتخذ منها خاصة له في بادئ الأمر ارضاء للمصريين فحسب ، بل أيضا اوفيل كل شيء لأنه كان أكثر أمانا فيها من الاضطرابات الخارجية ، إذ أنه ما كاد يستشعر مقفرة جيشه وأسطوله على تأمين مركزه في الاسكندرية حتى نقل مقره الى هذه المدينة الافريقية . واذا كان قد استخدم بعض المصريين في المناصب الادارية الهامة أو سح لهم بالاستمرار فيها ، فانه يبدو مضمنا أن الخلق أغلب مساعديه الاداريين من رجال على شاكلته في التدرب والتفكير . وقده ضمن لهؤلاء الاغريق والمقدونيين منسل ما ضمن لاقوانهم في شتى نواحي الحياة المصرية اجرا طيبا ومركزا ممتازا .

١ - حالهم على عهد البطلة الاوائل -

عرفنا ان البطلة الثلاثة الاوائل كانوا في حاجة ملحة الى التوسيع لتكوين جيوش وأساطيل من طراز جيوش وأساطيل مناصيهم وكذلك لاعادة تنظيم شئون الادارة والنهوض بمراقب البلاد الاقتصادية واستغلالها استفلا لا منلما دقيقا . وازاء كل ذلك كان يتعين على البطلة الاي يتكفوا فقط بفتح ابواب مصر على مصاريمها للاجانب ، بل أن يجزوا لهم الحظاء وينحومهم مركزا ممتازا في وطنهم الجديد ، ليحسنوا استمرار وجودهم على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام . وينبى أن نتذكر انه في ذلك الوقت كان الصالح الافريقي هو كل شيء ، وان الحضارة الافريقية كانت أسس الحضارات وارفها لنا ، وان حضارة الناس كانت تقاس بمقدار حطهم من تلك الحضارة ، وان البطلة كانوا لا يستطيعون أن يبنوا لانفسهم معبدا شامخا في نظر العالم الاغريقي باعتبارهم فراعة مصر مها انتقوا في بلاد الاغريق من الاموال .

وخاصة في الصوم . وإذا كنا نجد بين هؤلاء
 الاغريق عددا من مواطني مصر الاغريقية ،
 فان كثرتهم كانوا أصلا مواطني مدن أخرى
 في العالم الاغريقي . وعند استقرار هؤلاء
 الاغريق في وطنهم الجديد ضم البطالة عليهم
 الاهتمام بلقبهم السياسي القديم عند ذكر
 أسلافهم في الوثائق الرسمية . وقد كان
 سكان مصر من غير أهلها الوطنيين ينقسمون
 طبقت متفاوتة في المرتبة تميزها ألقاب سياسية
 وجنسية ، وكان معطورا الانتقال من إحدى
 طبقات السكان إلى طبقة أخرى دون الحصول
 على إذن بذلك من الملك .

وقد كان الاغريق يؤلفون جماعات كانت
 أهدها شيئا تلك الجماعات القومية التي كان
 أغلبها تحصل اتصالا وثيقا بالجنس ، وتتألف
 كل منها من يتشورن إلى قومية معينة . وقد
 كان لكل جماعة من هذه الجماعات مجموعة
 مقراتها الخاصة ويعلم فيها بوضوح أثر المدن
 الأيونية والدورية والأبولية التي وفد منها
 أعضاؤها في الأصل . وإذا كان البطالة قد
 اعترفوا بقوانين هذه الخصائص فلهم مع ذلك
 عمدوا على النسب بيننا بما كانوا يمتدرونه
 من مختلف أنواع الأوامر الملكية . وقد كانت
 هذه الجماعات منتظمة على نسط المدن
 الاغريقية ، وتتمتع بقدر من الحكم الذاتي ،
 ولكل منها حكماها وكهنتها ومقرها في مكان
 معين .

وكانت تلى هذه الجماعات في الأهمية

ولا جدال في أن السياسة العامة التي
 اتبعها بطليموس الثاني كانت تستهدف معالاة
 الاغريق على حساب المصريين ونشر الحضارة
 الاغريقية في أرجاء البلاد . وتشير كل الدلائل
 إلى أن بطليموس الثالث قد سار على نهج
 سياسة أبيه . وبين أن البطالة الأوائل قد
 أقاموا حكمهم في مصر باعتبارهم نخبة فالحسين
 فلم ينسوا أو يناسوا إطلاقا أصلهم الأجنبي
 ولم يتبدوا في تأييد سلطانهم الا على الاغريق
 والمقدونيين الذين كانوا يشاركونهم المقار
 بأصلهم والاعتزاز بعرضهم .

وقد كان أول مظاهر ضعف البطالة الأوائل
 على الاغريق تهيئة البيئة المناسبة لميلتهم ،
 ولذلك بنوا بيضاء الاسكندرية وسجها مظاهر
 الحياة الضيقة بالمدن الاغريقية حتى غدت
 أعظم هذه المدن في البحر الأبيض المتوسط ،
 وألسا بطليموس الأول مدينة بطوليميس
 وولر لها كل أسباب الحياة الاغريقية . فضلا
 عن ذلك كان قراطينس ، تلك المدينة الاغريقية
 القديمة ، استمرت تتم بما ألفت من نظم
 الحياة الاغريقية وأصاليها . وقد كان هدف
 البطالة من وراء كل ذلك أن يحتفظ الاغريق
 الذين يتولون في هذه المدن بعرضهم
 الاغريقية في طول مصر وعرضها .

أما الاغريق الذين ضاقت بهم مدن مصر
 الاغريقية ، فذهبهم تفرقوا بين جنات الوادي
 واستقروا في المدن والقرى المصرية القديمة
 أو في القرى الجديدة التي أنشأها لهم البطالة

وولعها كانت تتصل بما جمعيات رجال
الجيوتاريوم فقد كان الاغريق ، حيثما زلوا
سواء في المدن الاخرية أم في ائدن والقري
المصرية ، يستعملون بهذه المعاهد الجليلة الشأن
التي كانت قوام الحياة الاجتماعية والفكرية
في بلاد الاغريق منذ اقدم السنين .

وكانت تأتي بعد ذلك في الاهمية جمعيات
المهنية كان لها طابع مهني او اجنماعي .
ويشترى انتشار هذه الجمعيات بين المصريين
مصر الى ميل هؤلاء الاغريق الى لون من
الحياة الاجتماعية يبيضم الى حد من جاب
من حياة " اندية " كان عزرا عليهم قريبا
الى قلوبهم ولكنهم حرموه في مصر ، اذ لم
يكن اغلب اغريق مصر مواطنين في مسدن
بشركون في مجالسها والنخبائها ، فلا عجب
ان شغفوا بتلك الجسبات لتوفر لهم الاجتماع
والناقشة والاتخاب .

٢ - علاقاتهم بالمصريين

ولا حداد في ان اولئك الاجانب ، الذين
وقدوا على مصر فوجا ملو فواج في خلال
القرن الثالث قبل الميلاد ، كانوا يكونون
طبقة منفصلة من سكان البلاد ففصلهم فوارق
شاسعة عن اهلها ، فقد كان مركز هؤلاء
الاجانب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي
مختلفا عن مركز المصريين واكثر منه امتيازاً .
وحيث كان الاغريق في القرن الثالث يؤلفون
الطبقة العليا في البلاد ، ويحضون على ارفع
اشاصب ، ويستعملون بخيرات مصر ،

ويعتبرون انفسهم اهل حضارة رفيعة دونها
كافة الحضارات الاخرى ، ويعيشون في
اوساط خاصة بهم ، ويحبون حياتهم التي
اعتادوا ان يحيوها في بلادهم ، كان المصريون
يؤتمنون الطبقة السغلى ، ويحرمون بانهم
سلبوا كرامتهم كما سلبوا خيرات بلادهم ،
ومح ذلك استمردوا يستغلطون بعبادتهم
وقاليسدهم ويذكرون مجدهم الثالث ، وراه
كل ذلك نستطيع ان لوغن تماما بان الزواج
بين المصريين والاغريق في القصر الاول من
حكم البطلة كان أمرا بعيد الاحتمال . ومع
ذلك لا يجوز الجزم بأنه لم يحدث عندئذ أى
زواج على الاطلاق .

٣ - حياتهم على عهد البطلة الاواخر

وهكذا كان قوام سياسة البطلة الاوائل
ان يشركوا الاغريق في حكم البلاد والسيطرة
على المصريين ، وان يولفوا لأولئك المحفلولين
اسباب الرزق المنسح والمساليب الحياتية التي
توافق مزاجهم الرقيق ، فماز الاغريق بكل
الضم وتحمل المصريون كل القوم . أما منذ
عهد بطليموس الرابع فقد أخذ انيطانه ينهون
سياسة جديدة في معاملة المصريين تنطوي على
انصاح بعض المجال لهم الى جانب الاغريق
املا في كسب ودعهم وولائهم ، لكن البطالة
لم يدعوا الى حد مساواة المصريين الاغريق .
ولا ادل على ذلك من انه ما زان اغلب رجال
الجيش وقوادهم وكبار الحكام من الاغريق ،
وما زالت الضياع تسمح للاغريق ، وما زالت

أكبر الاقطاعات تمنح للاغريق ، ولم يعتبر في
عددا الطبقة العليا المنازة من سكان البلاد
الا الاغريق والمصريون التسلائي الذين
اصطبغوا بصيغة الغريقية .

وإذا كان بعض المصريين قد تأغرقوا ،
نهبوا لأقبالهم عسلى الزلمبى الاغريقى حتى
أصبحوا يكتبون الاغريقية وقرأوها بسهولة
ولانغادهم ملابس غريقية وأسماء غريقية
فأكتبهم هذه المسحة الاغريقية مسكاة متتارة
هى مسكاه الاغريق ، فان بعض الاغريق أيضا
قد تأقلوا اذ أنهم تعلموا اللغة المصرية
وعبدوا آلهة مصره واتخذوا أسماء مصرية
وعادات مصرية .

٤ - ملامحهم بالمصريين

ويبدو أنه في النضر الثانى من حكم
البطالة عندما اقبلت لهود ألواج جديدة من
الاغريق ، وأفرق بعض المصريين ، وأقبل بعض
الاغريق حدث شوء من التقارب بين المصريين
المصرى والاغريقى ، ونشأ عن ذلك فى اعتقاد
كثير من المحدثين أسر مختلطة غريقية -
مصرية ، ويستدل على هذه الظاهرة بأن
الروايق تشهدت عن كثيرين ممن يحملون
أسماء مصرية وغريقية ، ولذلك لم يسد
الاسم منذ القرن الثامى قبل الميلاد دلالة على
الجنسية . ونحن لا ترى ان الجمع بين
الاسماء المصرية والاغريقية يدن حصا فى كل
حالة على تزواج بين المصريين والاغريق ،
فلم يصل الينا بسد وثيقة رواج أو حلاق

واحدة بين طرفين أحدهما مصرى والاخر
اغريقى . وقد يكون الجمع بين الاسماء
المصرية والاغريقية نتيجة لاصطباغ بعض
المصريين بالمصبغة الاغريقية أو أقصه بعض
الاغريق ، مما حدا بالقرين الأول الى اضافة
أسماء اغريقية الى أسمائهم المصرية ، وبالقرين
الثانى الى اضافة أسماء مصرية الى أسمائهم
الاغريقية . ولست فى حاجة الى الذهاب بعيدا
للتدليل على صحة ما نراه ، فلا يزال بين
الهرابنا كثير من المصريين ممن لم يكتولوا
شرة تزواج مختلط وانما لشرة أبوين مصريين
كانت تقائهما تنجبوية أو فرنسية فأعطيا
أبناءهما أسماء الطليبية أو فرنسية ، ومع
ذلك لا نستبعد أن يكون قد حدث فى
النظر الثانى من عصر البطالة تزواج بين
المصريين الاغريقى والاغريقى المتحصرين .
لكن لسند أن يكون ذلك الزواج قد
حدث بالكثرة الى بنوهمها البعض ، اذ أن
ثلث الفة من المصريين والاغريق لم تكن
الا أقلية بالنسبة لفالبية العظمى من الاغريق
والمصريين الصميمين ؛ وانك اذا كان النضر
الثانى من عهد البطالة قد شهد تقاربا بين
المصريين والاغريق ، فقد شهد أيضا ثورات
المصريين القسومة عسلى البطالة والاغريقى ،
ولأهد من أن تلك الثورات قد سدت من أثر
ذلك التقارب . ولو مسح أن التزواج بين
المصريين المصرى والاغريقى قد شاع فى
النظر الثانى من عصر البطالة ، لابقى سكان
البلاد مقسمين طبقين مختلفين فى الرتبة ،

احدلعنا عليا وتآلف من الاغريق وأشباههم
والأخسرى سغلى وتكون من المصريين
الصميين .

٥ - فنة الاغريق

وقد كان الاغريق ومن على شاكلتهم من
الأجانب المقبيح في مصر يتألمون من الفئات
الغالية :

أولا - فئة الموظفين ، وكانت لتسمل
الموظفين المدنيين والسكرين .

ثانيا - فئة أرباب المهن الفنية ، وكانت
تسمل العلماء ورجال الأدب والأطباء والمعلمين
والمعلمين والمعلمين والمصورين والمثاليين
والفنانين وحترفي الألعاب الرياضية .

ثالثا - فئة رجال الأعمال ، وكانت فئة
كبيرة من الأثرياء متوسطي الحال الذين
يتكفون أراضي وفقارات ويستولون بالتزام
بعض الحرف أو الصناعات أو جباية
الضرائب ..

رابعا - فئة أرباب الحرف اليدوية ،
وكانت فئة كبيرة تتألف ممن كانوا يتكسبون
قوتهم من الأعمال المصنية أو الزراعة والصناعة
والنجارة كسماول وصناع وما أشبه ذلك .

٦ - عتسالة اغريق مصر

ولما كان الاغريق قد أحطروا منهم من
بلادهم ذياتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وكانوا
بعضهم لغواين اغريقية وسحاكون أمام
محاكم القريضة ، ويميشون عادة في أواسط
القريضة يتشون فيما مدارسهم ومنتدياتهم

وجمعاتهم ، وكانت أفواج الاغريق تعد على
مصر باستمرار حتى أواخر القرن الثالث قبل
الميلاد فتطمعم بدماء جديدة ، وكانت لا توجد
قربة على تزاجهم مع المصريين حتى نهاية
القرن الثالث ، وكانوا يعززون بعفسارتهم
الاغريقية ، ولا سيما انها كانت مصممة
ما يستمدون به من الخبر الصم في مصر ،
فلا شك في أنه وسط هذه الظروف قد حافظ
الغريق مصر على لغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم
لبقوا هريضا خالصين حتى نهاية القرن الثالث
قبل الميلاد .

ولا جدال في أن المغريق مصر كانوا
يميشون في أواسط القريضة بوجه عام ، لكن
يجب ألا ننسى أن هذه الأوساط ، حتى في
المدن الاغريقية ، كانت تقوم في بيئة غريبة عن
الحياة الاغريقية الى أقصى حد ، ولذلك فإن
المحافظة على قوة الروح الاغريقي بين اغريق
مصر كانت لا تتوقف على استسماكهم
بتقائهم وعاداتهم وتقاليدهم لمحب ، بل
كذلك على تقوية هؤلاء الاغريق على الدوام
بدماء اغريقية جديدة من بلاد الاغريق لتكون
بعيدة عن كافة المؤثرات الغريبة عن الروح
الاغريقية . لكن منذ أواخر القرن الثالث
قبل الميلاد اطلع ونود أفواج جديدة من
الاغريق بسبب نقص عددهم في بلادهم ،
فكان طبيعا أن يضمف الروح الاغريقي
تسريجا بين لغريق مصر . ومع ذلك فانه مما
ضف هذا الروح قد بقي اغريق مدن مصر

الأغريقية أفريقيا خالصين نتيجة لعدم الاعتراف
بالزواج بينهم وبين المصريين في هذه المدن ،
وتيجة لاستمرار المعاهد والمدارس الأغريقية
في متابعة نشاطها ، ولا سيما أن الاسكندرية
كانت لا تزال منارة الحضارة الأغريقية وتتمتع
بشهرة عظيمة في العلوم والفلسفة والآداب .

إن العامل الذي أدى إلى ضعف الروح
الأغريقية في مدن مصر الأغريقية كان له أثر
أثوى بطبيعة الحال خارج هذه المدن ،
ولا سيما أنه منذ أواخر القرن الثالث أصبحت
القطاعات الأخرى وراقية ، وبذلك أصبحت
لأرباب هذه الأقطاعات مصالح دائمة في
البلاد . وقد كانت رعاية هذه المصالح تنظف
سهم أن يداروا أهل البلاد والأراضي يسمخوا
أثرتهم عليهم . وفي الوقت نفسه أخذ البطلة
يتحول سياسة جديدة في معاملة المصريين ،
فأهم منذ عهد بطليموس الرابع أخذوا
يسمحون أنجال أمم المصريين وينحولهم من
الامتيازات ما رفع من شأنهم وضيق شسقة
العراق بينهم وبين الأخرين وساعد على التقرب
بين المصريين ، حتى لا يعد أن يكون قد
تكون عدد من الأمر المختلفة المصرية —
الأغريقية .

ولقد أسهمت هذه العوامل المختلفة في
اضمار الروح الأغريقي بين فريق الأقاليم ،
غير أنه لما كانت الصبغة الأغريقية تكسب
صاحبها مركزا ممتازا مهما كانت جنسية ،
فعل تشك في أن غالبية الأخرين استسكوا

بعضاتهم الأغريقية ؟ يبدو لنا أنه مهما ضعف
روح الأخرين الأقاليم حتى كانوا يعتقدون
اختلافا كبيرا عن الأخرين القدماء ، وأنه إذا
كان بعض الأخرين قد عبدوا آلهة مصرية
وتعلموا اللغة المصرية وتزوجوا مصرات
واتخذوا أسماء وعادات مصرية ، فإن أغلبهم
بقوا أفريقيا خالصين ، وذلك بفضل أثر مدن
مصر الأغريقية ، وأثر معاهد الأخرين
وحضياتهم ومدارسهم التي كانت توجد حيثما
وجد عدد كاف من الأخرين ، وكذلك بفضل
ما كان الأخرين يشعرون به من مكانة متزايدة
في البلاد .

لأنها = المصريون ؛

١ - البطلة والطبقات المصرية المختلفة

ولا ريب في أن العناصر الأجنبية لم تكن
سوى أقلية تعد بالألوف بالنسبة إلى المصريين
الذين كانوا يعدون بالملايين . وكانت تأتي
في مقدمة المصريين الطبقة الأرستقراطية بقسبها
الديوري والديني ، ويبدو أن بطليموس الأول
سمح للأرستقراطية المصرية الدورية بالاحتفاظ
بممتلكاتها وبشئ من السلطان في الإدارة .
لكننا لا نسمع شيئا على الإطلاق عن هشمة
الأرستقراطية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ،
عما يبحث على الاعتقاد بأن البطلة عملوا منذ
أواخر عهد بطليموس الأول على حرمان هذه
الأرستقراطية بالتدريج أملاكها ومناصبها
الإدارية . ولعله لم يبق من هذه الأرستقراطية
إلا نفر كان قليل المدد محدود الثروة يتولى
مناصب في الأخرين المصرية في العيش .

المصريين حتى موقعة رفح الا في أعمال
الجيش الثانوية ، وقصر منح البطالة الأوائل
على جنودهم المقدونيين والافريق . فلاحظ
ان شعر الجنود المصريون ، كثيرهم من سائر
جُحُضت المصريين بذل الاحتملال الأجنبي
وذاتوا مرارة الاهانة والجرمان ، فاصموا
في الثورات القوية حتى بعد الاستهزات
التي مكثوها عقب موقعة رفح . ولا شك
في أن حال هذه الطبقة قد تحسنت في العطر
الثاني من عهد البطالة لكنه كان حسينا
ليسا بالقياس الي ما كان عليه قبل ذلك ،
فقد كان الجنود الأعيان لا يزالون يتكاثرون
الجساب الأكبر من القوات البيطمية ،
وتستعملون برفع المناصب وأكبر الاعطافات .

وكانت طبقة الموثقين على هذه الطبقة
قبل عصر البطالة . وكانت هذه الطبقة تألف
من كبة متفاولي الدرجات . ويبدو أن خلفهم
العليا اخذت تدريجا ولم يبق في خدمة
الحكومة من الموثقين المصريين الا فئة صفار
الكتبة الذين اضطروا الي تعلم اللغة الافريقية
وعظم العمل الجديد والخضوع لرؤسالم
انجسد . ولم تكن المناصب الحكومية
التواضعة التي يستطيع المصريون توليها في
خلال القرن الثالث قبل الميلاد مصدر تحمير
عظيم لتأخليا ، فقد كانت مسؤولياتها أكثر
من ضمها . أما في العطر الثاني من عصر
البطالة فقد سحح للمصريين بتولي بعض
المناصب الرئيسية في الادارة المحلية .

ونشير الأداة الآرية الي أن الأرستقراطية
المصرية الدينية كانت تمتنع في بداية عصر
البطالة بممتلكات واسعة . ونحن نذكر
البطالة ما كانت تمتنع به هذه الأرستقراطية
من نفوذ كبير ونفوذ عريضة عملوا على تقليم
أخافها والذلالها . ومع ذلك كان الكهنة
المصريون ، حتى في العطر الأول من حكم
البطالة ، يتكاثرون فئة متنازة بين الأهالي ،
فقد كانوا عادة يتكثرون من الأعمال الجبرية
ويؤدون مهام صلبهم دون تدخل الحكومة
في شؤونهم . وبعد موقعة رفح واستعمال لهب
الثورات القوية ، اضطرت البطالة الي النزول
عن صلبهم وجبروتهم واتباع سياسة جديدة
في معسامة رجال الدين رعت اليهم الملب
استيالاتهم .

ولا ريب في انه ازاء القسيسسراض
الأرستقراطية الدينية تحريا ، وازاء المسح
التي اضطرت البطالة الأواخر الي اجزائها
للكهنة المصريين ، وازاء مكانة هؤلاء الكهنة
وقودهم بين الأهالي في طول البلاد وعرضا
أصبحت طبقة الكهنة أهم الطبقات المصرية .
ولعل عصر البطالة كانت تلي الأرستقراطية
بصليبا الدين والدنيوي ، طبقته المحاررين
المصريين . وقد رأينا كيف تقلدت ههه
الطبقة مكانتها المتنازة في حياة البلاد على
عهد البطالة الأوائل ، بسبب اعتماد وتلك
البطالة في تكوين قواتهم البرية والبحرية على
العناصر الأجنبية ، وعدم استخدام الجنود

وكان يأتي في مؤخره الطبقات الاجتماعية ملايين المصريين ، وكان يشغل أكثرهم بالزراعة ومصمم بالصناعة والتجارة ، وكانوا كالعادة عماد حياة البلاد الاقتصادية ، ولذلك كانوا أكثر تأثرا من غيرهم بذلك النظام الاقتصادي الكريه الذي وضعه البطشانة للبلاد . ولا كان الهدف الرئيسي لهذا النظام جعل العمولة أو سببها أخرى الملك عنيا ، فقد كان يتعين توجيه كل جهود الأهالي نحو تسخير هذا الهدف .

وقد كنت هذا النظام الضار ، اذا كانت الفرص التي أمام الطبقات المتدنية لا تراه فيها غلبة فإنها كانت متدنية بالنسبة لغالبية المصريين الذين ألغيت عليهم أفضل الأعباء ، فقد كان ينهى على هذه الامانية ان تخدم موارد الحكومة بطريقة من الطرق ، إما بمثابة رراع الملك ، أو عمال في مصانع أو في مصانع تعمل لهسابه أو في مصانع تؤدي له ضرائب معينة فضلا عما تقدمه له من اتاجها ، أو تجار تجرئة ، أو رعاة ، أو صمعيادين ، أو يشتغلون بالتقل البري أو المائي ، ويدفعون جميعا ضرائب مجبلة تظهر مزاوتهم أعمالهم . والتي جذب كل هذه الأعباء العادية التي كانت الحكومة تسته منها دخلا كبيرا ، كان يتعرض على الأهالي اذاء كثير من الخدمات الاحبارية . ورغم كل الأعباء التي انتقل بها كاهل عالية الزراع والصناع والعمال المصريين ، وكانت أشد

وعاء مما ابتلوا به في أي وقت مضى ، كان حالهم لم تتحسن ، لأن الملك لكي يتعوز بأكثر قدر من الربح عمل على انقاص تكاليف الإنتاج التي أدنى حد ممكن ، وتبعا لذلك على عدم رفع مستوى معيشة الطبقة الكادحة .

ونسجة لتتبعات التقلبة التي كان المصريون يرحلون تضعا بين انه لم يكن على شيء من اليسر من ملايينهم المشغولين بالزراعة والصناعة والتجارة الا هرفليل ، كان مصمم زراعا ناجحين وشبان اواذة الله ان تسنعم الحكومة ادا باستصلاح بعض الأراضي وررها كروما أو غابات ، وبذلك أصبحوا في عساة أرباب أراضي الامتلاك الخاص أما البعض الآخر فاعلم كانوا صاعا ناجحين يذولون صناعات لم يحركها الحكومة احتكارا كليا ، وبذلك لم تطلق موسم باب اكتسب اهلاقا كاملا .

وهكذا ترى انه لم تسج من ينش البطالة فئة واحدة من فئات المصريين ، وذلك حين كان أولئك المتسرك يوفرون للآخرين وشبابهم أسباب الحياة الرغدة الكريه . ولما كتب حان الكهنة والجنود وموظفي الحكومة ونفر قليل من الزراع والصناع في القصر الثاني من عصر البطالة أفضل من حان الغالبية العظمى من المصريين ، فان حان هؤلاء القلائق من المصريين ، الذي كانوا أسعد حقا من سائر مواطنيهم ، كانت أسوأ كثيرا من حان العناصر الأجنبية . ومن

ثم نستطيع أن نتصور الفارق المائل بين حال
الإجاب وحال المصريين بوجه عام .

٢ - حضارة المصريين

وتشير جميع العرائن الى أن المصريين
بوجه عام إيتروا يمشون كما كان يمشي
أجدادهم من لبسل ، مختلفين بهادانهم
وتفاليدهم ، يبدون آلهتهم ، ويضعون الي
حد كبير لغوايتهم الفرعونية ، وكان
المصريون يفتنون اما في أندية جمياتهم ، أو في
بيوت الأعيان كما هي الحال اليوم في الرقص ،
أو في المعابد لبتعموا الي عاداتهم الروحانية
ويعبروالهم عن مظلومتهم .

ولما كانت الأمية فائتة بين المصريين ،
وكانت أخرج المدارس المصرية أوامعها
انتشارا وأبعدها أثرا في الناس هي المدارس
المفتحة بالمعابد ، وكانت هذه المدارس هي
المائل العصبية للثقافة المصرية ، وكان رجال
الدين الحراس الأولياء على تراث الماضي ،
فاننا نستطيع أن نؤمن أن غالبية المصريين
كانوا يمتدين حتى عن مظاهر الحضارة
الأخرتية ، وان مدارس المعابد قد أغلقت
أبوابها دون الثقافة الأخرتية . ومع ذلك
لا شك في أن المصريين الذين تسلموا مناصب
في الحكومة لم اضطروا الي تسلم اللغة
الأخرتية لأنها أصبحت اللغة الرسمية ،
ولا شك أيضا في أن أكثر أولئك الموظفين
الذين تعلموا الأخرتية لم يكن حفظهم من
الحضارة الأخرتية الا بيرا . ولعل الحقيقة

العليا من المصريين رأيت في تعلم الأخرتية
والانتهال من موارد الثقافة الجديدة استكمالا
لؤهلات أفرادها ، فاستخدمت مدرستين
خصوصيتين أو أدخلت أبناءها في المدارس
الأخرتية المنتشرة في مختلف أرجاء البلاد .
ولعل ذلك كان أيضا شأن تلك الفئة القليلة
من المصريين الذين أخذوا على عهد البطالمة
الأواخر يعملون على صبغ المسمم بصبغة
الأخرتية طمعا في الفوز ببركز بمسائل مركز
الأخرين . لكن لما كانت الطبقة العليا وكذلك
فئة الوصولين قليلي العدد ، وكان حفظ
أكثر موملي الحكومة المصريين من الثقافة
الأخرتية تافها ، وكانت الغالبية العظمى من
المصريين أميين ، فلابد أن من أن تفتل
الثقافة الأخرتية بين المصريين كان محدودا .

وقد أسلفنا انه لم يحدث تزواج بين
المصريين والأخرين في القرن الثالث قبل الميلاد
وانه في السطر الثاني من عصر البطالمة تصر
بعض الأخرين وأخرج بعض المصريين ، مما
جعل من التهور حدوث تزواج بين المصريين
التأخرين والأخرين المنصرين ، وانتشار
الأسماء المختلطة بين هذين الفريقين . ولابد
من انه قد صحب ذلك أن استبدال أولئك
التأخرون بلبابهم المصرية شيئا أخرتية ، لكن
اذا كان من السلم به ان أغلب المصريين لم
يعرفوا شيئا من اللغة الأخرتية وآدابها ،
واتهم بطبيعة الحال لم يتزوجوا مع الأخرين
على الأقل لكثرة عددهم وقلة عدد الأخرين ،

فلا بد أيضا من أنهم لم يتخذوا أسماء أفريقية
ولا تباها أفريقية .

وجملة القول ان المصريين بوجه عام ، وقد
كانت لهم عادات ثابتة تقوم على أسس
حضارية وديانة ترجعان الى أقدم العصور
بقوا مصريين خالصين في مجموعهم ، وعلى
حين أن تصرا منهم استسطخوا في لغتهم
وملبسهم وأسمائهم يصيغنة أفريقية تماما
الفرائن على انها لم تنسج ثوبينهم ولم تكن
أكثر من طلاء خارجي لم يمس جوهرهم .

الثورة القومية

١ - الأسباب

وليس من العسير أن نتصور نشأة
المصريين بعد أن عرفنا كيف سلهم البطالة
استقلالهم ، وكيف انقلوا كاهلهم بالضرائب
الفادحة والتكاليف المرحمة ، وكيف وضعا
أيديهم على كل موارد البلاد بشكل لم يسبق
له مثيل ، وكيف قضوا على الأرستقراطية
المصرية الديوية ، وكيف أدلوا الأرستقراطية
الدينية والمحاربن المصريين ، وكيف وفروا
للأفريق أسباب الحياة التي ألقوها في بلادهم
وسحروهم أرفع المناصب وأشعب الفساح
وأوسع الاطماع . ولم يتعدل المصريون كل
ما لقوه من عنف وعسف في سبيل آلتهم
أو ملوكهم الوطنيين ، الذين يعتقدون على
المعتقدات الدينية ، ويتكلمون نفس اللغة ،
ويحيون نفس الحياة ، واما في سبيل ملك
أجنبي وجنس أجنبي بأسره اصطفا ذلك

ذلك لشاركه في حكم البلاد ، وادغام إبناتها
على بذل أقصى الجهد في استقلال مرفق
البلاد الاقتصادية . فلا عيب إذن أن نضت
فجوب المصريين بكرهية الأجانب ، وإن اضجر
مرجل غضبهم في وجه منسجى بلادهم ، فقد
تطافرت لنا اشجار قهيب الثورات المصرية
ثلاثة عوامل لها أيده الأثر في حياة الناس
في كل زمان ومكان ، وهي العامل الديني
والعامل القومي والعامل الاقتصادي .

ووسط هذه الظروف كان من اليسر أن
بندلع لهب الثورة لأي سبب ، فقد امتلات
النفوس غضبا وخطا ، وفور جيش الثورة
من ملايين الراح والصناع والعمال الذين
كانوا يضيقون أسسهم الضيق بالتقسيم
الاقتصادي الصارم الذي استعده أو أحكم
شوابه بلمبيوس الثاني . ولم يفتر الثوار
الى قادة وزعماء ، كان البلاد المصريين ، وقد
عصف البطالة بسكانهم وثروتهم ولتيازهم ،
وكذلك رجاء الدين ، وقد كسر البطالة
ولا سيما أوائلهم شوكتهم ، كانوا جميعا
يحنون الى استعادة ما كانوا يضمنون به في
الماضي من الكرامة والفرجة والثراء .

٢ - الثورات

ونستخلص من الوثائق ان المصريين قد
ظهروا نفعتهم على ذلك النظام الاقتصادي
اليفيض منذ عهد بلمبيوس الثاني ، إذ تحدثنا
الوثائق عن تكرار وقوع اضطرابات عندئذ
بين المزارعين ، كانت تنهي باضرابهم عن

في عام ١٦٥/١٦٤ ق . م - الثورة التي قام بها زعيم مصري مشهور يدعى ديونيسيوس بتوسبرابيس كان يتولى منصباً كبيراً في التصرف الملكي ، وبتنوع بغزو كبير بين المصريين ، وقام يدور معار في الحرب ضد أنطيوخوس . ويبدو أن ديونيسيوس كان يريد استئصال الشقاق الأخرى بين بطليموس السادس وأخيه الصغرى لشغل من الأخ الأكبر باستنارة حوامر الاسكندر بن ضده ، حتى اذا مات له ذلك استنفر وسنة اثنى عشرين ضد الاخ الأصغر ، وبذلك ينقل البلاد من مستعبدتها . لكن الوثائق بين الاخوين انه على ديونيسيوس خطه ومن بطليموس السادس من حزيه . لم ير ان ديونيسيوس تمكن من الفرار واتحاد نيب الثورة في البلاد ، فاضطر بطليموس السادس الى القيام بعمله حتى اخوة لاحاده هذه الثورة .

ويرى بعض المؤرخين ان مصر رجعت لسداه الخلفاء بين بطليموس الثامن وأخته كليوباترة الثانية وانقسمت قريتين ، وانه كان يؤيد كليوباترة الثانية الاسكندرية او على لاقب جانب من الاخرين وكذلك اليهود وعنايب من الجيش ، على حين كان يؤيد بطليموس الثامن بقية الجيش وكثير من المصريين ، ومن المحتمل غالبهم بزعامه الكهنة وان هذه الحرب الأهلية كانت مزيجاً من النزاع الأخرى والثورة القومية . ونحن نعتقد ان هذه الحرب كانت فعلاً مزيجاً من

العمل وفرارهم الى المدينت للاحتباء بالأكلة . وقد اتخذت هذه الاضطرابات تزداد عنفاً على مدى الزمن ، فوقعت في عهد بطليموس الثالث أول ثورة شعبية . لكن اشد ثورات المصريين عنها ، وأطولها بقاء لم تنح الا بعد انتصارهم في موقعة رفح ، فقد كان يفتن المصريين الحانسل الذي يحبه اليهم لانهم أنفسهم يراكي روح الوثنية الكامن في صدورهم فيخلصوا بلادهم من لير الأجانب مثل ما تخلص اجدادهم من الصكسوس بعد حكم دام مدة قرن تقريباً .

لقد صبر اثنى عشرين على بلادهم كادهم الى ان تبين لهم من انتصارهم في موقعة رفح ان تفوق الاهريق عليهم لم يكن لا وهماً ، وانهم على الاقل قد لأولئك السادة الذين اوسعهم بظناً واستغلالاً ، فلا عجب ان ما كاد الجيش يسود من رفح حتى تاجبت نار الثورة بين المصريين . وقد بدأت الثورة في الدلتا في عام ٣١٦ ق . م . ونم يأت عام ٣٥٦ حتى كانت قد اشتدت وامته لبيها الى مصر الوسطى ومصر العليا . وقد بعثت نار الثورة مستمرة ل البلاد حتى عام ١٨٤ / ١٨٣ ق . م . عندما وقعت سايس في قبضة بطليموس الخامس الذي مثل بالزعيماء المصريين اقطع تشيل بعد ان استهم على حياتهم يشجعهم على التسليم .

ولم يكذب بطليموس السادس بنحو من تسبح انطيوخوس الرابع المخيف حتى واجه

التمزج الأسرى والثورة القومية ، وإن تفسر
 ما عدت هو أنه كان لكليوترة الثانية حزب
 يضم الجانب الأكبر من اتريق مصر والمتأثرين
 وتقوم كهيئة آمون ، ولذلك كان الموقف
 الطبيعي ثمانية المصريين هو مناهضة ذلك
 الحزب انشقاء لعنيل حقدهم على الاتريق ومن
 هادتهم من المصريين ، فهدوا كما لو كانوا
 يتاصرون بطلبوس الثامن ، أو بمبارة أخرى
 لم يكن تأييد غالبية المصريين لطلبوس
 اللقبن حيا له وإنما كراهية لأنصار خصمه .
 وقد مهددت الثورة في عهد بطلبوس
 التاسع وكانت مثل سابقتها وليدلة عوامل
 دينية وقومية واقتصادية . وقد تلاقت الحال
 في منطقة طيبة إلى حد أن بطلبوس التاسع
 رأى أن الطريقة المثلى لقطع دابر الثورة هي
 القضاء على طيبة لأنها كانت دائما مصدر
 الثورات ومقلد الناشرين ، ولذلك فإنه بعد
 حرب دامت ثلاث سنوات استولى على طيبة
 وحربها نظريا شديدا (عام ٨٥ ن . م .) .
 وبين أن تطريب طيبة قد تصمم ظهر
 الثورة لكنه لم يفض عليها فضاء مبرما ، إذ

تفسير الدلائل إلى حدوث اضطرابات في عام
 ٧٩/٧٨ وفي عام ٩١/٩٣ وكذلك عام
 ٥٨ ق ٠

وقد خرج المصريون من كفاهم الطويل
 يعبرون أذيال النيسة بسبب افتقارهم إلى
 ما أمازت به أعينهم قوات البطالة من النظام
 والأسلحة والصاد والأموال ، وبسبب عدم
 اتحادهم ، فإن طريقا مهما من المصريين بدلا من
 أن يشتركوا في مناهضة الحكم الأجنبي
 الجائر اشتركوا في مناهضة مواطنهم ، أو على
 الأقل وقعوا منهم موقفا سلبيا ، وذلك الشها
 للاحتقاد الشخصية وسعيا وراء مصالحهم
 المادية ، فكانوا بذلك مطية للأجنبي وجروا
 من أداء تنفيذ سياسته الاستعمارية .

وإذا كان المصريون قد فشلوا في التخلص
 من طغاهم الأجانب ، فاهم عسلى الأقل
 أرحمهم على النزول عن سلمهم وجبروتهم ،
 وانظر اليهم بين جديدة في السطر الثامن من
 حكمهم . ولهذا عن ذلك فإن الثورات القومية
 كانت من أهم الأسباب التي أضحت دولة
 البطالة وعجلت بالقضاء عليها .

الفصل الثامن

الآداب — العلوم — الفنون

الإلهات . وقد نبيد بطليموس لهذه الدار مبنى في الهي الملكي - أحد بحيث يكون مركزا للبحث العلمي وفي الوقت نفسه مسكنا للعلماء ، حيث كان الملك يستضيفهم على نفقته فضلا عما كان يجربه عليهم من المراتب ، لكيلا تتسلفهم مطالب العيافة عن الانصراف كلية الى البحث والتفكير . ولم يكن الهدف الأول لهذا المعهد التعليم وإنما البحث العلمي ، ومع ذلك كان المتسماة بقرون المعاضرات في القاعات العامة وما شبه ذلك في المدينة . ويبدو من الدور الذي قامت به الاسكندرية في الحركة العلمية أن كل فروع البحث العلمي كانت مسئلة في جامعتها .

ولكن ينسب للعلماء الأضطلاح بمصطلح "نشأت المكتبة الكبرى . وإذا كان بطليموس الأول هو الذي وضع نواة هذه المكتبة بجوار دار العلم فإنه بطليموس الثاني هو الذي تمهد المكتبة برعايته حتى غدت أعظم المكتبات في العالم القديم . ويبدو أنه أنشأ كذلك المكتبة الصغرى التي كانت تتكون جزءا من مسجد السيرايوم . ونحن نميل الى الأخذ بما تذكره بعض المراجع القديمة من أنه عندما أحرق يوليوس قيصر

سنصر الكلاخ في هذا الفصل على الآداب والعلوم الاغريقية ، لأنه مصادرا نامل انشالا تاما الآداب والعلوم المصرية في خلال هذا العصر .

لولا - الآداب -

١ - دار العلم والمكتبة

يرجع ان بطليموس الأول هو الذي خطا حوالي عام ٢٩٥ ق . م . الخطوة الاولى في سبيل انشاء دار العلم والمكتبة ، فقد نطن ذلك الماهل الأديب الى أنه ■ كانت القوة ضرورية للذود عن حيضه ملكته وتوسيع رقعتها ، فإن رعاية العلم والفن كانت أمسح وسيلة تكسبه وسلاته المجد والخلود . ومن ثم أخذ يدعو الى الاسكندرية الكثير من فحول لسعراء الارباق وأدباءهم وعلمائهم وفلاسفتهم وفنايهم . وقد كان في طلبة نيولفه وبشربوس الفليري الذي أوحى اليه بإنشاء دار العلم (الجامعة) والمكتبة .

وقد أنشئت دار العلم على نسط مدارس البت الصلصية ، إذ يبدو أن بطليموس الأول اقتنى أثر المدارس الفيثاغورية تجعل دار العلم في الاسكندرية تلفه حول عبادة آلهات العلم والفن ، ولذلك سميت موائ هذه

الأسطول المصري في خلال « حرب
الاسكندرية » ، وامتد الهمب الي رصيف
البناء وأحرق المباني المجاورة له ، ذهبت
المكتبة الكبرى طمسا للنيران ، بدليل ان
أنطونيوس عوض كليبتره عن تلك الخسارة
الفاخرة داهباها ٢٠٠.٠٠٠ مجلد من مكتبة
برجام .

وقد أدى علماء الاسكندرية خدمات
جليلة للأدب الاغريقي ، عندما ابتدعوا فن
لقد النصوص القديمة مقارنة المخطوطات
المختلفة ، وحفظوا أصول كثير من المؤلفات
القديمة . ولمسل هم ما يدين به المعدلون
لعلماء الاسكندرية ما يلدوه من الجهد في
تحقيق الأشعار اليونانية والسرديات ، وكان
فن النقد الاسكندري يرتكز على قواعد
ثابتة قديمة تخالف تماما لولمعد فن النقد
التخيلي الذي ابتدعه الرواقيون فما بعد في
برجام .

٢ - الشعر

وشعر الاسكندرية بحق عاصمة الأدب
الاغريقي في العصر الهلنستي ، حتى انه ينظر
أن لسبح أن أحدا من فحول شعراء ذلك
المصر لم يرد الاسكندرية أو يعيش فيها
لينسج برعاية ملوكها ويطلق من موارده علمها
فلا عجب أن كافة أنواع الشعر الاغريقي ،
قيما عدا الكوميديا ، قد تأثرت في خلال هذا
العصر بالشعر الاسكندري .

وكانت أحب ألوان الشعر الي قلوب

الاسكندرئين الشعر القصصي والمرثيات
والشعر الغنائي والمقطوعات القصيرة . وقد
كان هذا الشعر اثرافيا خالصا ، واستند
بعضه من الفنون القديمة ، والبعض الآخر من
عواطف الماسرين وخيالهم . ولذلك فانه
ينسا يتغير بعض الشعر الاسكندري تجديدا
لبعض فنون الشعر القديمة ، يشتر الجهد
الأخر مبتكرات جديدة في شكلها وفكرتها .
وعلى كل حال فان جميع ألوان الشعر
الاسكندري لا تمت بصمطة الي مصر
أو شعبا ، حتى أن ليوكريخوس عندما كان
يتحن بوصف الطبيعة كان لا يصف جمال
الطبيعة في مصر والماء في جزيرة كوس
أم مدينة سيراكوز . وكان الشعراء الاغريق
لا يبرون عن مصر ، حتى بعدما عاشوا فيها ،
الاما قراوه في القصص الاغريقية أو ما كتبه
هيرودوتوس وأللاطون ؛ وكانوا لا يوجهون
فتايمهم الي شيء من المميزات المحلية
الاما لا يستطيون استخدامه في اطراء الملك
الذي يرعاهم .

ولعل أهم مميزات الشعر الاسكندري
انه كان خاليا من العواطف السياسية والشعور
بالقوى صحر للالهة القديمة ، في حين انه كان
كلها بأفاق العلم التسعة ، وحمور المشاعر
الانسانية ، وامتداح الحياة البسيطة التي
تخالف حياة الناس البرية المقعدة وتصوير
الواقع تصويرا دقيقا .

ويتمسبر كاليباخوس أبرز شعراء

الذين تأثروا بالمسائين ، وكلاهما يحوس أبرز
مثل المؤرخي الاسكندرية الذين تأثروا
بمدرسة ايسقراط .

ومن حسن الحظ انه في الوقت الذي
خضع فيه التاريخ تلك المؤثرات التي
اقصدته ، وجد اشخاصي يسابون الي الحقيقة
وشاركوا فضلا في الإحداث التي كتبوا عنها ،
مثل بطليموس الأول الذي استمد معلوماته
ليسا كتب عن الاسكندر من الوثائق الرسمية
ومن مذكراته ومشاهداته الخاصة ، فكان
كتابه فريدا الي بابة بونث ، لكنه مع الأسف
لم يتسلسل الينا الا بعض منه عن طريق
أريافوس .

وفي عهد بطليموس الأول كتب حكمانايرس
من اهدرا عن تاريخ مصر من وجهة نظر
الافريقين : والتاريخ المصري الذي يمكن أن
يؤتى به من ذلك العصر هو ما كتبه مانتو
كبير كفة هليوبوليس ، واخذت له على
الوثائق الهيروغليفية واهدها لبطليموس
الثاني ، وكان كتابا ضخما يقع في ثلاثة أجزاء .

وانا كان التاريخ يحتل مكان الصدارة
في نشر العصر الهيلينستي ، فقد كان للجغرافيا
مكان هام فيه ، الي حد أن ما كتبه لجيا العالم
الجغرافي ارانوسستيمس يعتبر أعظم مثل للنشر
الاسكندري . وقد كانت سعة اطلاع هذا
العالم وتبحره في مختلف العلوم والفنون
مضرب الأمثال ، فانه كتب في الفلك والفلسفة
وقواعد اللغة وقواعد اللغة والتاريخ والجغرافيا ،

الاسكندرية في النصف الأول من القرن
الثالث قبل الميلاد ، وكان لا يزال يفرض
الشعر في النشط الأخير من حياته في عهد
بطليموس الثالث . ولم يولد في مصر شاعر
هيلينستي من الطراز الأول إلا ابولونيوس
الذي أطلق عليه لقب الروديسي لأنه استقر
في رودس وأصبح أحد مواطنيها بعد طرده
من منصب أمين المكتبة الكبرى .

وكان من أشهر شعراء القرن الثالث
ثيوكريتوس السيراكوزي ، الذي عاش فترة
في الاسكندرية وأصبح شاعر بلاط بطليموس
الثاني . واذا كان العصر الذهبي للمصر
الاسكندري لم يمر أكثر من نصف قرن يسته
من حوالي عام ٢٩٠ الى عام ٢٤٠ ق . م .
فان العصر الذي يصور حياه الريف بلبي
منتقضا حتى القرن الأول قبل الميلاد .

٣ - الشعر

ولم يكن للاسكندرية في النشر الهلنستي
من الأثر مثل ما كان لها في الشعر . ولقد تأثر
النثر في هذا العصر بعاملين كان لهما أسوأ
الأثر فيه . أما العامل الأول فهو أثر المسائين ،
اذ أن فرامهم بجمع الحقائق كما هي المضي
الى الخلط بين الحقائق والتعميم دون أي
تمييز بينها . أما العامل الثاني فهو أثر
ايسقراط وتلاميذه وكانوا يختلفون الوقائع
ليكون أثر العواطف في النفس عميقا ، أو
يعورون الحقائق ليكون لها منوى ظاهر .
وبشير ساطيروس أشهر مؤرخي الاسكندرية

* لكن مؤلفاته في العلمين الأخيرين غابت سائر ما كتبه . وأهم مؤلفاته في الجغرافيا كتابان كان أحدهما بحثا في قياس أبعاد الكرة الأرضية ، فدر فيه محيط الكرة الأرضية بتدريرا بشر الاحياء .

ثانيا - العلوم :

١ - الطب والجراحة :

ولقد بلغت العلوم الاخرية شأوا بعيدا في العصر الجليستي بعد الخطوات المرفقة التي خطتها قبل ذلك العصر . وقد خدم الطب بوجه خاص قديما كبيرا ، وكان أبرز علماء الطب في الاسكندرية هروفيوس العالم في التشريح ، واربستراتوس العالم في وظائف الاعضاء . وقد كانت أبحاث هروفيوس التشريحية تدور حور حول المخ والاعصاب والكبد والرئتين واهضاء التناسل ووجه هذا العالم مناية كبيرة الى دراسة المخ والاعصاب والقلب وفسريات البيض . وتدل الأبحاث على انه كان يستخدم أداة بديعة لتفحص سرعة البيض . وقد كان طبيبا أن يؤدي تقدم التشريح الى تقدم الجراحة . ومن أسباب عهد طب الاسكندرية اختراع آلات جديدة للجراحة ، واستخدام هذه الآلات بجراحة فائقة .

وكان ارباستراتوس أكثر توفيقا من هروفيوس في أبحاثه عن القلب والمخ ، وذهب الى مدى أبعد منه في التفرقة بين الأعصاب الحساسة والاعصاب المحركة .

وحوالى عام ٢٨٠ ق . م . أسس فيليوس مدرسة طب جديدة في الاسكندرية تدعى المدرسة التجريبية . وقد كان فيليوس أحد تلاميذ هروفيوس ، لكن مدرسته تجاوزت عن التشريح والعميلوجيا ، لأنها كانت ترى ان الطب ليس مختصا الا بعلاج الأمراض دون الوقوف على أسبابها . ولذلك فإن واجب الطبيب هو أن يسطي العلاج الذي يشفي أمراض الفاء التي يراها ، على أن يفتدى الى ذلك ملاحظاته الشخصية والتطعيم والحالات اكتسابية ولا يفتدى الى المدرسة التجريبية قد أدت للطب خدمة كبيرة بتساهلة الميول النظرية التي كانت على الدوام أحد مواطن الضعف في الطب الاخرى .

٢ - علماء الحيوان والنبات :

وقد كان على رأس المشغلين بدراسة على الحيوان والنبات في العصر الجليستي عالمك بارزان ، كان أحسنهما تلميذا لاجبا لأرسطو يسمى ليوقراسطوس ، وقد ففصل بطلميس الأول في استمائه ، والأخر يسمى استراتون وكان معلم بطلميس الثاني . وأهم ما أصابت دراسة الحيوان في هذا العصر ان العالم الاخرى أصبح يأنف عددا كبيرا من الميراثات . ولا شك في أنه قد ساعد على ذلك حقيقة الحيوان التي أنشأها بطلموس الثاني ، وكانت تضم عددا كبيرا من مختلف أنواع الحيوان والعليور والزواحف .

أما علم النبات فقد كان أكثر توفيقا بفعل

أبحاث نيوفراسطوس التي رقت دراسة
النبات الى مستوى العلم البحت ، وتمخضت
عن معلومات تثير الدهشة في كثير من الأحيان
لان النيكروسكوب لم يكن معروفا عندئذ ،
ولان علم الكيمياء كان لا يزال في المهد .
وبمما كان من امر اكتشاف هذا العالم فانما
لا يسكن ان تقارن بفعله في وضع اساس
علم النبات وفي تحديد السبيل لمن اتى بعده
من الباحثين المتأخرين .

٣ - العلوم الرياضية

وتحتل الهندسة مكانة سامية بين رياضيات
المصر الهيلينسي ، التي لماقت في تقدمها سائر
فروع العلم الاخرى . لان الهندسة كانت
اساس كل الرياضيات عند الاغريق لصدف
دراستهم بالارقام . ولعل ما طقته الهندسة من
الاتقان كان سببا في عدم تفكير الاغريق في
اختراع الارقام ، ولا سيما ان الهندسة كانت
تمثل الكثير مما يعتبر اليوم من علم الجبر .
ولا يسكن المبالغة في تقدير الخدمات التي
أستأها اقليدس الى الرياضيات . ويبدو ان
هذا العالم كان يعاصر بطليموس الاول ، وعلى
كل حال فانه أسس في الاسكندرية مدرسة
تعليم فيها كثير من الرياضيين المبرزين . ويُقرن
اسم اقليدس بأشهر مؤلفاته وهو كتاب في
الهندسة يعرف باسم « العناصر » . ولم يصرف
كتاب في العالم ، باستثناء الكتب السماوية ،
مثل ما صر هذا الكتاب ، الذي استسمر
تلاميذ الهندسة في مختلف أنحاء العالم

يستخدمونه منذ العصر الهيلينسي حتى عهد
قريب جدا . وأهم ما يثار به هذا الكتاب
ما اختاره فيه اقليدس من المعلومات المثلث
جا كالتماريق والفروض والبدهييات ،
ولا سيما النظريات التي تستحق ان تسمى
« عناصر » ، لانها أساسية وتنبؤ خبرها في
الاهمية وفي التطبيق . وقد وضع اقليدس
كتبا اخرى ثم تكن مقصورة على الهندسة ،
بل شملت فروع الرياضيات كما كانت معروفة
عندئذ .

ويتصل علم الفلك بالهندسة اتصالا وثيقا ،
ويدين الحريق العصر الهيلينسي بلقد من
الفضل لغير قليل لعلماء بابل ، الذين جمصوا
منذ عهد ببيد ملاحظات تجريبية عن الأجرام
السماوية . وقد كان من أبرز علماء الفلك
أريستارخوس من ساموس ، الذي عاش في
القرن الثالث وكان اول من نادى بأن الأرض
لا تدور حول نفسها فقط وانما تدور أيضا
مثل الكواكب حول الشمس . اما أعظم علماء
الفلك في الاسكندرية وفي العايم القديم فاطبا
فقد كان يعيش في القرن الثاني قبل الميلاد
ويسمى هيبارخوس ، وقد كان أعظم كشافه
تعداد الاستداليين الريبي والمخريفي ، وتقدير
متوسط طول الفجر القصرى تقديرا يهت
على المعهنة ، لأنه لا يقل الا بنسبة واحدة
عن التقدير المقبول اليوم .

وكان أرخميدس السيراكوزي أعظم
هيقرة مبتكرة بين علماء الرياضيات الاغريق .

وقد اخترع أرخميدس ثوربه المسعود (الطنبور) لرفع الماء عندما كان يقيم في مصر ، لكنه كان لا يعلق بأهمية كبيرة على مثل هذه الأشياء التي كان يعتبرها مجرد تسلية ، فقد كان يتفق مع أفلاطون في الرأي القائل بأن اقليدس سوف يجب ألا يستخدم علمه في الأشياء العملية ، وحينما أتى فلكر أنه وضع أسس علم المتواضيل والتكامل في اللانهاية وعلم دراسة المراتب والمبادئ الأولية في الميكانيكا . وقد نطقت كذلك في عهد البطالمة الأوائل

دراسة الميكانيكا وكان أبرز علمائها كتيبيوس الأكبر ، الذي يحتل انه عاش في عصر بطليموس الثاني أو الثالث . وقد ابتكر هذا العالم آلات تعمل بالقوة الهوائية وأخرى بالقوة المائية . وبأى بعد هذا العلم بهوالى ربع قرن فيلون البيزنطى الذى وضع كتابا في تسعة أجزاء على الأقل يدعى مجسوة الميكانيكا .

ثالثا - الفنون

وستفسر الكلام هنا على فنى المعمار والنحت ، لأننا لا نعرف عن موسيقى آنصر الهيلينستى أكثر من أنها كانت تلعب دورا هاما في حياة العامة والخاصة ، ولأنه لم يبق من التصوير الا القليل النادر الذى لراه على جدران المقابر .

١ - المعمار

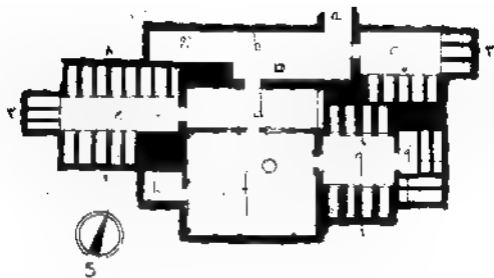
ستتناول في ايجاز أقسام هذا الفن وهى : المقابر والمنازل والشاهد عند الاغريق وعند

المصريين ، وستبين اذا كان الفن المصرى والفن الاغريقى قد تأثر أحدهما بالآخر أم بقى كل منهما خالفا هيا .

١ - المقابر

وتدثر نتائج الحفرات على أن اغريق مصر قد استخدموا مقابر من ثلاثة أنواع : كان أولها عبارة عن حفر نتحت في الصخر أو حفر في الأرض ، وهذه أمثال هذه المقابر البسيطة في مختلف أنحاء العالم الاغريقى . وأهم مظاهر النوع الثانى المنحرف في حجرات ستلطة الشكل تبنى أو نتحت في جوانب دهليز أو غرفة . وإذا كان هذا النوع فينبئى الأصل ، فقد خلع الاغريق عليه طابعا لغريقيا . والنوع الثالث مقدونى الأصل ، لكنه اغريقى في نخطيطه وعمارته وزخرفته ويسمى مقابر الأرائلك .

ونتناول مقابر الأرائلك التى ترجع الى القرن الثالث والنصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد لأنها تأتلف من سلم وفناء مكشوفه وعرفة مربعة وحرمله خلفية تمنع جسيمه على محور واحد . أما مقابر الفترة التى تلت من منتصف القرن الثانى حتى نهاية عصر البطالمة فقد كانت أبرز عناصرها هي فناء أو وسط مديف به الغرف . وقد تحورت هذه المقابر من مقابر ذات أريكة مثل مقبرة مسسوق النورديان حيث كان المدفن يتم في تابوت على شكل الأريكة يوضع في العرفة المقلبة ، الى مقابر ذات أريكة وفجوات مثل مقبرة الساطيى



مقبرة السافو



مقبرة حديفة أنطونياس

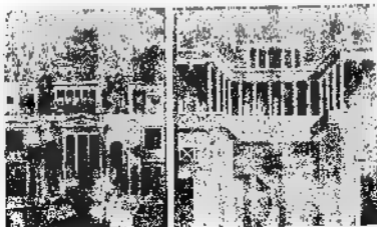
نوعين . واحد هذين النوعين بسيط يتألف من بر تشعشع في قاعها فجوة يدفن فيها الميت . وكان هذا النوع المتواضع من المقابر شائعا جدا في عصر البطلمية . وكانت مقابر النسوع الثاني تتألف من هيكل جنازى صغير تنزل من أرضيته بر كان الميت يدفن في قاعها . ولما كانت مقابر هذا النوع أغنى من مقابر النوع الأول ، فان هذا يفسر قلة عدد مقابره في عصر پستار بنقر أهالى البلاد بوجه عام فترا مدفعا .

وباستثناء مقبره يتوزيريس التى اختلط في زخرفة بعض اجزائها الطراز المصرى مع الطراز الاغريقى كانت المقابر المصرية البطلمية مصرية خالصة لى عمارتها وزخرفتها ولصناعتها الجنائزية .

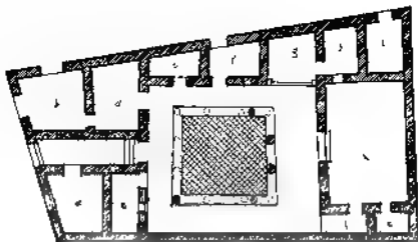
ومن ثم يمكن القول بأن المصريين والاغريق قد احتشقوا بوجه عام بطراز عمارتهم الجنائزية

حيث استعملت الأريكة والفجوات في الدفن الى مقابر ذات قجوان وأريكة مثل مقبرة سيدي جابر . ومقبرة حديقة أنطونيناس حيث استخدمت الفجوات فقط في الدفن ولم تكن الأريكة الا زخرفة بارزة ، وأغريا الى مقابر ذات قجوان ومجاريب حيث اختتمت الأريكة تماما وكما ان المرنى يدفنون في الفجوات ولى نوابض كالتصانيق كانت توضع في المجاريب . وسما بجهد بالملاحظة انه اذا كان طابع عمارة هذه المقابر وزخرفتها افرقيا ، فالها لم تظل أحيانا غليظة من بعض العناصر المصرية ، وكذلك كانت أيضا حال النسب الجنائزية .

أما المصريون عالمهم ، سواء اكانوا يعيشون في الاسكندرية ام في المدن والقرى المصرية ، قد احتشقوا بأساليب دفنهم التقليدية . فكانوا يدفنون موتاهم اما في مقابر قديمة أعادوا استخدمها ، أو في مقابر حديثة كانت على



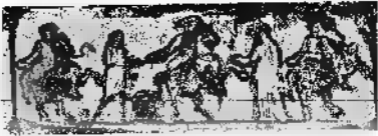
صورتان كاتبا تزيين جدران منزل في بومبي . لكن يبدو من خصائص عمارة المباني التي في الصورتين ان عمارتها المباني كاتبا هيلينستية وتماثل ما اقيم منها في مصر أو آسيا الصغرى وسوريا .



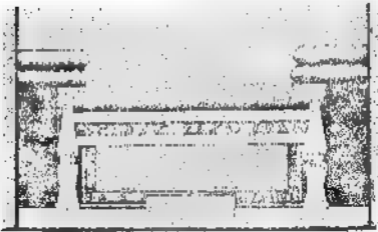
منزل فی دهلوس



منزل فی پارس



لوحة تزخرف دماء المقبرة رقم ١ بصحفي كلن إرمق الإسكندرية ، وتصور الزوجة ولانة
فريسان بنهم مبيدشان ١ ويبدو أنهم كانوا جميعا أفراد أسرة مصرية نبيلة دفنت في هذه المقبرة .



ثابوت في شكل أريكة في القصر رقم ٣ بصحفي كلن إرمق الإسكندرية ، وهيمه
الإريكة الجندالية ، وقد صممت من العيون وطليت بالجبس والاكولان ، تعطينا صورة واضحة
من المستوى الرفيع الذي ينفذ صناعة الأرائك، التي كانت تستخدم في الحياة الدنيا ، وتصنع
من الخشب وترصع بال عاج والمعادن والخشب النفيس ، وتعرض بالعنقاقي والوسائد .

خاليا من التأثيرات الأجنبية ، فيما عدا بعض العناصر العتيقة التي تملكت في بعض الحالات من أحد الطرازين الى الآخر ، وتجنس بذلك دليلا على المدى المحدود الذي بعته محاولة مزج طرازي العمارة المصرية والافريقي .

ب = المنازل

ومع أنه لم يعثر في مصر كلها الا على عدد قليل من المنازل الافريقية في النجوم ، فانه بفضل معلوماتنا عن المنازل الافريقية في باقي انحاء العالم الافريقي ، والأدلة المستمدة من الوثائق البردية ومقابر الاسكندرية وسفينة بطليموس الرابع التي كانت تعبر قسرا عاقما نستطيع أن نستخلص أن فريق الاسكندرية قد استخدموا ، مثل ماصرعهم في سائر انحاء العالم الافريقي ، نوعين من المنازل يتسبب احدهما النوع الذي كان شالعا في براينبي بالاناضول في القرن الثالث قبل الميلاد ، بدليل ان مقابر سوق الورديان والسلاطين والاشوش وسيدى جابر تتألف من العناصر الرئيسية التي كانت توجد في ذلك النوع من المنازل .

أما النوع الثاني فيلعب ذلك النوع من المنازل الذي اشتهرت به جزيرة ميلوس في القرون الثاني قبل الميلاد ، ووجدت عناصره الرئيسية في مقبرتي حةيفة أنطونيانس والمكس .

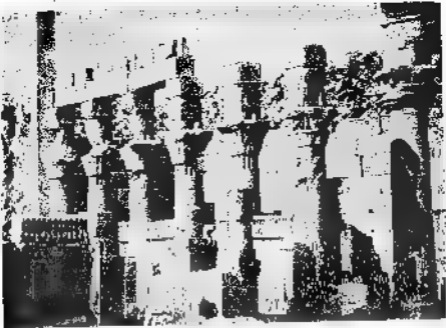
وتشير الفرائن الى أنه كانت توجد منازل افريقية في بطوليس وبعض مدن النجوم ، ومن المحتمل أيضا في قرطيس . أما فيما عدا ذلك فيبين ان الافريقي وكذلك المصريين كانوا

يتزولون في منازل مصرية لم تكن الا استرارا . لأنواع المنازل التي كشفت عنها الحفائر في تل الصارغة ، فهي مثلها تتألف من مدخل وصالة وسطى وغرفة للنوم ومطبخ ومخازن ، ويجب أن يبين أن اتخاذ الافريقي في الريف منازل من الطراز المصري لا يرجع الى تأثيرات حضارية وانما الى الظروف وجدوها التي أملت ذلك ، فقد كان أغلب هؤلاء الافريقي جنودا وبعضهم تجارا ، وكان الجنود ينهون مساكن في بيوت مصرية . ومن المحتمل أن هؤلاء الجنود والتجار لم يبشروا من قبل في منازل تختلف كثيرا عما وجدوه من المنازل المصرية . ولذلك يبدو طبيعيا أن الفريق الأقاليم بوجه عام استعملوا المساكن المصرية التي وجدوها فيما زلوا به من المدن والقرى المصرية . ولعله بعضى الزمن وتناسب هذه المنازل مع البيئة ألف الافريقي سكانها .

أما عن طابع عمارة المنسازل البطلمية ورخولتها فان الفرائن يوحى بأنه قد بنى بوجه عام مصرية طالصا أو افريقيا طالصا .

ج = المعابد

وتعدنا المصادر القديمة بأن الاسكندر الأكبر والبطالمة قد شيدوا معابد للالهة الافريقية مثل ما شيدوا للالهة المصرية ، لكن لسوء الحظ لم تكتشف الحفائر عن بقايا أى معبد افريقي كبير ، وان كانت قد كشفت عن بقايا معبد دودي صغير يبدو أن طرازه الافريقي لا تشوبه أى تأثيرات مصرية ، كما



آستان قدس، بنای بزرگ کهنه



چرخه‌ها در بنای بزرگ کهنه

كشفت أيضا عن بقايا كل طرز الأعمدة الاغريقية . واذا كانت هذه البقايا تستاز بطابعها المحلي ، وهو طابع الاسكندرية ، فان اهلها ليرفضي بحت . ومع ذلك فقد عثر على بعض تيجان للأعمدة تغطط فيها العناصر المصرية والاغريقية ، لكن يستبعد انها كانت مستخدمة في معابد افريقية أو مصرية لأن مثل هذه الصالر الدينية تنصص دائما بالمحافظة والاسستساك بالتقاليد . واذا كان الأفراد من صائر الاغريق قد حرصوا بوجه عام على أن يكون طابع مساكنهم في الدنيا وفي الأخرى افريقية ، فانا لا نملك في أن معابد الأكنسة الاغريقية كانت أكثر استساكا بتقاليد العمارة الاغريقية .

وقد كشف عن عدة كبير من المعابد التي أقيمت في هذا العصر للآلهة المصرية ، وهي مصرية صميمية في تخطيطها وعمارها وزخرفتها ، ولا اهل على ذلك من أن الاغريق لم يستلهموا آريتها أيضا صحيحا لبل حل بتلاسم اللغة المصرية القديمة . وتتماز هذه المعابد بظاهرتين وهما : أولا ، كثرة ما استلهم فيها من الأعمدة التي يتلقت على رؤسها الرعوس المركبة ، وفتنته أن المصريين ابتكروها في أثناء لهضة العصر الصاوي . وثانيا ، كثرة ما استخدم في صالات الأعمدة بوجه خاص من جدران قصيرة تبلغ نصف ارتفاع الأعمدة تقريبا . وليست هذه الجدران القصيرة غريبة على العمارة المصرية ، إذ نجد أمثلة لها في معابد الدولة الحديثة .

وجملة القول ان العمارة الدينية في عصر البطالمة ، سواء آكانت مصرية أم افريقية ، لم يتلقت بها أى تأثيرات أجنبية .

٢ - النحت :

وتتبع الدلائل التي آتت كانت للاسكندرية مدرسة للنحت الافريقي ذات مميزات خاصة تطلقه من مميزات صوائر مدارس النحت الهيلينية ، والى أنه اذا كانت هذه المدرسة ، مثل المدارس الأخرى المتاصرة ، قد استندت طرازها من برات أساطين الفن الاغريقي في القرن الرابع ، فانا لم نلث أن اهدرت بطابع معين كان أخص مميزات عدم ابراز مقام الوجه والجسم ، وعدم معالجة تفاصيل الشعر ، وعدم استخدام الزوايا الحادة ، وصقل السطح صقلا شديدا . لكن الاسكندرية لم تستخدم هذا الطراز المثالي فنسب ، لأنها يوم اجتذرت لها جديدا من فن النحت لتغضت عنه الأبحاث التي سارت قديما في جامعتها ، وكان عبادة من دراسة أجناس الناس وطباعهم وحرهم . اجتذرت طرازا والها يولهم هذا الفرج من الفن .

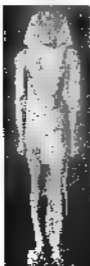
ولذل المعلقسات التي كشفت عنها العفرات على أنه الفنان الافريقي لم يحتكر فن النحت في مصر طوي عهد البطالمة . فقد استمر الفنان المصري زاول نشاطه لا على جدران المعابد ونسب الموتى فنسب ، بل في شتى الميادين التي كان أسلافه بالنعوتها منذ غير الزمن .

الأكبر بطراز اغريقي ، لكن القطعة متنوعة من الجرانيت أو البازلت وهما مادتان غريتان عن الفن الاغريقي . ومن ثل تماثيل يصور ملكا أو ملكة من أسرة البطالة بطراز مصري . ولما كان القياس الحقيقي في أي فن من الفنون هو الطراز ، لأنه أبرز صورة لأفكار الفنان وأصعب مظهر لطابع حضارته ، فإن اختلاط العناصر أو الصنعة لا يمكن أن يتعسف دليلا على امتزاج الطرازين المصري والاغريقي وبعبارة لذلك معنى امتزاج بينك الحضارتين وتفاعلها . لقد كان اختلاط العناصر نتيجة طبيعية لاجتماع الاغريق والمصريين في بيئة واحدة ، وكذلك لفترة الفنان على أن يكيف

وتكتشف دراسة فن النحت في عصر البطالة عن : أولا ، أن أكثر النقود التي سكها البطالة وأقلب قطع النحت التي ابتكرتها مدرسة الاسكندرية اغريقية في طرازها وعناصرها وصفتها ، وأن أكثر قطع النحت المصرية مصرية بصفة في صيغتها ومظهرها وجوهرها .

وثانيا ، أن الكثير من النقود وقطع النحت لخطت فيها العناصر دون الطرز ، مثل تصوير زهرة اللوتس أو قرص الشمس وسط قرنين على نقود بعض البطالة ، فهذه عناصر مصرية ومع ذلك فإن طراز تلك النقود سود اغريقي . ومثل قطعة تصور رأس الاسكندر

تمثال لقطع النحت التي لخطت فيها العناصر دون الطرز



تمثال لبطليموس الزعاهر مصمموغ من الجرانيت وطرازه مصري .



رأس للاسكندر الأكبر مصنوعة من الجرانيت لكن طرازها اغريقي .

نفسه حسب الظروف التي يعيش في كنفها ؛
وليس نتيجة لتفاعل الحضارتين المصرية
والاخرقية ، لأن هذه العناصر ظواهر سطحية
على حين ان الجوهر نفسه وهو الطراز قد
بقى مصرية او افرقيقا خالصا .

والتالي ، ان في عهد قتلهم من قطع النحت
محاولات بلاهوسرة لمرج الطرازين المصري
والاخرقي ، لكن قلة عدد هذه القطع يدل
على ان المصريين و الافرقيق قد أدركوا بدو فهم
الفرق الرفيع بين مثل هذه المحاولات لبعد
التقنة بين الطرازين . وبدل مقارنة هذه القطع
بالقطع الأخرى التي كان طرازها مصرية بينما
أو افرقيقا بينما على ان الأخيرة لا تفوق
الأولى في العدة فحسب بل كذلك في التقنية
الفنية . ولعل أولئك الفنانين الذين حاولوا
في عصر البطالة مزج الطرازين المصري
والاخرقي في فن النحت يشبهون الموسيقين
المصريين الذين يحاولون اليوم مينا مزج
الموسيقى الشرقية بالموسيقى الغربية .

انه لم توجد الا طريقة واحدة ناجحة لمزج
مثل هذين الفنين اللذين ، كما يقتضيان عن
بعضهما اختلافاً بعيد المدى ، كما هذه الطريقة
فهي ان يفسى احدهما في الآخر بان يتغلب
احدهما على الآخر بحيث يفتى عليه فضاء
سريما . لكن ذلك كان عزيزا على الافرقيق
باعتبارهم سادة البلاد واصحف حضارة
كانوا يبتدونها أسس الحضارات جسيما ، كما
كان عزيزا أيضا على المصريين ، فقد كانوا

لا يزالون يذكرون مجدهم الثالث ويعتزون
بتقاليدهم ولا سيما ان الفن عندهم كان وثيق
الصلة بالديانة والمهم كانوا شديدي
الاستمساك بديانتهم .

وما يجدر بالملاحظة ان التقنية الفنية لقطع
النحت الاخرقية أخذت تقل بعد بداية القرن
الثاني قبل الميلاد . وقد كان ذلك نتيجة طبيعية
لخصف الروح الافرقيقا بين افرقيق مصر في
الشطر الثاني من عصر البطالة ؛ لكن كما بقي
الافرقيق محتفظين بتأثيرهم خالصا فما برح
ما اختار روحهم من الضعف ، فان منهم من
بنى كذلك محتفظ بقاء طرازه برغم ما طرأ
عليه من تدهور .

وقد كان طبعيا أيضا انه حين اتسعت
الروح القومى بين المصريين عقب موافقة رفح
ان ينتسب منهم كذلك ، لكنه لم يكن اختلافا
طويل الأمد بسبب الفشل الذي انتهت اليه
ثورات المصريين .

ولما كانت النفود تربنا أيضا قد بلغت
أخرى خالصة في طرازها حتى نهاية عصر
البطالة ، وكانت النصب الجنائزية ولوحات
المعاد قد بقيت كذلك مصرية خالصة في
طرازها حتى آخر هذا العصر ، لأننا لا نعدو
الخطية حين نقرر ان كلام الفنان المصري
والاخرقي قد احتفظ بوجه عام بان ازدهاره
وابان تدهوره بطابعه خالصا تليا من اثر الفن
الآخر ، طالما بقي هذان الفنان متحتشين في
مصر البطلمية ، اذ يدعو ان النسب كانوا

أحدهما عن الآخر إلا بعض المظاهر الشكلية فقط .

ويرى كذلك محاولات قلبلة غير ناضجة مزج الطرازين المصرى والافريقى . وهذا يشير إلى أن محاولة مزج الجنسين كانت كذلك محدودة وغير موفقة .

وبما أنه يبدو جليا واضحا أن لدهور الفن الافريقى قد حدث في أعقاب القطع وفقد الافريقى على مصر ، فإنه يمكن القول فى ضعف الروح الافريقى فى مصر لم يبدأ قبل القرن الثالى قبل الميلاد ولم يكن نتيجة لاحتلال الافريقى بالمصريين .

وكما بقى الفن الافريقى ارقيا حتى نهاية عصر البطالة مما انحط مستواه ، فلابد من أن الروح الافريقى قد بقى كذلك افرقيا مما اضروه من الضعف .

ويبدو إذن من كل ما مر بنا أن نتائج الأداة الممتدة من الآثار ، فريد النتائج التى استخلصناها من مختلف المصادر الأدبية .

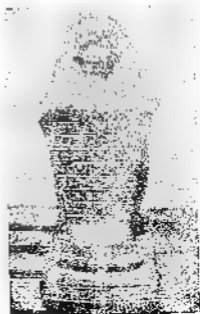
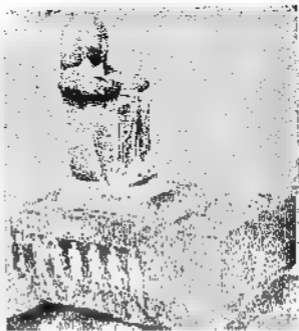
يدركون أدراكا صحيحا أنه حصل بين الفنين قوارق لا يمكن تخطيها ، وأن قطع الفن الذى تحتلظ فيها العناصر دون الطرز تكسى أثر البسة لا أثر الحضارة التى يعبر عنها الطراز . أما تلك المحاولات التى كانت تستهدف مزج الطرازين فإنها قليلة فى عددها محدودة فى جهودها ضئيلة فى قيمتها الفنية بحيث يمكن اعتبارها المتكاسا لتروان لردية أو فوقى فنس ينقصه التمدب .

ولا ريب فى أن الفن البطلمى يعطينا صورة سبحة عن الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر البطالة . لقد شهدنا أن غلبه الفن الافريقى وغلبة الفن المصرى كانت افريقية خالصة أو مصرية خالصة ، ولذلك لا بد من أن أغلب الافريقى وأغلب المصريى قد بقوا خالصين فى جوهرهم .

وترينا بعض الآثار عناصر خلطبة لم يكن لها أثر فى طابعها الجوهرى . وهذا يدل على أن الجنسين قد التقيا واختلطا ، لكن لم ينفلا



أصله ثم احدث تطور من التحدث المصري في عصر البطالة .







"بذلال صبيحان عن الجوارح لعزيمى . دهن
 وأمرأة . طومان رقصه طار مسهما مع اشياء
 أخرى من دبح البحر عند المسد - بالكرب من
 سفانس لى كورس .
 وما كان استخدام الأجزاء وتقسيمهم
 على اثنين من مصر على عهد الفرعونة والملك الهكاه
 ذاته لا يبعد أن جميع النحاتين كانوا من صبيح
 الإسماعيلية ."



تمثال كورس وهو عذري في ثوبه وشركه وطرازه

أمثلة من الفن في عصر البطلمية



٢

١

١ = عمود صغير من الذهب مرسج بالأحجار الكريمة . وهو مصري في الشكل والتصناعة والطراز .
 ٢ = سواران من الذهب ينهي أحدهما بجزء من ابن حول منح وهو مصري نوعه لكه المزيين في تصفيفهم لهم . أما السوار الآخر فينهي بمسك من لشكل عمدة . يوجد في نجو عليها أهرس معلق .

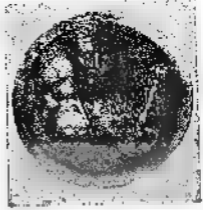


سواران من الفضة يمر عليهما في البلاون بمديرية الذهبية - والسوار الأخر على شكل صبان طوي حسمه حلقات . والسوار الثاني يتالف من أملاك تلف وتتشابك مع بعضها ثم تنتهي برؤوس تماثيل وحلقات - والأسياور التي تحاكي الثعابين في شكلها تتألف من الفن الإغريقي - وقد وجدت في مصر وهي بلاد ما بين النهرين أمثلة تعاكس السوار الثاني في شكله وزخرفته .

امتداد تصورات صناعة البرونز الإغريقية في عصر



٢



١



٤



٣

- ١ - لوحة برونزية مزينة بصورة تعسفية لهيرقل وعلى كتفه الأمير جلد الأسد وفي يده اليسرى مضربه المشهور -
- ٢ - سدوح من الجص للوحة برونزية مزينة بصورة نصبية لثالسيوس الأول -
- ٣ - تمثال صغير يصور أثيس على ظهر أسد -
- ٤ - رأس ميثيك تسمى على شكل أمروديتي وهي تعزم شعرها -

امثلة من الاواني في عصر البطلمية



نوعان من الابية العنقارية الجنائزية التي كانت شائعة في العرون الثالثه فبسل الجلام من الاسكندرية .



اياه من الخزف الالامع كان يستخدم في العرون الثالثه قبل الميلاد في تقديم العوايين في المماند والهياكل المنصصة لعبادة البطالمة الكونيين .



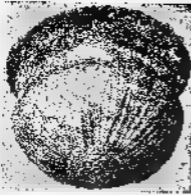
الاء زجاجي من العصر الهلنستي المتأخر



الاء من البرونز من العصر الهلنستي المتأخر



بري في وسط هذه الصورة للنساء الزجاجات يدبي . وحولها لوحات زجاجية مسطحة
كانت تستخدم للزخرفة .



(٢)



(١)

- ١ - كأس من الفضة من شكل كرون ينتمي لجرح هيراقلي من مملكة مصر القديمة - صناعة الفريجية ،
 ٢ - وعاء من الفضة الفريجية من شكله ، له شبه الأنية التجارية لكنه مصري في مسامحة
 وطرازه .



- تسمى هذه اللوحة تماثلا صغيرا من الصلصال المحروق مصنوعة محلياً لكن طرازه الفريجي .
 وتضم كذلك عددا من الأنية التجارية بعضها أتيني وبعضها أفريقي مصنوعة محليا وبعضها
 مستورد من إيطاليا . وتصور حسنة اللوحة ازدهار الفن الأفريقي في مصر البطلمية . وكذلك
 قيام علاقات تجارية نشطة بين مصر وأثينا وكذلك فيما يبدو بين مصر وجنوب إيطاليا .



لوحة من الفيلاد تصور في جزائرها العلوي مناظر وحيوانات سوادية وفي جزائرها
الاسفل مناظر داما لصروالت القمصان .



الفصل الأول

مصر في عصر الرومان (٣٠ ق م — ٢٨٤ م)

للككتور بردهيم نصي

مصر نصبح ولاية رومانية

١ - الفتح الروماني :

لغزو مصر . الا ان قبصر دحل الاسكندرية ،
وبعد حرب قصيرة خيفه تعرف « بحرب
الاسكندرية » وقد مركز كليوباترة على
العرش يسا وطلدت كليوباترة سبطرتها على
قيصر فاصبح طلوع امرها . وبدوا انها اتفقا
على ان تطلق كلبوترة رواجها في مصر سما
برجي ، لجر اعلان هذا الزواج في روما حتى
يقم نفسه ملكا هناك ، فسيبدأ ألجنت
كليوباترة طلالا من قبصر سجل على حدراذ
سعد أرست انها ألجنت طلالا من قبصر الذي
خالعها في سرده أمور دح وسنبي
ولدت انها في نظيرها ونظر رعاياها المصريين
كانت زوجة لقيصر المروية . وسرعان ما خف
كليوباترة الى روما وأقامت الى جلاب قبصر
انتظارا لليوم الموعود الذي يقم فيه نفسه
ملكا ويعلن رسيا زواجه منها وترقى معه
عرش الامبراطورية الرومانية . لكن هذه
الآمال العراض لم تلبث ان اهارت عندما
استارت مطامع قبصر عصب الجمهوريين
الرومان فظفوا عليه في مارس عام ٤٤ ق م .

أخيه نفوذ لانا يزداد تدريجيا في مصر
منذ ايام بطلمبوس الخامس ، بل اصبح
مصر مصر متقلنا بمصر الصراع العزبي في
دوما منسد واه بطلمبوس الخامس في
عام ٨٠ ق م . لكن بالرغم من كل ذلك ظل
الطلبة يفتنلون على الأتقي باستقلالهم
الاسي . وعندما ارتقت كليوباترة السابعة
عرش مصر في عام ٥٦ ق م . واندلع لجب
الحروب الأهلية في روما تعبت كليوباترة دورا
كانت قد نجى من ورائه امبراطورية واسمه
على حساب الرومان مما قضى الى صراع
روما مع كليوباترة وجر الصراع الذي تخلف
عنه القضاء على دولة البطالة .

وبان ذلك ان كليوباترة مدت يد المساعدة
الى يوحى الاكبر في صراعه مع لبر ، لكن
لم يكن نصيب يوحى سوى الهزيمة ففر الى
الاسكندرية حيث قنته رجاء البلا لبرهنوا
قبصر الذي تبعه الى هناك ان مصر قد قطعت
علاقتها مع اعدائه وبذلك لم يبق ثمة داع

وفد بادرت كليوباترة بالعرب الى مملكتها
واخذت ترعب في قلق الصراع الذي نشب
في العالم الروماني بين فتلة قيصر واعوانه
دون ان تناصر قريبا على آخره حتى اذا
ما انتصر اصدقاء قيصر وكان على رأسهم
أنطونيوس واركادايوس (أغسطس) في
خريف عام ٤٢ ق . م . ذهب أنطونيوس
ينولي أمر الجزء الشرقي من الامبراطورية
الرومانية وارسل هذا القائد المخوار الى
كليوباترة يستدعيها الى كيليكيا لتجيب عن
لجنتها معاونة الصغار قيصر . وما كادت
كليوباترة تصل الى طارسوس حتى احرب
نصرا حاسما على قلب أنطونيوس . وعندما
عادت الى الاسكندرية سارع الى المطاق بها
وقضى في سجنها سنة عام ٤١/٤٠ ق . م .
ستتعا بذلك « الحياة المريرة » التي خلد
الكتاب والشراء ذكراها في النفوس وفي
الأدب ، والتي منذ تلك اللحظة شددت على
الدوام وثاق قلبه ونقلته الى الاسكندرية
لكن الأحداث الخطيرة التي وقعت في العالم
الروماني في ربيع عام ٣٠ ق . م . التزمته
كارها من جانب كليوباترة واضطرتته الى
العودة الى روما حيث اصبح ما بينه وبين
أكتيوس وفرج من اخته اوكايبا يحصل
على الاغتراب بسلطانه على الولايات
الشرقية . وقد ظل أنطونيوس يمسكها عن
كليوباترة حتى عام ٣٧ ق . م . عندما ذهب
الى سوريا لينولي الاشراف على حملته ضد
بارثيا . ولما كان شوقة الى كليوباترة قد استبد

به فانه استدعاه الى حابه واعلن رواجه منها
ولمترافه بالتوازيين اللذين ائتمتا منه . وبعد
اتهام حملت العاشقة عاد الى مصر في اوائل
عام ٣٥ .

وفي العام التالي وجه حملته الى ارمينيا
وعاد منها مطعرا الى الاسكندرية حيث اقام
مهرجان التمسار ، وكان القواد الرومان
المنتصرون يقيمون مهرجاناتهم عادة في روما .
وفد اثار ذلك غضب الرومان لانهم رأوا فيه
ايليا على ان أنطونيوس كان يربط جسمه
الاسكندرية عاصمة للامبراطورية واتسند
غضب الرومان عندما اتهم نيا حمل آخر
اقام بعد ذلك بايام قليلة في الاسكندرية
واتسترك فيه أنطونيوس ولودي فيه
لكليوباترة ملكة الملكات ووزعت على بناتها
الولايات الرومانية في الشرق . وهكذا رأت
كليوباترة للمرة الثانية انها كانت طاب فرسخ
او اهدى من ان تصح امبراطورة العالم . فقد
كانت تسبق حدثه على النصف الغربي من
العالم الروماني وكذلك على اعظم قائد في هذا
العالم وله يبق الا ان يستمر أنطونيوس على
عسطن له الصراع الجبل المحتوم بينهما
لكن تحقق كليوباترة حلها الذي بدده كون
ميرة مقتل قيصر . ولذلك لم يفسر كليوباترة
ومعها في تعريف أنطونيوس على انخلا العمة
لننازله أغسطس . وقد نجح أغسطس على
ذلك بانارة الرأي الروماني ضد غريمه واعلان
العرب على ملكة مصر لا على أنطونيوس .
فكيفا يتهمه احد باثمان نار حرب أهلية .

روما واجهت الموقف بشجاعتها المتبادرة
 وانهدت قسما من ذلك العار والهوان بالقضاء
 على حياضها (٦٠ أغسطس) . وسرعان
 ما تخلص أغسطس من أبناء كليوباترة ليطوى
 صفحة الماضي ويبدأ فصلا جديدا في تاريخ
 مصر التي أصبحت منذ ذلك الوقت ولاية
 رومانية ، وقد قرر المستنق الروماني اعتبار
 أول أغسطس عام ٣٠ ق . م . - وهو يوم
 سقوط الاسكندرية في قبضة الرومان -
 عيداً وطنياً في روما وبداية للتقويم المحلي في
 مصر .

ولا أدن على مقدار كراهية الرومان
 لكليوباترة وحرفهم بها من روح السمتة
 والخافة التي تتكشف فيما كتبه لحوول
 شعراء عصر أغسطس للاشادة بانتصار هذا
 الامبراطور وهزيمة كليوباترة ، ولما كانت
 روما تسيطر عندئذ ولعدة ثرون بعد ذلك
 على كل الصالح المتسدد وكان الكتاب
 والشراء المعاصرون قد تباروا في كسب ود
 الامبراطور المنتصر بتلطيح سمعة كليوباترة
 وربما يكن لقبصة بسكن أن يصورها الغياليان
 المرغوب دون أن يجرؤ أحد من انفسار
 كليوباترة على الدفاع عنها - فان كتابات
 خصوصها قد ظلت حتى اليوم المصدر الوحيد
 الذي يستقى منه تاريخها وتبما لذلك كان
 لهذه الكتابات أبلغ الأثر في كل ما كتب عنها
 منذ العصور القديمة حتى اليوم ولا سيما ان
 الصورة التي صورت فيها استهوت الشعراء

ويعد أن حشد أنطونيوس قوات كبيرة في
 بلاد اليونان أضاع فرصته باتخاذ موقف
 الدفاع فسات حال قواته ماديا ومعنويا .
 وعندما التحم التسريقان في سبتمبر
 عام ٣١ ق . م . عند اكتيوم انتصر أغسطس
 وفسرت كليوباترة وأنطونيوس من الي
 الاسكندرية . وقد استبد اليأس بأنطونيوس
 من جراء حياة رجاله الذين انضم كثيرون
 منهم الي جانب أغسطس فلم يبق بأي امراء
 للدفاع من مصر عندما زحف عليها أغسطس .
 واذ رأت كليوباترة عت المقاومة عرضت على
 أغسطس أن تنزل من عرشها والتسندته
 لقائمة أحد أبنائها مكانها فأجابها بجماباب
 مثوية لكي لا يكشف الثجاب عن حقيقة
 نوابه بحسوها . وفي اليوم الأول من
 شهر أغسطس عام ٣٠ ق . م . قبل أن يدخل
 أغسطس الاسكندرية فضى أنطونيوس على
 حياته بينما كانت كليوباترة قد اختبأت في
 مقبرتها حيث أودعت كتوتها وهددت بأن
 تمحل النار في المقبرة فنفض على نفسها
 وكوزها وكذلك على آجال أغسطس اذا
 لم يتم أحد أبنائها على العرش . ولما كان
 أغسطس يريد أن يعرض كليوباترة في مهرجان
 اتمناه ويستشير طبعة فلعنة الي كوزها
 فانه ما كاد يدخل الاسكندرية حتى لعا الي
 انجيلة واستولى على اللعنة وكوزها .
 وعندما لم يعد لدى كليوباترة أدنى شك في
 أن أغسطس ينوي أن يقردها أسيرة الي

وكتاب النصبة . لكن عندما أخذ بعض الباحثين المحدثين في تجميع أقوال القدماء ومقارنة بعضها ببعض تبين لهم ان هذه الصورة مزيفة وان كليوباترة كانت ملكة طموحة آتية واثرا رومانيا وفيها لم تكن اكثر من غيرها من نساء الاسكندرانية او روما تبذلا واستماتارا بل لعالم كانت اكثر من غيرها من سيديات الطبقة الراقية وفارا واحتشاما .

٢ - سياسة اباطرة الرومان في مصر :

عندما فتح أغسطس مصر اُبت في السجلات الرسمية العبارة التالية : « ضمت مصر الى سلطان الشعب الروماني » . ويرى كثير من الباحثين ان معنى ذلك واضح لا لبس فيه ولا غموض وهو ان أغسطس قسم مصر الى الامبراطورية الرومانية واصبحت احدي ولاياتها ؛ تمثل روما مواردها مثل موارد حسيبريا من الولايات الرومانية لصالح الشعب الروماني . ولا ادل على وضوح هذا المعنى في طعن الفسباء من ان المؤرخين سويتوليوس وتاكيثتوس وديون كاسيوس وغيرهم وكذلك الجغرافي استرابون وصفوا مصر بانها ولاية رومانية . ومع ذلك ما زال بعض الباحثين يعتقدون ان مصر لم تكن ولاية بالمعنى المعروف وانما كانت ملكا خاصا للامبراطور وترتبط بشخصه . وذلك لانها كانت تخضع مباشرة لسلطانة ولان نظام حكمها كان يختلف اختلافا

جوهريا عن نظام الحكم في الولايات الأخرى ، ولان اسم مصر لم يرد في السجلات الرسمية المعاصرة مقرونا بكلمة ولاية ولاسيما انه في « اقر اهرة » المشهور - الذي اقتطعنا منه العبارة التي اوردناها في صدر هذه الفقرة - لا يصف أغسطس مصر بأنها ولاية مع انه يحدث في الفقرة التالية لذلك عن احتشام نعيون ارمينيا الكبرى التي ولاية . ويستند البعض الآخر من الباحثين ان مصر كانت ولاية ينوي الامبراطور ادارتها باسم الشعب الروماني على هدى تقاليدھا ومتطلبات ظروفها .

والواقع ان مصر لم تكن ملكا خاصا للامبراطور كما انها لم تكن ولاية عادية تسائر الولايات الرومانية ، فقد أغسطس في تقديره عدة اعتبارات ؛ أولا ، ان مصر بلاد غنة آهلة بالسكان تتمتع بمركز استراتيجي من السبر الدفاعي ، وثانيا ان موارد هذه البلاد طائلة ومستطيع ان تسد حاجة الشعب الروماني الى الحبوب وان تملأ خزائن روما بالاموال بسبب ان استيرقتها تكاليف الحروب الأهلية . وثالثا ، ان هذه البلاد في حاجة الى حكومة قوية لتسهر الأمن في ارجائها والنهوض بمرافق الانتصاغبة بعد تدهورها من جراء ضعف البطالمة الأواخر وما عانت من آثار الثورات القومية والغزوات الأجنبية والاضطرابات بين أفراد أسرته البطالمة . ورابعا انه يجب اتخاذ الحيطة دون

من طبقة الفرسان يمثلت نصاب أعضائها السناتو الابانذ خاص من الامبراطور . وقد احترم خلفاء أغسطس هذه القاعدة الى حد انه عندما انتقد الامبراطور تيبيريوس ولى عهده جرمابيكوس الى الشرق لتنظيم بعض ولاياته واتهم هذه القرية لزيارة مهر ومشاهدة آثارها ، أخذه الامبراطور مراعطة سديده لانه دخل مصر دون استئذانه متخطيا ذلك القاعدة التي وضعها أغسطس .

وقد طل الأباطرة بحرسون على مراعاة المواعيد التي وضعها أغسطس الى ان قلت تروذ مصر ولم تعد المصدر الرئيسي لتصبح روما لهم بعد الأباطرة تروذ حتى لا يمين احد من رجال السناتو في مصر خطرا يهددهم . وكان الامبراطور ماكرونوس (٢١٧ - ٢١٨) اول من خرج على القواعد التي وضعها أغسطس بل ان عين الى جانب حاكم مصر مساعدا له من رجال السناتو ولا اذل على نفس نمط مصر في القرد اثالث مما فعله الامبراطور سقرون اسكندر (٢٢٢ - ٢٣٥) اذ اناه عندما ثار عليه بعض الحدود عين رعيهم حاكما على مصر لا ارضاء له والما لاقصاله الى مكان لا يستطيع منه ان يهادد مركزه .

وقد اعتمد الرومان في نومس سلطانهم في مصر على لقوه قبل كل شيء فاقاموا حاميات عسكرية في الأماكن الرئيسية التي تسكنهم من السيطرة على كافة أنحاء البلاد . ولذلك

وقوع هذه البلاد في قبضة شخصية تستطيع الاستقلال بها وحرمان روما مواردعا بل تهديد كيان روما ذاتها على نحو ما حدث في عهد كليوبترا .

وزاء هذه الاعتبارات كاذ لولاية مصر انرومانية مركز فريد في الامبراطورية الرومانية فقد وضع فيها أغسطس من الفرق الرومانية والقوات المساعدة ما يلزم سلامتها ، وفصلا عن ذلك وضعها أغسطس تحت اشرافه المباشر ، وفي ٢٧ ق . م

عندما تسبب الولايات الرومانية الى ولايات حاضمة السناتو وولايات خاضعة للامبراطور كالمصر في عداد الولايات الأخيرة .

ولم يقم أغسطس على مصر حاكما عاما من طبقة السناتو والما من طبقة الفرسان ولم يجعل عددا العناكم كغيره من حكام الولايات الرومانية لقب نائب أغسطس

او قائمقام فنصل (proconsul)
او قائمقام يرايتور (propraetor)
وابا لقب يرافكتوس (praefectus)

اي وال او حاكم عام ، وكان لقبه الرسمي حاكم عام الاسكندرية ومصر ، فتمسك اثنين الرومان اتر الاغريق في اقبسار الاسكندرية وحدة منفصلة من مصر ومجاورة لها

and aegyptum:

والى جانب كل ذلك وضع أغسطس قاعدة تقرر بتقسماها الا يوزر مصر احد من رجال السناتو ولاي رجل ذات الصيت

مبدأ « فرق تسد » . فعلى حين رفض أغسطس ومن خلفه من أباطرة القرنين الأول والثاني أن يبدوا إلى افريق الاسكندرية « مجلس الشورى » الذى عرفته مدنهم منذ تاسيسها إلى أن ألغاه أحد البطالة الأواخر منحوا اليهود كافة الحقوق والامتيازات التى كانوا يتمتعون بها في عصر البطالة . وقد والى الإباطرة هذه المنح على اليهود على الرغم من أن الاغريق التمسوا من سادتهم حرمانهم إياها فاستمر اليهود ينظفون في جالية مستقلة لها رئيس ومجلس من شيوخهم ودار لسجلاتهم وبيع لممارسة تجارتهم الدينية . فتملك القُطب قلوب الاغريق الذين عز عليهم زوال ملكة السلطة وخضوعهم لأمة لم ترتفع إلى مستوى حضارتهم ومساواة الرومان لليهود . وقد زاد في قبه الاغريق على اليهود أن هؤلاء بادروا إلى الترحيب بالرومان والاختلاف حولهم فعقد الاغريق على الرومان واليهود وألغيت مداوة الاغريق لليهود كرههم الدفين للرومان . لكن إذا كان الإباطرة قد أباحوا لليهود التسع بامتيازهم وحقوقهم القديمة فاصم أبراً عليهم التسع بالعشرون المدية التى كان الاغريق يتمتعون بها . فعقد اليهود أيضا مجلسي الاغريق ولا سيما ان الإباطرة بوجه عام لم ينفخوا عظيمهم على الحضارة الاغريقية فقد سملوا رغبتهم بمعاهد الاغريق وامتدحاتهم وأبقوا الكلمة الاغريقية لغة البلاد الرسمية

وضموا جالية رومانية في نيقوبوليس (Nicomolis) على بعد أربعة أميال شرقي الاسكندرية (ما بين مصطفي كامل وجليم برمل الاسكندرية) ، لتلقى الرعب في سكان العاصمة التى أثبتت العواذ انها كانت أشد معانق الهاترين خطرا لله الدنيا في أيام البطالة الأواخر . وأقام الرومان جاميات أخرى لله بايلون باعتبارها مفتاح الوجوه البحرية ، وفي منطقة طيبة التى كانت مركز الثورات الوطنية ضد البطالة ، وفي أسوان لصاية حدود مصر الجنوبية ، وعلى الطرق المؤدية إلى البحر الأحمر ، وكذلك على شواطئ هذا البحر لفساد سلالة التجاره القرية التى استرعت انتباه حصى الراى من الإباطرة مما حدا بهم منذ عهد أغسطس إلى العمل على بسط النفوذ الرومانى على الشواطئ الأسيوية والافريقية لبحر الأحمر لتحويل التجارة في هذا البحر إلى موانئ المصرية على نحو ما فعل البطالة من قبل .

ولم يكتف الرومان بالاعتماد على القوة وحدها لتأييد حكمهم في مصر بل لجشوا أيضا إلى الأساليب السياسية . فقد كان أهم عناصر السكان همدة فئة الرومسيان المصريون والافريق واليهسود ، وكان يطن في الاسكندرية أكبر مجموعة من الاغريق واليهود ، ورأى الإباطرة في اخضاع الاسكندرية أكبر ضمان لاختضاع مصر . ولتحقيق هذا الهدف اتبعوا مبداهم المروعة ،

كورنيليوس جالوس وأخضعها بسد قليل من الجنود .

وعندما رأى أغسطس ان نشوة النصر قد تسكرت كورنيليوس جالوس عزله وولى مكانه ايلوس جالوس وعهد اليه في الاتحاق مع القبائل التي كانت تنزل على شواطئ البحر الأحمر في بلاد العرب والصومال والحشة لذا لم يتمكن من اخضاعها ، وذلك لتأمين سلامة تجارة مصر مع اواسط أفريقيا والهند ، ولما لم يوفق ايلوس في حملته كان نصيبه العزل ولا سبعا لذ نفيه عن مصر مع جاب كبير من حاميتها شعج النوبيين على لئس اتفاهم مع كورنيليوس جالوس وعلى الامارة على اسوان وقيلة والفتنن ولها واسر بعض الأهالي والاشتيلاء على تماثيل أغسطس .

وقد سارع الحاكم الجديد يترونيوس الى كبح جناس النوبيين ودهم على أعقابهم والاشتيلاء على عاصمتهم لياة . وعندما استرد الأسرى والتماثيل نقل راجعا صوب الشمال حيث حصن قصر ابريم وترك فيها حامية لم ياه الى الاسكندرية . لكن بعد ذلك بدأين استرد النوبيون قصر ابريم فهاجر لهم يترونيوس واتزعصها منهم وعمسزز تحصيناتها . ولم يابت النوبيون أن طلبوا الصلح فاستجاب أغسطس الى مطلبهم وكان الصلح ينص على اعفاء النوبيين من دفع الجزية وعلى احتلال الرومان المنطقة المنسدة

ولم تشمل اللغة اللاتينية الا في الجيش والواجب المتعلقة بالقانون الرومانى . ومن ثم لم يكن هناك مفر من وقوع صدام بين الاغريق واليهود . وسنرى ان التقاق بين اليهود والاعريق كان كالحصى الخيشية المنقطعة التي تحذف وطاها وتهدأ حينما تم تعود الى انظهور وتشتد حينما آخر ، وان سياسة لفرق تسد كانت سياسة خرفاء لم يكتفوا بنارها الاغريق واليهود لحسب بل الرومان أيضا .

ولم يتكد يمش عام على الفتح الرومانى حتى شبت في طبة نار ثورة يبدو انها كانت خطيرة مما حدا بأول حاكم عام رومانى نصر - كورنيليوس جالوس - الى ان يعود بنفسه القوات الرومانية لقمعها . وبجدنا استرابون بأن الحاكم العام اخسد في وقت قصير يرفان الثورة التي امتطلت في طبيسة بسبب الطرائب . وقد سجلت كورنيليوس على النصب الذي قامه في جزيرة فيلة اله واصل زحفه جنسويا حتى جزيرة فيلة حيث استقبله ملءك النوبة وان هذا الملك قبل الحماية الرومانية وعينه حاكما على الاقليم الممتد من الضلال الاول حتى الضلال الثاني وكان يعرف باسم تريانكوكتا سطونيوس .

ويبدو أن الثورة لم تسبب في مصر العليا فصعب بل في أنحاء اخرى من مصر اذ يقول استرابون انه عندما ثارت هيرودوثوليس (في الخرطوم في شرق الدلتا) هاجمها

بين أسوان والمحرقه حيث أقام الرومان بعض مراكز عسكرية ودام السلام خترة طويلا في الجزء الشمالي من النوبة . وبنهض كل هذا دليلا على السباسة التي وتوسع أغسطس أساسها وتبعها خلفاؤه من بعده وتلخص في العناية بطرق التجارة مع الشرق والجنوب وتأمين الحدود الجنوبية دون الاهتمام بتوسيع لطاق الامبراطورية في تلك الأصناف .

ولم يكنه بترونيوس نفرغ من التوبيين حتى شغل باخساد ثورة في الاسكندرية . وعندما عادت السكينة الى البلاد وجه عنايته الى الاصلاح الداخلية وخاصة تطوير الترع القديمة وشق زرع جديدة واصلاح الآبار التي تقع على الطرق الصحراوية التي تربط النيل بالبحر الأحمر مما أدى الى انطاش حالة البلاد الاقتصادية . ويلاحظ ان أغسطس سهر بصروة اصحاب رجال الدين المصريين الذين ازدادت ثروتهم وممتلكاتهم في أواخر عصر البطالمة ، فقد أمر بترونيوس بالانسبلاء على جانب من أراضي المقابد واستناد ادارة جانب آخر منها الى الحكومة مع السماح للمكتهنة بزراعة جزء من هذه الأراضي لسد حاجة المقابد .

وقد ساد السلام في مصر خلال أواخر حكم أغسطس ومعظم حكم خليفته تيروس (١٤ - ٣٧) مما أدى الى انقراض عسدد العافية الرومانية في مصر . وقد ساعد على

استياب الأمن سهر تيروس على حماية سكان البلاد من جور الحكام وملتزمي الصرايب اذ انه شدد الرقابة على الحكام واستبدل في حالات كثيرة بنظام التزام الضرائب تعيين موظفين لجباية الضرائب فأخذت ثروة البلاد في الاتماش .

ولد عهد كاليجولا (٣٧ - ٤١) آتت سياسة « فرقي تسد » اكلفها فقد استعرت عندئذ نار الهاء بين الاغريق واليهود ، اذ ان الاغريق سخرها من الأمير اليهودي اجريتا Agrippa عند مروره بالاسكندرية (أوائل أغسطس عام ٣٨) في طريقه الى ارتقاء عرض سلطنة صغيرة على حدود بلاد اليهود في فلسطين . ولما كان الاسكندريون قد عرفوا اجريا منذ بضع سنين رجلا مطسا متلافيا يشرب من سداد ديوله ، فانه هالهم ان يصح ذلك اليهودي المتلاف ملكا بين عسسية وصعاعها وان يروا اليهود يستقبلونه استقبال الملوك الهاء ، ولذلك استقر رأيهم على اتجار هذه الفرصة قليل من اجريا ومن اليهود في شخصه . فنظموا موكبا هولبا سداه رجل معتوه عصبوا رأسه باكتيل من لعاه البردي ووضعوا في يده صولجانا من ساق البردي وطافوا به في شوارع المدينة وهم يرددون كلمة سربانية متلها الملك . لكن ما أن اتفق الاسكندريون من نصوصم حتى خشوا عاقبة سخرتهم من اجريا فقد كان صديق الامبراطور ومحاب حطسوة

لديه ، فرأوا انه لن يتخذهم من ورثتهم الا ان
 يرفعوا بين اليهود والامبراطور . ولما كان
 الامبراطور قد أمر باقامة تماثيل للاله جيبس
 المعابد وكان اليهود لم ينفذوا أمر الامبراطور
 لأن اقامة تماثيل البشر في معابدهم كان
 بدنسها ، فان الاسكندرانيين ادعوا بانهم لم
 يتظاهروا ضد اجريا الا لعدم امتثال اليهود
 لأمر الامبراطور . واضطروا من ذلك ذريعة
 ليدخلوا المعابد اليهودية ويقسوا فيها تماثيل
 الامبراطور . وعندما قامهم اليهود اتهمهم
 بدمم الولاء للامبراطور وبذلك المصروف في
 حمل الحاكم الروماني فلاكوس على حرمان
 اليهود امتيازاتهم ، واتهم الاسكندرانيون
 فرصة وقوعه الحاكم الروماني الى جانبهم
 لتشكيل باليهود ونهب حواشيتهم وتخريب
 دورهم وبيعتهم ، وبطبيعة الحال لم يقف
 اليهود بلا حصر اذ انما هبوا للدفاع عن
 انفسهم وذويهم وبيعتهم وسلكناهم :
 فالتبكت القرعان في صراع عنيف دون ان
 يتدخل الحاكم الروماني فلاكوس لوطسح
 الامر في نصاحيا اذ اننا لا نعرف انه فعل
 شيئا سوى تجاوزه حدود الحكمة بالكساء
 القبض على لمائة وثلاثين من أعضاء مجلس
 شيوخ اليهود والأمر بجلدهم في الحصان
 والثلاثين من أغسطس بالرغم من انهم كانوا
 سفين من هذه العقوبة . وعندما تمكن اجريا
 من اقتناع الامبراطور بوزن فلاكوس أرسل
 كل من الفريقين المتنازعين وقد اعرض قضيت

تمام الامبراطور لكتهما لم يظنرا منه بظالم .
 وعقب ارتقاء كلاوديوس (٤١ - ٥٤)
 العرش أصدر منشورين اعترفوا أحدهما ليهود
 الاسكندرية بالحقوق التي كانوا يتسعون بها
 قبل عهد كاليجولا ، ومنح بمقتضى المنشور
 الآخر الحضور ذاته لكل العائلات اليهودية
 في كافة أنحاء الامبراطورية الرومانية . وعندما
 علم اليهود بذلك ظنوا ان الفرصة مواتية
 للتأخر بين الاخرين ، فاستمر القتال بين الفريقين
 لكن الامبراطور أمر الحاكم باخساده بكل
 وسيلة ممكنة . وما أن هدأت الحال حتى
 بادر كل من الاخرين واليهود برسالة وفد الى
 روما ، ويستخلص من رسالة كلاوديوس
 الى الاسكندرانيين ان الوفد الاخريني قدم
 قروض الطلعة والولاء للامبراطور وسرد
 مظاهر العداوة التي كان الفريق الاسكندرية
 يريدون المداخلة عليه وطلب اعادة امتيازاتهم
 القديمة كما عرض قضيتهم ضد اليهود .
 ويبدو ان الاخرين ازدادوا ان يستخدموا مع
 كلاوديوس الوسيلة نفسها التي استخدموها
 مع كاليجولا بتقديسه لكنه التقى اثر سياسة
 نيبروس فرفض أن يقره ولم يقبل مسأ
 عرضه عليه ما يرضه فوق مستوى البشر
 وابد ما كانوا يتسعون به من حقوق
 وامتيازات ذلكه نهرب من منح الاسكندرية
 مجلسا للتوري ، فقد جاء في هذه الرسالة
 « أما أن المجلس كان مجمعا بالوفا بين
 ظهر اليكم على عهد ملوككم القديمة فهذا
 ما لا علم لي به لكنكم تملون جيدا ان

لم يكن لكم مجلس في عهد الإمبراطرة الذين سبقوني . ومن الواضح ان هذا المطلب الجديد الذي تقدمون به لأول مرة قد يكون مفيدا للمدينة والحكومة ولذلك فاني كتبت الي ايسيلوس ركنوس لبحث الموضوع ومواقفي بما اذا كان يجب اتساع هذا المجلس وطريقة تكوينه اذا كان ثمة داع لذلك . ومن اليسر ان تبين من هذا الرد ان الاسكندريين استنفوا في طلبهم الي انهم كانوا يستوفون بمجلس في عهد ملوكهم القدماء . ولعل امبراطورا مؤرخا مثل كلاوديوس لم يجعل نظم الاسكندرية في عهد ملوكها القدماء لكنه لظاهر بالجهل لانه لم يشأ اتخاذ تقاليد الملوك القدماء سابقة تلزمه بما يجب الباعه . ومع ذلك فانه لكي لا يبدو متصفا وعد بالفصل في طلب الاسكندرية على ضوء المصلحة العامة وعهد في بحث الأسس الي الحاكم العام . ومن لم يعتبر رد كلاوديوس فريضة على تنح الاسكندرية بمجلس في عهد البطلمة .

وقد ابد كلاوديوس كذلك ما كان اليهود يستعملون به من حقوق امتيازات لكنه رفض منحهم الحقوق المدنية ولسحق الاغريق واليهود بالتسامح وحذرهما تعديرا شديدا من العودة الي تطلعاتهما السوى . واذا كانت الحال قد هذات بعد ذلك بضع سنين فان النزاع لم يلبث ان تجدد ثانية .

وتجاوب اصفاء هذا النزاع في تلك البرديات التي يدعوها الباحثون المحدثون « أعمال الاسكندريين » أو « أعمال السعداء الوثنيين » بسبب ما بينها وبين « أعمال الشهداء المسيحيين » من تشابه مرده في الحالين الي صياغة الوثائق في قالب مضاد لمحاكمات يلقي فيها المتهمون خطبا طويلة ويندون بمطالب الحكم الروماني ويتبادلون مع الامبراطور عبارات فارصة خفية . و « أعمال الاسكندريين » تثير من كراهية الاغريق الشديدين لليهود وكراهتهم الاشد للرومان ولذلك صادقت رواجسا كبيرا لا في الاسكندرية فحسب بل في كل انحاء مصر وتعتبر نموذجا للادب الاغريقي الشعبي الذي كان يرمى الي الاشداء ببطولة زعماء الاسكندرية والثاراة البطشاء فسيده الحكم الروماني . ولا يبعد ان تكون هذه الوثائق قد قلت على نحو ما من مذكرات الامبراطور وترجمت الي الاغريقية واسيقت اليها بعض العناصر الخيالية التي استمدت من الضميمة الفكاهية المعاصرة والنصبة الاغريقية الطويلة وذلك لجعلها اكثر موائمة للدعاية السياسية . وتفسير القرآين الي ان « رجال الجينازيوم » - وكانوا اوسع الاسكندريين ثقافة وأمرتهم اصلا وأرفعهم مكانة وكذلك اعتمدت كرها للحكم الروماني - هم الذين كانوا الراس المفكرة واليد العاملة وراء صدور « أعمال الاسكندريين » .

ولما كانت هذه الوثائق تختلف عن بعضها بعضا اختلافا كبيرا في الأسلوب والانتشاء فإنه لا يمكن قبول الرأي القائل بأنها من تأليف كاتب واحد ولا سيما أن بعضها يرجع إلى القرن الأول أو مطلع القرن الثاني وإن كان أكثرها يرجع إلى أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث عندما انشئت معاداة الاسكندرانيين للرومان وخاصة الامبراطور كركلا .

ومهما كان من أمر أعمال الاسكندرانيين فإنه ما زال هدأت الحال بين الفريقين حتى حجج الرسل من جديد إلى روما ، لكن النصر كان حليف اليهود هذه المرة إذ أن الامبراطور أمر بإعدام زعيمى الآخرين . وقد أثبتت هذه الأحداث انه بينما كانت الاسكندرية في حاجة إلى حماية عسكرية كبرى لاستتباب الأمن بها كان يكتفى ببلية البلاد عدد يسير من الجنود ، ولذلك غلبه منذ ذلك الوقت قلت إلى مسكر ليقوبوليس الحامية التي يرجع إليها كانت تنزل عند طلمح أو طيبة .

ويبدو أنه في عهد كلوديوس تطلعت تجارة الاسكندرية مع الهند تطلعا كبيرا نتيجة للصنابة التي أولاها الرومان لتسأجر الملاحة في البحر الأحمر بفتح ديار القراصنة ونشر نفوذهم في تلك الأصقاع . ويقال انه حوالي هذا الوقت استولى الرومان على عدن ، وإن ذلك كان إحدى الخطوات التي اقتضاها تأمين التجارة مع الهند فزاد ازدياد

قوة مملكة اكسوم منذ منتصف القرن الأول الميلادى لأنها من ناحية أخذت تتوغل في أعالي وادى النيل على حساب مملكة مرو وتبعها لذلك هددت الطريق البرى بين مصر وأوطسث اثريقيا . ومن ناحية أخرى كانت تحاول الحصول على قلعة لها في جنوب بلاد العرب ، وكان ذلك يسكنها من قطع الطريق البحرى مع الشرق ، لكن الرومان دسروا على هذه المحاولة بسط حمايتهم على سلطنة العميريين والاسيلاء على عدن وجزيرة سقطرى . ولدرء الخطر الذى كان يهدد أعالي وادى النيل يقال انه ليرون (٥٤ - ٦٨) أرسل في عام ٦١ بثة عسكرية لاستكشاف بلاد النوبة الجنوبية تمهيدا لإرسال حملة كبيرة إلى تلك البلاد وانه بينما كان الجنود يمشون في الاسكندرية لهذا الغرض اقتلع ابيب الثورة في جودابا مما استدعى استخدام أولئك الجنود في اخضاعها وإن حامية الاسكندرية شغلت بالمحافظة على الأمن فيما لأن النزاع القديم بين الآخرين واليهود تجدد مرة أخرى إذ ذلك ولم ينته نيل القضاء على عدد كبير من اليهود يزعم المؤرخ اليهودى يوسف الهم كانوا يملكون خمسين ألفا . وإذا كانت هناك قرائن كثيرة تؤيد ما قيل من اتساع مملكة اكسوم ونشاط الرومان لوقته ، فإن ثمة قرائن أخرى تدبر التمسك حول ذلك ، وفي ضوء معلوماتنا الراضة يتعزز ترجيح كفة على أخرى .

وعندما احتدم الصراع على العرش في روما عقب وفاة فيرون قامت مصر لأول مرة منذ أصبحت ولاية يدور سياسي هام في تاريخ الامبراطورية الرومانية ، اذ انها شقت عصا الضعافة على فيكتليوس (Vicellius) وشباركت في اقامة فيباميانوس (Vespasianus) ، حاكم جودايا وقائد الحملة ضد اليهود ، امبراطورا (٦٩ - ٧٩) .
وقد زار فيباميانوس الاسكندرية في طريقه الى ارتفاع العرش فكان اول امبراطور شجدهه العاصمة القديمة بعد الفسيف منذ قرن تقريبا . وقد استقبله الاسكندريون استقبالا حافلا لم يلبثوا ان ندبوا عليه عنصرا فرض عليهم طرائف جديدة واهيا ضرائب كانت له الغيت .

وقد عني بنوس (٧٩ - ٨١) بالظهار احلاله واحترامه للالهة المصرية اذ انه زار معه واشترك في حفل لتصبب عجل ايس جديد وارقدى التاج التقليدى على لحيه ، جرى عليه الفرامة في مثل هذه المناسبات . فكان ذلك بدء سياسة جديدة تميز بالظهار العطف نحو الالهة المصرية . لكن بنوس لم يصر طويلا ليطعمه السياسة التي وطئها لها ، ونظم لها في الرعاية التي اصبحت دوديتيانوس (٨١ - ٩٦) على عيادة ايرس في ايطاليا ذاتها ، وكذلك في ظهور الالهة المحلبة على قود الاسكندرية منذ ذلك الوقت .

وقد نعمت مصر بالسكينة والهدوء خلال حكم نرقا (Nervus) (٩٦ - ٩٨) ولم يقع فيها شيء ذو بال في النطر الأول من حكم نرجان (٩٨ - ١١٧) الا محاكمة جايوس فيبوس ماكسيموس (G. Vibius Maximus) - وكان الحاكم العام من ٩٥٣ الى ١٥٧ - لانهاية بالربا وابتزاز الأموال واستغلال النفوذ وافساد خلق غلام لرى يدعى ليون . وتكشف الوثائق التي تناول هذه المحاكمة عن مطالب الحكم الروماني في مصر ومدى السلطة الواسعة التي كان ينضح بها حاكما العام وكانت لا تقل عن سلطة الملوك فلا عجب ان اساء استغلالها كثيرون من اسندت اليهم ويبدو انه كان تصيب هذا الحاكم الفاسد العزل من منصبه والاعدام فقد وجد اسمه مطبوسا في بعض النقوش وكان ذلك هو الاجراء الذي يتبع عادة في حالة الذين كانوا يدانون لارتكابهم جريمة ضد الدولة كالتضايقة المظن وبضكم عليهم بالاعدام .

ولم تقضى بعد ذلك بضح مستين حتى تجدد النزاع بين اليهود والاخرق في عام ١١٥ او ١١٣ واحتكم الريفان الي راجان فأخذ الاخرق على مسلكتهم وهدأت الحال حتى العام التالي فلما ثار اليهود الا ان الحكومة تمكنت من القضاء على تلك الفتنة بسهولة . لكن اليهود كانوا يحسرون بقلق شديد لان الرومان كانوا لهم ضربات شديده منذ ثورتهم في فلسطين في عام ٦٦ ، فقد دمروا

المزدهون المصريين لكن القتال بقي مستمرا حتى منتصف أغسطس عام ١١٧ عندما انتهت حرب جونايا الثانية قوى اليهود بعد وفاة تريجان وارتقاء هادريان العرش .

وقد أخذت في عهد تريجان عدة تغييرات على نظم مصر الضريبة كان أهمها بنسائه قلعة جديدة على شاطئ النيل عند بايلون قرب قبضة الرومان على الدلتا وحمت بداية القناة التي أمر تريجان بضمها لربط النيل بالنيل والبحر الأحمر ، وكانت تخرج من النيل عند بايلون وتم بيلوبوليس وثلثي بحري القناة القديمة التي حفرها بطليموس الثاني قبل دخولها وهدى الطبيلات .

وعندما انتهت ثورة اليهود وجه هادريان (١١٧ - ١٣٨) عنایت الى اصلاح ما اختلفت الثورة ففاهه عمدا من المباني العامة في الاسكندرية وأمر بإعادة النظر في الضرائب من أدى الى انخفاض جاب كبير منها في حالات مدينة ، وفي عام ١٣٠ زار هادريان مصر وكان لهم ٢٣٠٠٠ تملك الإيالة الرماية التي أولاهها الامبراطور لعنه الاسكندرية وفنانها وكذلك تأسس مدينة أنطونيوپوليس (المسيح عبادة) حيث فرق في النيل خليطه أنطونيوز (Antioch) . ولا شك في أن هادريان قد أراد بتأسيس هذه المدينة أن يخلد ذكرى خليطه الوفي ، وكذلك تقسامة مركز جديد للحضارة الاغريقية في قسم من البلاد كان يفتقر اليه إذ أنه على حين كانت

مبدهم الاكبر في اورشليم وأرغموهم على دفع ضريبة الدينارين لمعبد يوبيتر كايبتولونوس في روما بدلا من معبد اورشليم وأغلقوا معبد نيوتوبوليس في مصر وصادروا جميع مستلكاته ، وأخذوا يعتبروهم جماعة مدغنية يجب أخطها بالحرم ، إزاء كل ذلك أضر اليهود حقا ذفينة لرومان وأخذوا ينظمون الى الفرصة التي تتيح لهم الخلاص من ربقتهم . وقد ظن اليهود ان فرصتهم قد سحقت عندما طرح مركز الامبراطور في أثناء الحملة التي قام بها في القرن ، ففي عام ١١٥ اهدمت ليران ثورة اليهود في قبرص وفي مصر وفي قوريناينة (برقة) ، وفي عام ١١٦ انقلبتم الثورة الى حرب ضروس راح ضحيتها اعداد كبيرة من الاغريق والرومان في قبرص ولوريناينة . لكننا لا نعرف ما حدث في الاسكندرية في بداية الأمر وان كنا نعرف ان اليهود أهلوا القتل بين الاغريق المتبسين في ريف مصر مما حدا بهم الى الانتحساء الى الاسكندرية حيث شاركوا الاسكندريين في القضاء على كل من وصلته اليه ايديهم من اليهود . وفي سنة ١١٦ زحف يهود قوريناينة على مصر لكنهم بدلا عن أن يعاولوا الانتقام الاسكندرية انجسجوا تعمر الاقاليم وانضوا الى اليهود المتبسين هناك وسبطروا على بعض الجهات فسلبوا ونهبوا وحرقوا وغربوا كما سولت لهم نومهم . وقد تعلقمت الحال الى حد أن الحكومة اضطرت الى تجنيد فرق من

توجد في مصر السفلى مدينتان أفريقيتان وهما الإسكندرية وقرطاجي ، كما كانت توجد في مصر العليا مدينة أفريقية وهي بطوليميس (المنشأة بالقرب من تخميم) لم توجد مدينة أفريقية واحدة في مصر الوسطى ، وتضيقا لهذا الضيق استخذمت المدينة الجديدة عددا غير قليل من مواطنيها من بطوليميس التي كانت متمسلا قديما للعضارة الأفريقية في مصر العليا . وقد أُنشئت المدينة الجديدة على نسط أفريقي ومنحت مجلسا للقوري وديستورا أفريقيًا وتسم مواطنوها ، مثل مواطني المسطل الأفريقية الأخرى التي قبائل واحياء . لكن بالرغم من الصفة الأفريقية المسماة التي استت بها هذه المدينة فإنها لم تفلح من عناصر مصرية ولا إيرانيات مصرية إذ أن أنطونيوس ، الذي نشأ فيها لها محليا ، كان يعبد تحت اسم أوزير أنطونيوس (Anthonios) ، وشبه بالعبود المصري بس (Bes) . هذا إلى أنه أبيع لسكان المدينة الجديدة حتى التزاوج مع المصريين وهو ما كان محظورا في المدن الأفريقية الأخرى . وتشجبا لتجارة أنطونيوس أمر الإمبراطور بإشياء طريق جديد بين النيل والبحر الأحمر ليمسك بين البحر المتوسط وبين المدينة الجديدة . وقد أطمع الطريق الجديد في اجتذاب جانب من التجارة التي كانت تمر بالطريق القديم بين برينتي وقطت لكنه لم يمس وقت طويل حتى

كانت الأمور قد عادت إلى سابق عهدها . وعند أواخر أيام هادريان شهدت مصر آخر ثورات اليهود لكن يصفو انها لم تكن ذات بال . وقد سادت السكينة في عصر أنطونيوس بيوس (Antoninus Pius) (١٣٨ - ١٦١) اللهم إلا إذا استثنينا فتنة وقعت في الإسكندرية وتمثل في انتخاب الحاكم العام (١٥٣) مما أثار حنة الإمبراطور على المدينة إلا أنه يقال انه زفرها بعد ذلك وشيد لها مضمار سباق الخيل (Hippodrome) وبوابتي « الشمس » و « القمر » عند طرف الساردع الرئيسي الذي كان يجتاز الإسكندرية من الجنوب إلى الشمال .

وإذا كان المصريون قد اخلدوا إلى السكينة منذ الثورات التي قاموا بها في أوائل حكم الرومان فإنه في عهد ماركوس أورليوس (١٦١ - ١٨٠) نشبت بينهم في الدلتا ثورة عنيفة عرفت « بحرب الرعاة » وهزمت في خلالها الفرق الرومانية وكادت الإسكندرية أن تقع في قبضة الثائرين إلا أن النجدة التي قدمت من سوريا بقيادة الهيدوس كاسيوس قضت على تلك الثورة (١٧٥) وولدت بالهدوس كاسيوس إمبراطورا لكنه لم يلبث أن قضى عليه بعد ذلك بقليل . ورغم أن الإسكندرية لم تتضرر وسما في عايد كاسيوس فإن الإمبراطور غنا عنها ، بل إن الفتيق قاموا بأحوار رئيسية في هذه الحركة مثل أسرة كاسيوس وحاكم مصر العام عندئذ جابر

انه في عام ٢٠٢ منح الاسكندرية وكل عواصم المديرات مجالس للشورى . ولعل ذلك كان جزءا من سياسة تستهدف من ناحية دعم لانغوذ الروماني باعطائه في المسد حينه افرقية ، ومن ناحية اخرى تحسين اداة جمع الضرائب . وفضلا عن ذلك فانه تدخلت تعديلات كثيرة على القوانين التي كان معمولها بها في مصر .

وعندما ارتقى كركلا (٢١١ - ٢١٧) العرش ومنح في عام ٢١٢ حقوق المواطنة الرومانية بنفسه لالونه الثمور (Castrum Antonino) لسكان الامبراطورية الرومانية بما في ذلك المصريين لم يؤد ذلك الى تمييز وضيمهم فقد ظلوا ادنى الطبقات الاجتماعية شأنا في مصر . وعندما زار كركلا الاسكندرية في عام ٢١٥ وسمر منه أهلها اظفوره بشهر ابطال عظام مثل الاسكندر ونقله أخيه « جينا » سب عليهم جاء غضبه فأعدم زعماءهم وأطلق جنوده على المدينة فخربوها وأصلوا القتل بين سكانها ، كما أنه اننى الحضلات العامة وأقام حانات في المدينة ذالها وأوقف الافاق على الجامعة .

وأهم ما يتناز به عهد ماكرونوس (٢١٧ - ٢١٨) هو ما سقت الإشارة اليه من أنه كان أول من خرج على القاعدة التي وضعها أغسطس وترقر بمقتضها ألا ينقلد أحد من رجال الساتو مناصب ادارية في مصر ، إذ أن ماكرونوس عين لحاكم مصر ساعدا من رجال الساتو مما يدل على نقص أهمية مصر عما كانت عليه في بداية العهد الروماني . وأبلغ من ذلك في الدلالة على نقص أهمية

كالجيسوس ستاليوس (C. Calvisius Sulpianus) لم يلعوا إذ ذلك الا عطا طبقيا بالقياس الى نهتهم الخشيرة . لكن عندما ارتقى كومودوس (Commodus) (١٨٠ - ١٩٢) العرش أعيد كل أفراد أسرة كايوس وكذلك قادة الاسكندريين الذين اسماوا في هذه الحركة .

وقد خلف كومودوس على العرش شدة ثلاثة شعور (ينسار - مارس ١٩٣) الامبراطور يرتيناكس (Pertinax) ولولا ان هذا العهد القصير أهمية خاصة فهي ربما كيف ان لبأ هاما مثل ارتقاء امبراطور جديد العرش كان يسفرق وقتنا قليلا للانتقال من روما الى مصر ، وذلك انه لودي بالامبراطور الجديد في روما في اليوم الأول من شهر ينسار سنة ١٩٣ على حين ان حاكم مصر العام لم يصدر أوامره للاحتفال بهذه المناسبة لمدة خمسة عشر يوما الا في السادس من شهر مارس . ولعرف ان يرتيناكس قتل في روما في الثامن والعشرين من شهر مارس ومع ذلك فال اسم هذا الامبراطور يشرف في تاريخ وثيقة من اليوم في السابع عشر من شهر مايو .

وعندما قتل يرتيناكس فادت مصر بحاكم سوريا يسكنيوس نيجر (Pescennius Niger) امبراطورا لكن ما كان الأمر يستتب في روما لسفروس (١٩٣ - ٢١١) حتى قضى مسلي نيجر . وعندما زار سفروس مصر اقتنى اثر حادريان فيما قامه من الأبنية العامة في الاسكندرية وفي ملك القود تغليدا لزيارته وفي زيارة آثار مصر . وأهم من ذلك

مصر في القرن الثالث انه عندما وقعت فتنة
 الحرس الامبراطوري على عهد سئروس
 (٢٢٩ - ٢٣٥) عين الامبراطور
 زعيم الثوار حاكما عاما لمصر لا ارضاء له
 ودفنا لاتصافه الي مكان لا يستطيع فيه ان
 يهدد مركزه .

وكانت نتيجة لفص اهيبة مصر انها لم
 تلعب اى دور في سلسلة المنازعات التي وقعت
 في اواخر النصف الاول من القرن الثالث من
 اجل ارتقاء عرش الامبراطورية وقيلت عن
 طيب خاطر ارتقاء امبراطور بعد آخر وقلب
 على احداث مصر ميات عميق استغرقت فيه
 حتى كان عهد دكيوس (Diocletian) (٢٨٤ -
 ٣٠٥) الذي تسببت فيه حركة المسيحية
 في مصر مما حسدا بالتيكورة الي توجه
 اهتمامها اليها واتخاذ المدة لمح انتشارها
 وفي هذا العهد ايضا ثارت فائل اليليس
 على الحدود الجنوبية لأول مرة بعد اغارتها
 السابقة في عهد انسطس . ولعل هذه الاغارة
 تسبل باتساع منطقة اكروم التي دعت
 مركزها في وادي النيل على حساب مملكة
 مرد وكانت تطنط على القبائل النويصة
 من الجنوب لتندفها نحو الحدود المصرية .
 وبعد ذلك امتاشت مصر سياها عندما دمت
 المنازعات في الامبراطورية من جديد خلال
 المدة التي دامت من عام ٢٥١ الي عام ٢٦٨
 وتماقب فيها الاباطرة بسرعة غريبة .

وقد كان اهم ما حدث بعد ذلك هو ان
 زغوبيا ملكة بالميرا (تلمر) زحفت على مصر
 واستولت عليها (٢٦٩ - ٢٧٥) وبرغم انها
 بعد عدة محاولات اقلحت في حمر الجيوش
 الرومانية فانها لم تنأ ان تستقل بمصر بل
 اعترفت بسلطان روما ، لكن لم يكند يتنقى
 عسلى ذلك عامان حتى اطلع اورليانوس
 (٢٧٥ - ٢٧٥) في القمصاء على ثورة بالميرا
 لمصر واستولى على بالميرا ذاتها ، لكن عقب
 عودة اورليانوس الي روما ثارت بالميرا وبعد
 ذلك الاسكندرية لارتباط البلدين بصلات
 تجارية وليفة فساد الامبراطور الي الفرق
 وقضى على التتة في بالميرا لم في الاسكندرية
 وبعد ذلك لوك مصر تحت امرة يروبولس
 وحده اليه برد فبال اليليس على اقطابها
 وكانت قد امتوزت فرصة تلك الاحداث
 للرحف على مصر العليا حتى قطع ، وقبل
 انتهاء يروبولس من طرد اليليس ومهددة
 الوجه القبلي يودي به امبراطورا (٢٧٦ -
 ٢٨٤) عقب وفاة اورليانوس (٢٧٥) وحكم
 ماكينوس الفص (٢٧٥ - ٢٧٦) .
 ولم يضع التصار يروبولس على اليليس
 الا حدة مؤقتا خناوشاهم فقد احدثوا يهددون
 ادراتهم كل عام ممسا اططر الامبراطور
 وقلد يانوس (٢٨٤ - ٣٥٥) الي جعل حدود
 مصر الجنوبية عند أسسوان بدلا من
 هراسيكامينوس (المرقة) ودعموة بعض
 قبائل الصحراء التي كانت تترقب باسئسئس
 التوباداي للسكن في وادي النيل لحماية
 حدود مصر الجنوبية .

الفصل الثاني

أداة الحكم

الإلهي ، يحظر بهدد كيان الامبراطور ، فقد حرص الأباطرة الأوائل على ان تكون مصر حاضنة لاشراقتهم مباشرة ، وعلى ألا يتولى رجال السلاط أو من في مراتبهم مناصب إدارية في مصر أو يدخلوها حون استذاهم ، وعلى أن يكون نظام الحكم فيها أوتقراطياً ، وعلى أن يتولى المناصب الرئيسية في السلطة المركزية رومان يوفدهم الأباطرة من بلدهم ويستقلونهم في مناصبهم ، أو يعزلونهم كما يترأى لهم .

وقد وضع على رأس السلطة المركزية حاكم عام (praesidius) كان يستع بمعظم السلطة التي كانت من نصيب الملك في عهد البطالمة ، فانه كان يمين على إدارة السلاط العامة وشؤونها المالية والقضائية والعسكرية تحت المرافقة الامبراطور مباشرة . وكان يستع عليه عهدهم مفساداً مصر في خلال مدة حكمه « كما كان يجب عليه عند انتهائها انتظار وصول خليفة - وفي حالة خلوه منصبه فجأة بسبب الوفاة أو لأي سبب آخر كان ينوب عنه عادة مساعده في الشؤون القضائية

لم ينزب على حصول مصر حضورية الامبراطورية الرومانية فبيدحت هامة في إدارة البلاد لان سياسة روما بوجه عام في حلال شؤونها تصماً للشرق كانت تقضى بنجنب التدخل ما أمكن في نظم البلاد التي كانت تتبع بإدارة منظمة ، ولذلك اتبع الرومان في حكم البلاد النظام نفسه الذي وضعه البطالمة اللهم الا اذا استثنيا بعض التعديلات التي اقتضت الظروف ادخالها ، فكان قدوم الرومان لم يكن أكثر من انتقال الحكم من أسرة إلى أخرى انتقالاً لم يكن مصحوباً بأهتلابات أو اضطرابات أكثر مما كان يحدث عادة على عهد المراهقة عندما كانت أسرة حاكمة جديدة تغلب أسرة أخرى .

١ - السلطة المركزية :

ولما كانت روما في حاجة ملحة إلى الانتفاع بوارد مصر الطائلة في تعضيب مجده مائنتها وفي اعداد شعبها بمقادير وفيرة من التمصح ، وكان في وقوع مصر في يد قوية مناوئة للامبراطور أو في قيام اضطرابات بين

وكان كل قسم من أقسام مصر الثلاثة يتقسم إلى مديريات ، على رأس كل منها قائد (strategos) كان على حاكم القسم في المرتبة ويتلقى منه جميع الأوامر فيما عدا ما يتصل منها بالشؤون المالية إذ كان يرجع في ذلك إلى الإدارة المالية المركزية في الإسكندرية . ولم يكن للقائد أي اختصاص حربي ، لكن لعوده كان يتمد إلى جميع نواحي الأثرية المدينة ، إذ كان رئيس الشرطة وكثيرا ما كان ينوب عن الحاكم العام في الفصل في القضايا . وكان للقائد دائما الحق في إلغاء القبض على مخالفين القانون وفي النظر في الشكاوى وإجراء تحقيق ابتدائي في القضايا ومحاولة فض النزاع ودفا أما إذا نظر ذلك فإله كان يعيل المتخاصمين إلى المحاكمة وقد كان القائد مسؤولا كذلك عن تقدير وجمع الضرائب في مديريته وعن استغلال أراضي الحكومة واحتكاراتها .

وكان النوماوخ لا يزال مروغا في عهد الرومان إلا أنه أزه سلطة القائد المدنية كأهم ما تبقي له من اختصاصات هو الإشراف على تقدير وجمع الضرائب المختلفة . وقد أدى قصر أهمية مركزه إلى ازدياد عدد النوماوخ إذ كان يعين لكل مديرية اثنا أو أكثر .

وكان يلي القسائم في المرتبة ٥ الكاتب

وكان يدمي بالاغريقيمة ديكايدونوس (Dikaidonoi) ، وباللاتينية يورديكوس (Furidicus) ، فقد كان يساعد الحاكم العام على الاضطلاع بعلم منصبه فئة صغيرة من كبار الموظفين الرومان من الجلي إذ همذا الساعد أو المستشار القضائي كان أخطرهم شأنًا وأرفعهم مقامًا . وكان للحاكم العام مساعداً في الشؤون المالية وهما الديريكيتس (dikaites) والأيدولوجوس (aitologos) ومن أجل تسهيل الإدارة العامة قسمت البلاد منذ أوائل أيام الإمبراطورية لثلاثة أقسام وهي مصر السفلى ومصر الوسطى ومصر العليا ، وأسندت إدارته لكل قسم إلى إيستراتيجوس (epistrategos) وروماني ، وكان الإمبراطور هو الذي يعين حكام هذه الأقسام إلا أنهم كانوا يخضعون للحاكم العام مباشرة ويسندون منه معظم سلطتهم ، وكان اختصاصهم إداريا بحتا ، غير أن الحاكم العام كان ينيبهم عنه في الفصل في القضايا وكان لهم حق مطلق في حراسة الشكاوى والتصكيم في المنازعات . ولم يكن لهم أي اختصاص في الإدارة المالية أكثر من سماع الشكاوى بسبب اجتناب في تقدير الضريبة أو ما شابه ذلك . وكان لهم شأن كبير في تعيين موضى المديرات ، ويرجع أن قراراتهم كانت نهائية فيما يختص بتعيين المستشار من هؤلاء الموظفين لكن يبدو أن موافقة الحاكم العام كانت ضرورية فيما يختص بتعيين كبارهم .

الملكى ، وكان يتوب عن القائد في اتصافه
 تيبه أو خلو مركزه . وكانت أهم اختصاصاته
 تتعلق بالتشؤون المالية في الإدارة المحلية مما
 حصل البعض على الاعتقاد بأنه كان يشابة
 مراقب على تصرفات القائد في الشؤون المالية .
 وكان يحيى بعد الكتاب الملكى رؤساء دار
 السجلات الرسمية ، فقد أنشأ الرومان إلى
 جانب دار السجلات المركزية بالاسكندرية
 دورا مماثلة في عواصم المقاطعات . وعلى مر
 الزمن أصبحت كل من هذه الدور تنقسم
 قسمين ، يختص أحدهما بحفظ جميع
 المكاتبات الرسمية وكشوف الضرائب والقوائم
 التعداد وسجلات الأراضي ، ويختص القسم
 الآخر بتسجيل الأراضي والسنابل والعميد ،
 وكان يترافق عادة على كل من هذين القسمين
 وليسان .

ومما يجدر بالملاحظة أن مناصب الإدارة
 المحلية ، ابتداء من القائد ، كان يشغلها فريق
 فيما عدا المناصب العليا منها فقد كان يتولاها
 مصريون ، وإذا كان يبدو من ذلك أن الوثنيين
 كانوا يختارون بوجه عام من الطبقات ذاتها
 التي كانوا يختارون منها في عصر البطلمة فإنه
 مع ذلك قد طرأ تغيير هام على طابع الخدمة
 الحكومية ، ففي عهد البطلمة كان موظفو
 الحكومة يتألفون من موظفين دائمين اختاروا
 خدمة الحكومة مهنة لهم يتكسبون منها
 قوتهم ، أما في عهد الرومان فإنه لم يأت القرن
 الثاني حتى كان موظفو الحكومة ، باستثناء

كبارهم ، يتألفون من رجال لا يتولسون
 مناصبهم إلا لفترة قصيرة وقصرا عنهم .

وكان مقر إدارة كل مديرية في عاصمتها ،
 ولم تنتج تلك العواصم باستقلال محلي
 فترمين الأبريق من حكم الرومان إذ كانت
 ضرائبها ورجال شرطتها تحت إشراف القائد
 لكن يبدو أن المجلس ألقا في كل مناسا
 مسندا من المناصب البلدية التي استعيرت
 اسمها واختصاصاتها من نظم المدن
 الإغريقية ، وفي بداية الأمر كان يتولى كل
 منصب سنويا فتطوع لرى كان ينقل من ماله
 الخاص على كل ما يتطلبه التهورس بأعباء
 منبه وكان تتولى هذه المناصب يعتبر شرفا
 يتر به الناس وينظفون إلى الحصول عليه ،
 فكان الأهالي عندئذ ينتخبون أفضل المرشحين
 لتولى هذه المناصب . لكن بفسى الزمن لم
 نجد هناك حاجة إلى الانتخاب ، فقد ازدادت
 على مر الأيام صعوبة الحصول حتى عسلى
 مرشح واحد لكل منصب بسبب ما كانت
 هذه المناصب تفرضه على شالحليها من أعباء
 مالية كانت تتزايد باستمرار في الوقت الذي
 سارت فيه حالة البلاد الاقتصادية من سوء
 إلى أسوأ ، فمن أجل التئيب على صعوبة
 نقل هذه المناصب لجأت الحكومة إلى
 الأرقام والحث على انقاص نفقات هسده
 المناصب كما لجأت إلى إشراك أكثر من
 شخص واحد في تحمل أعباء كل منصب .
 ففي القرن الثاني جرت العادة بأن يتولى أعباء

وكان يمثل السلطة المركزية في ادارة تلك
المواسم قائده المديرية وكان يحين عملي
نظامها المالى ويشرف على حفظ الأمن فيها ،
وكذلك الكلاب الملكى وكان مسئولاً عن
هداد السلطة المركزية بكافة المعلومات التى
تحتاج إليها للعرض الضرائب ، كما كان
مسئولاً عن اعداد أسماء الأنعام اللاتى
اختيارهم للوظائف المحلية التى كانت ولديها
من بينها . وكان يوجد عادة في كل مدينة
كاتبان يتوليان العمل فيها لمدة ثلاث سنوات .

وكانت كل مديرية تنقسم الى عدد من
القرى يدير الشؤون المحلية في كل منها جماعة
من شيوخها يدعى "ك" عددهم كان يتفاوت تبعاً
لعدد سكان كل قرية . وكان شيوخ القرية
بشأنه سلطة الاتصال بين الأهالى والحكومة
في دفع الضرائب . وكان عليهم أيضاً ان
يراقبوا فلاحه أراضي القرية وأن يدوا
الحكومة بما يطلبه من المال أو الجود
لخدمتها وقت الحاجة . وكانوا كذلك
مسئولين أمام القائد عن حالة الأمن في قرىهم
ولمن لا تصرف كيف كانوا يضاربون لكن
يرجع الى خدمتهم كانت حروبا اجباريا على
تراة كل قرية لمدة سنة دون أى مقابل . ولعل
نشأ هذا النظام يرجع الى رغبة الحكومة
الرومانية في ايجاد وسيلة محلية تزيد من
امثلاتها الى الحصول على ضرائب القرى
فقد كان أولئك الشيوخ مسئولين شخصيا
عن سداد ضرائب قرىهم .

منصب مدير الجينازيوم شخصان كانا
يتناوبان كل شهر مباشرة مهام هذا المنصب .
وتصرف أنه في أوكتوبريخوس بلغ عدد
مراقبي السوق العامة في خلال القرن الأول
خمساً ، وكان عدد مراقبي التسويج عند نهاية
القرن الثاني أربعة . وكان التطور الطبيعي
ل هذه الخطوة انشاء لجنة لكل منصب عند
أواخر القرن الثاني .

وكان هؤلاء الحكام هم مدير الجينازيوم
(symmachus) ، وكان يتولى رعاية شؤون
الجينازيوم الذى كان مركزه العبادة
الاجتماعية ومهددا للقرية البدية والمقلية ،
والايسا (caesarea) ، وكان يشرف على
العباد الشبان بمنشأة تدريهم (ephebeia)
وتصين الأوصياء لبيدات والمرين للناصرين
ويبحث الشروط الواجب توافرها فيمن
يضمون الى طبقة التسنين بالامتيازات ،
وتلك مراتب التحليم (kosmos) ، ورامبا
الكاهن الأكبر (archiereus) ، وخاصة مراتب
التسوين (eurbasileus) ، وسادسا مراتب
السوق العامة (agoranomos) . وكان يتولى
أيضا توثيق العقود . وكان يوجد اى جانب
هؤلاء ثلث من الحكام يرجع المؤرخون
أهم كانوا يمتنون فقط عندما كانت الظروف
تستدعي ذلك مثل (epimeletes) وكان يعهد
لهم في الاشراف على الأشغال العامة . وكان
يوجد في كل عامسة من هذه المواسم
ما يشبه الجمعية العامة للمواطنين .

وافية بأسماء جميع سكان البلاد تبين بدقة الطبقة التي ينتمي اليها كل منهم وكذلك حالته من حيث الاعفاء من الضرائب جسيما أو بعضها أو الإلزام بدفع الضرائب كاملة . وقد الفطرة الواقعة بين تعدادين كانت شهادات الوفاة والميلاد تستخدم مسبقا لتصبح البيانات الواردة في هذه السجلات وجعلها مطابقة للواقع .

ولما كانت الحكومة ترهب بحرص شديد الالتئام الى الطبقات المتأخرة بسبب ما كان يترتب على ذلك من التمتع بامتيازات لها أهميتها لا من حيث أداء الضرائب فحسب بل أيضا من حيث دخول منظمة تدريب الشباب (ephebeia) والهيمنازيوم ، فالحا كانت لا تسمح بتسجيل أى شخص في طبقة من هسة الطبقات إلا بعد فحص (epikrasis) الطب المدمم بالمستندات التي كان والده الفحص أو الرضى عليه يتقدم به عادة في الثالثة عشرة من عمره أى قبل تسجيل اسمه في منظمة تدريب الشباب وفي قوائم دفعي الضرائب ، ففي سن الرابعة عشرة كان الشاب يتسجل في متطلباتهم ويشهد دفع ضريبة الرأس وبعض الضرائب الأخرى . وقد كان الالتئام الى طبقة من الطبقات المتأخرة يقتضى اثبات اتئام والدي الشخص الى تلك الطبقة . وكان في استطاعة العبيد الالتئام الى تلك الطبقات اذ كان القانون يسمح لهم باتئام بوضع سادتهم القانوني بعد فحص حالتهم .

وكان يمثل السلطة المركزية في كل قرية رئيس الشرطة (archepolites) وكان يعين على حفظ الأمن فيها ، وكان القرية وكان مسئولوا عن موافاة السلطة المركزية بكل ما يلزمها من بيانات لأغراض الضرائب فهو الذي كان يعد قوائم بمسكان القرية ومقدار ما يمتلكه كل منهم وموارده . وكان أيضا مسئولا عن اعداد بيان بالأشخاص الصالحين لاختيارهم للوظائف المحلية التي كانت وظيفته من بينها . وكان الكاليد يفتاره بالقرعة من قائمة الأشخاص التي معها سلفه ، وكان يسولي وظيفته لمدة ثلاث سنوات ، وكان لكل قرية عادة كاتبها لكن في بعض الحالات كان يعهد في لسون قرنين أو ثلاث قرى الى كاتب واحد . وكان يفحص دخل بعض الضرائب لمواجهة ما يتطلبه منه من تكاليف .

وإذا كان البطالة قد حرصوا على أن يدرجوا في قوائم أسماء سكان البلاد وجمعية كل منهم والطبقة التي ينتمي اليها ، فإن الرومان أدخلوا نظام التعداد وكان يجري كل أربعة عشر عاما ويعرف باسم التسجيل المنزلي ، فقد كان يتمين على مالك كل منزل أو مستأجره أن يتقدم الى الموظفين المعتمدين إقرارا بجميع سكان منزله ويضم على صحة البيانات التي قدمها . وكان أولئك المولفون يقومون بفحص (epikrasis) هذه البيانات والتأكد من صحتها لأنه بناء عليها كانت السلطات المختصة تعد سجلات

المواطنين وكانوا لا يسجلون في الأحياء ولا يتمتعون بكل امتيازات المواطنين الكاملين . وكان للاسكندرية جاعة من الحكام يتألفون من مثل حكام عوامهم المديرات فضلا عن مثلى السلطة المركزية . ولنا نعرف كمية اختيار حكام الاسكندرية ، لكن لما كانوا يقومون بدور بارز في ثورات هذه المدينة ضد الحكومة ، وكانت « أعمال الشهداء الوثنيين » تصورههم ل شكل رجاء المدينة ، فان كل ذلك يوحى بأنه لم يكن للحكومة يد في تعيينهم . وقد كان الامبراطور هو الذي يمنح حقوق المواطنة ، وكان الحاكم العام هو الذي يعاكم من يسلح في هيئة المواطنين أشخاصا لم توارث لديهم شروط التمتع بحقوق المواطنة وكذلك الذين يمارسون هذه الحقوق دون وجه حق . ويبدو انه لم يعد لحاكم المدينة وجود فريد أصبح الفصل في القضايا من اختصاص الحاكم العام والذين كان ينبغي من على النحو ما سبى غيبه الكلام عن النظم القضاة . وبطبيعة الحال كان شأن المدن الإغريقية الأخرى شأن الاسكندرية من حيث انه لم يعد لها محاكم قضائية خاصة . وكان يحتفظ الأمن في المدينة قائدها ورئيس شرحتها . والواقع ان الحكومة الرومانية هي التي كانت تترقى على كافة نواحي الادارة في المدينة ، أما النواحي الثقافية والدينية وتدريب الشباب واقامة العضلات وتنظيم الألبان فان حكام المدينة (archontes) هم الذين كانوا يتولون أمرها .

وقد كانت الاسكندرية وقرطاجس وبطوليبيس وأنطونيو وبوليس هي المدن الوحيدة التي تتمتع بقدر من الاستقلال الذاتي في حكمها المحلي . وبرغم ان معلوماتنا عن دستور كل منها طغية الا انها تكفي لتبين انها كانت تتمتع بجزايا خاصة تختلف في كل منها عن الأخرى باختلاف أصلا ولادبها . أما الاسكندرية فيصبح الباحثون على ان الأباطرة منذ أغسطس حتى سينيوس سروس لم يسحوا لها مجلس للشورى لكي لا ينحوا لإهلاء المرمين بالثورات مملا لثوراتهم ولكن يجعلهم تحت سلطان الحاكم العام مباشرة . وإذا كانت بعض القوانين تشير الى انه منذ أوائل العصر الروماني كان لمواطني الاسكندرية مجلس يتألف من ١٧٣ عضو ، والى ان هذا المجلس كان حلقة الاتصال بين روما واطرافي الاسكندرية فان الدلائل لا تدع مجالاً للشك في انه لم يكن مجلسا له صفة رسمية أو سلطة تشريعية فهو لم يكن أكثر من هيئة اجتماعية . ومثل ما كانت عليه الحال في عهد البطالة كانت نخبة المريق الاسكندرية تنقسم الى قبائل وأحياء وتكون هيئة المواطنين الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة ، وكان لهما ان التمتع بهذه الحقوق كان شرطا أساسيا للمسؤول على حقوق المواطنة الرومانية وتلافا من ضريبة الرأى ومن تولى المناسبات العامة فسرا خارج الاسكندرية . وفي العصر الروماني أيضا كانت توجد كذلك فئة انصاف

٤ - التعديلات التي ادخلت في «القرن الثالث :

شهد القرنان الأول والثاني من حكم الرومان زيادة ملحوظة في الزمام الأشخاص القادرين بتولي المناصب الحكومية والبلدية . ومن حيث المبدأ كان النظام يقضى بالابترغم شخص على تولي وظيفة قبل انقضاء ثلاث سنوات على توليه وظيفته مماثلة مرة مابينة . وكان يشمل من الارغام على تولي الوظائف المواطنين الرومان واسماء المحاربين ومواطنو الاسكندرية والطينوثيروليس المقيمون خارج هاتين المدينتين ، وكذلك الأطباء المومسيون واساتذة دار العلم في الاسكندرية والعارفون في المهاريات العامة والمجزة وعدد معين من كمنه كل مجزء . لكن عندما قل حسعد الأشخاص اللاتين تولى هسنه الوظائف ارداد تدريجيا لخاص الحكومة عن هذه الاعفاءات .

وعندما زار الامبراطور سيثيوس سقرس مصر في عام ١٩٩/٢٠٠ وراى ان الاضعلال قد أخذ يذهب الى موارد البلاد وان الادارة المحلية على وشك التدهار ، ادخل بعض التعديلات على نظام الادارة المحلية ، مزملا ان يصلح بذلك ما أفسده الدهر . وقد كان أهم هذه التعديلات منح الاسكندرية وعواصم المديريات مجالس لتسورى . واذا كانت الاسكندرية قد حققت على هذا النحو امنية قديمة عزيزة عليها فانه اتقص من قدر هذه المنحة اسبابها على العاصمة المعجدة القديمة وعلى عواصم المديريات سواء بسواء . ولم يترتب على فوز

أما قراطيس فظهر أنها عانت تشجع بدستورها القديم يدلل ما تحدثنا به المصادر القديمة من أن هادريان أعطى أنطينوثيروليس دستوراً على نمط دستور قرطيس . وكانت أبرز عناصر هذا الدستور وجود هيئة مواطنين وعدد من الحكام ومجلسي التسورى .

ويبدو أن بطوليميس أيضاً احتفظ بدستورها الاثريفي القديم أى أنه كان لها مجلس لتسورى وجمعية نسبية وهيئة حكام تشبه هيئة مواطنين كانوا ينسبون الى قبائل وأحياء . وفي عصر هادريان وثانية في عصر الطوليموس بيوس قامت باعداءات وسنت نسبا فيها بأهلها مدينسة المريقة (السق) . وبالرغم من أن بطوليميس كانت عاصمة مديرية طينة (طالط) ، أى مقصر حكومة تلك المديرية ، إلا أنه يرجح أن تلك الحكومة لم تتدخل في شؤون المدينة .

وقد مر بنا أن أنطينوثيروليس ألفت على نمط اثريفي ومنحت مجلسا لتسورى ودستورا لقرطيا وقسم مواطنوها ، مثل مواطني المدن الاثريفة الأخرى ، الى قبائل وأحياء . وبطبيعة الحال كان يتبر مسئولها جماعة من الحكام يختارون من مواطنيها . وما يجدر بالملاحظة أن دستور هذه المدينة سمح بالتزاوج بين مواطنيها والمصريين على حين أن هذا التزاوج كان غير مشروع في المدن الاثريفة الأخرى .

ويرجع بعض المؤرخين أنه عندما أنشئت مجالس التموي عين أعضاء فيها أولئك الذين لم يسبق ترشيحهم لتولي مناصب الحكم المحلي في عواصم المديرية في حين أنه يتبين من برقية من منتصف القرن الثالث الميلادي أنه لم يكن هناك أي فارق من حيث النصاب المالي بين أصحاب مناصب الحكم المحلي وأعضاء مجلس التموي العاديين . لكن هذا لا يستتبع حتماً أنه عند الفناء مجالس التموي لم يعين أعضاء فيها أولئك الذين لم يرشحوا من أجل لمنصب الحكم المحلي ، وعلى كل حال إذا كانت هناك أي فوارق بين الطرفين في بداية الأمر فإلا ما واثت نهاية القرن الثالث حتى كانت هذه الفوارق قد زالت تماماً إلى حين أن كلمة حاكم محلي (astvuz) أصبحت ترادف كلمة عضو مجلس التموي (bovleutes) .

وقد أدى إنشاء مجالس التموي إلى إنشاء مناصب إدارية جديدة كان أهمها منصب رئيس المجلس (prymis) ، وكان يرأس المجلس وينفذ قراراته ، ومنصب أمين المدينة (bypomozemostrogabov) ، ومنصب (syadikov) ، وكان مستشار المجلس فيما يتعلق بالشؤون الإدارية ، ومنصب (tamias) ، وكان يختص بشؤون المدينة المالية ، ومنصب رئيس الشرطة في المدينة (oukhozraccog) .

وقد تضمنت التعديلات الإدارية الجديدة تقسيم المديرية إلى أقاليم ، ونج ذلك أحياء

عواصم المديرية بهذه المنحة تمتعها بالحكم الذاتي تمنا كاملاً فقد مثل القائد صاحب السلطة العليا في المديرية فضلاً عن أنه كان يسيطر على مجلس التموي وعاصمة المديرية حيث كان مقره الرسمي . وإذا كان النظام الجديد قد بدا في صورة ميزة جاد بها الإمبراطور غاي في الواقع كان عبئاً جديداً ألقي على عاتق المومسين الذين كان أعضاء مجالس التموي يختارون من بينهم وكان عددهم يبلغ المائة في كل عاصمة مديرية ، وقد اتفقت إلى كل مجلس من هذه المجالس المسئولية عن الشؤون المالية في المديرية بأجمعها وتعيين وضمان أحكام العاصمة ومدير المصرف الرئيسي في المديرية وجبة الضرائب في كل أنحاء المديرية ومراتب دخل الحكومة من كافة أنواع الأراضي (dekaprov) ، وما يجسدر بالملاحظة أن المسئولية غدت مسئولية جماعية فقد كان كل حاكم من حكام العاصمة وكل عضو في مجلس التموي مسئولاً عن نصبره الشخصي ونصبر زملائه سواء بمرءه . وقد كان مجلس التموي يتولى الإشراف العام على الإدارة في عاصمة المديرية في حين أن أحكام العاصمة كانوا يقومون بتنفيذ ما يدخل في دائرة اختصاص كل منهم . وقد أصبحت القاعدة أنه لا يمكن التحلل من تولي منصب من مناصب الحكم المحلي أو عضوية مجلس التموي إلا بتنازل المرشح عن ثلثي ما يمتلكه للشخص الذي رشحه ليحل مكانه .

وظيفة حاكم الأقليم (toparch) ، وكان
يعين لكل إقليم مراقبان على دخل الحكومة
من كافة أنواع الأراضي (dekaprotoi) ،
وعدد من جباة الضرائب (proctors) .

وكان أهم التمديلات التي أدخلت على
لدارة القسري احياء وظيفة حاكم القسرية
(komarch) ، والقضاء تدريجياً على
الخصائص الفييوخ وكاتب القسرية ، فقد
أسندت شؤون الادارة الى حكام القسري
وكافوا عادة الثمن في كل قرية ، يبدو انها
كانا يتوليان هذا المنصب لمدة عام واحد .
وكان حكام القرية يرتحون خلفاهم ومن
تحتاج اليهم الادارة من موظفين ، لكنهم
كانوا لا يتولون مهامهم قبيل موافقة قائد
الديرية وحكام القسم على اختيارهم .

ولا شك في أن التمديلات التي أدخلها
سيتيوس سفروس على نظام الادارة امتازت
صريح باختلاف النظام القديم ، ولا شك أيضا
في أنه لم ينج من وراء منح الأهالي قدرا من
الاستقلال المحلي الا اثنائ حالة البلاد
الاقتصادية وابتعاد وسيلة تمطي الامبراطور
شعبا أكبر للحصول على الطراب ، لكن
لا هذه التمديلات ولا العتوق الرومانية التي
منحها كركلا لسكان البلاد اقلعت في اثنائ
الحالة الاقتصادية ، بل أخذت تير من
سيره الى أسوأ مما حفز الامبراطور
دقلديانوس الى اعادة تنظيم الادارة من
أسفلها الى أعلاها .

ولا مراة أن السبب الأساسي فيما أصاب
أيلاد من فقر وتدهور يرجع الى أن الرومان
لم يستمدفوا من وراء كافة انظم التي
وضعوها لحكم مصر وكافة التمديلات التي
أدخلوها على تلك انظم الا استعمال البلاد
الي أقصى حد وضمان الحصول على
ما فرطوه عليها من مختلف الاثزادات دون
نظر الى صوالح الشعب ورفاهيته . وليس
مرد ذلك الى أن الرومسان كانوا يريدون
التنكيل بمصر وانما مرده الى أن نالهم في
أن تضيض مصر بالقبزات على روما أصمام
عن مراعاة صوالح مصر . ولو اصم كانوا
يميدى النظر لتقروا ان القطار مصر سيؤثر
عاجلا أو آجلا فيما تعنيه روما من مصر لكن
اراء تبة المسؤولية المطلقة على عاتق الحكام
وقصر مدة حكمهم لم يفكر كل منهم الا في
يومه وكأنه اخذ شمارا له ، ومن يصدى
الطوفان ، .

١٠ - الشرطة :

اتقى الرومان أثر البطالة أول الأمر في
حفظ الأمن والنظام في أنحاء البلاد براس
(palaestae) مسلحين ومنظمين على أسس
حربية . وتسمى القرائن الى أن هذا النظام بقي
متينا في الدنا حتى القرن الثاني ، لكن يبدو
أن الرومان لم يقنوا أن استبدلوا بهذا النظام
لقاما مزدوجا القيت بمتنضاه تبة حمت الأمن
والنظام على شرعة مدنيين كانوا يمتنون من
أهالي كل منطقة وكذلك على الجيش

رجال الشرطة في كل قرية تحت إمرة الموظف الذي مر بنا ذكره (archepodas) ، وليس هناك دليل على أن رئيس شرطة عاصمة المديرية كان يعين من قبل مجلس الشورى أو يخضع لتوجيهاته . وأغلب الظن أن الحكومة الرومانية كانت تعين دائما على رجال الشرطة في كافة أنحاء البلاد بما في ذلك الاسكندرية وقهرها من المدن الإغريقية .

وكان الجيش الروماني يشخص لحفظ الأمن والنظام فئة قليلة من الجنود يدعى انها كانت أفضل أئرا من الشرطة المدنيين ، وفي أغلب الأحوال كانت كل لجنة من هؤلاء الجنود تحت قيادة صف ضابط (centurio) كانت تقدم اليه الشكاوى كما كانت تصدر منه الأوامر لالقاء القبض على المتهمين . ولم يقرائن الي أنه في بعض الأحيان كان يصدر الي شرطة القرية ما يتردى له من التعليمات .

٩ = الجيش الروماني :

عندما فتح أغسطس مصر كانت حامية مصر الرومانية تتألف من ثلاث فرق رومانية (legiones) ، وفق كتاب مساعدة من المشاة (cohortes) ، وثلاث فصائل من الفرسان (eques) وزمن على المراكز الاستراتيجية في البلاد نشر البكتة والنظام في أرجائها ولضمان حاجتها من الاعتداءات الخارجية . فوضعت في نيغوبوليس أحسدى المرق الرومانية وثلاث كتائب مساعدة لاقاء الرب

الروماني . وكان رجال الشرطة المدنيين يدعون يوجه عام حراسا أو خفرا أو حقة الأمن (bylakes) ، لكن كثيرا ما كانت تطلق ألقاب خاصة على الذين يناط اليهم عمل معين مثل حفظ الأمن في ساحات الأسماب أو السجون أو الطرق المحرورية ، غير أنهم كانوا جميعا يختارون للخدمة في الأقاليم التي يعيشون فيها ويرجح أن مدة خدمتهم كانت عاما واحدا ، وكان يعين عليهم أن يردوا إليها للخدمة بأمانة وزراعة وأن يقدموا للحكومة ضمانين لحسن أدائهم مهتهم . وكانوا ينقسمون وحدات أساسها المدينة أو القرية . وكانوا في المدينة تحت رئاسة القائد مباشرة ، أما في القرية فانهم كانوا تحت رئاسة موظف خاص يدعى (archepodas) ولم يكن لهذا الموظف اختصاص فضالى برلم أنه كان يتدخل بين المتخاصمين لمصالحهم وإن المتخاصمين كانوا يجأرون اليه لضئ منازلهم . وكان يكلف بالقاء القبض على المجرمين بما على أوامر يتلقاها من السلطات المختصة ، كما كان يكلف بتنفيذ أوامر الحكومة .

وقد صعب القاء مجلس الشورى في عواصم المديرات تنظيم قوة للشرطة في عاصمة كل مديرية كانت مستقلة عن قوة الشرطة في المديرية فقد ظهر في القرن الثالث على رأس رجال الشرطة في عاصمة كل مديرية موظف يدعى (subprocurator) بينما اشتر

عدة تغيرات على نظم مصر الحريسة كان
أهمها بناء قلعة جديدة على شاطئه أنبل عند
بابلون وإضافة فرقة جديدة (فرقة تراجان
الثانية) يرجح أنها حسنت للخدمة في الشرق
وانزلت مؤقتا في مصر لكنها لم تاندرها حتى
سحبت الاشتراك في حرب الدانوب .

ولم يأت عهد أنطونينوس پيوس (١٣٦
— ١٦٦) حتى كان عدد الفرق الرومانية في
مصر قد انقص الى فرقة واحدة لكن يبدو
من ناحية أخرى ان عدد الكتابب المساعدة
والفصائل قد زيد . ويبين من الوثائق انه
على مر الأيام اتجه الرومان باطراد الى التجنيد
محليا لملء الأماكن التي تضاوى في صفوف
العامة الرومانية في مصر . وليس معنى ذلك
اهم اعتمادا على المصريين ل ذلك وإنما
الأرجح على مواضع للبلد الاغريقية وبخاصة
الاندريات .

وكان بحرس شاطئه الدلتا أسطول
Augusta Alexandina) يرجح أن
أسطول هو الذي أشاء وان كان لا يرد له
ذكر في مصادرنا قبل عصر لبرون . وكانت
المهمة الأولى لهذا الأسطول الدفاع عن البلاد
وحراسة التفتح المنقول من الاسكندرية الى
إيطاليا ، لكننا نسمع منذ عصر هادريان أنه
كان يوظف كذلك بحراسة النقل المائي في
داخل البلاد .

في قلوب الاسكندريين الذين اشتهروا بيلهم
الى الشعب والثورة ، وضعت فرقة رومانية
أخرى في بابلون للسيطرة على الوجه البحرى
ويرجح ان الفرقة الثالثة وضعت في منطقة
مطية التي كانت مهد الثورات الوطنية ضد
البطالمة ، وضعت ثلاث كتابب مساعدة عند
أسوان للدفاع عن الحدود الجنوبية ووزعت
الثلاث الكتابب المساعدة اليانبة والثلاث
الفصائل في مختلف أنحاء البلاد لحماية
الحدود الشرقية وتأمين الطرق الصحراوية
وحراسة المناجم . لكن سرعان ما تبين ان
هذه القوات كانت تزيد على الحاجة ولا سيما
بعد اطمئنان الرومان الى سلامة الحدود
الجنوبية لأمر تيربوس بسحب إحدى
الفرق الرومانية الثلاث . ومنشما أثبتت
الأحداث ان الاسكندرية كانت أخفض معنى
الرومان من منطقة مطية أمر كلاوديوس بنقل
العامة الرومانية التي كانت تنزل عند فقط
أو ضبة الى مسكر ليفوبويس .

وفي عهد نيرون حسنت مؤقتا في
الاسكندرية فرق رومانية أخرى للقيام في
رأى الباحثين بالعسلة التي كان هذا
الامبراطور يمتاز بوجيها ضد مملكة
أكسوم لكن حال حول القيام بها اندلاع
الثورة في جودايا ما استدعى استخدام تلك
الفرق في الخبائها . وفي عهد تراجان دخلت

الفصل الثالث

السياسة الدينية

الإدارة يشدون أزرقهم ، اذ كاذبه القرار يقضى بالهلاقي كل المعايير التي كانت القرائين تقدم فيها ، لكن الرهبان استبدوا من ذلك القرار السلفه ليهتموا المعابد . اما في الوجه القليلي فاز سلطة الحكومة لم تكن من القوة بحيث تستطيع تنفيذ ذلك القرار ، حتى اذا شاء رجال الادارة تنفيذهم ، وكاذ اخليهم في الواقع مسيحيين غير متحصنين أو اهلين متبصرين لم يروا من الحكمة فرض دين معين على الشعب دون رغبته ، ومع ذلك مازلنا نرى حتى اليوم على جدران المعابد آثار المحاولات التي بذلت لحو صور الآلهة القديمة . ولا جدال في ان كل ذلك يتمض دليلا على ان جانبنا كبيرا من المصريين استسكوا امدا طويلا في العصر الروماني بعبادتهم القديمة . ويجب الا ينسب عن الهال ان اهل الريف وهم يؤلفون دائما جانا كبيرا من السكان في مصر أكثر محافظة من اهل المدن وكذلك أكثر منهم تمسكا بأهداب الدين .

وقد احتفظ كثير من اغريق مصر أيضا بعبادتهم القديمة . ويجب الا يتبادر الى

لما كان الرومان قد دأبوا في العسروف المادبة على اتباع سياسة التسامح الديني مع رعاياهم ما دام ذلك لم يتعارض والاحتفاظ بسيطرتهم عليهم ، فالهم شيئا مع هذه السياسة لم يتدخلوا في المنتهات الدينية لرعاياهم في مصر سواء اكانوا من المصريين أم الاغريق أم اليهود . فلا عجب اذن ان استمر كل عنصر من هذه العناصر في القائمة شائر دياته القديمة . ولا اول على ان تغلب المصريين بقوا على ولاهم لالهم القديمة من ان الاغنياب الاوائل للمسيحية وجهوا حملات لاذعة ضد عبادة الحيوان ، ان بعد انتشار المسيحية في مصر والاعتراف الدولة بها رسميا في القرن الرابع للميلاد بدل المسيحيون جهودا كبيرة لتقصاء على الوثنية في مصر وساعدهم على ذلك انه عندما ارتقى الامبراطور يودوسيوس (٣٧٤ - ٣٩٥) العرش فرض المسيحية قسرا في جميع انحاء الامبراطورية الرومانية . وقد تصد قرار الامبراطور دون هوانة في الاسكندرية والوجه البحرى حيث ذهب الزهبان في تنفيذ الى ابعدهم ومن وراثهم رجال

المصريين منهم الى الاغريق ولم ينقض وقت
طول قبل ان تستوعبهم امة الصرية حين
استوعبتهم على مر العصور . ومن ثم نقص
عدد اتباع الديانة الاغريقية تبعا لعدد الذين
تصروا وبطبيعة الحال ايضا تبعا لعدد
الذين اعتنقوا المسيحية .

وما كان اليهود يفتنون في الفنون
الدنية يعزل عن كافة سكان مصر سواء
اكانوا من المصريين ام من الاغريق ام من
الرومان ، فانهم استنروا بتأثير جيلاتهم
دون ان تأثر طقوسهم او معتقداتهم بأي
تأثيرات اجنبية . ولقد انتشرت بينهم في اغلب
مدن مصر الكبرى واستمر عبدهم الكبر في
ليونثوبوليس يباشر لسلطانه الى ان امر
سپاسيانوس في عام ٧٣ باغلاقه بعد تدمير
اورشليم ومعبداتها فطاب ثورة اليهود على
روما . وذلك لكي لا ينظف هوذا العيد الكبير
في فلسطين بعد زواله الى مجسد
ليونثوبوليس ، وقد شهدت مصر التطور
الوحيد الذي طرأ على الافكار اليهودية
وكان يمثل في تكوين طائفة من النساك
اشأت لنفسها يعة بالقرب من بحيرة مريوط
حيث احدثت مدارس حياطة من التشف
والزهد منصرفة عن امور الدنيا الى العز
والتأمل . وكان يسبح للرجال والنساء على
السواء بالاندماج في هذه الطائفة ، وكان
يخصص لكل عضو من اعضاء الطائفة
صومعة صغيرة يزدى فيها وحيدا لمدة ستة

الذهن ان ذلك كان مقصورا على مدتهم
الانقرصية تعصب بل يبدو ان ذلك كان
شأنهم ايضا حيثما وجدت لهم مراكز حضارية
خارج تلك المدن . فالقرائن تشير الى انهم
كانوا يقيمون شعائر عبادتهم القديمة لا في
الاسكندرية وقرطاجيس وبيسوليبيس
وانثونوبوليس لحسب بل ايضا في الفيوم
وهرموبوليس (الاشمونين) وأوكسرخوس
(الجنينة) . لكن لا جدال في ان عدد الاغريق
مصر الذين بقوا على دلائهم لآلهتهم القديمة
قد تناقص على مر الزمن . فلقد مر بنا ان
الاغريق منذ عهد هيرودوتوس وطول مصر
البطالة كانوا يستمدون الآلهة المصرية بالآلهة
الاغريقية وانهم كتبوا ما عبدوا الآلهة المصرية
الى جانب آلهتهم الاغريقية باعتبارهم زلاوة
البلاد التي كانت تصنع بحماية تلك الآلهة .
ولستطيع ان تصور انه كلما اصبح الاغريق
اكثر الفة بالآلهة المصرية نتيجة لطول
استقرارهم في البلاد والاختلاط بأهلها او
التزاوج معهم كثر تحريمهم الى هذه الآلهة
وبمع ذلك تسرب بعض الافكار الاغريقية
الى بعض المذاهب المصرية التي كان يمارسها
الاغريق والمصريون المتأخرون . واذا كان من
الجزائر بوجه عام ان افترض المدن الاغريقية
وعواصم المديريات لم يصدفهم التمسك الى
آلهة المصرية عن التمسك الى آلهتهم الاغريقية
فما لا شك فيه ان عامة الاغريق المنتشرين في
رجاء البلاد أصبحوا بالتدريج اقرب الى

البعض لهم خدمة أسدتها المسيحية المصرية
للمسيحية الأوربية .

وزاء استسناك المصريين بامتدادتهم
الدينية زى ان الأباطرة الرومان لكنى
حصبوا مركزهم بصحة شرعية في تظسر
المصريين حذبوا حذب البطالمة من قبل فاجتذبوا
صحة الفراعنة . يله ان حاكم مصر الرومانى
أيضا كان يشبهه بالفراعنة ، فلا يركب النيل
وقبلى الشيطان ، ويقدم القرابين عند بلوغ
النيل أقصى ارتفاعه ويمثل دور فرعون في
غير ذلك من شتى المظاهر . وكبد الأباطرة
المعابد للالهة المصرية أو اخضعوا الى سبلى
المعابد القائمة أو اكملوا مبانيها أو زخرفوها
وصوروا على جدرانها وعلى النصب الرسمية
في زى الفراعنة وأوضاعهم .

وقد كان الرومان في باقى الأمر ينظرون
الى معتقدات المصريين الدينية نظرة احتسار
وازعراء لكنهم لم يلبثوا ان أخذوا يتطلقون
الى تعرف أسرارها فاستموتهم تلك الأسرار
وما يقترب بها من أساطير . وما عثم الفرافة
أخافون ان يخطوا لسلطان تلك الآلهة
وشادركوا رعاياهم المغلوبين على أمرهم في
عبادتها وتقديم القرابين اليها بل أقاموا
التمائيل والشبابه لبعضها حتى في روما
العظيمة ذاتها . ولعل أبلغ ما يدل على التغير
الفكسى الذى حرق على الرومان من حيث
تفديهم للالهة المصرية البحث ان أغسطس
أبى واستكر ان يرى المعبد المقدس ايس ،

أيام ولا يخرج منها للاتقاء مع اخوانه في
اليعة الا في يوم السبت من كل أسوع
وكذلك في يوم الحفل الذى كان يتقام كل
خمين يوما . ولم يكن هذا اللون من حياة
التنك غير معروف في مصر من قبل . وآية
ذلك أولئك السناك الذين تعدنا الوثائقي
بأهم كانوا ينطقون للعبادة في ميرايوم
منف في عهد البطالمة . ويعتقد بعض الباحثين
ان المبشرين اليهوديين هم الذين ظفروا من
الهند الى مصر فكرة التنسك ، لكن البعض
الأخر من الباحثين وان كانوا يسلون بأن
مثل أولئك المبشرين كانوا يقدون على مصر
في عهد البطالمة . وبأن مذهب سيرايس كان
يتك من مزيج عجيب من الأفكار ، الا أهم
يقدون من المسير ان يصوروا ان يكون
اليهود مع شدة تعصبهم لديانتهم قد
اقتبسوا الى عادات من ديانة أجنبية ،
ورجعون ان تكون طيبة مصر هي التي
أوحى لليهود بعبادة التنسك ، فالصحراء في
مصر شديدة القرب من أى شخص يريد
اعتزال العالم ، والصحراء حاذية خاصة
الاحساس بها أسون كثيرا من وصلها ، ومن
المسير ان تسمى أفسس الذى شفقوا
بالصن في أمور الدين . ومهما يكن من أمر
فان التطور نفسه قد حدث بعد ذلك بقليل
بين المسيحيين في مصر فانتشرت بينهم عادة
التنسك في الأديرة ، وهي العادة التي انتقلت
من مصر الى كل أنحاء أوربا ومشرها

لكن بتوسُّع شهد الاحتفال بتكريسه ولم
 يدخر وسعاً في اظهار احترامه لإلهة المصريين،
 فوضع بذلك أساس سياسة جديدة تلي
 أثرها في بدء تصوير الآلهة المنحطة في
 المديرات على قنود الإسكندرية منذ عصر
 دوميتيانوس (٦٦ - ٩٦) وكذلك في تشييد
 زوجة تراجان بالإلهة جانور .

والذا كان الرومان منذ وطأت أقدامهم
 مصر لم يشرفوا لمعتقدات المصريين الدينية
 فانهم في الوقت نفسه حرصوا ، كما حصل
 البطالة الأوائل ، على ألا يتركوا الحبل على
 القصاب رجاء الدين المصريين لكي
 لا يصحوا أداة لشر وروح الثورة في البلاد ،
 كما حدث في عهد البطالة الأواخر . ولذلك
 قضى أغسطس بحرمات المعبود جابان من
 أراضيها واستاد ادارة جانب آخر الى
 الحكومة لكنه سمح للكهنة بزراعة جزء من
 هذه الأراضي لتوفير حاجات المعابد . ونظراً
 عن ذلك وضعت ادارة المعابد تحت اشراف
 الحكومة ويرجع ان الحاكم العام الروماني
 هو الذي كان يتولى هذا الاشراف حتى
 عصر هادريان عندما أصبح ذلك من
 اختصاص موظف روماني كبير كان يدعى
 ابي بولوجوس (Apologete) ، ويعمل لقب
 « كبير كهنة الاسكندرية ومصر بأجمعها » .
 وترينا الوثائق كيف كان هذا الموظف يشرف
 اشرفاً دقيقاً على كل ما يجري في المعابد فقد
 كان يخلص لتعليماته ترتيب الوثائق

الكمونية وتوليها وبمباشرة الكهنة مهامهم
 بل الملابس التي يرتدونها - وكان يعث
 بنقشيه الى المعابد ليبحثوا شئون ادارتها
 ويأمر بالتبويض على الذين يعصون أوامره
 وبارسالهم الى الاسكندرية . وكان يتولى
 الادارة الفعلية في المعابد جماعة من
 الصيوخ يختارون سنويا من بين الكهنة
 وعندما أنشئت مجالس الشورى في مستهل
 القرن الثالث آل الاشراف على شئون المعابد
 المأبئة الى موظفين كانت المجالس تعينهم
 وترقب أعمالهم .

ومما يجدر بالملاحظة ان ما عرفناه من أمر
 الرومان حيال الآلهة المصرية لا يضي المهم
 اضرفوا عن عبادة آلهتهم الاصلية ، فقد ادخلوا
 عبادة هذه الآلهة في مصر كما أدخل الاغريق
 من قبل عبادة آلهتهم الاغريقية . وقد أخذ
 الرومان أيضاً عن الاغريق تأليه الملوك فبنوا
 الأباطرة مآلهة - مثل أغسطس بزيوس
 اليوتريوس (Jupiter) ولبرون باجتادايون
 (Agathaidaimon) - وشيونا المعابد
 للأباطرة لكننا نشتر الى دلة فاعلمة على عبادة
 الأباطرة والنساء المعابد لهم في أثناء حياتهم .
 وعلى كل حال فان الرومان لم يفرضوا على
 المصريين هذه المعبادات خشية الاضطهاد
 بالشعور القومي وهو ما كان الرومان
 يذنون جهدهم لاقائه . وقد أخذ الرومان
 كذلك عن الاغريق عبادة ثلاث الاسكندرية
 المقدس - سيريس وايزيس وحاروبراط

— وعبادة الآلهة المصرية التي أسست عليها أسماء إفريقية .

لقد عرفنا ان الرومان اقاموا سياستهم الدينية على اساس التسامح الديني وانهم باحوا للمصريين والافريق واليهود حرية الاحتفاظ بعبادتهم القديمة . لما كان موقعهم من المسيحية عندما اخطت تنتشر في مصر ؟ ان معلوماتنا مثبتة عن هذه انتشار الدين الجديد في مصر لسكن الباحثين لا يميلون الى قبول القصة القائلة بان القديس مرقس هو الذي أسس كنيسة الاسكندرية وان كانوا يعتقدون ان لرب مصر من فلسطين جعلها في طليحة البلاد التي تترك بها الدين الجديد في خلال القرن الاول واخذ ينتشر خفية هناك ولا سيما في الاسكندرية والوجه البحري ، واصبح عدد المسيحيين كالجيشما تنصيب سفارة للاسكندرية . وقد ازداد اعدان المسيحية في القرن الثاني وخاصة عندما نصب ديمتريوس في آخر عهد كومودوس (١٨٠ — ١٩٣) أسقفا للاسكندرية وعلى يده تمت رسامة قس كثيرين بما لا تقدر المسيحية . ومع ذلك فان المسيحية لم تترك شي اثر فيها عشر عليه حتى الآن من بداية القرن الاول ولا نستمد من برديات القرن الثاني لا معلومات كافية عن مدى تأثير المسيحية وان كنا نتبين منها ان السجبة توغلت في مصر الوسطى ومصر العليا .

وقد أدى انتشار المسيحية الى اثاره مخادفا الرومان ومن ثم علوا على اضطهاد دعائنا وانتصارها باعنيابارهم عنصرا خطرا يهدد سلامة الدولة لعدم مشاركتهم في إقامة شعائر الديانة الرسمية ، فتمتد كانوا لا يقصدون تامين ايلالمرة ولا يميلون الى الروح الحارس ، للامبراطور ولا روما المولمة . وقد كان بدء اضطهاد المسيحيين في مصر اضطهادا منتظما في خلال حكم سيبتوس سولوس (١٩٣ — ٢١١) وبلغ الحد في اواخر عصر دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) . وتركت هذه الاضطهادات اثرا عميقا في النفوس الى حد ان الكنيسة المصرية استمرت بضعة عرون تستعمل لتاريخها في عصر التسبدهاء ، ابتداء من حكم دقلديانوس . لكن وسائل الاضطهاد المختلفة لم تفلح في سبيل النشار الدين الجديد حتى نمت له الغلبة في مصر قسطنطين الاول (٣١٣ — ٣٣٧) عندما اقرت الدولة رسما بالمسيحية .

ومما يجدر بالفكر انه في القرنين الثاني والثالث قامت الاسكندرية بعبود كسجد في التقريب بين أسس الأفكار في الوثنية والأفكار التي انبثقت من المسيحية . على جانب الجامعة القديمة التي استمرت تابع دراساتها الوثنية نشطت المدرسة المسيحية الكبرى التي أسسها يتيانوس (Pantaenus) ، وكانت مسول الايمان تعلم فيها عن طريق السؤال والجواب .

الفصل الرابع

السياسة الاقتصادية

١ - الزراعة والصناعة والتجارة :

محمول واثر جيدا وفضلا عن ذلك فان البلاد كانت لا تشكو من اى ضائقة حتى عندما كان منسوب المياه لا يبلغ اكثر من ثلثي اذرع .

وكانت مصر تنتج صلدا كبيرا من المحاصيل الزراعية كان القمح اهمها ثم ياتي بعد ذلك السمسم والكتان والخضروات والنباتات الزيتية والبردى والكروم والبلح والزيتون . ويقال ان مصر كانت تزرع ايضا القطن لتستخدم ثيلته في صناعة ملابس الكتينة .

وقدمت على الايام المصالحون بالتهوض بالصناعة لمد حاجات السوق المحلية من ناحية وتصدير كميات كبيرة من ناحية اخرى تهوض مصر على هذا النحو جانبا من الجزية التي كانت تدفعها لروما سنويا . ويبدو ان حكام مصر من الرومان شيئا وجدوا الاحتكار الحكومي باهظ النفقات قليل الارباح نزلوا عنه للأهالي فكانت الحكومة تشتكر بعض الصناعات مثل استخراج الملح والمعادن وقطع الأحجار وتترك صناعات اخرى لنشاط الأفراد .

لما كان الرومان في حاجة ملحة الى الانتعاش بساود مصر الطائلة وكان مصدر ما يجنونه منها يتوقف على مقدار ثروة مصر وكانت احوال مصر الاقتصادية قد تدهورت في عهد البطالة الأواخر من جراء ضلعم وتخاذلهم وما عانته البلاد من آثار الثورات الفوسية والاضطرابات الأوسرية والغزوات الأجنبية ، فقد وجه الرومان عنايتهم الى إقامة حكومة قوية لزراعة والى التهوض برافق البلاد الاقتصادية .

ففي الزراعة عنى أنضض وحصيلو الرأي من خلفائه بضبط مياه النيل وحسن تصرفها وما يتطلبه ذلك من كرمي الترع القديمة واتشاء ترع جديدة والمحافظة على الجسور فلا عجب ان استرابون بعدتنا بأنه قبل الفتح الروماني كان يمين ارتفاع منسوب مياه النيل الى ١٤ ذولما لاتناج محمولو وغيره في حين ان بلوغ منسوب المياه ثلثي اذرع كان يؤدي الى حدوث مجاعة . اما بعد الفتح الروماني فقد أصبح ارتفاع منسوب المياه الى اثني عشر ذراعا كافيا لاتناج

وقد اهتم الرومان كذلك بتجارة مصر
 الخارجية فراجت رواجيا كبيرا ولا سيما بعد
 تطهير البحر الأبيض المتوسط من القرصاة
 ونشر نفوذ الرومان على شواطئ البحر
 الأحمر واصلاح الآبار الواقعة على الطريق
 الصحراوية التي تربط النيل بالبحر الأحمر
 وفتح طرق جديدة لهذا الغرض واقامة
 العمائم على جوانب هذه الطرق لاستقبال
 الأمن في تلك الجهات .

٢ - النقود :

لما كان أبسط وخلفاؤه قد حرصوا
 على ابقاء مصر وحدة سياسية واقتصادية
 منزهة عن باقى الامبراطورية الرومانية فاهم
 اصنوا المصر عملة خاصة بها لم يكن لها
 أية قيمة خارجية ولم يسموها بتداول العملة
 الرومانية البرونزية والفضية فيها وان كانوا
 فيما يبدو قد سمحوا بتداول العملة
 الرومانية الذهبية لكن لها كانت الأدلة على
 التعامل في مصر بهذه العملة قليلة لانه يبدو
 ان تداولها هناك كان محدودا جدا ، وهكذا
 اخرجت مصر بوضع لم يكن له مثيل في أى
 ولاية رومانية أخرى ، على الولايات القريبة
 نعمت العملة الرومانية سريعا الوسيلة
 الوحيدة لتعامل في الولايات الشرقية رغم
 انه كانت تلك محطيا عملة برونزية (وفي
 قبرصه وانطاكية بعض فئات العملة الفضية)
 فان الناس كانوا دائما يتداولون فئات العملة

لكن من السير في ضوء معلوماتنا العالية
 اعطاء صورة كاملة صحيحة عن مدى حرية
 النشاط الاقتصادي في الصناعة . وتسير
 التران التي ان الاسكندرية عدت مركزا
 صناعيا كبيرا لكنها لم تغرد بالنبات
 الصناعي فكانت توجد مراكز صناعية في
 مختلفه أنحاء البلاد مثل اوسينوى (الفيوم)
 وأوكسيرينطوس (البنسة) وبانوبوليس
 (اخميم) وطيبة . ومن المرجح ان القرايطس
 احتفظت على الأقل ببعض ما كان لها من
 الأهمية الصناعية القديمة . وتعدنا البرديات
 عما كان هناك نشاط صناعي في قرية
 نبتويس باليوم ويرجع اليها لم تنرد دون
 غيرها من قرى مصر بشئ هذا النشاط .
 نذكر البرديات ان أهل نبتويس كانوا
 يشتغلون بنسج الأقمشة وصباغتها وصبغ
 الزيت والجمعة والعلى والأدوات المنديية .

وكانت صناعة الزجاج من أرقى
 الصناعات المصرية حتى انه ليترى في مصر
 ابتكار فن تشكيل الزجاج بالنفخ حوالي
 بداية العصر المسيحي ، ويحتمل ان مصر
 كانت تنتج صناعة المكعبات الزجاجية
 الصغيرة اللازمة للمسيحيين ، وكانت مصر
 تذكر كذلك صناعة الورق وتنتج منه
 أصنافا عديدة راقية . واشتهرت مصر أيضا
 بنسجها الكتانية الدقيقة وصناعة
 العطور والمساحيق والأدوية والصابون
 والنكوس المصنوعة من الصمغ أو الذهب .

أخذت قيمة العملة ذات الأربع دراخمتان في الهبوط باسمرار ، وأسرت حتى هذا الهبوط في النصف الثاني من القرن الثالث التي حد من وزن هذه العملة أصبح لا يزيد الا قليلا على نصف وزن مثيلاتها في عهد تيبيريوس فضلا عن انه لم يند فيها من الفضة الا قدر طفيف جدا ينقص كثيرا مما كان عليه في الماضي . وقد صعب هبوط قيمة هذه العملة على العملة البرونزية سرعها وسك عملات من الرصاص باسم المديرات المختلفة حلت محل العملة البرونزية ، وتشير الوثائق البردية الى أنه قد صعب هبوط العملة كذلك ارتفاع الأسعار والأجور أيضا لكن الأجور لم ترتفع بالمعدل ذاته مما كان له دون شك أثر في طبق الناس بعالمهم .

٣ - المصارف المالية :

كان يوجد مصرف رئيسي عام في الاسكندرية ومصرف مركزي عام في عاصمة كل مديرية ، وكانت هذه المصارف الصاعدة تؤدي مهمتي استئلام أموال الدولة وصرفها ، وكان يقوم على ادارة كل مصرف مواطن من اثراء عاصمة المديرية كانت تعرض عليه هيئة ادارة المصرف مدعة معينة . ولحدتنا الوثائق عن ثلاثة أنواع أخرى من المصارف فتطلق على أولها اسم مصارف التجميع (krematistjke vespeza) ، ويبدو انها كانت تباشر مهمتي مكاتب التسجيل والمصارف المالية . وتطلق الوثائق على النوع

الرومانية الفضية والبرونزية . ولما لم تكن للعملة التي تسك في مصر قيمة خارجها وكانت روما تحصل على جانب من الجزية المصرية تسعدا فلا بد من ان روما كانت تحصل على هذه الجزية النقدية من ارضها صادوات مصر الخارجية ومن ثم كانت الجزية الرومية والجزية النقدية للقيان هباتا كبيرا على موارد مصر .

وقد كان الرومان يسكون العملة المصرية في الاسكندرية وتشير الإبلدة الى انه لم تصدر عن دار السكة في هذه المدينة أي عملة فضية أو ذهبية في العصر الروماني . ففي عهد أغسطس كانت تسك فئات مختلفة من العملة البرونزية ومع ذلك كان يطلق على العملة ذات الأربع دراخمتان عملة فضية من باب العاد بقتل .

وفي عام ٢٠/٢٩ ميلادية قرر تيبيريوس انه تسك الاسكندرية عملة ذات أربع دراخمتان من مزيج يتألف من البرونز والفضة بنسبة ٣ : ٦ وان تستمر الاسكندرية في سك الفئسات الصغرى من العملة البرونزية . وقد بقي معمولا بالنظام الذي وضعه تيبيريوس حتى عام ٢٩٦ مع تعديلات طفيفة في نسبة مزيج القطع ذات الأربع دراخمتان وكذلك في شكل العملة فقد كان على نمط طرز العملة البيزنطية حتى عصر فمبسيانوس عندما أخذت تسك على نمط العملة الرومانية . ومنذ أواخر القرن الثاني

استناد الحكومة القوية العاصدة الى نظرية فاسدة كان لا بد من أن يجعلها على مر الأيام أشد خطرا على البلاد وأكثر ضررا من حكومة أقل منها قوة ومقدرة . فقد كان الرومان لا يفسون من وراء سياستهم الاقتصادية للإمبراطور مصر إلا غرضا واحدا وهو استغلالها لمنفعتهم الخاصة . وإذا كانت آراء بعض الأباطرة قد تفاوتت عن آراء البعض الآخر فإن ذلك التفاوت لم يكن في المبدأ نفسه وإنما في مقدار ذلك الاستغلال ، إذ بينما كانت الحكمة تسلي على بعضهم تجنب تكليف البلاد ما يزيد على طاقتها لا شفقة بالبلاد أو أهلها بل شفقة بأنفسهم كيلا يجهن معين البلاد لرى أن البعض الآخر قد ضرب بذلك الحكمة عرض العالط وراح يبتز كل ما تملك البلاد . وحسبنا انه حتى في عهد أغسطس كاتب الجزية النوعية أربعة أسئلة ما كان البطلمة الأوائل يجبرونه . ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد كان هناك فاروق آخر هام بين البطلمة والرومان وهو أن معظم ما كان البطلمة يبتزونه من مصر كان يبقى فيها أما معظم ما كان الرومان يستنزفونه من مصر ، حينما كان لهم عهدا ، فإنه كان يتقل الى روما وينصرف مصر كالية .

ويبدو بآونة وهفة ان التحول الأول من حكم الرومان (من أغسطس الى آخر حكم نيرون من ٣٠ ق . م . - ٦٨ م) حصل في ملياته رخاءا عميما . لكن اذا دققنا النظر

الثانى اسم مصارف استبدال النقود (Kollybistike trapaze) ويبدو ان مهمتها الأولى كانت استبدال النقود المصرية بأى عملة أجنبية ترد من الخارج . أما النوع الثالث فيسمى المصارف الخاصة (idiotike trapaze) ، ويبين انهما كانت تستمد رؤوس أموالها من الأفراد وتؤدي مختلفه أنواع الأعمال المصرفية ، ولم يقتصر نطاقها على عمليات الأفراد فحسب بل كان يشمل أيضا عمليات حكومية .

ويستفسد بعض الباحثين ان الحكومة كانت تتحكم كافة الأعمال المصرفية وتؤجر ادارة المصارف الخاصة لمن يتقدم بأكثر عطاء لقاء ذلك لكن المعلومات التي لدينا حتى الآن لا تسمح بتأييد هذا الرأي أو نفيه . وان كان يبدو مقولوا ومحتلا .

ومما يجدر بالملاحظة ان المعاهد لم تقطع عما مرحت عليه منذ أقدم العصور من مباشرة أعمال شبيهة بالأعمال المصرفية مثل اقراض النقود واستلام الودائع . وفي مجتمع زراعى مثل مصر الرومانية كان مناه مخازن العبوب (store) كذلك يؤدون مهمة المصارف الخاصة .

٤ - حالة البلاد الاقتصادية

لقد كانت النتيجة الطيبة لتأييد حكومة قوية قديرة لا تنقصها النزاهة مكان حكومة عاجزة فاسدة ازدياد الرخاء على الفور لكن

وجدنا ان ذلك الرشاء كان من نصيب روما
 قيل كل شيء ومن نصيب الاسكندرية الى
 حد . اما مصر ذاتها فقد كانت بقرة الحلوب
 التي درت ثلث الغيرات حتى أخذت تظهر
 بواصر اضمحلالها ، اذ ان كل نظام الحكومة
 كان يوجه الى غاية واحدة هي تمكين الدولة
 من استياد الفلاح في خدمتها وإبزاز أموال
 دافعي الضرائب . ورتينا القواعد المثابة التي
 كان الايديولوجوس يصر على تسيبها
 (Anaximandros Idion Logos) والقوانين العاسية
 بتأجير الأراضي أو جباية الضرائب كسفة
 حرص الحكومة على مطالبة مزارعيها بأعلى
 الايظارات دون أن يمينها في قتل أو كثير ان
 كان لم يتبن لهم بعد ذلك الاقل القليل لواء
 كل جهنم المسمى الفاق ، ولا غرو فقد
 كان شعار كل رجال الحكومة مراعاة صوالج
 العزابة العامة دون أي اعتبار آخر . ونبتنا
 الموثائق بأنه في عصر تييريوس (١٤٦ — ٣٣٧)
 كان المزارعون يهربون من ضريبة الرأس
 والسفرة ويمتحنون في الأملال والمستنزمات
 حتى ان بعض القرى هجرت باكملها تقريبا .
 وتعدنا بردية من عهد ليرون (٤٤٦ — ٤٦٨)
 بأن سكان ست قرى من قرى اليوم قد
 نفس عندهم شمسا تشديدا . ورتينا بردية من
 هذا العهد أيضا بأن المبع لم يهبط كأهل
 دافعي الضرائب فقط بل جلب معها أيضا ما
 حدا بالجباة الى أن يجاروا بالنسكوى من
 سوء الحال والا اضطرروا تحت ضغط عجزهم

المالي الى عدم القيام بتحصيل الضرائب .
 وتتجاوب أسداه هذه الحال فيما كتبه
 الفيلسوف اليهودي فيلون الذي عاصر
 الامبراطورين كاليجولا (٣٧ — ٤١))
 وكلاوديوس (٤١ — ٥٤) فهو يعدنا عن قرى
 باكملها بل بلاد القبرت من سكانها بسبب
 شدة وطاة الضرائب ، وعن الزوج في السجن
 بالزوجات والأطفال والتشكيل يوم للإرشاد عن
 الأماكن التي آوى اليها الهاريون من تسديده
 الضرائب ، وروى كيف ان جباة الضرائب
 كانوا لا يتورعون حتى عن الاستيلاء على جثث
 الموتى الذين لم يؤدوا ما عليهم من ضرائب
 لارهام ذويهم على سداد المسأخرات .
 وتعدنا وثيقة من حوالي عام ٦٩ م عن ارقام
 الناس على الضمد بالتزام جباية الضرائب
 وعلى استنجاز الأراضي المسامة وعن
 العيون ، الذين وجدوا مرثما خصبا في
 التبليغ عن المتصرين من الوفاء بالتزاماتهم
 للايديولوجوس وعن مزارعين في مختلف
 أنحاء البلاد أرهقتهم ضرائب جديدة فم
 مفروعة . وقد غاء الأهالي أيضا بسبب امداد
 العاميات الرومانية بما كانت تحتساج اليه
 وامداد رجال الادارة بعاجاتهم ثا النساء
 لنفلاتهم عن مكان الى آخر وذلك فضلا عن
 سلسلة من انضرائب الثقيلة المرهقة .

ولما خلال القرن الثاني من حكم
 الرومان (من جلبا الى آخر حكم ماركوس
 أورليوس أي من ٦٨ — ١٨٠) عن الأباطرة

المستيريون بعدم ايهاط كاهن مصر فاتعمقت حالها الاقتصادية بعض الوقت لكن بما انهم لم يعملوا على استئصال شأقة العناء باصلاح نظام الحكم اصلاحا جوهريا فان الحال تم تلبث ان عادت الى سيرتها الاولى . ومنسند منتملم هذه الفترة بدأت تظهر البوادر التي قدن على ان ثروة انبلاد كانت آخذة في التدهور . ولا ادل على ذلك التدهور من التوسع في تطبيق مبدأ الاثزام (Leliourgia) . وقد كان البطالمة عادة يعهدون في جباية الضرائب الى ملتزمين يتقدمون طوعاوية الاشتراك في مزايدات تعقد لكل ضريبة على حدة ، وكان المزارعون يفيلون عن مليل خاطر على استئجار اراضي الملك ، اما في اوقات الازمات فان البطالمة لم يعجموا عن ارغام الأشخاص اللاتين على تولي الوظائف أو التزام الضرائب أو استئجار اراضي الملك . غير ان الشجاء البطالمة الى وسيلة الارغام لم يكن القاعدة السائدة ولم يحدث الا في ظروف استثنائية . واذا كان الرومان قد اقتفوا اثر النظام البطلي تول الامر فانهم لم يلبسوا ان طرحوه جابسا وشذوا يشمون بالسديريج في حلال الفرن الاول مبدأ « الازام » وتوسعوا في اتباع هذا المبدأ توسعا كبيرا في حلال الفرن الثاني .

وزينا الوثائق البردية انه عندما تدهورت حال البلاد الاقتصادية وكان المتفكرون

بالثزام الضرائب لا يتقدمون بعطاءات مرتفعة كالتي كانوا يقدمون بها في أيام الرخاء كانت الحكومة اما فرغمهم على التعاقد معها بالشروط القديسة أو تجبي الضرائب مباشرة عن طريق جباة تعيينهم في مناصبهم قسرا . ويبدو ان الامر لم يستدع الاثزام في حالة الوظائف الكبرى مثل وظيفتي القائد والكتائب الملكي لكن الحال كانت مختلفة في كل الوظائف الحكومية الصغرى فقد كان يشترط فبين يتولى كل وظيفسة سن هذه الوظائف لصاب مالي معين وكلما طلت وظيفسة في احدى القرى أو عوامس المديرات كان على كاتب القرية أو كاتب الجماعة أن يرسل الى القائد قائمه بأسماء للأشخاص اللاتين لتتولى الوظيفة الشاغرة ، أو ببارة أخرى أسماء الأشخاص الذين تتوافر فيهم شروط تولي الوظيفة ولا يعنى اهماؤهم من تواجبا . وبعد ان يبحث القائد قائمه الأسماء كان يرسلها الى حاكم القسم (epistates) الذي تقع المديرية في نطاقه ويختار الحاكم بالسرعة الشخص الذي يتولى الوظيفة الشاغرة . وكان على هذا الشخص أن يتحمل المنصب الذي احتير له مدة تتراوح بين عام واحد وثلاثة أعوام . ويرجح أن أولئك للموظفين كانوا يتفاوضون أجرا الا انه لم يكن كافيا لمواجهة ما تتطلبه وظائفهم من نفقات . وقصلا عن ذلك فانهم كانوا مسئولين بأعمالهم بل بأشخاصهم عن كل

ما يحدث من خصير أو عجز أو خسارة مالية للحكومة . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك القضاء على طبقة الفلاحين الموسرين .

ولكى تتبين لماذا نام الموسرون بمقام مناصب حكام عواصم المديرات وأخذوا يهربون من توليها كلما استحسنت حظرات فإزمة الاقتصادية يجب أن نذكر بعض هذه القديم . فى حالة مدير الجينازيوم مثلا كان عليه أن يتصل لمن ما يحتاج اليه الجينازيوم من الزيت لتدليكك الذين يمارسون الرياضة هناك وكذلك لمن الوقود اللازم للاستخدام وقد كلف الهند الأخير وحده أحد مديري الجينازيوم فى خياله العام الذى تولى فيه منصبه ٢٠٠٠٠ دولاره . وكان على مرطب التموين أن يتصل للقات صيانة طواحين الحبوب والمخابز فضلا عن أى عجز فى امداد عاصمته يحتاجها من الحبوب .

وتحدثنا احمدى البرديات عن ان مراقبا سابقا للتموين ترك دينا قدره ٢٠٨٠٠٠ دولاره ٤ مئتا للتمنع ٤ الذى اشتراه عندما كان يتولى منصبه . ونفسلا عن ذلك كان ينظر من حكام العواصم او على الاقل كبارهم مواجهة أى نفقات تتطلبها احتياجاته منهم حتى ولو لم تتصل مباشرة بهمام أعمالهم إذ نعرف مثلا ان كبار حكام ارسيوى كانوا يسهون شهريا فى دفع نفقات فلياته التى تحتاجها المدينة . ولا أدل

على قتل أبناء هذه المناصب مما تحدثنا به الوثائق عن المحاولات التى بذلها شخص يدعى اخيلوس (Achilleos) لكنى لا يتولى فى عام ١٩٢٠ منصب مرطب التلميم فى هرموبوليس لأن حالته المالية كانت لا تساعد على مواجهة تكاليفها . ويبدو ان تكاليف هذا المنصب كانت باهظة جدا لأن اخيلوس طلب اعفائه من تولى هذا المنصب مع استعادته لتولى منصبه ١٠٠٠٠٠٠٠٠ دولاره على الا يتبقى أكثر من ١٢٠٠٠٠ دولاره على أبناء هذا المنصب لكن محاولات اخيلوس ذهبت ادراج الرياح و ٤٤٤ فى منصبه . وتدل الوثائق على ان أبناء وظيفة مدير الجينازيوم كانت أقل من أبناء وظيفة مرطب التلميم فقد كانت تبلغ فى هرموبوليس بعد الاقتصاد الفاسد فى الانفقات ٢٤٠٠٠٠ دولاره . فلا يجب ان ازددت بطرفة صعوبة الحصول على مرطب لتولى هذه المناصب طوية مسا أخشى بما لذلك الى الالتجاء الى الارغام لشغل هذه المناصب وان كانت الحكومة قد حرصت باستمرار على الاحتفاظ بظاهر التطوع للخدمة وعلى استدال ستار كتيب حول مناوراتها لارغام ذوى اليسار على شغل هذه المناصب . واذا كانت أبناء المناصب الادارية الضرى قد قضت على طبقة الفلاحين الموسرين فإن أبناء مناصب حكام عواصم المديرات قد قضت كذلك

ذلك انه عندما توسعت الحكومة في الاتجاه الى الارغام لتأجير اراضيها أصبح يحضر على الأفراد الحصول على مستأجرين لأراضيهم فاضطروا الى انقاص اجارها بما لتقص الاقبال على استئجارها .

وليس تاريخ مصر الاقتصادية خلال القرن الثالث من حكم الرومان (من كومودوس الى أول حكم هيلديبانوس أي من ١٨٠ - ٢٨٤) سوى سلسلة متصلة الطقات لاضمحلال مستمر يسر من سيء الى أسوأ بسبب ازدياد عبء الضرائب والنوسخ في تطبيق مبدأ الازام في مختلف النواحي ، مع احوال نظام الري غلوازه حال الزراعة سوءا واصبح صلبهم غير مثير حتى ان كثيرين منهم لم يجدوا مناسبا من أن يخلوا ما فعله غيرهم من قبل أي الفرار من مواطنهم مضطحين اما العمل في المادن أجراء أو تكسب قوتهم من السطو والنهب ، ومن ثم تركت ساحات واسعة من الأراضي دون زرع ، مما حدا بالامبراطور كركلا الى أن يصدر في عام ٢١٥ . قرارا يلغى بطلب الزراع من الاسكندرية ليجهروا الى الأرض التي هجروها . ولما كانه هذا القرار قد أصبح في تحقيق الهدف الذي أسدره من أجله فلا بد من أن يكون قد ترتب عليه ارتفاع أجور الصال وتكاليف الانتاج في الاسكندرية . وعلى كل حال نستبعد أن يكون قد نتج طويلا في وقت تبار الهجرة الى الاسكندرية،

على طبقة المرسين في تلك العواصم . ولا أدن على ذلك من أن كثيرين منهم كانوا يقرضون الصرار من مواطنهم لانه وان كان فرادهم سيؤدي الى مصادرة أملاكهم فقد كان سببها على بقائهم وتولى مناصبهم تحصل نتائجها هذه المتعصب فضلا عن تكاليفها التي كانت تستنفذ تلك الإملاك .

ولقد امتد الارغام الى تأجير الأراضي كذلك لانه بقدر ما قامت حال الزراعة واه الأهالي بظلم الأمهات المفروضة عليهم حتى فر الكثيرون منهم من غراهم ، ازدهات تبما لذلك مساحة أراضي الدولة التي لم يتقدم أحد لاستئجارها ودراحتها . ومع ذلك استبقت الحكومة الضرائب والايضايات بانسداد القديم ذاته وأخذت تلجأ الى وسيلتين ، واحداها ارغام احدى القرى على زراعة الأراضي غير المتأجرة الموجودة في قرية مجاورة واعتبار القرية الأولى بأجسها مسئولة عن زراعة تلك الأراضي وفتح ايجارها . اما الوسيلة الأخرى فكانت عبارة عن الحاق قطع من أراضي الدولة بالأراضي الخاصة وارغام أصحاب هذه الأراضي على زراعة تلك القطع وتأييد ايجارها . وفي هذه الحالة كانت المسئولية اول الأمر مسئولية فردية لكنها نعدت مع الزمن مسئولية جماعية . وترتبا الوثائق ان ايجار أراضي الأفراد هبط هبوطا كبيرا في النصف الثاني من القرن الثاني . ولعل تسمير

تحظير ذلك ، فرفض القرويون الاستجابة الى ما أمروا به ورفضوا شكواهم الى الحاكم انعام فظفر بالقضية في النصف الأول من عام ٢٥٠ . وعندما حاول محاسن ارسينوى الدفع عن تصرفها بقوله : ان القانون الذي يتدرج القرويون بمعانيه قد صدر عندهما كانت المدن لا تزال تنعم بالرخاء ، رد عليه الحاكم انعام « ان حجة الرخاء ، أو على الاصح تدهوره ، قائمة بالنسبة للفري والمدن سواء سواء » ، مما يدل على ان الأزمة الاقتصادية كانت عامة شاملة ، ولا أدل على تدهور مراعق البلجوا الاقتصادية بوجه عام من تدهور قبضة العملة سريعا في خلال هذا القرن ، فكانت لذلك أيضا آثار بعيدة المدى في الصناعة والتجارة الخارجية فقد صحبه غلاء المعيشة واستبدال نظام الاقتصاد الطبيعي تدريجيا بالتبوء . وإذا كانت قد بذلت بعض المحاولات في أواخر القرن الثالث على عهد الامبراطور پروبوس (٢٧٩ - ٢٨٣) لاسلاح وسائل الري مما أدى الى انتعاش كثير من القرى فان هسفا الانتعاش كان محدودا قصير الأمد ولم يطلع في وقت ثبات التدهور يدلل انه قد جاء في خطاب رومس من حوالي عام ٢٨٩ ان منصب « مراقب التسمين » في اوكتوبرينغوس بقى شاغرا فترة طويلة تبين ذلك التاريخ . فلا عجب اذن أن نصب معين اليملاذ بسبب السياسة الخرقاء التي اتبعها الرومان في

قد كان يساعد على هذه العجزة عاملان رئيسيان وأحدهما حاجة المراكز الصناعية بوجه عام والاسكندرية بوجه خاص الى اليد العاملة ، والمامل الآخر شطط المعيشة وتقل الأعباء وسوء الحال في المناطق الريفية حيث كان يزيد الحال سوءا على سوء ان الحكومة كانت لا تنضم فيمة الضرائب المطلوبة من مختلف لواحي البلاد حتى بعد فرار الأهالي وكانت نتيجة ذلك أن أخذت قبضة الضرائب تزداد على من بقوا في بلادهم بنسبة الذين كانوا يفرّون منها وان أمنت الحكومة في الانتحاء الى سلاح الأرقام لزراعة الأراضي المهجورة ، ولعل أكبر العبد كان يقع على التاسعين الذين كانوا ملهسون على الأشراف على جباية الضرائب في قرانم ، ان الحكومة كانت تستولى على ممتلكاتهم حتى سدد الضرائب جيبهما ، وليس أبلغ في الدلالة على تصور سوء الحالة الاقتصادية في خلال القرن الثالث من الفرائض المنهدة على اقطار الريف من مكانه ، وما تحدثنا به الوثائق عن فرار المكلفين بتولى المناصب الحكومية المحلية أو تهديدهم بالفرار وعن الصعوبة المتزايدة في شغل المناصب البلدية الى حد ان السلطات في ارسينوى عندما عجزت عن ايجاد المرشحين اللازمين من مواطنيها لتشغل المناصب البلدية هناك لجأت الى ايجاد القرويين على ذلك ورغم القانون الذي كان سيثيوس سغروس قد أصدره

ويبدو ان مساهمة الصيد في النشاط الصناعي كان مقصورا على المدن الاغريقية وخاصة الاسكندرية ، لكن ليس معنى ذلك أن الصناعة في تلك المدن لم تتم الا على اكتاف المييد وانما معناها ان العبيد اشعروا مع الأحرار في الصناعة هناك . اما في المراكز الصناعية الأخرى فبيدهم وبوجه عام انه لم يوجد للعبيد مجال فبما بسبب وفرة اليد العاملة وقلة أجرها وفراغتها المتوازية بفنون الصناعة . وبين ان عددا كبيرا من المييد كانوا يشتغلون طبعا في المنازل وكنيسة ومحاسين في المسامح والمناجر وراقصين وموسيقيين في الفسوق التي كانت تجذب البلاد للترفيه عن الناس في الأعياد والاحتفالات العامة .

وكان العبيد يعامل معاملة صباغة من حيث الضرائب وأعمال الصخرة في تطهير القنوات وصيانة الجسور . ولا توجد لدينا أدلة كثيرة عن تجارة المييد في مصر وان كانت الوثائق تشير الى وجود تجارة نشيطة فيهم والى أن الحكومة كانت تشترط اشرافا دقيقا على تصديرهم وفرض ضمانات معينة على الذين يغالطون تلميذاتها . وكانت قيمة العبيد متفاوتة تفاوتا كبيرا تبعا لعدد وصفاته ومهارته وكذلك تبعا لنوعه ذكرنا ان أم أنثى .

خلال الثلاثة القرون الأولى من حكمهم معا حلت بالامبراطور دقلديانوس الى ادخال تبدلات جديدة على نظام الحكم في مصر .

واستكمالا للصورة التي حاولنا اعطاءها لعالة مصر الاقتصادية في خلال مصر الروماني يجب ان نذكر شيئا عن العبيد وتشير القرائن الى أن لسياسة العبيد في الزراعة كان قليلا نسبيا ويكاد أن يكون مقصورا على الفبايع الكبيرة وحتى في هذه الفبايع لم يستخدم العبيد على نطاق واسع . وكيف يمكن تشير ذلك في ضوء ما تحدثنا به الوثائق عن فرار الأهلالي من الأرض وترك مساحات واسعة غير منزوعة ؟ او بمعنى آخر لماذا لم يلجأ الناس أو الحكومة الى المييد لاستثمار الأرض التي هجرها المزارعون الأحرار ؟ لعل خير تفسير لذلك ان الناس كانوا يفضلون إضافة تبعات جديدة الى بجانهم دون الحصول على ما يوضحهم من ذلك ، وان الحكومة كانت تفضل الالتجاء الى سلاح الارغام لاستثمار تلك الأراضي ضمن ناحية كانت هذه الوسيلة اقل كلفة وأكثر ربحا وأضمن عاقبة من استخدام العبيد ، ومن ناحية أخرى لعل الحكومة كان يرادها الأمل في أن يؤمى المستغلان الهارين من الزيادة التبعات على ذريتهم الذين تقوا في قرولهم الى وقف فرار المزارعين .

التصنيف الخامس

النظام المالي

تولا - الإدارة المالية :

كان الحاكم العام يرأس الإدارة المالية في مصر مثل ما كان يرأس كافة فروع الإدارة الأخرى ولم يكن من اختصاصه تحديد مقدار الجزية التي تدفعها مصر فقد كان من اختصاص الإمبراطور الذي كان يقرر سنويا مقدار الدخل ويصدر أوامر بالحصوله عن كيفية جمعه وكانت هذه الأوامر توجه إلى الحاكم العام فيبلغها إلى فواد المديرين وسائر الموظفين في المدن والقرى ، ويسير على تنفيذها . لكن لما كان الحاكم العام مسئولاً أخيراً الأمر عن جمع الضرائب وموافاة روما بنصيبها وكانت نظراً لحولها فوق طاقة البشر تؤثر في المحصول وتستتج نقص الضرائب فإنه أوكل إلى الحاكم ربط الضرائب في كل منطقة وتمديها بما تقتضيات الأحوال على ضوء التقارير التي كانت ترشح إليه من الموظفين ، وكان للحاكم العام مساعدان رئيسيان في الشؤون المالية وهما الديوبونيكيتس والايديولوجوس اللذان يديران جلياً أهما ودناً لقيهما من عصر البطالمة وإن كان قد مرأ على اختصاصاتهما بعض التغيير

الذي اقتضاه تغير الظروف . ففي عصر البطالمة كان الديوبونيكيتس على رأس الإدارة المالية وكان الأيديولوجوس مرءوسه المختص بجماب معين من الشؤون المالية . أما في عهد الرومان فقد انتقلت سلطة الديوبونيكيتس إلى الحاكم العام والحط مركزه إلى المرتبة الثانية ويرجح أنه أصبح مسئولاً للايديولوجوس في مرتبته وإن كان يتصرف بتحديد الصلة بينهما ومعرفة مدى اختصاص كل منهما لكن يبدو أن الديوبونيكيتس كان الرئيس الفعلي للإدارة المالية وإن الأيديولوجوس كان يختص بالمسئول في قضايا الخزنة العامة ، وبإدارة الأراضي التي آلت إلى الخزنة العامة وكذلك بالإشراف على أراضي المعابد ودخلها ، ولكن يتاح له الاضطلاع بهذه المهمة الصغيرة كان يعمل قلب كبير كمنة مصر ، وعلى كل حال ليس من الإشراف في الرأي لفتنار الديوبونيكيتس والايديولوجوس يستشاري الحاكم الفنين في الشؤون المالية ولا يبعد أهما كانا يرتبان تصرفاته مرعاة لمصالح الإمبراطور . وكان هذان الموظفان يشرفان على عهد كبير من المرءوسين الذين كانوا ينتشرون في مختلف

وكانوا يفتخرون بالبيانات المتعلقة بمساحة
الأرض وحدودها وانتقال ملكيتها أو تغيير
غلتها من أجل تقدير الضرائب على الأرض .
وتحدثتسا الوثائق عن اشتراك الموظفين
الأخريين في لجساز يبدو انها كانت تعرف
سمنوبا من السكان المحليين لبحث حالة
الأراضي بيد الفيضان وتصدر الضريبة
لمستحق عليها .

وقد ذكرنا آفا انه بعد انشاء مجالس
الشرى في عواصم المديرية انتقل الى
كل مجلس من هذه المجالس المسئولية عن
الفتور المالية في المديرية بأجمعها .

ثانيا - هدف التنظيم الثاني :

وتختلف التواعد التي اقام عليها الرومان
نظامهم المالي في مصر اختلافا جوهريا عن
التواعد التي اقامها البطالمة وذلك لسدة
اسباب اهمها اولاً ان البطالمة كانوا
يستهدفون بناء دولة قوية فبسة في مصر
لكفى تقسما بنفسها وتستطيع النهوض من
حياض استقلالها السياسي والانتصاهي
فكانوا يريدون ملء خزائهم لتنظيم أهداف
سياستهم ومسد تكاليف حكومتهم وفتحات
تصودهم وبما لذلك كانوا يفتخون في مصر
كثير ما يحصونه منها . اما على عهد الرومان
فان مصر عمت جزءا من امبراطورية تحكم
من روما وكان الأباطرة يستهدفون تحسوة
مركزهم وتقوية الامبراطورية وملء خزائن

أنحاء البلاد لكتهم يقعون على اتصال مباشر
بالادارة المالية المركزية في الاسكندرية ،
وإذا كان من الممكن تبيين مهام بعض هؤلاء
المهوسين مثل پروكوراتور (procurator)
نيابوليس وكان يشرف على نقل الفصح من
داخل البلاد الى المخزن العام على مقربة من
الاسكندرية بواسطة لوجنة الى روما ، ومثل
المروكباتور او سبباكوس (procurator
valeus) ، وكان المسبباكوس الأول
للإيدولوجوس في الاضطلاع بمهام منصبه ،
فانه يتدبر معرفة لخصائص البطن الأخر
من هؤلاء المهوسين .

وقد سهبت الاشارة الى أن فائد كل
مديرية كان مسئولاً عن تقدير الضرائب
وجمعها وانزال لراضى الحكومة
واحتكاراتها في مديريته والى انه كان لكل
مديرية يومارغبان كانا يشرفان على تقدير
وجمع مختلفه الضرائب في المديرية . وكانت
الادارة المالية المركزية في الاسكندرية هي
التي تصدر ضوات الضرائب المختلفة التي تجبى
من كل مكان وشخص في مصر على ضوء
البيانات التي يقدمها كاتب القرية والكاتب
الملكي في المديرية ويراجعها النودمارغيسان
والقائد بعد أن يحصها عدد من عمال المالية
المحليين مثل الـ epistates والـ isographos
وكانا يختصان ببحث حالة الأشخاص الذين
نرض عليهم ضريبة الرأس والـ zometres
والـ zetiodesbetes والـ episkepes .

روما بعد أن نضب مبعثها من جراء الحروب الأهلية وتدهور حالة إيطاليا الاقتصادية. بوجه عام والزراعة بصفة خاصة فعملوا على استغلال مصر إلى أقصى حد ونقل جانب كبير من ثروتها إلى روما لتعقيق تلك الأهداف. والسبب الثاني من البطالة كانوا يشهدون جانباً كبيراً من دخلهم من الحرف والصناعات الكثيرة التي احتكروها وكذلك من المكسب والمساكن الجبركية التي فرضوها على الثوار. أما الرومان فكانوا يريدون إرضاء الطبقات الاجتماعية الجديدة في إيطاليا من أصحاب رؤوس الأموال الذين كانوا يستغلون ثروتهم في الصناعة والتجارة ويتنقلون إلى استغلال السوق المصرية. فلا عجب أن النظام المالي الذي وضعه الرومان لمصر لم يكن إلا أداة لاستثمار ثروة البلاد بطريقة أو أخرى، وأنه لم يكن من شأن التعديلات التي أدخلت على تطبيق هذا النظام إلا جعله أشد فتكاً وضراً وكلمة إزدادت البلاد فقراً.

الثالث - نظام الأراضي

ولكن لتبين موارد الدولة من الزراعة يجب أن نأتي أولاً على نظام الأراضي. ولا يقل نظام الأراضي في عهد الرومان تطيداً عنه في عهد البطالة. وإن كان قد احتفظ ببعض مظاهر النظام القديم فإنه قضى على بعضها الآخر وأدخلت عليه مظاهر جديدة.

وكل ما يمكننا استنتاجه من آكداس الوثائق عن هذا النظام يتلخص في تقسيم الأراضي على النحو التالي في ضوء معلوماتنا الحالية :

١ - أراضي الدولة ، وكانت تتألف من فئتين من الأراضي أحدهما « الأراضي الملكية » التي كانت فيما سبق ملكاً للبطالة وأصبحت منذ الفتح الروماني أرضاً أميرية تملكها الدولة. وكانت اللفظة الأخرى عبارة عن الأراضي التي انتزع الأباطرة ملكيتها من المصانيد ومن بعض أرباب الاقطاع المكسرة ومن بعض الرومان أصحاب انطويوس. وقد كان يباع جانب من هذه اللفظة من الأرض ويعرض عليه من الضرائب ما كان يفرضه على أراضي أرباب الاقطاع وغيرها من أراضي الامتلاك الخاص لكنه كان يحتفظ بالجانب الأكبر من هذه اللفظة من الأرض ويطلق عليه اسم « الأراضي العامة » (ager publicus) . وكان الديمويكس يشرف على إدارة « الأراضي الملكية » والاديبولوجوس على إدارة « الأراضي العامة » وكان هذان المرعسان يجران هذه الأراضي إلى مستأجرين إما يقومون بأنفسهم على استغلالها أو يجرؤونها من البائل. وقرناً كثيراً من عقود الأيجار فيها كانت لمدة خمس سنوات. وكان مزارع « الأراضي الملكية » يدفع « المزارعين الملكيين » ومزارعو « الأراضي العامة » يدفعون « المزارعين الصوميين » إلا أنه برور

الزمن والت الفوارق بين الترفيعين وأصبح
اللقب الثاني يطلق على جميع مزارعي هذه
الأراضي كافة . وقد كان يحق للدولة طرد
المستأجر في أي وقت تشاء ولأى سبب تراه .
وإذا لم يتقدم أحد لاستئجار بعض هذه
الأراضي كانت الحكومة تلجأ اليه وسيلة من
التبني واحدهما أوغرام الصدي القرني على
زراعة الأراضي غير المستأجرة الموجودة في
قرية مجاورة وتعتبر القرية الأولى بأجمعها
مسئولة عن زراعة تلك الأراضي ودفع
إيجارها وضرائبها . أما الوسيلة الأخرى
فكانت عبارة عن الحضان قطع من أراضي
الدولة بالأراضي الغاصة وإرقام أصحاب
هذه الأراضي على زراعة تلك القطع وتادئة
إيجارها وضرائبها .

٢ - أملاك الأباطرة الغاصة ،
Agrorum Res ، وكانت تتكون من الأراضي
التي كان البطائقة قد أخذوها على أصحاب
المخطوطة لديهم وانتزعتها أثناء القرن الأول
منهم ، ويرجع اليهم احتضنوا بعضها ومنحوا
البعض الآخر نفلر من كبار الرومان ، وقد
كان بعض من تمتعوا بهذه امتيج أفراد من
أسرة الإمبراطور مثل دروسوس وزوجته ،
وأستدلاء الإمبراطور مثل ميكتامس ، وتراد
من الأسرة المالكة في جودابا ، وكذلك بعض
أعيان الاسكندرية . وقد كانت هذه
الأراضي المنوحة في اغلب الأحيان معفاة من
المضرائب .

ومنذ النصف الثاني من القرن الأول
الميلادي أخذ الأباطرة يتردون أغلب تلك
المح لأتيم رأوا ان في منح نبيلاء الرومان
هبات واسعة ما يساعد على تقوية شوكتهم
ويجعلهم في مركز يهدد سلطان الإمبراطور
بل قد يصل بهم الى حد التنطع الي العرش ،
كسأ رموا بوجه عام ان منح الأراضي
لأشخاص يشعرون اميدا معها يؤدي الى
اهمال الأرض وقصص لغتها فلم يأت عهد
تيوس حتى كان أغلب هذه الأراضي - ان
لم يكن كلفاستد عاد الى حوزة الإمبراطور .
وقد اتبع الأباطرة سياسة جديدة منح مائة
من المزارعين حق استئصال تلك الأراضي لمدة
طويلة . وكانوا يرمون سن وراء ذلك الى
تعيق غرضين : واحدهما ، ايجاد طبقة من
المزارعين المومنين تسد اليهم أساسا ،
والأخر ، الاقطنان الى حسن استئصال
الأراضي وما ينبسج ذلك من ازدياد دخل
الحكومة .

٣ - أراضي الامتلاك الخاص (Adules)
Agrorum Res وكانت تتكون من عدة مئات
١ - الاقطاعات العسكرية التي لم تنتزع
مطسكينها ولا يعرف بعهد الأساس الذي
اتبع في نزع أو تسيب ملكية أراضي أرباب
الاقطاعات . وكل ما نعرفه هو ان جابا من
هذه الأراضي حتى في قبضة أشخاص مختلفين
كان امتلاك تلك الأراضي يطميم عن الاعفاء
من الخدمة في الجيش الروماني ومن ضريبة

في عهد أغسطس ، انتزع ملكية جميع أراضي
المبايد وأصبحت جزءاً من «الأراضي العامة»
وإذا كان لا شك في أن ملكية جانب كبير من
أراضي المبايد قد انتزع ، فإن الأرجح أن
أغلب ما انتزع ملكيته كان من الأراضي التي
منحها البطالمة للأواخر للمبايد وكان المكنته
أعضهم يقومون بإدارتها ، أما الأراضي
المقدسة القديمة فقد بقيت ملكاً للمبايد إلا
أن الحكومة هي التي كانت تتولى إدارتها
على نحو ما كانت عليه الحال في النسطر الأول
من عصر البطالمة ، لكنه سمح للمكنته بزيادة
جزء من الأراضي المقدسة لسد حاجات
المبايد ، وكانت الحكومة تجبي ضرائب
محددة من هذا النوع من الأرض في حين
أن ذلك الجزء من أراضي المبايد الذي انتزع
ملكته كان يؤجر مثل غيره من أراضي الدولة
وإن تحصل الحكومة منه الأعلى الأيجار .

٥ - أراضي الدخل *procedou* ويمكن
ارجاع نشأة هذه الفئة من الأراضي إلى
منتصف القرن الأول على الأقل لكن ماهيتها
مازالت مثار الجدل بين الباحثين . ومع ذلك
يبدو محتملاً أنها كانت أرض آلت على التاج
ملكيتها أما مؤقتاً أو دائماً لسبب أو لآخر
وكانت تؤجر مثل أراضي الدولة وإنما لفاء
ببعض مرتفع جداً .

٦ - أراضي المدن ، ويرجح أن هذه
الأراضي كانت تتكون من الأراضي التي كان
يمتلكها مواطنو تلك المدن وآلت إلى مدهم

الرأس ومن الأرواح على استقلال الأراضي
الملكيتة أو العامة المجاورة لهم إذا لم يتقدم
أحد لاستئجارها . وكان عليهم عند انتقال
ملكيتة ما يدهم من أرض أن يدفعوا ضريبة
خاصة (*hereditas*) ، وكان أرباب هذه
الأراضي يؤدون الضرائب التي فرضت عليها
منذ عهد البطالمة .

ب - الاتصافات التي منح لصفراء
المحاربين الرومان .

ج - الضبياح التي كان الأباطرة
في بعض الأحيان يشترونها من أراضي الدولة
ويمنحونها لبعض الأفراد مع احتفاظ الدولة
بحق اسمي ملكيتها . وبسبب تحديد كمية
سماطة هذه الضبياح من حيث الضرائب لكن
يرجع أنها لم تدفع جميعها للضرائب بمعدل
واحد وإن هذا المعدل كان يتوقف على
شروط المنحة في كل حالة .

د - جانب من الأراضي التي انتزع
الدولة ملكيتها وباعها .

ويبدو أن نطاق أراضي الامتلاك الخاص
قد اتسع تدريجياً ولا سيما في القرنين الثاني
والثالث . ولعل توسع الحكومة في إلزام
الأهالي بتولي المناصب قد شجع هذا الاتجاه
إذ كان يشجع على الذين يتولون المناصب أن
تكون لديهم ثلثات خاصة إذا أريد تحصيلهم
تبعاً عدم النهوض بالالتزامات مناصبهم .

٥ - أراضي المبايد ، يرى بعض
المؤرخين أن بيرونوس ، ثالث حكام مصر

الباشين يرى انه من الجائز ان حسنة الاراضى او يفسها كانت جمع خارج العياض وتروى ربا دائما

ومن اجل ذلك كله كان كاتب القرية مكلفا باعداد سجل يكافئ انواع الاراضى التى فى زمام قريته وبموقع كل نوع منها ومساحته واربابه ومتدار استحقاق الحكومة من ايجارات او طرلاب من كل قطعة ارض فى منطقتة وكذلك باعداد تقرير سنوى عن مصاصيل تلك الاراضى وعما كان يطرأ على حالها من تضييع . وكان المسجل يراجع سنويا ليعمله مطابقا للواقع ، وتوجد امثلة كثيرة لالتباسات قدمها اصحاب الاراضى او مستأجروها يصفون فيها حالة اراضيهم ويطلبون تضييع الايجار او الطرلاب بسببها . وفي الظروف غير العادية مثل تأخر الفيضان عن موعدة او هبوطه دون منسوبه العادى كان الحاكم العام يصدر تعليمات لتقديم مثل هذه الالتماسات وكانت توجه للقائد او الكاتب الملكى او كاتب القرية . وكان كاتب القرية او ضوفا يقومون بحث اولى يقدم على اثره كاتب القرية تقريرا عن حالة ارضى تربيته والطرلاب او الايجارات المستحقة من كل جزء منها . وكان حسنة التقرير يتخذ اساسا للفحص الذى تقوم به لجنة تشكل لهذا الغرض وتستخدم لكاتب القرية تقريرا بنتائج عمله فىقوم بتعديل سجله وفقا لهذا التقرير ويبلغ النتيجة للقائد

بسبب اقتراض لسل اصحابها او تركهم اياها هبة لتلك المدن والقرى ، وفى القرن الثانى كانت مدينة الاسكندرية تملك ارضا قرب قرية بوهرا فى الفيوم ، وفى القرن الثالث كانت كسل من مدينتى ارسينوى وهرموبوليس ماجتا تملك ارضا ، وكانت هذه المدن تاجر اراضيها وتعتبر مسئولة عن الضرائب المستحقة عليها امام حكومة المديرية التى توجد فيها الاراضى شأها فى ذلك شأن الاقراء الذين يتكون ارضى ويؤجرها .

وقد كان شكل الدولة من الاراضى يتألف من ايجار اراضيها ومن الطرلاب التى كانت تخرطها على انواع الاراضى الاخرى وبعض الطرلاب التى كانت تخرطها على اراضيها ، وكانت الطرلاب التى تخرطها الدولة على الاراضى تتوقف على نوع المزروعات ومتدار جودة الارض وحالة فيضان النيل . ولذلك كانت الاراضى تقسم قسمين رئيسيين واحدهما ارضى البساتين والاخر الاراضى الروابية . وكان القسم الاخير ينقسم أيضا قسمين احدهما الاراضى التى تضرها المياه والاخر الاراضى التى لا تضرها المياه . ولا جدال فى ان الاراضى التى تضرها المياه كانت عبارة عن الاراضى التى تتسحق فى العياض وتغطيها مياه الفيضان . اما القسم الاخر فاعلم الظن انه كان عبارة عن ارضى تقع فى العياض ولكنها مرتفعة فلا تصلها المياه اذا كان منسوب الفيضان وانحسا ، لكن بعض

والكتاب الملكي لتصحيح قوائم الضرائب
والإيجارات .

وبين من الفرائن المختلفة ان كاتب
القرية كان يمتد على جهوده الشخصية
لجعل سجلاته مطابقة للواقع من حيث
التغيرات في ملكية الأراضي أو استئجارها
أو مستأجرها .

وكانت أهم ضرائب الأراضي هي ضريبة
العبور وكانت تجبي نوعاً من كل ما يزرع
جوداً من أراضي الامتلاك الخاص وأراضي
الهدن والأراضي المقدسة التي كان الكهنة
يقومون على استقلالها ، وكان دخل هذه
الضريبة يكون جانباً من جزية الفصح التي
كانت مصر تدفعها لروما . وكان دخل الدولة
من ايجار أراضيها يدفع أيضاً نوعاً ويكون
الجزء الباقي من الجزية . وكان معدل هذه
الضريبة يتراوح بين ثلاثة أرباع الأردب
وأردبين عن كل أورة تبعاً لحسنة الأرض
والنوع الذي تنسب اليه . وكان على ازرع
أن ينقلوا كل محصولهم الى جرن القرية
حيث يدوس تحت اشرافه موظفي الحكومة
وتسويح القرية وبعد حصول النولة على
استحقاقها من ضرائب أو ايجارات كان يطلق
سراج باقي المحصول لكن المزارعين كانوا
مسؤولين عن تسلم استحقاقات الدولة التي
المخزن المحلي للتصحيح تمهيداً لنقله الى
الاسكندرية ولا تنسب مسؤوليتهم الا بعد
حصولهم من أمين المخزن (Sitoiagos)

على اصال باستلام المستحق عليهم .

وكان قبل الفصح يتطلب جمالا وحميرا
لنقله من المزارع الى المخزن المحلي ثم من
المخزن الى قنوب مجرى مائي حيث كانت
تحمله سفن صغيرة الى النيل فتقوم بنقله
سفن كبيرة الى الاسكندرية . وكانت المونة
تملك بعض دواب الحمل لكن يبدو انها لم
تكف لسد الحاجة في وقت الحصول ولذلك
كانت السلطات المعنية تفرط على اصحاب
الجمال والحمير والسفن الصغيرة أن تضع
تحت تصرفها ما يكفيها من هذه الوسائل
لنقل الفصح الى النيل حيث كانت تتولى امر
شحنه ونقله منظمات الملاحين تحت اشراف
الحكومة التي كانت تلزمهم بذلك ويبدو ان
البيسود والاسكندريين كانوا يسمون في
هذه العملية . ولكن حين ضخامة هذمه
العملية حسينا أن نذكر انه في عام ٩٩ قبل
من أحد أقسام مديرية الفيوم ربع مليون
أردب من القمح ، وانه في عهد أغسطس كان
مقدار الجزية النوعية التي تدفعها مصر
مسنوياً يبلغ علمرين مليون (millia) ، أي
سنة ملايين أردب . وفي كل ربيع كانت
قائدات أرباب السفن في الاسكندرية تتولى
نقل هذه الجزية النوعية من الاسكندرية
الى روما . وليس من اليسر أن تسين على
وجه الدقة من الذي كان يتحمل نفقات نقل
الايجارات والضرائب النوعية من المزارع
حتى تصل الى روما لكن يبدو أن مستأجرى

الأراضي باستثناء الأراضي المروسة
بشجار الزيتون خاتما كانت تدفع ألف
دراخمة عن كل أورو.

وكانت تعرض على كافة أنواع الأراضي،
ما عدا الأراضي المقدسة فيما يبدو،

ضريبة (capitium) كاذ مقدارها لا يحدد
لما لنوع غلة الأرض وانما فيما لنوع
ملكيتها. وكان أرباب هذه الأراضي يؤدون
هذه الضريبة لقاء إعفائهم من العمل شخصيا
في السخرة على الجسور والقنوات، ووثقا
الوثائق انه في مدينة القيسوم كان أرباب
الاقطاعات يدفعون ١٥٠ دراخمة بروزية عن
كل أورو وبألى أرباب الأراضي الامتلاك
العاصي يدفعون ١٥٠ دراخمة بروزية عن
كل أورو لكن احدى وثائق أوكسيريخوس
من عام ١٠٧/١٠٨ ربما ان معدل هذه
الضريبة كان ٣٠٠ دراخمة عن كل أورو.

ويستوقم البقر ان يزرع الأراضي الملكية
كأولا يدفعون أيضا ١٥٠ دراخمة عن كل
أورو مما يوحي بأن هذه الفئة من المزارعين
كانت تعفى من السخرة تماما دفع هذه
الضريبة التي لم تكن بها الحكومة الرومانية
من أجل انهاء وسياحة الجسور والقنوات.
هذه كانت تعرض لهذا النرض أيضا ضريبة
χτισματα (chusmata) بمعدل ثابت قسمه
٦ درخيمات و ٤ أوبول على كل شخص غير
معت من الضرائب.

وزاء الصلة الوثيقة بين الزراعة

أراضي الدولة وأرباب الأراضي كانوا
يتحلون ثقات النقل حتى القبل على حين
كانت الحكومة تتحمل ثقات النقل من
الموانئ النيلية حتى المخزون الرئيسي عند
الإسكندرية ومن هناك الى روما.

وكان الذين يدفعون ارضهم بسائين أو
كروما أو تينا أو بلجا أو زيتونا يدفعون
لنفسه من الضرائب تدفع تماما. وكانت
احدى هذه الضرائب (geometria) تدفع
في اليوم بمعدل ٥٠ دراخمة عن كل أورو
من أراضي الكروم و ٣٥ دراخمة عن كل
أورو من باقى أنواع أراضي البساتين.
لكن هذا المعدل لم يكن واحدا في كل مكان
ولا على كل نوع من أنواع الأراضي التي
تدفع هذه الضريبة. وكانت أراضي البساتين
تدفع ضريبة أخرى (epetolae) لا تعرف
شيئا عن معدلها في مصر العليا لكننا نعرف
انه كان في اليوم ٣٠٠٠ دراخمة بروزية عن
كل أورو من أراضي الكروم و ١٥٠٠
دراخمة عن كل أورو من باقى أنواع أراضي
البساتين. وعندما كانت هذه الضريبة تجبي
بالعلة الفضية كان هذان المبلغان يطاولان على
النوالى عشر درخيمات وخمس درخيمات
فضية. وكانت تجبي عن كافة أراضي
البساتين سواء اكانت ملكا للدولة أم للأفراد
ضريبة ثلاثة (eparourion) بمعدل واحد
قدره ٢٠٠٠ دراخمة بروزية (أي ٦
دراخمة فضية) عن كل أورو من هذه

الاتحقيق هذا الهدف . ومن أجل ذلك كانوا يشعرون ثلاث وسائل فقد كانوا لما يحتكرون بعض الصناعات والعسرة احتكارا كاملا . أو يبيعون لأحد الأفرق حق احتكار مزولة صناعة أو حرفة ما في منطقة بعينها ، أو يسمون لمن يشاء مزولة صناعة أو حرفة بذاتها ويلتزمون عليهم أداء ضريبة عن مزولة صلح و دفع نسبة من أرباحهم . وفي الصالة الألفية كان لا بعدد عدد المستغلين في كل صناعة أو حرفة إلا عاملان كان أحدهما مقفلة كل منطقة على استجواب التاج أرباب الحرف والصناعات هناك . وكان العامل الآخر نقابات أرباب الحرف والصناعات فقد درجت نقابة أرباب كل حرفة أو صناعة على تحديد عدد المستغلين بهذه الحرفة أو الصنعة .

وما زال تنظيم الحرف والصناعات في مصر أيام الرومان منار جدل وعسلاف بين العلماء بسبب للة الأدلة ووسطهما بحيث يتمدر الوصول الى نتائج فاضحة في مسره معلوماتنا الحالية . واما كان يمكن القول بوجه عساف بأنه في العصر الروماني اهتمت الحكومة في تنظيم واستغلال الحسرف والصناعات الوسائل ذلها التي كانت متبعة من قبل في عصر البطالة فلا جدال في أنه قد طرأت بعض التغييرات على تلك الوسائل ، ولا في أن الحكومة نزلت عن عدد كبير من احتكاراتها الكاملة في عصر البطالة ، وقد أورد هابستهايم قائمتين بالاحتكارات الكاملة

والحيوان لمل هنا أنسب مكان للكلام عن موارد الحكومة من الحيوان في العصر الروماني . وقد مر بنا أن الدولة كانت تملك دوابا للحمل وليس في الوثائق ما يدل على أن الحكومة كانت تؤجر هذه الدواب للأفراد . وكانت الدولة تملك أيضا عددا كبيرا من الإغنام والماعز لتسير الأداة الى أن الحكومة كانت لأجرها لتستأجر أرضها لقاء أجر معين سنويا . وكذلك في التمرن الثالث عندما أخذت الضياع الكبيرة تنسج الملكيات الصغيرة وتلك الأجزاء من أرضي الدولة التي أصبح يتمدر استقلالها استقلالاً مترا كان أصحاب هذه الضياع يؤجرون أغنامهم ويميزهم لتستأجر أرضهم . وشيئ من الوثائق أن عاسة الأهالي كذلك كانوا يملكون الكثير من الحيوانات المسالسة وانه كان يتعين عليهم أن يقدموا مستويا للإدارة المالية في المديرية التي يعيشون فيها تقريرا عما يملكونه منها وإن الحكومة كانت تعفى ضرائب على الأغنام والماعز والغنسايز والجمال والبعوض والحمير والخيول بمعدل معين في كل مديرية عن كل رأس من كل نوع .

دبعا - الحرف والصناعات :

لما كان هدف البطالة هو أن يستمدوا من الصناعات والحسرف أكبر قدر ممكن من العسفل فانه لم يدل سياستهم في تنظيمها

في هذين المصربين ويتبين من هاتين القائمتين ان عدد هذه الاحتكارات كان تسعة عشر ■ عصر البطلمية وأحمد عشر ■ للمصر الروماني . وعلى كل حال فان فئة الأداة عن نظم الاحتكارات في مصر الروماني يوحى بتناقص أهميتها في هذا العصر .

وليس في الأداة ما يشير الفسك في أن الحكومة الرومانية المنفتحة اثر البطلمية في احتكار استغلال المناجم والمحاجر واستخراج الملح والصدودا (salvo) والقبه (sala) . ولدينا أدلة محدودة على أن الرومان كانوا كالبطلمية يفرضون ضريبة على المستهلكين لقاء حق شراء الملح ، ويبدو انه حينما كانت نجبي ضريبة لقاء استهلاك سلعة من السلع كانت الحكومة تحتكر صنع هذه السلعة أو استخراجها في تلك المنطقة . ويبدو أن صناعة الجعة في عصر البطلمية أخذت بالتدريج تشكل نظام يقوم على بيع حق التاجير للأفراد أو المعباد والمصرض ضريبة على المستهلكين ، وان هذا النظام ظل قائما في مصر الروماني وان كانت الدولة لم تعد تصنع الجعة بما كانوا يحتاجون اليه من الشعير على نحو ما كانت تفعل في عصر البطلمية .

وتوحى الأداة بأنه في مصر الروماني لم تعد الحكومة تحتكر صناعة الزيت احتكارا كاملا على نحو ما كانت تفعل ■ عصر البطلمية ، فكل ما لدينا من الأداة يشير الى أن معاصر الزيت كانت ملكا للأفراد

أو المعباد والى أن المنتجين بوجه عام كانوا يرمون بفرد تجار النجعة . ويرى بعض الباحثين ان سيطرة الحكومة على هذه الصناعة في القيوم كانت لا تتعدى التزام المنتج الذي يريد بيع زيته أن يحصل على ترخيص بذلك من التومارخ . والواقع اننا نعرف ان صاحب مصصرة زيت لما قرية هرقليا بالقيوم دفع لقاء حق البيع في عام واحمد ٨٠ دراخمة فضية و ٨٠ أوبول الى جاب بطي الرسوم الاعلالية . لكن الوثائق ترينا أيضا انه كانت نجبي أكثر من ضريبة واحدة على صناعة الزيت في القيوم وغيرها من أنحاء البلاد . واذا كما نعرف ان إحدى هذه الضرائب كانت نجبي عن الأدوات المستخدمة في استخراج الزيت فانه يتبادر معرفة ماحية المصير الآخر ، ولا يهد ان الحكومة كانت تبيع الاشتغال بصناعة الزيت لمن يشاء على أن يدفع على الأقل ضريبتين كانت احداهما ضريبة مزاوله هذه الصناعة وكانت الأخرى ضريبة على الانتاج ولقد عر على أساس الأدوات المستخدمة في ذلك ، هذا الى جانب ضريبة عن التخلص ببيع الأنتاج .

وتتسم الأداة الى أنه في بداية مصر الروماني كانت بعض مستنقعات الدلتا في حوزة الأفراد والى أنه في القيوم كانت بعض المستنقعات على الأقل تكون جزءا من ضيقة الامبراطورة يوليا أغسطس وورثة هرمانيكوس ويتبين من الوثائق ان الامبراطورة كانت

ترخيص لمزاولة المهنة لكنهم لا يتفقون على
 الأساس انذى كانت هذه الضريبة تربط
 بمقتضاها ولا على تفسير ما يبدو في الوثائق
 من تفاوت في قيمة هذه الضريبة من مديرية
 الى اخرى . ولما كانت اقمشة الفيوم تلعب
 دورا عاما في الصادرات الى البلاد الشرقية
 على حين انه لم يرد ذكر اقمشة المرجة القبلي
 في التجارة الخارجية فان أحد الباحثين
 لا يستبعد ان الاتاج من أجل التصدير فقط
 كان يدفع لرقابة المشراف على الأنوال وقد
 كنا نقل هذا الرأي لو أن المشراف على
 الأنوال لم يوجد الا في الفيوم وحدها لكننا
 وجدناه في الوجه القبلي كما مر بنا ذكره .
 ومن ناحية اخرى تبين من وثائق لم يتر عيناها
 في الفيوم فعصب بن أيضا في وكبير بنغوس
 وهم موبوئيس ان الحكومة كانت تفرض على
 المشتغلين بالصنوع في كل منطقة امدادها بقدر
 معين مما تحتاج اليه من ملابس لرجال انجيلس
 والمشرطة وغيرهم لقاء أجر معين ، مما يوحي
 بأن هيئة التبعة لم تحصلها الناسجون في
 مديرية بنيها فقط وإنما في كل أنحاء
 البلاد . واذا كان ما لدينا من أدلة لا يدع
 مجالاً للشك في انشغال الحكومة على صناعة
 النسيج واستغلالها استغلالاً كبيراً فان
 غموض الأدلة لا يدع مجالاً لتبين أمر
 تنظيمها الذي يبدو انه كان أكثر تعقيداً من
 صناعة الدباغة التي كانت تشمل بها اتصالاً
 وثيقاً ويبدو ان الحكومة كادت تباع لشخص

تبع منتجات هذه المستقعات عن طريق ملتزم
 كان يشتري منها حتى بيع هذه المنتجات وكان
 هذا الملتزم يبيع حقه لآخرين ، وان هذا
 انتظام ظل متبعاً بعد ان آلت ضريبة
 الامبراطورة الى التاج . وتبين من الوثائق
 أيضا ان الحكومة كانت تجبي ضريبة على
 الورق في الفيوم وفي الاسكندرية . ولا يبعد
 انه مثل ما كانت عليه الحال في العصر التالي
 من عصر البطالمة كانت توجد في مصر
 الرومانى مصانع حكومية وكذلك مصانع أهلية
 للورق وان هذه المصانع الأخيرة كانت تباع
 من الحكومة حتى مزاولها هذه الصناعة .

وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار
 في مصر لكن أمر تنظيمها يكتنفه غموض
 شديد وان كما نرى انه في الوجه القبلي
 كان المشراف على الأنوال (hisoonarch)
 يعطي للناسجين رخصين باقامة أنوائهم
 ومراوئهم عليهم ، ولذا شخصاً يدعى هرون
 قدم طلباً الى داسون والنسفة المشرطين
 الآخرين ، على تأجير احتسار الدباغة
 ليعصرون على حق الاشراف لمدة عام واحد
 على الأنوال في قرية ارخاليس (Archelais)
 بالفيوم لقاء أجر قدره ٤٠٠٠ دراسة نقدية
 تدفع على أساس شهرية متساوية التي جاب
 بعض الرسوم الإضافية . ونرى كذلك ان
 الناسجين سواء في الفيوم أم في مصر العليا
 كانوا يدفعون على اتصال شهرية ضريبة
 يميل أغلب المؤرخين الى اعتبارها ضريبة

كانت تسبح حق مزاوله الصيد في كل منطقة وكذلك كان الذين يستغلون بالملاحه في النيل يتأخرون من الحكومة حق مزاوله عملهم في منطقة معينة .

ولا يتسبح المقام هنا لتناول مختلف الصناعات والحرف ، ويبدو أن كل ما يمكن استغلاله من الأدلة هو أنه إذا كانت الحكومة الرومانية قد ارتت عن كثير من الاحتكارات التي كانت قائمة في عهد البطالقة فالها قد احتفظت ببعض هذه الاحتكارات وظلت على كل حال قابضة على لاصبة مزاوله الحرف والصناعات المختلفة الى حد انه كان لا يتيسر لأحد مزاوله أي حرفة أو صناعة الا بترخيص من الحكومة اما لقاء نسبة من الأرباح أو الدخل أو لقاء أجر ثابت ، وفي بعض الحالات لقاء الاثنين معا . وكانت الحكومة اما تعطى الترخيص مباشرة للذين يزولون بالتصميم أي حرفة أو صناعة أو تلجر حق مزاوله صناعة أو حرفة ما أي بعبارة أخرى حتى احتكار تلك الصناعة أو الحرفة في مدينة أو قرية لشخص واحد أو جماعة من الأشخاص لقاء ما كانت تحصل عليه لو أنها منحت الترخيص لأفراد مختلفين في ذلك المكان . وكان هؤلاء المستأخرون اما يباشرون بأنفسهم حق مزاوله الحرفة أو الصناعة أو يجبرون ذلك الحق من الياض . وجسلة القول ان كل من كان يزاول أي حرفة أو صناعة كان يدفع عنها للحكومة

واحد أو اكثر حق الاشتغال بها في منطقته بينما . ويلوح ان ذلك كان الحال أيضا في صناعات الأجر والحلي الذهبية والقطر والمساحق . فالوثائق تعددت عن عهد شخص بأن يدفع للحكومة ثمانية دراهمة فضية الى جانب بعض الرسوم الاضافية بتلغير عن صنع ويسع لأجر لمدة سنة في كركتوريس (Berkbeveler) بالتيسوم مع السماح له باعطاء هذا الحق لأخرين ، وعن رجلين كانا يدلمان للحكومة ٣٦٤ دراهمة فضية سنويا نظير صناعة الحلي الفضية في برجمبريا (Brugheria) بالتيسوم لمدة أربع سنوات ، وعن رجلين يسمى كاستور كان قد اشترى من الحكومة لصله العمة حق يسبح العطور وصنع المساحق في القلم تيمستس بالتيسوم لتقدم اليه رجلين يسمى سدايرون ليشتري منه ربع هذا الحق باستثناء حق البيع له آباء الصوف والأعياد .

وكان الصناعات العامة في الوجه البحري ملكا للأهالي أو البلديات أما في الوجه القبلي فتحت ملكها الحكومة أو تسطر عليها المعاهد . وفي الوجه البحري كان أصحاب الحمامات يدفعون للحكومة ضريبة قدرها ثلث الأرباح أو ثلث الدخل أما في الوجه القبلي فكان الأهالي يدفعون ضريبة ثابتة لمواجهة نفقات الحمامات العامة وصيانتها .

والأدلة الخاصة بصيد الأسماك معصورة على منطقة القوم ويتبين منها ان الحكومة

الغرب ، لكننا نسيل الى الاعتقاد ان الحال استمرت طوال العصر الروماني على ما كانت عليه ايام استرابون . وذلك لان مصر بفضل غنى مواردها الطبيعية لم تقتصر الا على الاخشاب الجيدة والمعادن وتبعاً لذلك اقتضت وارداتها من الغرب بوجه عام على هذه المواد فضلاً عن بعض أدوات التزلف

أما صادرات مصر الى بلاد البحر الأبيض المتوسط فانها كانت تشمل الى جانب السلع الشرقية مفاهيم مختلفة من منتجاتها الصناعية مثل الورق والزجاج والمنسوجات والمقايير ، ومن منتجاتها الزراعية مثل الزهور والبلبع فضلاً عن العمام والملابس من أجل تقديم القرابين وكذلك التماسيح وعجول البحر وغيرها من الحيوانات المائية من أجل الاستعراضات . ويحتمل ان مصر كانت تصدر كذلك جانباً من حبوبها علاوة على الجزية السنوية التي كانت روما تقتطعها منها .

ويجب ألا يفترنا ان الجزيرة الثرية والمالية كانت تلتقي على موارد البلاد عينا قليلاً كانه لا بد من ان يؤدي سريعاً الى لضرب حين البلاد لو لم يمض الى حد بدنة وسائل كافي في مقدمتها زيادة الصادرات على الواردات والمكوس البحرية وأرباح تجار الاسكندرية من التجارة الشرقية وثقات السياح الذين كانوا ينفدون بكثرة لمشاهدة معالم البلاد والاستمتاع بطقسها وكذلك خفقت الطلاب

ضريبة واحدة أو أكثر وحتى الذين كانوا ينلمون الحرف والصناعات كانوا يدفعون هذه الضريبة بمجرد بلوغهم سن الرشد وكان كل الذين يزولون متلعة أو حرفة من الصناعات والحرف الرئيسية يؤثرون نقابة سواء أكانوا رجالاً ام نساء وكانت انتماء تؤدي الضرائب المفروضة على أعضاء النقابة اسوة بالرجال .

خاصة التجارة

١٤ التجارة الخارجية

نظير الدلائل الى ان الاسكندرية خدت في العصر الروماني اهم مركز تجاري في شرق البحر الأبيض المتوسط . ولما كان الرومان قد ألفوا المكوس البحرية عندهم وكانوا يريدون تيسير التجارة بين مصر والامبراطورية الرومانية بوجه عام وروما بوجه خاص فلا يبعد أن يكونوا على الأقل خلفوا المكوس البحرية المادحة التي كان البطالمة يرضونها على الواردات الأجنبية من بلاد البحر الأبيض المتوسط . ويحدثنا استرابون بأن السفن كانت تبحر من مصر الى روما مكتظة بالبطائح والمسيود اليها غاية الوطاش أو بشحنات قليلة . وإذا كنا لا نملك في سعة رواية استرابون عن الوقت الذي كتب فيه أي في بداية العصر الروماني فانه ازاء قلة الأدلة يتعذر علينا أن نقرر على وجه اليقين اذا كانت الحال قد استمرت على هذا النواله بمسند ذلك ولم توجد الواردات من

المكوس الجبركية كانت تتفاوت تبعا لتبعية السلع المستوردة . لكن من الجائز أن يكون هذا النظام قد تغير بعد عهد أغسطس الذي كتب فيه استرابون فأحد مصادرنا القديمة الذي يرجع قطعا إلى تاريخ متأخر عن منتصف القرن الأول الميلادي يحدثنا بأن الجاهلية الرومانية في ليوكي كومي (Leuke Kome) كانت تجبي على الواردات سكوسا جبركية ثابتة قدرها ٢٥٪ من قيمتها . وقد أثير جدل كبير حول هذه المكوس التي كانت تجبي في ليوكي كومي لكنه لم يثر من الاعتراضات الجدية ما يدعو إلى التفسكك في جباية هذه المكوس المرتفعة هناك . ومنح أنه لا توجد أدلة مباشرة عن المكوس الجبركية التي كانت تجبي في الموانئ المصرية الواقعة على شاطئ البحر الأحمر ، إلا أنه في ضوء الرسوم الجبركية التي فرضها الرومان في ليوكي كومي لا يبعد أن يكون الرومان قد استبدلوا بالنظام البطلمي الذي كان يفرض سكوسا جبركية متزايدة على السلع المختلفة وكان لا يزال قائما فيما يبدو أيام استرابون ، نظاما قوامه فرض مكوس جبركية ثابتة قدرها ٢٥٪ على مختلف السلع الشرقية الواردة إلى الموانئ المصرية . وعلى كل حال لا جدال في أن الرومان كانوا يجبون في الموانئ المصرية سكوسا جبركية على التجارة الشرقية ، فالوثائق تحدثنا بأنه في عهد الإمبراطور كلاوديوس كان حق التزام هذه

الذين كانوا يأتون لتسليح المسلم في الإسكندرية ، فضلا عن تعاقب جيش الاحتلال والإداة الحكومية وقيامه المنشآت العامة . وبفضل قلة تكاليف المعيشة وبالتالي قلة تكاليف الإنتاج استطاعت منتجات مصر الصناعية والزراعية أن تنافس منتجات عالم البحر الأبيض المتوسط . ولذا تركنا الجدية جانباً ليدل أن الميزان التجاري كان في صالح مصر .

وروى استرابون أيضا أن الإسكندرية كانت تحتكر التجارة مع الهند وبلاد الصومال . ومن المرجح أن جابا كبيرا من التجارة بين الإمبراطورية الرومانية والبلاد الشرقية كان يمر بمصر . ويحدثنا بلينيوس بأن التجارة مع الصين والهند وبلاد العرب كانت تستنزف مستويا من الإمبراطورية الرومانية قسرا لغير طلب من ذهبها وفضتها ، ومن الجائز أن المبلغ الذي ذكره بلينيوس لا يمثل ثمن كل الواردات الشرقية لأنه وفقا لهذا الكاتب لعمد كانت مصر تصفّر مسوحاتها الكتالية لقاء وارداتها الشرقية . ويثبت من مصادر أخرى أن مقادير الصادرات إلى الشرق كانت كبيرة . ويحدثنا استرابون بأنه كانت تجبي مكوس جبركية على السلع الواردة إلى مصر من الشرق والصادرة إليه وبأن أمن الشحنات القادمة من الهند والحبشة وأعلى السلع ثما كانت تدفع أكثر المكوس الجبركية ارتفاعا مما يوحى بأن فئات

المكوس يباع لجماعات من الملتزمين الرومان .
 وإذا كان من الميسر معرفة قسبة هذه المكوس
 التجريبية فإنه من الجائز أن المكوس الجبركية
 على الواردات الشرقية كانت أعلى منها على
 الصادرات إلى الشرق تشجيما لهذه
 الصادرات لكي ينقص نيمًا لذلك التعجز في
 الميزان التجاري بين الإمبراطورية الرومانية
 والبلاد الغربية . ويحدثنا بلينيوس بأن
 السلع الشرقية كانت لا تصل إلى روما إلا بعد
 أن يتضاعف ثمنها مائة مرة مما يوحى بارتفاع
 المكوس الجبركية في مصر - طرفها الرئيسي
 إلى روما - وضخامة أرباح تجار
 الإسكندرية الذين كانوا يقومون بتدوير
 رئيسي في هذه التجارة .

ومن المصور أن تبين في ضوء معلوماتنا
 الحالية النظام الذي كان متبعًا في صادرات
 مصر ووارداتها في العصر الروماني أو إلى أي
 مدى كانت الحكومة تفرغها على تجارة مصر
 الخارجية لكن من المرجح أن كل من كان
 يشتغل في هذه التجارة كان يدفع للحكومة
 ضريبة أو أجرا لقاء الترخيص له بذلك أسوة
 بما كان متبعًا في التجارة الداخلية .

١٥١ التنقيب في المناطق :

وتبين من الوثائق أنه كان يتعين على كل
 من يبيع أي سلعة أن يحصل من الحكومة
 على ترخيص بذلك وأن يدفع للحكومة مبلغًا
 معينًا كل شهر أو كل سنة . ومن المصور أن

تبين أساس تقدير هذا المبلغ لأنه كان يتفاوت
 في المكان الواحد تبعًا لنوع السلعة كما كان
 يتفاوت كذلك من مكان إلى آخر عن السلعة
 الواحدة . ومثل ذلك أنه كان يتعين على كل
 من يبيع الزيت في أرمسينوى أن يدفع
 للحكومة ثمانين دراهمًا شهريًا على حين
 زري أنه في أوكسيرنخوس كل الدجرايموه
 لا يدفع إلا ست دراهمات في العام لقاء حق
 بيع الزيت . وقد سلفت الإشارة إلى الرجل
 الذي تعهد بدفع ٨٠ دراهمة فعبة و ٨٠
 أوبول في العام لقاء حق بيع الزيت بالتجزئه
 في قرية حرفليا بالصيوم . وهكذا زري أنه إذا
 كانت الحكومة أحيانًا تسمح لمن يقام الاتجار
 في الزيت بأن يحصل ذلك ما دام يدفع لها
 ضريبة الترخيص بذلك كانت أحيانًا أخرى
 تسمح لشخص واحد باحتكار البيع في منطقة
 معينة . وكانت الحكومة تمنح حق بيع الملح
 في كل منطقة لمن يتقدم لها بأجبر لقاء
 الحصول على هذا الحق .

وكان ياتمو الضفرووات في مسجد فريه
 سوكندرايوسوس (Soknopaiou Nesos)
 بالصيوم يدفعون ٦٢ دراهمة على حين يبدو أن
 ياتمو الضفرووات في قرية تبنوليس بالصيوم
 أيضًا كانوا يدفعون ثمانين دراهمًا وثمانية
 أوبولات . ونلاحظ أن تجار الساحق في
 أرمسينوى كانوا يدفعون الضريبة أحيانًا
 بمعدل ٣٦ دراهمة شهريًا وأحيانًا أخرى
 بمعدل ٦٠ دراهمة بل أنه في الشهر الذي

كانوا يدفعون فيه ٣٦ دراخمة كان شخص آخر يدفع ثمانى دراخمات فقط على حين كان المعدل في أوكتوبريخوس ٤٠ دراخمة . ونجد انه بينما كان بأثمن الجبة يدفعون ١٦ دراخمة شهريا كان أحد أوكتاك البائعين يدفع ثمانى دراخمات فقط . وفي بعض الحالات كان ترخيص الحكومة بإنتاج سلعة ما يشمل أيضا بيعها مثل الأجر والعلى الذهبية على نحو ما رأينا عند الكلام عن الصناعات والحرف .

ويبين من المصادر القديمة انه كان يوجد مركز عند سفديا لجباية العوائد على التجارة المتبادلة بين الاسكندرية وداخلية البلاد ، ومركز في منف لجباية العوائد على التجارة بين مصر الوسطى والدلتا ، ومركز في هرميوليس لجباية العوائد على التجارة بين مصر العليا ومصر الوسطى . ومعنى ذلك ان الرومان كانوا يجبون عوائد على التجارة المتبادلة بين الثلاثة الأقسام الرئيسية التي كانت البلاد تنقسم اليها وكذلك بين هذه الأقسام والاسكندرية باعتبارها وحدة منفصلة من هذه الأقسام .

ويبين أيضا من مصادرنا انه كانت تجبي كذلك عوائد عن تبادل السلع بين مديرية وأخرى . وإلى جانب ذلك كانت تحصل رسوم اضافية في بعض أنحاء البلاد لتحتجب لخراض مختلفة ، ففي الصيوم مثلا كانت تجبي رسوم لحراسة الطرق الصحراوية وفي منف

واسوان كانت تجبي رسوم لصيانة نيلها . أما في قبط فانه كانت تحصل رسوم على جوارات السفر من هذه المدينة وموانئ البحر الأحمر . وكانت هذه رسوم تتفاوت تبعا لحالة كل مسافر ، فقد كان قائد السفنة يدفع ٦٠ دراخمات والبجسار العادي ٥ دراخمات وبناء السفن ٥ دراخمات والصانع ٨ دراخمات والماهرة ١٠٨ دراخمة وزوجة الصدى ٣٠ دراخمة الخ .. فقد كان يتعين الحصول على ترخيص لمخادرة البلاد وفرض غرامات على الذين لا يحترمون هذه القواعد

سادسا - غراماتها شتى

والى جانب ما ذكرناه من الضرائب على الاراضى والحرف والصناعات والتجارة كانت الحكومة تجبي كذلك سلسلة من الضرائب المنطقية اذ يبدو ان الرومان لم يتركوا بابا دون ان يطبقوه زيادة دخل الحكومة . ويمكن ان نوجز ببعض هذه الضرائب فيما يلى :

١ - ضريبة الرأس (capitatio) وكانت أهم الضرائب التي تدفع للعدا ولطها لم تكن ضريبة استحدثتها أغسطس وإنما ترجع الى عصر البطانة عندما كانت تعرف باسم آخر (Syllagis) . ومن العاقل ان يكون أغسطس قد زاد معدلها وفرضها على أشخاص كانوا معين منها حتى عمده ، فأول وثيقة ورد فيها ذكر أداء هذه الضريبة في العصر الروماني ترجع الى عام ٢٢/٢١ ق م .. وقد كانت هذه الضريبة لا تدفع بمعدل واحد حتى في

الدينية وكذلك بعض موظفي الإدارة لمصلحة
مثل الكتاب الملكي وكتاب الاقليم وكتاب
القرية .

٢ - ضريبة التاج ، وتشير القرائن الى
زوال هذه الضريبة بعد منح حقوق المواطنة
الرومانية لكل سكان البلاد في عهد كركلا .
وترجع هذه الضريبة الى عهد البطالمة وتتمتع
بشأنها من تقديم هدية للملك نوعا أو تقدا
بمناسبة ارتفاعه العرش أو بمناسبة أخرى .
ويحتل أنه في أوائل عهد الرومان كانت هذه
الضريبة لا تجبي الا في مناسبات خاصة لكننا
تبين من الوثائق أنه منذ أواخر القرن الثاني
أصبحت هذه الضريبة تجبي سنويا بانتظام
حتى النصف الثاني من القرن الثالث عندما
أصبحت تجبي كل خمس سنوات . وقد
شهدت هذه الضريبة تطورا آخر وهو أنصا
على مر الزمن أصبحت تجبي من جميع أرباب
الأراضي بدلا من جبايتها من فريق معين منهم .
وقد عهد الامبراطور سطورس اسكندر
بوقت جباية هذه الضريبة لكن يبدو أنه لم
يلتزم أنه عدل عن ذلك لأن الوثائق تربطها
جبيت على الأقل مرتين في عهده بعد صدور
هذا الوعد .

٣ - ضريبة خامسة لاقامة تماثيل
للإلهة ، فمن حين لآخر كانت تجبي أيضا
ضريبة لاقامة تماثيل للامبراطور الحاكم في
مختلف المدن . وتبين من سلسلة من الوثائق
عثر عليها في أسوان أن هذه الضريبة جبت

المديرية الواحدة ولا في المدينة الواحدة فقد
اختلف هذا المعدل من حي الى آخر في مدينة
طبة . وفي الفيوم كان المصريون يدفعون
٤٠ دراهمة أما أفراد الفئات المتنازلة من
مواطني عواصم المديرية وسلالة أرباب
الاقطاعات فكانوا يدفعون ٣٠ دراهمة . على
حين يبدو أنه في مديرية أوكسيرينخوس
كان المصريون يدفعون ١٦ دراهمة والفئات
المتنازلة ١٢ دراهمة ، وأنه في مديرتي منيا
ومروبوليس كانت هذه الفئات تدفع ٨
دراهمات . وهكذا يتبين أولا ، أن هذه
الضريبة لم تفرض بمعدل واحد في كل أنحاء
البلاد سواه على المصريين أم على الفئات
المتنازلة ، وثانيا ، أن هذه الفئات لم تدفع
دائما نصف ما كان المصريون يدفعونه .
وثالثا ، أنه في بعض المديريات كانت الفئات
المتنازلة تدفع أكثر مما يدفعه المصريون . أما
المواطنون الرومان وعدد معين من كهنة كل
معبود ومواطنو الاسكندرية وفيما يبدو أيضا
مواطنو المدن الاخرى لانهم كانوا
يدفعون من تلك الضريبة التي كان لا يدفعها
الا المذكور الذين كان عمرهم يتراوح بين
الرابعة عشرة ومن الاعلاء . ويرجع أن هذه
السن كانت ١١١ ارسينوق الثاني لكن يبدو
أنها زيدت الى الخامسة والستين ثم السبعين
فيما يلوح . ويبدو أنه كان يفتى أيضا من
ضريبة الرتب أساتذة جامعة الاسكندرية
والرياضيون والقائضون في مباريات الضفلات

هناك في عامي ١٠٤ و ١١٤ لاقامة تماثيل
 لـتراجان، وفي عام ١٢٨ لاقامة تماثيل فيبا يندو
 لهادريان، وفي ١٤١ لاقامة تماثيل لانطولينوس
 ييوس، وفي عام ١٦٢ لاقامة تماثيل لكل من
 أوريليوس وقيروس وذلك عمدا جبايتها في
 الأصبوا ١٣١ و ١٣٩ و ١٤٤ لطلان، ومن
 تماثيل الإباطرة بالذهب. ولقد كان مقصد
 هذه الضريبة قليلا إذ أن أكثرها ارتفاها كان
 أربع دراهمات في عام ١٤١ وعشر دراهمات
 في عام ١٦٢ لكن مهما كان مقدارها قليلا
 فلا شك في أن تكرار جبايتها كان يلقى عبثا
 تقبلا على كاهل الأهالي الذي أبعثه كثرة
 الضرائب. وتسير القرائن إلى أنه كانت تجبي
 ضريبة مطابقة من أجل اقامة معابد للإباطرة.

٤ - وكان الرومان يفرضون ضريبة
 قدرها ٢٪ على كل ما يساع في الأسواق
 وكذلك ضريبة على بيع الممتلكات الناشئة
 يبدو أن مقدارها طوال القرنين الأول والثاني
 كان ١٠٪ من ثمن الضراء ثم زيدت في القرن
 الثالث، وكان الرومان يفرضون على
 الهوانت ضريبة قدرها ٢٪، أما ضريبة ٥٪
 التي كانت تجبي عن تحرير الأرقاء والتركات
 فإنها كان لا يدفعها إلا المواطنين الرومان ولم
 تتأثر بها مصر إلا عندما منيع كركلا حشموق
 المواطنة الرومانية لكل السكان ٣ مصر مع
 باقي سكان الامبراطورية.

٥ - مؤنة الجنود الرومان، ان معلوماتنا
 خفيفة عن الوسائل التي اتبها الرومان ٣

مصر حتى أواخر القرن الثاني من أجل توفير
 المؤونة اللازمة للعامة الرومانية لكن القرائن
 توحي بأن الحاكم العام كان يحدد سنويا
 كمية المحبوب التي يحتاج إليها كل معسكر
 ويفرض على بعض الزراع في كل مديرية
 تقديم تلك الكمية بسعر منخفض يعينه
 الحاكم العام. ولا بد من أن يكون الأهالي
 قد ضجوا بالشكوى من هذا النظام لأننا نجد
 أنه في عام ١٨٥ قد استبدلت به ضريبة
 سنوية (annona millibus) على أرباب الأراضي
 التي تزرع حبوبا. وكان الأهالي يتكلمون
 أيضا بأبواء الجنود الذين كانوا ينزلون بهم
 في أثناء انتقالهم من مكان إلى آخر، ويبدو
 أن الجنود كانوا يسيئون استغلال هذا الحق
 فقد وصل اليها عدد من الأوصار التي اضطرت
 الحكام إلى إصدارها لتضيق الجنود من
 اقتناء أموال أو خدمات من الأهالي دون
 الحصول على إذن خاص بذلك وليان أن
 حقهم كان مقصورا على إيوائهم فقط.

وكان يفرض على الأهالي أيضا توفير
 الحاجيات اللازمة للحاكم العام وصحبه عند
 طوافهم بأعزاء البلاد، وكذلك للإمبراطور
 وحاشيته عند زيارته مصر ونقله في أرجائها.
 وقد كان ذلك عبئا ليس هينا إذ تعددتنا اعلوى
 الوثائق بأنه بمناسبة زيارة الحاكم العام
 لهرمبوليس أدرجت أسسه ٥٣ شخصا
 لأعداد الاحتياجات اللازمة وكانت تتضمن
 خبزا ولحما وسككا وجواجن وثقالة ووقودا

فضلا عن علف دواب الحاشية و الحير اللازمة للاقتنالات المعوية . و اذا كان ذلك الشأن في حالة زيارة الحاكم العام فانه يمكن أن تنصور ما كان الأهالي يتكلفون تنديبه في حالة زيارة الامبراطور .

٦ - ويمكن اعتبار تسيير الأهالي للعمل في تظهير الترع وصيانة الجسور ضريبة ثييلة يسد أنه لم يصب من اوالها الا اليونانيون والاسكندرليون والفتات التي كانت ترفع قدا ضريبة السخرة (zabuton) . وكان نظام السخرة يختلف من مكان الى آخر اذ بينما كان يرض على الملاح في طيبة أن يشتغل في تظهير أو صيانة مساحة معينة تسمى zabuton كان يطلب منه في اليوم أن يشتغل عددا معينا من الأيام كان عادة خمسة أيام كل عام في الفترة الواقعة بين بداية يونية ومنتصف أغسطس . وكانت هناك ضرائب مطلية للخبز أو الشرطة ومواجهة للقات المشآت العامة مثل الحمامات والأسواق والمعابد وغير ذلك . هذا الى أنه من حين لأخر كانت تجبى ضرائب اضافية لسد المعجز في حصيلية بعض الضرائب التي كانت تجبى بانتظام . وفضلا عن ذلك كانت تفرض ضرائب على فطشات معينة من سكان البلاد لا تدفعها ثبات أخسرى مثل ضريبة اليعود وضريبة أبواب الاقتطاعات وضريبة الشرطة .

ومما يجدر بالملاحظة أنه في بداية العصر الروماني كان معدل الضرائب معتدلا لكن على

مر الزمن زيد معدل الضرائب وعمدها ولما لم يكن في وسع موارد مصر ولا غنات روما على شؤون الادارة والمشآت العامة سد كل المعجز الحاجم عن الجزية النوعية والنقدية التي كانت روما تستولى عليها فقد استتبع ذلك حتما خراب البلاد الاقتصادية .

سابعاً - نظام جباية الضرائب

يتم نظام الرومان الغربي في مصر بظاهرتين واحدهما انه باستثناء بسيط الضرائب لم يرض على كل انحاء البلاد دفع الضرائب ذاتها ولا بمعبار واحد فكانت أنواع الضرائب وكذلك مبادئها تختلف من مديرية الى أخرى .

والظاهرة الأخرى أنه لم يتبع نظام واحد في جباية الضرائب . فقد اتبع الرومان جباية الضرائب بطريق الالتزام حتى عصر ثييريوس عندما نسمح للمرة الأولى عن جباية موظفين (procuratores) الا أن هذا النظام الجديد لم يقض على سابقه بأكمله فقد ظلت بسيط الضرائب مثل الصوائد والمكوس التجارية وضريبة ٢ . على البيعات تجبى حتى أواخر القرن الثاني وفقا للنظام القديم .

وحتى نهاية القرن الثاني كان كاتب كل قرية يعد كفتها بأسماء أهلها الذين لديهم مصاب معين ويختار القائم من بينهم جباة كانوا يترددون عليهم لمدة ثلاث سنوات بعد أن يوافق حاكم القسم (epistates) على اختيارهم . وكان أولئك الجباة يعتبرون مسئولين عن أي عجز في حصيلية الضرائب المقررة على منطقة

كل منهم ولذلك كانوا يونانيون لا جمع
الضرائب نقاديا لحدوث هذا المعجز . ويحدثنا
فيلون بأن قرى بأكلهسا هجرت بسبب
ما أنزله جياة الضرائب من ارعاق أهلها .

وكان هؤلاء الجياة لا يتولون أمر ضريبة
العجوب إذ أنه حتى نهاية القرن الثاني كان
أمناء الخازن (sitotopos) هم الذين يتسلمون
هذه العجوب ، على حين يبدو أن مهمة جياة
العجوب (praktoroi sitikoi) كانت مقصورة

على جمع متأخرات هذه الضريبة .
أما في القرن الثالث فإن المؤلفين الذين كانوا
يدعون (dekaprotoi) هم الذين كانوا مسئولين
عن جمع هذه الضريبة ويتعدو علينا أن تبيّن
علاقتهم بأمناء الخازن وجياة العجوب .
وللتفرقة بين جياة العجوب والجياة الذين
كانوا يجبرون الضرائب النقدية أطلق على
القرى الأخير منذ عهد تراجان اسم جياة
المسائل (praktoroi syzyktika).

الفصل السادس

النظام القضائي

والآخر القريفي أصدر بطليموس التماسين يورجيس الثاني في عام ١١٨ ق . م . قرارا يقضي بأن لجنة المقدم موضوع الخلاف هي التي يجب أن يقرر بمزجها نوع الصالون الذي يطبق للفصل في هذا الخلاف . ولما نرفق إلى أي حد طبقت هذه التصاميم في مصر الروماني وإن كنا نعرف أن فاعسدة صائلة كانت تطبق على الأهل في قضايا الزواج وذلك أنه في حالة عقد زواج مصري بين طرفين أحدهما مصري والآخر افريقي كانت أحكام القانون المصري هي التي تطبق أما في حالة عقود الزواج الاغريقي فان أحكام القانون الاغريقي هي التي كانت تطبق .

وبطبيعة الحال ازاء ظهور عنصر جديد من السكان في مصر الروماني وهو عنصر المواطنين الرومان نطقت القوانين الروماني مصر لتطبيقه على أولئك المواطنين وصدرت بعض القوانين لتنظيم العلاقات الثانوية بين المواطنين الرومان وسكان مصر الذين كانوا أكثرهم في نظر الرومان أجانب (peregrini) ، وكذلك لبيان الاختصاصات القانونية التي أعطيت للحاكم العام وإعادة تنظيم الهيئات

لقد مر بنا أن الحالة احتفلوا للمصريين ، بقدر ما تسمح الظروف ، بقوانينهم التقليدية التي أطلق الاسبريق عليها اسم « قوانين البلاد » . وتشير القرائن إلى أن الرومان قد ابقوا على هذه القوانين بوجه عام ، إذ أنهم عدلوا بعضها مثل ما عدل البطالة أيضا بعضا آخر .

وقد عرفنا كذلك أن المرحق كلى مدينة افريقية وجسمية قومية كانوا يخطعون لمجموعة معينة من القوانين تعرف « بقوانين المواطنين » وانه من أجل النسب بين هذه المجموعات من القوائين وكذلك من أجل تنظيم معاملات الافريق الذين لم يتسوا إلى تلك المدن والجميات كان البطالة يصدر عن أوامر ملكية مختلفة الأنواع . وقد أبقى الرومان على بعض هذه الأوامر الملكية كما ابقوا على قوانين الاسكندرية وبطولييس وكذلك على قوانين قرطاجس التي طبقوها على الطينوثيونيس ، لسكنهم أدخلوا بعض التعديلات على القوانين المصولة بها .

وسبق القول بأنه تنظيما للفصل في القضايا التي تشب بين طرفين أحدهما مصري

التضامية التي كان من حقها الفصل في
النضال .

وما جدير بالملاحظة أن القوانين المعطية
قد تأثرت بالتساؤل الروماني عن طسرين
تشريمات الأباطرة وقرارات الحكام وأحكام
المحاكم .

أولاً - القانون المدني :

١ - الأحوال الشخصية :

ولما كان الرومان مثل الاغريق يضيرون
المرأة لأصراً ومن ثم في حاجة الى دعم
شرعي عليها في كل تصرفاتها فإن المرأة المصرية
لم تسترد في العصر الروماني مكانتها القديمة
بل بقيت على حالها منذ سارى البطالة بينها
وبين المرأة الاغريقية ، ولا سبيل الى العكس
في أن المصريين كانوا يسرفون في العصر
الروماني في الزواج الكامل ، و في زواج
التمتع او التجربة ، وهما نوعا الزواج اللذان
سببنا الكلام عنهما في سياق الحديث عن
الزواج عند المصريين في عصر البطالة .

وكما كانت علي الحال في عصر البطالة
كان اغريق الاسكندرية وبطوليميس في
العصر الروماني يحدرون عقدين أحدهما
مدى والأخر دنى ، وكان باقي الامميين
يمرّفون نوعين من العقود وهما « عقود
الانفاق » و « عقود المباشرة » وكلا نوعين
من التولييق نوع واحد من الزواج ، لكن
كثيراً ما كان يكتبى بتحرير « عقد الانفاق »
ومعد هوّن تحرير « عقد المباشرة أيضا » .

وكان ثبت قيام الزوجية عند الرومان
المباشرة الزوجية وعقد الزواج الذي كان
يسجل في سجلات خاصة تعرفه بسجلات
الزواج .

ووفقاً لأحكام القانون عند المصريين
والاغريق والرومان سواء بسواء كان لكل
من الطرفين حق الطلاق ، وكان الطلاق يتم
بجرد انفصال الطرفين وتحرير وثيقة من
صورتين يثبت فيها أنه لم يعد لأحد الطرفين
حقوق قبل الطرف الآخر وبذلك كان يعنى
لكل منهما أن يعقد زواجا جديداً .

وإذا كان مسموحاً قبل العصر الروماني
اتخاذ أكثر من زوجة واحدة فإنه لم يمد
شأنه مسموحاً بذلك لاق عنصر من عناصر
السكان في مصر ، لكنه كان مسموحاً لغير
الرومان بتزواج الأخترة من آخرتهم الى أن
اختلت هذه العادة الذميمة بعد القرن الثالث
الميلادي .

ولتفسير القرائن الى أن الزواج بين
اللايريق والمصريين كان غير مسترف به في
الاسكندرية وقراطيس ، بطوليميس بدليل
أن هادريان أصدر قانوناً لباحثه في الطينوك
بوليس وإن لوالج الأيديولوجوس كانت
تعتبر الزواج بين « المواطنين » (civis)
والمصريين زواجا غير متكافئه . وتدل كثرة
الزيادات المخطئة في الريف على أن القانون
لم يظفرها هناك .

وأكثر حالات الزواج بين الرومان كانت
بين طسرين رومانيين وتشر مشروعة
(iura matrimonial) ومع ذلك كثر
ما تزوج مومختمون رومان من اجناب لكن
هذه الزيجات كانت تعتبر غير مشروعة
(iusticia matrimonios) وكان الأبناء نكرة
هذه الزيجات يعتبرون اجناب وحملون
أسماء اجنبية .

ويرق القانون عند المصريين واللايريق
والرومان تفرقاً واضحاً بين الأحرار والعبيد .

وكان المبدأ في العصر الروماني ثلاث فئات وهي عبيد الاسراطور وعبيد الافراد وعبيد المعابد المدين خلفهم فيما بعد عبيد الكنيسة .

وقد كان من حقوق المصريين والاغريق والرومان عملي وصحبات . وكانت وصايا الرومان تحصر باللاتينية ثم تترجم الى الاغريقية الى أن أصدر امكندر سروس قراره بتحرير وصايا الرومان باللغة الاغريقية على نحو ما كان يفعل المصريون والاغريق .

وكانت وصايا الجنود الرومان وقسماء المحاربين تخضع لقواعد عسكرية خاصة .

وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون المصري يوجب الورثة طبقات ثانی في مقدمتها طبقه الاولاد ، وكان يحق للابن الأكبر ان

ياخذ نصيبا يماثل نصيب ابيه الاسير الذي كانت تحته تساوى معه في مقدار

النصيب . وكان من حق الاخفاد العسول على نصيب ابيهم اذا توفي قبل جدهم ، وفي

حالة عدم وجود وصية كان القانون الاغريقي يعطي الأبناء الأبقية في وراثة آباءهم ،

وكانت اصبه الأبناء متساوية ويحق للبنات المشاركة في الارث اذا لم يكن قد أخذن

مهورهن . وفي حالة زواج مواطنة من اجنبي كان قانون الاسكندرية لا يسمح لأبناء هذا

الزواج بأن يرثوا أمهم . وفي حالة عدم وجود أبناء واخفاد كان حق الارث يؤول الى الزوج

أو الزوجة ثم ياتي بعد ذلك في المرتبة والد المتوفى . وكذلك أعطى القانون الروماني

للأبناء الأبقية وأصبه متساوية في وراثة آباءهم .

٢ - الاحوال العينية :

وكان المصريون والاغريق والرومان يتعاملون اما بمقتضى عقود مكتوبة او افعال شفوية . وفي حالة انكار دين بمقتضى بمقتضى اثنائي شفوي كانت تسب القصاصه المعروفة في البيعة على من ادعى واليمين على من انكره .

وقد مر بنا أنه من أجل ضمان حقوق الدائنين كان القانون في عصر البطالمة يعترف

بوسائل اخرى قديمة العهد غير تسجيل العقود والنسب فيها على شروط جزائية . وقد

بقيت عند الوسائل حينها معمولاً بها في العصر الروماني بل ان ما لم يكن مألوفا منها

بين الرومان مثل « البيع الوفاقي » وما كانت اللوائح تحظر على المواطنين الرومان اقباعه

مثل تسليم عقود ملكية العين المرهونة الى الدائن شاع استخدامه بين الرومان أنفسهم .

وإذا كان البطالمة جعلوا سر الفاشحة ٣/ شهرياً أو ٣٤٪ سنوياً فاق الرومان جعلوا

هذا السر ١٪ شهرياً أو ١٢٪ سنوياً ، وفي حالة عدم الوفاء بالدين في الوقت المحدد كان

يتعرض على المدين غرامة بنفس عليها في العقد كانت عادة نصف قيمة الدين الأصلي .

وكان القانون عند المصريين والاغريق والرومان يعترف بتأليف شركات تجارية أو

والنشر والتدليس . وكانت إقامة الدعوى في كل هذه الجرائم من شأن المستدعي عليه وأمرته . أما في حالات معينة مثل قتل الموطنين فإن الأدولة هي التي كانت تقيم الدعوى .

٢ - الجرائم التي ترتكب ضد المغرابة العامة وكانت تشمل النزور في الحسابات واختلاس الأموال العامة والسرقة من ممتلكات الدولة أو طياع الأباطرة . ولم يعد مخطورا في العصر الروماني استخدام المعامين في القضايا التي يختصم فيها الأفراد مع الخزاة العامة .

٣ - الجرائم التي ترتكب ضد الدولة وكانت تشمل جرائم العناية العظمى وأسامة استخدام الحقوق العامة والجرائم الدينية التي كانت معروفة في مصر البطلمية ، وكذلك حيازة الأسلحة دون ترخيص بذلك واستدعاءات المصحات المسلحة التي كانت تقيم على وجهها في أنحاء البلاد .

ثانيا - الهيئات القضائية :

اذ معلوماتنا عن النظام القضائي في مصر في عهد الرومان قليلة جدا حتى أننا كثيرا ما نجابه مشاكل منسقة به دون أن نستطيع ابتداء رأى فيها ، لكننا نعرف على كل حال أن الحاكم العام كان على رأس هذا النظام وصاحب الكلمة العليا في كل أنحاء البلاد في القضايا المدنية والجزائية (jurisdiction) وكذلك (imperium mixtum) فكان

صناعية أو غير ذلك مباشرة أعمال عامة ، وخاصة . وكان يحدد علاقة الشركاء بعضهم ببعض عقد كتابي يثبت فيه حقوق كل شريك وواجباته . وقد حدد هذا القانون حقوق الطرفين اللذين يتعاقدان على استئجار أرض أو مبان أو عبيد أو مائنية أو سفن أو عمال ، وأباح مستأجر الأرض أن يؤجرها من الباطل إلا اذا نشئ في عقد الأيجار الأصلي على خلاف ذلك .

وهد استمر المصروف في العصر الروماني بحرورن عطدي المال والتنازل لكل صفقة من مستغفات البيع . أما الأفسيرق فكانوا يكتفون عادة بتقد واحد ينضمن النص على استلام البائع لمن العين المبيعة وينزله عن كل حق له عليها . وكانت العقود لا تضمن للمدتين حقوق ممتلكتهم كاملة إلا اذا حررها الموظفون المختصون وأثبت انتقال الملكية في السجلات الخاصة بذلك وأدت الضريبة المقررة .

ثانيا - القانون الجنائي :

وكان القانون الجنائي في العصر الروماني يفرق بين ثلاثة أنواع من الجرائم وهي :
١ - الجرائم التي ترتكب ضد شخص الأفراد أو ممتلكاتهم . وكانت هذه الجرائم تشمل القتل والاعتداء على الغير بالقول أو الفعل أو الإشارة أو التهديد بالاعتداء ، واستخدام القوة لتحقيق مأرب معين ، والسرقة ، والحاق الضرر بممتلكات الغير

مارس وأبريل للفصل في قضايا باقي المديرات إلا أنه كان أحيانا يرى دعيا كتمته مجلته القضائي في أماكن أخرى سواء في الدلتا أم في مصر الوسطى أم في مصر العليا .

ولم يستأجر الحاكم العام بالفصل في القضايا إذ يرى بعض الباحثين أن محاكم القضاة الإخريين (epimeletai) التي كانت موجودة في عصر البطلمة تلت قلاسة وأن الحاكم العام كالأ يمهدها في الفصل في قضايا المعشندات ، وأن الأرخيديكاستس أيضا كان يقوم بشكل هذه المهمة أما بفرده أو بالاشتراك مع محكمة القضاة الأخرين ، وأن الأيدونوجوس كان يحصل في قضايا الخزانة العامة .

وكان رؤساء الأقسام الإدارية الرئيسية (epimeletes) ينفردون عن الحاكم العام في الفصل في القضايا فضلا عن أنهم كانوا يقومون بالتحكيم في المنازعات . وكان حكام المديرات (strategoi) أيضا يحصلون في القضايا ، وإذا كانوا على مر الأيام فقدوا هذا الاختصاص فانهم استنبروا يؤدون ما كانوا يقومون به منذ عصر البطلمة من التحكيم في المنازعات ، وتقديم القضايا والمتمهين للمحكمة بعد الفصل في محاولة لمس النزاع وديا والقيام بتحقيق ميداني في القضايا ، والقاء القبض على مخالفى القانون .

وكثيرا ما كان الفلاحون يلجأون إلى شيوخهم ورجال الشرطة لفصل منازعاتهم بدلا من اتخاذ الاجراءات القضائية المعتادة .

يشتم بعض مصادرة الأملاك والحكم بالإشغال الشاقة في المناجم والمهاجر وكذلك الحكم بالاعدام ، ولم يكن هناك سيده إلى الاستئناف من أحكامه سوى أمام الامبراطور . وكان المجلس القضائي للحاكم العام يتكون من يوسفه رئيسا ومن مساعدين له تعرف أنهم كانوا يفسارون في الولايات الأخرى من جنسية المتقاضين لكن ليس في استطاعة أحد أن يهزم بشيء فيما يتعلق بمصر وإن كنا نعرف أن المساعد الأول للحاكم العام في الشئون القضائية في مصر كان الديكايودوتس (Dekalogos) . ولما عرف إذا كان لهذا الموظف اختصاص قضائي مستقل أو إذا كان يستمد سلطته القضائية من الحاكم العام لكن بما أنه لم يشترط في اختيار الحكام معرفة القانون وكانوا يهجم لذلك في حاجة إلى خبراء فنيين معاوتولهم في أداء مهمتهم القضائية غالبا ترجع أن الديكايودوتس كان المستشار النسائوي للحاكم العام يقوم بتدوين (Legal furdell) في الولايات الرومانية الأخرى . وتحدث الوثائق أيضا عن موظف قضائي آخر كان له شأن كبير في الشئون القضائية في مصر البطلمة وهو الأرخيديكاستس .

وكان الحاكم العام يمتد مجلته القضائية في الإسكندرية في شهرى يونية ويولية للفصل في قضايا مديريات غرب الدلتا ، وفي يوليوزيون في شهر يناير للفصل في قضايا مديريات شرق الدلتا ، وفي سبتمبر في شهرى

الفصل السابع

الحياة الاجتماعية

١٧٥ - عهد الإسكندر وحكامه :

كانا ينزل فيها عدد كبير من الأجانب الذين كانوا يمشون فيها بصفاة نائمة تقريبا .

وإنما كان أهل الاسكندرية يمشون عيشة راضية هائلة لفرط نشاطهم الصناعي والتجاري مع فلة الأعباء الملقاة عليهم كانت حال أهل باقي البلاد ولا سيما المزارعين تسير من سيئه الى أسوأ بسبب تزايد التزامهم بأطراد قترينا ولما تفاق المفسرون الثاني ازديادا مسترا في عهد الذين كانوا يصربون من قراهم ، وعندها غير قليل من الأوامر التي كان الحكام يصطلحونها لثت المزارعين على المونة الى مواطنهم ، وأسئلة كثيرة على الانتهاء الى سلاح الأرقام لزراعة الأراضي المهبورة ومل المناصب المحلية والبلدية . وتدل الفرائن على أنه في القرن الثالث هجرت قرى باكملسا تقريبا في النسيم ، وتفاقمت صحوية سسغل المناصب المحلية والبلدية ، وازداد عدد الذين كانوا يهربون من مواطنهم ويشكسون قولهم من أعمال المسطو والتعب . ولا أدل على هبوط مستوى العيشة وفقر الأهالي في القسرى من أن البيان الذي قدمه لموظفي التعداد وجل يملكه عشر منزل يرنا أنه كان

في عهد نبرون كان عدد سكان مصر عدا الاسكندرية يبلغ سبعة ملايين ونصف مليون نسمة وليست لدينا أي معلومات من عهد سكان الاسكندرية في العصر الروماني وان كنا نعرفه أن الاسكندرية عدت في هذا العصر أكبر مركز تجاري في شرق البحر الأبيض المتوسط وأكبر مركز صناعي في مصر . ولاني مدن الامبراطورية الرومانية ولذلك بحتمل أن عدد سكانها لم يقل كثيرا عن عدد سكان روما . ويبدو انه ازاء لفساط الاسكندرية الصناعي وثرائها وساهج الحياة فيها وشقته العجاء وبؤسها في الريف المصري أخذ كثيرون من أهل الريف يهاجرون اليها منذ القرن الثاني سنا حدا بالامبراطور كركلا الى اصدار قرار في عام ٢٩٥ بإبطاء الفرولين عن الاسكندرية . لكن لايد من أن هذه المدينة قد عانت كثيرا من المذابح والتمهير التي عدت بها من جساء النداء بين الاسكندريين واليهود وخضب كركلا على المدينة وتوعدتها ضد اوردليانوس . ويبدو أيضا انه ازله نشاط الاسكندرية التجارية

« المواطنين الرومان » الذين تحدث الوثائق عنهم في القرن الثالث كانوا من الاغريق والشرقيين والمصريين الذين اكتسبوا حقوق المواطنة الرومانية .

٢ - الاغريق :

(ا) وضعهم وفناتهم :

كان الاغريق يتألفون من مرتين رئيسيين يعيش أحدهما في المدن الاغريقية ويعيش الآخر في المدن والقرى المصرية . وكان كل من هذين الفريقين يتألف من فئتين رئيسيتين فالفريق الاول كان يتألف من فئة مواطني المدن الاغريقية وفئة عامة الاغريق في هضبة اعدن . وكان الفريق الثاني يتألف من فئة عامة الاغريق وكانوا يعيشون كغنى الفق دون الاندماج في جماعات منظمة . أما الفئة الثانية فكانت اوفر حظا من الشراء والثقافة وحيثما كان يعيش عدد كاف من افراد هذه الفئة كانوا منذ عصر البطلمية يكمون بوزن جاليات منظمة تنظيما دقيقا حصلوا على أن يولدوا فيها من أسباب الحياة ما يبيحهم من العيشة في المدن الاغريقية . ولما كان الجيمنازيوم من أبرز مظاهر الحياة الاغريقية لأنه كان بمثابة المنتدى فضلا عن كونه مركزا للتربية البدنية والفنية ، فانه حيثما أنشأ الاغريق مدينة . أو جالية أنشأوا كذلك جيمنازيوم . وكان هذا المركز الاجتماعي والثقافي والرياضي يشمل اتصالا وثيقا بنظمة

يسكن في هذا الحيز الصغير ستة وعشرون شخصا . ولا شك في أن هذا المنزل لم يكن به تسخا وانما مثل غيره من عشرات المنازل القروية التي كشفت الحفريات عنها في قرية كرايس (كوم أوشيم) وهي مبنية من اللبن وتتألف من عدد من الغرف الصغيرة على النحو المألوف .

بها - طبقات السكان :

خرج الرومان منذ عهد الهسطين على تقسيم سكان مصر طبقات متباينة في المرتبة على النحو التالي :

١ - الرومان وكانوا الضئيلة العليا في البلاد وهبلي العدد اذ كانوا يتألفون من كبار الحكام وبعض رجال الأعمال وكذلك من قدماء المحاربين الذين منحوا حقوق المواطنة الرومانية عند تسميهم ورتبوا في الاستقرار في مصر . وقبل ادماجهم في هذه الطبقة كان يتمتع بعضهم (epistatou) حالة كل منهم لكي يتمتعوا هم وأولادهم بالعسوق والامتيازات التي كان افراد هذه الطبقة يضمون بها ، وكانت هذه العسوق والامتيازات تشبه ما كان المقدونيون يتمتعون به في عهد البطلمية ، ولم يكنوا خاضعين لسطة السواد في التدبيرات التي كانوا يعيشون فيها وانما لسطة حكام الأقسام (epistrategoi) والحاكم العام لمصر . وما جدير بالملاحظة أن غالبية

تدريب الشباب ، وكان التحاق الفتي
الاغريقي بهذه المنظمة في الرابطة عشرة من
عمره شرطاً أساسياً لإدراج اسمه في قائمة
مواطني المدينة أو الجالية وللسمح له بدخول
الجيمازيوم .

وسا يجدر بالملاحظه أن الجاليات
الاغريقية كانت لا تملك أصلاً إلا من
الاغريق لكن القرائن تشير الى أنه في أواخر
عصر البطالة كان من الممكن أن يندمج فيها
عدد من الأخراب ممن توارثت معهم شروط
معية أهل الثقافة الاغريقية كانت في مقدمتها .
ويعتقد أنه للتبميز بين الغريين كان الاغريق
من أعضاء الجالية يدعون بأهل الجيمازيوم
(hol epu gymnasium) ولحسبهم ممن
أعضائها المشافقين يدعون الشركاء في
عضوية الجالية & (sympletaucomeos)
ولما كان أعضاء الجاليات الاغريقية قد
أسسوا في العهد الروماني يؤلفون طبقة
تنسج بامنيارات معينة وكان التسجيل في أي
طبقة من الطبقات المسطرة يقتضي فحص حاله
الراعي في ذلك والباب المنزه الأبوين الى
نات الطبقة فانه يبين من ذلك أنه لم يصد
ميمسورا الساج خرباء متأخرين في عهد
الجاليات الاغريقية .

ويبدو أنه من أجل المحافظة على الحضارة
الاغريقية في المديرية ، وتوفر توفّر من
الحياة يواتم الاغريق وبمسائل ما كانوا
يسمنعون به في المدن الاغريقية في مصر

وبلاد الاغريق وآسيا الصغرى وسوريا ،
وكذلك من أجل رفع مستوى عواصم
المديريات ، عمل الرومان على لم شعث
الجاليات الاغريقية وتركيزها في عواصم
المديريات . ولصان تحقيق ذلك اتفوا ما كان
يوجد من الجيمازيا في القرى وأغفروا جمعها
رسمية على جيمازيا عواصم المديرية
وأشاروا في تلك العواصم حمامات عامة
وأصاءوا شوارعها ليلاً . واختير الرومان
أعضاء الجاليات الاغريقية -- سواء أكانوا
يمسبون من الأصل في تلك العواصم أم
أغفلوا للمعيشة فيها -- مواطني تلك
العواصم ، كما اصبروا أهل الجيمازيوم &
أرفع أولئك المواطنين ففروا صفات المناصب
المبدية لا تسند الا اليهم . وسا يجدر
بالملاحظة : أولاً -- أن مواطني عاصمة أي
مديرية لم يتسلوا كل سكان تلك العاصمة
وحتى وإن كانوا من الاغريق . وغالباً -- أن
أولئك المواخير كانوا يغالون الرومان
بأعضائهم اعضاء كاملاً من دفع ضريبة الرأس
على أساس أنهم من سلالة أرباب الاقطاعات
ولتفسير هذا المطلب يجب أن نذكر شيئاً .
واحدهما أن أغلب أعضاء الجاليات أن لم
يكن كلهم كالرا أصلاً من رجال الجيش وليا
لذلك كانوا من سلالة أرباب الاقطاعات .
والثاني الآخر انه اذا كان الرومان قد زرعوا
ملكية أراضي بعض أرباب الاقطاعات فانهم
بنوا ملكية أراضي البعض الآخر ومنحومهم

امتيازات مبيسة كان من بينها فيما يبدو الاعفاء من ضريبة الرأس انتفاء كاملا .

ويرى فريق من الباحثين أن الحكومة الرومانية كانت تصرف ترفقة واضحة بين الاغريق الذين كانوا يعيشون في مدن مصر الاغريقية ، وكذلك الاغريق والمناغرين الذين كانوا ينزلون في عواصم المديريات من ناحية ، وبين المصريين من ناحية اخرى باعتبارهم *adauci* ، أي الأهالي الذين خصصوا لرومان بعد الفتح بلا قيد ولا شرط فوضعهم في أسفل درك وفرضوا عليهم كافة الالتزامات وخاصة ضريبة الرأس وكانت تشير رمزيا سيرا لظهورهم واستسلامهم .

وقد اتخذ فريق آخر من الباحثين من المعلومات المستمدة من الوثائق البردية هي ضريبة الرأس أساسا للمصادفة برأي آخر لجدد وسواء أن الحكومة الرومانية كانت تتبرع بجمع سكان مصر « مصريين » أو ببساطة أخرى أجاب (*peregrini*) باستثناء المواطنين الرومان ومواطني الاسكندرية ولما يرجع مواطني قراطيس وبطوليبيس وانطيسوذ يوليس وسلالة أرباب الاقطاعات في القوم وكذلك عندما معينا من كهنة كل معبد و آذ هؤلاء جميعا عفا عن دفع ضريبة الرأس التي كان باقي سكان البلاد يدفعونها ، غير أن أولئك الباقين لم يدفعوا هذه الضريبة بسدول واحد إذ أن مواطني عواصم المديريات كانوا يدفعونها مخفضة أما باقي سكان هذه

العواصم وكذلك سكان القرى فكانوا يدفعونها كاملة . ومعنى ذلك أن الحكومة الرومانية كانت تقسم الاغريق ثلاث فئات ، كانت احداهما تشمل مواطني المدن الاغريقية وغيا يبدو أيضا سلالة أرباب الاقطاعات في القريوم ، وكامت الحكومة الرومانية بضمهم في صفات المواطنين الرومان وتلبيهم من ضريبة الرأس اعفاء كاملا ، أما الفئة الثامنة فكانت عبارة عن مواطني عواصم المديريات وكانت الحكومة تعتبرهم أهل مكانة من الفئة السابقة وتفرض عليهم دفع ضريبة الرأس مخفضة . أما الفئة الثالثة فكانت تشمل عامة الاغريق من سكان القرى وعواصم المديريات والمدن الاغريقية على حد سواء وكانت الحكومة تفرض عليهم دفع ضريبة الرأس كاملة .

وينبغي هذا دليلة على مدى اجلال الرومان للطبقة الاغريقية ورعيتهم في التمييز بين أكثر الاغريق تحضرا من ناحية وبين عامة الاغريق وجموع المصريين من ناحية أخرى ، فلا عجب أن استبقى الرومان اللغة الاغريقية لغة رسمية للبلاد فلم تستعمل اللاتينية إلا في الجيش أو في النواحي المتخلفة بالقانون الروماني . فضلا عن ذلك احتفظ الرومان للاغريق بالمناصب الكبرى التي طي المناصب الرتبسية التي احتفظوا بها لأنفسهم .

وقد كانت لدى الصفات المتنازعة من الاغريق فرص واسعة للتراء لكن التبعات الثقيلة التي ألقيت عليهم أبهت كاهلهم

وأوق في المدن الاغريقية الأخرى التي كانت معاقلة قديمة للحضارة الاغريقية وذات تقاليد واسعة وتصمم أعدادا أكبر من الاغريق ويتيسر فيها المرجع بين الاغريق والمصريين على نطاق أوسع . لعل السبب اذ في ابحاث التزاوج في اظنينوز بوليس هو انه لم يتيسر اجتذاب عدد كاف من الاغريق الي هذه المدينة مما الخلفى الاقتصاد في تكوين هيئة مواطنيها على كتف من المصريين الذين لا بد من أهم كالوا من اثناغرفين تيسيرا للمألف بينهم وبين رفاقهم من الاغريق . ومن أجل ضمان وحدة المدينة ولبوها شخص في دستورها على امكان الزواج بين المصريين . ولعلنا ان لصدا النص دلالة ذات معنى ، فهذا النص بطوى ضمنا على انه التزاوج كان غير مشروع على الأقل في المدن الاغريقية الأخرى والا لا نص على تحليسه في اظنينوز بوليس . بقي أن تتساءل عما اذا كان الزواج محظورا خارج المدن الاغريقية الثلاث الأخرى (الاسكندرية ونفراطيس وبطونيبس) ؟

ينبغي مما أسلفنا ، أولا انه في المصر الروماني كان يمشي خارج هذه المدن الاغريقية الثلاث ليرضد من الاغريق كل من أعددهما بمبارة من مواطني مواصم المدرجات الذين كانوا يؤلفون طبقة متنازة وكان العريق لأخر عبارة عن الاغريق الذين لم يكونوا اصلا أعضاء في جاليات اغريقية او كانوا أعضاء في جاليات وآثروا البقاء في قرانهم على

واستنزفت مواردهم على مر الزمن . ولعل لسعد الاغريق حقا كانوا مواطني المدن الاغريقية بوجه عام والاسكندرية بوجه خاص . ومع ذلك فان اوثسك المواطنين لم يطلوا بين الرضي الي حكم الرومان فقد سبقت الاشارة الي كد عمدها الاسكندريين لليهود كان يفتني في طياته عداهم للرومان ؛ وذلك لان مهاداة اليهود كانت أسلم عاقبه من مناصبة الرومان عداء سافرا . وسبقت الاشارة كذلك الي أن أعمال الاسكندريين التي صادفت رواجها كبيرا لا في الاسكندرية فحسب بل في كل أنحاء البلاد كانت تهر عن كراهية الاغريق الضمينة لليهود وكراهينهم الأثمة للرومان وهذا أبلغ دليل على أن الاغريق بوجه عام كانوا يكرهون الحكم الروماني كرها شديدا وينمون ذواله .

وتعدنا وثيقة من القرن الثاني للسبلاه وأن التزاوج بين الاغريق والمصريين كان يمشي غير مشروع في نفراطيس ، ومن المرجح ان ذلك كان الحال أيضا في الاسكندرية وبطونيبس بسبب الرغبة في المحافظة على العنصر الاغريقي . فلماذا اذن أيجح التزاوج في اظنينوز بوليس ؟ يرجع البعض أنه يكون السبب في ذلك هو رغبة الامبراطور هادريان مؤسس هذه المدينة ، في صبغ المصريين بصبغة اغريقية عن طريق مزجهم مع الاغريق في بيته نسودها التأثيرات الاغريقية لكن لو صح أن هذا كان الهدف الحقيقي لكان تحقيقه ثم

ولا جدال أيضا أن الأدب والفنون كانت أسس مظاهر هذه الحضارة التي ظلت الاسكندرية أهم مراكزها في العصر الروماني وبفضلها بقيت الحضارة الاغريقية متمثلة في مصر طوال هذا العصر . فقد شهدت الاسكندرية جديده نهضة فلاسفة وكتّاب وجغرافيين مثل هيرودوت واثيناس لابروس وبطليموس ، وكان للأقاليم أيضا نصيبها في هذه الحركة الأدبية فقد ولد العالمان اليونان وهيرودس في نقرطيس والفيلسوف لفرطين في سبوت (ليكوبوليس) . والبرديات الرقيرة التي كُتبت عنها في اوكسيرينخوس (البهنسة) - وكانت عاصمة احدي مديريات مصر الوسطى - خير شاهد على شهرة المثقفين في هذه العاصمة الريفية بقراءة مختلف ألوان الأدب الاغريقي الى حد يثير الدهشة . فالرديات لا تقتصر على ميون الأدب الاغريقي القديم مثل اشعار هوميروس وقصائد هيميود بل تتضمن كذلك أمثالي سافو وروايات ملاندر وقصائد كاليباقوس فضلا عن كثير من المؤلفات التي كان بعض الباحثين المعاصرين يظنون أنها لم تكن متداولة عندئذ مثل أجزاء من قصائد الشعراء الغنائيين كالاشيد الشكر وغيرها من منظومات بندار والشعراء المعاصرين وكذلك روايات إسقليوس المتعددة وروايات سوفوكليس وبوريديس واريستوفانيس . ولما لم تكن لاوكسيرينخوس أي ميزة خاصة على أي

الانتقال الى عواصم المديريات وتيسيرا للكلام عن أفراد هذا الفرع فلنطلق عليهم عامة الاغريق . وثانيا أن التسجيل في طبقة من الطبقات المتأخرة كان يقتضي بحث حالة الراعيين في ذلك التأكيد من امتناء الاثيون في كل حالة التي تلك الطبقة . وإذا جاز أن القانون كان لا يحظر الزواج بين مواطني عواصم المديريات وبين المصريين فإنه كانت تحظره مراعاة مصالح أبناء أولئك المواطنين، أي ضمان امتنائهم الى الطبقة المتأخرة، والواقع أن لوائح الايديولوجوس لا تدع مجالاً للشك في أن الزواج كان محظورا بين الذين تنبؤ الى طبقات اجتماعية مختلفة ، وبما أن عامة الاغريق لم ينتموا الى طبقة اجتماعية متأخرة ، فإنه لم يحظر تزواجهم مع المصريين قانون ولا مراعاة مصالح ، ولعلم نتيجة لطول استقرارهم في البلاد وعدم مشاركتهم أساليب الحياة الاغريقية مع اختلاطهم بأهالي البلاد وتبذمهم الى الالهة المصرية أصبحوا شديدى القرب بالمصريين وزواجوا معهم ولم ينقض وقت طويل قبل أن تستوعبهم الأمة المصرية فيمن استوعبهم .

(ب) حفلة الاغريق ١

ولا جدال في أن المدارس والمعاهد الاغريقية كانت أهم دعامة للحضارة الاغريقية فهي التي كانت تتح للناس آفاق الفكر الاغريقي وتنبذ عقولهم وتوسمهم بشارة

التعليم فقد كان التلاميذ يكتفون بتعلم بعض
الآيات للتسريع على كتابتها أو شرحها
والتلقين عليها أو لتكون مادة لدرس في
الأخلاق . وكان ينفى بهذه الناحية عناية كبيرة
فقد كان المدرسون يختارون كثيرا من الحكم
والأمثال لتعريب التلاميذ على المطالعة .

ويبدو أن المرحلة الثانية كانت مقصورة
على أبناء الصفوة المتأخرة في عاصمة كل
مديرية وهي التي كان يطلق عليها « أهل
الجبينازيوم » فقد كانت تلك الطبقة تألف
من المتفوق في مسابهم بنظامه المدرسي
الشباب وعلما في الجبنازيوم إذ كان
الالتحاق بهذه المنحة يحول عن الالتحاق
بالجبنازيوم ويقتضى الياف انتماء الأب إلى
هذه المنحة والحداد الآين من « بون هرين » .
وكان التلاميذ يدرسون في هذه المرحلة النحو
والبلاغة والأدب والفلسفة والرياضيات .
ويبدو أن الذين كان يمز عليهم دخول
الجبنازيوم لكن مواردهم كانت تسمح لهم
بتابعة الدراسة كانوا يلجأون إلى مدرسين
خصوصيين لهذا الغرض . وكان ذلك أيضا
حال الذين يريدون تعلم مواد خاصة مثل
الموسيقى أو الاختزال . وتعدنا بردية بأن
أحد مواطني أوكمبرينغوس أرسل عبده
لتعلم الاختزال على يدق معلم مختص فقد
سنة الدراسة بعامين على أن يقتضى إجراء على
ثلاث دفعات : كانت أولها في البداية والثانية
والثالثة عند بلوغ العمد مرحلتين معينتين من
التقدم .

عاصمة أخرى من عواصم المديريات فلا بد
من أن الحال كان معانلا فيها جميعا وهذا
يدل على أمرين وأحدهما وجود جمهور كبير
من التمره ونبما لذلك وجود تجارة رائجة
في الكتب ، والأمر الآخر أنه كان في متناول
المتفهم في طول البلاد وعرضها مجموعة كبيرة
من المؤلفات الإغريقية التي لم يفسد منها
إلا قدر ضئيل .

وقدر ما كانت الأمية فاشية بين عامة
الإغريق كان التواضع وأهل الطبقة الوسطى
منهم يميلون على التعليم . وكان التعليم
الإغريقي ينفى بتربية الجسم والعقل معا ،
وكانت التربية البدنية تفضل الألعاب الرياضية
وكذلك التديريبات شبه العسكرية الخاصة
بالعقاب . أما التربية العقلية فكانت على
ثلاث مراحل يباشر أولها المدرسي الأولية
ويرجع أنها كانت من الطراز الإغريقي
الثالوث وتستطيع أن تبين مما عثر عليه من
الأدوات التي كان التلاميذ يستخدمونها
بكثره (كسر الفخار والأنواع الخشبية
المكسوة بالشمع والأوراق الرديئة) أهم في
المرحلة الأولية كانوا يتعلمون القراءة والكتابة
سريعا ناديين بالعروف الأبجدية فشكلين
المعلم فالكلمات فالجمل ثم نقل فقرات من
كتب معينة والتدريب على الاملاء والانشاء .
وكان التلاميذ يدرسون الأدب والنحو
: الحساب . وكانت أسماء هومروس
تستخدم على نطاق واسع في كل مراحل

١٨٢

٣ = اليهود ١

لقد مر بنا عنه الكلام من عصر البطالمة أن اليهود كانوا ينتشرون في مختلف أرجاء البلاد لكن كثرتهم كانوا يعيشون في الاسكندرية وأن البطالمة منعوا الجالية اليهودية في الاسكندرية قسما من انحكم الذاتي لم يمنحوه لأى جالية أخرى كإى مدينة افرقية لكنهم لم يمنحهم حقوق المواطنين . وفى كنفه الزيادة التى استغللت اليهود بما فى عهد اكرم ملوك البطالمة ازدهرت حالهم وزاد عددهم حتى بلغوا فى أوائل عهد الرومان مليون نسمة كان خصمهم قريبا يعيش في الاسكندرية . وقد عرفنا أن الرومان

١٨٢

٣ = اليهود ١

لقد مر بنا عنه الكلام من عصر البطالمة أن اليهود كانوا ينتشرون في مختلف أرجاء البلاد لكن كثرتهم كانوا يعيشون في الاسكندرية وأن البطالمة منعوا الجالية اليهودية في الاسكندرية قسما من انحكم الذاتي لم يمنحوه لأى جالية أخرى كإى مدينة افرقية لكنهم لم يمنحهم حقوق المواطنين . وفى كنفه الزيادة التى استغللت اليهود بما فى عهد اكرم ملوك البطالمة ازدهرت حالهم وزاد عددهم حتى بلغوا فى أوائل عهد الرومان مليون نسمة كان خصمهم قريبا يعيش في الاسكندرية . وقد عرفنا أن الرومان

١٨٢

٣ = اليهود ١

لقد مر بنا عنه الكلام من عصر البطالمة أن اليهود كانوا ينتشرون في مختلف أرجاء البلاد لكن كثرتهم كانوا يعيشون في الاسكندرية وأن البطالمة منعوا الجالية اليهودية في الاسكندرية قسما من انحكم الذاتي لم يمنحوه لأى جالية أخرى كإى مدينة افرقية لكنهم لم يمنحهم حقوق المواطنين . وفى كنفه الزيادة التى استغللت اليهود بما فى عهد اكرم ملوك البطالمة ازدهرت حالهم وزاد عددهم حتى بلغوا فى أوائل عهد الرومان مليون نسمة كان خصمهم قريبا يعيش في الاسكندرية . وقد عرفنا أن الرومان

أقروا الامتيازات التي اكتسبتها العجالية اليهودية في الاسكندرية منذ عهد البطالمة لكنكم فرضوا على يهود هذه العجالية ويهود مصر جبسا أداء ضريبة الرأس كاملة .

ويحدثنا فيلون بأن يهود الاسكندرية كانوا يتسكنون من القنات التالية :
١ - أصحاب ديموس الأموال ٢ - المشتغلون في السفن البحرية ٣ - تحصار التجزئة ٤ - الصيناع ٥ - أصحاب الحرف ٥ - المشتغلون بالزراعة في الأراضي المحيطة بالاسكندرية . وتضم الدلائل الى انه منذ عصر البطالمة كان يهود الاسكندرية يميلون الى اطلاق أسماء المرفضية وارتداء ملابس اريقية ويشلون على تعلم الاريقية والتزود من الثقافة الاريقية . واذا كان بعضهم قد اعرفوا عن اليهودية أو صابوا فان اغلبهم استمسكوا بديانهم وحرصوا على مراعاة تقاليدهم وعاداتهم . واذا أضفنا الى ذلك صلابتهم للرومان فمركنا لماذا كان اليهود في نظر الاغريق خصرا غريبا عنهم كريبا اليهم لا يفلتونه في مجتمهم وروود الخير كل الخير في قطع دايره مما أفضى الى تلك المنازعات ادمية التي سبل الكلام عنها .

وكان المجتمع اليهودي خارج الاسكندرية يتكون من القنات التالية :
١ - أصحاب الأراضي ٢ - أصحاب المن العرة من المشتغلين بالتجارة وأعمال النقل في النيل ومن مواني البحر الأحمر والبا

٣ - أرباب المن الوضيعة والعبيد المحررين .
واذا كان أكثر يهود الريف تراء حادولوا التشبه بالاغريق فانه لم يسبح لهم بالاندماج في المجتمع الاخرى . أما جوع يهود الريف وكانوا يشاركون المصريين يشتمهم ويسامون المن والعرفه ذاتها فان القرائي عدل على أنهم تشبهوا بالمصريين فتشاعت الأسماء المصرية بينهم بل عثر في مصر الوسطى على تابوت خشبي يحمل صورة صرية وبضري على مومياء محطلة كنا عثر أيضا في الفيوم على موميات تحمل صور أصحابها وأسماء يهودية، ومع ذلك ازاء انه الأدلة التي لدينا تصيب العره بأن كل يهود الريف قد تأثروا باليهة المصرية الى حد أنهم كانوا جبسا يحفظون جيش موتاهم . فقد توافرت لمس في الريف أسماء الاحتفاظ بديتهم ومتابعة حياتهم الخاصة إذ ان القرائي تشير الى أضخم في الوجودين البحري والقبلي كانوا ينظمون في جاليات لكل مها يمتها والى أنهم في بعض المدن مثل ارسينوي وأوكسيريخوس وأدلو كانوا يقدمون في أحياء خاصة بهم . ويشير القرائي أيضا الى ان ثورة ١١٥ - ١١٧ لم تعض الى القضاء على المجتمع اليهودي في الريف المصري ، وكل ما في الأمر ان هذا المجتمع قد أصابه عندهم من الكوارث ما تطلب وقتا طويلا ليعد بناء كيانه ويتألف تساعده من جديد .

واذا كان الرومان قد اشتهروا عظيم على

اليهود بالاقراراف لهم باستازاتهم القديمة فان اليهود لم يرضوا عن الرومان لانهم رفضوا ادماج يهود الاسكندرية في عداد مواطى تلك المدينة ولسم يحدوهم من عداد الاسكندريين لهم ورفضوا على يهود مصر ضريبة الراس كاملة ، وكالوا لاسم ضرائب شديدة منذ ثورة فلسطين في عام ٦٦ مضا افضى الى ثورتهم العظيمة في عهد تراچان التي كانت محاولة بالنسة حرثة للتخلص من لير الحكم الروماني . ولا بدل استسلام اليهود بعد ذلك وسالتم للرومان على وضالهم عن الحكم الروماني بقدر ما يدل على وضالهم بحكم الظروف التي كانت أقوى منهم .

٤ - المصريون

(١) قتالهم

كان المصريون في العصر الروماني يتألفون من عدة فئات ، كان فئة الكهنة مضمها شأنها وأرضها عقاما وأرضها ثروذاً ما حدا بالرومان الى اقفاء اثر البطالة الأوائل في اضفاف ثورة رجال الدين المصريين . فالنزحوا ملكية حاسب من أراضي المعابد وأسندوا الى الحكومة ادارة جانب آخر من هذه الأراضي ووضحوها رجالة الدين تحت سيطرتهم وقصوا عند المعابد التي تتمتع بحق حماية اللاجئين لها . واذا كانت الحكومة الرومانية قد أضفت اول الأمر عددا مميئا من كهنة كل

معبد من دفع ضريبة الراس فأنها عملت بعد ذلك على انقاص هذا المدد . ولا جدال في أن الغالبية العظمى من رجال الدين المصريين احتفظوا بثقاتهم القديمة الخاصة التي كانوا يتوارثونها وتعاونون على المحافظة عليها ويعملون على بث تعاليمها في نفوس مواطنيهم . ومع ذلك يصعب أن تتصور أن النابيين منهم على الأقل لم يأخذوا بنسط من الثقافة الاخرية .

وكانت لدى هذه الفئة في الاهمية فسة أصحاب الأراضي وكان افرادها على شيء من اليسر ودأب كثير منهم على الشبه بالافريق فتمسوا الافريقية واتخذوا أسماء افريقية وملابس افريقية وتزوجوا مع عامة الافريق المنشرين حولهم في أرجاء البلاد . ومع ذلك لم تكن صنعتهم الافريقية الا طلاء بخارجيا فقد كان من العسير نصم صلتهم بالمواطني وتبهر طابع عقيدتهم أو دخائل ثوسهم بسبب استساكهم بدياتهم التقليدية . وعلى كل حال من الراجح ان صفتهم الافريقية لم تكسبهم اى سبة من ناحية وضعم القانوني بمعنى أن الحكومة الرومانية لم تساوم بمواطني المدن الافريقية ولا حتى بمواطني عواصم المدريات ، ولم تضبوهم الا مصريين عليهم ما على سائر المصريين من تبعات . بل لعلهم من هذه الناحية كانوا أسوأ حالا من غيرهم من المصريين إذ أن الأمر في حالهم لم يقع عند حد أداء الضرائب المعروضة عليهم

المصريين وكانت غالبيتهم العظمى تشتغل بالزراعة وكتيرون منهم يمارسون مختلف الحرف والصناعات . وقد فرض الرومان عليهم جميعا كافة الالتزامات وأداء ضريبة الرأس كاملة وجرعوا عليهم استعمال اللغة اللاتينية حتى في عقود سمارتيم الخاصة.

(ب) حضارة المصريين

وإذا كانت الأمية ناشئة بين عامة الإغريق فلا جسدنا في أنها كانت غاشية كذلك بين جموع المصريين الذين استرا يعيشون كما كان أجدادهم يعيشون من قبل ، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ، مستسكين بديانتهم التي أن اقتنوا المسيحية طوعا أو كرها .

وهكذا يبدو أن الغالبية العظمى من المصريين كانت تعيش بعزل عن الحضارة اللاتينية فلم يطمح بطلح منها الا قلة قليلة . وإذا كانت المساهمة الكبرى قد احتفظت بالمدارس الملحقة بها فقد انتهى ذلك العهد الزاهر الذي بظفت ليه بعض هذه المدارس شيئا بعبدا ونزلت مدارس المعاهد عن تلك لمكانة السابعة لجامعة الاسكندرية بمردمتها المسيحية الكبرى . وازاء اقبال المومنين من المصريين على التطعيم اللاتيني ونفس الأمية بين جموع المصريين وتحضير استعمال اللاتينية حتى في العقود الخاصة لا يبعد أن تكون سوق المدارس الأهلية القديمة قد كسدت الي حد اضطرت معه الي

بل كان يمدى ذلك الي الاسهام في زراعة الأرض المهجورة واداء الضرائب المفروضة عليها . فضلا عن ذلك كانت الحكومة تختار منهم صحارا موظفيها المحليين لادابهم باللاتينية ولما لديهم من أملاك كانت تستطيع أن تمتدق منها استحقاقاتها في حالة قصورهم عن النهوض بالالتزامات وعائلتهم على نحو يحقق لها أراضيا كاملة . ولعله كان يكون جلبا من هذه الفئة فئة المعاربين المصريين التي ارتفع شأنها في القصر الثاني من عصر البطالة ومنح أفرادها اقطاعات لا بأس بها . وطى كل حال فانه لم يمد لفئة المعاربين المصريين الضديبة كباث مستغل في العصر الروماني فقد منع المصريون من الانخراط في سلك الفرق الرومانية حتى في القرن الثاني عندما اضطر الرومان الي التجنيد محليا فالرومان لم يسوا ما حدث في عصر البطالة عندما أدى الاعتماد على المصريين في موقفة ربيع (عام ٢١٧ ق.م) الي العياش الروح القومي في البلاد واندلاع لهيب الثورات الوطنية ضد البطالة . ولذلك كان التجنيد المحلي في مصر الروماني على الأقل حتى منح المصريون حقوق المواطنة الرومانية بمتنفس دستور كركلا - مقصودا على الإغريق والمصريين المقيمين في مصر . ومع ذلك كان يسمح للمصريين بالعمل في أسطول سينوم فقط .

وكان يأتي في مؤخرة للتؤخرة عامة

عندما ثارت هيرودوتبوليس (تل المسخوخة في شرق الدلتا) زحف عليها كورنيليوس جالوس وأخضعها .

ولا تذكر المصادر القديمة نشوب ثورات عامة بين المصريين بعد ذلك الا الثورة المعروفة بحرب الرعاة ، التي وقعت في عام ١٧٣ في منطقة الدلتا الساحلية شرقي الاسكندرية .

وقد تزعم هذه السورة كاهن مصري يدهي اميدوروس واشترك فيها جموع كبيرة من المزارعين تسكنوا من القضاء على العادة الرومانية في منطقتهم وكذلك من حزيه الكتاب الرومانية التي وصلت لهم ، حتى خيب من وقوع الاسكندرية في عيبتهم مما اقتضى استدعاء نجده من سوريا خلف عنى رأسها اليديوس كاسبوس حاكم تلك الولاية (عام ١٧٥) . وقد لجأ اليديوس الى حيلة المفاوضات حتى نجح في بث السرقة بين صفوف الثوار ثم قائلهم متفرقين وانصر عليهم فنادب به الكسوق السورية امبراطورا لكنه لم يلبث ان لقي حتفه بعد ذلك بقليل . وليس ابلغ في الدلالة على سوء الحكم الذي أقامه الرومان في مصر من أنه لم يصادف رضا من أي خريف ممن كانوا يعيشون في مصر عندئذ سواه . كانوا من الاغريق أم اليهود ثم المصريين .

اغلاق أبوابها . ولعل أهم ما سحب انتثار المسيحية في مصر الى جانب انشاء المدرسة المسيحية الكبرى في الاسكندرية كان قيام بعض المدارس لاعتماد القضاة واستبدال الانجيل بوميروس في المدارس التي كانت منشرة في عوالمهم المديرية وبين الكلام عنها في معرض الحديث عن التعليم الاغريقي .

(ج) ثورات المصريين

ورغم القتل المرير الذي انتهى اليه كجاج المصريين ضد البطانة ، ورغم الفوة الكبيرة التي وضعا الرومان في مصر فانه لم تكف تطوى شهور قبله على النصح الروماني حتى هب المصريون ثائرين على الزمارة الجدد . وقد رفع لواء الثورة ضد الرومان منطبقه طيبة التي مر بنا انها أفضت مضاجع البطالة بزعمها الحركات الثورية ضدهم مما حدا ببطلنوس التاسع الى شن حرب ضروس على العاصمة الوطنية القديمة طيبة وتضريبها تضريبا . ويبدو أن الثورة العظيمة بلغت من العظورة حدا اضطر معه أول حاكم روماني لمصر (كورنيليوس جالوس) الى تجريد حملة ثورية لقمعها . ويبدو كذلك أن الثورة لم تقتصر على مصر العليا بل أوجعت فيها الدلتا أيضا إذ ان سزاون يتحدثنا بأنه

العصر الإغريقي

الآداب والعلوم والفنون

الطوليوس يولون ، أو ليرشوا موامهم في
سرعفا العملية مثل ديون ، وإيلسوس -
ارميسيس . وذلك فضلا عن الكثيرين من
الضلاب الأجساب الذين ظفوا يقصدون
الاسكندرية لتلقى العلم فيها وخاصة الطب
حتى 'واخر القرن الرابع على الأقل .

أولا - الآداب

١ - علم (الجامعة) والكتابة :

وقد امتدت الجامعة مدة طويلة مركزا
للبحث العلمي وعمرا للعلماء مستفيضة فيه
الدولة على لفنها وتجرى عليهم الترتبات .
وإذا كان الأصل في التمييز في الجامعة أن
يتوقف على سكاة الشخص العلمية أو الأدبية
فإن القسراين توحى بأن المطايع لم تلبث أن
تغيرت فضلا عن هاءرياق وجبالا يدعى
بالكرتمس كل ما يعرف عنه أنه سجع بجمد
الامبراطور وخليله انطونيوس في قفسبدة
وعلى النيا جزء منها . وتعدنا واثق القرن
الثاني بأنه كان بين رجال الجامعة عندئذ بعض
كبار رجال الدين والمولعين المدنيين والقباط
الرومان مل أحد الراضين . وقد أضاف

عرفنا أنه في العصر الروماني كانت
الاسكندرية لا تزال مدينة عظيمة ونضير
ثاني مدينة في الامبراطورية الرومانية بعد
روما مباشرة وإن الرومان كانوا يظفون على
العصارة الاغريقية ويبنونها ويكادون جامعة
(دار العلم) الاسكندرية برعايتهم . لكن
الاسكندرية لم تعد عاصمة دولة عظيمة ومقر
بلاط فظور كان يضع نصب عينه جعلها
عاصمة الحضارة الاغريقية وبمى بأن يجتذب
إليها أبرز رجائ الفكر واللس ، بأن يفر لهم
من الرعاية ما يحفز عهم ويشجعهم .
ومع ذلك فإن الاسكندرية ثابتة نشاطها
وكان لها نصيب الأسد في حياة مصر العظيمة
وإن كانت لم تحتكر انجساب البارزين من
رجال الفكر والقلم فقد ولد في القراطيس
الامالكان 'ثيسابوس وپولسوكس ، ولي
ليكيروپليس (اميوط) الفيلسوف فلوطين .
ولا أدل على احتفاظ الاسكندرية بمكانتها
العامة عما تنجز إليه المصادر القديمة .
سقف الناجين من الغرباء بالومود عليها حتى
'واخر القرن الثاني الميلادي أما لبتنوا من
مواردها مثل يولونارخ ولوكاوس وماركوس

بمجرد قبصر . وقد ظلت هذه المكتبات تمد الباحثين بما يحتاجون اليه من المصادر والمراجع الى ان ذهب بعضها ضحية لأعمال التخريب التي قام بها جنود زنوبيا والبعث الأخر ضحية للصراع بين المسيحية والوثنية عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة .

وقد تابع علماء جامعة الاسكندرية في العصر الروماني ما ابتدعه سلافهم في عصر الطلبة من تحقيق النصوص الأدبية وقدها والتعليق عليها . وقد كان من أبرز هؤلاء الباحثين ثيودور كيبولوس الذي ذاعت شهرته في عهد ثييريوس الي حد انه دعى للتدريس في روما . وقام مناسره باميليرس بصنع نسخة هائلة من النسخات النادرة التي استعملت في الآداب الكلاسيكية . وكلف اريستوبوليتوس بالدراسات الصورية فمرح هوسايش اريستارخوس وقدها واكملها . وحسبوا الوقت ذاته لخرج ثيون ممجدا للترابسيديا والكوميديا ووضع تعليقات لأعمال شعراء الدراما واپولونيوس الروماني . وقامت أيضا عندئذ شعرة ايبون الذي نال تقدير ثييريوس وان كان الامبراطور نسطور فرحا بثرثرته والاشادة بنفسه . وقد ألف ايبون معصدا للأشعار الهومرية سطا عليه يوستانس . وقد كان أبرز فقهاء القرن الثاني ابولونيوس « المترجم » ويكاتور واپيوس ثون .

الاسطرطور كلاوديوس الي ميني الجامعة ملحقا حمل اسمه وكانت تتلى فيه يوميا مؤلفات هذا الاسطرطور المؤرخ . ولا ريب في انه عندما أوقف كركلا في صدر القرن الثالث الانطاق على الجامعة كان لذلك أثر بعيد المدى في نشاط البحث العلمي إذ انه لم يمد في وسع الأساتذة الإنصراك الي يعولهم مع القاء بعض المحاضرات من حين لأخر بل أصبح يثني عليهم التدريس أو أداء أي عمل آخر لقاء أجر يتيسر نفسه . وقد ولدت بالجامعة كتبة أخرى في عام ٢٦٩ . ٢٧٠ عندما انضمت جنود زوسبا على حى بروخيون وأوسموه نهباً وتخريباً ولم تبق مبالى الجامعة من هذا التدمير . الذي لم يفتش على كل حال الي القضاء على الحياة العلمية والأدبية في الاسكندرية إذ نجد زنوبيا عليها واشادة بها فيما كتبه المؤرخ اميانوس ماركلينوس حوالي نهاية القرن الرابع الميلادي .

وقد مر بنا أنه عندما أحرق يوليوس قيصر الأسطول المصري في خلال ٤ حروب الاسكندرية في عام ٤٧ ق.م . ولما ذهب الي رصيفه الميناء وأحرق المبانى المجاورة له ، ذهبت المكتبة الكبرى طمنا للنيران فقبل أن انطوي يوس عودس كليوبثرة عن تلك الضسارة الفادحة بأهدائها ٢٠٠٠٠٠ مجلد من مكتبة ريجامون . وقد كانت توجد في الاسكندرية مكتبتان أخريان ، كانت احدهما ملحمة بمعبد السراجيوم وكانت الأخرى ملحمة

يحتل شعر الاسكندرية مكانا متواضعا بين آدابها في العصر الروماني ، فالاسكندرية لم تعرف في هذا العصر شاعرا بارزا واحدا يسكن مقارنته بكاليماكوس أو ابونونيوس أو ثيوكريتوس ، والذ عرمت جميسيرة من من الشعراء المتواضعين الذين حافظوا على تقاليد الشعر الاسكندري من حيث خلوه من العواطف السبائية والشعور بالثغرى نحو الالهة القديمة وكذلك من حيث كلفه بالان العلم المختلفة وتصوير المساهم الانسانية والاشادة بالحياة البسيطة لكنهم لم يكونوا شعراء مطبوعين ولما يصطنعون الشعر استنفا . ولعل ايرز اولئك الشعراء المتواضعين انشدان كان أحدهما ديسي الاسكندري الذي عاصر هادريان وألف قصيدة جنراية وصف فيها ليبيا والجناب الأكبر من آسيا وأوروبا متبدا في ذلك على خريطة العالم البطلمي اثرثو شيس . وقد قدر لهذه القصيدة أن تسمى طويلا فابسا ترجمت الى اللاتينية واستخدمت في تدريس الجغرافيا في المدارس . أما الشاعر الأخر فانه كان من أبناء واحة سبوه ويدهى سوتريفوس وألف قصيدة في وصف مسقط رأسه وأخرى في مدح الامبراطور قنطليانوس وبعدها آخر من القصائد عن ديونيسيوس والاسكندر الأكبر وغير ذلك من شتى الموضوعات .

وقد تأثر تثر الاسكندرية في العصر الروماني باتجاهات مدارسها الفلسفية التي نتجت سكانة كبيرة ولا سيما ان الفلاسفة على اختلاف نحلهم ومذاهبهم كانوا يمترون في ذلك العصر أطباء النفسوس . وإذا كانت مختلفا بالمدارس الفلسفية العديدة قد تأمنت نشاطها فان الفيثاغورية الجديدة احتلت مكان الصدارة بينها الى أن الدمجت في غلاة العرد الثالث في الإنفلاطوية الجديدة . وكانت الفيثاغورية الجديدة تألف من عناصر استمدت من الفيثاغورية القديمة ومن فلسفات افلاطون والاشائين والرواقيين ومزجت سويا على نحو يوائم الانجساعات الدبية المتاصرة فقد وجهت عناية خاصة الى التاملات الدينية والمذاهب الخلفية . وقد كان الفيثاغورية الجديدة اثر كبير . ولا في الأفكار اليهودية عن طريق الفيلسوف اليهودي فيلون الاسكندري وثانيا في أفكار المسيحية عن طريق كليبيس (Clement) وأوريجينيس (Origenes) وثالثا في الإنفلاطوية الجديدة . ويعتبر فيلون أعظم المفكرين اليهود الذين سئلوا أثناء اليهودية الوثنية كما منير مؤلفاته سؤلوا لانفاسح يهود الاسكندرية الأخرى في العصر الروماني . وبين مدى تأثر فيلون بالفيثاغورية الجديدة من أنه استعار منها الكثير من أفكاره ومنهج في وضع فلسفته التي كانت تستهدفه الغروح

ومداها فان التمسك لم يرق املاقا الى قيمتها
الكبيرة .

وقد كانت الاملاطوية الجديدة مزيجا
من فلسفة افلاطون وارسطو والرواقين
والفيثاغورية الجديدة . وقد اصبحت
الافلاطونية الجديدة الفلسفة الرئيسية عند
الوثنيين من حوالي منتصف القرن الثالث
حتى قضي جوستينيانوس بالفلسفة المدارس
الوثنية في عام ٥٢٩ . وكان أبرز مفكري هذه
الفلسفة امثوليوس ساكاس Amelius :
Gerasus الاسكندري ولوطلين الاسيوطي
وللابيد طولين .

وكان من اوسع كتاب الاسكندرية في
اواخر القرن الثاني علما وقساعة ثيناوس
(Athanasius) الفسراطيسي الذي اكتبه
شجرة كبيرة كتابه الضخم مادونه افلاسفه
وقد حاول ان يحرق في كتابه نحو بعض
الفلاسفة القدامى في عرض آرائهم في شكل
احاديث المآذب لك لم يرق الى متواهم .
وقد دامت مآذبة ع ايبانوس بضعة ايام
دار لما اتحدث في الفلسفة والآداب والقالون
والطب ونحو ذلك من الموضوعات التي سئلتها
عدد من الضيوف اجري المؤلف على لسانهم
يفضضات استلدها من عدة كبير من الكتاب
وقد تمتع اجلس نابوس Achilles :
Fabius مؤلف قصة لوكيبي وكليتونون
(Leukippe and Kleitophon) سكانية كبيرة
في العصور المتأخرة وانماض فساد العصر

بالفلسفة اليهودية من انفتحا الضيق الى افق
اوسع بعد تجردها من كل مظاهرها
العصرية . وعندما قام فيلون بشرح التوراة
والتعليق عليها علاج ذلك بالتريفة الرمزية على
نصح الميتافيزيقية الجديدة فتحولت
التجسيبات الدينية في التوراة الى مجرد
رموز للافكار المجردة واكتسبت الجاليم
الموجرية مظهرا جديدا حملها رموزا لافكار
اعرفه مبدلة .

وقد كان كليبيس ومن بعده اوريجينيس
أبرز اساتذة المدرسة المسحية الكبرى في
الاسكندرية . ويمثل هذان الأستاذان اتجاهها
جديدا للمكرين المسيحيين استنبهوا بمناصبه
الوثنية هذها شديدا يتكلم عن ضعفها ورد
الاعتناء عن المسحية — استبدال الامجاء
انجديد بذلك الدعوة الى الافام بثقافة العصر
واستخدام اساليب الفلسفة في نشر العقيدة
المسحية وتصورها . وله جمع كليبيس ابي
قوة اياته بالمسحية الافام الواسع بالآداب
الاخرى وبدل جهدا كبيرا لتتوجن بن
الثقافة الاغريقية والديانة المسيحية أما
اوريجينيس فانه كان أقل من كليبيس الماما
والآداب الاغريقية لكنه كاذ اهن من تفكيرها
واقل فصلا للمذاهب الفلسفية وكثير فداية
بماهج البحث العمق واوسع قدرة على
الابتكار . وقد سمعت المدرسة المسيحية في
تحقيق نص لتانجيل ماثووز به ، ومما اختلف
الباحثون في تقدير طبيعة هذه المناهضة

شمسولا ولذلك حتى مرجعا لكل دارس
الجغرافيا حتى بداية العصور الحديثة .

ثانيا - العلوم :

٦ - الطب والجراحة :

وقد تابع أباندة الطب والجراحة نشاطه
في الاسكندرية وظلت هذه العاصمة القديمة
تحتفظ بشهرتها في هذا الميدان على الأقل
حتى أواخر القرن الرابع عندما كتب لميانوس
ماركليسيوس مقول انه كان يكنى الطبيب
لكتدليل على مهازته قوله انه تعلم في
الاسكندرية . ويصف هيللا على مكانة
الاسكندرية في عالم الطب كثرة عدد الذين
كافوا بقصدونها من مختلف أنحاء الديس
ندرسه الطب على أساندها الذي تابساوا
اهتمامهم بالتصريح وكان كثيرون منهم
يمززون بأنهم من سباع المدرسة النجريبية التي
ترجع الى عهد البطلمة ، وقد درس في
الاسكندرية أشهر أطباء هذا العصر وأعظمهم
جميعا : كلاوديوس جالينوس الذي ولد
في بامبون في عام ١٣٩ راول مبعته بعض
الوقت في وطنه ثم في روما الى ان تولى هناك
في الصباح من مصر .

وسلطنا كلسوس (Celsus) مسورة
شاملة عن الطب والجراحة في الاسكندرية في
صدر العصر الروماني . ويسمى كلسوس
كسابه عن الطب (de re medica) -
وهو ينقسم الى ثمانية أجزاء - بتاريخ

اليزنطي في البناء عليه . وأبرز ما يتصف به
اغليس تفضيله الواقعية على المثالية وسيله
الى اثاره مشاعر الفانيء بمهارته الفاتقة في
الوصف وأسلوبه الذي يتدفق جوية .

وتتسم كتابة التاريخ في هذا العصر
بعابها بالتأثير في النفس أكثر من عباها
بتحري الحقيقة : وبطلبيوس خلسوس
(Chamaeus) من من يمثل هذه المظاهرة التي
نضج في مؤلفه في تاريخ جديد للإسزاحة في
فواح كثيرة . ويبدو ان هذا التاريخ
مجموعة من القمص التي قرأها المؤلف و
سمعا . وأمل ايوانوس (Appianus) كان
أبرز مؤرخي الاسكندرية في هذا العصر لكن
مؤلفه الضخم في التاريخ الروماني أكثر تأزرا
بالطابع اللاتيني منه بالطابع الاسكندري ،
اذ ان ابيانوس بعد أن حصل على الجنسية
الرومانية رحل الى روما وعاش هناك حيث
يرجع انه وضع مؤلفه في عصر أنطونينوس
بيوس . وقد شارك في كتابة التاريخ أيضا
العالم العذ كلاوديوس بطلبيوس لكن شهرته
كجغرافي ورياسي تيز شهرته كمؤرخ فنكتابه
في الجغرافيا يتالف من ثمانية أجزاء وأطس
وكان يستهدف على حد لونه استخدام أحدث
المعلومات في تصحيح خريطة العالم التي
وضعها جغرافي عاش قبله وكان يدعي
زينوس الصوري . وبرغم ما يتصفه كتاب
خلسوس من أخطاء فانه يعتبر بوجه عام
أثق المؤلفات الجغرافية القديمة وأكثرها

٢ - العموم الرياضية :

وإذا كانت فروع العلم الأخرى قد أهدمت في العصر الروماني ، فإتة كان لعلوم الرياضية شأن آخر . وليس هناك مجال لأن نمرؤ أي نقل في ذلك إلى رعاية الرومان ، فقد كانوا يحتقرون العلوم البهتة فيما عدا ما كالتة يمكن إعادته من تطبيقاتها .

وقد عرفت الاسكندرية ورياضيين عظاما مثل منيلاوس (Menelaus) وسرموس (Serenus) وبابوس (Pappus) الذين عتوا بدراسة الهندسة ولهم فيها مؤلفات فيه لكن مؤلفات سرنوس لم رن إلى مستوى مؤلفات العالمين الآخرين التي ترجعها العرب وبفضلهم وصلت إلى العالم الحديث . وقد كان من الاسكندرية أيضا المسالم ديونانتوس (Diophantus) الذي ابتدع نظاما خطيا بالحساب مخطورة واسعة لحر الجبر . أما هرون (Heron) فله مؤلفات كثيرة في الهندسة والميكانيكا لم يصل إلينا بعضها إلا بالمرية والبعض الآخر باللاتينية فقط والبعض الثالث بالأخرية والعربية واللاتينية ، واستخدمت كنية في المدارس منذ قرون . وتعتبر جهود هرون قبل كل شيء استمرارا لجهود ارخميدس وافقليدس وكلمبيوس ، فقد كان شديد الإهتمام بتطبيقات العلم فابتدع وسائل لمسح الأرض ورفع الإختلال واستخدام البخار وطلبة لاطفئه الحريق وجهارا شيئا بعدد السيات .

طريف للطلب بنفسن مقارنة بين إتباع المدرسة النظرية وإتباع المدرسة التجريبية ويخصص الجرمين الأول والثاني لتتفيذة وعلم للأمراض والقواعد العامة للعلاج . وناقش في الجرمين الثالث وإزايح الأمراض الداخلية وفي الجرمين الخامس والسادس الأمراض الخارجية . ويمتد الجردان السابع والثامن ، وهما يتناولان الكلام عن الجراحة ، أهم أجزاء هذا الكتاب . ويتبين من هذين الجرمين أن جراحي الاسكندرية لم يباشروا مختلف أنواع الجراحات المألوفة فحسب بل أيضا جراحة تجصيل الوجه وكذلك جراحة الأسنان . وعمدنا الوثائق البديدة بأن بعض أطباء الاسكندرية إتخدوا عبدا من الأريطة والأجهزة التي عرفت بأسمائهم وكانت تستخدم في حالة حدوث كسر في العظام أو خلق في الأنفية الداخلية

لكن في القرن الثالث لم تعد الظروف مواتية للإبحاث والملاحظات العلمية فقد انتهى عهد الكشوف وأصبح هم العلماء مقصورا على اكتشاف المطومات للموائمة بين ما سبق الوصول إليه وبين حاجات العصر . فلا يجب أن أخذ الطب يتهدر وهدا وهدا وأخذ عامة الناس يلجأون إلى التصاوير والسحر والتنجيم من أجل الشفاء من المرض ؛ بينما أخذ المثقفون ينتمون شفاء الجسم في سعادة الروح .

ويشمل الفلك بالرياضة اتصالاً وثيقاً . وقد كان أصول الفلكيين الإسكندرانيين باعاً وأعظمهم شيئاً كلاوديوس بطليموس المؤرخ والجغرافي الذي سلفنا الإشارة إليه . وهذا الفلكي عدة مؤلفات ترجم العرب أكثرها ، وأهم هذه المؤلفات كتابه « المجسوبة الكبرى » الذي يتضمن ما وصل إليه الفكر الإغريقي في الفلك ولغا لنظريات هيبارخوس مع ما أضافه بطليموس إلى هذا العلم .

ثالثاً - القنون :

١ - فن الكهنة :

سنحاول الكلام هنا في إيجاز شديد عن المقار والمنازل والمنشآت العامة والمعابد ونبين إلى أي مدى تأثرت العمائر تارة المصرية والإغريقية ببعضها بعضاً ، وإلى أي مدى كذلك أثبتت الصارة الرومانية وجودها واحتفظت بقاياها في مصر .

(١) المقابر :

عرفنا إذ الإغريق كانوا يستخدمون في عصر البطلمية ثلاثة أنواع من المقابر وهي : (١) المقبرة ، (٢) للجنود المسطحة (tumul) التي كانت تبنى في جدرانها دواليب أو غرفه ، (٣) مقابر الأرائك التي تحولت في آخر عصر البطلمية إلى مقابر ذات فجوات ومخاريب ، حيث اختفى الأرائك تماماً وكان الموتى يدفنون في توابيت كالصناديق كانت توضع في المخاريب .

وقد أثبتت الحفائر التي أجريت في الاسكندرية ان بعض مقابر الأرائك قد أعيد استخدامها في العصر الروماني وانه فضلاً عن ذلك كانت تستخدم في هذا العصر ثلاثة أنواع أخرى . وكان النوع الأول مماثلاً للنوع الأول الذي كان مستعملاً في عصر البطلمية . ولا حفرية في ذلك لقد كان هذا النوع شائعاً بين عامة النخاس شمس الإغريق وعند الرومان على السواء . أما النوع الثاني فكان في أبسط مظهره يتألف من سلم وبنز (لا زال الموتى) وغرفة ذات فجوات وغرفة ذات توابيت . وكان نظام هذه الغرف وعددها وتوزيعها يختلف باختلاف بيئتها ، ومع ذلك فإن الصفة الواحدة بين هذه المقابر ومقابر عصر البطلمية . أما النوع الثالث فيشبه عن قرب المقابر الكبرى في روما من حيث وجود غرفة صغيرة تؤدي إلى غرفة المدفن الرئيسية على نحو ما نجد في المقبرة الكبرى في كوم اشقافه حيث استخدم للتدفن التوابيت والنحوت على فرار ما كان يتبع في مقابر النوع الثاني .

وإذا كان طراز العمارة في هذه المقابر إما إغريقي أو روماني فإن الزخرفة فيها تستوقف النظر بكثرة ما فيها من عناصر مصرية . ونجد هذه الظاهرة نفسها في التوابيت الجنائزية أيضاً .

(ب) المنازل :

وخرجي الفران بأن احرق المدن الاغريقية
وبعض مدن التيوم استروا يستخدمون
أرواح المنازل التي القوها من قبل في عصر
انطالمة ، وانه فيما يبدو أنشئت أيضا منازل
مسيحية تشبهه بالقبيلات « الرومانية » .
أما فيما عدا ذلك فانه يتبين من المنازل الكثيرة
التي كشفت العفريات عنها في حصن مسدن
العبوم وقرها ان الاغريق كانوا كالمصريين
يعيشون في منازل مصرية فعتبر استمرار
لطرز المنازل التي عرفنا مصر منذ أمد طويل
تكن يبدو ان الاغريق والمصريين المتأخرين
كانوا يستخدمون في تزويق منازلهم زخارف
الغربية .

(ج) المنشآت العامة :

أما الرومان في جهات متعددة في مصر
صالح مدينة متعددة الأرواح : كالموايات
والأنفوس والمسارح والحصاريا والعمارات
العامة . ويتبين من حايا المنشآت التي كشفت
عنها اصلا كانت دفعا للطرز الروماني في
تخطيطها وعمارها وزخرفتها وان الطراز
الروماني في مصر كان كسأله في روما وبأني
أعلاه انما لم الروماني يميل الى استخدام
الأعمدة الكورنتية . وعلى حين كانت المنازل
تسى عادة من اللبس كالتنشآت العامة بنى
من الأحجار وكثيرا ما استخدم بها ، ولا سيما
في الاسكندرية ، الرخام المستورد من الخارج

وتدل الحفريات على أن الغالبية العظمى
من المصريين قد احتفظوا بمسازم الجنائزية
وطرن المدن التي النوها منذ عهد بعيد . فقد
كانوا يدفنون موتاهم إما في مقابر قديمة
أعادوا استخدامها أو في مقابر حديثة كان
بعضها عبارة عن كهوف طبيعية أو قحوب
نحنت في جانب التلال أو آبار حفرت في باطن
الأرض ، وكان لها بئر ينهى برفة واحدة
أو مرتين للدفن .

ويتبين من التكتسوف الأثرية في لونه
الحبل ، بالقرب من الأشمولي ، ان المصريين
المتأخرين كانوا يقيمون معابد ويومنا
جسائرية تحتل فيها العناصر المصرية
والاغريقية احتلالا واضحا سواء في المذابة
أو في الزخرفة أو في طرق الدفن .

رما يجدر بالملاحظة ان تعجب المولى
طل شاملا بين المصريين وحتى بين المسيحيين
منهم فالهم حتى أواخر الفر الرابع لم يعتبروه
مخالفا لمعالم ديانتهم الجديدة

وهكذا يبي لنا أنه جنبا الى جنب العمارة
الجنائزية الاغريقية والمسرة الجنائزية للمصرية
قد ظهرت أيضا العمارة الجنائزية الرومانية .
ويسوقه النظر انه على حين نجد الأثر
المصري واضحا جليا في زخرفة العمارتين
انجائزيتين الاغريقية والرومانية ، نجد الأثر
الاغريقي واضحا جليا كذلك في زخرفة حصن
أمثلة العمارة الجنائزية المصرية .

وقد مر بنا انه كانت للاسكندرية في عصر البطالمة مدرسة للنحت الاغريقي ذات سميات خاصة وفرازين احدهما مثالي والآخر واقعي ، وان الاسكندرية اشتهرت فروعاً جديداً من فن النحت كافة عبارة عن دراسة اجناس الناس وخلقهم وحرفهم .

والساد العالم الروماني الجاه قوي نحو منح تماثيل تحاكي اشكال اصحابها محاكاة دقيقة كأنها من منح آلة تصوير أو ريشة رسام وجد فنانون الاسكندرية في هذا الاتجاه مجالاً واسعاً لانرار مواهبهم واصبت منتجاتهم بطراز مديسنتهم وبطابعها الاغريقي البحت . ويتصل بهذه الصور المصنوعة من الرطام أو المرمر أو مختلف أنواع الصخور مجسومة رائعة من الصور كشف عنها لالعصور وكانت تصح بالألوان على لوحات مسكوة بالشمع وتعلق على جدران المنازل في أثناء حياة اصحابها ثم تغطي بها وجوههم بمسح مسانهم . وقد بدأ إنتاج هذه اللوحات في القرن الأول بعد الميلاد وبلغ ذروته من حيث الشهارة والابداع في القرن الثاني .

وقد تابع الفنان المصري نشاطه في التماثيل وعلى بدران المعابد ونسب المومي ومختلف الراحى التي كان أسلافه يصنعون منذ القدم .

ويتبين من دراسة فن النحت في العصر الروماني :

ولم يبق من معابد الاسكندرية التي أنشئت في العصر الروماني الا مسور رمزية مسطرة لبعضها على القنود . واذ اتخذت هذه الصور مقياساً للحكم على طراز هذه المعابد فإنه يمكن التوصل بأن طراز أغلب هذه المعابد كان الهيرقياً أو رومانياً على حين كان ضمراز البعض الآخر مصرياً بحت وطراز البعض الثالث يلب عليه الطابع المصري لكنه لا يخلو من بعض العناصر الرومانية .

أما معابد الآلهة المصرية التي اكتملت الرومان أو زخرفوها أو أنماؤها في مختلف القرى والمدن المصرية فإنها اقلعت بدقة تقاليد الفن المصري القديم ولا تظهر فيها أى تأثيرات اجنبية . وتشمل ذلك بوضوح في معابد مدينة هابو والقلمنة بالقرب من قفط ودندرة واسنا وكوم اوسبو وفيه ونالمس ودندور ووكة والمعرقه . وقد سور الأباطرة على جدران مسنده المعابد في شكل الفرائس وريمم . اوطاعهم وهم يخدمون القرابين لمعابد آلهة البلاد .

ويتبين لنا من كل ما أسلفناه انه اذا كان يمكن القول بوجه عام ان كلا من العمارة الاغريقية والرومانية ولا سيما المصرية قد احتفظت بطابعها الخاص فإنه مع ذلك قد نهوت حتى في العمارة الدينية دلائل على نزوح الأفكار والعناصر .

ان دل على شيء فانما يدل على أثر البيئة
لإعلى أثر الحضارة .

٣ - ان في الكثير من قطع النحت
محاولات واضحة وان كانت غير ناجحة لزج
النظر بين المصري والافريقي . وهذه القطع
أدنى قدرا الى قيمتها الفنية من القطع التي
طرازها افريقي بحت أو مصري بحت ، ومع
ذلك فان عددها ازداد على مر الأيام . وقد
كان ذلك نتيجة طبيعية لازدياد الاختلاط بين
الافريقى والمصريين وازدياد التمازج الافريقى
في المصريين . وكان هذا الفن المزيج مرحلة
الانتقال التي مهدت لقيام الفن القبطى .

٤ - ان الفن الاغريقى والمصرى اخذوا
تجسدا في رويدا رويدا ولم يصل دون
التيارهما السريع الا لتعالدهما القديمة ومهارة
الفنانيين المتوارثة . ولما كان الفن المصرى
القديم يقوم على الديانة ، شأنه في ذلك شأن
باقي مظاهر الحضارة المصرية القديمة ، فان
اعتراف الدولة رسميا بالمسيحية افضى الى
الفضاء عليه قضاء ميرما .

١ - ان أكثر النقود التي سكها الرومان
وكثيرا من قطع النحت التي ابتدعها الفنانون
الافريقى اغريقية بحت في طرازها وعناصرها
وصيغتها ، وان كثيرا من قطع النحت المصرية
وكل لوحات المعابد المصرية بحت في طرازها
وعناصرها وصيغتها .

٢ - ان الكثير من النقود و قطع النحت
تختلط فيها العناصر دون الطرز مثل تصوير
اله مصرى أو بوابة مهيبة مصرى أو نايح
مصرى على تلك السلطة من النقود التي
تعرف بنقود المديريات ، فهذه عناصر مصرية
الا ان طراز النقود افريقى . ومثل صنع
تمائم لالهة مصرية بطراز افريقى أو صنع
تمائم لافريقى أو رومان من السيطاق
أو الجرايت أو غير ذلك من السواد الفريه
عن الفن الافريقى . ومثل تصوير الأباطرة
الرومان بطراز وملابس مصرية . وقد سلك
القوة ان المقياس الحقيقي في أى فن من
الفنون هو الطراز باعتباره مظهر تشكيل الفنان
وطابع حضارته . ولذلك فان اختلاط العناصر

من ديوقنديانوس إلى دخول العرب

للدكتور مراد كامل

مقدمة

في هذا العصر ، وذلك بسبب فسياد أدلة الحكم واستغلال الحكام ، مما دعا الشعب الذي كان يعيش في هذا الجو الفاسد أن يفضح حكامه ويحتقرهم وأن يتطرح إلى الاستقلال والحرية وحياة أفضل .

وكان دخول العرب فرصة مواتية أحدثت تغييرا كاملا في السياسة وفي الدين ، ووجهت مصر وجهة جديدة نحو الشرق والاتصال بشعوب الشرق ، بسد أن كانت صلاتها العنصرية مقصورة على العرب أو بصارة أقي على العنصرية الاخرسية .

من ديوقنديانوس إلى هرقل ٢٨٤ - ٢٨٤
ديوقنديانوس ٢٨٤ - ٣٠٥

تولى ديوقنديانوس الحكم فوجد نفسه أمام مجسدة من اللوائح والقوانين والنظم - التي سجد عليها سياسة الامبراطورية - لا تتسلي وحاجة عصره ، فحاول أن يصلح الموقف بإدخال تغييرات أساسية في سياسة الدولة ، وذلك ليتعمد إلى الإليسان المتوقع للإمبراطورية ولينشع الاضطرابات التي كانت تسود الدولة عند موت الامبراطور وتولي خليفة له .

في النظر الثاني من حكم الرومان ، أي من ديوقنديانوس إلى دخول العرب ، المثل الرابع مصر بمسلمين ولبيسبون وهما : المسيحية والسياسة البيزنطية .

وستقدم لهذا العصر بكلمة موجزة عن سياسة الإمبراطرة العامة ، من ديوقنديانوس إلى هرقل ، لم تتجها بنظام الإدارة في مصر والنظام المالي والجيش والحالة الاقتصادية .

وسنحرض في الفصول الخمسة التي تلي المقدمة الألوان المختلفة لعياة الشعب المصري من سياسية وفنوية وفكرية وفنية واجتماعية في هذا العصر ، ويوضح لنا من هذا الرض كساح الشعب المصري للاحتفاظ شخصيته وكيانه ضد الحاكم المنتصب .

وقد كان للاسكندرية الزعامة الدينية في الشرق المسيحي ، وفي مصر نشأت الرهبنة التي أعدها عنها العالم المسيحي ، وفي مصر ظهر أعظم رجال الفكر المسيحي . وكانت مصر منذ فجر تاريخها المتمدن في التقدم أرضا خصبة ، بفضل نيلها وطبيعة أهلها الذين اتسموا بالثابرة على المعامل والساحة والمسألة . ولم ينسح هذا أن يعم اليأس البلاد

أدخل ديوقديانوس إصلاحات عديدة على النواحي المختلفة في الدولة ، فجعل من الامبراطور شخصية مقدمة تؤدي لها فروض العبادة بخضى طموس دقيقة مرسومة استلها من تقاليد الشرق .

كما ركز في الامبراطور سلطة الحاكم المطلق فأصبح قبض على كل السلطة الادارية . وكن سلطة السانو والفي وقيمة المستشار وجعل كل الولايات خاضعة للامبراطور فلم تعد هناك ولايات خاضعة للمنائو ، كما ألغى الامتيازات المنوحة للولايات التي كانت من الأصل نظم الامبراطور ، لم أدمج الولايات وحداد ادارية وركز كل امارات الامبراطورية في ايدي موظفين وادارات تابعة مباشرة للامبراطور ، ونصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية .

وحاول ديوقديانوس ان يجعل المائتين اللتين كانت توفقه عليهما سلامة الامبراطورية ، وهما الدفاع عن البلاد وتنظيم وراثه العرش .

وكان ديوقديانوس يعتقد ان الدفاع عن حدود امبراطورية مترامية الأطراف لا يمكن ان يتولى امره امبراطور واحد . وقد عهده ذلك على ان يترك ماكسيميان منه في الحكم وذلك في سنة ٣٨٦ وأسند الي ماكسيميان الدفاع عن القرب واحتفظ لنفسه بالدفاع عن الشرق . أما وراثة العرش فلم يكن لها

نظام متبني ، وكانت المطامع في ارتقاء العرش من المشاكل التي تواجهها الامبراطورية عند موت الامبراطور . وفي سنة ٢٩٣ قرر ديوقديانوس ان ينولي الحكم امبراطوران في نفس الوقت ، أحدهما للشرق والآخر للقرب ، وجعل كل منهما لقب «أوغسطس» على ان يتبني كل منهما بغيره ليكون وراثته في العرش ويجعل لقب « قيصر »

من قسطنطين الى ديوقديانوس
(٣٣٣ - ٥١٨)

فغرقت الدولة رسميا بالمسيحية في عهد قسطنطين الذي هو فاتحة التاريخ البيزنطي . وقد شيد قسطنطين على مدينة بيزنطة القديمة مدينة جديدة استمدت اسمها من اسمه وعرفت بالقسطنطينية ، وأصبحت عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية فأخذت تنمو وتزدهر بغطى سرعة .

وأضحى قسطنطين على اصلاحات ديوقديانوس الصعبة النعالية ، حتى أصبح للامبراطورية البيزنطية طابعها الخاص ، وانحصرت السلطة الادارية والحكومة في البلاط الامبراطوري ، وكان مركز الدولة ، وأصبح الناس يهتمون الامبراطور بمد ان كانوا يشهدون الدولة .

والغنى العرش بعد قسطنطين ما يزيد على العشرين امبراطورا ، أهم ما يعنيننا من امرهم مناصرة كشمير منهم للرافطة ومناسبتهم الكنيسة المصرية عداه شديدا بسبب وقوفها في وجه أولئك الرافطة .

وكانت هذه الفترة مثبته بالطلاق والاضطرابات لا استقرار فيها . فتارة يصير الأمر فيها لامبراطور واحد وتارة توزع السلطة بين امپراطورين أحدهما في الشرق والآخر في الغرب . ويرجع عدم الاستقرار الى أمور مختلفة أهمها : ان القوى الحية لامبراطورية كانت كلها في الشرق . وأن المسيحية تطورت في الشرق بطريقة تختلف عنها في الغرب . وأن هجسبات البربر على الغرب كانت أشد أثرا منها على الشرق .

امبراطور يوستينيانوس (٥٢٨ - ٥٦٥)

كان حكم يوستينيانوس تطورا طبيعيا وضروريا في تاريخ الامبراطورية . فقد طس ابطورة القرن الرابع سلطانهم على الضرب في سبيل سلامة الشرق . ولكن يوستينيانوس أخذ يطلع الى الغرب منذ بداية حكمه ، وسأله مناصمه الى محاولة استعادة الماضي . واستفد جهدا كبيرا ليهت من جديد هذا الجزء المبت من الامبراطورية مما أدى الى اعادة قوى الجزء المني

وكان من جراء فكرته في استعادة مجد الامبراطورية الرومانية ، حروبه العديدة فأسكه أن يجبل من البحر الأبيض المتوسط بحرا رومانيا ولكن سرعان ما اضطرته حروبه في الشرق الى أن يكف عن الحروب . وأن يقوم باشاء سلطة من التخصينات جعلت من الامبراطورية ميدانا معيذا .

وقد عن يوستينيانوس انه سيميد تأسيس الامبراطورية على أساس سليم ، فسد الى وضع نظام من شأنه أن يجعل الرخاء يسود كما كان في روما أيام محمدنا . وسلك في ذلك طرقا تلخص في اعماله التشريعية وفي اصلاحاته الداخلية

الاشريعية :

كانت روما في مقدمة البلاد التي عنيت بالاشريع بل تعتبر مؤسسة علم القساوان . وعلى أساس هذا العلم أوجدت الدولة نظام الوحدة الذي يسي على سلطة الامبراطور المطلقة .

وقد أدرك يوستينيانوس عظم الفساده التي يسكن أن تملؤد على الامبراطورية اذا جمع مصادر القساوان الروماني الذي كان معمولا به عندئذ ولشرها على نحو يسكن تدابره والرجوع اليه . وقد لخص هذا الصبء عدد من أبرز لقهاء الرومان . ومنه ذلك الوصف عن هذه المجموعة من القوانين المرجح الذي تضمنت عليه المحاكم ومدارس القساوان في الامبراطورية ، بل أصبحت انصدر الذي استمد منه القساوان المحدث الحديث .

وقد أطلق على هذه المجموعة من مجموعة قوانين يوستينيانوس ٤ . وهي تنقسم الى أربعة أجزاء .

١ — مدونة يوستينيانوس وقد نشرت في أولا في عام ٥٢٩ تم وجمعت ونشرت ثانية

في مسام ٥٣٤ وكانت عبارة عن مجموعة
تشرعات الأباطرة التي كانت لا تزال نافذة
المفعول .

٢ -- البندكت أو المجمل وقد نشر في
عام ٥٣٣ وكان يتضمن مغلطات مما كتبه
أبرز فقهاء القانون الروماني ، ورثت هذه
المغلطات بحيث تستكمل ما لم يرد في المدونة
من أحكام القانون المدني .

٣ - القوانين وكانت كتابا موجزا وضع
خصيصا ليستخدمه طلبة القانون .

٤ - المراسيم الجديدة التي أصدرها
يوسيتيالموس بعد سنة ٥٣٤ وبعدها ١٦٨
مرسوما .

ومن الملاحظ أن الأجزاء الثلاثة الأولى
كتبت باللاتينية وأما الجزء الأخير لكتب
بالغويالية .

اصلاحاته الداخلية

التفت يوسيتيالموس لتحسين السياسة
الداخلية في الامبراطورية ، فأنفذ عدة وسائل
للإصلاح بعد ما شاهد استياء الشعب من
الموظفين ومن سياسة الأباطرة مما أدى
الي قيام ثورة في القسطنطينية فحسبها
سنة ٥٣٢ . فأصدر ممرجات لأجل اصلاح
الوظائف الحكومية كإلغائها الوظائف
الزائدة عن الحاجة ، ورفع مرتبات الموظفين
واعادته الجمع بين السلطنين المدنية
والعسكرية ، واتخذ خطوات ايجابية من

شأنها أن تجعل للموظفين بعض الاستقلال في
الإدارة مع ربط الإدارات بالسلطة المركزية .
وحد من امتيازات كبار الملوك الذين كانوا
خطرا دائما على الطبقة الوسطى ، وعانتها
فعلا في تقدم الدولة ورفاهيتها .

ولكن كل هذه المحاولات الإصلاحية
فأبت بالفشل ، والسبب في ذلك هو
الامبراطور نفسه لأنه كان في حاجة ملحة الي
المال لمواجهة النفقات الباهظة التي كانت
تطلبها حروبه الكثيرة ومناخه المختلفة ،
فألح على وكلائه في جمع المال على أية صورة
وغيرت ضرائب جديدة ، ثم غير العملة
وجعل الموظفين مشرلين لخصمها من جمع
الضرائب ، فانتقموا من جانبهم اجراءات
تسببية لجمع المال من الشعب ارضساء
للايراتور فكان هو العامل الأول في هدم
اصلاحاته .

أما سياسته الدينية فحسه أصدر
يوسيتيالموس مراسيم سنتي ٥٢٧ و٥٢٨ ضد
الهرطقة وأصبحت يبدع ثم أمر بالملل
مدرسة ألبا الوثنية سنة ٥٢٩ ، وكان عصره
عصر نزاعات مستمرة بين المذاهب المسيحية
المختلفة . وعاش الهرطقة بالرقم من
الاضطرابات بل كان رؤسائهم يسكنون
القسطنطينية نفسها . وتشهد سياسته
الدينية وكان سبب فشلها على الأكثر سياسة
الغرب ، هذه السياسة التي أنهكت قوى
الامبراطورية فلم تعد تتحمل هجمات العدو

في شرفها ، وهي التي استندت مالية الدولة وأحييت الإصلاح الإداري ، وهي التي أضاعت الفرصة على الدولة في النهاية لتوحيد المسيحية في الشرق وهي في أشد الحاجة الى ذلك .

الحالة الاقتصادية في عهد يوستينيانوس :

كانت حياة النساطه والرهبان الذين يعيشون في صحارى مصر ولبنان داعية لتجميع الامبراطور يوستينيانوس والامبراطورة ثيودورا للرهبنة عامة ، فأخذت له الانتشار والنظور ، وكان لهذا اثره في الحياة الاجتماعية ، كان هؤلاء الرهبان يشتمون بصرية ولسعة جملتهم يتدخلون بالتدريج في الحياة السياسية وفي حياة البلاط . وأخذ عددهم يزداد ، والاهات عليهم الوقفيات والهبات والنعمات وكانت مغناة من الضرائب في اغلب الأحيان . فظهرت بذلك طبقة جديدة في المجتمع لها امتيازات ولها اثرها في الحياة الاقتصادية .

وهناك خاصية أخرى كان لها اثرها في الحياة الاقتصادية في عهد يوستينيانوس فقد قام بأعمال الخيرية عديده مثل تهيئة الطرق وإنشاء القناطر وتشييد التحصينات والقلاع ومد انابيب المياه وبناء الكنائس والأديرة . وكان المظهر الأول لكل هذه المنشآت يدل على أن الدولة في حالة رخاء ، ولكن سرعان ما اضطرت لهيئة المالية — لما استترفت هذه الأعمال من أموال باهظة — الى وقفها بعد

أن أنفقت الضرائب كاهل الشعب من جديد . أما تجارة الدولة فقد شجع يوستينيانوس بعض المراكز التجارية الأساسية ومنها بعض الامتيازات فزاد من نشاطها . وكانت مشكلة الامبراطورية هي عتصفا بالشرق الإقليمي للحمول على منتجات الهند والصين . وكانت التجارة الشرقية تصل الى الامبراطورية اما برا عبر الطريق الشمالي الذي كان يمر بوسط آسيا فبحر قزوين والبحر الأحمر ، واما بعرا عن طريق الخليج الفارسي أو عن طريق البحر الأحمر ، ولما كان الفرس ينفون جانبيا كبيرا من التجارة الشرقية فقد حاول يوستينيانوس أن يحول التجارة الشرقية اما الى الطريق الشمالي أو الى طريق البحر الأحمر ، وذلك من ناحية

لتهنادي وسلسلة الفرس ومغالاجهم في فرض الضرائب ، ومن ناحية أخرى ليزيد نصيب الامبراطورية من التجارة الشرقية . ولكن يوستينيانوس فشل في ذلك ولم تتمكن بيزنطة من التخلص من منافسة الفرس الاقتصادية .

هكذا ، يوستينيانوس (٥٢٥ - ٥٦٥)

مات يوستينيانوس والدولة في حياة الفلاس وقسمت عم البروس أموال الشعب . وارتاح الجميع لونه ، ولكن طغصاه لم يجدوا حلا للمشكلة المالية التي ترتبط بها الإدارة الداخلية برياط وثيق . وغاب معارضة قوية ضد سلطة الامبراطور الطاعة . كما نشأ خلاف شديد بين البابا جريجوريوس

وبين بطريك القسطنطينية كل هذا والمدى
لم يكف لحظة عن مهاجمة حدود
الامبراطورية .

عوقل (٦١٠ - ٦٤٦)

. كان القرن السابع أكثر مصور التاريخ
البيزنطى حلكة ، فقد كان عصر أزمة خطيرة
وشح فيها أن كيان الامبراطورية أصبح في
سبب الريح .

طرد الركود الى الحضارة البيزنطية في
القرن السابع فلم يظهر في هذا القرن كتاب
أو مؤرخون أو قام أحد بعمل المسائل في
بال . وهم الضوف الناس في هذا القرن
واتكفرت فيه الخرافات .

ولم يكن هذا كله ليدل على سقوط
الدولة النجالي بل أظهر أن علامة مناسلة وأن

على الامبراطورية أن تتادها بحاوله تصير
اتجاهاتها . وكان السبب الأول في هذه
الأزمة هو محاوله يوستينانوس المناشلة في
اعادة الروح الرومانية الى الامبراطورية
وتوحيد الشرق والغرب .

ولم يبق أمام الدولة الا أن تخضيم
للعوامل الجغرافية والجنسية والاقتصادية
والدينية والادارية ، فغير اتجاهها تنبرا
واضحا وأصبحت امبراطورية يونانية شرقية
جدد أن كانت امبراطورية رومانية ، وقسمه
مكنها هذا الوضع من أن تعافى على ما بقى
لها بحسه استيلاء العرب على أهم أقاليمها
واستيلاء السلاف على شبه جزيرة البلقان ،
وكتب للامبراطورية البيزنطية البقاء حتى
القرن الخامس عشر .

النظام الإدارى والمالى ونظام الجيش والحالة الاقتصادية في مصر في العصر البيزنطى

والنضاه وأسندت قيادة الجند الى قائد مستقل . وكانت المقاطعة الأولى لماضحة نفوق الحاكم العام مباشرة . أما المقاطعات الأخرى فقد كان تتولى حكمها رؤساء يقيم كل منهم في مقاطعة ويخضع للحاكم العام الذى كان بدوره يخضع للحاكم أو دون الشرق . وعندما ضمت ليبيا الى مصر منح الحاكم العام لقب مستشارا وقسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص .

وقد نجح تسميم البلاد الى مقاطعات اعادة تنظيم الإدارة المحلية في أوائل القرن الرابع ، فلم يعد هناك وجود عملى للمديريات فلما قسمت الى تقاليم أصبح هي الوحدات الفعلية في الإدارة المحلية ، وترتب على ذلك بطبيعة الحال إلغاء منصب المدير أو القائد وكذلك إلغاء منصب الكاتب الملكى . وكان أهم الحكام المحليين مراقب جميع الضرائب (Zecitor) ، واليه وانتقلت اختصاصات القائد في الشؤون المالية . أما المخصصات القائد المدنية فلما انتقلت الى حاكم آخر Logistes) كان في الأسفل مسئل السلطة المركزية لكنه أصبح حاكما محليا دائما يتنوع بغزوه في الأقاليم والمذد على السواء وآلت

النظام الإدارى :

عندما انتهى ديوقلدياوس العرشى كان أول ما اتجه اليه هو فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية وتوجيه النظام الإدارى في كل أنحاء الامبراطورية . ولذلك أعاد تنظيم مصر فقسمها الى ثلاث مقاطعات هي مصر الجنوبية ومصر الوسطى ومصر . ويشتمل ان هذه المقاطعات كانت تقابل على وجه التفرقة تمام الدلتا ومصر الوسطى ومصر العليا الى كانت موجودة في القطر الأول من مصر الرومانى . وفي عهد لسطين الثاني تكونت في عام ٣٤١ مقاطعة رابعة في الأماصية من الأقاليم الشرقية في المقاطعتين الأولى والثانية . ولما عهد ليوديسيوس الأول أصبحت ليبيا الى مصر فأصبحت المقاطعات ثمسا . وحوالى أواخر القرن الخامس غير اسم المقاطعتين الأولى والثانية فأسبغت على التتابع مصر واركانية .

ولما كان ديوقلدياوس وحلفاءه حتى يوحنا نوسي يرون ضرورة فصل السلطتين المدنية والعسكرية فقد وضع على رأس السلطة المدنية في كل أنحاء البلاد حاكم عام كان يهين على شؤون الإدارة والمالية

الضرائب ، وكانت تحدث مرة كل خمسة عشر عاما . وظلت هذه الطريقة متبعة حتى النبت القنصلية في عصر بوسثيانوس وامتد نظام التأريخ بسنوات حكم الامبراطور .

لم يكند بوسثيانوس بعثي المرش حتى ادخل تمديدين على نظام الإدارة في مصر قضى احدهما على اعتبار مصر وحدة إدارية واحدة اذ ان هذا الامبراطور قصر شوذ الحساكم العام على المقاطعة الاولى وسوى بينه وبين حكام المقاطعات الاخرى وجعلهم جميعا خاضعين لنوع الطرق . اما التمديد الاخر فكان الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية واسنادها معا الى حكام المقاطعات لأصبح كل منهم في مقاطعته رئيس الإدارة والشرطة والقضاء والمالية ، لكن حاكم المقاطعة الاولى هو الذي كان يجمع الى الاسكندرية كل ضرائب مصر نوعا وهذا ثم رسطها الى بيزنطة .

وكانت سلطة حكام المقاطعات محدودة فكانوا يلجأون الى القسطنطينية تستخدم بالجندي في حالة قيام اضطرابات أو ثورات داخلية . وكان هؤلاء الحكام في اول امرهم اجانب ، ولكن رأى الجاهلزة فيما بعد أن يضاروهم من بين اليونان المقيمين في مصر . وقرر هذا التصرف بوسثين الثاني سنة ٥٦٩ . وكان الامبراطور يقر تعيين الحساكم الذي يرشحه الاساقفة وكبار الملك وعظماء البلاد .

اليه اختصاصات حكام المدينة القديمة فزالوا بالتدريج . وبعد القرن الرابع حل مكان هذا الحاكم (Logistes) حاكم آخر (Defensor) . وقد ظلت مجالس الشورى قائمة وألقت عليها المسئولية كاملة عن الإدارة العمامة والإدارة المالية ، وغدت عرفهم المديرين بلبديات على النمط الروماني تمنح بيهكم ذاتي ويدخل في نطاق كل منها منقطة وبضبة . وكان الهدف من كل هذه التغييرات هو أن تخضع مصر بالتدريج لمصادات وقوانين الولايات الأخرى في الامبراطورية بالرغم من اختلاف العوامل الجغرافية . وقد كان من آثار الرغبة في التوحيد والتبسيط أن اختيرت اللغة اللاتينية لغة رسمية حتى في الولايات التي كانت اليونانية لغة رسمية فيها مثل مصر . ولكنه لم يكن لهذا القرار اثر فعال في مصر ، فقد ظلت اليونانية لغة المحساكم والادارات الحكومية . وكانت القرارات العامة تصدرها . وربما كان الامر الوحيد لهذا القرار أن الحاضر الرسمية للفضايا أصبحت تصدر في اطار لاتيني أي أن العنوان والتاريخ وموضوع القطعة كانت تكتب باللاتينية ، وقد يكتب الحساكم ملاحظاته باللاتينية ، أما اقوال الطرفين والتصعيد واحكام القضاة فظلت تكتب باليونانية . . . وكذلك تغيرت طريقة تأريخ الوثائق القامونية فاستبدلت بسنوات حكم الامبراطور سنوات الفاصل مع ذكر موقع العام من ثورة هدير

والواقع أن لجيش في مصر في العصر البيزنطي كان جيشا حريلا يتقوده رؤساء غير أكفاء ، ويتكون من جنود مرتزقة لا يتصفون بأية صفة عسكرية . وكان واجبهم هو قمع الاضطرابات الداخلية ومساعدة الحكام على جمع الضرائب أي أن عملهم كان قاصرا على عمل رجال الشرطة . وقد أصبح للجندى حق الزواج واخذ مهنة مدنية أثناء مدة خدمته في الجيش .

تنظيم المال :

لما كانت بيزنطة - مثل روما - تستهدف ابتزاز ثروة مصر ، فإن الضرائب لم تتناقص طوال العصر البيزنطي بما كانت عليه من قبل بل ازادت باطراد لساحت حال الناس وأصبح جمع الضرائب مهمة شاقة . ولم ينزع لوظوفهم عن استخدام مختلف ضروب القوة لجمع الضرائب . ولذلك أخذ الناس في الالتجاء إلى الصعراء حريا من المسافة القاصية التي كان يماثل بها كل من تأخر في دفع الضريبة ، فقد كانت توقع عليه الغرامات والضرائب الإضافية لم تصادر أملاكه ويخرج به في السجن ويؤجل لمن حاول المقاومة .

وكانت أكثر الالتزامات تقسم على عائق سفار الملاك الذين ازداد عددهم في العصر الروماني إلى أن اضطرتهم جور الحكومة إلى النزول من أراضيهم لبعض جيرانهم الأثرياء ذوي النفوذ ، فأخذت طبقة سفار الملاك تختفي تدريجيا خلال القرن الخامس حتى

منذ قرر ديوقلد باغوس فصل السلطين المدنية والعسكرية لم يعد الجيش خاضعا لحاكم مصر العام فقد أسندت قيادة الجند إلى قائده مستقل . وعندما ضمت ليبيا إلى مصر وبذلك أصبح عدد المقاطعات عسا قسب بقيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص . وعندما عدل يوستينيانوس عن فكرة الفصل بين السلطين المدنية والعسكرية لم يؤد ذلك إلى توحيد قيادة الجيش في مصر وإنما إلى تنسيبه خمس وحدات بمدد المقاطعات وخضوع كل وحدة منها لامرة حاكم المقاطعة ، وكان حكام المقاطعات يخضعون للقائم الفرع الذي كان مقره القسطنطينية .

وسرعان ما تعاقبت الإحراق لأن واجبات الحاكم المدنية أبدته عن حياة الجيش ونما ذلك عن مناهة تطور الفنون الحربية . ولم يرد عدد رجال الجيش على ثلاثين ألف جندي وزعوا على المراكز الحربية المنتهضة على الحدود وفي الداخل لم في الميدان الكبرى . وكان الوجه البحري محصنا نحصينا قويا في الروايا الثلاث للدلتا ، في القرما شرقا والاسكندرية غربا وفي بايلون « مصر القديمة » حيث كانت بها معابة كبيرة منذ فتح الروماني .

وفي الوجه القبلي أنشئت على طول نواحي مراكز حربية في المواقع الهامة مثل قط ، وأسيوان .

لم يبد لها وجود في بداية القرن السادس . ولم ينافس هؤلاء السادة إلا الأديرة التي أخذت تصيف باستمرار أملاكها جديدة إلى ممتلكاتها ، وأصبحت أقاليم كاملة تخضع لسفطان الأديرة التي تمتعت بأعداد مملكتها من الضرائب ، وازدادت تدريجياً انضواء الواسعة ، فأصبح معظم أراضي الأملاك الخاص وجانب كبير من أراضي الدولة في قبضة فئة صغيرة من كبار ملاك الأراضي .

العالة الاقتصادية :

كان قوام ثروة مصر حاصلاتها الزراعية وأصنافها العيوب والكروم والزيتون والتخيل والمواشي ، وكان الجزء الأكبر من هذه العاصلات يدفع لتسديد الضرائب ويصدر الفائض من العالة إلى خارج البلاد .

وعرفت مصر منذ العصر الروماني بصناعاتها الخزفية والعايشية والزجاجية ، وبخاصة المنسوجات .

كما عرفت مصر بصناعة أواني البردي التي ظلت تجارتها مزدهرة حتى القرن السابع الميلادي ، وازدهرت مصر بتصنيع الذهب وبعض الأحجار الكريمة والمرمر والبازلت والجرانيت وغيرها . ولم يلتفت الحكام البيزنطيون إلى استغلال المناجم في مصر ولكنهم اكتسبوا باستخراج المرمر والبازلت والجرانيت تصديره .

وكان لصعاب كل حرفة في مصر حاجة ، تخضع لوظف مسئول عليه مراقبة

الأسعار وتصيب الضرائب . وكانت هناك أسواق كبيرة سنوية ، وأسواق أسبوعية في القرى لبيع المحصولات والمنشآت .

وكانت مصر من الناحية التجارية هي الطريق الذي يتوسط القرن الأقصى والغرب ، وكانت السفن تأتي من الصين والهند عادة بواب المسلمين بحسبة بالأطوايه والأخشاب والحمرات والأواني الخزفية ، تتحرق البحر الأحمر ثم رسو في الموانئ البيزنطية التي ورثها بيزنطة عن البطالمة .

وكانت أكثر البضائع تخرج في منطقة الصعيد ، ومن ثم تحملها القوافل إلى قسط ، ومنها تنسج في مراكب تقطع المسافة بين قنط والاسكندرية في اثني عشر يوماً . وكانت البضائع الأخرى تسير في هذا الطريق لخدمة من عدول ميناء مملكة الكوم الآليوية . وتتضمن الممر من بلاد الحبشيين ، والماج من اثيوبيا ، والأبنوس من أواسط أفريقيا ، والذهب من المنطقة التي أطلق عليها الرحالة كورمان اسم سامو . ومنذ القرن السادس الميلادي منظر العجسار إذ يسلكوا طريقاً آخر ، لأن الطريق القديم أصبح غير مأمون بسبب هجمات الحبشيين . فكانت البضائع تحمل في البئر الأحمر حتى القلزم (السويس) ثم تنج عرباً في القنساء التي كانت تصل السويس ببابلون (حمايل الآن ترمة ثلاثية) . وكانت البضائع تحصل من بابلون إلى البحر الأبيض المتوسط .

عن طريق النيل . وفي القرن السابع أصبحت قناة بايلون غير صالحة للملاحة . وكانت حاصلات بلاد ما بين النهرين وفلسطين تعملها القوافل في طريق يصل الى بزة عنتوما ، وهذا هو الطريق الذي أسماه القرامطة « طريق حورس » وكانت القوافل تمر بحضنة قريبة من القطر الحامية لتصل الى بليس فأود (هلبوبوليس) ومنها الى الاسكندرية . وكانت البضائع تثلل اما على المراكب في فروع الدلتا ، واما في قوافل من جنات وحجر ، ولم تستخدم القليل لانها كانت مخصصة للحج من مصر الروماني . كانت التجارة في العصر الروماني مزدهرة في مصر ، ولكنها أخذت تمتر في العصر البيزنطي ، فمراتي البحر الأحمر ما فتئت تميمها تضاماً ، حتى لم يبق على البحر الا ميناء القزم ، وذلك بسبب منافسة القرم انضبدته التي أفضت الى تحويل جناب كير من التجارة الشرقية الى الخليج الفارسي . وقد حدا ذلك بالامبراطور يوستينيانوس الى الصل على التخلص من وسيطة القرم في التجارة الشرقية واهامة انشباط التجاري في البحر الأحمر الى سابق عهده ، لكنه لم يصب في ذلك نجاحاً مذكوراً .

وفي عصر يوستينيانوس قام كورماس النجر الاسكندري برحلة في البحر الأحمر والخليج الفارسي ، وزار اثيوبيا والساحل الشرقي لافريقيا حتى وصل زنجبار ، ثم عاد المراكب في فروع الدلتا ، واما في قوافل من

عكف عند منتصف القرن السادس على كتابة ملاحظاته القيسية في كتابه المسمى « الطبوغرافية المسيحية » . وكانت مصر محط انظار رجال الفكر في العالم فتوافدوا اليها لزيارة آثارها ، ولتساهدة الجيلة البديرة المصرية ، ولتلقى العلم في مدارسها الشهيرة في ذلك العصر . فذكر منهم اميوس القرطبي ، وجريجوريوس النريزي ، وصديقه باسيليوس ، وادجيبوس ، والقسطنطين هيروليموس (جيروم) ، وبولس الأدرسي ، وبطرس الايبيري ، وبلاطوس ، ووفينوس ، وكاسيوس .

وقد شاهد هؤلاء الرجال مصر ووصفوها — كما رواها اليوم — بقولها النثرة في الدلتا بخرقها القواب وفروع النيل ، كما شاهدوا الوجه القبلي وقد حدث الصحراء من منطفته المزروعة . وكانت القرى — كما كانت عليه في العصر الفروني — لم تتحرق اليها الحصار الافريقية . وكان مصر تفتح بالاديرة التي تضم بين جدرانها مناب من الرهبان .

وقد نجحوا في الحصال في مصر وحاول الأباطرة عبث اعاشها بشس الطرق الإدارية فكانت الحكام على جناب كير من الضعف ولا هم لهم الا جمع الضرائب ، وارضاء الموظفين . وعم البؤس الصلايين فاضطروا منذ القرن السادس اذ يلتجئوا الى كبار الملاك لحمايتهم فاضاعوا املاكهم وحرقتهم ، وكان في ذلك قضاء على الملكية الصغيرة التي هي كيسان

أبناء الشعب الناجين ظهر ليقبض البلاد من
رائس الاستعمار الأجنبي ، أو أن يعد من
مشاريط الهدام ، أو يطالب بأحقية في الحكم .
وكان البرلررك - وقد سلمه الشعب
قيادته --- ينعى مركزه الدينى وكرامته
ووطنية من الخضوع لارائه الإباطرة ولكنه
كان مضطرا لتسلطهم .

وكان من أهم أسباب انهيار الامبراطورية
مقاومة الشعب المستمرة في تأدية الضرائب
المطلوبة ، فكان ينهب من دمهما ، وينزك
أراضيه ، وصناعاته ، ويفصل أن يجب على
نفسه الضرائب على أن يدفع الضرائب . وكانت
الحكومة الفظة التي يالها من جامى الضرائب
تضطره الى دخول الديور و الانصواء تحت
حماية كبار الملاك .

وتلى هذا حركة العودة الطالبة ، وزاد
الطين بله أن رجال الدين والرهبان اتقوا
كاهل اليزاية فضلا عن أنهم كانوا لا يدفعون
شيئا للدولة .

وكان لسخط الشعب ونوراته وهدم
استتباب الأمن في الأقاليم ، والاضطرابات
في العاصمة ، والاضطهادات ضد الوثنيين
واليهود ، أثرها الضال في القضاء على
التجارة والصناعة ، وذلك بالرغم من طبيعة
الشعب في حب العمل .

كانت هذه الأحوال كلها باعثا للمصريين
على التحريج بالمرح ، ويدعوهم للأمل في
أن ينتموا بحياة فيها رخاء وطمأنينة .

التضام الدولة المنظمة وقوام حياتها
الاجتماعية . وازداد عدد كبار الملاك ، بالرغم
من محاولات الإباطرة المتعددة في منح هذا
الازدياد والحد من تغلم سلطنتهم ، وتكونت
الانقطاعيات سبا كان له أكبر الأثر في تدهور
أحوال البلاد .



كان اهالك الشعب بالخراب مصدرها من
مصادر شقائه ، كما قاسى من مآلاه المواطنين
البيروطين المشردة في ارحافه ليكولوا لهم
ثروة خاصة على حسابهم . وكانت مصر في نظر
الإباطرة حظلا كبيرا ينتج العيوب فاستغلوها
كما لو كانت موردفا لا تنتهى ، واستغلوا
أهلها كما لو كانوا منجما من ذهب لا ينضب
معيته . ولم يهتم أمر رخاء وادى النيل كما
لم يهتم أمر الأمن في الأرياف ولا الصناعة
والنخط والجرع الذى كان يجتاحهم بين
وقت وآخر .

وقد جر البيروطين على مصر الخراب
بسياستهم وبنصر موفليهم .

وكان يوستينيانوس أول من أصدر
مرسوما (المرسوم الثالث عشر) يشكو فيه
من الرمسالى التى يفضحها الموظفون ومن
اهالهم في ترميم المنشآت العامة . وحاول
أن يعالج الشقاء بصرف مقدار كبير من الصبح
لفقره الاسكندرية ، وكان لم يصرف لهم أى
شئ منذ أيام ديوقليديانوس .

ولم نسح طوال الحكم البيزطى أن أحد

الفصل الأول

الحياة السياسية

مرقس الرسول بعد أن جرده بالحبال في شوارع المدينة حتى مزقوا لحمه .

وكان النزاع في أولى صوره لولا بين دينين : المسيحية والوثنية . ولكن ما أن نتت المسيحية في مصر حتى أصبحت تمثل الشعب المصري كله تعريبا ، وظل الحكام الرومان يشلون الديانة الوثنية ، وظهر عندئذ بوضوح أن هذا النزاع كان في نفس الولا صراعا بين شعب وحاكيمه ، أو بين أبناء وطن ومسنره ، وهكذا تركز الشعور القومي وتوجد . والحسد ألياط مصر يتسكون بنوميتهم كراهة في كل ما هو أجنبي عنهم ، فكان من نتائج ذلك فيما بعد ظهور الحركة الأديبة القبطية الطالصة التي قادها الإليبا سنوده نتية اللغة القبطية المصرية من الألفاظ اليونانية الخفية ، ورفض أديسات اليونان وثقافتهم .

وقد بدأ هذا الصراع بين مصر المسيحية وحكامها الرومان منذ القرن الأول الميلادي ولم ينته إلا بدخول العرب . وصار أباطرة الرومان أعباء سياسيين للشعب المصري ، كما كانوا له في نفس الوقت أعباء دينيين

دخلت المسيحية مصر في منتصف القرن الأول الميلادي ، في وقت كانت فيه أفكار الناس حائرة مضطربة بين عشرات المبودات التي قدمت لهم الديانات المصرية واليونانية والرومانية بالإضافة إلى الديانة اليهودية وبعض الديانات الشرقية الأخرى . واستطعت المسيحية أن تتغلغل في روح المصري بقدر ما كان مستعدا لقبولها بما ورثه من مهادت ذلك في دباقة المصرية القديمة .

وقد انتشرت المسيحية في مصر انتشارا سريعا ، وانتشرت في النور حتى قطت نهالها على الوثنية وانتشرت على اليهودية حتى لم يشن من اليهود سوى طائفة ضئيلة أهمية لها .

ولم يتم هذا الانتشار بسهولة ، وإنما لم بعد صراع جبار كان له ميدانان : أولهما الميدان اشكري وقد قام بالدور الهام فيه مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وطلماء المسيحيين وفلاسفتهم ، أما الميدان الآخر فكان ساحة الاستهاد ، وقد بدأ عليها هجوم الوثنيين سنة ٦٨ م على كنيسة زقياط شرقي الإسكندرية وقتلهم القديس

الأباطرة وولايتهم المهم أمم شعب شجاع
تمسك بدينه ، لا تشبه الاغترافات وطرق
الاستمالة المتنوعة ، فاشتموا منه كافة
الوان التعذيب الوحشية من حرق وجلد
وصلب وسلخ ونشر ورجم وتحطيم أعضاء
وتجسيم أسنان وصرب بالسيف والقناص الى
الوحوش المفترسة وسجون ولججها مسيما
لا يدخل تحت حصر من صنوفه القسوة .

ومع ذلك لم نجد كل هذه الوسائل في
اصنافهم ، بل كان الناس يأخون من تلقاء
أفئدتهم الى الولاة مجاهدين بسبيحتهم ،
حتى أن الألبا الطوليوس الواهب الناسك
المفوح ترك وحدته واتي الى الاسكندرية
وهو شيخ في حوالي السنين من عمره لينال
شرف الاستشفاد . وتطور الأمر بالولاة
والأباطرة ، فيجد أن كانوا يمدونهم الى قتل
الأفراد أكلوا يبيدون فرى وسعدا بأسرها
وصار عدد الشهداء يهدر مئات الآلاف .

وأشهر الاضطهادات التي مرت بالمسيحية
في مصر اضطهادت ثرمجان سنة ٤١٨ م ،
وسبتيريوس سبروس سنة ٤٦٣ م ، وديوكيوس
Decius سنة ٢٥٩ م ، وغاليريان سنة ٣٠٤ م .
ولكن أعنفها جميعا كانت المذابح التي أولها
ديولفديالوس بالمصريين وكانه قد جسد
هدفته أن يقتسم اقباء . ولذلك فان
الكنيسة القبطية تجعل يده عوسما سنة
٣٨٤ م وهي السنة التي تولى فيها هذا
الامبراطور حكم الامبراطورية الرومانية .
ورسسى هذا التقيوم بتقيوم الشهداء .

طوال العصر الروماني . واستحكم الصدهاء
حتى كان الأباطرة المسيحيون أنفسهم يميلون
الى المذهب المخالف لمذهب مسيحي مصر ،
وكما اضطلعت مصر على يد أباطرة الرومان
الوثنيين اضطلعها عنيقا ، كذلك اضطلعت
بنفس المنفذ من أباطرة الرومان المسيحيين .
ولا يستثنى من ذلك إلا عدد ضئيل جدا من
أباطرة الأباطرة كانت فترات حكمهم بمثابة
هدنة سرعان ما انتهى لتستأنف مصر صراعها
مع الحكم الروماني من جديد .

ولكن تصح لنا حلقات هذا النزاع
يستكن أن تقسمه الى ثلاث فترات مميزة
وهي :

أ - فترة الصراع مع أباطرة الرومان
الوثنيين الى سنة ٣١٣ م

ب - فترة الصراع مع الأباطرة
المتاصريين للمرافقة من سنة ٣١٣ الى سنة
٤٥١ م

ج - فترة الصراع مع الأباطرة
المتاصريين لهايا ووجه من سنة ٤٥١ م -
سنة ٦٥١ م

١ - الصراع مع الأباطرة الوثنيين

كان الأباطرة الوثنيون ينظرون الى
المسيحيين عامة كمنسدر غطر عليهم ،
فاضطهدوهم أيضا وجسدوا . ولكن
الاضطهادات التي حلت بمسيحي مصر كانت
أبشع قسوة وأكثر عددا لما اتصف به الأقباط
من الصلابة والثبات على ايمانهم . وقد شعر

وقد قتل في حركات الاضطهاد هذه بعض بطاركة الكنيسة القبطية وعسدد وافر من شاققتها ورهبانها وعلمائها ، وتطلعت مدرسة اليريداسكاليه اللاهوتية ❏ الاسكندرية مدة من الزمن . وأحرقت الكنائس والكنوب المقدسة ، وناضت الهرقات بالهراء ، وصح ذلك صيد المصريون صودا غبيدا عجيبا ولم يرخصوا للإباطرة الرومانيين ، بل كان هذه المؤمنين ينمو بطراد ، وكثيرون كانوا ينضمون الى المسيحية متأثرين بشجاعة المبشرين واستماتهم بالموت في مسجبل صيدتهم .

ولما وجد الإباطرة أن كل هذه الاضطهادات لم تأت بنتيجة سوى زيادة قوة الكنيسة ، وأن المبشرين قد سرت لهم موجة طافية من « شجوة الاستشهاد » حتى كانوا يثيرون الولاء بتوبيخهم على وثنيتهم ولعن أمتهم لكي ينالوا أكليل الشهادة على أيديهم ، فسول لما لمس الإباطرة ذلك بنسوا أخيرا واضطروا الى وقف هذه المذابح الجبرية لعدم جنواها ، ولأنها خلقت عوامل خراب في أجزاء الامبراطورية وأدت الى تعطيل مصادر الأيراد من زراعة وصناعة وتدهور الحالة الاقتصادية والفساد المجاعات والأوبئة .

والكنيسة القبطية نطلق لقب حاتم الشهداء على بغريركما الأبا بطرس الأول ، وكان السابع عشر في عداد البطاركة ، ليس لأنه آخر شهيد مسيحي ، وإنما لأن قتله كان

خاتما لحركات المذابح العامة التي لمستشهد فيها آلافه المسيحيين ، ولأنه أيضا كان آخر من استشهد من بطاركة الاسكندرية . ولما نبس على هذا البطريك وطرح في السجن اتف الشعب القبطي حول السجن لينسج الجنود من أترابه ليقتل . ولكن البطريك خاف على نفسه من أن يعمل فيه الجنود سيولهم من أجل حماية شخصه فيعلم نفسه سرا للجنود بأن طلب من القائله أن ينقب جدار السجن من جوة لا يصبط بهسا المسيحيون فتم ذلك وسلم رأسه للجنود فنطوه ، وكان ذلك سنة ٣٩١ م . ولم يعلم الشعب المعاصر للسجن بقتل البطريك إلا بعد انصراف الجنود .

في كل ذلك قرب الشعب المصري وطاركه أروع المثل في الاستشهاد . وكان البطاركة وأساقفة المدرسة اللاهوتية يصدرون الرسائل والكتب حثا للناس على الاستشهاد وثباتهم في دينهم . وكان أفراد الشعب يجمعون بعضهم بعضا في مساحات الاستشهاد ، ويوزون المقبوض عليهم في السجن ، ورضون الى جوارحهم أتساء المعاكبات ، ويصطون أجسادهم ليدفونها ، كصل ذلك في نير لحول أو تردد . وكان الشهداء أنفسهم يتبادلون الموت في فرح . وكان الكثيرون منهم يترمون في بجة خلال أقامتهم في السجن أو أتساء سيرهم في الطريق الى ساحة الاستشهاد .

وأخيراً أوقف الأباطرة هذه المذابح ، ولم
يلتصقوا ، لأن اعترفوا بالأمر الواضح وأباحوا
للمسيحيين حق ممارسة عبادتهم دون التعرض
لهم . وقد قرر ذلك الإمبراطور قسطنطين
وهو الذي اعتنق المسيحية ، وفتح بابها أمام
باني الإمبرية ، وهكذا انتهى على يديه عصر
اضطهاد الوثنية المسيحية ، ولم يبق من
الوثنية في مصر سوى طلة ضئيلة ذات بروت
الزمن .

٣ - الصراع مع الأباطرة المنسحقين للمهاطقة
هذه الفترة من تاريخ مصر هي فترة
اللام ومجد ، وجه فيها المصريون دفة الفكر
المسيحي وقادوا مسيحيي المسالم في المعرفة
اللاهوتية . وليس أدل على ذلك من أن قانون
الابيسمان المسيحي الذي اعترف به كس
الكنائس المسيحية هو من وضع وصياغة
أبليس الاسكندري .

وفي خلال هذه الفترة وفد بطريرك
الاسكندرية حثافا على الابسان القوم ،
فقاوموا الهرطقات وهي الهرطقات المسيحية
على الابسان أو البدع الخارجة على الدين ،
وحرموا الهرطقة من عضوية الكنيسة بعد أن
أظهروا لهم وللعالم عباد معتقداتهم .

واشتهر اسم الاسكندرية في العالم كله ،
واعترفت بها التجمعات العالمية (المسكونية)
كنيسة من الكنائس الأديع الكبرى وهي
كنائس روم والاسكندرية والقسطنطينية
وورشليم . وإذا كانت لروم أهميتها

السياسية كماصة للإمبراطورية الغربية فإن
الاسكندرية كانت أولى كنائس المسالم في
التعليم المسيحي وفهم الدين وشرح فواعده .
وليس أدل على قوة الاسكندرية من أن
بطاركتها حرموا ثلاثة من بطاركة اثنيسة
المطرم القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية
الشرقية بعد أن أبتوا عليهم أنهم مبتسجون
في الدين وهرطاعه ، وهؤلاء البطاركة الذين
حرموا هم : مقدونيوس الذي حصره
بيروتاس ، وسطور الذي حرمه كيرلس ،
وغلابيانوس الذي حصره ديسمقديس ،
واعانت المجامع على هذه الحروم ، وسأى
عليها الأباطرة ، كما حرموا من قبل أريوس
في مجمع ليبيس ، وكان لهم في المجمع
المسكونية مركزهم البارز فكانوا إما
رؤساء وإما العصر القوي الموجه لها .

وقد اشتهر بطريرك الاسكندرية
بشجاعتهم وثباتهم الوطنية على الابسان .
فبينما عصفت الأوروبية بكثير من أساقفة
العالم الاثريه ، حين غاصرها الأباطرة بقوتهم ،
ويضا وضع لها بعض الأساقفة تحت ضغط
التمديد عن ضبط لا عن اقتناع ، يرى أن
أساقفة الاسكندرية لم يبدوا قيد الفعل عن
الابيسمان المستقيم تحمليين النفي والزل
والوا شتى من الاضطهاد ووفوا في وجه
الأباطرة وقعات مجيدة مشرفة . ولولاهم
لصار العالم كله أريوسيا فاسد العقيدة .

وهذه المقاومة التي لاوتت بسا مصر

السيف لتحقيق أغراضه وأنه البطركية
 الدخيلة لا ينتقمون في شيء عن الجنود
 الرومان المخيرين المحتلين لبلادهم . لذلك
 كانوا يرفضون أن يعاملهم كبطركة ، وقد
 أقدموا فعلا في احدي الثورات على قسطنطين
 أحدهم وهو جورج جوس الكبادوكي .

هرطقة أريوس ؟

ظهرت هرطقة أريوس في عهد الأبأ بطرس
 خاتم الشهداء ، أي في زمن دبرقالبانوس
 الوثني المظلم . وقد حرم أريوس من الأبأ
 بطرس ثم استشهد بطرس دون أنه يفهم عنه ،
 ولكن هذه الهرطقة لم تزل قوية ولا انتشروا
 في أيام الاستهاد لانشغال الناس عنها بما
 هم فيه من الوالد العذاب البهعة . فلما
 استراحت المسيحية من الاضطهاد الوثني
 انتقلت الى هذه الهرطقة وعملت على حطها .
 فتجدد حرم أريوس مرة أخرى على يد الأبأ
 الكسنديوس البطركي التاسع عشر من
 بطركة الاسكندرية . ولكن أريوس استمر
 على عقده ولم يتخل عن هرطقته . والنسب اليه
 كثيرون من مصر وغيرها من البلاد المسيحية
 سبأ أدى الى عقد مجمع ليقة المكون في
 سنة ٣٣٥ م بأمر الامبراطور قسطنطين
 لمحاكمة أريوس واوساء قواعد الإيمان .
 وقد تم هذا المجمع ٣١٨ أسلفا من
 اساقفة العالم المسيحي ، كان من أبرزهم
 الأبأ الكسنديوس بطرك الاسكندرية
 وشمامه ثناسيوس الذي لم يكن يتجاوز
 التاسعة والعشرين من عمره .

الأباطرة والولاة الرومان ، لم تكن مجرد
 حركات فردية من البطركة ، وانما كانت
 حركات شعبية شاملة يقوم فيها
 البطركة بدور الزعامة ، كما كانت أحيانا
 حركات شعبية محضة بنسبة عن تأثير
 البطركة أو غيرهم . كان الشعب المصري
 حرميا أشد الحرص على إيمانه ، يرفض
 تدخل الرومان في معتقده . من أجل هذا
 استطاع أن يرغم الأباطرة أحيانا على
 الاعادان له ، كما استطاع أن يحتمس
 اضطهادهم في صبر وحرقة . وليس أدنى على
 ذلك من أنه في حالة غس البطريك أو عزله
 أو سجنه ، كان الشعب بأمره — بدون
 بطريك — يقوم بثورات عنيفة استطاعت
 لث كثير من الأحيانا أن تزلج الأباطرة على
 سحب أولهم والاذعان بقوة الشعب .

ومن المظاهر الواضحة في هذه الفترة
 أن الأباطرة كانوا كثيرا ما يزولون البطريك
 المصري ، ويعينون بطريكا آخر في مكانه
 (كبادوكيا مثلا) إيمانه مخالف لآسيا
 الشعب المصري ، تحببه قوة مسلحة يستطيع
 بها أن يدخل الاسكندرية عنوة ، وأن يسطي
 في الكنائس آسنا من أن يطرده منها الشعب ،
 ثم يبدء هذا البطريك الدخيل في اضطهاد
 المصريين وقتل الكثيرين منهم ليتبوأ منصب
 البطريك المنفى . كل ذلك كان ولا شك
 يدفع بالمصريين الى الشعور بقوميتهم المصرية
 وبأن الرومان عنصر أجنبي مستمر يستخدم

أثناسيوس وجهاده :

حياة الأبيس أثناسيوس سلسلة من الجهاد واللام في سبيل الدفاع عن الأيسمان المسيحي . وذلك لأن هرطقة أريوس لم تنته بقرارات مجمع نيقية . فقد بذل أريوس جهده حتى ضمه إليه بعضا من الأساقفة ، وتظاهر بالتوبة وأقتنع الامبراطور قسطنطين بذلك فطلب من الأبيس أثناسيوس أن يقبض أريوس ، ولكنه رفض طلب الامبراطور . وهكذا بدأت أول حلقة من حلقات الصراع مصر ضد أباطرة الرومان المسيحين .

وقد احتل اثناسيوس في سبيل ذلك النفي عن كرسيه خمس مرات في عهود كل من قسطنطين وقسطنطيوس ويوليانيوس وفانيس . ووقف أمام كل هؤلاء الإباطرة كالصخرة الصلبة لا يبلين . ولو لم يقف هذا فلوقف العازم لصار العالم كله أريوسيا . فلم يكن اثناسيوس رهيبا شعبيا في مصر فعسب بطيحه المصريون عن حب ولاة ويغضبون له بل كان فوق ذلك مثلا للإيسمان السليم في العالم المسيحي كله ، نظر إليه كل الكنائس كحلما الأول .

وفي هذا الصراع الذي اجتازه الأثناسيوس ضد أباطرة الرومان كان الفصح المصري كله يؤيده . وقد حدثت الحوادث على أن الأبيس لم يكن عملا فرديا من جانب البطريرك وانسا كان عملا جماعيا صادرا من الأمة كلها . فلما رفض البطريرك قسبول أريوس أمر قسطنطين بنفيه عن كرسيه ، وأدى ذلك إلى

ولد اثناسيوس في الاسكندرية سنة ٢٩٦ م من أبوين وثنيين . وجع بين الثقافة الوثنية بحكم مولده ودراساته الأولى ، والثقافة المسيحية بحكم دراسته في مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وأضانه ايضا ثقافة عسكرية روحية ، إذ أنه تعلم ثلاث سنوات في البرية على القديس الأبيس افلوغيوس وقد اختاره الأبيس الكسندروس البطريرك للبيضا له وورسه شماسا واصطعبه في سنة ٣٢٥ م إلى مجمع يفتية .

وفي مجمع يفتية بدأت شهرة اثناسيوس العالمية . واستطاع هذا الشماس الشاب أن يقفه مطعما للإيمان وسط ٣١٨ أسقفا يشكون جميع كنائس العالم . وتمكن من تصيد آراء أريوس في برامة واقتناع وتولي بنفسه سياسة قانون الايمان مدققا في اختيار عباراته كلمة كلمة . وأخذ مجمع يفتية بأقوال اثناسيوس ، وحرم أريوس وحزبه من عضوية الكنيسة ، وأقر الامبراطور هذا الحكم . والفض المجمع بعد أن نظر في أمور أخرى كانت معروضة عليه ، وأصدر عشرين قانونا كنسيا .

وبهذه الزعامة الفكرية رفعت من شأن اثناسيوس في العالم المسيحي ، وأهله لأن يخلق الأبيس الكسندروس ويصير بطريركا للاسكندرية سنة ٣٢٦ م ، غير أنها آليت عليه حسد ومؤامرات الأريوسيين ، وخاصة من كانوا من حاشية الامبراطور ، مما جعل

قيام ثورة شعبية في مصر بقيادة غيلومينوس
واتهم اثناسيوس بأنه كان السبب فيها .

وبعد موت قسطنطين خلفه قسطنطينوس
في حكم الشرق ، وكان أريوسيا . فعين
بطريركا أريوسيا على الكرسي الاسكندري
بدلا من اثناسيوس وابنه جريجوري ، ولما
لم يسمح له الشعب بدخول الاسكندرية ،
رؤيه الامبراطور بقوة عسكرية استطاع بها
دخول المدينة واستمرت هذه القوة معه
لصايت خوفها عليه من حركات الشعب .
تمكنت كنيسة الاسكندرية مجما ضد من
الاشاقفة المصريين ، لتدخل سيرباروس قائد
العامة - - وكان أريوسيا - - وعسل على
نصي المجمع منوعدا بتدمير المدينة كلها .
جهتذ اصعب اثناسيوس وهرب الى رومه ،
فارتجت المدينة لهذا البطل المصري ذي المظهر
البسيط الفقير . وانقذ مجمع في رومه اقر
براءة اثناسيوس ووجوب رجوعه الى
كرسيه . كما القد مجمع آخر في سرديكيا
سنة ٣٤٣ م من مائتي أسقف حكم بشرعية
رئاسة اثناسيوس لكرسي الاسكندرية .
وكتب قسطنطين امبراطور الغرب الى اخيه
قسطنطينوس ، امبراطور الشرق ، ليطلب منه
ارجاع اثناسيوس . وتضمنه كان هدفه
اثناسيوس هو توجيه العالم المسيحي ضد
الأريوسية بعد أن عاصدها الامبراطور ،
واستطاع بقوته وتأييده أن يتال لايمد العالم
السبعي . أما في مصر فكان التسبب في

اضطرابات مستمرة طيلة مدة غيابهم ،
حتى أنهم طردوا من الأديرة جميع الذين
اعتنقوا المذهب الأريوسى وحطوا كنيسة
الاسكندرية التي كان الأريوسيون قد
اسنولوا عليها . وخاف الامبراطور من
اندلاع حرب بينه وبين أخيه فكتب الي
اثناسيوس سنة ٣٥٦ ثلاث رسائل متتالية
يطلب اليه فيها احترام ولباقة أن يرجع الى
كرسيه . فرجع الأتبا اثناسيوس الى مصر
واستقبله الشعب استقبالا عظيما لم يحظ
بمثلها للأبطرة .

ولما كان الامبراطور لم يرجع اثناسيوس
الا بدافع الخوف ، فانه ما كاد يتولى أخيه
قسطنس حتى عاد الى اضطهاد اثناسيوس
وأمر بطرده من مصر . وعطل اثناسيوس
هذا الأمر هاما كاملا دون أن ينفذه حتى تقدم
القائد سربانوس على رأس قوة كبيرة بأمر
الاسرطور والتحم الكنيسة التي كان يصلي
فيها اثناسيوس . وعسلبعا القه الشعب
المصري حول زعيمه وراعيه أحصل الجند
سيوفهم في الشعب . أما الأتبا اثناسيوس فقد
حمله بعض الزهباة وخرجوا به من الكنيسة ،
وفتح الشعب أبواب بيوتهم لاختفائه . وأرسل
الامبراطور رسالة الى مصر يحملون الأوامر
بضرورة احضار اثناسيوس حيا أو ميتا ،
لكنهم لم يستطيعوا العثور عليه .

وعقد الامبراطور مجمعا في ميلان سنة
٣٥٥ م ضد الأتبا اثناسيوس ، وكانت غالبية

مرة أخرى . فرفض الشعب القبطي تنفيذ
الأمر ولو أدى الى استشهادهم جميعا .
وقامت ثورة عنيفة في مصر واضطر
الاميراطور الى الاذعان لرغبات الشعب .

وقضى اثناسيوس السنوات المصعب الباقية
من حياته في سلام حتى توفي سنة ٣٨٣ م
بعد أن احتل الكثير من اضطهاد الأباطرة
ومناصرتهم للإريوسية ، دون أن يخلص أو
يلين في سبيل المحافظة على الايمان المسيحى
في المسالم كله وصونه من الانحراف . ولما
خلال هذه الاضطهادات التي زلت به اختبا
في مغارات الرهبان في الجبال ولما أدركتهم في
الصحراء ولما بيوت المؤمنين في الاسكندرية
ومرة في قبر أبيه ومرة أخرى في بئر جافة .

وكان خلال فترات اختفائه يواصل باستمرار
فقد كتب كثيرا من المقالات اللاهوتية للرد
على الهرطقة والدفاع عن موقفه وعن مجمع
بقيّة ، كما كتب رسائل لطبيخ للمؤمنين
والرهبان ، وبفضل كل ذلك استطاع أن
يؤلب العالم أجمع ضد الأباطرة .

واشتهر الاميراطور فالنس في اضطهاده
للمصريين بعد وفاة الأبأ اثناسيوس ، فبنى
خلينت الأبأ بطرس الثاني (٣٧٣ - ٣٨٥)
وعين بدلا منه لوكيوس الأريوسى وأبعده
بقوات الاميراطورية . وأصدر فالنس قانونا
جديدا عمل على تنفيذه بالقوة ، وكان يقضى
بالفداء امتياز الاعفاء من الخدمة العسكرية
الذى كان منسوحا قديما مضى للرهبان وكذلك

أعضاء هذا المجمع من الأريوسيين ، وتنفيذا
لرغبة الاميراطور قرر المجمع عزل اثناسيوس ،
فاستج على ذلك أصدرت له من أساقفة الغرب .
وتلا ذلك تعيين جورجيوس الكبادوكى

بطريركا على الاسكندرية بمساعدة الأريوسيين
فوزى العظوة لى الاميراطور ، ثم انخاض
اجراءات تصفية ضد الأقباط أتباع
اثناسيوس . فلقد استخدم جورجيوس القوة
المسكرة لإرغام القصب على قبول المذهب
الأريوسى ، فلما رفض أصل فيه القنصل ،
وشرد الكثيرين من أساقفة المصريين وزج
بأثناسيوس في السجن ، واقترح على
الاميراطور لرض ضريبة جديدة على المنازل
في الاسكندرية .

ولما عصه الاميراطور يوليانيوس (٣٦١ -
٣٦٣) الذى ارتد عن المسيحية الى
الوثنية قام الشعب بثورة عنيفة أدت الى
قتل جورجيوس البطريرك النطيل ، وحاد
اثناسيوس الى كرسية . ولكن حسدا
الاميراطور أيضا أمر بطرده من الاسكندرية
على اعتبار أنه ما يزال منفيًا وأنه عاد بدون
إذن ، وكتب الى والى الاسكندرية مسندا
إياه بمرض فرامة كبيرة عليه وعلى موكبيه
إذا ظهر اثناسيوس في أرض مصر كلفسا .
ولكن اثناسيوس اختبا في قبر أبيه ستة أشهر
ولم يقادر للدينة .

ولما تولى الاميراطور فالنس (٣٦٤ -
٣٧٨) وكان أريوسيا ، أمر بنفى اثناسيوس

(سنة ٣٨٥ - سنة ٤١٢) ، وكان عهده عهد سلام وعمران ، سواء في عهد الامبراطور ثيودوسيوس أو خلفته ثركاديبوس (سنة ٣٩٥ - سنة ٤٠٨ م) .

الابا كيرلس وبدمية فسطوب :

ثم خلفه هذين الامبراطورين ثيودوسيوس الصغير (الثاني) ، وكان مؤمنا سالحا تولى الحكم وهو سفير المني وحكم من سنة ٤٠٨ - سنة ٤٥٠ . وكان معينا للكنيسة وارهبان الاباط ، يرسل اليهم ليتبرك بهم ويستشفهم في كثير من اموره الخاصة . وقد تمتع في عهده الابا كيرلس الكثير بحرية واسعة في التصرف ، حتى قيل ان بطريرك الاسكندرية في تلك الفترة من التاريخ كانوا هم الذين يتحكمون في ماويج مصر ، بل اطلق البعض على هذا البيطريرك « فرعون مصر » .

وكان القديس كيرلس هذا خليلة للقديس النامبوس في المسيحية اللاهوتية وقيادة الكفر المسيحي . اهل كرمي البيطريكية سنة ٤١٢ م في عهد الامبراطور ثيودوسيوس الصغير وتمتع في عهده بشبه استغلال في مصر ، ودافع عن الايمان المسيحي . قيدا بكتابة خطاب الى الامبراطور وتمتع فيه البركة ، وشرح له الايمان السليم ، ورد على الكتب التي كان قد وضعها فيسلا الامبراطور بوليانوس ضد المسيحية .

ولما لاحق لابا كيرلس ان فسطوب

لسكان بعض المدن والمقاطعات التابعة للاديرة مثل الفيوم ، وارغام كل هؤلاء على الانخراط في الخدمة العسكرية بالقوة . وقد تفضل كثير من هؤلاء المصريين ان يلقوا حتفهم وهم يغامرون الامبراطور على ان يدخلوا في خدمة قوات الامبراطور .

فترة هوية :

ومضت الاضطرابات العنيفة التي اولها الاباطرة فرومان بمصر وتصلها المصريون في شجاعة وسير ايان عهدي البيطريكين الابا الثامبوس والابا بطرس الثاني . لم ان مصر ان تمنح بفترة هوية عندما مات الامبراطور فالنس الأبرسي وتولى العرش الامبراطور ثيودوسيوس الكبير (من ٣٧٨ - ٣٩٥ م) وهو الذي اترف بالهداية المسيحية ديانة رسمية للدولة . وساعد هذا القرار على الحماة الوثنية ، فامكن تحريك الكثير من مهابعا الى كنائس . وقد ارجع هذا الامبراطور الابا بطرس الثاني من منفاه ، وما توفي هذا البيطريك سنة ٣٨٠ م اختار القصب بدمه الابا بيمولانس بيطريكا . وفي عهده وقع مقدونيوس اسقف القسطنطينية في هزيمة حول الروح القدس ، فاجتمع سنة ٣٨٠ م مجمع في القسطنطينية من مائة وخمسين اسقفا وقرر حرمة حرمة هرقته . وقد حضر لابا تيموثاوس هذا المجمع ، وقام فيه بدور رئيس .

ثم خلفه في البيطريكية الابا ثيوفيلوس

و عندما أقام الآباء أسقفا جديدا على
القسطنطينية أرسل الى القديس كيرلس
خطابا يقول له « ان رغبتك في اعلان الحق
قد تحققت يا خادم الله ... » وكذلك أرسل
أسقف رومه الى القديس كيرلس يهنئه بقوله
« هنيئا لك ، فأنت الرجل الجريء المستهين
بكل خطر » .

و مسؤول المؤرخ ستالي في كتابه
« معاضرات في تاريخ الكنيسة الشرقية »
ما نصه « لقد أصبح البربرك السكندري
بعد مجمع افسس لاضي العالم ، طاع
حكاه في جميع الامم العالم المسيحي » .
ولقد خلفه كيرلس أيضا كتابا كثيرة قيمة
في اللاهوت وفي تفسير الكتاب المقدس .

ج - الصراع مع الإباطرة القاصرين لهايا رومه
و عندما ارتقى مرفيافوس (سنة ٤٥٠) -
سنة ٤٥٧) العرش أخذت العلاقات بين مصر
وإباطرة الدولة الرومانية تدخل في أتعاف
واقسى صورها ، لاجتازت مصر طوال الفترة
الباقية من حكم الرومان محنة اضطهادا
مرا عنيفا لم يتخله سوى هدنة قصيرة في
عهد الملكين زينون و انسطاسيوس (٤٧٤ -
٥١٨)

وقد بدأت هذه الفترة بخلاف بين
كنيسة رومه و الاسكندرية أدى الى انقسام
استمر من سنة ٥١٩ حتى يومنا هذا . و عرف
أتباع كنيسة رومه باسم « الكاثوليك » بين
عرف أتباع كنيسة الاسكندرية ومن سا

بربرك القسطنطينية قد وقع في هرطقة
لاهوتية أرسل اليه بتأهم معه . لكن
لسطور تسلك برأيه ورفض الاذعان لتعليم
كيرلس ، واستمال الى جانبه يوحنا أسقف
نطاكية ، واعتمد على ما لقيه من عنف
الامبراطور الصغير ثم تحدى كيرلس علانية
وأنهه بأنه غيبه وبأله يقوم في مصر بدور
فرعون .

ولم يجد القديس كيرلس مناصا من أن
يستخدم سلطته كعظم أول في الكنيسة ،
فكتب الى أساقفة المسالم بشرح هرطقة
لسطور ، كما كتب الى الامبراطور
ثيودوسيوس وأمه وأخوته ، وبعث برسالة
الى لسطور نفسه بشرح له ليمسا تواجد
الآباء وما يترتب على مخالفتها من جزاء .

واتتهى الأمر بمقد مجمع مسكولي في
افسوس حضره مائتان من أساقفة المسالم ،
وكان مندوب الامبراطور في المجمع تسطوريا
وهو كاثوليكانيوس - ولد قبل لسطور على
تهديد الآباء المجمعين في افسوس بأن دخل
المدينة سخطا بفرقة منحجبة بالسلاح ورفض
حضور جلسات المجمع على الرغم من
استدعاء الآباء له أكثر من مرة . وازاء ذلك
اضطر المصح الى الاجتناع بدوله . وبعده
قراءة رسالة القديس كيرلس حكم المجمع
يطلع لسطور عن كرميه وتجريده من رتبته
الكلهوتية .. وقد وافق الامبراطور على خلق
لسطور بمجرد وصول القرارات اليه .

على صجهم باسم « الأرثوذكس » وبتبهم أيضا السريان الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم « اليعاقبة » .

ولما رفض الأبيسا ديستورس بطريرك الاسكندرية المواقفة على مسائل ايمانية اوردعا لاون استقف روما حيول طبيعيه المسيح ، استخدم لاون قوذ الامبراطور في نص ديستورس عن كرسيه وفي محاولة ارغام انصريين على قبول ما رفضه بطريركهم وحرمان كل من لا يوافق على مقالته حيول طبيعة المسيح . وتعرض المصريون من اجل الشابات على ايمانهم لمذابح مروعة وخاضوا حركة استهزاء جديدة كالعركة التي خاضوها في عهد ابطية الرومان الوثنيين ، بل ان عبدة الذين استشهدوا منهم على ايدي المسيحيين من اتباع مذهب الطيبتين المعالف لذهبيهم قد زيد بكثر على عبدة الذين استشهدوا على ايدي الوثنيين .

وكان الملك كلما اختار القسب المصري طريركا قبطيا ، امر بمنزله عن منصبه ، فينلى من مصر او يهرب محتجيا في ارجائها ، ويمن بدلا منه بطريرك ملكي من اتباع مذهب الطيبتين ، وينصب هذا البطريرك المغيبل بالقوة ادلا في ارغام الاقبساط على قبول مذهب غير منزههم ، فاذا رفضوا هذا البطريرك المغيبل ومدعه عمل الامبراطور فيهم القتل والسجن وكافة انواع الاضطهاد .

ولكن يزداد الاضطهاد بشاعة لجا للباطرة منذ عهد بوستيانوس الى حمل البطريرك الملكي يجمع ايضا الى وظيفته الكهنوتية منصب الوالى المدلى لتجنب لده السلطان معا ، ولما كانت جميع كنائس الاسكندرية في ايدي هؤلاء الدخلاء فانهم استطاعوا ان يطردوا متقا جميع البطاركة والاساقفة الاقباط وان لا يكوهم حتى من دخول مدينة الاسكندرية ، ولما كانت في ايديهم القوة العسكرية ايضا فانهم استخدموها في اضطهاد الاقباط كما يشاءون . وقد استمرت هذه الحال حتى دخول العرب مصر فكان البطريرك القبطي الالبا بنيامين هاربا من الرومان مختفيا في البلاد والامورة المصرية بينما كان القروض يجمع بين وظيفتي الوالى الروماني والبطريرك الملكي ويضطهد المصريين .

وامام كل هذه المواقف المشاذة التي اختلط فيها الاستعمار السياسي بالاستعمار الديني وقف الشعب المصري صامدا لا يلين ، يرفض كل بطريرك متعسلا في سبيل ذلك سنوف المذاب ، ورفض كل ممثل يخالق ايمان كنيسته القبطية ، ويؤيد بطريرك القبطي وظيفه ومسئول عن كرميه مشردا في ارجاء القطر او متكررا في مكان ما وكذلك افسس البطاركة شجاعة عجيبة وصبرا واحتمالا ، كلما اضطهدوا اتقلوا من مكان الى مكان يبتون الاقبساط في ايمانهم

وشجعهم على الصمود أمام عنف العدو المتعمر .

فعل الأقباط هذا بينما غارت قوى غايبية أستيقيات المسالمة الميحي واضطرت الى الخضوع لسيطرة السلطنة الرومانية وبايات روميه ، ولم تغلب الى جيمسوار الاسكندرية غير استقبلت انطاكية التي لاقت صورة مشابهة من الاضطهاد فتبدل أمالقتها المزلة والنفي ، وتمحليل شعبها الفئس والاضطهاد في سبيل الايمان الواحد الذي دافع عنه ديسقورس الاسكندري .

بهذا انقسام الكنيسة :

لما قامت هرطقة اوطاخي ، انقلد بسببها في انفس سنة ٤٤٩ م مجمع سس مجمع السوس الثاني وكان رئيسه الابا ديسقورس بطريرك الاسكندرية . ولما مثل اوطاخي أمام هذا المجمع وسأله الابنا ديسقورس عن ايمانه ، انكر هرطقته انكارا بانا ، وقدم ايمانه مكتوبا يوافق ما أمر به الاباء ، ولما لوقش شفاهما أجاب بنفس الكلام أيضا ، ثم فرس الابنا ديسقورس امر اوطاخي على آباء المجمع ، فظروا برأته مما لب اليه ، وقبوله في الكنيسة هو وهربان ديره الذين ناب أمدعهم عنهم في آيات مدعنة ايمانهم . كما قرر هذا المجمع أيضا حرم فلزيانوس أسقف القسطنطينية لثبوت تهم قدمضده . ثم حدث أن دعا لاون أسقف رومة سنة ٤٥١ م الي غدا مجمع مسكولي ودعا اليه

ديسقورس ، وكان ديسقورس يرى الأ داعي لعقد مجمع جديد لأن الكنيسة كانت في سلام من جهة الايمان . ولكن الظاهر أن لاون أسقف رومة ملكه العسد والغيرة من بطاركة الاسكندرية ودقعه ذلك الي أن انهمم بأنهم لاهم لهم سوى عقد المجمع والترأس عليها ، فأراد في هذا المجمع الجديد أن يدبر مكيطة للتخلص من ديسقورس .

ولما وصل ديسقورس الي القسطنطينية حيث كان المجمع مزمعا أن يعقد دهش من وجود بعض من أساقفة السلطنة المحرومين مجتمعين مع الآباء فأمر بطردهم ، ثم قرأت على المجمعين رسالة من بابا رومه طلبا سمعها ديسقورس أخذ عليه وقومه في حرمة الطيبتين ينسبا لثرت اقوال الآباء صحبا مذهب الطبيعة الواحدة ، ووقف وسط الاساقفة بشرح هذه المسألة في قوة والقناع حتى سراح الجميع ، فعن على ايمان ديسقورس ، وسأ رأى الامبراطور مركيانوس ذلك ، وكان حاضرا الاجتماع - أوعد الي اتباع لاون بأن يرحلوا جلسة المجمع الي اجتماع آخر .

ولما دعوا لاون ذلك دعي ديسقورس الي اجتماع خاص في قصر الامبراطور ، ولما أصر على ايمانه ، وعلى حرمه للاسقف لاون المنادي بمذهب الطيبتين ، اعتدى عليه وسجن وانتمد المجمع في خلقونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م ، وتحت تهديد القوة

عينوا مكانه بطريركا من مفاهيم اسمه
 بروتوريوس ، قرصه الشعب المصري وطرده
 من البطركية ، حتى اضطر الى الاستعانة
 بالقوة المسلحة للتمسك من دخول الكنيسة .
 واذ تعرض الشعب عنه وبدأ يترك الكنيسة
 له ولم ينصره من جنسهم الوثاق ، أمر
 الجور فأهملت لهم السيوف فقتل في ذلك
 اليوم عدد وفير ، كما قتل كثير من الرهبان ،
 واحاط الحراس بهذا الطيرك الدخيل ،
 واتخذت بعض اجراءات مدنية كإيقاف
 الأساقب الرضاية وعلق الضمانات المسماة
 ونهية الشعب بسحب امدادات الصبح .

ولكن الشعب المصري ظل متمسكا
 بطريركه المنفى الى ان توفي في منفاه سنة
 ٤٥٧ م ، ولم يدم بطريركية بروتوريوس
 اكثر من هذا التاريخ لأن الشعب
 السكندري التحز فرصة استثناء قائد العامية
 الرومانية الى مصر العليا في عهد الامبراطور
 ليون الأول (سنة ٤٥٧ - سنة ٤٧٤) وقام
 بشدة عنيفة تخلصوا فيما من بروتوريوس
 واختاروا راهبا قبطيا اقاموه بطريركا باسم
 ييولاس الثاني . ولكن الامبراطور تعدي
 الأباط و عزل الاببا ييولاس الذي اختاره
 الشعب وعاد كسكنه ثيسفوس ، الى جزيرة
 غاغرا ، وبين مكانه بطريركا من مذهب
 الطبيعتين اسمه سالوغاسيوس . وكان
 السبب في ذلك هو انه الاببا ييولاس
 الثاني جمع سنودا من اساقفة في الكرسي

بدأ الضخ على الاساقفة حتى قرروا :
 عقيدة الطبيعتين و عزل ديسقورس ، واتهامه
 بالاولاحية لتبرئه نوحاخي ، الذي كان قد
 رجع مرة اخرى الى هرطقته ، واثبت بذلك
 ان توبته الاولى امام ديسقورس في مجمع
 انيس الثاني بوبة زائفة ، كما حكم المجمع
 أيضا بتهمة لاون أسقف رومه ، ولما عرضت
 قرارات المجمع على ديسقورس ، حرم أعضاء
 مجمع خلفدوية عنهم ، بسبب الهراء
 الايمان الذي وافقوا عليه . فمضى ديسقورس
 الى جزيرة دمرا . وارسى المجمع الخلفدولي
 الى اساقفة الكرسي السكندري يدعوهم
 للايمان بمذهب النيقية فرفضوا وقرروا
 عدم الاعتراف بمجمع خلفدوية ، فبدأ
 الامبراطور باستخدام القوة لارغام رجال
 الدين وأفراد الشعب على قبول مذهب لاون
 والاعتراف بقرارات مجمع خلفدوية ، فلما
 رفضوا الامرين قامت مذابح في الاسكندرية
 وفي الأديرة قتل بسببها ثعب كثير ، والمسماة
 المسيحية الى مذهبين ، وسح ان ديسقورس
 وقب وحده وحالف الاساقفة من الانضمام
 اليه بعدما رأوا ما فعلته القوة به وشعبه ،
 الا ان ثورات شميسة اخرى قامت في
 اورشليم وبلاد أنطاكية احتجاجا على قرارات
 مجمع خلفدوية فاستخدمت القوة ضددهم
 أيضا واستشهد منهم عدد كبير .

وظل ديسقورس في منفاه حتى توفي سنة
 ٤٥٧ م . وكان أصحاب مذهب الطبيعتين قد

الأسكندرية سنة ٤٥٨ وأصدر قرارا بجمع مجمع خلقيدونية . فاعطى ليون الأول أن يتبعه واستمر مع سنوات في منفاه الى أن مات هذا الاسراطود فرجع البطريرك الاسكندري الى كرميه

تتوه هيو .

لم تمت الكنيسة بفترة هدوءه خلال حكم زينون (سنة ٤٧٤ - سنة ٤٩١) . واستطاع البطريرك القبطي الأبا نيمولاس بصد عودته من منفاه أن يقصد مجعا في امسطنطينية كان من بين أممسماله بطرس اقتصر بطريرك أنطاكية وقرر رفض المجمع الخلقيدوني ورسالة لاون أسقف روم . كما وزع منشورا بذلك ورفض عقيدة أوطاخي ووجوب التمسك بمذهب الطبيعة الواحدة . ولذلك لمعان المؤرخ الكاثوليكي فلاديسير يقول في كتابه عن التاريخ الكنسي أن « تسواوس الذي وضع هذا المنشور لم يكن مؤاخيا » .

ولما لوف الأبا نيمولاس التالي خلفه الأبا بطرس الثالث (سنة ٤٨٠ - سنة ٤٨٨) ، تمتت الكنيسة سلام في عهده أيضا ، وبذلت محمساولات للتصريب بين كنيتي الامسكندرية والقسطنطينية ، وعقد من أجل ذلك مجمع في امسطنطينية سنة ٤٨٩ م اتصرت فيه الأراء القوية التي تمسكت بها الكنيسة المصرية . وأصدر المجتسون مرسوما أسوه وكتاب الاتحاد ، صدق

عليه الملك زينون . ولكن الامسكندرية اشترمت على أساقفة القسطنطينية ورفض قرارات مجمع خلقيدونية مراعاة . وتبدلت رسائل بين آكاكيوس بطريرك القسطنطينية وبين بطرس الثالث لالاسكندري ورفض فيها آكاكيوس مجمع خلقيدونية برسماه وجميع المخالفين ، كما رفض رسالة لاون وآراء نسطور . فقبله بطرس الثالث ، فلم يرق هذا لبطس أساقفة الكرسي الاسكندري واحتجوا على بطريركهم فالتج لسه في كنيسته قبلت آكاكيوس الذي حضر مجمع خلقيدونية ووافق عليه في فرد عليهم بقوله واما قبلته لرجوعه عن ذلك الرأي . ولكن الظاهر أن هذا الأمر كان انفساما وقتيا الى مذهب الطبيعة الواحدة في عهد ملك ارثوذكسي مثل زينون ، لأنه بمجرد موت زينون عاد اضطهاد مذهب الطبيعة الواحدة وعادت كنيسة القسطنطينية الى التسك بقرارات مجمع خلقيدونية . وفي الواقع انه كنيسة الامسكندرية كانت متاملة في موقفها لاجبة على الأبدان لا لرحمها عنه الاضطهادات ، ولم تثبت مهمسا في ذلك سوى كنيسة أنطاكية .

وقد اشترت خبرات الهدوء أيضا خلال حكم انطاسيوموس (سنة ٤٩٦ - سنة ٥١٨) ، وفي هذا العهد توطدت أواصر التعاون بين كنيتي الامسكندرية وأنطاكية لانفاقها في الإيمان الواحد .

والرأية ، ويكون جميع أساقفة القريضا تعنت طاعته . فرفض ذلك وقال لرسول الإمبراطور لا ليس للملك سلطان الا على جسدي ... فمما أردتم قائلوه ولما أنا فأنج ايمان آباءى ، ، وترك كرسيه حب أوامر الإمبراطور فى حياطة الرضى وذعب الى الصحيد ، فعاول الإمبراطور ملاطفته وانراعه فلم يلب البطريرك خفاه وأرسل بدلا منه بولس التيبى ليسكون بطسوركا على الاسكندرية وقام رسامات مينا بطريرك القسطنطينية . فلما وصل هذا البطريرك الدخيل الى الاسكندرية لم يقبه أحد وكاموا يسوءه و يهزوا الصان ، ، ولم يقبل أحد أن يعلى معه . فأرسل الى الإمبراطور بخبره بذلك فأمره بخلق الكنائس لمدة سنة ولم يجده الشعب المصرى مكانا للصلاة فبنوا كنيستين مرا فى المكان المسروق باسم السوارى غربى الاسكندرية . ولم يبق للبطريرك القبطى المنفى سوى هاتين الكنيستين لأن الإمبراطور أمر بالآ بهعمل كنائس الاسكندرية الا أتباع البطريرك الدخيل وأقام الألبا لينودوسيرس بألى حياه فى المنفى .

وقد خطا يوستيانوس عظيمة أوسع فى اضطهاد المصريين وارغامهم على قبول مذهب الطبيعتين ، فبعد وفاة بولس التيبسى عين من قبله أبوليانوس بطريركا على الاسكندرية وحاكما لها فى حسن الوقت . وقصد من ذلك

ولما تولى الحكم الإمبراطور يوستينوس الأول (سنة ٥١٨ — سنة ٥٢٧) وكان على كرسي الاسكندرية البطريرك نيوتلوس الثالث (سنة ٥١٧ — سنة ٥٣٥) ، حاول هذا الإمبراطور ارقام كنيستى الاسكندرية وأطاكية على قبول مذهب جميع الملقدون . فلما رفض ساويرس بطريرك أطاكية لفاه عن كرسيه فبعاه الى مصر ، وظل فيها حاربا يتنقل من مدينة الى مدينة ومن دير الى دير معانا بسبب المصيرين الذين قبلوه كرحم سلم فى الكنيسة وظل هو عن جابه يسجهم وشبههم فى الايمان . كما أخذ هذا الإمبراطور يقسطه لألبا نيوتلوس بطريرك الاسكندرية وأمر بنيه وجرت بسبب ذلك مذبحه هائلة فقتل فيها نحو مائتى ألف نفس من الإلهايد أرادوا حماية بطريركهم من الجنود الرومانيين الذين تسكنوا على الرخم من ذلك من القبض عليه وتم فيه ، وبقي فى مناه ثلاث سنوات رجح بعدها الى مركزه واستمر مدالما هي الايمان بالاشتراف مع ساويرس بطريرك أطاكية حتى توفى سنة ٥٣٥ ، فى عهد الإمبراطور يوستيانوس الأول .

وخلفه على كرسي الاسكندرية الألبا نيودوسوس الأول (سنة ٥٣٥ — سنة ٥٦٧) . وقد عرض عليه الإمبراطور أن يقبل رسالة لاون ويساعده على نشرها فى مقابل أن تكون له الرقاسستان ، البطريركية

أن يجسمل في يد الرئيس الديني القسوة
المسكرة التي تسكنه من تنفيذ أوامره . وقد
بدأ هذا الطيرك الدخيل عهده بمذبة
كبرى قتل فيها عدد كبير من أفراد الشعب
الدين رفضوا اتباع عقيدته ، وحاولوا رجه
في الكية حين وقت ليجلبهم . وبصده
المذبة تسكن من النخلص من أصل المناصر
المعاصرة . وهذا العمل لم يحصل من هذا
الطيرك الدخيل سوى حاكم مدني ، لانه
لم يتمكن من ممارسة شيء من السلطة الدينية
التي ظلت في يد البطريرك الفرعي الذي
اخاره الشعب . ولكن أساقفة الأقباط لم
يستطيعوا على الرغم من ذلك أن يطهروا في
الامسكندرية .

ولذلك فعندما رسم البطريرك البطني
الأبنا بطرس الرابع سنة ٥٦٧ بعد وفاة سلفه
لينوديسيوس ، أقام في كنيسته بصد عن
الامسكندرية بمقدار تسعة أميال ثم اختفى في
دير تاجور بالقرب من الامسكندرية منتكرا
في درجة أسقف لاطيريرك ، ودير أودر
الشعب من هناك . ولما سمع بذلك أهالي
انطاكية فقلوا كنيسته الامسكندرية ، فمروا
بهم بطريركا بمسحه وفاة القديس ساويرس
أسموه بثيوانوس أقام مخفيا في دير
امونوس لأن أصحاب الطيمين هناك متعوا
الأساقفة الأرثوذكس من دخول مدينة
انطاكية متحين معهم نفس السياسة التي قامت
في الامسكندرية .

ثم قام البطريرك الألبنا دانيالوس
الامسكندري وخلف بطرس الرابع سنة ٥٦٩ م
وتقام مدة رئاسته اثني بلسن ستا وثلاثين
سنة مخفيا في دير تاجور أيضا في درجة
أسقف .

ثم تولى البطريركية اسطاسيوس سنة
٦٠٥ م واد اضطهاد الرومان للأقباط حتى
أن الرومان حرروا الأقباط الكينيين اللتين
بنوهما سرا لجرمي الامسكندرية .

ثم تولى البطريركية الألبنا اندريوس
سنة ٦١٦ م واستطاع أن يقبم في الامسكندرية
متمندا على قوة أسره التي كانت مخفيا
جدا وموبة بمص المناصب الادارية الكبيرة
في المدينة . ولم تستطع قوة الرومان أن
لرحه عنها . ولعل السبب في ذلك هو أن
اندولة الرومانية كانت وتذاك في حالة يرثى
لها ، إذ اجتاحت جيوش الفرس كثيرا من
أراضيها . وقا ازداد ضغط الجيوش الفارسية
على اندود اشرفية للإمبراطورية حاجر كثير
من أهالي سوريا وفلسطين لاجئي الى مصر ،
وعجز يوحنا البطريرك المكناني عن عدلهم
وجمايهم فهرب من المدينة وترك البلاد
للفرس . وقد قتل الفرس آلافا من الرهبان
الأقباط وخربوا كثيرا من الأديرة .

وفي سنة ٦٢٢ م تولى بطريركية
الامسكندرية الألبنا بياض الذي عاصر الفتح
العربي لمصر . وبعد تسع سنوات من بطركه
عين هرقل سنة ٦٣٦ م بطريركا مكنانيا

(ملكيا) اسمه كيرس Cyres وهو الذي
اشتهر باسم القوقس ، وجمع لهذا البطريرك
بن وثيقته الكهنوتية ومن وظيفة الوالي
ليكون أقوى على قهر الإقطاع وضمهم الى
مذهب القائلين بالطبيعتين . ويبدو أن هرقل
لم يكن موافقا في اختيار هذا الرجل الذي كان
حقيق الصلوة ، فإنه لما هضرت عليه استنالة
المصريين الى مطبحة المظالم اضطهدهم
اضطهادا وهيبا مما فرهم منه في وقت كانت
الامبراطورية فيه محتاجة أشد الاحتياج الى
استرضاء الألباط بسبب حرج مولتهم في
حربها مع الفرس .

أما البطريرك القبطي الأبسا بنيسامين
لاختصاص هو وسائل أساقفة مصر جميعا وظل

يتقل بين الكنائس والإديرة دون أن يتم في
أيدي الرومان .

واستغل هرقل هذه الفرصة فأقام أساقفة
من الملكيين في بلاد مصر كلها من
الاسكندرية الى انصسا ، فنكلوا بالإقطاع
تنكيلا شديدا .

ولكن حملة الحالة لم تستمر طويلا إذ
لمي عمرو بن العاص بجيوشه القريية الى
مصر ، وفتحها سنة ٦٤٦ م ولما استتب له
الأمر أعطى أمانا للأببا بنيسامين فرجع الى
كرسيه في الاسكندرية بعد نجية دامت ثلاث
عشرة سنة وبدأ يهدى الى الكنيسة ارتسك
المسيحيين الذين طغظ عليهم هرقل في قبول
قرارات مجمع عقيدونية وصرح عمرو له بفتح
الكنائس والحامة العبادة فيها .

الفصل الثاني

الحياة اللغوية

ب - اللغة المصرية المتوسطة : من لغة الآداب من الأسرة التاسعة الى الأسرة الثامنة عشرة ، منذ حوالي سنة ٢٤٠٠ ق . م الى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد . وصارت لغة الأهلين نحو التي هذه الحقبة .

ج - اللغة المصرية الحديثة : وهي لغة الأهلين من الأسرة الثامنة عشرة الى الرابع والعشرين أي منذ حوالي سنة ١٥٨٠ الى سنة ٧١٠ قبل الميلاد . ووجد مدولا بها ولائق خاصة بالمعاملات والرسائل ، وبعض التحكيمات والقصص الأدبية ، ودولت بسا لصوص تاريخية للأسرة التاسعة عشرة وما بعدها ، على أنها لم تشر منها إلا على القليل . وقد بدأ فيها ظهور كلمات وحيلة .

د - الديموطيقية : وهي المستخفمة في الكتب والوثائق التي كتبت منذ الأسرة الخامسة والعشرين الى آخر عصر الرومان من سنة ٦٥٠ الى سنة ٤٧ قبل الميلاد

هـ - اللبائية : هي اللغة المصرية القديمة في صورتها الأخيرة من مراحل تطورها .

غلت اللغة المصرية القديمة في مراحلها المختلفة لغة الكتابة والتخاطب في مصر حتى

اللغة هي الإداة التي يعبر بها الإنسان عن أفكاره ومشاعره . ولا يحدث أن يرتلي حسب ، وتنوع الأعمال له ، دون أن تكون له لغة غنية تيسر له التعبير عن مختلف لواعي الحياة . ولما كانت مصر القديمة قد وصلت الى درجة كبرى من الرقى ، فقد تطورت لغتها حتى سارت أسباب الحضارة فيها بالكلية المتنوعة والواعدها التي تضبط التركيب ، وتبنياتها ومصطلحاتها في شتى العلوم . كما كان أمها الواسع في الميدان الديني والعلمي والقصبي ، وغير ذلك من الميادين داعيا الى لمسات اللغة وحيرتها ، واللغة كائن يولد ويكبر ويظور .

مرحلة تطور اللغة المصرية :

مرت اللغة المصرية في خمس مراحل .

١ - اللغة المصرية القديمة : وهي لغة الأسر من الأولى الى الثامنة منذ حوالي سنة ٣٤٠٠ ق . م الى سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد . ولقد وصلنا منها وثائق رسمية وجنائزية ونصوص مقابر ، ومنها لصوص الأهرام ، وسير لبعض الأشخاص .
ولهذه اللغة خصائص ميزتها في بعض تبنياتها واملاؤها

قيام دولة البطالمة فأصبحت اليونانية لغة البلاد الرسمية ، وبعضى الزمن أخذ كثير من المصريين بتعلمونها واستخدامها ، وتآتمم وخطاباتهم حتى ولو كانوا يجعلونها . ولا جدال في أن اللغسة المصرية كانت لا تزال تستخدم في الكتابة الدينية والتغاطب فضلا عن تحرير العقود والرسائل . ولا يهوتنا أن نذكر أن غالبية المصريين كانوا لا يستطيعون كتابة أو قراءة أى لغة وبطيمة الحال كانوا لا يعرفون اليونانية .

وقد سبب ازدياد استخدام اللغسة اليونانية ونقص استعمال الديموطيقية تدوين هذه اللغة بحروف يونانية ، رتب ووضح الأبيديس القبطية تنظيم هذه اللغسة المصرية الدارجة لرفعها الى مصاف اللغات الآدبية ، وآدى ذلك الى أن ظهرت اللغسة القبطية بأدائها منذ أواسط القرن الثالث الميلادى . اسمها « سبت » بالتبعية لأن المصريين في ذلك الوقت كانوا يسمون أقباطا ، وقبطى معناه مصرى .

كانت الشعوب السامية المجاورة تسمى مصر قديما باسم « مصر » . هكذا تسمى في الآشورية وسبب في الآرامية « مصرين » وفي العبرية « مصرايم » وعونها للعرب باسم « مصر » . والمصر في اللغات السامية بمعنى الحد وقد أطلقت الشعوب السامية من آشورين وآراميين وعبريين وعرب ، على البلاد المتاخمة لهم « مصر » كما أسموا

سكانها بالمصريين . ثم أطلقت كلمة مصر على القطر عامة . (وما يستحق الملاحظة أن كلمة فينيس فقط في اللاتينية بمعنى حد ، وقد أطلق الرومان هذه الكلمة بصفة الجمع على القطر أيضا)

وسمى القبط بمصر باسم كيسى « السواد » أى الأرض السوداء . وأسموها الأستوريون في قرشهم الأستينية « هيكتوات » وهم الاسم الذى كان يطلقه المصريون على عاصمة مملكتهم منف ومعناه « بيت روح بتاح » وكان إطلاق هذا الاسم على المدينة كلها من سبيل إطلاق العاصمة على القطر كما نمودنا ذلك في المقدمات الآن .

وسمى اليونان هذا الاسم فأخذوه عنهم منذ عصور قديمة وأسموها « إيجيوس » وورد اسمها هذا عند مرأت في كسر هوميروس . فلذا بدأنا علامة الربع (و س) ثم الحركة الأولى التى شئنا العرب حرف استهلاك خلفنا لنا بعد ذلك اسم قبط .

أما المراحل التى اجتازتها كتابة هذه اللغة فهي :

1 - اللغة الهيروغليفية ، الذى اكتسب صفة القدسية ، ولذا أعطى هذا الاسم « هيروغليفى » المأخوذ من كلمتين يونانيتين هما « هيروس » = مقدس ، و« غليفس » = جتى .

ب - الخط الديموطيقي : وهو أيسر من الديموطيقي بعض الشيء . واستعمله الكتبة في كتاباتهم . والنسبة مأخوذة أيضا من اللغة اليونانية ، ومعناها « خاص بالكتابة » .

ج - الخط الديموطيقي : وهو من اليونانية ومعناه « خاص بالسحب » . فالخط الديموطيقي هو الصورة المبسطة التي أخذ السحب الميسري يستعملها في كتاباته في العصور المتأخرة .

د - الخط القبطي : قام بمحاولات لردية من المصريين لتحويل لنظم بحروف يونانية وكان ذلك في العصور الوثنية ، بدليل العثور على نصوص قبطية من العصر الوثني لشفا مصرية وحرفها يونانية وبها بعض حروف ديموطيكية ، وهذه النصوص محفوظة في كل من متحف باريس ولندن .

وكافة هذه المحاولات كانت وليد الحاجة لسبب أو لآخر ، دون أن يكون لذلك أي شأن بالمسيحية . واتى الأمر بأن استطاع شخص أو جملة أشخاص استحداث ما نسيه لأن يالخط القبطي وكتبوا لنظم بحروف يونانية وأدخلوها إلى الأبجدية اليونانية سبعة أحرف أخذوها من الخط الديموطيقي ، نهر عن أصول ليس لها مقابل في اللغة اليونانية وهي الأحرف الستة : شاي (ش) وفاي (ف) وهاي (ح) وهورى (هـ) وچنجا (ج) وثشبا (ثش) وقي (ت) .

اللهجات القبطية : للمعروف أن اللغة المصرية القديمة كانت تضم لهجات شتى ، وهذا ما نراه واضحا بين سكان مصر الآن . وهذا طبيعي في اللغات لذا انتشرت في منطقة واسعة وتوالت عليها العصور . ولا ريب أن بعض الاختلافات التي كانت قائمة في المصرية القديمة كانت أساسا لما يوجد منها في اللهجات القبطية المتعددة .

نسم المقام اللهجات القبطية إلى قسمين .

١ - لهجات مصر العليا :

ويعرف منها الآن البحرية نسبة إلى البحر أي لغة الأراضي المجاورة للبحر أو ربما كانت منسوبة لمدينة البحيرة . وهي اللهجة الأولى التي وصلت إلى درجة اللغة الأدبية . وكان ذلك في مدينة الإسكندرية .

ب - لهجات مصر العليا :

١ - الصعيدية نسبة إلى صعيد مصر وهي لهجة طيبة ، وأصبحت فيما بعد لهجة الوجه القبلي ، وكانت تسمى بالطيبة

٢ - القهبوية : انتشرت في القهبوم

٣ - الأسكينية ، تكلم بها أهل مدينة شميم ثم انتسخت الجبال للصعيدية .

هذه اللهجات الأبرج هي اللهجات الرئيسية وتفرع عنها بعض لهجات :

١ - المنية ، سادت في منطقة منف وطلت معقل البحرية .

والمتمركزة ولم يعرف الخط القديم الا الحروف الصامتة .

٥ - حصلت لنا القبطية كلمات لم سنر عليها في المصرية القديمة .

٦ - وأصلبت القبطية كلمات مصرية قديمة .

اختصاص اللغة القبطية :

أصلت اللغة العربية تناهض اللغة القبطية ابتداء من القرن التاسع الميلادي . وعليسى أن حلول العربية محل القبطية في الكتابة سببه انتشار العربية كلفة للتخاطب بين أفراد الشعب ، فقد أصبحت العربية لغة الدواوين ، ثم صارت لغة التعليم ، وقد جاء القرن الثالث عشر والعلماء القبط يرثون في اللاهوت باللغة العربية مما يدل على أنها كانت لغة العلم السائدة . وكان يهيمها أغلب سكان مصر ، ويتكلم بها أغلب سكان الوجه البحري . وظلت القبطية لغة التخاطب في الوجه القبلي حتى القرن السابع عشر .

ويقول المقرئ في القرن الخامس عشر عند كلامه عن دير موسى : والإغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصميدى وهو أصل اللغة القبطية ، وبمعنى اللغسة القبطية البحرية . ونسبها نصارى الصميدى وأولادهم لا يكادون يتكلمون الا بالقبطية الصميدية . ويقول ماسيرو : ولكن من المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون

٢ - الاخيمية القرية او الإسبوطية ، انتشرت فيما بين البهنا وأسيوط وقد انتشت من الاخيمية .

٦ - البهسورية ، انتشت من البحيرة وقد ذكرها العلماء الأقباط ولكنها ضاعت ويرجع أنها كانت لهجة قبطية تكلم بها اليونان في شرقى الدلتا وكتبت بحروف يونانية عادية .

٥ - والمتش من النيومية لهجة أخبرى شر على نيس منها في البحوات بالوحدات الفارجة ويرجع أنها كانت خاصة بالوحدات هذا وكانت لهجة التصيدية تتكون من عدة لهجات التمتجت بعضها في بعض كسا للاعظ هذا أيضا في البحرية . ودلينا على ذلك وجود صيغ مختلفة لكلمة واحدة . ويلاحظ على اللغة القبطية بالنسبة للمصرية القديمة ما يأتي :

١ - أنها كتبت بأبجدية يونانية بعد أن كانت تكتب بحروف معظها ديوطيقية .

٢ - دخلت عليها مفردات وتغيرات يونانية وبخاصة في العصر المسيحي .

٣ - أبدلت بعض الحروف في الكلمات وبخاصة الحروف المساللة ل م ن ر ، كأن يقال « نس » بدلا من « نس » أى لسان ، كما دخل القلب على بعض الكلمات مثل « انى » بدلا من « يت » أى ساء .

٤ - كتبت القبطية بالحروف الصامتة

ويكتوبون باللغة القبطية حتى القرنين الأولين
من القرن السادس عشر .

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
انتهى الكلام بالقبطية ، ولكنها بقيت لغة
الكنيسة تستخدم في الصلوات وقرارات
الكتب المقدسة . ويعرفها بعض الأفراد من
الإقباط ، في الأديرة أو المدن ، عن طريق
الصلوات بهذه الصلوات واهتمامهم بها . هذا
طبعاً غير العلماء الغربيين والشرقيين المتدينين
بدراستها .

الكتابة القبطية خارج مصر .

بالرغم من أن اللغة القبطية لغة قومية ،
الآن أنا لرى لها آثاراً عالمية ، فبعضه بعض
الفاظ قبطية انتشرت في اللغات الأوروبية
مثل الواحة (وازيس) ، وكومي أي الصنغ
(في الإيطالية جوما ، وفي الفرنسية جوم ولى
الإنجليزية جيم) ، والموسم ، والأيسس
وشيسات ، وهي منقطة وادى الطرون
(اسافيط) ، (ومنها اسم الناسك في اللغات
الأوربية) ، والأبتوس ، ولعل كلمة عبوة
أي (الأجر) مثل من الألفاظ التي لفرغ
تاريخ انتشارها في الخارج ، فقد أخذها
العرب من عند فتحهم لمصر عن القبطية
وحملوها معهم الى الأندلس فدخلت
الاسبانية . ثم فتح الاسبان جنوب أمريكا
فانتشرت هناك لغة (أدوي) ثم اتصلت
بالأمريكيون الشماليون بالأمريكي الجنوبيين

مدخل الكلمة في اللغة الإنجليزية
بشكلها الاسباني .

ومن أثر القبطية أيضاً أن القديسين
كيرلس المسى بالفلسوف وأخاه ميثودوس
عندما وضعوا الأبجدية الروسية في القرن
التاسع الميلادي أدخلوا بعض الحروف القبطية
لماخوذة عن الديموطيقية في الأبجدية
الروسية .

اللغة القبطية والرها عن العربية

بالرغم من أن اللغة القبطية قد اختلفت
أمام العربية إلا أن ذلك لم يحصل دون أن
تضفي شخصيتها المصرية على اللغة العربية وأن
تصنّفها بصيغة جملة اللغة العربية في مصر
نظير مثقال خاص يختلف عنه في الألفاظ
العربية الأخرى ، كما ظلت العادات المصرية
القديمة حية حتى الآن في مصر . فمن
الكلمات القبطية التي دخلت العربية أسماء
لمسبات مثل برسيم ، أرعب ، يم ، أم تويق ،
حلق ، نيس ، بقولى ، كعلك ، فلة ، كحة ،
قبة ، لبنة ، ماجور ، تساح ، ليوت ،
شوس ، لوفو ، الف ، بصارة ، رقالي ،
سلة ، حمان ، طلوبية ، نجبية ، تنعة ، سنط ،
شولة ، شوب ، شوبة ، شورة ، حطوم ،
رفان ، فوشة ، شورة ، بلج . ومن أنواع
السسك : البورى ، والبنى ، واليس ،
والراى ، والنتال ، والشلبة . ومنها أمسال
مثل شاشا ، فرقر ، هلفوس ، هوشس ، كلكك ،
نكت ، نط ، تنمت ، ودمس (دفن) ،

منذ تسعة قرون وهي مدة سيادة اللغة اليونانية ورغمًا من فرض أسماء يونانية على المدن المصرية مثل : أبولوتوبوليس لقوص ، وأكسينحوص للينسة ، ولينتوبوليس لأوشيم ، وبانوبوليس لأخميم، وهرموبوليس للأسمولين ، وهيراكليوبوليس لأهناس فإن الأسماء المصرية لهذه المدن لم تلبث أن ظهرت ثانية بعد دخول العرب ، وكان ذلك لمخالفة اللغة التبعية على هذه الأسماء القديمة .

شمل ، شن ، شيشي . وكذلك تعبيرات مثل : الورور للفجبل الصغير ، والقلاق ووجية (الساعة أو الوقت) والكانس بمعنى الألف ، وتوت للحاوي بمعنى اجتمع ، وليلي بمعنى اقترح ، ونهن ما زلتنا زددها في « ليلي يا عيتي » ، ديج بمعنى انتهى ، وكانى مالى ... ومنها استعمال أدلة الاستهلام في آخر الجملة ، ولعل من أهم مظاهر القومية المصرية ما نلاحظه في أسماء المدن المصرية ، فبالرغم من اختفاء الأسماء المصرية القديمة

الفصل الثالث الحياة الفكرية

١ - الإنتاج الفكري والفلسفة

ولد النضى كن أولئك في سوراخ المدينة وأسواقها . وقامت مناقشات دينية وعقلية حامية كانت تؤدى العماسة لها أحيانا إلى معارك ومنازعات . كما تقابل علماء كثيرون في المكتبة وتناقشوا إلى خصومة حيناً وإلى تفاهم حيناً آخر ، وكانوا يأخذون من الحكام مساعدات مالية ، وهكذا أسست مدرسة الإسكندرية المشهورة وألحقت الإسكندرية مكاناً أئينا كمرکز أسمى للعالم اليونانى .

ومن ذلك كنه حدثت لوفن من الامتزاج التفسرى تولدت عنه أفكار وفلسفات ومذاهب جديدة . بل حدثت محاولات للتوليق بين الأديان المتعددة في حركة تعرفت باسم « التوليق » Syncretism :

واليهود الذين كانوا عنتمزين عن الأمم ، بقيت جماعة منهم محتبطة ببنفاليها بينما تخطط الباقون بغيرهم من التعريب ، وصلوا على التعريب بين ديانتهم والفلسفات القائمة فمزجوا بين الانتمين . حتى أنه في القرن الثانى قبل المسيح كتب أرسطوبولس تفسيراً للتوراة حاول فيه التوليق بين تعاليمها

الحياة الفكرية وقت ظهور المسيحية :

كانت الاسكندرية لند وصلت الى درجة عظيمة من الأهمية ، حتى أصبحت لتسير بحق العاصمة الثقافية للعالم وقلب العالم العلمى النابض . وكانت مكتبتها تزخر بمن يهد إليها من العلماء والفلاسفة وطلاب المعرفة ، لا من بلاد اليونان لمحبب وإنما من كل جهات العالم ، يعطرون معهم علوم بلادهم وثقافتها . وازدهرت المدينة بأفان من شتى الأجناس والأديان والثقافات ، حتى لكأنها كانت معهداً ثقافياً .

كان فيها المصريين الوطنيين بدياتهم المعروفة ومبادئهم وألهمهم المصرية ، والى جانبهم عاش اليونان بلمتهم العالية وفلسفاتهم وألهمهم الاغريقيصة والمنصرفة ، والرومان بأفقتهم وفرائيمهم وثناسفتم وعبادهم ، وكان هناك اليهود يمثلون عنديرا هلمأ فى المدينة ولم يهضأ حى خاص ومعهم ديانتهم الالهية وكتابهم الموحى به وحقايدهم الموروثة ، وكانت هناك أجناس أخرى شرقية فى المدينة لها أيضا عبادتها وثقافتها .

والفلسفات المعاصرة ، بل قال ان فيثاغورس
وسقراط وافلاطون وارسطو تأثروا بكتابات
موسى النبي واطعموا عليهما في كتاباتهم
وفيلون القيسوق اليهودي الاسكندري
الذى عاش في القرن الاول الميلادي حاول هو
ايضا التوفيق بين الفسفل والوحى ، وتأثر
بالافلاطونية ، وكان له تألوه على المسيحيين
ليها بعد .

ولكن كل هذه المحاولات للتقريب
اخذت الى الافكار المتضاربة أفكارا جديدة
ولم نستطع ان نصل بالناس الى الحق
الواحد ، بل ظل العقل البشرى حالرا يتسائل
آين توجد الحقيقة . واحشدم النزاع بين
فلسفات وفلسفات ، وبين آديان وآديان ،
وبين الفلسفة والدين ، وبين العلم والايمان .

الصراع بين المسيحية والفلسفة الوثنية :
وسط كل ذلك ظهرت المسيحية في
الاسكندرية حوالي سنة ٢٥ م وانتشرت في
فترة وجيزة في مصر كلها . وكان عليا لكي
تبنى ان تصمد امام اضطهاد الحكام ،
وان تنصارع مع كل الآديان والفلسفات
والمذاهب سواء منها الوثنية أو اليهودية .

وهكذا حدثت لمباراة صعبة في
الاسكندرية ، فانخذ كل من القرعنين أمثلة
الأخر ليحاربه بعضا . فدرس المسيحيون
الفلسفة للرد على الفلاسفة ودرس الوثنيون
الكتاب لقتلهاجحة المسيحيين . وهكذا
لرى « كدموس » و « بورفيروس »

وصرهما يهاجمون المسيحية ❏ تعاليمها التي
درسوها في الاناجيل محاوئين ان يخطروها
تاريخيا وفلسفيا . ومن ناحية أخرى لرى
ديديموس الضرر يكتب كتابه عن «التالوث»
ستشهادا فيه بكثير من آراء الفلاسفة
والعلماء والنحراء الوثنيين

وإنهم الوثنيون المسيحيين لدى الحكام
بإهجمات كسيرة في تعاليمهم وعبادتهم
وأخلاقهم ، وأدى هذا الصراع الى ظهور فئة
من العلماء يدافعون عن المسيحية لذكر من
ينهم أيناغورس أحد أساتذة المدرسة
اللاهوتية بالاسكندرية ، فقد كتب دفاعه الى
مرقس أوريليوس قيصر سنة ١٧٢ م .

كذلك حاول أمعاء المسيحية أن يقرئوا
كتبا على نسق الاناجيل لها أبطال سيرهم
تتبه مسيرة السيد المسيح حتى يخلطوا
المسيحية بتلك الأساطير الغرائبية . ومن ضمن
كتب هؤلاء « حياة فيثاغورس » التي ألعا
بورفيروس وهي لا تختلف كثيرا عن حياة
أبولونيوس التي كتبها فيلوستراتوس . ورد
المسيحيون على كل ذلك متسدين على
التاريخ والمسلوم والفلسفة واللاهوت في
ردودهم .

هذا الصراع بين الفلسفة والدين ، اضي
بين العقل والايمان الذي يسلم بالمعجزات
وأموور فوق العقل ، كان من نتائج ظهور
فلسفة القنوسية ، وفلسفة الافلاطونية
الحديثة

زعمين الانتصار على الحس بالانصاف فيه .
وكان الغنوسيون في مصر من النوع الأول
الناسك .

ليس معنى هذا أن الغنوسيين كانوا
جميعهم وثنيين ، وانما كان منهم مسيحيون
أيضا ، ولكن هؤلاء نظروا اليه تزعم التي
اختلفوها واعتبروا أنفسهم أشخاصا روحيين
على حين اعتبروا باقي المسيحيين تكساليين
فقط غير قادرين على النهوض من الإيمان
الإلهي الي المعرفة الحقيقية ، واعتبروا باقي
الناس عابدين أو جسدانيين . ورأوا أن نظرية
الفداء في المسيحية هدفها تخليص الانسان
من المادة والجسد ، وقالوا ان هذا كان هو
عمل المسيح الفدائي . ولكن لأن الفخرية
قد اشتلت على عقائد كثيرة تخالف الايمان
المبهي فقد طردتها الكنيسة من صهرها ،
وأبعدت من يؤمنون بتلك العقائد ، واعتبرت
الغنوسية بذلك الوضع هرطقة وحاربتها .

ومؤرخو الفلسفة يرجعون الغنوسية الي
أيام تلاميذ السيد المسيح ، ويرون أن
سيون الساهر الذي حرمه بطرس الرسول
كان أحسن مؤسسا لأول . على ان
الغنوسية لم تظهر في قولها الا منذ القرن
الثاني حين انتشرت في مصر .

وقد تكونت مدارس كثيرة للغنوسية في
سوريا ومصر وآسيا الصغرى وفي رومة
أيضا وفي بلاد الغال وقرطاجنة ، وانتشرت
هذه المدارس على الأخص في البلاد التي

الغنوسية وتاريخها ومدارسها : الغنوسية

مناما « المعرفة » واسمها مأخوذ من الكلمة
اليونانية « جنوسيس » ، وقد ميز
الغنوسيون ، أنفسهم بهذا الاسم عن
« المؤمنين » ، وغالبا في دفع قيمة المعرفة
والعطف من قيمة الايمان . هم وضعوا العقل
فوق الايمان ، والفلسفة فوق الدين ،
وجعلوا السكر الخالص رقا على الوحى ،
بنتيجة أن يرفض منه بعض المعتقدات وينكر
المعجزات والالياء الخارقة للطبيعة .

واعتقدوا أن الانسان يتكون من ثلاثة
عناصر : روح وعش وجسد . وقسموا الناس
حسب العنصر السائد فيهم الي ثلاث طبقات:
أ - الروحيين وهم الغنوسيون الذين
ولعنهم المعرفة الي مستوى عال فوق المادة
والحس وسودهم العنصر الالهي .

ب - الجسدانيين وهم العوام الغاضبون
تأثير المادة والحس .

ج - التمساليين وهم متوسطون بين
الاثنيين ، يسكن أن تعرفهم المعرفة الي درجة
الثنوسيين الروحيين ، ويسكن أن نعتد بهم
المادة الي درجة الجسدانيين .

وهكذا نرى أنهم حسبوا أنفسهم
ارستقراطية عقلية قريبة من الله ، وجعلوا من
قيمة المادة جيدا واعتبروها شرا . فلذلك
بعضهم طريقة تصوفية تحاول السو عن المادة
والحس ، كما التحذر بعضهم الي المعارة

كانت فيها المسيحية على التمسك قريـ
باليهودية والوثنية . وخرجت منها فروع تميز
كل منها بطابع خاص مشتمل النيولاطين
والماركوليين والثانيين . ولكن اقوى وضخ
ظهرت فيه الغنوسية كان على يد فيلسوفها
الكبير فالتيثوس الامبندورى الذى يقول
عنه « شافه » انه « اسر اكبر مدرسة
للغنوسية ، وكانت له فلسفة خاصة ، ولهذا
نزل طريقته احسن وضخ انتشرت فيه
الغنوسية »

فالتيتيوس ١ هو مؤسس اسمعق وامتج
الانظمة الغنوسية واكثرها تأثيرا ورواجا . كان
مصرى الجنسية واسكندرى التصانعة درس
الغنوسية وتشرها في طابع جديد فاعرفى له
جسمال فنى . وبعد ان قضى فترة في
الاسكندرية ذهب الى رومنة حيث لوبل
بترحاب كبير . وبنى هناك مدرسة غنوسية
واجتمع حوله عدد كبير من تلاميذه ، وكان من
اوائل الغنوسيين الذين غلبوا في رومنة .
وقضى بها حوالي سبع عشرة سنة او اكثر
من ذلك « على رأى بعض المؤرخين . لم
تركها وذهب الى قبرص حيث أسس مدرسة
اعمرى للغنوسية لانت رواجها كبيرا حتى
قال عنه القديس ابيفانوس انه « كاد يقضى
على الايمان هناك » واستمر هناك حتى مات
حوالى سنة ١٦٠ م . وكان له تلاميذ كثيرون
سواء في ايطاليا او في بلاد الشرق « ومن
اشهرهم بديسان وبطلبيوس وهراكليرون

ويودونس ، وقد نشروا تعاليمه في مسور
متنوعة . وقد هاجم تعاليمه كثير من كبار
رجال المسيحية في العالم ، منهم ترتليانوس
واوغسطينوس في افرجيا ، وايريناوس في بلاد
النال ، وابيانوس في قبرص وغيرهم

الاولاتق القبطية : عن الباحثون على وثيقة
قبطية هامة من القليظة الغنوسية تدعى
« حكمة الايمان » يرجع تاريخها الى وقت
ازدهار فلسفة فالتيثوس في اواخر القرن
الثاني الميلادى او اوائل الثالث . وتجل
هذه الوثيقة العقائد العامة لنظام فالتيثوس .
وموضوعها مقابلة خيالية بين السيد المسيح
وتلاميذه حدثهم فيها عن كثير من الموضوعات
اللاهوتية ، واسلوبها شاعرى مؤثر

كما عثر سنة ١٩٤٦ في نجع حمادى على
حوالى ألفا صفحة مكتوبة بالقبطية على
البردى بها ٤٧ رسالة في الغنوسية . وهى
محلولة الآن في المتحف القبطى بمصر
القديمة . وقد أبدى العلماء اهتماما شديدا
بها لانهم يتوقعون انه تلقى ضوءا على هذه
الفلسفة .

الغنوسيون الاثوودنيس : اذا كان قد انضم
الى الغنوسية كثير من الوثنيين واليهود او
من المسيحيين الذين طردتهم الكنيسة
واعتبرتهم هرطقة ، فانه قد انضم اليها ايضا
جسمان من المسيحيين من كبار معلمى
الكنيسة . ولكن هؤلاء لم يؤمنوا بمعتقدات
الغنوسية التى حاربها المسيحية ، وانما كان

ولكن جيمس هولا - على عكس
فلاسفة التنوية الآخرين - قد وضعا
اللاهوت فوق الفلسفة ، والوحى فوق العقل ،
ونادوا بعدم تناقض الاتيين .
اللاهوتية الحديثة ؛

وهي فلسفة جديدة ولدت في الاسكندرية
على يد « أموليوس سقاص » ، وقد فُتحت
للشيرة لكثرة امكان الاتصال المباشر
باللاهوت ، وانتشرت انتشارا عظيما حتى
وصلت الى جميع المقول من عقل الامبراطور
الى عقل العبد . وانتشرت بسرعة
وسط العامة الذين استظفروا أن يفهموها ،
وكذلك بين كبار المثقفين فاهتم بدراستها
وأعجب بها فلاسفة عظام مثل القديس
أوغسطينوس . وكان لها تأثيرها العميق على
كثير من قادة المسيحية .

اموليوس سقاص : ولد من أبوين مسيحيين
في الاسكندرية ، وكان من أسرة فقيرة ،
ولكنه بمد فترة من الدراسة والتأمل انفسا
مدرسة فلسفية في الاسكندرية نشر فيها
تعاليمه التي اخذها من دراسة ترقية
لأفلاطون وأرسطو حاول فيها أن يوفق بين
آراء هذين الفيلسوفين . وليس ممكنا أن
نعده متدار التأثيرات المسيحية التي اشتبعت
عليها لفلسفة سقاص ولكننا نقول ان الفلسفة
أخذت على يديه اتجاهها يختلف كلية عن
اتجاهات سابقه . لأن الأفلاطونية الحديثة
لم تكن مجرد فلسفة وانما كانت أيضا نظاما
دينيا ، أو كما يقول البعض انها « حولت

لهم رأيهم الخاص في التنوية بمعناها السليم
الذي لا يتعارض مع الدين . وعلى رأس
هؤلاء القديس اكليندس الاسكندري
أحد مشاهير من تولوا إدارة المدرسة
اللاهوتية بالاسكندرية . وقد وضع كتابا
مقسما الى ثمانية كتب وسماه « المتروقات »
وعارض فيه الفخرسية الوثنية . وقال ان
الفخرسية العقليسية يجب أن تبنى على
أسس من الايمان والمعرفة العليسا التي هي
الحكمة الالهية . ولم يهاجم الفلسفة كما
هاجمها غيره من المسيحيين الذين اعتبروها
خطيرة على المسيحية ، بل انه أعلن ان
« الفلسفة علامة للاهوت » ، وأن الله أعطى
الفلسفة ليوناد وليرهم من الأمم لتعدهم
للإيمان المسيحي كما كانت الشرمة بالنسبة
للجود ، وهكذا اعتبر الفلاسفة « أبهاء
الوثنية » . ودعا المسيحيين الى دراسة
الفلسفة وأخذ ما فيها من حقائق ، ودعى أن
المنسوس الحقيقي يجب أن يزود بكافة
أفواع المعارف لتساعده على الايمان وثبت
فيه . واعتبر أن جيمس المسيحيين الحكماء
المتحمسين في فهم الحق هم المنوسيون
الحقيقيون أو المنوسيون الإرلودكس .

وهنا هذا الميدان من أهم أسس التعليم
في المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، وسار
عليه مشاهير مديريها من أمثال : أوريجانوس
وديديموس الضرير وغيرهما ، ونشره بين
الجموع التي لا تحصى من تلاميذهم .

الهيلينية الى لاهوتية . وقد توفي امونيوس مقاص حوالي سنة ٣٤٣ م دون أن يخلف لنا كتبه . وانما استطنا أن نعلم فلسفته من كتابات تلميذه بلوتينيوس (افلوطين) وبورفيربيوس خليفة افلوطين .

ولد افلوطين في أسبوط سنة ٢٠٤ م ودرس الفلسفة في الاسكندرية لمدة احدى عشرة سنة على يد أموليرس مقاص ثم ذهب الى بلاد الكسرس ليدرس ديانتهم ، واستقر سنة ٢٤٥ م في روما حيث انشأ مدرسة للافلاطونية الحديثة على غرار المدرسة النعوية التي أسسها هناك فالنتينيوس الاسكندري . واستمر يدرس في روما حتى وفاته سنة ٢٧٠ م .

ولعله تلميذه بورفيربيوس الذي وضع في مؤلفا شرح فيها تعاليمه ، غير أن بورفيربيوس خرج على المسيحية وهاجمها مهاجمة عنيفة . وكان ذا عقلية فلسفية كبيرة وشهرة واسعة . وقد وضع خمسة عشر كتابا ضد المسيحية هاجم فيها كثيرا من تعاليمها

ولا شك أن اتصاف قادة الفكر المسيحي على أمثال هذا الفيلسوف الخطير كان خطيرا على ماومن اليه هؤلاء القادة من نبوغ خارق في الفلسفة والعلم .

وبعد مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م لم تعد الوثنية هي ديانة الدولة الرسمية ، ولكن الوثنية احتفظت برغم ذلك بنفوذها التتالي مثلا في الافلاطونية الحديثة التي أصبحت فلسفة العصر وانتشرت في مدارس الامبراطورية الرومانية .

لأنسأ تلاميذ بورفيربيوس معروسة في سوريا ، وذهب الي هناك كثير من طلاب السلم يدرسون على أيديهم الافلاطونية الحديثة ليحملوها الى مدارس آسيا الصغرى واليونان والى الاسكندرية ذاتها . واستمر ذلك الى نهاية القرن الرابع حتى كانت كتب افلوطين تتداول في أيدي المنقذين أكثر من معاررات افلاطون ، ومثل هذا يقال أيضا عن مؤلفات بورفيربيوس .

٢ - مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وأثرها الثقافي

العلاقة بين التثنية هذه للمدرسة :

وكذلك لتثقيف المؤمنين أنفسهم ببسائدهم . وفيهم ونعاليمه وتزويد الرافقين منهم بما يريدون من الدراسات العليا والتعمق في فهم الفلسفة واللاهوت . وهكذا تأسست مدرسة الاسكندرية للتعليم المسيحي . ولم تكن هذه الأسباب الايجابية فقط

انتشرت المسيحية انتشارا مريحا وازداد عدد المنضمين اليها ، وكان من الضروري أن يوضع للتعليم المسيحي على أسس منهجية منظمة ، لاعطاء هؤلاء المتحولين الى المسيحية ما يؤهلهم للمصوبة والانضمام الى الكنيسة ،

مرقص الرسول ويقول انه هو الذي أسسها في النصف الأخير من القرن الأول الميلادي ، وعهد بادرتها الي تيطس الذي سارغيا بعد استقا للاسكندرية . على أن شهرتها غمرت بوضوح منذ القرن الثاني وأوائل القرن الثالث على أيدي مديرها الفلاسيفنة اثنسودورين مشعل إيتيوس واكليسفوس وأدريجافوس وديونسيوس ، ثم توقفت شأنها قليلا أو نمطل بعض الشيء في أواخر القرن الثالث ؛ إذ شئت الاضطهاد أسانذها وملاجا ، إلا أنها ما لبثت أن رجعت في القرن الرابع الي سابقه مجسدها على يد مديرها العظيم ديديموس الضرر ، واستمرت الي أوائل القرن الخامس ؛ ثم سلنت زمام القيادة الفكرية لظربة في الأوبرة .

في الواقع لم تكن مدرسة الاسكندرية هي المدرسة اللاهوتية الوحيدة في العالم المسيحي ، وأنا كالت هناك مدارس مسيحية في بلاد أخرى . ولكن لم تسطيع واحدة منها الوصول الي مشعل سيطرة مدرسة الاسكندرية والقولها ؛ فكانت مدرسة الاسكندرية أهم مدرسة من حيث امتداد نفوذها الي المسيحية ، يأتي المسيحيون اليها من فني الأقطار للدراسة على أسانذها الذين بلغوا درجة كبيرة من الشهرة ، وتخرج على أيديهم أساقفة وبطاركة عظماء لكثير من البلدان المسيحية العامة . وكان مدير المدرسة يعتبر الثاني بعد بطريرك في الاسكندرية .

هي الداعية لانتهاها ، إنما كان هناك سبب آخر لا يقل عنها خطورة . ذلك أن العالم الوثني كان يقف للمسيحية بالمرصاد يحاول بكل فواء وبكافة الفنون القبية والمقلبية والكتفية أن يقضى على هذه الديانة الجديدة . وهكذا واجهت الكنيسة هجمات فكرية شديدة من فلاسفة الوثنية ورجال السياسة فيها ، وكان لا بد أن توجد مدرسة عليا لزود الكنيسة بمسامة للتفكر ، وتقدم للمسيحيين المعرفة الكافية التي تمكنهم من الرد على خصومهم . وكان غرض هذه المدرسة هو الرد على الفلاسفة الوثنيين وأبائهم ، وحماية المؤمنين مسأ بشروه ليهم من مسكوك ، ويشير أولئك جيمسا بالمسيحية وتعرفهم طريق الحق .

وهكذا زكزت كل تلك الاحتياجات الفكرية في المدرسة اللاهوتية ، وبشطور تلك الاحتياجات وازديادها كانت المدرسة تمدل في مناهجها ونصيب اليها مواد جديدة لتفي بحاجة مصر ، وهكذا كان نمو المدرسة نتيجة لطبيعة الاحتياجات التي واجهتها ، والتي تطورت بها حتى أصبحت ممددة كثرويد الطللاب بكل أنواع المعسارفة الديموية والكنسية .

تلويح المدرسة وشهرتها :

وتاريخ هذه المدرسة يرجعه يرسايوس التيصري والقديس جبردم الي زمن القديس

وكثيرا ما اختير بطاركة الاسكندرية من بين
مدرسي هذه المدرسة اللاهوتية . وقد اعطى
هذا بطاركة الاسكندرية مركز الزمامة
الفكرية والعلمية في العالم المسيحي كله ، إذ
كان كثير من أساقفة العالم المشهورين
تلاميذ لهم تخرجوا على أيديهم أو على أيدي
تلاميذهم في مدرسة الاسكندرية ، وهؤلاء
بعد رسالتهم أساقفة ، على صلة بأساتذتهم
الاسكندريين يستمروهم في مشاكلهم
ولذلك لقب بطريك الاسكندرية بلقب «قاضي
المسيحية في العالم» . وكانوا يتروؤن في
المعاجم المسكونية حجة ومصدرا للتعليم
الصحيح .

مظاهر اسلامها

قدم النصارى القرن الثاني للميلاد لثلاثة
مدرسين للمدرسة كانوا فلاسفة ونسبين ،
تمسقوا في الفلسفة اليونانية ثم درسوا
المسيحية ليشتموها أو ليندوها ، غير أنهم
ما لبثوا أن آمنوا بها وهاجموا عنها ،
وتطوروا حتى صاروا مدرسين لمدرسة
الاسكندرية اللاهوتية ، وهم أثناسيوس (سنة ١٨١ م) ،
(سنة ١٧٩ م) ، وبثيتوس (سنة ١٦١ م) ،
واكليمندس (سنة ١٩٠ م) ، ولقد ظل
أثناسيوس يرثي زى البلاسفة وهو مدير
المدرسة المسيحية .

وخلفه تلميذه بثيتوس الذي نجح نجاحا
كبيرا في ادارة المدرسة بعبء الرعايون في العلم
والدين يقصدونها من كافة أنحاء العالم . وكان

من استمعوا اليه تجار من الهند فأعجبوا به
جدا واعتنقوا المسيحية بصداقة عظيمة ولم
يكتفوا بذلك بل حركتهم غيرهم الدينية على
خلاص مواطنهم أن يرسلوا — بعد رجوعهم
الى بلادهم — وقد اى البابا الاسكندري
ديمتريوس بالتسمون منه أن يسمح بإرساله
القدس بثيتوس الى بلادهم لتبشيراها بالمسيحية
فاولفد في سنة الى هناك سنة ١٩٠ م فترك
المدرسة في يدي تلميذه اكليمندس وذهب لي
رحله المخوفة الى هناك . وفي رجوعه من
الهند خرج في زيارة بشرية على الحبشة
وبلاء العرب .

ويرجع اليه الفضل في تقديم أقدم ترجمة
تبليغية للكتاب المقدس ترجمها بمساعدة تلميذه
اكليمندس الذي اعوانه في ادارة المدرسة
وخلفه فيها .

اكليمندس الاسكندري ، وهو واضح
السياسة التبليغية الجريئة التي سارت عليها
مدرسة الاسكندرية المسيحية في كافة
عصورها ، وكان قبل تحوله الى المسيحية
فيلسوبا ونسبا ، درس فلسفة اليونان ثم جال
يطلب العلم في بلاد اليونان واطاليا ولسطين
ومصر وبلاد الشرق الأدنى ، غير أنه لم يجد
سعدا خيرا من أساتذته بثيتوس . وهو مثل معلمه
نجح في كافة العلوم الدينية والكنسية . وتظهر
معارفه الواسعة في مؤلفاته وفي المعاجم الجديد
الذي اخذته على يديه مدرسة الاسكندرية
وحدد فيه العلاقة بين الفلسفة والدين ، كما

فتح الباب امام تلاميذه لجميع انواع المعرفة .
وقد وضع كتابا كثيرة لها اهميتها الدينية
والعقلية . ومن أشهر كتبه الفلسفية كتاب
والمشروعات « ألفه ليعارض به الفسوفية
المنجزة ، ووضع فيه الأسس التي ينبغي أن
يسير عليها الفسوف العقيقي أو المفسوف
المسيحي . ولما ناز اضطرهاد الامبراطور
سبتيموس ساويرس هجر الاسكندرية سنة
٢٠٢ م تاركا المدرسة في يدي للبيده العظيم
العلامة أوريجانوس الذي فاته شهرة وعلما
نايبا مثل أوريجانوس . فهو أشهر طفيلة
لأوريجانوس : لم تعرف المسيحية فيلسوفا
مسيحية في مصر وك العالم المسيحي كله
طوال عصوره المتأخرة . وقد سار في قيادة
مدرسة الاسكندرية على سياسة أساتذته
الكلمنتيس .

ولد حوالي سنة ١٨٥ م وكان له ذكاء
خارق للمادة وقدرة مهيبة على الاستدكار
وصبر على المدرس والأطلاع . واستطاع في
سن مبكرة أن يستوعب قدرنا ضخما من
المعلومات قائم بالفلسفة والمنطق والهندسة
والرياضيات والموسيقى والبلاغة ، وجمع
بين معلومات المدرستين المسيحية والثورية ،
فدرس على القديس الكلمنتيس الاسكندري
كما درس على أمونوس السقاس مؤسس
الأفلاطونية الحديثة . وفي سنة ٢٠٢ وهو في
السابعة عشرة من عمره سيق والده الى
الاستهاد في أيام الاضطهاد الذي أثاره

سبتيموس ساويرس . فبينما جرت والدته
أرسل هو الى والده يشجعه ويقول له
« لا تراجع ولا تصف بيانا » .

وتحت ضغط الاضطهاد اضطر القديس
الكلمنتيس الى ترك الاسكندرية فمهد
الطريق لبرك ديترتوس بإدارة المدرسة
اللاهوتية الى أوريجانوس وهو يمد في الثامنة
عشرة . وكان هذا اعتزالا بنا وصل اليه هذا
الكتاب النابع من عبقرية فذة . ولقد نجح
فجأة كبيرا جدا في عمله في التدريس بل
صار اعظم أستاذ عرفته الدراسات المسيحية .

وعرفه عليه طلاب العلم من كافة
الأقطار ، وتخرج على يديه أساتذة وبطاركة
وقادة للشعوب كما درس عليه فلاسفة
وثيولوجيون وحرافقة واستطاع أن يجذب كثيرين
منهم الى الإيمان . وكان لدوره في الفضيلة
والسك حتى انه لم يبق الضمير ولا اللبس في
حياته ، ولم يكن له غير ثوب واحد . وقال
عنه يوحنا بيبوس « انه كان مثالا لنا الأفعال
للفلسوف العقيقي : كما يتكلم ، هكذا
أعماله ، وكما هي أعماله ، هكذا يتكلم » .

ولم ينش عن التعليم مع عتبه الاضطهاد ،
وكان هذا الاضطهاد لا يجعل التلميح سببا
لفصيح بل كان يجعله خطرا أيضا . ولم يكن
للمدرسة بناء خاص فكان التلاميذ يتطوفون
حول مسكن أوريجانوس أو يأتون اليه لتلقي
العلم . وقد أشهد الاضطهاد على أوريجانوس
لدرجة أنه لم يوجد في المدينة كلها أي مسكن

له وإنما انتقل من منزل إلى آخر وكان يزد
من كل مكان يعلم فيه نتيجة الأعداد الوفيرة
التي كانت ترمز على يديه .

وكان في أثناء الاضطهاد يزور تلاميذه
في السجن ويمطرحهم إلى حبت المحاكمه
يريدهم إلى مكان الاستهاد ، لا يبالى أن
يكون معهم تحت سمع وبصر حواريهم ،
بقلم ويشجعهم إلى أن يسلموا الروح ، بل
أله وطمع كتابا في الحصر على الاستهاد .

ما من إنتاجه العلمي فهو أنظم انراج
مؤلف حتى قبل انه كتب ستة آلاف مؤلف ،
وأن عديري يجعل مؤلفاته حوالي الألف .
« كان يملئ على عدد كبير من النساخ ، وقد
قال عنه جبروم انه كان يقرأ أو يملئ حتى
يهو يأكل ومن أشعر الأسمان التي قام بها
جمع نسخ الكتاب المقدس وترجماته الشدية
« ثاباتها ولم اجعتها وتصحيح ما احتاج إلى
تصحيح وقد استمر في هذا الجهد الحبار
٢٨ عاما ، فوضع « إنكليلا » أي ذات
الإعده السنة لأنه فارق بين ست ترجمات
للكتاب المقدس جمعها في أسفاره الكثيرة .
كما وضع كتاب « المبادئ » و « كتاب الرد
على كلسوس » وتفسيرات عديدة للكتاب
المقدس حتى وصفه انكسندر أنقف
تورشليم بأنه « أسناد الأساقفة وأمر مفرى
الكتاب » وراه إلى رتبة الكهوت أسماء
مروره بفسطين في أحد أسفاره .

وقد استاء من هذا العمل البطريرك
ديتريوس وجمع مجما حرم فيه
أوريجانوس ، فترك الاسكندرية وأسس
مدرسة في قيسارية بفسطين على نصح مدرسة
الاسكندرية ، وازدهم عليه طلاب العلم
هناك . وموضوع حرم أوريجانوس ما يزال
حتى يومنا هذا منار جدل بين اللاهوتيين
حول أسبابه ومدى الحق فيه . على أن
البطريرك الذين خلفا ديتريوس في كرسى
الاسكندرية كانا من تلاميذه أوريجانوس
ويقال أن أولهما أعماه من ذلك الحرم .

ولم يقتصر نشاط أوريجانوس على
التعليم والتأليف بل امتد إلى الجبر ، فسافر
إلى روم وإلى بلاد العرب لقصصا على
بعض البدع فيها كما سافر مرتين إلى أثينا
كما ذكر « هارناك » .

ولما تولى ديسوس عرش الامبراطورية
الرومانية آثار اضطهاد شديدا على المسيحيين .
ولم ينح أوريجانوس من هذا الاضطهاد بل
فص عليه سنة ٢٥٤ م وسجن وجذب مغذبا
إلى البيا ، ويتقول يوسابيوس « يصعب على
الكتاب الماهر وصف ما لحماه أوريجانوس
وما احتلله في صبر وإرتياح من الصعاب
المره والألام العاسية أثناء هذا الاضطهاد » .
ولكنه لم يئن فخلق سبيله بعد أن تطورت
صحته وكاد يشفى على الموت . ولم يعش
بعد ذلك سوى سنتين أو ثلاثا حتى انتقل من
هذا العالم بعد أن ترك فيه شعرة لا تحصى .

وقد كان مهذباً في نضاله ضد الأريوسيين
والوثنيين ، إذ كان كل جهده مركزاً في أن
يفنهم ويحولهم الى الحق لا أن يهزمهم .
وعكذا تحاشى السباب . وجاءت كل كتاباته
موسومة بروح الاعتدال . ومن أجل ذلك
جاء إليه كثير من المرافقة ينسبون اليه العلم على
يديه — كما همت لأوريجانوس — واهتدى
على يديه كثير من أمثال أوريجانوس الى
الايان .

وقد ذاع صيت ديدنيوس وامتنحه
القدس الأنطونيوس بقوله : لا يعزتك فقد
بصرك إذ لزمت سمك أعين جديبة كاشي
يستنكها الثران والذباب . وأحرى بك أن
تسمع لأن لك أعين كالملائكة ترى بهما
اللاهوت وتدرك نوره ، كما امتدحه كثير من
قديسي الغرب وكتابه . وكان القديس جيروم
يعتبر بأنه تلميذ لديدنيوس وأنه أفضله
قدوة له في دراسة الكتاب المقدس كما ترجم
له أحد كتبه ، ومن تلمذ على يده دوفينيوس
أيضا : تلمذ عليه ثمان سنوات ،

وهكذا استطاع ديدنيوس أن يعيد
لمدرسة الاسكندرية المجد الذي كان لها أيام
الكليمنطس وأوريجانوس . وانتشر في عمله
كعلم حتى ناهية جيمعائه سنة ٣٩٨ . وظف
حوالي ٤٨ مؤلفاً فيما في اللاهوت والتفسير .
وكان سندا لانتايسوس وحصناً فكرياً
للكنيسة عظم قوة الأريوسية ، وفند كل
مغالطاتها العقلية .

أما ديدنيوس انقصر قسمه ولد في
الاسكندرية سنة ٣١٣ م في السنة التي وقف
فيها اضطهاد الوثنية للكنيسة . وفي حوالي
الرابعة من عمره فقد بصره لمرض أصابه في
عينه . فبدأ يدرب ذاكرته بمريرياً دقيقاً حتى
أصبحت تساعده على حفظ كل ما يسمعه ،
ولما كبر بدأ يعلم نفسه القراءة بعرف الحروف
على قطع خشبية يمسحها بأصابعه كما شهد
المؤرخ سوزيني بذلك ، وهكذا استطاع
ديديوس القزير أن يسبق طريقة برايد
بضعة عشر قرناً . وتكمن من امتداد علوم
كثيرة ، قائم بالشمع والبلاغة والفلك
والهندسة والعمارة ونظريات الفلسفة على
نوعها . كما برع في العلوم اللاهوتية
ودراسة الكتاب المقدس حتى استحق أن
يعينه القديس انتايسوس مدرسا للمدرسة
اللاهوتية بالاسكندرية .

وفي ذلك الوقت كانت الحركة
الأريوسية على أشدها ، وكان التسليم
محفوفاً بالمتاعب بسبب تدخل الحكام المدينين
بآراءه ضد الايمان السليم مما عرض الأستافة
والمعالمين للنفس والاضطهاد . ولكن ديدنيوس
لم تكنه اضطهادات باطرة الرومان لبريريه
الثانديوس الذي نفي من كرمية خمس مرات
بل وقف يجاهد معه بكل قوته ٣٣٣ ميل
الايان ضد الأريوسية التي يامرها
الباطرة ، كما حارب بقايا الوثنية الممتدة في
الأفلاطونية الحديثة وسائر الفلسفات .

الجديدة ، وترعت ، القوسية ، وضرت
هاتين الفلفتين في أرجاء العالم المنصف لهذا
كفه كانت هذه المدرسة الوثنية القوية مناسا
خضيرا للمدرسة المسيحية الناشئة التي كانت
تشمل أعلى مجموعود للصحبة في زراهم
انتهى مع الوثنية .

ومع ذلك عاشت المدرستان جنسا الى
جنب ، كل منهما كان لها طابعها الخاص ،
وكانتا كمرآة تنكس الحسالة الثقابية في
الاسكندرية وقتذاك . وقد اثر كل منهما
في الأخرى . مثال ذلك ان امونيوس سقاس
كان في المكتبة يحصل التعليم الذي تلمسه
سابقا عندما كان مسيحيا ، بل ربما كان
اتجاهه نحو الإغلاطونية الجديدة من تأثير
المسيحية . ومن ناحية أخرى ، أثر
أوريجانوس بحاضرات امونيوس في
المكتبة ، وانشر كاثليانوراس يلبس زي
الفلاحة حتى يسهل أن صار متناذا في
المدرسة اللاهوتية .

ولكن هدف التعليم في المدرستين كان
محتلما ، فتاريخ التدريس في المدارس الوثنية
بدنا على أن الطلبة كانوا يعلون ويتنرون
لبجواؤا مذامب الدولة ، سيما لم يكن هذا
من أهداف المدرسة المسيحية وإن كان
خروجوها يصلحون لذلك عن طريق غير
مباشر . وبينما كان لهم في المدرسة الوثنية
هو التقدم الثقافي وكان المستوى الأخلاقي
للأسانفة منحط ، فاذ العهدة الفاضلة

كتب سوسابوس القبري في منتصف
القرن الرابع يقول : ان المدرسة استرن
الى ايباتا وسعنا أنه ادواها وجان أتوياء في
علومهم ، وعبورون على الأمور اللاهوتية .
ويكفر أن الاتنين اللذين خلفا أوريجانوس
صيارا بطيركيين للاسكندرية ، أحدهما
القدس ديوليبوس صاحب الصيت الذائع
في المشرقة اللاهوتية ، ولانيهما بيوريوس
الذي كان ناسا في الفلسفة والعلوم اللاهوتية
ويطول مع الضدهس جبروم انه « درس
تلايهه كل أنواع المعرفة بمسارة وكنت
مقالا في شتى العلوم حتى لعب بأوريجانوس
الصغير » .

العلاقة بين المدرستين الوثنية والمسيحية :
كانت المدرسة الوثنية قد بلغت ذروةها
في العلوم والفلسفة في القرون الأولى
للمسيحية ، ولم تكن توجد أية مدرسة في
العالم القديم تعادلها كتركز للدراسات
الطبيعية والعلمية في الطب والتشريح
والرياضيات والفلك والجغرافيا وحتى في
انفد الأدي . وإذا كانت أفسا قد تبرزت
بدراسة الفلسفة ووجدت فيها فلسفات كثيرة
منسلفة الرامعة عن الأخرى فإن مدرسة
الاسكندرية الوثنية درست فيها كل هذه
الفلسفات مما ، تدارسها علماء يشلون كل
فلسفة اجتمعوا معا في المكتبة والبراييوم .
بل ان الاسكندرية أنتجت « الإغلاطونية

والإخلاق كانت من أبرز خواص المدرسه المسيحية سواء في المدرسين أو في الطلبة . ولعل أهم اختلاف وأوضحه هو أن الفلسفة والعلوم كانت تدرس في المدرسة التوتيه مجرد الثقافة بينما كانت تدرس في المدرسة المسيحية لغرض ديني .

فأدى آخر بين المدرستين وهو أن طلبة المدرسة التوتيه كانوا من بسوى ثقافى واجتماعى معين وكانوا ذكورا ، بينما كان التعليم عاما في المدرسة المسيحية بتمتاع السيد والعبد ، الكبير والصغير ، الذكر والأنثى ، بعض النظر عن الدين والجنس والثقافة . وهكذا حفظت المدرسة المسيحية كل العوارق الاجتماعية ، وفتحت بفسحها أيضا للفلاسفة التوتيين والهرطقة ، وازداد عدد طلبتها ازديادا كبيرا .

على أن المسألة الجارية بين المدرستين كان لها أثرها افعالاً تتوي في نمطه وازدهار العلوم والفلسفة واللاهوت في تلك القرون الأولى المسيحية ، فاضطرت المدرسة المسيحية أن تدخل في برامجها كل المواد التي تدرس في مدارسها التوتية ، حتى لا يشعر طلبتها بأنه ينقصهم نوع من الثقافة تمازج به المدرسة التوتية ، وحتى يستطيعوا الزه على حصان الفلاسفة والعلماء التوتيين .

وهكذا دخلت الفلسفة التوتية بشتى فروعها في منهج المدرسة المسيحية على يد العديس الكليمنطس الاسكندري الذي نادى

بأن الفلسفة خادمة للاهوت ، وأن الفسوفى الحقيقي من المسيحيين يجب أن يزود به بكل أنواع المعارف البشرية ، أخذاً من كل فرع من فروع الدراسة ما فيه من العنق . وارتقت دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية حتى أن كثيراً من الفلاسفة التوتيين كانوا يلجأون الي أوريجانوس يدرسون على يديه الفلسفة الديوية واللاهوت .

وأدخل الكليمنطس دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية ، ودخل الي جانبها دراسة اللغات والبلاغة والشعر والنطق والفنون والموسيقى ، العلوم الطبيعية والهندسة والرياضات والفلك والجغرافيا ، كل ذلك وجد له موضعاً في منهج الكليمنطس ووجدت له علاقة بدراسة اللاهوت . وسار خلفاء الكليمنطس على نفس هذا النهج . وهكذا خال أوريجانوس أن أولئك الفلاسفة يتكلمون عن الهندسة والموسيقى والأدب والبلاغة والفن كعادته للفلسفة ، ونحن بنفس الأسلوب نتكلم عن الفلسفة كعادته للمسيحية .

ولم يكنف مساندة المدرسة المسيحية بتدريس جميع هذه المعارف فحسب ، وإنما ساعدوا طلبتهم أيضاً على القراءة . نعت ارشادهم - في كتابات كافة المؤلفين دون أن يسموهم عن شيء ، فكان الطلبة يطوفون بكل أنواع المعارف ويحصونها ، ولم يرفض الأسانيد في محاضراتهم مناقشة أى موضوع يسألون فيه .

وأضافوا إلى كل ذلك دراسة الأخلاق وتدريب الطلبة عليها تدريباً عملياً . وكان المدرسون قدموا صالحة لطلبتهم في الحياة الفاعلة المثالية ، وما حثوهم على فضيلة الأمانة . وكانوا قد مارسوها هم أنفسهم قبلًا وتقدروها .

وهكذا كان من نتائج المناهضة بين المدرسين قيام نهضة علمية وفكرية واسعة النطاق لا نظير لها في أي بلد آخر من بلاد العالم المثلث . وأصبحت الإسكندرية بمن عاصمة العالم الثقافية سواء للمسيحيين أو للوثنيين ، وعادت مقصد كل راجع في الدراسات العليا في شتى العلوم الدلورية والدينية .

ولما كانت المعرفة لا تحد فقد كانت مدة الدراسة في المدرسة المسيحية غير محدودة فالقسيس أريغوريوس صانع المطالب (بعد أن أكمل دراسته في النطق واللغة والبلاغة في أثينا وبيروت) تخطت ست سنوات على أوريغينوس وكانوا يستهي لو أتيح له أن يقضي بقية حياته في المدرسة .

فجحت أئمة المسيحية كل هذا النجاح على الرغم من أنه لم يكن لها بناء خاص ولا مكتبة خاصة ، وإنما كان أساتذتها يلقون دروسهم في منازلهم أو في قاعات يستأجرونها لهذا الغرض . وكان الطلبة والأساتذة يذهبون إلى مكتبة الإسكندرية العامة للقراءة والاطلاع .

٣ - الإنتاج العلمي والأدبي والذهاب الشعبية

الانقباض أساندة تخرج عنهم كثر من علماء العالم القديم .

١ - ولطمس بهم هيروفيلاس مؤسس علم التشريح ، وأريستارخوس مؤسس علم وظائف الأعضاء ، وديموكريتوس صاحب نظرية الذرة . كما ظهر المسالم الماهر كزيليوس كالموسم الذئب ونسج مذكرة الطبعة الشهيرة لمنح للف الأستان ، وسرايود الإسكندرية الذي تنبى في دراسة عقاقير قدماء المصريين ، ولا سيما الكرمية الطعم منها ، وهو الذي قدمها للمصور المتنابهة فظلت مستعملة إلى القرن الثامن عشر .

الإنجاز العلمي :

ورث الإنقباض عن أجدادهم الفرائعة راحة في الطب والتشريح والكيما ، والصيدلة ، والهندسة والفلك . واستروا على بلوطهم في هذه العلوم طوائف المصريين اليوناني والروماني ، حتى أصبحت مدرسة الإسكندرية الوجة القديمة هي أقوى مدارس العالم في هذه الدراسات . ثم تأسست المدرسة التبليبية المسيحية واضطرت أن تدرس هذه المواد أيضا . ونج عن كل ذلك نهضة علمية لا مثيل لها ، ونبع من

ووضع انقبط في الاسكندرية عالية
المصطلحات الطبية ، ومنها مثلاً كلمة
medicamenta عقاقير و medicina
أو سم و sporibca معزز الدواء . وأخذ
عهم العالم هذه المصطلحات التي ما تزال
مستعملة .

وهذه القهورة التي بالتحا مصر المسيحية
في الطب والصيدلة والكيمياء جذبت إليها
العلماء من أقطار العالم للدراسة على
أساتذتها . ومن أمثلة ذلك جاليروس العالم
المعهور الذي ظهر في القرن الثامن للسلالة
والذي نسب إليه مجموعة العقاقير
الجالوسية الشتملة في هذه العصور
العديثة ، هذا العالم تلمذ في الاسكندرية
وأخذ من جامعتها فلسفته وطبه وسيدته .

وقد نسط العالم لدراسة المخطوطات
القبطية الخاصة بالدراسات الطبية ولرس
ما فيها من فائدة وقد ظهر بحث للاستاد
« تل » في العقاقير الطبية القبطية بين منه
مدى تقدم الإقباط في الصيدلة والكيمياء
والطب . كما وضع الأستاذ « دوسن »
سنة ١٩٤٣ م كتاباً عن تاريخ الطب عند
الإقباط في القرون الأولى للمسيحية وشرح
بالإضافة إلى العقاقير أدوات الجراحة التي
كانوا يستخدمونها .

ومن أهم ما وصلنا من المخطوطات الطبية
القبطية بردية « شاسيانا » التي تتناز بعلاج
أمراض البيوض ومداواة الخراجات وعلاج

بعض أمراض النساء والأطفال وقد وصفت
كثيراً من العلاجات لأمراض العيون وبعض
القطرات والمساحيق ، منها قطرة قايضة لمنع
التزريف . ولا تخل بردية « زيون » أهمية عن
هذه البردية أيضاً . وهذه البرديات تزينها
مدى ما وصل إليه سيادة الأقباط من معرفة
بأصول فن صناعة الدواء وتعضير المصقات ،
كما تدل على علمهم الوافر بالثقافات
الكيميائية المختلفة وبالأخص التي تم على
النار .

ويقول « بيولنسكي » في كتابه الطب
الشعبى المأثور : ان كثيراً من العلاجات
والمستحضرات الحلاجية المعروفة في أوروبا
منذ القرون الوسطى تعمد الطابع المصري
القديم ، كما أن الكثير من هذه الوصفات
لا زال مستعملاً في مصر ولها كثير من بلدان
الشرق .

وتم بمر بيوخ الأقباط العلم على
الطب والصيدلة والكيمياء وانما رعا في
الحساب والرياضة أيضاً ، وليس أدل على
ذلك من أنهم تولوا الأعمال انحصائية
والمالية والإدارية طوال العصر الاسلامي . بل
ظفوا إلى عهد قريب يبتلون عالية وظائف
الدولة في هذا الميدان .

ولم يقل نوعهم في الهندسة وأعمال
البناء عن نوعهم في الطب والحساب . وتشهد
على ذلك الكتابات الفخمة التي بنوها
والأكبر ذات الأسوار والحصون الفخمة .

د كزيويل « الآثار القبطية على فن العمارة
الاسلامى المندم في مقال له نشره في مجلة
جسعة لآثار القبطية سنة ١٩٣٩ .

ومن آثارهم في الفلك حساب الأضواء
الذى وضعه في القرن الثانى لليلاد لأبى
ديستريوس بطريك الاسكندرية . وسار
الأقباط هم الذين عهد اليهم بتحديد الأعياد
والأصوام للعالم المسيحى كله . ومثال ذلك
ان مجمع لبقية سنة ٣٣٥ م فوض لبطريك
الاسكندرية بتحديد التاريخ المفسوط لعيد
القيامة بعد ان تصاربت أقوال علماء المسيحية
في ذلك .

صناعة الورق

وجداً من مطلقات العصر القبطى الكثير
من البرديات التى تثبت أنهم ايجادوا صناعة
سبعة أصناف من الورق للكتابة ، وقد استغل
المصرى هذا الورق أحسن استغلالاً كما تدوين
طوره وآدابه منذ تقدم عصور حضارته .

فالمصرى لم يكتف بحضوره .. اذا ما تناول
الفن أو العلم — أشر ثباتا على مصرته
ومخالفة على رايه . وذكر الأستاذ «جويج»
في معرض كلامه عن مدرسة الاسكندرية في
مقال له عن عصر الانقضاء ، في مصر من
أبوابية الى القبطية ما ترجمته « لقد سعى
الاسكندر الأكبر سعيه ليصبح الروح المصرية
بالصبغة اليونانية ، واقضى البطلمة اثره في
ذلك ، وحاولوا جهدهم أن يستميلوا المصريين
ويشقوا على الفكر المصرى مسحة يونانية

وليس أدل على ذلك من آثار « أبامينا »
بمريوط ، والديون الأبيض والأحمر في
منطقة سوهاج . وغير ذلك من الآثار العمارة
الكثيرة الدينية وغير الدينية . بل ان هذا
الشيوخ أشهر معهم فقد ذكر « الأذرقى »
في كتاب تجار مكة ان الكمية طنى عليها
قبيل ظهور الاسلام سبيل عظيم صدع
جدرانها ، فأطاعت قريش بنامها مستينة
في ذلك بنجار قبطى كان يسكن مكة .
وأثبت الأوراق البردية التى حتر عليها في
مصر ان الوليد استمان بالقبط في بناء مسجد
دمشق والمسجد الأقصى ، والقصر أمير المؤمنين
هناك . ويذكر « البلاذرى » في فحول
البلدان ان الوليد استمان بالقبط في إعادة
بناء مسجد المدينة .

ولما أعاد عمر بن عبد العزيز بناء الجامع
النبوى في المدينة عهد بذلك الى مصارعين من
القبط بنوا فيه أول معراب مجسوف في
الاسلام ، وقد أخذوا شكفه من حنية
الكتيبة . وأثبت العلماء أن قصر المنشى في
شرق الأردن الذى يرجع بناؤه الى منتصف
القرن الثامن السيلادى قد تأثر في رخاره
بالرخساراف القبطية وفي تخطيطه بتخطيط
الديون الأبيض والأحمر بسوهاج . وتجلى
البراعة الفاتحة في بناء مهندس قبطى هو سعد
ابن كاتب الفريخانى لجامع ابن طولون
مستخدماً في ذلك عودين فقط بعد أن قال
المهندسون لابن طولون ان ذلك التمسيل
يحتاج الى ما لا يتل عن ٣٠٠ عود . وبين

بحة - وقد تملأوا في هذا السبيل مدة ستة
 قرون يحاولون فيها الوصول الى غرضهم .
 وخيل اليهم أنهم نجحوا في الوصول الى
 هدفهم لا رثوا المشرق وقد شغل بحلف
 انواع التناقض - يأخذ منها أينما وجدها .
 ويستمتع بالفن حينها بلقاءه . ولكن المصري له
 قسوة عجيبة على فكيف الفنون وفن الزواج :
 ويستسيخ العلوم بحسب ثوبه ، وهو - بعد
 هذا كله - مصري أصلت جذوره في هذه
 التربة التي ازدهرت فوقها حضارته العريقة .
 فالمصري - مع كل ما يعضه من علوم وفنون
 غريبة - فحور باسمه ، شغوف بلاده .
 لهذا الفخر وهذا الشغف متأصلان فيه الى
 حد بعيد القور ، فهو ثابت في مدرسته بحيث
 لا يمكن اقتلاعها منه أو تعرجه عنها مهما
 نوعت المآثرات .

لنضيف الى كل هذا ان أقباط مصر
 وبطاركتها ظلوا عند التشريع الكنسي طوال
 القرون الأولى للمسيحية وكانوا يتبررون
 حجة في تنظيم قانون الكنيسة للعالم
 المسيحي .

التاريخ الكنسي

١ - التاريخ بطاركة الاسكندرية

كان لمصر مكانة رفيعة بين دول الممانم
 في بونهي الحياة كلها مجتمعة اباد عمود
 الفراغنة . وكانت المعبودات المصرية في
 دلالتها تتم عن فكر سام رفيع . اذا قيست
 بمعبودات الشعوب الأخرى . بن استمارت

البلاد الأخرى أحياناً المعبودات المصرية
 لمبادتها .

فلما دخلت المسيحية مصر وانتشرت بها ،
 غدا الكنيسة المصرية نفس المركز الذي
 الرفيع بين كنائس العالم . وساعد على ذلك
 ما عرفه عن علماء مصر من تحقق له معارفهم
 وعلومهم . ولما أخذ الجسد الأندلسي يشتد
 ابتداء من مطلع القرن الرابع الميلادي ،
 طفت أشطام العالمية (المسكونية) بدعوة
 من الإمبراطور الدولة البرنولية . وكانت رئاسة
 تلك المسامح . التي حضرها مساقفة
 مندوبون عن كنائس العالم أسيحي كله -
 تسند في أغلب الأحيان الى بطاركة الكنيسة
 المصرية .

هكذا كان ابطاركة الكنيسة المصرية
 مركز سام في العالم أجمع . وكان الإمبراطور
 الميخيون يجعلونهم ويلتسسون بركتهم
 ويعيرون لهم وزراً . لأنهم كانوا زعماء يمثلون
 قوة شعبة جبارة . سافوا كعصم مسامح أولئك
 الأباطرة .

ومن ثم كان التاريخ اعلاء البطاركة -
 الزعماء الضميين . أمر هاماً للغاية . فتمتد
 اشتركوا في المعاهدات السياسية التي دارت
 والتي كان لها طابع ديني خالي الألقاب ، فقد
 يحدث تجاراً أن يمتنق الأمر المور الروماني
 مذنباً دينياً معيناً في فطام المسيحية ، ويريد
 أن يرغم رعيته في نصحاء اميراطوريته على
 اعتناق مذهبه حتى يضمن بذلك الجانس بين

شعوب الامبراطورية بما لوحدت المقدس ،
 يسبب هذا بين الشعب والحاكم الصدام
 والحروب والثورات . وكان البطارقة يحق
 زعماء شعبيين في تلك الاوقات المصيبة ،
 قادوا الشعب ولم يعاؤوا بالعديد والنبار .
 واصلوا اولئك الايام ان يحثوا الرؤوس
 لهم اجبالا واحتراما ، فأرح الناس لهم
 واعصرهم ، حتى تستطيع ان نلمم بالكثير من
 الثقاليد والعادات المصرية بل وبنواهي العبادة
 المختلفة من مشروع هذه التراجم التي تظهر
 لنا روح العصر الذي عاشت تحسه هؤلاء
 المطاركة .

المصادر التاريخية لسيرة البطارقة :

مرس مؤرخون كثيرون لسيرة بطارقة
 امكنة انصرية ولعل من أشهرهم .
 ١ - **يوحنا الطيوس** :

في النصف الثاني من القرن السابع
 الميلادي ، كتب تاريخا جيدا بيدا بخلق العالم الى
 ما بعد الفتح العربي لمصر بزمن يسير .
 ويهوى تاريخه اعدادا متملة من الآباء
 البطارقة من مرقس الرسولي الذي بشر
 بالمسيحية في مصر في القرن الأول الى اسما
 بنيامين البطريرك الذي عاصر الفتح العربي .
 يد - **ساويرس بن القبط** :

سقف الأستومونين (مركز حلوي) عاش
 في النصف الأخير من القرن الثامن واولئك
 الحادي عشر وعاصر الخليفة الفاضل المعز
 لدين الله . وصنع كتابا سماه « تاريخ

البطارقة » ويضم تاريخه أهم مرجع بين هذه
 التواريخ جميعها . وذلك نظرا لما امتاز به
 هذا الأسقف من العلم انجزه وتمسكه من
 نقلت القبطية واليونانية والعربية . بل لعاه
 ثول كاتب صنف مؤلفاته بالمنة الرمة من بين
 الأقباط . وقد جمع تاريخه من عدة مصادر
 قديمة عار عليها في الاديرة نوع من مصادر قلبت
 عنها . وقد رُخ ساويرس للبطارقة من مرقس
 الرسولي الى البطريرك يوساب الأول (٨٣٠ -
 ٨٤٩ م) ، وقد ذكر ساويرس انه ترجم
 هذه السيرة الى العربية من مخطوئات قبطية
 وبنوايه ترجع الى عصر المؤرخ له أو بعده
 بقليل . وما يجدر ذكره ان منظم هذه الاسلوب
 قد خرج من مصر ، وهي موجودة الآن في
 المكاتب الكبرى في العالم ، وبنوه العادسا ،
 بندها تدريجا .

والكتاب بوضعه الراهن يضم موسوعة
 تاريخية من حقائق امعد الذي عاش به
 ابطاركة «صحات الترجسات» . وقد نسل
 المقريري عن هذا الكتاب جابا كبيرا مما
 سجله في كتابه « الحفظ » كما أخذت
 أيضا الفلقستني في كتابه « مسج الأعمى » .
 وقد ترجمه « ايفس » وشرحه بالخرية
 مع ترجمة الى الانجليزية في نسخة الآباء
 الشرقيين .

ج - الأنا جيفاقيل أسقف نيس :

عاصر الأنا ساويرس بعض الوقت وزامله
 في جمع تواريخ المطاركة من الاديرة . وأرجح

البطارقة من خاتيل الثالث (٨٨٠ - ٩٠٧ م)
الى سانوثيوس (١٠٣٣ - ١٠٤٦) .

د - الأنا يوساب اسقف فوه :

من رجال القرن الثالث عشر الميلادي .
وقد قام بجمع سير البطارقة ووضع سير
مما صوره .

وقد اكمل تاريخ بطارقة الكنيسة
المصرية حتى عصرنا الحاضر على يد علماء
كثيرين من مصر وغيرها . و يعتبر تاريخ
البطاركة حلقة هامة في تاريخ مصر العام .

٤ - المنكسرا :

وهو الكتاب الذي يضم سير الآباء
القديسين . ويعرف فمسا دينيا بصور لسا
النواحي الاجتماعية في العصر الذي عاش فيه
الآباء اصحاب التراجم . فهو بذلك يكمل
التاريخ ويساعد على فهمه . وقد نشره
١ باسحق بالعبرية مع ترجمة الى الفرنسية .
ثم نشره ٢ أولري ٤ مربا بحسب الحروف
الهجائية .

ولما كتب أخسرى تكدي الشكار
ونفسه . وأشهر من دولوا سير الآباء
٥ بلاديوس ٤ الذي كتب سير الرهبان
المصريين ٤ والثاسيوس الرسولي بطورك
الامكسترية في القرن الرابع ، الذي كتب
سيرة القديس انثونيوس ، والقديس
٦ جيروم ٤ . و جيروم هو الذي دون بدوره
سير القديسين والشهداء المصريين . وقد

نشرها في مجلدين العلامة و بدج ٤ ، كما
وضع القديس يوحنا كسياد (القرن الرابع)
عدة كتب ضمنها بعض سير الرهبان المصريين
نشرها ٥ لوشانوا ٤ بعد ترجمتها الى
الفرنسية ، كما نشرت ترجمة الى الانجليزية
في المجلد الحادي عشر من موسوعة « آباء
يقيية وما بدأ يقيية » .

٣ - تاريخ الجامع

أرخ الأقطاب — بطايهم الطبي الخاص
— للجامع المعلة والعلمية ، مما كان له
أكبر الأثر في المحافظة على هذا التاريخ .

١٠١ - تاريخ المعلة :

وكانت تعد في مدينة الاسكندرية
برئاسة البيريك للنظر فيما يوم الكنيسة
بوجه عام وحل المسائل المختلفة التي كانت
تعر ٢ .

١٠٢ - تاريخ المعلة (السكولية) :

وكانت تعد في القسطنطينية أو في مدينة
تنوسط لحساء الامبراطورية . وكان
الامبراطور البيطلي هو الذي يدهس
لاستادها للنظر في البدع الدينية التي تظهر
في اقليم من اقاليم الدولة . وكان أعضاؤها
مندوبين يمثلون جميع الكنائس في العالم
المسيحي وعلى المعجم أن يتخذ التراوات
التي تدهس تلك البدع من جهة وتحرى
الايمان من جهة أخسرى . وقد شملت
الخلاقات المذهبية جزا كبيرا في تاريخ الدولة
البيزنطية لأنها كانت قوتها ومزقت وصالها .

ولذلك تألف تلك المجموع فصولا رئيسية في تاريخ الدولة البيزنطية .

وفي التاريخ العام كان للإقباط اتناهم الكبير الملعوظ فيما وضعود من مؤلفات عديدة ليس بالنسبة الى التاريخ الكنسي فحسب ، بل في التاريخ المدني أيضا . ومن أشهر الكتب التي ألتمت في هذا المقصد الكتاب الذي أرخ فيه يوحنا القتيوسى للعالم من بدء الخليقة الى التفتح الاسلامى ويضمير الجزء الأخير منه هو المصدر الأول لتاريخ فتح العرب لمصر .

يوحنا القتيوسى :

كاد معاصرا لفتح العرب لمصر . كان في بدء حياته راهبا عرف بالتحقى وكثرة العلم وحسن السيرة ، فمزم أسعفا على قتيوس (وسكانها الآن قرية بشادى بمديرية المنوفية) لم رضى رئيسا لأساقفة الوجه البحرى ، ثم عين في شبخوخته سنة ٦٩٤ م مديرا لإدارة وادى التطرون . وعلى الرغم من علمه وتقواه وخدمته للكنيسة فقد حكم الأساقفة بوضعه عن مباشرة عمله الكهنوتى بسبب عنفه الصديقه فى تدابى راهب على خليته ارتكباها .

وقد خلف لنا كتابا عاما أرخ فيه من بدء الخليقة الى ما بعد دخول العرب مصر بتفليل . وكتابه مقسم الى ٢٢ بابا الأحسنه عشر الأخيرة منها خاصة بالفتح العربى حيث تكلم عنه بتفصيل وإسهاب . ويمتيز الكتاب هو

المراجع الأول والإصيل فى هذا الموضوع لأن كاتبه سجل ما رآه عيانا بنفسه .

وفد وضع هذا الكتاب باللغة القبطية ثم ترجم الى العربية والعثمانية وربما الى اليونانية أيضا . ولكن لم يصل اليها غير الترجمة العثمانية .

ويدل الكتاب على ما وصل اليه يوحنا القتيوسى من علم فزير وتفصلى فى البحث واعتماد على المراجع الأصلية القديمة ، كما تظهر فيه العرة التى عوفاها الكتاب فى سرد التاريخ .

وليس صحيحا ما ذكره زوتبيرج الذى نشر تاريخه من أن الكتاب وضعت غالبته باليرغالية على حين وضعت الأخبار المطبقة بالقبلىة .

١ - لأنه من السجند على كاتبه قبطى مشكك بنومنه أن يكتب لمواطنيه تاريخ العالم طفلة مضلهديم الروم

٢ - . كانت اللغة اليونانية قد أخذت فى الاقراض من مصر منذ القرن الخامس على يد الأبا شنوده .

٣ - صفة أسماء الأعلام فى النص الحش مدلل على أنها أخذت عن أسسلى قبطى .

وقد ظل الأقباط يعملون لواء المعلوم الى ما بعد دخول العرب مصر بقرون . وظهر فيهم كيرلس وكولومس ويوئاس . وعرف فى القرن السادس يوحنا قليبيوتوس النحوى

الذي أتته في الأدب والفن والرياضة . ومن المعروف أنه منذ القرن السادس كان رجال الدين من الأقباط يتولون تدريس العلوم في المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، وفذكر من بينهم سرجوس وهارون القس . وقد ورثت الدولة الإسلامية فيما بعد كثيرا من هذا التراث العلمي في حركة الترجمة التي قامت بها . فقد أمر خالد بن يزيد بن معاوية بأن ي نقل إلى العربية كثير

الإنتاج الأدبي والثقافة الشعبية

على الفضية ونقبة النخس . ومن ثلثتها الرسائل المتبرون التي أرسلها القديس أنطونيوس إلى ملبايذ ، والأطلسه التي وضعها القديس باخوميوس لتنظيم حياة الرهبان ، وما جعله القديس بوحنا الناسي من صام (مواظ) مميقة في الحياة الروحية ، وكذلك تثلث المواقف والغضب الدينية التي كانت تلقى في أيام الأحاد أو الأياد . و بعض المناسبات الأخرى ، ومن أشهرها حطب الأنبا شنودة في لقاء كفاحه ضد الوثنية وفي نشره لتعاليم المسيحية . ومع أن الأباء كانوا غالبا يكتبون أكتفاء بتعظيم الهدف العلمي وهو السامر في ممارسة انصليطه الأثن ما جعلنا منهم كبير في قدره وفي فنت .

٣ - صبر القديسين :

وهي كثيرة جدا ترحر بوصفها حياة وجهاد الشهداء والرهبان والمتوحدين والنسك

المختلفات الأدبية الملثة بالشر : وتشمل فروعا كثيرة أهمها :

١ - ترجمة الكتاب المقدس :

وهي في الدرجة الأولى من ديبات اللغة القبطية . وقد أخذت هذه الترجمة هي اليونانية منذ القرن الثاني ، وبشر من أهل الترجيحات لأن الذين قاموا بها كانوا ملحن دائما أما باللفظين . وقد كات الحماسة الدينية بالفه حتى أنه لم يعل القرن الرابع أو الخامس إلا وكان الكتاب كنه مترجسا إلى الملهجين اليهودية والصمسيديه وبعض أجزاء منه إلى الملهجين الأحييمية والبرومية .

٢ - الأقوال الآباء :

وهذه انتشت على فروع كثيرة منها الأقوال التسيكية التي كتبها آباء الرهبنة أو سمعت عنهم فجعلت . وكلها تحض على النك والتجرد من العالميات وعلى الترويض

لم يصل اليها شعر كتبه الأقباط في
 وأغراض الذبوية المختلفة إذ كان السك
 السائد في تلك العصور الأولى المسيحية
 يعرض دون ذلك . فقد اتجهوا في المدح إلى
 الملكية والفضاء مريم والأنياب والقديسين
 والشهداء في نظم يسمرف باسم
 الأقباط لوجيات وهي كلية منهاها «تسجده»
 وقد جمع الكثير منها أونبري سنة ١٩٢٤ في
 كتابه أسس Copilo Hymns أما مدح
 العذراء مريم فلكثرته اتمتص به تقريباً باب
 اسه النيودوكيات . وقد نشره أولبري ٥
 سنة ١٩٢٣ كتابه المسى The Jesus Tronovis
 جمع فيه كثيراً من المقطوعات الشعرية التبعية
 التي وجسدها في دير القديس مقاريوس
 والمكتبة الأهلية ببريس والمتحف البريطاني .
 وقد نال أن هذا النوع من النظم كان مستحباً
 لدى الشعراء الأقباط اتمتلوا فيه مواهبهم .
 كما ذكره مالود ٥ إذ هذه النيودوكيات
 لها مكانة عظيمة في الآداب القبطية .

وقد كان القصص من بين الأغراض التي
 طرفها الشعراء الأقباط أيضاً ، ومن الشعر
 القصص الشعرية قصة أوشيليديس الراهب
 الذي رفض مقابلة أمه وغاه لنذر قطعه على
 نفسه إلا يرى امرأة . وهي قصيدة طويلة
 جدا على شكل حوار تعبر فيه براءة التمثل
 وقوة التأثير ، والغصيدة تس ناجية حاسة
 من نشاعر الإنسافية .

وبعض الآباء البطاركة والأساقفة . ولم تكن
 هذه السير مجرد تاريخ جاف ، وإنما كانت
 موضوعة في أسلوب أدبي عتيق بانح الأبر
 حتى كان من نتائجها نيل الكثيرين على الرحبة
 وعلى السير في الجهاد انفصل وهي في
 الواقع تجسيم تمضائل مبرنة بتلها هؤلاء
 القديسرف الذين كتبت سيرهم مع لون من
 الأيحاء في الكتابة .

٤ - القصص :

وبعضه ديني في حباب وتمور شملي
 قصة ملكة ميا ومقابلتها ليمان الحكيم
 أو قصة الملك يوحنا ورئيس ابعير . والبعض
 وطني نص في الأقباط بن شعورهم القوي
 الذي اتمل مكبورة غراب طويلة تحت لبر
 المستعمر . ومن أمثلتها رواية الأسكندر الأكبر
 وقد وحدت ترجمتها القسيسية في دير
 الأبيس . ورواية تميز وغسروه لمسرة
 وكلاهما لا صلة لهما بالدين إلا بالجدت
 اللاهوتي وكذلك قصة نيودوسيون
 وديبرسيوس .

٥ - الإصلاح الاجتماعي :

تعبر روح الإصلاح في حطب الأبرسا
 شعوره التي طرب بها أبداع الموجودة في
 عصره كالسجل الطبي والسحر ونوش
 الموالد وباء الهياكل على جنناد الشجهد
 وما إلى ذلك .

٦ - المواضي اخرى :

مثل الآداب الكنسية وطقس العبادة
 وخصوص اخرى تملق بالتاريخ والفوائين
 والسحر .

شعره كان أصيلاً وليس تبيجة لاغتناق
المسيحية .

لغة الألب

ينقسم الأدب القبطي إلى قسمين .

(أ) أدب قبطي متأثر بتأثيرات يونانية .
وقد ظهر أكثره في الاسكندرية التي انتشرت
فيها الثقافة الهلينية ، حتى اضطر كثير من
الآباء إلى الكتابة باللغة اليونانية المنتشرة في
العالم وتنتاذك ، وترجمت كتاباتهم في مصر إلى
القبطية لينتفع بها الأقباط المسلمون .

(ب) أدب قبطي أصيبي كالذي ظهر في
كنايات الأبا أنطونيوس والأبا باخوميوس
الذين لم يعرفا غير القبطية ، وخطب ومواظ
الأبا شنودة الذي لم يشأ أن يكتب بغير
القبطية ، كما كان رعيياً شحياً يكلم الأقباط
المضطهدين على يد حكامهم بفتهم القبطية
لا باللغة اليونانية لغة الحكام .

وهذا الأدب القبطي الصميم كان له
مركزان : هما وادي المطرون للهبنة البعيرية،
والدير الأبيض والأديرة الباحوبة بالصعيد
للهبنة العميدية . وهكذا يرى أن أدبه
الرهبان كانت معاني الأدب القبطي الصميم
تلوحته . وفي بعض المخطوطات القبطية
تسمى اللغة القبطية لغة أهل الجبال . وليس
انفسود بذات الصعيد لارتفاعه وأديرة
الرهبان لوجودها في الجبال . وقد تولى
الأبا شنودة رئاسة الدير الأبيض سنة ٣٨٣م

ثم هناك الإشتغال الكفية وهي حلوان .
أو تأملات مأخوذة من المزامير أو الاعجيل
وتسمى إصاليات (وهي مأخوذة من الكلمة
القبطية يصانوسى بمعنى مزموور) والبعض
الأخر تسمى العوسات (وهي مأخوذة من
الكلمة القبطية حومس بمعنى تبيج) . وقد
المتصوا كل يوم بتسبيحة خاصة منقولة
وملحنة بلحن طامس ، وتوجد غالبية هذه
القطع الشعرية في كتابين هما الأصلودية
السوية والأصلودية الكبيكية

التسبيح

عرف التسبيح المصري منذ أقدم عصوره
نسب الميت ، وقد وصلنا من العصر القبطي
الكثير من التسبيح في نظم شعري أصيلاً على
الرخام كشواهد للقبور .

ولظهر لنا عادة المذهب من نصيحه
ارثيبيديس وأمه سنكلينكي التي يدعو فيها
النساء للندب ، أيها النساء ، ما كاذبة من
أعجب أبناء ، فصمن ، وإبكي مني ، وقد
نشرت « ماريا كرامر » كتاباً في الكثير من
منظومات التسبيح القبطية .

وكانت موضوعات التسبيح تنطوي على
كثير من المعاني الأدبية والحكم التي يمكن
ارجاعها إلى التأثير بتأثيرها في الأمتثال المصرية
القديمة وفي أمثال سليمان الحكيم وباقي أدب
الحكمة في العهد القديم . ويرى « دورل » أن
القبطي كان يفضل هذا اللون من الأدب منذ
العصور الفرعونية وأن تضييق الحكمة في

الذي منحى مركزا للأدب الصيوني . وفيه أصبحت اللهجة الصعيدية هي اللغة الأدبية المكتسبة القبطية في أزهي عصورها .
 وثمام هذه النهضة الأدبية التي توغلت في الأنا شهوده أخذت البرنانية تقهر وتتراجم بمقيدار النمو الملمود الذي انتشرت به المسيحية بين الريفيين وبمدول النساس التي

استخدام اللغة القبطية كلتة أدبية ويزداد الأقباط شعورا بكيانهم وقوميتهم . وعندما فتح العرب مصر كانت اللهجة الصعيدية هي لغة الأدب القبطي عامة . وكل تعرض بعد ذلك للهجة البحرية كان على أساس ترجمة الآداب الصعيدية التي انتشرت في القرون الستة الأولى للمسيحية .

٤ - أمثال الآباء . آثارها وشهرتها

كتب آباء الكنيسة القبطية في لواح كثيرة أهمها فرعان رئيسيان هما : اللاهوت والنسكيات وقد حظيت كل تلك المؤلفات بشهرة عالية منذ كتابها .

ياتي مشاهير اللاهوتيين الحكماء حتى أصبح القول الشائع بين الغربيين في تلك المصور هو : « إذا وجدت عبارة من أقوال الأناسيوس ولم تجد ورقة لتكتبها ، فاعتكف على قسيسك في العال » ، ونعرف أن القديس « إيلاري » - أسقف بواتيه بفرنسا - لما ذاع صيته ، لقبوه « أناسيوس الغرب » .

كتابات الآباء اللاهوتية

كان أساندة الاسكندرية وساركتها هم عمد اللاهوت في العالم المسيحي كله . لذلك كانت لكتابتاتهم أهمية كبيرة وشهرة واسعة . كان موقفها الزعامة الفكرية الذي وقفه القديس أناسيوس في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م ، باعثا على ذبوع كتاباته في اللاهوت وتوطيحاته للأيمان المسيحي ، وأصبحت كتاباته المصادر الأولى لعلم اللاهوت المسيحي ، حتى اعتبر أناسيوس أباً لعلم اللاهوت في المسيحية . ومؤلفاته التي وضعتها عن « تجسد الكنيسة » و « الرد على الأريوسيين » و « الروح القدس » انتشرت هي أيضا انتشارا واسعا ، وعليها بنى

وهذه الشهرة والزعامة الفكرية انتقلت أيضا إلى القديس إيرلس الاسكندري حتى لقب ب«امود الدين» . وكان كلفها أن يقول الشخص : « أنا على إيمان أناسيوس وكيرلس » لكي يصبح هذا اعترافا منه بالإيمان السليم . وقد نالت كتابات ديديموس الضريز مدير المدرسة اللاهوتية في شهنة أناسيوس شهرة واسعة ، حتى أن الأساقفة داماسوس أسقف روما لما طلب من القديس جيروم ، الذي كانت شهرته العظيمة معروفة في الكنيسة كلها ، أن يكتب له مؤلفا عن « الروح

القدس ج ، وجد هذا أن أفضل ما يجعله هو أن يرجع إلى اللاتينية ما كتبه ديديموس الشرير في هذا الموضوع .

هذه الشهرة التي نالتها كتابات آباء مصر في القرنين الرابع والخامس سببها شهره واسعة في القرنين الثاني والثالث لأساتذة المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية . ولعل أكبر مثال لها هو كتابات أوريجانوس التي تلقها علماء الشرق والغرب فرأعهم ما فيها من قوة وعمق . ومن أجل ذلك لابد بترجمة الكثير منها إلى اللاتينية روجيرس وايلاري أسقف بواتييه والهديس جيروم . بل إن غالبية مجلس الكنيسة اللاتينية وعظم الأهلوية فيها حرصوا على أن يترجموا عن أوريجانوس . كما يظهر ذلك من شرح لامبروسيو أسقف ميلان معلم أوغسطينوس . وتسمد لسجد أوسابيوس أسقف فرسيفل في إيطاليا له لم ير فلسفة حقة غير مؤلفات هذا العالم العظيم . وكان القديسان باسيليوس الكبير والفرنسوربوس الشافق بالألهباب يشترانه معلمانا . وقد جمعا مقتطفات من مؤلفاته في كتاب أسماه فيلو كالبا .

الحوال الآيه في التمسك

تلك الصورة التي عطيها آباء الأقباط في اللاهوت تعالها شهرة لا تقل عنها في آداب الرهبنة . ولعل أبرز أكتفها قوانين القديس باخوميوس وما ناله من شهرة ، حتى لقد نقلها إلى رومه القديس اناسيوس

ابان نفيه عن كرميه كما ترجم القديس حوروم حيلة باخوميوس وقوانينه إلى اللاتينية سنة ٤٠٤ لعائلة رهبان ابطانيا .

ووصلت إلى بلاد الغال في أوائل القرن الخامس عن طريق القديس يوحنا كاسيان الذي سئل على تطبيقها عمليا في الدير الذي أسسه في مارسييا . ووضع القديس أوغسطينوس نظامه الرهباني مسترشدا بقوانين باخوميوس ، وكذلك فعل القديس باسيليوس الكبير . مؤسس الرهبنة اليونانية ، والقديس بازيليد مؤسس كنيسة ايرلنده في القرن الخامس بعد أن تلمذ في لوران في دير على النظام الباخومي . وربما يكون من أهم وأبهي آثار الأناطية الباخومية ما تركته من أثر في الأدبرة البندكتية . فان بندكت في القرن السادس أخذ عن قوانين باخوميوس حتى أنه في بعض المواضع يكاد ينقل بالحرف الواحد . ودير مولت كاسينو في ايطاليا لا تكاد يختلف عن أي دير باخومي في قبا . وهكذا انتشرت قوانين باخوميوس في أرجاء العالم كله ، وعلى أساسها قامت الحركات الديرية في انعام السحي . وما نزل هبته القوانين باقية حتى الآن باليونانية واللاتينية .

وشاء الرهبه الذين لم يكتبوا وانما اعتنوا ممارسة الفضائل عمليا وبما يلقونه على تلاميذهم من تعاليم ، هؤلاء كانوا هم أنفسهم موضوعا للكتابة ، فصفت عنهم المؤلفات العديدة ، واليهم كان تأتي كسار

مسيحيا فحسب بل أحد مشاهير رجال
المسيحية .

ولم تقتصر شهرة أقوال الآباء على
مصورهم ، بل لا تزال لها قيمتها وشهرتها في
الأدب المسيحي حتى يومنا هذا . وقد تحمس
أهل الغرب لترجمتها إلى لغاتهم ونشرها ،
وهي تستغل جانبا هاما من مجرعتي بنى
Migne اللتين جمع فيها في أواسط القرن
الطاسي أقوال الآباء باليونانية Patrologia
Graeca وباللاتينية Patrologia Latina كما
تقتل جانبا هاما أيضا في مجموعة أقوال
الآباء القريين Patrologia Orientalis التي
تصدر تباعا في باريس ، وقد صدرت عن
الرجال الآباء بعوث ومؤلفات عديدة ،
وترجمت كتبهم إلى اللغات الأوروبية الحديثة
مع مقدمات واقية لعيان مؤلفيها وأسلوهم
وشهرتهم . أما آباء الصحراء فقد انتشرت
أقوالهم في ترجمة كتابات بلايوس وكاسيان
وجيروم . وفي سنة ١٩٢٣ أصدر عنهم
بروسيه كتابه الخاص بأقوال الآباء
Apophtegmata Patrum

اهتمام العالم بالمخطوطات القبطية

لم تكن كلى كتابات الأقباط بالقبطية
كناقلنا ، وإنما كتبها بلسانهم
باليونانية . ولهذا كان للأقباط فضل على
الأدب اليوناني إذ ضموا إليه ذخيرة جديدة
قبطية روحية وإن كانت تلبس ملابس يونانية .
غير أن الأقباط — وبخاصة الرهبان —

كتاب المسيحية في العالم ليستطروا أخبارهم
ويجمعوا كلماتهم القليلة لتكون نورا للناس .
وهكذا في سنة ٣٨٨ م جاء إلى مصر بلايوس
استقف هينوبوليس ومكث سنة بين رهبان
المعيد ، ثم رجع إليها سنة ٤٠٦ وقضى
حوالي سبع سنوات مع رهبان وادي الطرون
وكتب كتابه الذي اصطلح على تسميته
ليما بعد بـ « بيان الرهبان » ، وكذلك جاء
القديس يوحنا كاسيان لزيارة وادي الطرون
ما بين سنة ٣٩٠ — سنة ٤٠٠ م وضمن كتابه
« المعاهد » و « المقابلات » أخبارا كثيرة عن
الرهبان المصريين وسننطقات من أقوالهم . كما
زار مصر لنفس الغرض سنة ٣٨٩ القديس
« جيروم » ومعه تلميذته « جولا » ، ووضع
كتابا عن القديس المصري الألبا « بولا »
الموحد ، وآخر عن الرهبان المصريين ضمن
أقوالهم وأخبارهم ، ورجع فأسس — على
ضوء ما سمعه ورآه — ديرين في بيت لحم
يبلبلين أحدهما للرهبان وللآخر للراهبات .

ولعل أشهر كتاب كان له أثر بالغ في هذا
المضمار هو كتاب « حياة أنطوليوس » الذي
وضعه البابا الثاسيوس بطريرك الإسكندرية
بناء على العاج أهل رومه . وقد تشمل هذا
الكتاب روح الرهبنة والنسك في بلاد
المغرب ، ويتكفى أن قراءته كانت خطبة
التحول في حياة القديس أوغسطينوس الذي
تأثر به جدا — كما يذكر في اعترافاته —
حتى ترك حياته القديمة ، ولم يصح

عادوا فترجموا التي القبطية كتابات آباءهم
التي كتبت باليونانية . وهذا أصبحت هذه
الدجيرة الثقافية والإدوية من التراث القبطي
موجودة باليونانية والقبطية معا .

واعتم العالم اعنما كثيرا بالخطوط
القبطية سواء منها المكتوبة أملا بالقبطية
أو المترجمة اليها . وظهر هذا جليا بعد حركة
المضفة الأوروبية . فأخذ الرحالة والمهمرون
العاثرون بجمع المخطوطات القبطية من
الأديرة والكنايس القديمة . وهكذا ذكر
الرحالة « ليريك » أخذ هواة الكتب
بباريس بعد زيارته لمصر سنة ١٦٤٣ م أنه
وجد كتباً نادرة في كثير من الأديرة منها مجموعة
من حوالي ١٠٠٠ مخطوطة ترجع الى العصر
الأنطوني وجمدها في أحد أودية وادي
اسطرون . وفي أوائل القرن الثامن عشر أرسل
الفابيان بيتين حصلنا على مجموعة طيبة
من المخطوطات القبطية من دير أبامبار . وفي
سنة ١٨٣٩ حصل لهنري تمام على مجموعته
التي كانت من نصيب مكتبة
راينلاند بسكستر ، ولوات الزيارات على
مصر لهذا الغرض . فشر على مخطوطات
بالدير الأبيض استرلب على فاليها المكتبة
الأهلية بباريس . وكان المتحف البريطاني بعضا
منها ثم اكتسبت مجموعة مورجان سنة
١٩١٠ م في دير الحامولي بالقيوم ونسبت الي
مشتريها « بيريون مورجان » أحد أتباع
الأمرتيكين .

وتزخر مكتبات أوروبا وأمريكا بمدد
كبير من الثقافة المكتوبة بالقبطية تشمل
على رسائل وإبصالات وسكوك وغفود وغير
ذلك حتى لقد بلغ عدد الثقافات القبطية
Osaka في فينا بالسبا حوالي عشرة
آلاف ثقافة .

وعثر في مصر سنة ١٩٢٩ على مجموعة
من الرديات القبطية تشمل على تعليم مالي
وهي مصنوعة الآن في متحف برلين .

كما عثر في سنة ١٩٩٦ على برديات نبطية
تبلغ ألف صفحة تشمل على رسائل فتوية
وقد استولى عليها المتحف القبطي في القاهرة .
وبهذا كله امتلأت الماحف والمكتبات
العامية في أوروبا وأمريكا بهذه المخطوطات .
وما بقي منها محفوظ في مكتبة الدار
الطركية والمتحف القبطي بالقسماء
ومكتبات الأديرة والكنايس القديمة .

وقامت هيئات علمية بطبع فهرس لهذه
المخطوطات القبطية وشر بعض المخطوطات
وترجمة البعض منها مع دراساتها والتعليق
عليها . وقام علماء كثيرون في جينات متفرقة
من العالم لدراسة هذه المخطوطات نذكر من
بينهم كرم ، ريميليو ، وإبلين هسواين .
وتسيتخورد ، دورل ، وتل ، وهورفورد ،
ويديج ، ويغتنس وكاله وبوليج وكراوسه
وغيرهم . وأصبحت للدراسات القبطية في
جامعات أوروبا وأمريكا أقسام خاصة يترغ
لها أساتذة وعلماء .

الفصل الرابع

الحياة الفنية

الفنون القبطية

فيسنجيون . وهكذا نجد الفن المصري القديم يتعاقب أبان عهد الملوك الذين أولسوه رعائيتهم ، ويضعف في عصر الضحلاء منهم أو الذين أهملوه .

أما الفن القبطي فهو الأول في الشرى القديم الذي كالت له صفة الشبية . فاد الأياطرة لم يسودوا بنضون مصر كما كان الحال أيام الفراعسة ، أو أيام البطالمة . بل كانت مصر في عهدهم ولاية رومانية تابعة لروما . أو ميظطة ، وصار الأياطرة إذا أرادوا إقامة أهدان فنية تغلدهم يسمولها في عواصمهم لا في مصر ، وبذا فقد الفن القبطي التوجه السياسي واتجه نحو الشبية البحتة ، فمن إذا نظروا إلى الكنيسة الكبيرة في الدير الأبيض قرب سوهاج وهي من بناء القديس شنودة ، أو إذا زروا كنائس مصر العديدة ، أو دير القديس سمعان في الضفة الغربية بأسوان أو كنائس الواحات الخارجة أو إذا شاهدنا الآثار القبطية في المنحصر القبطي أو مختلف مناحف العالم نجد عمالاً فنية قام بها الشعب المصري ووضع فيها الفن القبطي عسارة روحه ومهارته .

تعالى الفنون في حياتها فترات من الضبول أو الضخم ، فأذا وانتهت ظروف جسدية للاشمائ عادت حاملة معها مختلف صلواتها القديمة وخصائصها وعلامها ، ولقد حدث في العصر المسيحي في مصر حين أفسحت الحياة المصرية مجالاً للفنون ، أن نت الفنون وترجمت حاملة في طياتها مختلف الصفات الموروثة من عصور سابقة ، وفي هذا فنون ، زلوشير ، أنا مؤمن لأن أن الفن لا يتقدم في لخط مستقيم مطرد ، بل من الثابت أن تباراته تتقابل وتتراكم ثم تحي وتضلي ، لتعود إلى الظهور بقوة ووضوح .

وان ظاهرة العودة إلى الظهور هذه بجدها ملحوظة في الفن القبطي .

الصفات العامة للفن القبطي :

أولاً :- فن شعبي

لم تكن القشبية من خواص فنون الأمم القديمة ذات الحضارة لأنها نشأت بعد كنف الحكام والأمراء وأسحاب الجاه ، واكتسبت وجودها وتوجيهها وتطورها من رعائيتهم . وكان هؤلاء السادة يختارون الفنانين وأبروتهم بصنع كذا أو كذا من القمع الفنية

وترى الزخارف تصور لنا أوراق النبات المختلفة وأروعها وتمارها كالغيب والتمثيل والرمز والتسحر والاكتسب - كما نرى صور السفينة الترامية تمخر عباب نهر النيل وكلها مألوفة لديه ، ونجد الأساطير القديمة المندوثة بين المصريين سواء بنسخها القديم أو بعد أن اتخذت معنى جديدة وصورا جديدة تتفق مع الديانة الجديدة التي اعتنقها المصريون .

واجبا - لمرءة ما سيطر من فنون ومؤثرات عليه النا لجد في الفن القبطي أثر الفن المصري القديم والفن الإغريقي والكن الروماني ، وإن كنا في الواقع لجد الروح المصرية الخاصة كلما اتجهنا إلى البلاد جنوبا .

وكذلك تأثر الفن القبطي بالفن السوري وفنون البلاد المجاورة . إذ أن المسيحية قد انتشرت في بلاد فلسطين وانتشرت في الشام وبلاد البحر المتوسط وانتشرت معها بعض فنون تلك البلاد بحكم الاتصال وصار المصريون يتبنون فنونها وبخاصة في الشام .

عاجسا - فن جمال لا عظيمة

لم يبلغ الفن القبطي حد الروعة كما بلغ الفن المصري القديم ، كما أنه فقد اتساع الأشياء العظيمة ، التي تميز بها الفن المصري القديم . فمن مصر القديمة وصلتنا الأهرام ، والمعابد العاتلة كالكرنك والتماثيل الضخمة كتماثيل رمسيس ، والأعمدة الضخمة والمسلات . ولكن الفن القبطي كان فن جمالي جهم بإيراد المعاني في دقة .

خيل للبعض أن الفن القبطي فن ديني ينصل بالكنيسة والعبادة فحسب ، وما من شك أن هذا الرأي خاطيء ، فهو فن الشعب المصري بأكمله ، يظهر في الأمور الدينية كما يظهر في النواحي المدنية بوسوح . وإن كنا نجد أن أغلب العناصر الباقية من ذلك العصر عمارت دينية مثل الكنائس أو الأديرة ، فمرجع ذلك إلى اهتمام الشعب عادة بتصور عبادته ومعالفته عليها .

ولا شك أن أهم العناصر التي وصلتنا من مصر القديمة أو من مصر الإسلامية هي أيضا عناصر تنصل بالنواحي الدينية مثل المعابد أو الأضرحة والمساجد .

وقد وصلتنا أعمدة وزخارفه من بيوت أفراد الشعب التي جالبنا وصلنا من أديرة وكنائس . وكما وصلتنا أمشة كان يلبسها الكهنة في القدمة الدينية وصلتنا أمشة عديده كان يلبسها عامة الناس في حياتهم أو يتخفون بها موتاهم . ولدينا الآن أديوان كانت تستخدم في الكنائس وأديوان استخدمت في المنازل أو العقل ، أو الصناعة .

ثالثا - فن نوع من البيئة المصرية وهو فننا نرى فيه صور الوجود القبطية بلامح المصري بينه الواسع المستديرين وأهته ولون بشرته كما نرى صور الحيوانات الأليفة التي تملأ البيوت والحقول مثل القط والكلب والبطرة والجمل والحمل .

أن نبورالي أن هذه الخاصية ، وخاصة
التزيين التي سبقها ، كقنا كثيرا ما نحتاجان
نحو أسور رمزية ، وقد دفعت حسانان
الخاصيتان بالنقش القبطي بعيدا عن الواقع
وعصور طيبة الانسان الذي قد يجر
الى مظاهر خلية لا يوافق عليها رجال الدين.
وحيث دخل العرب والاسلام مصر وجها فرية
خصيصة للتعبيرات الفنية ، فاحد الفنانون
يخرجون القنح الثنية التي تناسب العصب
والدين الاسلامي ، مما تراه واضحا في
الرخارف القائمة على الاسكال الهندسية
والرسوم ذات المعاني الرمزية التي بسطت
تصوير الانخاص ، وهكذا نجد مسفات
مصرية احيدة راسخة في الفن المصري المسيحي
الذي سلفه بدوره الى الفن المصري
الاسلامي .

وصلنا كثير من آثار المبانى ورووس
الاعمة ، وكثير مما تزين به الجدران
والاسقف والاعمة ، وما تزين به التوابيت
والمستوعات المعروفة بالصيفساء . كما أطر
لنا الفن القبطي ما تزين به النساء من حلى
وأحجار كريمة وملابس وخاصة ذات الألوان
الزاهية منها ، واتمدت الزينة الى كتابات
الاحباط ليزينوا الكتب وزخرفوا صفحاتها
بإخارف بالغة حد الروعة .

سادسا - فن مستطعم الاشكال الهندسية
والرمزية :

لقد في هذا الفن زخارف اساسها المثلثات
والمربعات والموازي والخطوط المتلاقية
والمتقاطعة ، مستخدمة في كل شيء ، ولا نسي

صود من القرن القبطية

العمارة :

المصرية القديمة كان لها صدى ووحى بالمع
الأثر في تشكيل الفن المعماري في جميع أنحاء
العالم . ومن مزايا العمارة المصرية القديمة
هني العولة الجديدة أن فنا كانت تتبني من
بين خطوطها اشاعات قوية امتدح على ضولها
اليونان والرومان معرفة السبيل الى التكوين
والانشاء ، إذ عرقوا منها كيف يضمعون
تطوهم الممازية لتلتاق عند هدف واضح .
والعمارة القبطية هي هي السارة
الترعونية ، وهي العمارة اليونانية الرومانية

العمارة كأي لون من ألوان الفنون .
الجميلة المكاش للبيئة بكل ما تحويه من
معان روحية ومادية . والعمارة المصرية
القديمة يستل فيها هذا المعنى بشكل واضح
مجسّم . فهي في جميع مراحلها تعبر لنا
تعبيرا واضحا عن التباين المختلفة التي
تازعت المجتمع المصري في مختلف العصور .
ولطنا لا نكون مبالغين إذا ذهبنا الى أن
التنوع والتسامي اللذين امتازت بهما العمارة :

في مصر وهي العمارة الإسلامية في مصر .
 وأما الفوارق التي تحصل بين كل منها : فهي
 فوارق اقلية اختفتها السلطات الزمنية في
 عهد ١٠ ، ثم بعض اعتبارات دينية ، ولكنها في
 الحقيقة نلتقي عند الأصول والأسس التي
 قامت عليها العمارة الفرعونية . ومما يكن
 فإن ما دخل عليها في كل عصر من تعوير أو
 تشكيل بما يلائم ظروف البيئة ، لم ينعها من
 أن تظل محتلفة بروحها وبنواصرها الأساسية .
 والعمارة القبطية فكتبت بروح الفن
 الفرعولي وبصاميره ، وكل ما مرأ عليها من
 تعوير فانه لم يمس الا مظهرها الشكلى فقط .
 فهي حلقة أهدبه اكمل حلقا الفن المتصلة
 منذ الحضارة المصرية القديمة والحضارة
 الولاية الرومانية بمصر .

ولما كان الفن المصرى يربط بثقوى الدين
 وبلازمها ، فقد احتفظ في العهد المسيحي
 بكثير من التقاليد والمادات المصرية القديمة
 ولازم الدين وبخاصة ما كان منه متصلا
 بالرموز والتقاليد في الحياة اليومية
 والعمارة والأجساد وغيرها . أما مركز
 المسيحية في الفسرب وهي روما التي تفرغ
 على الحضارة الأوروبية الغربية ، لم
 القسطنطينية وهي مركز الحضارة الشرقية ،
 فقد حاولت كرمها إيجاد مراز جديد لعمارة
 تنفق مع الدين الجديد الا انها كاتنا دالسا
 مقيدتين بالحضارات القديمة التي سبقت
 العهد المسيحي ، ووجدنا نفسيهما مضطرتين

لتقل كثير من تعاليم هذا الدين الجديد عن
 مصر التي سبقتها في المعرفة والعلم ، ونقلنا
 عنها الكثير من الرموز والتقاليد ، كما نقلنا
 كثيرا من فنون مصر وانخفضنا منها منبا
 للوحدات الزخرفية التي قرب فيها المصرى بين
 نبأذنه القديمة وبين دينه الجديد ، ولذلك
 نرى أن مراكز المسجدة بنيت من هذه
 الوحدات الزخرفية القديمة ما استطاعت كل
 منها أن تفسره بطريقة تنفق مع دينها الجديد .
 لو ضلنا مدينة مصرية قائمة من العصر
 القسطنطيني ، لوجدناها تشبه في تخطيطها المدن
 المصرية القديمة . ففي الصعيد حيث يسعد
 المزار كانت البيوت بنيت من اللبن كمدنية
 هابرجرى الأصر ، وفي الوجه البحري كانت
 البيوت بنيت من الطوب الأحمر أو الحجر
 الجيري كما عرفناها من مدينة أبا مينا
 (القديس مينا) بالصحرى الغربية قرب
 الاسكندرية .

(صورة رقم ١٥)

وكانت للبيوت أبواب خشبية كبيرة كما
 نراه في الريف المصرى الآن ، ولها مزلاج من
 الخشب معروف الى اليوم ، وكانت للبيوت
 أسقف مرصعة ، ولها واجهات منقطة بصجارة
 منقوشة مزخرفة بأوراق العنب عادة . وكانت
 بها كنائس كالتي عثر على بقاياها في سدين
 أبا مينا وعصر القديمة وبويط والهنسا وأما
 وطية وسقارة وأسوان وسوهاج والواحات
 الخارجة ، وتتكون من قاعات فسحة بها
 صفوف من أعمدة رحيمة مستديرة ، أو مضلعة

ذات دعوس منقوشة بأبدع النقوش والألوان
 الثانية الزاهية . ويكون هيكلها متصولا عن
 القاعة بحجاب معنوع من العُشب المنقوش
 أو المنقش ، على أشكال هندسية مختلفة
 ومجلى بصور التديسين وشكال مختلفة
 الصليب . وبعض رفاقه من العاج ، كما نجد
 ذلك في كنيسة أبي سرجة في مصر القديمة ،
 وفي الناحية الشرقية من الكنيسة حصة أي
 جويوف في الحائط .

والكنيسة تكون أحيانا مستطيلة
 كالتشكل المعروف بالطراز المازليكي ويذهب
 البعض إلى أن تصيغه دخل على الأقباط ،
 وواقع الأمر أنه مصري صميم نجده أول الأمر
 في قاعة الإحصالات بجسد الكرنك التي
 شيدها تحتس الثالث حوالي سنة ١٤٠٠
 ق.م. وتكون الكنائس أحيانا أخرى ذات
 قباب بعيان مطلية من الداخل بفسحة من
 الجبس مرسوم عليها صور للسيد المسيح
 والقديسين أو مزخرفة بزخارف مشتقة من
 الجبس أو الحجر في برانن عتودها وفوق
 أعصدها وفوق الأركان المخصصة لصور
 القديسين .

وإذا كانت المدينة قريبة من الصحراء مثل
 مدينة أبو مينا أو مثل الواحات الخارجة أو
 أحد الأديرة الصحراوية فتمسوا لها الآبار
 والسواني أو حزنوا مياه الأمطار في مخازن
 تشبه كثيرا هذه الآبار التي نجدها في الصحراء
 لأن والتي يسميها البعض آبارا رومانية ،

وواقع الأمر أن الفراصة قد عرفوها قبل
 الرومان بألف السنين . وكانت أدوات
 الحجارة وأدوات الصقل تشبه تلك التي
 نشاهدها الآن عند الشجارين الذين يصنعون
 السواني الخشبية . ونجد صوامع للفلان ،
 ومعالق للهدايا التذكارية تشبه التي حد كبير
 المعالغ التي يجدها الآن في خان الغليلي أو
 في أسبوط .

التصوير :

كان التصوير السائد في العصر القبطي
 يسير على الطريقة التي توارثت منذ أتدم
 المصور في مصر وهي طريقة التصوير بألوان
 الأكاسيد (الفرسك) على الحوائط المغفاء
 بطينة من الجبس . وقد استمر الرسم بهذه
 الطريقة المصرية القديمة إلى العصر الروماني.
 وانضمت هذه الطريقة في الرسم شكلا مسيحيا
 في العصر القبطي ، وسما انتم بين مسيحيي
 الشرق والغرب ، وظل الأمر كذلك حتى عصر
 النهضة .

أما في مصر فقد حافظ التصوير على
 الطريقة القديمة حتى القرن العاشر عشر
 الميلادي ، ثم أخذ القبط إلى جانب هذا
 اللون بطرق أخرى في التصوير . ولم يأخذ
 التصوير القبطي أشكاله من الطبيعة المنظورة ،
 ولكنه صور التديسين والشهداء ومرسوعات
 من الكتاب المقدس وكان رائده في ذلك المنل
 العليا التي تظهر فيها صور الأشخاص على
 درجة من الاستقراء والرفاه حتى أنهم رسموا

المسيح طفلا بوجه كبير ، لا سذاجة فيه ،
وتعاشوا أن يرسموا غاللا على الوجوه
وداعوا بساغة الباس وهمدوه الألوان .
(سورة رقم ١ و ٢ و ٣) .

التفنن على الحجر والخشب

نشاهد الآن في المتحف القبطي في مصر
القديمة وفي متاحف العالم المختلفة تيمنا
لأحد من الحجر لصر فيها بثأير البيئة على
الخيال الفني ، فمنها المجدول على شكل
المعازل مجدلا فنن النحات صممه ، حتى
بداهة يد القبه بالسلاسل المسترعة من القصب
التي لا زالت متداولة بيننا ، ومنها تيجان
منحوتة بشكل زخرفي لأوراق النباتات أو
الفروع النباتية ، أو الزخارف اشتراكية من
بسات العنب أو الرمان أو قبات الإكائنس أو
سمعة النخيل أو بسات اللوزي ، ومنها تيجان
مزينة بجاذبها بخارف محارية الشكل
وبعضها ملون باللون الأخضر وهو اللون
الطبيعي للنبات ، وهناك بعض زخارف عثر
عليها نبر عن غواهر الطبيعة كدهابة الهواء
لأوراق الأشجار ، جاء التعبير عنها تعبيراً
جبا يكاد يسمنا حيلها .

وكانت النقوش زبر البعدان بالألوان ،
أو بالحفر ، وكذلك غير هذا فنن من البيئة
تعبيراً صادقاً ، فنجد في المتحف القبطي على
سبيل المثال واجهة باب من بويط (وهي بلدة
قرب منفوط تقع مركز دبروط بأسبوط)
من الحجر الجيري على شكل نصف دائرة وقد

على برسوم هندسية وبزخارف ثمار الرمان .
وهذا يدل على ارتباط المصري قديماً وحديثاً
وفي مختلف العصور ، بخواص البيئة المصرية
بل والاتايم المصرية . ولا يزال الرمان ينسب
الي منفوط .

كذلك زخرف القبط الجدران والأقارير
بصور من الطيور والحيوان ، فنرى ضمن
زخارف الفن القبطي صوراً لصيادي الطيور
والأسماك والوحوش المنتشرة كالأسود لفضلا
عن الصيرانات المصرية الأليقة كالأرانب
والغزلان . وأصل الكثير من هذه الزخارف
يرجع الي مصر القهرية ، ويبيح استقرار
وحدة الفن المصري في عصوره المختلفة . كما
لرى ضمن الزخارف المعاصرة صورة للحداد
القبطي تعجب به أدواته يشكها المعروف في
مصر اليوم .

وكسم تكن روح الدهابة تقمص الفن
القبطي ، فأتنا نجد على الأبار القبطية ضمن
ما خلفه من الصور والنقوش ، لوحات تمثل
ولقد التبران يتقدم الي القبط طبقاً للقصة
المقصورة ، وقد رفع التبران علما هو الذي
يمتد حتى اليوم علم الصدنة والأسان . كما
نجد منطرا للملاح سفنورا في الخشب والملاح
يداعب لمساعاً بده .

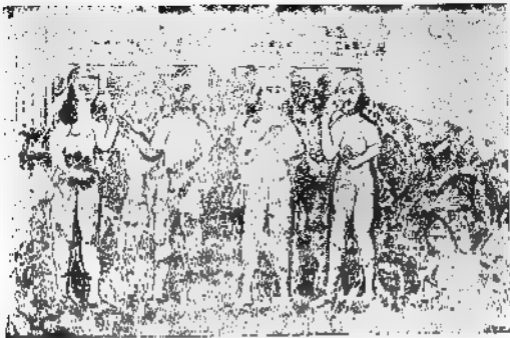
(صورة رقم ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩) .

المنسوجات :

اشتهرت مصر منذ عصورها القديمة
بصناعة المنسوجات وكانت تصدر منتجات



١ - شرقية (حلبية) من كنيسة بباوسط و بالقسرب من ديروط و وهي من العلى المنظر
 بطلقة من الجص مرسومة بالألوان الفريسيك *
 في الجزء الأفل صعد المسيح و تحته ترى صورة السيدة العنوا و العواربيل الأتني عشر
 واثني من القديسين المصريين *
 وطريقة رسمها لا تختلف عن طريقة الرسم في الفن المصري القديم *
 من أواخر القرن الخامس الميلادي



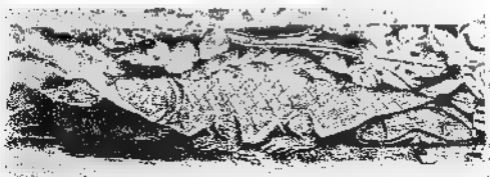
٢ - صورة جصية بالبريسك عثر عليها في اليرسوم في أم الجصاص ، وهي تمثل آدم وسواء
 في الجنة - مثل الطغابنة - أي حين لم يكن لهما حدى - وبعد الخطيئة
 رجع عبر الضلع في هذه الصورة البسيطة من قصة (آدم وسواء) ورفي في التفسير من
 المساهر المتعددة ورد ملاحظا، ومبيلة صا جميل من هذه الصورة قطعة منية فريدة في نوعها .
 من القرن السابع الميلادي



٣ - أيقونة بالألوان الزيتية وعليها كتابة بالقبطية والعربية وهي للقديسين، بولا
 وانطونيوس ترمز إلى الصلة الغرابي بسجل اليهيا رابعها من الخبز في كل يوم .
 من القرن الثامن عشر (سنة ١٢٩٤ لكهنوت)



٤ - لوحة خشبية معطورة من كورينثية المنقطة بفسيفساء القديسة وهي الابن مبروصية في المتحف القبطي ، تمثل دخول المسيح اورشليم يوم احد التمسح ، وعليها كتابة باللغة العبطية من القرن الخامس الميلادي



٥ - جزء من الفرمز طويل من الخشب المحفور يمثل حجر النبل وفيه نساج من العرون الرابع الميلادي



٦ مد لاج لسود من الحجر من حمار دير الانبا ارميا بمصر . وهو يمثل حركة لسراج
 الحصان الاكائس بفعل الريح ، وهي اشارة علامة الصليب .
 من القرن السادس الميلادي



٧ - منبر من الحجر ذو صيغ دوحات من حفائر دير الآبسا ارمينا ببقارة ، وهو انقسم
منبر شتر عليه في عصر حتى الآن .
من القرن السادس الميلادي



٨ - شاهد قبر ، عليه علامة الصليب في أعلى وتحتها رمز للصليب الأعمى والأرميا
 و الأند واليه ح أي البداية والتبسيخ . رمز اسفل الصاعدة حازكمان لرمز الحياة حج المعروفة
 في الفن القبري القديم واستخدمها الفن الإسلامي عند ظهوره لأنها جعلت بين معنى الجحشة وبين
 علامة الصليب .

من القرن السادس الميلادي

نيجها الى جميع بلدان العالم - وبالرغم من دخولها تحت الحكم اليونانى ثم الرومانى ثم بتميز النسيج وعلى معتقلا بطابعه المصرى ف صورته القبطية .

أتقن الأقباط هذه الصناعة كما اتفقوا معها صناعة الأصبغ ذات الألوان الثابتة وكانوا يصعدون منسوجاتهم الى روما وبيزطة . وقد وصلت لساذج كثيرة من المنسوجات القبطية يرجع الفضل في بنائها الى جفاف التربة المصرية والتي عادة الألباط الى تكتين مواضع بأجمل باسم ودفنهم في مقابر رميلية في الصحراء بعيدا عن وادي نهر النيل طوعا من مياه الفيضان .

كانت المنسوجات تصنع من الكتان والصوف كما صنعت من القطن ، وأشهر اشدن في هذه الصناعة كانت لايس والإسكندرية وثطا وديايط وديق والفرما في الدلتا ، وفي الوجه القبلى البهنسا وأخميم والفيوم . وكان الصانع القبطى لاخرجه النسيج يروم لقبرد والأسماك أو نبات القوتس أو عنابد العنب أو أشكال هندسية أو بصور أشخاص أو أوجه .

(صورة رقم ٩) .

الفنون المصرية :

منها الفنون الخاصة بالترزين عند المرأة ، وصناعة المعادن ، ثم الخط والتجليد .
أما عن التزيين عند المرأة فقد كانت المرأة

تستعمل الكحل للرموش ، واللون الأزرق حول العينين والأحمر للوجه . وكانت تضع اقترط الدائرى الواسع في أذنيها أو أفرطها على شكل عقود العنق ، وترزين معصمها بأساور سبيكة تنحى برأس حية من كل ناحية . وبعضها كان مبروما ينتهى برأس حية من طرف وذيلها من الطرف الآخر وكان يحض عليها الفعبية مرصعا بالجواهر الكرسة . وكانت تضع عبدا أثب بالة المعروفة الآن في مصر . وكانت تلبس الخللال الذي يصنع من النحاس أو الفضة ، ولقد صنعت المرأة اثنية من الذهب .
(صورة رقم ١٠) .

وقد وصلتنا من العصر الفيظى مكاهل وأشاط من الفاج ، وعلى سبيل المثال نجد معطا ولحم ٥٦٦١ بالمتحف القبطى نقشت عليه صورة بديعة لمثل حستاه متشكلة على سرير تحت كلب ، ويرجع هذا النمط الى القرن الرابع الميلادى ، ويضبه كل الفسب أشباط مصر الفرعونية . وعزلوا أيضا النمط المسى الآن بالفلاية . وهناك أمشاط من الفاج عليها رسوم دينية مسيحية .

والرسوم المختلفة التي وصلتنا من هذا العصر تبين لنا صوراً حية من الحياة المصرية التي تحبها والتي كان المصرى القديم يحبها والتي حفظتها لنا آثار المصر المصرى المسيحى ، ومنها الصور الصغيرة المخفوة في متحف برشيا لامرأة قبطية جالسة مع ابنتها وأبناها



٩ - سيار من السبيج المصروف بالبساط وهو من الكتان المنسوج بمجهود من الصوف
 المكون . يظهر فيه هي البصير لاعب المرملة وعلى اليسار منظر مطبقة لرأس من رجال ونساء
 كما تظهر في العوارض منظر رقص السهيل *
 من القرن الثالث الميلادي



١٠ - لوطان من الذهب على شكل مفكود العنق ، بشر عبيها لس سنانر مصلحة الأناز
بالواحات البحرية في حياير الأماط القديمة .

من القرن الرابع الهجرى

كافة اتجاه العالم . وها نحن نجده الأقباط يكتبون على البردى وعلى الرق . ثم يتقدم بهم الفن فيزيون صحائف الكتب بالرسوم ذات الألوان الزاهية الثابتة ، هذه الصحائف التي بلغت دقة كتابتها دقة الحروف المطوعة بإتقان ، والتي يهجر جساميل زهرتها كل من يراها .

(سورة رقم ١٦ و ١٢)

خاتمة

كاتب هذه الفنون في أيدي صناع مدنيين ، وكان الرهبان في الأديرة أيضا يتقنونها ، عالمهم رسم ، الرسوم ، ونسخوا الكتب وزخرفوها بمختلف الزخارف المطونة الجميلة ، وقدموا التجارة والبناء ومختلف الصناعات . ولما دخل الإسلام مصر ، اهم العالم الاسلامي بصناعات الأقباط فنجد الطلفاء يختارون مصر لترسل الكموة المنوية الى الكعبة لما لمسه من اتقان المصريين لصناعة الصبرج ، وبخارون من اتاج هؤلاء الصناع ما يظفونه على ائباعهم من الأردية ويسونها ، والقباطية نسبة الى صناعتها الأقباطية ، والشمائل كثير من رجاء اعمام الأقباط في انشاء المساجد والحصائر ، وعن الفن القبطي أخذ الفن الاسلامي العرب والمثقة والصاب .

وكان العصر الفاطمي بمصر فاتحة لاطهار الفن الاسلامي في شخصيته المصرية الاسلامية المتسرة ، وعندئذ أخذ الفن القبطي ينحصر

وبجانبها صندوق عليها العاقي ، وتلحف الابنة بشال من القماش المصري يشبه ما نعرفه اليوم من المنسوجات ، عليه نقوش من الأساطير القديمة ، ومنها صور النساء الثلاث التي وجدت في اتينوى وقد اطلق على اتينى منى تاييس وليكيونا وعلى الثالثة السينة البيزنطية ، نجد تاييس لاجبة ثلاثة لمدان وحبلاين ثوبى مضمما كما نرى ذلك شائعا بين بعض السيدات في الزيف والوجه القلبي وفي وسط الجلاب منطقة لها اكمام مؤهلة ، والجلاب محلى بعادة حمراء في اسفله ، وله خفاف رأسيان في الامام من الحرر الاسفر ، كما نجد ليكيونا مرتدبه جلابا من الكتان الابيض محلى أيضا عند اسفله وعند الاكمام والياحة بخط أزرق غامق ، ونلاحظ انها قد لفت شعرها بشال جمع الى اعلى في نسبة اتج . والنسوة الثلاث تعطينا مسورة حنة لأنواع الملابس وطورها ، والأنواع المتديدة لتصنيف العمر مما يجعلنا نخول ما كان عليه النساء عامة في العصر القبطي من اناقة وذوق سليم في ملهين وزيتين .

أما عن فن الصناعات المعدنية ، فلما نجد المصنوعات المختلفة التي استعملتها ائمة اريثيا ، ولقد مصاييح في اشكال مخافة رقاوص للشموع وأواني منزلة متعلقت بالاشكال .

(سورة رقم ١٣)

الحط والتجديد

كان المصريون منذ قدم عصودهم يصنعون الورق من البردى ويصدرونه الى



١١ - غلاف من العضة لخط الكتاب المقدس، مصنوع على نمط قبطي قديم ولبعثه إليه
الزغرارة على الكرملة .

من المعرث الرابع عشر اليهودي



١٢ - غلاف من الجلد لخطوطة من مخطوطات فسخة العارفين بالله . وعليه علامة عبج و رمز الحياة عند المصريين القدماء وهي رمز لتسليم المعرفة - وكانت المكتبة تسمى بربتمخ أي بيت الحياة - وعل الغلاف زخرفة سلزونية - من القرن الرابع الميلادي

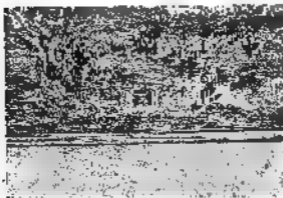


من آثار الفنانين العراقيين

١٢ - صورة من الأرشيف الوطني



١٤ - رسم على الجص يرمز إلى انهزم جيشك المجاهد بين الغزاة واللفظ ويصعب العار الاولي
 نص المعاهدة ويرفع الثاني راية السلام وبمسلك الثالث باناء وضع
 من القرن الخامس الميلادي



١٥ - آثار الكنيسة الكبرى (أبو حنيفة) بصريوط.
 من القرن الخامس الميلادي

بين الأقباط أنفسهم وبعيا مرتبطة بالوحي الدينية والعقسية حتى عصرنا هذا .

وقد كانت كتابة المخطوطات وزخرفتها زاهرة في الأديرة القبطية وما زالت حشد البراعة متوارثة بين بعض الرهبان مثل المجاهدين الضخيم اللذين تركهما الأسياس .
مكاريمس البطريك المتوفى سنة ١٩٤٥ ، وقد رسمهما وهو راهب في أوبرة واقى

النظرون وهما يشهدان بدقة هذا النوع من الفنون القبطية . ويعتوى كل من حنين انجلدين حوالي ٧٠٠ رسم ، كل منها يخالف الآخر ، هل بعضها عن المخطوطات القبطية وقد اختار أن يرسمها بالألوان الزاهية مثل ملته من الرهبان . وكتب على بعضها الاسم الذي قل عنه تم وصف طريقة الرسم التي كان الرهبان يتبعونها .

الرواسب القبطية

يمش المصريون في دورات زراعية يشترك فيها النيل والفلاح والجسموان والعلير ، كل يقوم بدوره على وتيرة تكاد تكون واحدة منذ بدء موسم الزرع في هذا الوادي الخصيب ، ومن هذا النظام الطبيعي وما ينجلي فيه من تعاون من بشر يدسقى وحصاد ، تتكون لدى الفلاح أساس ثابت متين .

ثم مرت على المصريين دبابل تبايت في مظهرها ، وتشابكت في أصولها ، كما تعاقبت عليهم ألوان من الحياة الاجتماعية اختلفت في ثبيتها وتوحدت أفراسها ، فترسبت منها فوق هذا الأساس الثابت ورواسب انصالية سليمة عملت على تكوين هبى للمصرى الروحي والفضي .

وهذه الرواسب التي يحملها المصرى رواسب قديمة معنفة في القدم ، تبرز عن غيره من الناس في هذا العالم ، وهذا التراث غير منظور .

أما تراثه القديم المنظور ، فقد أماط العلاء اللام عن بعضه ، ولا يزال الكثير منه خافيا أو مختفيا سيظهره المسلم يوما ، ويتداوله العلماء بالتحصن والتحصين .
أما التراث غير المنظور فلا يملك لغير المصرى الكشف عنه ، فهو من صميم حياته الداخلية بنا فيها من رواسب نصبة وقفرة تعالمة لا تنزوها المادة ، ولا تتحكم فيها الأوساسج العرفية المتداولة بين مختلف الشعوب . فهي سلسلة متصلة من الرواسب غير مضطربة أو منطظمة أو مضطربة الاتصال ، وهي وحدة متماسكة العلقات . والمصرى وحده هو القادر على التعامل مع هذه الرواسب بتناولها من طريق الرضى والرغبة ، وعدم الكلفة ثم عن طريق الحب والمقاومة .
وهي السيل للتوصلون الى أعناق لقمة ليسخرج منها ثروة كامة أصيلة في ضمه .
يقول الأستاذ حبيب جورجي : وهذا الايمان بدأت تجساري للكشف عن كنه

الرواسب في الأفعال الذين لم تمتد اليهم
السخود التي تعترض الفيس ولم تتحكم قيم
تعلم التعليم والتوجيه . سعت لهم سبيل
الحياة الرغابية والعالية من الصنعة والكلفة ،
ففاضت قلوبهم بثرات مصرى مسميم ،
أذهل العالم وحده العلماء لما وجدوا فيه من
أوجه شبيهة واضحة مع أسلافهم منذ آلاف
السنين .

يقول مدير مصلحة الآثار حين شاهده
الاتجاه الفنى لهؤلاء الأطفال :

« من الواضح أن النحت الذى كان
الاجتهاد به شديدا في مصر القديمة حسو
وليد التربة أو هو نتيجة لاجتهاد رهنف
يفضل بلايب النور الخلاب وسط الأفاق
اللاهائية ، حيث الجذب المتناهي يتباين مسح
العصبي الوثير . وحيث يتألف هذا المجرع
ويتمى الى ادراك الابدية . ولقد استوحى
النحت المصرى كل أشكاله من هذه الروح
وهذا ما يضل على في مجموعته وهبلى
الأخص في تناسبه الداخلى تلك الصلة التي
تكاد تملو على الإلصاقية حتى لكأنها تتشارك
في اللانهاية والتي لا يسكن أن نجد لها مثيلا
في أي مكان آخر في العالم . وكان الأستاذ
عبيد جودى يرغب في أن يتبين صلة الفن
في مصر بالتقاليد الفرعونية التي صنعتها
المدنية اليونانية منذ أجيال ، فغامر بتجربة
ليجمل الترية تتكلم من جذبه وأحضر بعض
المراةقين من الطبقة الشعبية التي هي من

أمن الطبقات مصرية ، تتميز بحساسيتها
فنية ، ولكنها أبدت قصدا عن علم الرسم
وعن الطرق المدرسية ثم تركها تخلق في
حرية كاملة أمثالا فنية ابتدعها كل بنفسه
وعلى قنطرة .

وطلب هذا العمل مسموما ومتأثرة من
الأستاذ عبيد جودى ، فكان عليه أن يوجه
تلاميذه الذين اتخيم في عناية فائقة لحسو
ادراك الأبياد وهم يتكلمون الطين ، وأن
يرشدهم في اختيار مصادر وحجم وفي
توضيح طرق التعبير فندهم ، وذلك من غير
أن يؤثر فيهم أو أن يجعلهم يشردون . كذلك
كان عليه أن يدرهم على نحت الحجر ،
وكان هذا العمل أقل صقلية من الأول .

وقد ظهرت النتائج ، وفي وسع كل اصناف
أن يعكس عليها . هنا ان القاب الذى سيث
فيه هو قالب مصر العاهرة ، وهذا هو
الطبيعى في الفكر ، لأن الفرض الذى يهدف
اليه ليس أن يحيى الرسم بل غرضه أن يوقظ
الروح ويثبت التقاليد في التنمير .

والفنى الذى أدهشنى شخصا في هذه
المدونة الناشئة هو أن روحا نعتد وروح
مصر القديمة في تناسبها وفي توزيع اجزائها .
ولو أن مثالا من المصور الفرعونية أود أن
يمثل العبادة في مصر الحديثة لما صورها على
غير هذه الصورة . وسيظهر المستقبل الى أي
مدى وإلى أية قوة في التعبير تستطيع هذه

المدرسة أن تبلغ ، كما سيظهر للمنضبل عددا
من الفنانين الذين شاركوا في التجربة وسعدت
تهم السبل .

ونستطيع الآن أن نؤكد أن العروة قد
توقفت ، وأن هذه التقاليد صبيحة لأهلها هي
بعينها ، تقاليد مصر الفرعونية .

الموسيقى والألحان

بدل الصور انشتمته على حدراڤ المفاير
والآلات الموسيقية التي مثر عليها في مصر على
أن الشعب المصري سد عرفناه في التساويغ
يميل بطبعه إلى الفناء والموسيقى ويستفهمها
في المناسبات المختلفة في حياته الاجتماعية وفي
الاحتفالات العديدة في حياته الدينية .

بلدة سنجار ، التي تقع شمالي مدينة
الغربية ، ومرتبت منذ أيام رمسيس الثاني
وكانت محطتها الأديرة في العصر القبطي .
وكذلك الأريسي نسبة إلى أثريب القديسة
(بالقرب من الدينين الأحمر والأبيض بمنطقة
أشم) .

ولما انتشرت المسيحية في البلاد المتبانية
وتكونت كنائسها ، بدأ معها في كل قطر من
موسيقى كنسي تفتى مع النزعة القبطية
الموسيقية لكل شعب . وشككن الشعب
موسيقاه بما يفعل مع ذوقه مستندا ذلك من
تقليده .

والكنيسة القبطية من نفس كنائس العالم
- - أن لم تكن أغانها - - في فنها الموسيقي .
والموسيقى جزء لا يتجزأ من رهبان مبادها
المتوعة وطقوسها الطويلة ، وهذه الطقوس
كما عرفها الآن قد وصلتنا كاملة منذ القرب
الخاص للبلاد ، لا تسوبا موسيقى بيزنطية
أو لاطينية أو غاربية أو غير ذلك من أنواع
الموسيقى المعروفة شرقية أو غربية .

وقد ذكر الفيلسوف الإسكندري فيلو
الذي عاش في القرن الأول للميلاد أن
الجماعة الأولى من المسيحيين المصريين
التبست الغانا لعبادتها الجديدة من الأنغام
المصرية القديمة ، وهذا يوضح لنا كيف
انتمت الموسيقى الكنسية المصرية من الفن
الموسيقى المصري ، وليس ذلك على ذلك من
أن بعض الألحان النشائة إلى الآن في
الكنيسة المصرية تحمل أسماء بلاد قد اندثرت
منذ عهد بعيد . فاللحن التجاري نسبة إلى

والموسيقى الكنسية - - كما وصلتنا - -
سوبة بعتة لا نستفهم الآلات الموسيقية
في داتها . وقد تائلتها الأجبال بالتواتر
شفاها . ودونت موسيقى الكنيسة القبطية
أخيرا بانوتة الموسيقية للصوت وتتم في عدة
مجلدات لم تنشر بعد . وكذلك سجلت جميع
الغانا على أشرطة صوتية هي موضع درس
يمكن أن تقابل بين بعضها وبعض الأنساني

الشعبية القديمة الساكنة الآن في مصر وأوجه
الشبه بينهما ملحوظة .

والألحان تتفاوت طويلا وقصيرا ، ويبلغ
بعضها خمس عشرة دقيقة ، ومنها ما يتم
على كلمة واحدة أو بضع كلمات . وعلى
الرغم من ذلك فان موسيقى القبطية ليست
مقدمة وتتكون من صوت واحد أي لا تتعدد
نغماتها في وقت واحد ، ولها من بساطتها قوة
تأثير على العاطفة مهما احتلت الأذنان ، وهي
الألحان مجردة . وفيها النغم الحزين ولحن
الفرح . قال أحد علماء الموسيقى عند سماع

الألحان الحزينة «إذ أنغمها عريقة في القدم ،
فبها حض على الزهد ، واسترخاء للنفس
اطمئنية . أما ألحان الفرحة فبها نشوة تشر
الإنسان بلذة روحية وتسمو به إلى عوالم
أسمى » .

هذا الفن القديم وركنه الكنية القبطية
وحافظت عليه ، ولعل في دراسته القيمة
« يعود بنا إلى أصوله المصرية القديمة . فان
الموسيقى الكنية القبطية أقدم مدرسة
موسيقية معروفة في العالم .

الفصل الخامس

الحياة الاجتماعية

(أ) مركز المرأة في الحياة المصرية . . . (ب) الأسرة .

(ج) الصلوات . . . (د) التصويم .

(هـ) الزينة : قيامها في مصر ، أطوارها ، آثارها التبريرية والاجتماعية وانتشارها في أنحاء العالم المسيحي .

(أ) مركز المرأة في الحياة المصرية

حتى صارت نموذجاً للوثنيين وقدوة مشلى اجندبت هؤلاء الوثنيين الى دين المسيح بمرئفة ميعقتها ، لأنها كرست حياتها للخدمة في غنوع ، واخمة نصب بجيها كلمة يولس الرسول لا أنهم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم . . . ومن ثم عاشت باستقامة وطمهارة فانتزعت احترام الجميع التواضع . وكانف التعاليم التي تعلمها التلاميذ من المسيح السبح عن كرامة الشخصية الانسانية ترداد على مصامع الشعب كل يوم لا كان اكليندس الاسكندري يملن عظمة الزواج المعيشي في محاضراته بالمدرسة الاسكندرية . وكان يبين لساميه كرامة هذا الزواج الذي جعلت منه الكنيسة سرامفدا ورياطا روحيا يعقد الكلن بقنقى ما قاله من سلطان

كانت المرأة في مصر منسفة المدم العمور - مصدر الوحي وبسبب العهد الروحي . حتى لقد جعلوا الالهة عمات رمز العدالة والبر والحق . وقد سجل لنا التاريخ أسماء الالهات والملكوت والكاهنات ، ولكن العظمة الروحية التي امتازت بها المرأة في مصر لا ترتكز على هؤلاء وحلن - اذ هي يؤلفن اقلية - بل ترتكز فوق ذلك على ان المرأة كانت مسؤولة عن اولادها امام بطبيهم ، كما كانت مسؤولة عن والديها في شيخوختهما . فهي لم تكن مصدر الوحي فقط بل كانت حاملة الفطلة ايضا .

واعتنق المبريون المسيحية فظلت المرأة مصدر الوحي وظلت حاملة الفطلة ، فقد روت نفسها على السور بأختلاتها وفضائلها

ولادة الله بنال رخاء . فقد شاء ذات يوم أن يرفه ذرجه القداسة التي وصل اليها فرأى في رؤى الليل ملاكا ينبئ به بأنه بلغ مرتبة سيدتين ✠ بلدة معينة . فلما أصبح الصباح نرك صومته قاصدا البلدة التي أشار اليها الملاك . ولما وصل الى بيت السيدتين استقبلتهما بالتكريم والاجلال لم سالهما عن كيفية معيشتكما ليبرف السيف في ما مالتا من تقدير فأخبرتهما بأنهما يسكنان معا لألهمتا متزوجتان من أخوين . وأنهما افترقتا منذ اليوم الأول على أن لا تنفوا احدهما بكلمة تجرح الأخرى . واذا احست واحدة منهما بأنها أسامت بكلمة الى الأخرى اغضبت لها في الحال دون أن تدع النفس غيب قبل أن تكون قد استسحتت من أسامت اليها وصفت العصاب مع ضميرها . وحين سمع الألبا مكارى حينئذ الكلام هنده قائلا : « حقا انه لا فرق بين الراهب والمتزوج وبين الناسك والرجل الذي يمشي في العالم . فقد وهب الله تعالى لسة الحياة للجميع ولم يطالبهم الا بصفت

لواهم » .

ولقد أدركت المسيرة المصيرية قديمة الأومرة كما أدركت قديمة الزواج تماما . فلم يمد للام المسيحية شغل الا العناية بأولادها والسهر على تربيتهم تربية تتفق والكمال المسيحي . وقد دفعها هذا الادراك الى التفاني والمحبة . ولم تكن أمومتها منصبية على أولادها الذين ولدتهم فقط بل

تملحه من الرسل أنفسهم ، ومن أن السيد المسيح يبارك العرس في قانا الجليل . وكان الوثنيون يعنقون الطهر والعفاف ويتباهون بما هم فيه من فساد . والمجيب أن هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يصغون الى محاضرات اكليندس وغريمه من معلمى الكنيسة عن الواجبات البسيطة لفروطة على الزوج وزوجته ، وعن قدسية الزواج — كانوا يصغون بالتباه تام لأنه كان لا يزال بهم حتى يصعد ظهرهم الى ذروة العكسة التي بلغها . فإذا ما قارن المستمعون الى محاضرات اكليندس بين تعاليمه وبين الجبهات التي يحميها المسيحيون وجدوها صرورة صادقة للإيمان بتدسية الزواج . لأن الزوجة المسيحية كانت مثالا حيا للكلمة الانسانية التي تترفع عن الروول الى حياة الرذيلة . وحين أبصر الوثنيون هذا التدريس للزواج وهذا انتمك التسمام بالمعاق تحولوا ترويجا نحو هذا الدين الذي ارتفع بالصلة الزوجية الى مرتبة الروحيات .

ومع أن التاريخ يذكر سير النساء القواتى بلفن مسكاة روحية سلمية الا أن هناك آلافا من العنديات الجيولات القواتى عرفن معنى التضائل المسيحية وعلمن بسوبها ، ومن أرقى الأمثلة عن حاته النسوة المجمولات فصة يروجا اللبسا مكارى الكبير بنفسه ، فاته — على الرغم من حياة التلك والرهينة التي كان يصيهاها — كان يؤمن بأن كل من يفعل

اتمت لتشمل الأولاد المحتاجين الى العناية في شتى مسورها . فخلد استشهد أبو أوريجانوس في الاضطهادات التي آثارها سبتيموس ساوروس في ثواغمر القرن الثاني للسيحية . وكان أوريجانوس لا يزال باقيا مع كونه أكبر اخوته السبعة ، ولم يكتبه الإمبراطور الروماني القلوم بأنه أفقد هؤلاء الأولاد أباهم وعائلهم بل صصادر أموالهم أيضا . فقامت بهم سيده غنية من سيدات الاسكندرية لم يذكر التاريخ اسمها وسمرت على تربية هؤلاء الأطفال البنائي وبذلك هيأت الترسه لأوريجانوس ليكون من أبرز المعلمين الذين ألجئتهم الكنيسة المصرية ومن اعلام التنكر المصري الناصح .

ولقد كان من أثر تلك المراه بكرامتها وحفظها لغيرها وادراكها الصحيح لسؤلياتها أن وثق بها آباء الكنيسة وعملوها . فوجد أن أوريجانوس ناظر المدرسه الاسكندرية حين سجل الكتاب المقدس في لهجات مختلفة استخدم سبع شابات يجلسن الغض كي يكتبن له هذا الكتاب في صيغته النهائية بعد التنقيح والتعديل . ولما بدأت الاضطهادات المرومة التي شنها أباطرة الرومان على المصريين كانت المراه قوة راسخة شمت من عزية الرجاؤ اذ كانت تفتد الى جانبهم وهم يسلمون انواع العذاب تتجمعهم على احتشال ما يلاتون من حوز . وبعد ذلك تلقى هي ما تلقاه الرجال من صنوف التنكيل في سكينه وثبات .

وكان يحدث احباء أن يجبن الرجل فتكون المراه سببا في أن يشهد شجاعته . وأبرز مثل لذلك السيدة حبيالة التي كانت الابنة الوحيدة لمرقس والي البرلس . وكانت قد طلبت اليه أن يثنى لها قصرا تقيم فيه يبنأى عن العالم ليخلو فيه الى ربها وتخطي عمرها في الزهد والتشفس ، وفي الصوم والصلاة ، وفي التأمل والعبادة ، فأجابها أبوها الى رغبتها وهنى لها لمصر في المنطقه المعروفة لأن بالبراري بالقرب من بلقاس ، حيث عاشت فيه في أمن وسلام مع أربعين تلميذه ندفن العفة والطاعة مثليا . وعشر جبسا في هسدوه ولسألية . الا أن ديوقلداليوس الامبراطور الروماني الفسوم آثارها حربا شعواء على المسيحيين فجرعهم صنوف التعذيب والتنكيل ، وحين علم هذا الامبراطور الطافية اضطهاده طلب من الولاة والحكام أن يذهبوا معه الى الهيكل ويرفعوا القرايين للالهة . فجبن مرقس أبو حبيالة وشذى على مركزه وبلهه ، وذهب مسج الامبراطور كما طلب .

فلما سمعت حبيالة بما كان من خوف ابهسا ذهبت لخلاقاته وأمرت له عن حزنها الصبير لما أبداه من خوف وراجع . فلم يسع مرقس ازاء كلمات ابنته الا أن يعود الى الامبراطور ويعطى له فدمه عما قرط منه من تعجيد للاهنة ويقرر له أنه مسيحي . فأمر الامبراطور بتقطع رأسه بالسيف . ثم أرسل

جنده الى حيث تعيش دميانة، ومعها الأرمون
 وعقراء ، فشكلوا بين تنكيلا ، وتحصلت دميانة
 وصديقاتها كل صفوف العذاب بصر عجيبي .
 وكان أهل القرية قد خرجوا جميعا ليشاهدوا
 ما سيفعله الجند بالعذرى . فلما رأوا بائعهن
 وشجعائهن انزلوا مسيحيتهن فأمسك الضابط
 الروماني بتلهم جميعا كما أمر بقتل السيدة
 دميانة والعذرى الأرمين . وهكذا كانت
 بساطة السيدة دميانة سببا في إذكاء نار العيبة
 والإيمان الثابت في قلوب هؤلاء جميعا .

ثم المص الإضطهاد ، وحل الأمن
 والطمأنينة . فعادت المراه الى مزاوله أعمالها
 العادية . فالزوجة الصرقت الى بيتها ، والإمام
 عادت الى تربية أولادها ، والى جانب الزوجة
 والإمام كانت تروح من هويت حياتها القديمة
 فقه والنسائس واختارت أن تكون راجبة
 أو شماسية (أو كليهما في آن واحد) .
 ولم تكن حياة الصادة منصبه على عبادة
 والتأمل فقط بل شملت العمل اليدوي
 والعقلي والخدمة الاجتماعية أيضا .

أما درجة الشماسية فكانت تتناوب من
 ينالها أن يتفقد المرضي وأشجروين والقسريه
 والمعوزين ، كما كان عليه أن يزور العائلات
 ويلتزم تقريرا عن أعماله للكهنة أولا بأول .
 فكانت الشماسية مسؤولة عن التي المنوط بها
 خدمته ترحي سكانه وتبذل جهودها على
 تخفيفه الآلام وعلى ادخال الضمانينة الى
 نفوسهم ؛ وتحرص على مصاحبتهن الى
 الكنيسة كي ينالوا حظهم من الرعاية الوجيهة.

بل لقد كان الشماس (أو الشماسية) بوصفها
 بأنه « عبا الأستف وأذناه » لاهمية عمله .

وأعظم من بين الشماسات تلك الشماسة
 التي لم يذكر التاريخ اسمها والتي اختبأ
 عندها النابوس الرسولي (البيا با
 الالاسكتندري المشرقي) . ذلك أن
 الأيوسسجين كانوا يطاردونه بنية قتله .
 فهجروا ذات ليلة على الكنيسة التي كان
 يصلي فيها . ووقف الضمب تلك الليلة في وجه
 الأيوسسجين . ثم حمل بعض الرهبان خارج
 الكنيسة . فلما وجد نفسه هرا طلبها أحد
 يتشى في شوارع المدينة وهو يفكر . وكان
 تلام الليل سائرا بفضله عن أعين مطارديه ،
 ونبها هو يفكر ويصلي اللهم روح الله أن
 يلعبا الى بيت شماسة لم تتجاوز العشرين من
 عمرها . ولما فرغ الباب فتحت بنفسها ففرح
 فرحا عظيما حين رأته ، وسكت القديس
 العظيم في بيتها حوالي صد سنوات خدمته
 خلالها بأمانة لا تعرف الكلل فكانت تأتي
 له بالمخطوطات من الكنيسة ، وتحيل الى
 الضمب رسائله النصيحة وخفاياته التي كان
 يكتبها في مختلف المناسبات مما أثار دهشة
 أصحابه وأعدائه معا .

لأصحابه كانوا يتفقون تلك الرسائل
 بصفة ولغة وهم يتساءلون في شيء من
 الخوف : ترى أين البيا العظيم إنما خصومه
 فكانوا يتسبون غيظا لمجزهم عن معرفة مقره
 والفتك به . وضاعت جهود الأصبغاف
 والأعداء في البحث عنه . فلما مات الأمر الطور

تسطنس الثاني الأروسي - وكان المؤمنون مجتمعين ساعتئذ في الكنيسة للصلاة ... ١١١
 بإنثاسيوس الرسولي واقف بهم فجأة .
 فلما فرح لا يوصف ثم سألوه أين كان
 مختبئاً فأجابهم « تم اختبئي عند أحدكم لئلا
 يسألکم الحكام عن مكانى فتكذبون حرساً
 على حياتى ، بل لقد اختبأت منذ تلك التى هى
 قولى التنبهات مع كونها شابة جميلة .
 فكتب بذلك حياتى وحياتكم » .

هذا المثل الرائع يعطينا مسجودة عن
 خدمات القساوسة ومدى جهودهم الدينية
 والاجتماعية ، والى جانبهم وقمت الراهبات
 المواتى كرس حياتهن للخدمة والعبادة فى
 فناء عظيم . ومن الأمثلة البديعة لخدمة
 الراهبات الروحانية والاجتماعية ما تلك المثل
 الذى قدمته الصغراء « يياحون » حين
 غضب زاعما بين أهل فريتين بسبب ميساه
 النبل - ١١١ كان اهالى كل قرية يرينون دى
 اراضيم قبل الآخرين .

وثمة خدمة أخرى لها قيمة كبيرة كانت
 المراد تؤديها . هذه الخدمة هى التعطيل .
 فقصد كانت بعض النسوة يعرفن ما لبعض
 الأضباب من فوائد صحية ويركبن منسأ
 العقاقير ويصنعنها للمرضى . وكانت هذه
 الخدمة توهب مجاناً فى معظم الأحيان .
 ولا تزال فى بعض بلاد الصعيد مسيحات
 يردينا . وهؤلاء السيدات لم يذهبن الى
 مدارس ولم يتلقين العلم على أساطفة . ومن
 المعروف أن مثل هذه المعرفة جاءهن بالنسليم
 - أى 'ن المرأة التى لديها هذه المعرفة كانت
 تفتخر شابة تتوسم ليها الرعية والمقدرة على
 تأدية رسالة الطبيب لتسليها معرفتها
 بالممارسة . ولا كانت هاله النسوة يشن فى
 بيئة سلاجية ، يندس فيها من جرف الضراوة
 والكتابة كما ينذر أن يوجد فيها من يصه
 أن يكتب حجة المرأة العاملة لانه لا توجد
 أدلة مخطوطة والبا الأداة قائمة بحسنى قيمة
 الهدية لسيها وعلى اكتفاه الذى سارت عليه
 مصر منذ أقدم العصور .

(ب) الأسرة

(التى هى العماد - التثبيت - التناول -
 الاعتراف - الزبية - مسحة المرطوب -
 الكملوت) (والسر الكنسى هو صل مغفوس
 به بال المؤمن نسمة خير منظورة تحت علامة
 منظورة) .

لذلك غرابطة الزواج تحتاج الى لمة
 العية ليربط الزوجين برباط ربه حتى يتسر

اهتمت المسيحية بعمارة الأسرة كأساس
 لبناء مجتمع سليم . فبمجرد دخول المسيحية
 الى مصر اهتمت بأن تدخل نعالها وقوانينها
 الى الأسرة لتدعيمها وحياتها . فتساعد على
 تهيئة جو من الاستقرار والأمن .

غرابطة الزواج المسيحي نمنير ركنا هاماً
 من أركان الكنيسة بل وأحد أسرارها السبعة

مدى الحياة ولا يفصمه الا الموت او الخيانة الزوجية (الزنا) . لذلك فمن المعتقد ان يقوم بطفوس هذا السر كاهن شرعى ، وبالتالي لا يستطيع أحد ان يقسم هذه الرابطة الا الكاهن في حدود السنة الآتية الذكر فقط .
وبما ان الزواج في المسيحية رابطة روحية تجعل من الإثنين واحدا ، لذلك فلا يمكن ان يدخل نفس هذه الرابطة أكثر من زوج واحد وزوجة واحدة .

وعلى الكاهن بصسفته ايا روحيا ان يستوفى من نواحي شروط الزواج والمخلو من موامته . و من يتأكد من الرضا الشخصى لكل من العاطلين ، يمتاز كلا منهما ربه على افراد بعيدا من مؤثرات أو ضغط العائلة ، حتى يضمن نجاح الزواج وسعادته الزوجين واستقرار العائلة .

ويسمى الاقباط حفل التمام طقس الزواج بالاكسل — لان الكاهن يمسحج رأس العروسين اثناء الصلاة باكليين ، دلالة على النسبة المقدسة التي توجه حياتهما برابطة الزيجة . وتعتبر حفلات ازواج حرة مواتية تعتبر فيها العائلة عن مظاهر الفرح والابتهاج بظواهر مختلفة . كان من اولها تقديم السكر له بمحاولة اشارك الفقراء والسييران من أهل المنطقة المجاورة في شاعر المسرح وذلك بتوزيع الكساء وما طالب من مأكول وحلوى عليهم .

وما العساسلات الثرية فتح الذبايح

وتستمر احتفالاتها عدة ايام : الليلة السابقة على العرس وتسمى « ليلة العناء » وتقام وليبتها في بيت العروس لتوديعهما ، وفيها تصبغ العروس وتعمل البيت اكرمهم وأرجلهم بالصبغة الحمراء التي تركها عجينة أوردق العناء على آجلده . ثم ليلة العرس في بيت المرسي — والصباحية حيث يستقبل الزوجان عدايا العائلة والأصدقاء وما يسمى بالقطوط (أى الهدية النقدية) وتشتت فكرتها أصلا كمشاركة علفية في مصاريف العرس ، وأحيانا تستمر هذه الضفلال الى مساءه الأسبوع وتختتم بليلة السبوع .

ولما كان الأظمة التي تقدم لى ولائم العرس من الأظمة الفاخرة الدسنة . فزيد سمت الكنيسة اقامة « الاكليل » لى ايام الأصبوم ، حيث يتمتع تناول الأظمة الحيوانية والدسنة ، وحيث يتمتع الأزواج عن المعاشرة الزوجية لتفريغ للصوم والصلاة .

وحيثما يولد للعائلة طفل ، يكون أول احتفال عائلي به لى اليوم السابع ، فتدعو العائلة الكاهن ليبارك الوليد ، ورفع صلاة شكر لله من أجل سلامة الوالدة . وتسمى « صلاة الطست » نظرا لاستخدام النسث لى غسل الطفل فى ذلك اليوم . وغفل عدا طقس يشترك الكاهن مع الوالدين فى اختيار اسم تبنى للوليد — يختارونه غالباً من أسماء القديسين والشهداء المشهورين بسلام الصبا . ولهم فى ذلك طرق مختلفة : فالبعض

السوى لهذا القديس يتوزع المسدقات
وعمل وليمة للشعب أغنياء وفقراء ما .

وحيثما يكتمل للولد أربعون يوما ،
تحمله أمه إلى الكنيسة ليبارك سر السماد فتمين
له الكنيسة عزابا أي (الثمينا) ومعته أن
ينوب عن الكنيسة في رعاية المثل ووجها إلى
أن يصل إلى سن الدراسة فيلتحق بمدرسة
الكنيسة .

وهذا الأرباب القوي بين البيت القبطي
والكنيسة كان يأخذ مظاهر متعددة أخرى
ترك في حياة أولاد العائلة الطبايعات دينية
عقبة . فكلما بنت العائلة بيتا جديدا أو بنت
مسكنها إلى دار أخرى دعت الكاهن ليبارك
المسكن الجديد بصلاة شكر خاصة يقوم
الكاهن في آخرها برش الماء المقدس في أرجاء
البيت استنجابا للخبير وطردا للشر . ومن
الواجبات الرجوية على الكاهن أنه يزور بيوت
رجته من حين لآخر وأعطى ومرشدا . كما
عليه أن يزور البيت كلما مرض أحد أعضائه
فيصلي سر منسفة المرضي (القنديل) ويطهر
المرضى بالزيت المقدس .

ومن العادات العائلية القديمة في الصعيد
الأمسيات التي يسولها د الثبر . والمسير
بمناء السرة . فإذا كان على عائلة نظر ما
لأحد القديسين ، أو مناسبة فرح وشكر
لشفاء مريض أو توفيق شخص في تجارته
أو عمله أو الخروج من ضيقة أو شر محيط
احتفلت الصائفة بدعوة الجيران والأقارب

بختار اسم القديس الذي ولد الطفل في يوم
عيه أو ذكرى استشهاده . والبعض يختار
سبعة أسماء لقديسين مختلفين ويطلق
أسماعهم على سبع شمعات ، والشمعة التي
تستمرضيفة إلى آخر الحفل يطلقون الاسم
الذي تحمله على الوليد . وأحيانا يكون الاسم
قد أعاد من قبل بأن لغير أحد الوالدين تسمية
الوليد باسم القديس الذي استشفح به في
وقت شبثته .

وكان حب الأقباط للقديسين والشهداء
يدفعهم لاطلاق أسماءهم على أبنائهم سواء كان
اسم القديس من أصل مصري أو يوناني
أو سرياني . الأمر الذي الخلط على البعض
فجعلهم يشتككون في مصرية حاملي هذه
الأسماء . فكانوا يسبون مشاهير العلماء
والقديسين المصريين إلى اليونان لجره أن
الاسم أصله يوناني .

وكان في كل بيت قبطي « مقصورة »
(ومناها مكان مقصور أو مخصص للصلاة)
بها أيقونة (أي صورة) لقديس أو أكثر .
وموضوح في ركن خاص بالبيت كمكان
مخصص للصلاة والعبادة . وأحيانا يضيئون
أمام الأيقونة قنديلا من الزيت أو بعض
الشموع تكريما للقديس الذي كانت حياة
الفضيلة والتضحية التي عاشها نورا وهديا
للجموع . وأمام هذه المقصورة اعتادت العائلة
التبئية أن تتجمع لتصلي الصلاة العائلية في
الصباح وعند الغروب . وتحتفل العائلة بالعيد

كبير في تخفيف وطأة العزّ عن عسلي أقاربه .
 ويسمى العامة « رفع العصير » أي انهاء
 فترة العزّ الشديد اثنى فيها يجلس أهل
 البيت والمزبون على العصير أرضا بدلا من
 الجلوس على الكرّاتك أو القاعد .

وبسبب ذلك تقام القداسات في الكنيسة
 استطرادا لرحمة الله في أيام السابع والخامس
 عشر والأربعين . وتشتهر هذه لرحمة مناسبة
 للتعبير السليم عن مشاعر العزّ ، إذا
 ما اقتربت بالتأثير الدينى الذى يملئ دائما
 على حفظ الإرائن الشاعر ، فلا يكون فيها
 القراط مشابه لمظاهر العزّ عند الوثنيين . كما
 لا يكون فيها كبت ، كما يحدث لدى الذين
 يظنون أن التمدن يتعارض مع مظاهر التسبب
 عن مشاعر العزّ . لقد أثبتت أبحاث علم
 النفس التطبيقي أن كبت مظاهر العزّ
 للظهور بظهور التمدن ، له أدوي في كثير من
 الحالات التي أمرأتى جسدية ونفسية تظهر
 آثارها بعد فترة من الزمن .

ولكن للأسف المثلث أحزان الألباط
 خصوصا عند النساء في الصمبد يفض
 المسادات الوثنية من لحم سؤذ ، وحق
 للباس ، وحل للفر ، وصبيغ للمفر
 بالليفة ، والفرع على الصدر بشدة ، وفصد
 زمام النفس حتى تتألم التكللي أحسانا
 باحترازمات تفرحيحة تتشى مع انظام التمديد
 الذى كثيرا ما يقترون بفرع الرق أو الطول .
 وتختلف أقاليم الصعيد في طريقة « التمديد »

والفقره ومرنلى الألعان الكنسية الى سمره
 يجلبون فيها في حلقة جوسطها من يقرأ
 سيرة (ميمر) أحد التديسين . وكلما وصلوا
 الى فصل جديد في السيرة أو تقطة بطولاه ،
 يتوقفون عن القراءة ويأخذون في ترتيبسل
 المايح التسببى لله تهليل وبهجة « يتبارى
 مرتلو الألعان في ارتجال منطوعات شمريه
 يسمونها « الأرباع » (أى أربعة أبيات) .
 وتدرى بحالى هذه القصائد حول المناسبة
 التي يحتفلون بها . وتدخل فيها القساط
 أو أبيات باللغة التطبيقية لأن القصائد كانت
 تلقى تدبسا باللغة القبطية . ويدخل فيها أيضا
 تفسير للكتاب المقدس وحض على الغضببة .
 وكلما أعجب الحاضررون بقطعة يجزلون العطاء
 (النقرط) على المرقى (وهو غالبا تمرير)
 وهكذا يتقشرون سهرتهم طوال الليل في ذكر
 لعه ورجاله الأقياه . وهذه الاجتماعات تمشي
 في فوس الوقت وسبلة من وسائل الترفيه
 السببى الروحى .

للماتم

وترتبط عادات العزّ والماتم في العائلات
 ببطاهر دبية أيضا . إذ تشبب لجة الى
 الكنيسة حيث تقام صلوات جنازية استطرادا
 لرحمة الله على ما قد يتكون التمثل قد فعله من
 هفوات أو سهوات أو أخطاء غير متصودة .
 وفيها أيضا طلب التزوية المساوية لأهمل
 الميت . وتقام صلاة خاصة في بيت الميت في
 نيلوم الثالث للوفاء . ولهذه الصللاة أثر

وعادة زيارة المقابر (الطلبة) — أى الخروج الى المقابر التي تكون غالبا خارج القرية أو على مكان مرتفع جاف — من العادات القديمة . وهي من علامات الوفاء وتكرم ذكرى الميت في أيام الأعياد التي يمتد فيها أفراد العائلة التجمع معا من بلادهم المنفرة ونصطحب هذه الزيارة بعبادات أخرى منها السليم ومنها الفسار ، لتتوزع الصدقات والمأكولات على الكفراء . ورفع الصلوات لطلب رحمة الله . الا أهم كانوا يتألمون في ذلك هيبتون في المقابر ويقبضون عدة أيام وشاهدون في مظاهر العزن المرط .

وهي في الغالب تعديد مآثر الفتيه ، ومقدار الخائر التي تحقت بفقده . الا أن بعضها يتعرف الى عبارات الكفر والنمر . وهذه المادان والأقوال لا تفسرها المسجبة ، ويعاربا رجال الدين في مواعظهم . وعندما ترمزا عائلة يفقد أحد أعضائها تسرع العائلات المجاورة الى مشاركتها في التولية لتخفيف وطأة العزن ، كما تشارك أيضا في أعياد حياطة المعزين القادمين من قرى أو بلاد بعيدة ، إذ ترسل كل عائلة (مبنية) مأكولات التي يبت المآثم الذي يكون مشغولا فلا يتمكن من اعداد الطعام للمعزين .

(ج) العادات

ومن هذا الاسم تميزت الكنيسة بوظيفة اجتماعية وروحية ، إذ أن مهمة السور بروج الانسان محتاج الى رعاية نفسية واجتماعية بجانب الرعاية الروحية حتى تتكامل الشخصية فلا تحقد أو تنقسم على ذاتها ، لتسير سرا تاميا في جسم المجتمع . بل تسعى الكنيسة الى تكوين المواطن الصالح .

ويسهر على توفير هذه الخدمات الروحية لسند احتياجات الشعب ، ورعاية الكنيسة وغذائها بدرجاتهم المختلفة : الشماس والشمس والأقفس . وهي درجات الكهنوت الأساسية في الكنيسة .

والكنيسة بهذا الوضع مجتمع اشتراكي ديمقراطي ، تتكافأ فيه الفرص الروحية

اربط المصري بالكنيسة ارتباطا وثيقا حتى تأثرت عاداته الشعبية وتقاليد حياته اليومية بالطباعات دينة ككبيرة ظهرت آثارها في أفراسه وأثراته ، واحتفالاته وعباده . ولا فرابة في ذلك لأن الكنيسة محض اجتماعيا يفسل حياة الشعب التابع لها .

وكلمة كنيسة مصابها جسمانية ، أى جماعة المؤمنين . ويطلق الاسم اصطلاحا أصلا على المكان الذي يجتمع فيه المسيحيون مهما كان نوع هذا المكان . ففي فجمصر المسيحية ، لسبب أن تبنى الكنائس والكاتدرائيات ، كان يطلق اسم الكنيسة على البيوت التي يجتمع فيها الشعب للعبادة والصلوة .

الغذاء للمصلين ويقوم كبار أعضاء الجماعة بأقسامهم على خدمة أفراد الشعب الفقراء والأيتام على السواء .

وتظهر قبة هذه الولايم في الرابطة الأخوية والتقريب بين الطبقات والتفليل من العوارق الاجتماعية ، بجانب ما تقدمه من ضيافة باعلام أفراد الشعب الذين يمسد بيوتهم عن مكان الكنيسة .

ولكل عضو في الكنيسة أن يستخدم نفس القاعة الملحقه بالكنيسة لاطامة احتفالاته الخاصة من عرس أو مأتم . فيس تستخدم احتياجات الشعب عامة . ويلحق عادة بهذه القاعة عدة غرف للنوم لاضافة الضرياء والفقراء .

وقد اشهرت الكنيسة القبطية بالمدرسة الملحقة بها ، وكانت في القسردون الأولى المسيحية تسمى مدرسة الموعوظين لاعداد الراسخين في المماد وتلقبهم أسود الأيمان المسيحي . ثم أخذت فيما بعد شكل و الكتابية ، وكانت تقص الأطفال مبادئ القراءة والكتابة والحساب بجانب دراسة الكتاب المقدس واللغة القبطية والألحان الكنسية .

وكان بجوار بعض الكنائس مستشفى لعلاج المرحسى كما جاء في مسيرة القديس باخوموس (القرن الرابع) أما أننا مستشفى في أدبرته . واجعل مظاهر الرعاية النفسية التي

والاجتماعية امام التغير والغنى ، الجاهل والمعلم ، الصعد والبالغ ، وايض البثرة واسودها . فتستج فيه الجميع بنصر العبادة المشتركة خيقفا كل هؤلاء خاشعين يصعدون الهما واحدا ، ويتلمسون كيفية تطبيق الفضائل في حياتهم اليومية ، حتى لا يصبح الدين مظهرا منفصلا عن الحياة أو المنجوع ، بله يصير وسيلة فعالة للمشاركة في العطاء للتغير والمحتاج ، والتعاون كثير المجتمع .

وظهرت علامات هذه النظم الاجتماعية للكنيسة في مصر منذ أقدم العصور . قضت مباني الكنيسة بين أسوارها مؤسسات تقدم بالخدمات المختلفة لشعبها من روحية وثقافة واجتماعية . ففى كثير من كنائس ترى الصياد والوجه البحري ، ما زالت تحيط بالكنيسة بجاني اللبوان ، أو « الأيون » وهي المصنفة أو قائمة الاجتماعات التي يجتمع ليها الشعب مسج رحاه بعد صلوات فداى يوم الأحد لتشاورون في شؤون مجتمعهم ثم يتناولون معا ما اعداد المسجرون بسببه « الألامي » وهي كنية قبطية معناها محبة . وتستخدم اصطلاحا بمعنى « واية المحبة » . فذ بعد أن يشترك الشعب مع الكاهن في تناول اأمرار المقدسة في نهاية القداس يعرجون الى قاعة الاجتماعات هذه ويتناولون معا الغذاء على مائدة واحدة . وجرت العادة على أن تناوب عائلات القرية تقديم الغذاء فجدد لكل عائلة أسبوع معين من العام تقدم فيه

تقدمها الكنيسة لاحتياجات الشعب ، تجلي في وظيفة « سر الاعتراف » . وهو كما سنه المخطوطات القديمة « طب روحاني » ، وبلغه العصر الحديث وعلم النفس « صحة نفسية » أو « طب نفسي » سواء الوفاة منه أو العلاج. معروفه ان الفرد محتاج الى ارشاد وتوجيه وخاصة خلاله الأزمات النفسية ، و عندما تشتت وطأة مشكلات الحياة أو يزداد الضجور بالألم ، فأسلم طريق لراحة النفس وسلامة العقل هو التفرغ كوامن النفس على يد من يستطيع أن يطمن النفس ويهدئها من روعها ، ويرسم لها طريقا لتجديد الرجاء أو بعثه .

وتحتاج النفس البشرية أيضا الى أن تكون على صلبة مسترة بالله تعالى ، لذلك تفتح الكنيسة أبوابا ليشارك الشعب مما في رفع الصلوات له مرة على الأقل كل أسبوع — يوم الأحد . وقد اعتادت الكنائس القبطية أن ترفع الصلوات في أيام الأعياد أيضا وبخاصة الأرباب والجمعة من كل أسبوع . وكانت الكنائس قديما تقيم القداسات يوميا . وتحتفل صلوات القديس القبطي على طلبات من أجل الظروف المختلفة التي تسر على الفرد في حياته : من أجل المرضي والمسافرين ، والراغبين (أي الأموات) .. وكذلك من أجل سلامة العالم . ولم تغفل أن ترفع الصلوات من أجل الحكام والملوك والولاة ، تنفيذًا لموصية الكتاب المقدس

القائلة (فاعلم أول كل شيء أن تمام طلبات وصلوات وإبتهالات وشكرات لأجل جميع الناس . لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب لكي تنفي حياة مطمئة هادئة في كل تقوى ووفاء) (اتي ٢ : ١ - ٢) .

ولما كانت مصر بلدا زراعيا فقد اهتمت الكنيسة المصرية بنوع خاص بالصلاة من أجل الزراعة وما يؤثر فيها من طقس وماء . ونظمت هذه الصلوات لتنشى مع الفصول الزراعية :

(أ) غنى فصل البذار (من ١٠ بابة الى ١٠ طوبة — أي من ٢٠ أكتوبر الى ١٨ يناير) تصلي قائلة (تفضل يا رب الزروع وليات العقل في هذه السنة باركها) .

(ب) وفي شهور الأهوية والعصاة (من ١٩ طوبة الى ١١ برولة — أي من ١٩ يناير الى ١٨ يولية) تصلي قائلة (تفضل يا رب أهوية السماء وشيرات الأرض في هذه السنة باركها) .

(ج) وفي شهور خيفان النيل (من ١٢ برولة الى ٩ بابة — أي من ١٩ يولية الى ١٩ أكتوبر) تصلي قائلة (تفضل يا رب مياه النهر في هذه السنة باركها — أصمحتها كدفادها ، كصنعتك فرح وجه الأرض ليرد حرمها ، لتكثر أنمارها . أعددها للزروع والعصاة ، ودير حياتنا كما يليق . بارك أكليل يده) السنة بصلاحك ، من أجل تفسيره شعبك ، من أجل الأرملة واليتيم والتريب

التجارة والاقتصاد أيضا . فتخلق محلات
ذبح للصوم . ويوجه النشاط التجاري
نحو البقول والزيت وما شاكلها من سلع .
وإذا تمتع الأهراس والولائم ، يسود المجتمع
جو من التخنخع والعبادة .

وأهم وأقدم أصصوم القبط هما يوما
الأرمناء (لذكري الشاور للقبض على
الطنبخ) والصمة (لذكري صلبه) من كل
أسبوع . والصوم الأربعيني لذكري الأربعين
يوما وهي التي صامها المسيح ، ويسمى
أيضا « الصوم الكبير » ، وقد بلغت مدته
في وقتنا الحاضر ٥٥ يوما . والأسبوع الأخير
منه يسمى « أسبوع الآلام » . ولهذا
الأسبوع قدس عظيم لدى الشعب لعظم
الذكري التي حصلها . فكانت تشمل فيه
الأعمال ليتبرغ الجميع للصلاة في الكنيسة
حيث يتلى معظم الكتاب المقدس ولصلاواته
لحين حزين . ويطلق الأقباط على كل يوم من
أيام هذا الأسبوع اسما يناسب ذكرى خاصه .
منها « رضاء أيوب » الذي اعتاد الناس أن
يخشعوا فيه بالمشب المسى « مخرج أيوب »
لذكري شفاه أيوب النبي به . ولجس العهد
لذكري غسل المسيح أرجل العواريين ليطهروهم
التواضع ، وفيه أيضا بدء معهم عهدا جديدا .
وبانتشار الرهبنة وكثرة الزهد أخذت
الشعب بالرهبان في حفظ أصوام أخرى :
كصوم الميلاد استعدادا لاستقبال شري
الميلاد وشريعة العهد الجديد ، ويبدأ يوم ١٦

والضيقة ، ومن أجلنا نحن الذين فرجوك
ونقلب اسلك الصلوس . لأن أمين الكلك
تطلع اليك ، لأنك أنت الذي تمطعم ضامهم
في وقته . أصصنع معنا بصب صلاحك ،
يا معطي طعاما لكل جسد ، املا قلوبنا فرحا
ورحمة لكي نكون لنا الكفلق في كل شيء ،
وتزداد لك كل حين صلا صلحا) .

الأصصوم

القبض حسب يميل إلى الصلوس والزهد ،
لقد اشتهر بكثرة أصصومه . إذ يرى الصوم
وسيلة لتدريب الآرافة وطبط النفس لكبح
الصلصومات ، والتقليل من قبة الرغبات المادية
حتى لا تضطهد على الميول الروحية للنفس .
فالصوم يسهر التسامى بها إلى مستوى
روحي رفيع .

ويصوم القبط بالامتناع عن تناول الطعام
مدة من النهار قد تصل إلى الظفر أو العصر
أو الغروب حسب مقدرة كل شخص . تناول
بعضها الصائم أطعمة خالية من اللحم لحم
حيوانية .

وتغنى روح المبادء على القبط في فترات
انصوم ، فيكتفون من الصدقات . وتائر
حياة العائلة كلها ، إذ تخفر أصاليب حياتهم
الروبية ، فتعزى العائلة استعدادات خاصة
لاستقبال الصوم . وحتى الأطفال يشعرون
أن للبيت جوا جديدا بعيد ارتباطا خاصا
بالدين . وعندما كانت مصر كلها مسيحية ،
كانت آكار الصوم تنعكس على الجباسة

حاور (٢٥ نوفمبر) وينتهي بعيد الميلاد يوم ٢٩ كيهك (٧ يناير) ، وتبلغ مدته الآن ٤٣ يوما . وخلال صوم الميلاد يحتفل الشعب بليالي كيهك فيجتصون في الكنيسة ، ويرتلون المديح والاسمايح ابتهاجا بذكرى الميلاد . وفي ليالي الأحد من شهر كيهك يسهرون الى الصباح في ترحيب هذه الشبايح . وفي هذه الليالي كانت بعض العائلات تستضيف القادمين من أماكن بعيدة فتقدم لهم العشاء في الهيئة المنقطة بالكنيسة .

وأيضا صوم الرسل ، ويبدأ الانجيلي التالي لعيد العنصرة وتتراوح مدته بين ١٢ و ٤٩ يوما إذ ينتهي بعيد الرسل في ١٣ يوليو ، وكذلك صوم العذراء ، ويبدأ في ٧ أغسطس ومدته ١٥ يوما ، وصارت له شهرة شعبية خاصة . وفي أواخر القرن الطاهر بدأ الأقباط يصومون صوم لبونى ومدته ثلاثة أيام لذكرى لجاة هيل نبوى (مدينة قديسة بالقرب من الموصل الحالية بالعراق) عن طريق الصوم .

الأيام

ينتهي كل صوم من الأصوام القبطية بسبت يحتفل به الأقباط بإقامة القداس في صباح يوم العيد ثم يفترون بتناول المأكولات الدسمة واللحوم والحلوى ، بعد أن يكونوا قد وزعوا منها على الجيران والفقراء . وبعد ذلك يتبادلون أتهاني معا في القاعة الملحقة

بالكنيسة أو بالتزاور في البيوت . أما في الثلاثة الأعياد الكبرى (الميلاد - الفطاس - القيامة) فيكون الاحتفال بالقداس مساء ليلة العيد ، وغالبا ينتهي بعد منتصف الليل فتكون له بعبوة ، وبالأخص في ليلة عيد القيامة حيث امتاد الشعب قديما أن يخرج من الكنيسة ممسكا بالنسوج المضاءة الى أن يصلوا الى بيوتهم .

وترتبط بعض الأعياد القبطية بسواسم زراعية خاصة فتدخل في تضاليد الاحتفال بالعيد أنواع مخصصة من ثمار الموسم ، فيأكلون منها ويوزعونها على الفقراء . ومن المبادئ التي كانت تنبئة في عيد الفطاس (ذكرى عماد المسيح) - ويقع في ١٩ يناير - الاستحمام في النهر أو الترح ، وكان يوجد في بحالي الكنائس القديمة حوض كبير يسمى المنظر في الجبال الأيمن من الجهة الغربية للكنيسة (وما زال موجودا لمسير مستعمل في كنائس أبو سبئين وأبو سرجة في مصر القديسة) . كان يلا بالماء وينزل فيه الشعب ليلة عيد الفطاس .

ومن الأعياد ذات الأثر الشعبي البسيط ، عيد « أحد الضمائر » أو « أحد السمك » . وهو الأحد السابق لأحد القيسامة . وفيه يحتفل الشعب بذكرى دخول المسيح الى اورشليم . أكبا على جحش ، ذلك الاستبان الاحتفالي الذي رفع الشعب فيه سقف النخيل وأصعان الزيتون . ويكرر الأقسام هذه الذكرى بحمل سقف النخيل وأصعان

الريشون الى الكنائس لم حضور قداس العيد .
وعادة تحية القادمين بالسيف . كانت معروفة
في مصر الفرعونية أيضا .

ومن اليوم التالي لعيد القيامة يبدأ عيد الربيع
الذي يسمى الآن « شم السيم » ، وغيبه
بفجر الشعب الى العقول والعدايل للفرح
بصالح الطبيعة بمدة فترة الصيام والنسك
المعولة السابقة . ويسمى كنيا « السيم
الشمع » . وكانت تستمر أجارة عيد القيامة
طوال الأسبوع الأول من الضمان .

وإذا ما جاء عيد المنصرة — وهو عيد
حلول الروح القدس في نهاية الضمان —
اعتاد القبط تخرج فواكه الموسم الجديدة
على الفقراء وذلك لأن يوم الخمسين هذا
كان يقابل قدينا عيد الحصاد فيكون تمسج
المسك بتقديم باكرات هذه الطيرات .

وبجانب هذه الأعياد الكبرى توجد أعياد
كثيرة أخرى ، من أهمها عيد زيارة المسيح
لأرض مصر مع العائلة المقدسة وهو طمس
صغير . وتحتفل به الكنيسة القبطية يوم أول
يونية من كل عام . وبالأخص في الكنائس
التي بنيت على الأماكن الأثرية التي زارها
مثل مسرد حيث البر ، وشجرة الصنوبر
بالمطرية ، وكنيسة أبو سرجة بصر القديمة ،
وقسقام حيث يوجد دير المعزق ، وبه
كنيسة أثرية لهذه المناسبة .

ويحتفل القبط بأعياد الصنوبر ومشاهير
القدسين والشهداء والملائكة بسبل نوع

خاص من الطير يوزعون على القسراء
والجيران . وترجع فكرة الطير الى عادة
تقديم باكرات محصول القمح كعلامة شكر
له . وقد كان من عادات القبط ألا يذوقوا
المحاصيل الجديدة ولا تفضل ثمارها بيوتهم
قبل أن يذوقوا منها على الفقراء .

المسائل

وكما اشتهر لديس أو شهيد في منطقة
أو مدينة ، يتوالد على كنيسة تلك المدينة
جوع كثيرة من الشعب للاحتفال بذكره .
وعندما يصل القادمون الى المنطقة بضممة
آلاف يضطرون الى إقامة الضياف حول
الكنيسة لييسوا فيها ، ويقضوا أيام العيد
التي تصل غالبا الى سبعة أيام .

وقد عرفت أعياد القديسين المودحة هذه
في مصر العربي قياسا باسم الموالد . وهو
اسم لا ينطبق على الواقع ، لأن الاحتفال غالبا
يتكون بذكرى استنجاه أو موت القديس ،
وهو اليوم الذي أتم فيه البطل جهاده ولا يتم
الكنيسة يوم الولادة فإنه يوم لا يفرق شيئا
من البطولة أو الاعجاز .

وبدأت مثل هذه الاحتفالات أصلا على
أساس تكريم القديس ربح الصلوات وإقامة
القدمات وقراءة سيرته بالتصليل للتنبيه
بقدرته الصالحة . ثم بتقدير النور من
شوع وبخور وأدوات تلمم للكنيسة الى
جانب تهر اندباج لاطعام الفقراء والمحتاجين .
ولكن تكررة العدد وما تحتاجه هذه الألف

أو يستخلص لفتنه شيئاً من المادة نظير
أنمايه . حتى الأشياء التي لا يمكن أن تعدت
للباعه في الأسواق الملمة تعدت لهم في
موالد الشهداء .

يا الفبياه ! اذا كنتم تذهبون لمواطن
الشهداء لتكولوا وتغربوا وتبعموا وتتعفوا كل
ما يروق لكم ، فأية فائدة ليبيوتكم التي لي
مدلكم أو قرآنكم ؟ يا لغوثكم المفلتة ! واذا
كانت بناتكم وأمهاتكم يملطن رءوسهن
ويكعلن عيونهن وينبطن لضداع الناس
الذين ينظرون ابنهن ، واذا كان أبناءكم
واخوتكم وأصدقائكم وجيرانكم يملطن
هكذا عند ذهابهم الى مواطن الشهداء قلمافا
جعلتم لكم بيوتا !

هناك كثيرون يذهبون الى الموالد للاسباد
هيكل الرب وليجعلوا من أعضاء المسيح
أعضاء للآثم والنجور بدلا من أن يحفظوا لها
قدستها ومهارفها من كل رجس سواء
كانوا رجالا أو نساء . دعسوى أقول لكم
بصراحة عامة ان كثيرين منكم يملسون
لانهم غفرا قائلين ليست لنا زرجة أو ليس
لنا زوج ، فلا تجمسولوا زيارتكم لموالد
الشهداء فرصة لتدمم أجسادكم في المسائر
التي حصولها أو المباي الترية منها أو لي
اركانها .

من أياكن للميت ، ومن مأكولات ونحسر
للذبايح وبيع لاحتياجات الزوار والتسوق
وخلافه اغرقت هذه الاحتفالات عن طبيعتها
الدينية البسيطة الى مظاهر مادية تعاربية
كانت سببا في تسرب كثير من الشرور
للإجتماعية الى تلك الموالد ، مما لم نقره
الكنيسة ، لدرجة أن ألبانيا سنة (القرن
الطاس) التي عظمة لوبة قد ذهب بتلك
الشرور قاطلا ، جبل جدا أن يذهب الآلسان
الى مقر الضميد ليصلى ويقرأ ويغنى الزامير
ويطهر نفسه ويتناول من الأسرار المقدسة لي
مخافة المسيح ، أما من يذهب ليتكلم ويأكل
ويشرب ويظهر ، أو بالحرى يزني ويرتكب
الجرائم نتيجة للإفراط في الشراب والجنى
والفساد والآثم ، فهذا هو الكافر بعينه ،
وبينما البعض في الداخل يرتلون للزامير
ويقرؤون ويتناولون الأسرار المقدسة أف
بآخرين في الخارج يملأون المكان بالآلات
الطبل والزمر - يتنى بيت صلاة يضي وأثم
جعلتموه سفارة لصوص فقد جعلتموه
سوقا لبيع العمل والبطى وما أشبه . تسد
جعلتم الموالد فرصة لتدريب بهائمكم ولسباق
حبركم وخيلكم ، جعلتموها أماكن لسرقه
ما يمرض فيها لبيع ، فباع الحصل بالكاد
بمحصل على قليل من الزبائن المتساحن ،

(د) التقويم القبطي

كل عام ، أنهم أقاموا تخمين فصولهم على هذه الظاهرة الطبيعية التي تأتيهم كل عام ، أي حدوث الفيضان .

لم تعتمد السنة المصرية في حسابها على علم الفلك بل وصل إليها المصري على أساس ظهور النبطان عاما بعد عام ، هي سنة نيلية ، تمتد على طبيعة الفيضان وقبته لدى الشعب الذي تصل حياته به اتصالا وثيقا . ولم يكن من المسم لديهم أن يأتي الفيضان له نفس اليوم من كل عام . بل يكتفيهم أن يعرفوا أن فيضان النيل لهم يأتيهم في نفس الوقت تقريبا .

وليس في الإسكان أن بعده حتى استطاع المصري أن يقيم « حساب السنة المدنية » على هذا الوجه ولكن من المرجح أنه لنا في فترة من فترات عصور ما قبل التاريخ وربما كان ذلك في أثناء عصر حضارة قادة النوبة ، وقد جعلوا يوم بدء فيضان النيل بمثابة أوله أيام العام الجديد .

وحين مضى على هذا التقويم عدة قرون لاحظ المصريون أن أول أيام العام الجديد أخذ يتأخر عن يوم بدء الفيضان بصفة ، كما لاحظوا أن أشهر « بذر الحبوب » التي كانت تقع في الشتاء أخذت تتجمع في فصل الصيف . وقد لنا هذا العيب من أن السنة المدنية تنقص عن السنة الشمسية بربع يوم تقريبا ووجد المصريون أن هذا الخطأ صحيح من

وضع التقويم القبطي على أساس التقويم المصري القديم . أدرك المصريون التساهة ضرورة استخدام سنة مدية تحتوي على عدد صحيح من الأيام وتكون أقرب ما يكون إلى السنة الشمسية ، وتكونت السنة المصرية من اثني عشر شهرا يتقسم كل منها إلى ثلاثين يوما ، ثم زاحوا عليها خمسة أيام في آخر السنة اعتبروها بمثابة الأيام التي ولدت فيها الطيور في الفضة التي تتكون منها مجموعة أوزيريس وهي : أوزيريس ، وايزيس ، وست ، وفنيس ، وحوريس ، وجعلوا منها مناسبات لاحتفالات دينية خاصة .

أما النجوم الاثنا عشر فقد وزعت على ثلاثة فصول خص كل فصل منها أربعة عشر شهرا . وسوا الفصل الأول فصل « البهتان » والثاني « بذر الحبوب » والثالث « جنى المحصول » .

واعتبر المصريون اليوم الأول من كل عام هو اليوم الذي ظهر فيه بشائر الفيضان وأشهره من يولية إلى أكتوبر . أما أشهر فصل « بذر الحبوب » فهي من نوفمبر إلى فبراير وهي أشهر الشتاء ، وأشهر فصل « جنى المحصول » من مارس إلى يونية وتتفق مع فصل الربيع حاليا .

وبدل على مدى اهتمام المصريين بفيضان النيل الذي يبب أرضهم الخصوبة ويجدها

ورد ذكرها في التون الدينية القديمة على أنها « الجالبة للنيسل » أي التي تحدث غيظانه ، وقد سوا هذا النجم على أنه صورة من صور إبليس ، وهذا النجم هو الذي نسيه الآن « الشعري البمانية » ،

ولقد أثبتت الدراسات الفلكية الجالبة أن دورة « الشعري البمانية » تعادل تقريبا دورة الشمس في عام .

هذا ولم يكن لشهور أسماء عند قدماء المصريين في أول الأمر . وكانت تسب للتصوّل التي تقع فيها فيقال مثلا الشهر الثالث من فصل الفيضان أو الشهر الثالث من فصل « بذر الحبوب » وهكذا .

وبعد الأسرة السادسة والمصريين أي منذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد تقريبا ، أطلق المصريون على الشهور أسماء تعبر عن الأعياد التي امتازوا اقامتها ، والأسماء كما وسفنا هي :

Thot	ثوت	١
Paophi	بأؤف	٢
Hathor or Athys	أثور أو حاتحور	٣
Khoulak	كحولاك	٤
Tybo	طيبو	١
Mekhar	مخير	٢
Pharmenthoth	فمنثوث	٣
Pharmenthi	فمنثي	٤
Pakhons	بخنونس	١
Payni	بيني	٢
Epiphi	إيفي	٣
Mesori	مسوري	٤

نفسه بعد مضي ١٤٦٥ سنة شمسية من الحساب بالتقويم ، ففي هذه المدة تجمع الفرق وهو ربع يوم في كل سنة فأصبح ٣٦٥ يوما أي سنة كاملة بعد ١٤٦٥ سنة . وهذا عاد التوافق بين السنة المدنية والسنة الشمسية .

ولاحظ المصريون أن سنتهم النبيلة التي تبدأ من اليوم انتهى يأخذ به النيسل في الارتفاع وتنشئ بنفس اليوم من الصيام الثاني ، تتلق بشكل واضح مع الدورة السنوية لنجم لايت حين يبدو بوضوح بعد اختفاء طويل ، وذلك مع بدء مجيء الفيضان مره كل عام ، كما لاحظوا أن ظهوره يكون في الفجر المسكر قبيل شروق الشمس ، ويكون أنهر والمج نجم في السماء ، وفي دوران الأرض حول الشمس تأتي لحظة كل سنة يكون فيها هذا النجم في حضيض سنجم مع الأرض والشمس ، وقد أطلق المصريون عليه اسما ثقتا هو « سبت »

فصل الفيضان .

فصل بذر الحبوب :

فصل جني المحصول :

النسيء ، وكانت تسمى به الأيام الخمسة
 الزائدة على السنة أو الشهر الصغير ، وهي
 خمسة أيام ، وكل من الأشهر ثلاثون يوماً .
 ان المصري القديم هو أول من وضع
 تقويماً يرصد الحوادث بمقتضاه ، وهو أول
 من ألفه عمداً شسبياً من اثني عشر شهراً كل
 شهر منها ثلاثون يوماً وأضافوا التسعير
 الصغير (النسيء) وهو خمسة أيام لكل
 عام ، كما قسم العام الى فصول .

اليانية في بدء ظهور الأسرة الثانية عشرة ،
 كما سجلت بريدية أخرى (اللاهون) هـند
 الظاهرة في عصر الدولة الوسطى . ويؤكد
 انوار ماير ه أن أول الفترة التي تبدأ
 بمس ٢٧٨٦ ق . م كان التوقيت الشمسي
 معروفًا ومستعملًا فيها ه خلافاً إذن أن يقع
 بدء استعماله في أول الفترة السابقة أي سنة
 ٤٢٤٦ ق . م .



سببه التقويم للمصريين :

لا يزال هذا التقويم منذ عصور ممثلة في
 القدم دليلاً نافعاً وديققاً للعنقس وللفصول
 وللزراعة وللنسل في قبضاته وتجاربه ه
 ولا يزال المزارعون يراعونه في كل ما يخص
 البذر والعصاد كما كان يفعل المصري القديم
 منذ آلاف السنين . ولا زالت تجمري عملي
 أسنتنا الأمثال التي تدل على حالة الطقس
 تقول : باه : ادخل والمثل الهوابه ه كهاك :
 صباحك مساك ه طوية : أبو البرد والرطوبة ه
 أمشير : أبو الهراء والرعاعير ه برمات : الخلع
 الفيض وهات .. الخ .

والتقويم الزراعي في مصر لا يزال يتبع
 التقويم المصري القديم ه وايت مثال ذلك :
 شهر توت ه

يزرع فيه البرسيم والحبث والكرنب
 فتلا والتسمير الشتوي والعول ه وتظهر الحفرة
 الضامى ه وينضج البصل البعلى ه ويتوافر
 القليبون ه وينضج الزيتون ويكثر السفرجل
 والفتحاح .

واحتفل المصريون بيوم ه طلوع الشعري
 اليانية ه وجعلوا منه عيد أول السنة الى
 جانب احتفالهم بالمادى بفره العام انشمس
 (٣٦٥ يوماً) ه وأطلقوا على هذا العيد اسم
 ه طلوع سيدت ه . ولاحظ المصريون أن عيد
 ه طلوع سيدت ه يتأخر عن عيد فره العام
 الشمسي بمعدل يوم كل أربعة أعوام ه كما
 لاحظوا اتعاد المديين مرة كل ١٤٦٠ سنة ه
 وهي دورة ه الشعري اليانية ه .

وذكر الكاتب الروماني كنتورينوس
 Cosoninus أن الشروق الاحترافي للشعري
 اليانية حدث في أول نوت من سنة ١٣٩
 بعد الميلاد . وعلى هذا أمكن تعدده حدوث
 ظاهرة الشروق الاحترافي للشعري اليانية
 في سنة ١٣٢٦ قبل الميلاد وسنة ٢٧٨٦ ق . م
 وسنة ٤٢٤٦ ق . م وهكذا عرف المصريون
 في عصر الدولة القديمة تتبع العام الى
 ٣٦٥ يوماً وسجلت النصوص (بريدية
 ابرس) ظاهرة الشروق الاحترافي للشعري

شهر بايه :

بدء الزراعة الشتوية : يزرع فيه الارز
والكتان والبصل واللوب (بالوجه القبلى)
والقمح والبسلة والفاصوليا والكمون
والشعير ، ويجنى القطن ، ويظهر البطيخ
والفصاح التيلى والقرع والقهنيط ، ويحصده
البول السودانى ، كما تكثر فيه الاسماك
الصغيرة (البسارية) .

شهر هاتور :

ينتهي فيه جنى القطن ، وينضج الارز
النيلى ، وتنطق الذرة الصامى ، ويظهر فيه
البرقال واليوسفى . يزرع المدس والقرع
والكوسة والطماطم .

شهر مجاهد :

يزرع فيه المشمش والبرقوق والقمح
شئلا ، والقاقا الصيغى والخبيزة والخطراوات
الصينية ، ويظهر الفول الأخضر ، ويقطع
قصب السكر للمصر ، ويكثر القمامى .

شهر طوية :

تنقل فيه الأشجار الصنوية ، وتعلم كروم
الحنب ، وتزرع الذرة الصببية والجبوز ونوى
الخوخ .

شهر امشير :

يزرع فيه القطن المبكر (بالوجه القبلى)
والذرة المودجة وقصب السكر ، وتؤرس
الأشجار ، ويقطع النخل ، ويحصده الكمون ،
ويؤرس شجر التنين والتمساح والبرقوق
والمشمش ، ويظهر الخيار .

شهر برميهات :

يؤرق فيه شجر التوت ، ويقص دود
القر ، وتنضج البسلة البيدى ، وابتداء زراعة
التنن الهندى ، ويقطع فيه الكتان ، وتظهر
الملوخية ، ويؤرع الكمون والخرفوات .

شهر برمودة :

يحصده فيه الفول والمدس والقرس
والقمح فى بعض جهات بالوجه القبلى .
ويؤرع فيه الفول السودانى ، ويقطع اوائل
المسل ، ويجنى الورد لاستخراج ماله ،
ويظهر البطيخ الصمى والتوت ، ويقطع
البطاطس الشتوية ، ويؤرع فيه الارز والفلفل
شئلا .

شهر بشنبي :

يظهر فيه المشمش والبرقوق والتفاح ،
ويحصده البصل بالوجه البحرى ، ويؤرع فيه
السم والقلقاس .

شهر بؤونة :

يؤرع فيه الارز والذرة الصامى ، ويقطع
فصل النخل ، ويظهر الفاصوليا والقرع
والكوسة ، ويظهر المنب والخسوخ
والكمثرى .

شهر امبي :

يؤرع فيه العجيرة والكرفس والسلق
والهيموسى والياذنجان الأسود والجوافه
والتوت والعرفشوف والبسامة والملوخية ،
ويظهر الرمان .

حدد المصريون المسيحيون بدء تاريخهم بيوم ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤ ميلادية الذي استشهد فيه الكثير منهم ، وذلك بنفس التقويم الذي استخدم في مصر قبل ذلك التاريخ ، وتسمى هذه الحلقة من التقويم المصري بالثلوليم القبطي ويطلق عليه تقويم الشهداء . وهو يتبع الحساب اليولياني ، ولهذا نجد أن الخطأ المتراكم بين الحساب اليولياني والحساب الجريجوري قد بلغ ١٣ يوماً في التقويم القبطي .

المفروض المتكوييم القبطي ا

للتقويم القبطي فرضان : فرض يتبع الحساب الشمسي ، وهدله اخصساء الايام والنصول والاعوام النسبية الكامامة وتعديدها جميعاً بالنسبة لمورة الكرة الارضية حول الشمس ، والفرض الاخر يتبع الحساب القمري ، وهدله اخصساء الدورات القمرية وتعديدها موحد شهر كل خلال جديد .

وقد زلف اهتمام مصري بالحساب القمري بعد دخول السبعيلة مصر لان عيد القيامة وبعض الاعياد الاخرى التي تصل بعيد القيامة تحدد بالدورة القمرية وتصل بالدورة الشمسية .

ينضج فيه البلح ، ويزرع فيه بصل النرجس والثوم والبصل والطماطم واللفت المنلى ، ويكثر فيه العنب والتين ، ويجمع الزيتون الاخضر .

الدولة الرومانية والتقسويم المصري :

الذي يوليوس قيصر استخدام التقويم بانسة القصرية الذي كان شالما في الدولة الرومانية وأتقاً تقويماً شمسيا استمان فيه بالملكى المصرى سويجيبس Soteris الذي قمر سنة التقويم ٣٦٥ يوما وربما ، واستخدم طريقة السنة الكبيسة مسرة كل اربعة اعوام . وامر يوليوس قيصر باستخدام هذا التقويم رسميا في سنة ٧٠٨ من تأسيس روما وهي سنة ٤٦ ق . م . وسمى هذا التقويم باليولياني نسبة الى يوليوس قيصر . واستمر العمل بهذا التقويم حتى سنة ١٥٨٢ حين لاحظ الفلكيون في عهد بابا روميا جريجوريوس الثالث عشر خطأ في الحساب الشمسي وان الفرق بين السنة المموم بها والحساب الحقيقي ١١ دقيقة و ١٤ ثانية وهذا الفرق اليسير يعادل يوما في كل ١٢٨ عاما .

وسمح البابا جريجوريوس الخطأ المتراكم فاصبح يوم ٥ اكتوبر من سنة ١٥٨٢ م يوم ١٥ اكتوبر سنة ١٥٨٢ وهو التقويم المعروف بالجريجوري السائد الآن .

شمسية تعادل ٣٦٥ شهرا تقريبا كاملا بنهر
كسور .

واستخدم الأقباط هذه القاعدة منذ
القرن الثالث الميلادي ، وقد وضع قواعدها
المسول بما الى أن البطريرك الاسكندري
الابا ديمتريوس الكرام وهو البطريرك
الثاني حنتر وساعده في وضعها الملكى
المصرى بطلميوس . وبهذا يحدد عبد القيامة
(الذى يليه شم التسميم) ، بأنه الأحد
اتالى لتسمير الكامل الذى يلى الاعتدال
الريبيى حباشرة .

ولقد أخذ الفرييون حساب الأقباط
وطبقوه على التقويم الروماني اليولياني ،
فاختلفت الأعياد المسيحية عند جميع المسيحيين
كما كان يحددها التقويم القبطى حتى سنة
١٥٨٢ حين ضبط الفرييون تقويمهم بالتعديل
الجرىجورى .

الشهور القبطية |

والشهور القبطية كما تعرف الآن هي :

- ١ . توت (سبتمبر - أكتوبر) .
- ٢ . بابة (أكتوبر - نوفمبر) .
- ٣ . هاتور (نوفمبر - ديسمبر) .
- ٤ . كيهك (ديسمبر - يناير) .
- ٥ . طوية (يناير - فبراير) .
- ٦ . أمشير (فبراير - مارس) .
- ٧ . برمات (مارس - أبريل) .
- ٨ . برمودة (أبريل - مايو) .
- ٩ . بشنس (مايو - يونيو) .

حين خطرت فكرة تسجيل الحوادث
للانسان الأول أخذ يؤرخ بظهور التسمير
وبوجهه . ولما قدمت العلوم أخذ يبحث
في الاختلاف بين مدة دورة شمسية وبين أخرى ،
وكذلك في متوسط مدة الدورة الشمسية ،
والمدة الواقعة بين لحظة ظهور هلال جديد
والهلال الجديد التالي يسمى شهرا قمريا .
وقد يتغير طول الشهر القمري حتى يصل
الفرق الى ٩ ساعات تقريبا . ولكن هناك
دورة كاملة لحركة التسمير في السماء بالنسبة
اليان تبلغ مدتها ١٨٠٦ سنة شمسية ، كما أن
هناك متوسط عاما لطول الشهر القمري في
الدورة الكاملة وهو ٢٩ يوما و ١٢ ساعة
و ٤٤ دقيقة وثلاث ثوان ، ويعتبر هذا
المتوسط دقيقا ، ويسكن التهر بنتضاء عن
الأهله الجديدة ووجه التسمير لمدة ألف سنة
شمسية مثلا دون أن يتجاوز الخطأ يوما
كاملا .

ومن هذا نشأت فكرة استخدام طول
متوسط الشهر القمري لحساب ظهور القمر
الجديد وأوجه ثنات من السنين ، ويسمى
ذلك بحساب الأبيتنطسى (ومعناه الحركة :
الهاكى) لأن هذا الحساب يمتثل على
استعمال الباقي بعد عمليات حسابية متعددة .
وقد بنى حساب التقويم القبطى القمري
على قاعدة وضعها الملكى «ميتون» في القرن
انخامس قبل الميلاد ، وهى أن كل ١٩ سنة

بؤونة (يونية - يولية) .

أيب (يولية - أغسطس) .

مصرى (أغسطس - سبتمبر) .

النمن (سبتمبر) .

التقويم الأثيوبي :

ومما هو جدير بالذكر أنه التقويم

الأثيوبي هو نفس التقويم البطلي . فلقد أخذ

الأثيوبيون تقويمهم عن الأقباط ، وتبدأ

سنتهم بيده السمنة القبطية ، وتتوافق

شهورهم مع الشهور القبطية .

ويسمى الأثيوبيون حساب سنتهم عام

الرحمة ، وهو التاريخ الذي كان سائدا في

مصر في القرن الحادي عشر ، ويسمى بالنسبة

الميلادية الشرقية أو السنة الميلادية القبطية ،

وهي تقس شتاي سنوات تقريبا عن التقويم

الميلادي الغربي .

(٥) الرهبنة

١ - أصلها في مصر

المصري بضمه يسلم إلى التدين ،

وتصو صفوه التديين منهم إلى حياة روحية

أسمى ، وأسمى سريرة ، وأكثر صباؤه بالله .

حياة تنوق إلى الكمال والر . ومن يصل به

العتين الروحي منهم إلى فرحة العيام بالله ،

يسعى إلى التخلص من أفتساع العاطلية

والاهتمامات المادية ليتفرغ للفتوة والتأمل .

استمال سحر مسحراه مصر محبي

الفضيلة والكمال اليها : سألها الصابية

المليئة بالنجوم تنطق بيا ورامها من فرقة صبعة

مترفة ، ولطالها الساسمخ يمس ، لمصر

العوية الطيبة ، وسكونها الضائل يسامد

الانسان على تركيز أفكاره ومساعره

ووجدانه في الله وأن يخلو اليه ويخشع أمامه .

وهكذا اندمع المصريون الميحيون إلى

البرية لفتالبة الشر والفتولة بالله وكانوا

يعتقدون من ذلك إلى أن تسو أرواحهم

وتترهف للفوسم فيستطيعوا التحكم في

البدن وأهوائه ، والتحرر من مفزبات العالم

التي قد تسجوى الاضال بعيدا عن خالقه

وتطس القبس الألهى الكائن داخله .

ورغم ظهور بعض الحركات التصوفية

قبل المسيحية كجماعات فطراء الهنود

والأحسينيين اليهود ، إلا أن الرهبنة المصرية

كانت أمتاعا مسيحيا أصيلا غير متأثر بنك

الحركات النكية السابقة عليها إلا خلائفها عنانها

الهدف والفلسفة والأسلوب . كما أن الرهبان

الأول الذين أسروا همدا الطريق لم تكن

فردهم البهنية أو العلية صا بإمكانهم من

الأطلاع أو التسامع عن هذه الحركات منى

يقلموها . بل خرجوا إلى الصطارى بدافع

من المروحية والزهد كما توحى صا الديانة

المسيحية . ويظهر ذلك بوضوح من حياة

القديس أنطونيوس .

ومع انتشار المسيحية في مصر بدأت
مطهر النيك تشر وريده رويدا . نفسه
سمع عن شخص يدعى فروتونوس (١٣٨
— ١٦١ م) رحل الى بيرة نيريا (وادي
النظرون) وفي صحبته سبعون مسيحا
ليعيشوا حياة الرهبنة والرحمة .

وأهل الطل إذ الأشنة المجهولة لهؤلاء
النك الأول أكثر من المروفة فأصبحون
الرهبنة في مصر ببسة النور وأرضها القدم
من تاريخ القديس أنطونيوس . ولم تكن في
بدايتها علة أخذت بعد صيغة عامة منظمة .
واما أهدت ونسما انابت المعروف وصيغتها
العامة الواصة انطاز ابتداء من الأنا
أنطونيوس .

أطوار الرهبنة

مرت الرهبنة المصرية في أطوار مختلفة :

١ - التوحيد :

اذ كانت الرهبنة الأنطوية في مهادها
الأول تطوى على العلة الفردية التامة
المقرولة بالشفق الشديد . ولما أثر تسامح
أنطونيوس أخذ نظام العلة يتطور تطورا
بطيئا الى نوع متوسط من الرهبنة
الاجتماعية .

والقديس أنطونيوس (٢٥٠ - ٣٥٦ م)

هو القديس العظيم الذي يلقبونه « أب
جميع الرهبان » . ولد من أسرة غنية في
الصعيد . ولما توفي والده تاركاً له ثروة

كبيرة تأثر بنا جاز في الاصيل ، اذا أردت أن
تكون كاملا فاذهب بع كل مالك واعطه
للغفراء وتعال فابتنى « . فغذ الآبة حرقا
وزرع ثروته وتوحد في الصحراء وسكن
تولا في مقبرة قديمة ثم توغل داخل الغفر .
وماتي حوالي عشرين سنة لا يرى وجه
انسان وهو في نك رسوم وصلاة وتأمل .
ولما اشهر أمره واجتمع حوله كثيرون يطلبون
منه أن يرشدهم الى العبسة مثله ، خرج
اليهم وأرشدهم الى حياة الوحدة . وكان
تلاميذه لا يعلمون في ثيرة بل في مفارث
منفردة في الجبل . وعد تلمذ عليه القديس
ابلازي مؤسس الرهبنة في فلسطين ،
والقديسان آمود ومقاريوس مؤسسا الرهبنة
في وادي الطرون ، والقديس بينوده أب
أديرة القيسوم . كما تلمذ عليه البطريك
اناسيوس وكثير من مؤسس الرهبنة .

ومنحه انه مواهب كثيرة منها شفاء
المرض . وسمح به العلابسة فأنوا اليه
يحاورونه لهدوا مدى علمه فاذهلتهم حكمته
على الرغم من أنه كاذ في عسرف الكبرياء
الرومانية أيا لصيدم دراسته اليسوانية
واللايتية .

ولما حل بالكثيعة اضطهاد مكسيميانوس
زل أنطونيوس الى الاسكندرية ليخدم
المستعدين ويقومهم فشتويا هو نفسه إذ
يستشهد . كما زل ابان هرطقة أريوس
يحذر الناس منها ، وكان لظهور هذا الشيخ

الناسك الموحدة. أزه الكبير في أيسس
البطريرك أناسيوس .

وقد أرسل إليه الامبراطور قسطنطين
وأولاده رسائل يطلبون فيها يركنه فلم يرد
عليهم الا بعد الحاح رهبانه الذين قال لهم
« لا تمنحوا ان كتب الينا امبراطور مصو
انسان . ولكن الأجدب من ذلك ان الله كتب
الخرصة للالسان » .

٢ - الرهبنة الانجنيحية

أخذ الرهبان المتوحشون في ركيز
صنوفهم حول الشخصيات الكبرى من الآباء
الروحيين لتتأخذوا على أب روعي اشتهر
بالتقادة والضم مع احتفاظ كل منهم بحياته
التسويد في مغالته أو قلايته المنسولة عن
جانه ، ولكن قلايتهم كانت فرية بعض الغرب
من بعضها ونقوم حول قلاية الأب الروحي .
لذلك يسمى هذا النظام أيضا بنظام القلاي .
وهو مرحلة متوسطة بين الرهبنة الأنطونية
والرهبنة القبرية . وقاد هذا النظام القديس
مقاريوس الكبير ، وكان مركزه بوية شبيت .
أي وادي الشقوق بالصحراء الغربية .

والقديس مقاريوس بن حنجر مؤسس
الرهبنة في وادي الشقوق في صحراء مصر
الغربية . وقد بناه ٤٠٠ م من أبوين مصريين
في إحدى قرى مديرية المنوفية . وكان أبوه
كاهنا . وقد رسم هو أيضا قسا ولكنه تم
بشأ أن يتخذ هذه الرتبة لجه في حياة
الوحدة . فبعد وفاة والده وزع أمواله على

الفقراء وذهب الى وادي الشقوق سنة
٤٣٠ م حيث توحد هناك . ثم زار الأبيسا
انطونيوس في الجبل الشرقى فإلحسه انزى
الرهباني وزوجه بتصانعه ورجع الى وادي
الشقوق حيث تفرغ للمبادة والتأمل . ولم
يكن هناك غيره في كل تلك البوية . وقد عاش
الأب مقاريوس مئتين سنة في الرهبنة وتجمع
حوله تلاميذ كثيرون فبنى لهم كنيستين في
الموضع العالي لديرى البرموس وأبسا
مقاريوس وادي الشقوق . ومن أشهر
تلاميذه رمانيدس والامبران مكسيموس
ودومايوس .

والمدسة الرهبانية التي ترعها مقاريوس
هى نظام متوسط بين الوسط المطلقة التي
تظهر في رهبنة أنطونيوس ، والحياة المشتركة
التي تتلها رهبنة باخوميوس . فكان الرهبان
يعيشون في خلايا منفردة متباعدة ولكنهم
يجتمعون مرة في كل سبت ليشركوا معا في
اصلاة وتناول الأسرار المقدسة . ولم تكن
أهم أسوار ولا حصون . ولكن هذا النظام
تمرح فيها بعد حتى شابه النظام الباخومى .
أما من لت من اتباع هذا النظام على حب
الوحدة فالحق الفصلوا سفردين في سارنت
سفرولا في الجبال . وفي سنة ٣٩٠ توفى الأب
مقاريوس بعد أن عمر وادي الشقوق بألفه
الرهبان . وانقسم هذه البوية الى أقسام
مشهوره هى غربا والأستيط والقلاي ،
وأصبحت البوية كلها معمورة معروفة .

واللدة (١) من النهار للبهندين . ودروسا
أخرى عامة يقفها رؤساء الأديرة يومي
الأربعاء والجمعة في تصحيح الكتب المقدسة .
وكان حضورها اجباريا .

وكانت الأديرة الباخومية مثلا أعلى في
النظام والحياة الرأبنة والسلام في وسط
عالم منهار ملاء الفزع والفوضى ، وتسلطه
القسوط والمار . لذلك كان من الطبيعي أن
يرجع إليها الناس بالئات والآلاف في عصر
ساقته الروح الدينية .

والأب باخوميوس . ولد حوالي سنة
٢٩٥ م في إحدى قرى الصعيد من أبري
وتبين . والتحق في شباه ببش فسططن
في حرية لمكسيانوس . وحدث أن عسكريت
فرقه في ضواحي أينا فخرج أهالي البلدة
من المسيحيين يصلون بهم الضام والقراب .
فذهب باخوميوس وتساءل عما حدا بهؤلاء
الناس الى ابداء هذا العطف فقبل له أنهم
مسيحيون يتقنون عمالهم ذبهم . فقال في
نفسه « ان كانت هذه هي المسيحية فاني
- ان كنت سالما - سأصير مسيحا » .
ولما اتمرت قسطنطين وسرح الجيش عكف
باخوميوس على دراسة المعمية واعتمها .

ثم شاعذ على راهب شيخ يدعى بلانوس ،
وازداد في النسك والمعرفة حتى سار أبا

ووضع القديس باخوميوس (٢٩٥ -
٣٤٨ م) مجموعة قوانين يعين يتقنهاها
الرهبان في دير واحد هو عبارة عن كنيسة
أو كنائس الدير يحيط بها خلالي الرهبان
داخل سور واحد .

وتقوم الرهبنة على ثلاث دعائم : الفقر
الاختياري - العفة والتبشيل - الطاعة
للمرشد الروحي . وهي مقسومات انكار
الشهوات الدنيوية والملاذبات والتفرغ للحياة
الروحية .

وكان يشترط على من يريد الانضمام الى
الدير أن يقضى ثلاث سنوات تحت الاختبار ،
وكان الضمام يقدم للرهبان في قاعة المائدة
مرتين في كل يوم (في الظهر وفي المساء)
وكانوا يستمون أثناء الأكل لأحد الاخوة
يقرأ فصلا من الكتب المقدسة . وكانت
الأعمال اليدوية في المؤسسات الباخومية
اجبارية لنواذها الروحية التي تشغل الراهب
عن الشره في الفكر لا توافقه . كما انها
وسيلة لكسب القوت الضروري لكن
لا يتكون الراهب عالة على المجتمع ، وكان كل
راهب يعمل في الحنة التي يتقنها بجانب من
تخصصوا في كتماية الكتب وتصحيح
المخطوطات .

وكان النظام الباخومي يشتم بالعلم ،
ولهذا نظم باخوم للرهبان ثلاثة دروس
يومية عند الساعة الأولى والثالثة

(١) حسب التوقيت الشرقي و اي الساعات
السادسة والتاسعة صباحا والثانية عشرة ظهرا
بوتوقيتنا العال) .

من سوحاج وأخيم . أدخل الأبا شنودة
تدبيلات عملى نظام الشركة الباخوميى
تصفيح بالخدمة والنظام .

شبا الأبا شنودة فى الصعيد من أسرة
غنية . وكان فى صغره يخرج مع رعاة غنم
أبيه فيعطيم طعامه ويقضى اليوم كله صائما ،
كما كان يفرح أثناء رجوعه عن الرعاة ويقف
للصلاة . ولما تنبه والده الى ذلك دفع به الى
خاله «يجول» الذى كان رابسا للدير الأبيض
من سنة ٣٥٠ م لمسه راهبا . وظل شنودة
الصبى يرفع فى درجات العبادة ، ويكثر من
الدراسة والتأمل ، ويتدرب على الوحشة
والعلاقة والتواضع حتى أحب الراهبان جميعا .
وبعد وفاة خاله انتخبوه رئيسا للدير سنة
٣٨٣ م وداست رلاسته للدير ٩٦ عاما حتى
توفى سنة ٤٥١ م ، وقد قارب المائة والعشرين
من العمر .

وقد كثر عدد رهباله حتى صاروا حوالى
خسة آلاف ، وكان أيضا أبا لالقب ولماضاعة
راهبة . وقد كتب لهؤلاء الراهبات عددا
وغيرا من الرسائل تبيين منها تفكيره المسيحى
ولمعه فى الروحيات . ولهمم ينتقنه رهباله
حتى صاروا من أكثر الراهبان معرفة . ووطع
لهم قوانين وأنظمة أكثر شحمدة من قوانين
القديس باخوميوس .

ولكنه كان فى زعامته التسمية يختلف عن
باخوميوس فى أمرين : فبينما شتمت أديرة
باخوميوس أجتنا كثيرا لتتصر هو فى

لكثيرين وأسن ديره الأول فى طيبة واستخدم
فى تدبيره ما اعتاده من نظام العسكرية ومن
مناعة ونسك فى الرهبة . وكثر عدد المتضمنين
اتيه حتى لم يسمم الدير ، فأندسا أديرة
أخرى وصل عددها الى تسعة ، كما أنسا
ديرا للراهبات تحت رئاسة أخيه . وقد ذكر
« بلايوس » أنه رهبان باخوميوس بلغوا
ثلاثة آلاف فى حياته وأهم بلغوا سنة ٤٣٠ م
سبعة آلاف « وقدمهم » كاسيان « بضعة
آلاف راهب ، وكانت أديرته تضم سير
الأبساط رهبانا من اليونان والرومان
والأجاشى والريان . وكان كل هذا العدد
الضخم تحت إدارة حكمة حازمة ، وضع
لهم باخوميوس قوانين فى العبادة والعمل
اليومى والملبس والسكن والمأكل وما يلزمهم
فى معيشتهم الديرية . واشترط فى طالب
الرهبة أن لم يكن يعرف القراءة والكتابة
أن ينطعما قبل رهبته ليشكن من قراءة
الكتاب المقدس وكتب الآباء ، ووضع
للرهبان نظاما فى الدراسة . وهكذا لم تساعد
أديرته على مصو الأمية فحسب ، بل كانت
مساعدة لتثنية . وقد اشترت قوانين
باخوميوس أن أرجاء العالم . ويشتر هندا
التدبير مؤسس العميمة الديرية فى الرهبة
المسيحية كما يشتر أنطونجيوس مؤسس نظام
التوحد فيها .

٤ - نظام الأبا شنودة : (٣٣٣ -

٤٥١ م) بالديرين الأبيض والأحمر بالقرد .

أدبرته على الإقباط . وبذلك أصبحت أدبرته معاقف مصرية صميعة . وبينما كانت كنائس باخوميوس خاصة بالريهان فقط ، فتح هو كنيسة الدير الأبيض للشمس بأنون البه في الأحقاد والأعياد فيعلمهم ويرشدهم .. وكان لأنها شهوداً مجداً لبعثه يفاسمهم أتابهم كفلاحين يرزحون تحت لبر مصطلمهم من الرومان ، فهاجم ظلم كبار الحكام والملوك ودعا للرفق بالفقراء .

وقد كان نشاطه محصوراً في مجاورة الولاية والتلاع جذور حرافتها من الكنيسة مثل البحر والنعاويد والدجل الطيب وبدع الموالد . كما سافر مع القديس كيرلس إلى افسوس وانسترك معه في مجاورة هرطقة نسطور .

ويعتبر الأنا شاهدة أعظم كتاب الأدب العربي . لقد كانت بلاغته الكتابية ولصاحته الحطائية من أظهر مواضعه . وكانت كتاباته صلية صانعة للإسعمال المباشر ، وكان كثير الانتاح مالكا لنامية اللغة . وقد خلف لنا في جهاده الديني والقريني الطويل لراباً أدبياً ضخماً باللهجة الصعيدية التي لم يترك يكتب أو يخطب إلا بها .

وما أن وصلت الريحنة إلى هذه الأمطار والأنواع المتعددة حتى كانت الصحارى المصرية وبقاع كثيرة من الوجه القبلي على الأخص ، قد امتلأت بالأديرة وقلائي الناك . وامتثلت بالريهان والتوحدى حتى أنه قيل

إن المسافر من الاسكندرية إلى أمواز في القرن الخامس والسادس لم يكن في حاجة إلى أن يحمل زاداً للطريق ، إذ يستريح في ينزود باحتياجات الرحلة من الأديرة والقلائي المنتشرة بكثرة على أطراف وادي النيل وسجرواته الشرقية والغربية .

ومن أهم المنساطن التي ركزت فيها جبايات الريهان :

١ - منطقة بسير في الصعيد الأوسط .

٢ - منطقة جبل تريا أو وادي النطرون بالصحراء الغربية وكانت تنسب إلى ثلاثة مراكز دهالية :

(أ) تريا ،

(ب) الأسيوط .

(ج) القلائي .

٣ - منطقة مروح على الساحل

الشمالي غرب الاسكندرية ،

٤ - منطقة الجنديا وهي بالمغرب من بني سويف انجاية وكانت تعرف في العصر الروماني باسم أوكتيدروس .

٥ - منطقة التبنوي بالقرب من مغوى .

٦ - منطقة لسكوس بالقرب من اسيوط .

٧ - منطقة موهج وأغيبم

(بانوبوليس) بحيث أديرة الأنا شاهدة .

٨ - منطقة طيبة وهي منطقة واسعة في

مديرية قنا حيث انتشرت أديرة باخوميوس .

ولم يبق من هذا الصدد الضخم من الأديرة ، في وقتنا الحاضر سوى ثمانية أديرة

مدارس لولية (كاتيب) في قرى وادى النيل
لتعليم أبناء الإقطاع .

ان الجو الشعارى الذى يحيط بالأديرة ،
والمدوء الشامل الذى يمشى فيه الرهبان هيا
لهم فرس التأليف والكتابة وبخاصة في
العلوم اللاهوتية ، وتفسير الكتب المقدسة
الى جانب الخبرات التسيكية والروحية التى
تعتبر من اصق الدراسات المنصبة .

وكان بكل دير مدرسة لتسخ المخطوطات
بجانب جماعات الساع التى عملت على
نشر التراث الثقافى والدينى فى وقت لم تكن
الطباعة قد عرفت فيه .

ويجمل « هرنالك » آثار الرهبنة العلمية
فى عبادة واحدة قائلا « ان الفن والشعر
والعلوم قد وجدت فى الرهبنة ، فبهاى ،
حضارتنا تعتبر فصلا من تاريخ الرهبنة » .

٤ - الاجتماعية ١

كان للرهبنة آثار اجتماعية عميقة الثورة
فى نفوس الناس . تأثر بها المجتمع القبطى ،
فأدته موجة من الزهد والتقشف واتخذ
يشدى بالربان وينزل عنهم كدرا من مادتهم
وأصوامهم . ولما اشتهرت فضائل الرهبان
وداع صيبتها ، اختار الشعب قادته الروحانيين
من الرهبان ، وكانوا فى المصمور الأولى
بعملولهم قرا الى الملائك لتولى مناصب
الإسقفية والبطريركية . ومن ذلك الحين كثرت
الانطباعات الرهبانية فى حياة المجتمع القبطى .
ان النماذج الحية للقنلة والتعوى

قبطية مأهولة بالربان ، والتأقنى منها اشلال
متروكة يؤمها الشعب فى الأعياد لأقامة
القداسات ، منها أربعة فى وادى النطرون
وهى : أديرة البراموس - السريان - الإنسا
بيسوى - وأبو مغاز ، وفى جنوب صحراء
النيجو : دير الأبا صموئيل (القفولمى) ،
وفى جنوبه بالقرب من « روط : الدير
المعرقى ، أما فى الصحراء الغربية فوجود
دير الأبا لفلوولوس ودير الأبا يولا ،
ولليوران الأرموذكس ديسر سانت كثرين
بالغرب من الطور فى شبه جزيرة سيناء .

وبمدينة القاهرة توجد خمسة أديرة
للراهبات فى مصر القديمة ، وجارة زويلة ،
وحارة الروم .

الاد الرهبنة ١

١ - التربوية

حينما أدت الاضطرابات والاضطرابات
التتالية الى ضعف مدرسة الاسكندرية
اللاهوتية فى نهاية القرن السادس انتقلت
القسوى التربوية الى القبطى المعصرى من
الاسكندرية الى الصحراء . فصارت الأديرة
مركزا تربويا عظيما للعلوم الكنسية .

وقد اهتمت الأديرة بفارن كتوز العلوم
والمعرفة سواء منها الدينية أو المدنية . وهى
التي قامت التحركة التربوية فى مصر خلال
القرن الوسطى . فيجانب البحوث
والدراسات التى تركزت داخل الأديرة ، فقد
عهد أيضا الى عدد من الرهبان فى انشاء

نشأت الرهبنة في مصر قفاح غير الآباء
المصريين في أرجاء العالم ، حتى شمله غيرهم ،
واجتذب إلى مصر جميع الذين طردوا قلوبهم
صوت الله ، فجاءوا إلى هذا الموطن لبروتوا
من لبح تعاليمهم الصاخبة ولتبتدوا بسيرتهم
الصلوة .

فوجدت إلى الصحارى المصرية جماعات
من القبطيين والسريان والحبش والبربان
والأرمن واللاتين ، وسكان شمال أفريقيا
وغيرهم . وكان لكل أسرة معلم من جنسها
يقوى على التفاهم مع أبناء جنسه وارشادهم ،
وهذا التظام هو الذي ورثته الجماعات في
المصور الوسطى حيث انتشر في وحياتها نظام
الأسرة ، وأيضاً نظام الأروقة في الجامعة
الأزهرية .

وتشير تعاليم الآباء المصريين من أكبر
المفكرين التي جردت بها الفرائض المصرية على
العالم المتبدلين .

١ - في الشرق :

فمن فلسطين جاء القديس « ابلاري »
الكبير (هيلاريوس) فدرس الفلسفة في
مدرسة الاسكندرية ثم تلمذ للقديس
أنطونيوس . فلما رجع إلى فلسطين أسس
الأديرة على النمط المصري مستنسخاً بعض
الرهبان المصريين . وقد ابتداء في براري غزة
ومنها انتشرت الرهبنة إلى المنطقة المحيطة
بالأردن .

وانكار الذات التي تالفت في حياة أولئك
الرهبان المصريين كانت أعظم دليل على أن
الفضيلة ، ووصايا الدين ، أمور واقعية يمكن
الوصول إليها ، وليست مجرد مش عيب .
أو مبادئ نظرية يتخيلها الدين ، الأمر
الذي ينصر فدي الخبر في المجتمع علي قوي
الشرا ، فلا يبيلع أتباع الكثرين في موجات
الانحلال والمادية والالقاء . بل تشجع تلك
النماذج الصعبة على استمرار الجهاد في سبيل
الفضيلة تشبهاً بجزلاء المباد . ولعل هذا
ما حفظ للمجتمع المصري طامع الدين على
مر العصور .

لما ظهرت اجتماعيه أخرى : فالرشي
والرايون تحت آلام العجاة وأعمالها
يلتصون التزوية والمشاركة والطمأنينة من
ألس عمرت لقلبهم بالآيمان . وعمر السلام
للوهم . لذلك كان القسب يتبع إلى الرهبان
يلتص بهم تخفيف الآلام بمسبلواتهم
وتمزياتهم وارشادهم وهدوهم إلى كان
لها أكبر الأثر في تجديد أرجاء لمن تصدونهم .
كما كانت الأخيرة أشبه ببناء السلام في
أوقات الإكوبة والحروب والمجاعات ، إذ يجدد
اللاجئون إليها الأمن والدواء والطعام
وعلى ذلك قال « هنالك » المسطرخ
الإلماني .

« ان الساك المصريين كانوا يمتدرون في
جميع المصور - حتى في نظر الغرب -
آباء ، ونماذج العجاة المسيحية الحقيقية » .

وقى أواخر القرن الرابع جاءه ببلاد بوسه
وزار مصر للمرة الأولى من سنة ٣٨٨ الى
سنة ٣٩٩ حيث عاش مع رهبان برية شهيت
لدراسة الحياة النكسية ثم عاد الى بيت لحم
ثم الى أورشليم ورسم أسقفاً لهينوبوليس
سنة ٤٠٥ م .

ولما دجع من زيارته الثانية لمصر ، كتب
حوالي سنة ٤٢٥ م تاريخاً عما رآه وسمه
من رهبان الإسقيط اشهر باسمه « بستان
الرهبان » وكان هذا الكتاب ميباً لا تدار
الرهنه في جهات كثيرة من العالم .

ومن الذين أسسوا أدره الموصل وطور
هدين ولصين رهسماً تصريون بلغ
عدهم حوالي السبعين ذهبوا من مصر مع
راهب سرياني اسمه مار أيون (القديس
أوجين) كان قد عاش في الأديوه القبطية
بالصعيد .

واتشرت المسيحية في دفاع كتبه من
الضرائ على أيدي المبشرين المصريين ؛ فذهبوا
مصر بمعلمين من مدرسة الاسكندرية
اللاهوتية ثم واثت الكنيسة القبطية المناه
بها على أيدي الرهبان المصريين ، فكانوا هم
الذين تولوا تنظيم الكنائس والأديرة
ونوسحوا في شر المسيحية .

فقد نشرها المسيحية في ليبيا والخرس
ممن الغربية (بنتابوليس) ، ويذكر بوسابوس
المؤرخ اسم باسيليوس أحد أساقفتها في أيام
جورجيوس الاسكندري . وسمتج

« هرناك » من ذلك ومن وجود عمود من
الابريشيات فيها أنه الكنيسة هناك كانت في
حالة منطفة في منتصف القرن الثالث .

ويذكر أوسابيوس القيصرى بيشب
بنتينوس في الهند . ويظهر أن العلاقة بين
الكنيسة المصرية والهند قد امتدت طويلاً ،
لا يذكر كتاب تاريخ البطاركة مصرياً كاهن
هندي الى مصر في أيام البطريك سسطان
الأول في أواخر القرن السابع يطلب منه
سبحة أسقف للهند .

أما عن بلاد العرب فإن هرناك يستند الى
أوسابيوس في تأكيد زيارة أوديجانس للبلاد
العربية وقيامه بجمع في بصرى .

أما عن الحبشة . فقد دخلت اليها
المسيحية على يد فرومستوس في منتصف
القرن الرابع الميلادي . وهو مصري كان
ياجر في صور ويجوب البحار شمالاً وجنوباً ،
والاسم فرومستوس اللفظ قبلي معناه رجل
الده (افروس - أنت - تيوس) .

وقد اعتنق المسيحية أولاً ملك الحبشة
وتبته في ذلك رجال البلاد ثم أحسنت
المسيحية تنتشر بين أفراد الشعب . وكان
دخول المسيحية الحبشة على هذه الصورة
مغالماً لما عهدته في البلاد الأخرى حيث كانت
تجد طريقها الى الشعب أولاً ثم ينتهها رجال
البلاد فالملت .

ولما عاد فرومستوس الى مصر ، طلب من
الأنبا التاموس بطررك الاسكندرية أن

ومنذ القرن الرابع والكنيسة المصرية
رسل مطرانا قبطيا كرئيس للكنيسة
الأنثوية ، وكان له فيها مكانة متنازلة .
في السموهات :

ذكر المؤرخ يوحنا الأنسي انه في
القرن السادس كان البطريرك القبطي
ثيودوسيوس منبأ له القسطنطينية ، وفي هذه
الثناء أرسل يوليانوس الى النوبة لتبشيرها
بالمسيحية وذلك بمساعدة الامبراطورة
تيودورة التي كانت تلمن بذهب الكنيسة
المصرية على نيكس روجسا الامبراطور .
يوسثيانوس الذي كان شديد الاصطهاد لهذا
المذهب . فوصل يوليانوس الى النوبة حوالي
543 م وبشرها بالمسيحية فرفض به الملك
والمثقفه فمقدم وعلمهم الكثير عن المسيحية
وحدوهم من اطباء مذهب حزب الامبراطور ،
فلما وصلت بعثة الامبراطور بعد ذلك لم يقبل
ملك النوبة رسالتها ورفض بقاءها في النوبة ،
فماحت فاشقة .

وتوالى بعد ذلك البعثات التبشيرية
فانما من الكنيسة القبطية ، وكان اشهر
المبشرين الأنساط لوليجيوس الذي حاطر
بعده ، وسار في رحلة طويلة مع الجيصال
المحاذية للبحر الاحمر حتى وصل الى مملكة
علوة (عند ملتقى نهار العصرة والنيل
الأزرق والنيل الأبيض وعاصمتها سوبا قرب
الغردولم الحالية) فبشرها بالمسيحية فآمنت
بذهب الكنيسة القبطية ، وقد حصاد

يرسل استقفا لربايه المسحين في اثيوبيا ،
وبعد أن تشاور اثنايوس مع مجمع الاساقفة
الاقباط قرروا سبامة فرونتيوس نفسه
وترسلوه الى اكسوم عاصمة الحبشة في ذلك
الوقت .

وربما كان لقرارات مجمع خلقدونية سنة
451 التي رفضها القائلون بالطبعة الواحدة
أثر في هجرة كثير من الرهبان الى مصر حيث
وجدوا في أديرتها المزهرة ملجأ لهم ، ومهم
من أخذ في الانتقال الى النوبة ومنها الى
الحبشة ، تدفعهم غيرهم على نشر الدين
المسيحي بحسب مذهبهم ، بين انوار لم
ينطرق الجهد الديني اليهم ، ولقد حدا بهم
خوفهم من المذهب النسطوري الذي لم يكن
له أتباع في مصر أو الحبشة ، الى ترجمة
بعض الكتب في معارضة النسطورية مثل
كتاب كبرلس استمدادا للطروري .

وكان بين الرهبان الذين وفدوا الى
الحبشة واستقروا في أدكن متقدمة من
مقاطعة النجدي تسمحة عرفوا « بالقدسيين
القصه » هم رسل نشر المسيحية في الحبشة
الذين أسسوا الأديرة ونشروا العقيدة
مصر .
وفد أخذت الأديرة في الحبشة تزدهر في
القرن السادس والسابع ، وأشد الرهبان
ينفرغون الى دراسة الرهنة وتفهمها معتادين
في ذلك على ما يترجمونه من الكتب القبطية
أو اليونانية الشائعة عند الرهبان الاقباط
في مصر .

الإمبراطور أن يحرمهم إلى مذهبه بالقوة
عليهم يتبعوه .

و قد ظلت الكنيسة المشرقية ترسل سفارة
وكفمة إلى النوبة وعلوة وكذلك إلى مملكة
أخرى تتوسطها اسمها ماكرة احدثت في
القرن السابع مع النوبة ومسيارت مملكة
واحدة عاصمتها دقلقة القديمة .

واستمرت المسيحية في انوبة تابعة
لكنيسة مصر حتى نهاية حكم المليك .

ب - في القرب ا

والسبح اثر الآباء المصريين بلطرس
الكتاب الذي وضعه الثامبوس الرسولي
بطريرك الاسكندرية في القرن الرابع من سيرة
الأساقفة أطونوس . وكانت مسحة من هذه
السيرة سما في تجديد عسااف القديس
أولسلبوس إواخر القرن الرابع وأوائل
الخامس) أسقف مدينة هيو بدسما أفريقيقا ،
وهو بعد من أكبر فلاسفة الكنيسة الغربية .
ومن ناحية أخرى حمل اثناثوس التساليم
المناخوب إلى أوروبا الغربية في رحلته .

وجاء القديس باسيليوس الكبير (القرن
الرابع) - وهو يوناني - إلى مصر وعاش
عدة سنين في أديرة باخوميوس بالصعيد ونقل
نظامها واسترشد بقوانينه في الأديرة التي
أسسها بجبل آتوس في بلاد اليونان

وفي سنة ٤٤٥ م قام القديس جيروم
(هيرونيوس الإيطالي) بترجمة قوانين

باخوميوس إلى اللاتينية بقادر الرهبان
الإيطاليين إلى اتخاذها دستوراً لهم .

وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب كامبانوس
(الرهبان الفرنسي) تراجم الآباء المصريين
وتعاليمهم والتصوانين التي وضعوها وحاول
جهداً أن يطق هذه القوانين الرهبانية المصرية
على الديرين اللذين ألتاهما في جنوب
فرنسا (بالقرب من مرسيليا) ، ثم أن نظام
الديرية البندكتية (نسبة إلى القديس
بدكت مع المبارك) منببس من نظام وقوانين
باخوميوس ومن طريق البندكتية انتشرت
النظم الباخومية في أوروبا انتشاراً واسعاً .

كما اثر تعليم باخوميوس في حركة
الإصلاح الكلتوني ، تلك الحركة الكبرى التي
كان لها اثرها العالم في عوالمه القديسة في
العصور الوسطى . كما تنها الصاعبات
الرهبانية Templars - Templess في
القرنين الحادي عشر والثاني عشر . وبينما
في عهد لاحق جماعات الفرنسيسكان (نسبة
للقديس فرانسيس الأسيس) والادومينكان .
قلبس من المبت القول بأن تلك السلسلة من
أركانها لأخرها يمكن اقتفاء أصولها ومنابعها
في وهي باخوميوس المصري . وبالتالي لأن
المنفعة الأدبية الفكرية الأولى في القصورين
الثاني عشر والثالث عشر ، تلك المنفعة التي
تعتز بقيام الملوك الانسانية ونشأة الجامعات
في العصور الوسطى انما هي اثر من آثار تلك
المنهات الديرية التي يرجع تكوينها في الأصل
إلى عبقرية باخوميوس .

وقد وصل الرهبان والمبشرون الأقباط
 الى سواحل فرنسا الجنوبية ، والى بلجيكا
 حيث يصف « هرناك » كيف عمل الأقباط
 قنابوس وهو في منفاه في بلجيكا على نشر
 المسيحية وتأسيس كنيسة ناهضة هناك . وفي
 سويسرا في مدينة زيورخ اشهر شهاده اقبال
 ضمن الذين يعمروا المدينة كما اشهر في
 سويسرا القديس موريس (موريس) وأخته
 دارينا ، وهي التي وجهت اهتمام السويسريين
 الى العناية بنظافتهم ، وما زالت تصور هناك
 حاملة مغطا .

وفي ألمانيا استشهد سنة ٣٩٨ م حوالي
 ثلاثة آلاف من أبناء عصر العلياء من فرقة

مبية ، ولا تزال قبورهم معروفة في مدينة
 « تريير » Trier
 وفي جزيرة قبرص أسس الرهبان الأقباط
 على الجبال الشمالية بالقرب من قرية بلاغان
 ديرا أطلقوا عليه اسم دير القديس مقاريوس
 وكان للأقباط هناك لقب بستد اختصاصه
 على قبرص وزودس ، كما ذكر « برمنستر » في
 بحث نشره بجملة جمعية الآثار القبطية .
 وذكر جنر في مقدمه كتابه « عن الكنائس
 القبطية القديمة » ان المبشرين الأقباط وصلوا
 الى الجزر البريطانية وأنه يوجد الى يومنا
 هذا بيليه أوليفر ديورن بايرلندا قبور سبعة
 من الرهبان انصريين لا تزال تذكر أسماءهم
 في الصلاة مكنيسة تلك الجهة .

فهرس

اسماء الأباطرة وحكام مصر وبطاركة الإسكندرية

من عصر ديوقليدانيوس الى دخول العرب

الإباضرة	الحكم	بطاركة الإسكندرية
الإباطرة الرومان :		
ديوقليدانيوس (مقلدالوس) ١٨٤ - ٣٠٥	ماركوس أوريليوس ١٤ أكتوبر سنة ٢٨٤ مازورثيس ليل - اوس سنة ٢٩٦ فلافيوس فاليريوس ماكسيموس ٤٨٧ ممنالوس ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩ إيباطوس رومس ماكسيموس (ملك القسطنطينية) سنة ٢٩٨ أيلوس مايلوس ١٤ أغسطس سنة ٢٩٩ أنتونيوس كركالديوس ٢٤ أبريل - ٢٠٧ ٢٩ مايو - ٣٠٦	ثيرفاس (ثاولا) ١٩٢ - ٣٠١ بترس الأول (حامدالهدا) ٢١١ - ٣١٠
جاليريوس (جالاريوس) ٣١٥ - ٣١٦ - جاليريان (مكسيميانوس) ٣٠٤ - ٣١٣ إيباطوس (إيباطوس) ٢١٢ - ٢٢٣	أوريليوس ١٤ أغسطس - ٧١٤	أريبيان (أريبيان) ٣١٠ - ٣١١ مكسيموس الأول ٣١٢ - ٣٢٩
إباطرة العصر البيزنطي :		
<u>عصر قسطنطين</u>		
قسطنطين الأول ٣١٧ - ٣٣٧	مكسيميانوس ٨ يوليو سنة ٣٢٨ مكسيميانوس زاجلا ٦ أبريل - ٣٢٩ مكسيميانوس ١٦ أبريل سنة ٣٣٠ فلوريانوس ١٦ أبريل سنة ٣٣١ مكسيميانوس ٤ أبريل سنة ٣٣٢ اليجيريوس ١٤ أبريل سنة ٣٣٣ فلافيوس فلبيوس ٧ أبريل سنة ٣٣٤ ٣٠ أبريل سنة ٣٣٧ مكسيميانوس الملقب بـ "المكسيميانوس" سنة ٣٣٧ ٦ مارس سنة ٣٣٨ مكسيميانوس ١٦ مارس سنة ٣٣٨ ٣٠ مارس سنة ٣٤٠ مكسيميانوس ١٦ أبريل سنة ٣٤١ - ٢٧ مارس سنة ٣٤٢ مكسيميانوس ١٦ أبريل سنة ٣٤٤	القاسميوس الأول (الرمولي) ٢١٦ - ٢٢٢

مطاركة الا-كتدرية	المسكتم	الأباضرة
	تسطور بربر... ٧ أبريل سنة ٣٤٥ و ٦٩ أبريل سنة ٣٤٢	
	جيفترانوس ١٦ أبريل سنة ٣٤٣ و ٣٧ مارس سنة ٣٤٤	
	ماكتيسوس ١٩ أبريل سنة ٣٤٥ و ١٧ أبريل سنة ٣٤٦	
	كاثانوس لوبوس ١٠ بريلية سنة ٣٤٦ و ٢٣ ما. بر. سنة ٣٤٧	
	فروموس جيتس با. لوبوس سنة ٣٤٧ و ١ أبريل سنة ٣٤٩	
	أيداليفكا لوبوس سنة ٣٤٩	
	لومونوس سنة ٣٤٩ و ٩ أبريل سنة ٣٥١	
	جوزوفانوس سنة ٣٥١ و ٢١ مارس ٣٥٢	
	١٠ كليكوبوس. اريوسوس يوليه سنة ٣٥١ ١٤١ سبتمبر سنة ٣٥٢	پولادوس (ابرك) ٣٦١ - ٣٦٢ پولادوس (جبرك لوس) ٣٦٢ - ٣٦٣
	١١ أبريل سنة ٣٥١	ولس (كالتس) ٣٦١ - ٣٦٨
	١٢ كليمونوس سنة ٣٥٤	
	١٣ لافانوس سنة ٣٥٤ و ١١ اولا ٣١٩	
	١٤ وركانوس سنة ٣٥٤ و ٢١ يوليه سنة ٣٥٦	
	١٥ ايداليفكا سنة ٣٥٧	
	١٦ لوبوس يولادوس ١٣ اكتوبر سنة ٣٥٥	
	١٧ و ٢٩ مارس سنة ٣٥٦	
	١٨ لومونوس يولادوس سنة ٣٥٦	
	١٩ و ١٧ أبريل سنة ٣٥٦	
	٢٠ لوبوس ٢٩ مارس سنة ٣٥٦ و سنة ٣٥٧	
طيرين اداق ٣٧٢ - ٣٨٠		٢١ لوبوس سنة ٣٥٨
	٢٢ لوبوس ١١ لوبوس ١٧ مارس سنة ٣٥٨	
	٢٣ لوبوس ١٤ ابريل سنة ٣٥٨	
	٢٤ جيفترانوس ٢٩ ابريل سنة ٣٥٨ و ١٤ ابريل سنة ٣٥٨	
	٢٥ لوبوس سنة ٣٥٨	
	٢٦ لوبوس ٢ لوبوس سنة ٣٥٨	
	٢٧ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨	
	٢٨ و ١٦ يوليه سنة ٣٥٨	
	٢٩ لوبوس سنة ٣٥٨	
	٣٠ لوبوس ٢٠ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٣١ لوبوس لوبوس اريوسوس ٣٠ ابريل سنة ٣٥٨	
	٣٢ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٨ ابريل ٣٥٨	
	٣٣ لوبوس ١٦ يوليه سنة ٣٥٨	
	٣٤ لوبوس ١٠ ابريل سنة ٣٥٨ و ٢٠ يوليه سنة ٣٥٨	
	٣٥ لوبوس سنة ٣٥٨	
	٣٦ لوبوس ٢٠ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٣٧ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٣٨ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٣٩ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٤٠ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٤١ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٤٢ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٤٣ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٤٤ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٤٥ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٤٦ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٤٧ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٤٨ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٤٩ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٥٠ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٥١ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٥٢ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٥٣ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٥٤ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٥٥ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٥٦ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٥٧ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٥٨ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٥٩ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٦٠ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٦١ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٦٢ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٦٣ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٦٤ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٦٥ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٦٦ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٦٧ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٦٨ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٦٩ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٧٠ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٧١ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٧٢ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٧٣ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٧٤ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٧٥ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٧٦ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٧٧ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٧٨ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٧٩ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٨٠ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٨١ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٨٢ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٨٣ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٨٤ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٨٥ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٨٦ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٨٧ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٨٨ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٨٩ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٩٠ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٩١ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٩٢ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٩٣ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٩٤ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٩٥ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٩٦ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٩٧ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٩٨ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	٩٩ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	
	١٠٠ لوبوس ٢١ لوبوس سنة ٣٥٨ و ١٠ ابريل ٣٥٧	

مملكة الإسكندرية		المسكن	الأيام
مملكة شبراخيت	أقراط		
		برنادوس ٤ فبراير سنة ٢٩٦ ٢٠ - ٣١ مارس سنة ٢٩٦ أرشيبالدوس ١٧ يونيو ٢٩٦ و ٢٦ يوليو سنة ٢٩٦ برنادوس ٢٠٢ - ١٠٤ برنالدوس ٢٩١ - ٢١٤	أركاديوس (أركاديوس) ٢٩٥ - ٢٨٨
	كسجوس الأول (الكوير) ٢٩٦ - ٢٤١	أريستس سنة ١١٩	يورجوس الثاني ٢١٦ - ٢٢١
		أركاديوس ٧ يناير سنة ١١٩ ألكسندر ١٩ يناير سنة ١٢٥ جرمانوس ١٥ يناير سنة ١١٨	
برناردوس الأول ٢٨٦ - ٢٨٧	برناردوس الأول ١٤٤ - ١٤٥	أوديسوس سنة ١٢١ فلورانس ٢٤٢	جرمانوس ١٥٠ - ١٤٧
			اميرة القرون
شيمون ١٦٠ - ١٧٥	إيسيدوروس الثاني ٢٤٧ - ١٦٠	الكسندروس ١٩ أغسطس سنة ١٢٥ جرمانوس سنة ١٢٦	أولاد ١٤٧ - ١٧٥
١٤٧ - ١٤٢	١٧٤ - ١٧٧		أولاد الثاني ١٢١
	عطرس الثاني ١٧٧ - ١٨٩	بريغوس سنة ١٧١ ألكسندروس سنة ١٧٦	زيناوب (الكسند) ١٧١ - ١٩١
		شولستانوس حوالي ٢٧٧ - ١٧٨ أولاد برناردوس سنة ٢٧٩ و ٢٨٢ برناردوس سنة ٢٨٩ أيزيدوروس سنة ١٨٢ أرمادوس سنة ٢٨٦	
أرمادوس ٢٨٦			
	ألكسندروس الثاني ١٩٠ - ٢٩٦		
	أرمادوس الأول ١٩١ - ٢١٥	أرمادوس سنة ٢١٦ أرمادوس سنة ٢١٦	أرمادوس الأول ٢١١ - ٢١٨
	إيسيدوروس الثاني ٢١٥ - ٢١٦		اميرة بومبيليوس
	برناردوس الثاني ٢١٦ - ٢١٧	برناردوس حوالي سنة ٢٢٥	برناردوس الأول (بومبيليوس) ٢١٦ - ٢١٧
	تيسلاف الثالث ٢١٧ - ٢٢٤		برناردوس الأول (بومبيليوس) ٢٢٧ - ٢٢٥
بولس الثاني ٢٢٧ - ٢٢٩			

بطانة الإسكندرية		المحكّم	الألقاب
ملكاتيون	• أقارب		
زويل ٥٢٩ - ٥٢١	ثيودوروس الأول (زلمهوسوس) ٥٢٤ - ٥٢٦	روخوس سنة ٥٢٨ لجورجوس سوال سنة ٥٢٩ - ٥٢٢	
امبرجياتروس ٥٥١ - ٥٤٠		يوحنا، الكباريون سنة ٥١٢ ميجانيوس	
برسنا كمال ٥٧٥ - ٥٨١	نطرس ابن مع ٥٧٦ - ٥٧٥	بوريانوس زوسيموس سنة ٥١٩	يوحنا بن الحنف ٥٧٥ - ٥٧٨
اللوغوس ٥٨٦ - ٦٠٥	فدالوس ٥٧٨ - ٦٠٥	برستس بولس برستس (القرد الكريمة) لصنديلوس ديانس سنة ٦٠٠	لوغوس (باريوس) ٥٧٨ - ٥٨٦
أبو حنينا ٦٠٤ - ٦١٩	الطاطاوسوس ٦٠٤ - ٦١٦	نطرس زوسيموس سنة ٦١٢ - ٦١٣	بولس (طوقا) ٦١٢ - ٦١٠
ابن كمال ٦١٧ - ٦١٩	أبدر بن بولوس (أفسرد ثيلوس) ٦١٦ - ٦٢٤	برستس سنة ٦٠٩ ليقيانس سنة ٦١٠	<u>اميرة طوقا</u> فرقل الأول ٦١٠ - ٦١٦
أبو حنينا ٦٢١ - ٦٢٦	بهادين الأول ٦٢٢ - ٦٢٤	أوروس سنة ٦٢٦ أو سنة ٦٢١	
لوروس سنة ٦٢١		ثودوروس سنة ٦٢٦	
			فرقل كمال ٦٢٦ فرقلون ٦١١

القسم الثاني
العصر الإسلامي

تاريخ مصر

من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون

بقلم الدكتور حسين مؤنس

الفتح المصري لمصر

بناية المحدث الأيمن على ذكر استاده ، على ذكر من أخذوا عنهم الأخبار من الرجال . ولو درسا مجموعة هؤلاء الرجال المذكورين في هذه الكتب ، لتبنا أن الأخبار كلها ، أو الجواب الأكبر منها ، قد صدرت عن مدرسة من الفصاح أو المهتمين بالتاريخ لسبب في مصر وعنت بهذا الفن ، و ه سنت في قصة الفتح التي لجدها بين أيدينا متفرقة في ذلك العهد من كتب تاريخ مصر الذي يبدأ بأبي عبد الحكيم ويستمر حتى ابن أبياس .

وقد آن الأوان لأن نوضح هذه المدرسة كلها موضع البحث ، حتى نثبت القيسية الحقيقية لما لدينا من الأخبار . ولا يتسع المجال هنا لعرض هذه الدراسة ، وإنما يكفي أن نذكر أن ما لدينا من الأخبار لا يفرح في مصادرنا من عدد قليل من الرجال معظمهم من تلاميذ الليث بن سعد (٩٤ - ١٧٥ / ٧١٢ - ٧٩١) ، وأنظرعون منهم ستة نستطيع القول بأنهم المسئولون عن أكبر

ندوة قصة الفتح العربي لمصر لم يروها عند مؤرخي الإسلام - من ابن عبد الحكيم إلى ابن أبياس - وكانها زهرة عسكرية لم يصادف الجنيد المصري خلالها من الصحوبات إلا شيئا قليلا جدا لا يقاس بما اعتراه جيوش الإسلام في فتح الشام وفلسطين ، فضلا عن العراق والشرب ، لأن ازوارة الذين أصمد عليهم المؤرخون جميعا يستلوا الأخبار وأوزوها على نحو أصبح من الصير معه ثوب العظوات التي تم بها هذا الفتح العظيم الذي ينبر من أهم الانتصارات العسكرية والسياسية التي ظهر بها العرب إبان عصر الفتح الإسلامية .

وقد نودنا أن نرد ما لدينا من أخبار هذا الفتح إلى أصحاب المدونات التي وصلت إليها ، وهي كتب جليله القدر كتبنا مسبوخ من أهل الثقة المصمم الموادي وعبد الرحمن ابن عبيد الحكيم والبلاذري والكندي والطبري ، مع أن الأخبار التي يوردونها ليست لهم ، وإنما هم دونها ، وقد حرصوا ،

جاءت منا لدينا من المعلومات عن فتح مصر
وأخبارها حتى منتصف القرن الهجري الثالث
على الأقل ، وهم محمد بن عبد الحكم
(والد عبد الرحمن) (١٥٥ - ٢١٤ / ٧٧١)
(٨٢٩) وعبد الله بن وهب (توفي ١٩٧ /
٨١٢) وعبد الملك بن مسلمة وعثمان بن
صالح (١٤١ - ٢١٩ / ٧٦١ - ٨٣٤)
ورعيني بن بكير (١٥٤ - ٢٣١ / ٧٧٥ -
٨٤٥) وسيد بن غفير (١٤٩ - ٢٢٦ /
٧٦٣ - ٨٤٥) .

وأهمهم جميعا عثمان بن صالح ، لأن
كتب « فتوح مصر والمغرب والأندلس »
يدور على روايته تقريبا ، وعبد الرحمن بن
عبد الحكم يروي عنه نظرة بعد نظرة ، فإذا
استطرد يروي عن غيره عاد إليه يقول : « ثم
رجع إلى حديث عثمان بن صالح وغيره » .
والسخ التي وصلتنا من « فتوح مصر
والمغرب والأندلس » كلها برواية علي بن
قتيبة للميد بن عبد الحكم ، وابن قتيبة هذا
هو أستاذ أبي عمر محمد بن يوسف الكندي ،
وعنه أخذ هذا الأخير الحديث والأخبار ، أي
أد عبد الحكم والكندي يلتقيان عند هذا
الرجل ، فهو تلميذ الأول وروايته وأستاذ
الثاني وسلمه . وهذا يفسر لنا التشابه
المتعدد بين مادتي كتابهما فيما يتصل
بالمفتح ، وينتهي بنا إلى القول بأننا في الواقع
أمام رواية واحدة تتفق أصولها عند الاثنين ،
ثم تختلف التفاصيل بعض الشيء هنا وهناك .

ولا قائمة والحالة هذه من الاجتهاد في
المقارنة ومقابلة الروايات بعضها على بعض ،
فإن الخطوط العريضة ، وهي التي تمسنا هنا ،
واحدة عند الاثنين . بل إن جل أخبار الفتح
الواردة عند البلاذري منسوبة إلى محمد بن
سعد كاتب الواقدي ، وهذا بدوره زار مصر وأخذ عن
أستاذه ، وهذا بدوره زار مصر وأخذ عن
المدرسة المصرية التي ذكرناها ، وأخباره
شديدة الشبه بأخبارها . وكذلك أخبار
الطبري يرجع أحيانا إلى محمد بن سيمد
وأحيانا الحصري إلى يونس بن عبد الأهلي
(توفي ٢٦٤ / ٨٧٧) وهو من شيوخ المدرسة
المصرية ، وهو جد أبي سعيد بن يونس
المؤرخ المصري المروني .

والخلاصة أن ما لدينا من أخبار مصر في
نسخ المراجع يعود في الأصل إلى أصل
واحد هو مدرسة المؤرخين المصريين ، بل
متبع في مكان واحد هو القضاة ، وفي فترة
محددة هي النصف الأول من القرن الثالث
الهجري . ومن رجال هذه المدرسة من هو
ضعيف مشكوك في أخباره كعبد الله بن لبيبة
(توفي ١٧٤ / ٧٩٠) الذي سفر منه معاصروه
وسمواه « بغير حيلة » ، ولا يشفع لأخباره أنه
ينسب بعضها إلى أبي الأسود الضر بن
عبد الجبار (توفي ٢١٩ / ٨٣٤) ، وفيه
الحجة التي كالتيت بن سعد ، وجعلهم من
المصريين مولدا وموطنا ، حتى غير المصريين

مشكلات تحصيل بالأعلام : القوقس (٢)

وقد أشق المؤرخون جهدا عظيما في البحث عن حقائق هؤلاء الأعلام دون أن ينتهوا إلى نتيجة تظنن اليها النفس ، وذهبوا بتمسك شروفا فيما كتب مؤرخو الأقباط مثل ساويرس أمتهه : الأسماء المعروفة بأين المقنع وسببه من بطريق المرفوع ، أو أيضا وأبي صالح الأرمي وجرجس المكني ، فإذا بمنظم أخبارهم منقولة عن الأصول العربية لصها ، ثم التمسسوا المعرفة من مؤرخي البيروني أو أقصم مثل سيبوس مؤرخ هرقل ويوغايس صاحب المدونة المعروفة بالتاريخ Chronographia فلم يجدوا لديهم إلا اشارات لا تنبئ ، فسادوا إلى الخطوط الزبانية الأولى التي فسحها أصحاب الروايات الاسلامية الأولى ، ووقف الأمر عند ذلك ، ولا بد من تعقب شخصية القوقس مثلا قبل المضي في هذا البحث ، فهو في رأينا مفتاح موضوع فتح العرب لمصر ، إذا عرفنا من هو وما هو دوره بنت لنا قصة الفتح تحت ضوء جديد .

وقد حاول الأيريد مظهر في كتابه المعروف عن الفتح العربي لمصر أن يعزل بعض هذه

منهم كالواقدي أتوا إلى مصر بأخمدوا الأخبار عن شيوخها (١) .

فإذا كانت هذه هي أصول ما لدينا من أخبار الفتح ، فإنا لا نتظر أن يكون بين ما لدينا من هذه الأخبار اختلاف يعين على كشف حقيقة أو حل مضلة ، فيكلمهم يقولون شيئا واحدا تقريبا ، ويروون الأخبار على لسان واحد ويتفقون فيما يوردون من أسماء الأعلام ، ومعظمها مبهم ثم يجد الباحثون له تفسيراً ، كقولهم « القوقس » ، « الأبرج » ، « أبا يامين » ، « أبا مريم الجالليق » ، « أبا مريم الأسقف » ، ولا الأقباط ، ومن اليوم .

(١) بالإضافة إلى المراجع العربية المذكورة في المتن ، انظر عن هذه المدرسة المصرية :
 مقدمة ورثي جيسه KHUVON GUEST
 لطبعت لكتاب القضاء وكتاب الولاية للكندي ، لايد ١٩١٩ صفحات ٢٤ - ٢١ .
 ومقدمة تشارلز توري TORREY في طبعة لصوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم ، نبرهيس ١٩٢٢ .
 R. Dany, Revue de l'Égypte, 2^e ed. 7, 1914.
 ومادة الواقدي في دائرة المعارف الاسلامية بقلم هرولفوز ، ومادتي ابن عبد الحكم بقلم توري والكندي بقلم بركليس في نفس الدائرة ، ومقال الدكتور محمود حل حكي .
 Epître à la crypte et la Nomenclature arabico-islamique
 في صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية عامريه ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٨ .
 وانظر أيضا .
 الدكتور محمد كامل عيسى : أدب مصر الاسلامية ، عصر الولاة ١٩٤٥ ، ص ٦٨ وما يليها .
 Albert Gasque, Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Égypte par Ibn Abd al-Hakam (2^e ed. Alger, 1954) p. 13 sqq.

يسيه المقريزي « الهاموك » والواقدي
 « الهاميرك » ، يقال انه كان من أخسوال
 المقوقس وكان على صباط ، وقايل المسلمي
 مع واحد من أولاده تقتل ابنه واستثن هو ،
 ولحق ابن آخر له اسمه شبطا بالمسلمين
 واسلم ، وحسب سرج الي البرلس والدبيرة
 وأشوم شجاع فعند أهل تلك النواحي
 وقدم بهم مندبا للمسلمين ، وسار بهم لقتل
 نيس ، ولقال حتى قتل ، وقبره باق الي الآن
 في صباط ، وهو معدود في أوليائها وصالحها .
 وذكر الطرغوث كذلك انها للمقوقس يسمى
 أندراوس وبنتا تسمى ثوثية عشر الماعزون
 علي قبرها ، وابنت يسمى أحدهما
 أرسطولس ، بن ذكروا زوجه وغالوا انه كان
 لها شأن في نواحي الاسكندرية ، هذا
 بالإضافة الي ابنة أرمالوسه ذات الخبر
 المشهور .

وقد يتكون في ذلك كله زيادات أسماها
 القصاص ، ولكننا لا نعرف في القول اذا ذهبنا
 الي انها قتل عنى أو المقوقس كان قبليا من
 أهل مصر ، وإن شئ كان مسيروفا منتقم
 الأفسراد ، فكيف يقال مع ذلك انه هو
 « ليرس » أسسلفه فاريس الذي يشبه
 الإمبراطور هرقل سنة ٦٣٦ الي مصر لكي
 يميل على اقتضاه علي معارضة اقباطها
 للمذهب الرسمي للدولة البيزنطية ، فقد
 ذهب العلماء مذاهب شتى في البحث عن
 أصل هذا الاسم الذي تجده في المراجع

المشكلات ، فلم يخرج الا بنتيجة واحدة
 فيها الناس زمانا ، ولكننا لأن موضع شك
 كبير ، ومعنى بذلك قوله ان المقوقس هو
 « قيرس » ، ولم يستد في ذلك القول الا الي
 عبارات تحتل أكثر من تفسير وحدها عند
 ساويرس بن المقفع استقى الأسسولين وفي
 نص « حياة الراهب شنودة » الذي نشره
 أميلينو وقصة « أبنا سمويل القلمولي » ،
 وكل هذه التفسيرات — فيها عدا قصة
 سمويل القلمولي . — تذكر قيرس دون أن
 تشير الي المقوقس ، أو تذكر اسمه ، كأن لفظ
 المقوقس هذا خاص بفرجى العرب وهدم
 لم يعرفه الأقباط ولا البيزنطيون . وحيث أننا
 لا نجد ما يقابله من الأسماء عند هؤلاء ، فانه
 يقرب علي الشئ انه لقب أطلقه العرب معنى
 شخص مهم ، وليس ذلك بفرجى ، فليس
 أطلقوا علي رئيس حامية حصن بابليون لقب
 « الأهرج » ، وسوا القسائه البيزنطي في
 الرقبة « جرجير » مع أن اسمه الحقيقي
 « جريجوريوس » ، ولو أن المقوقس هذا
 كان هو قيرس بالذات لذكرت ذلك المراجع
 العربية ، أو واحد منها علي الأقل .

فإذا نحن مضينا في البحث وبدنا ولا
 أن المقوقس يوصف بأنه عظيم القبط ، ونرى
 أنه كان عامل مصر من قبل البيزنطيين
 لا وصف بذلك . ونأينا ملاحظ أنه كانت له
 في مصر أسرة كثيرة الأفراد متفرقين في
 نواحيها ، تذكر المراجع العربية منهم رجلا

العربية ، وتقرب الآراء الى التبول ما ذهب اليه أميلينو من أن العرب حرفوه من لفظ « كادوخوس » القبطي ومعناه الكافر ، فقل نصار البيزنطيين طفقوا عليه هذا الوصف نظرا لمعارضته لسياسة الدولة ومدعها وميله الى التناهم مع العرب ؛ وعندهم «خذة هؤلاء وحرفوه الى الصورة التي وصلت اليها .

أما اسمه الحقيقي كما يرد في النصوص العربية فهو « حريج » ، وهو تصغير جبرج : جبرج أو جرجس ، وهو ابن يسىسا أو متى أو ابن نرفب أو نرفب وما الى ذلك من الصور التي تنوارد في النصوص العربية . أما عن وظيفته فيقول البلاذري انه « صاحب مصر » ، وظول المريرى في « المجلد » انه كان « أميراً على مصر » ، ويرد هذا القول ابن دقماق في « الأختار » ، ويذهب ابن عبد الحكم وجرجس المكنى الى انه كان « مأملاً على مصر » ، ويقول ابن حجر انه كان « أمير القبط بمصر » ، وأوتيفلا « عامل على الخراج بمصر » ، وليس في هذه الاشارات كلها ما يدل على أنه كان بقرين مصر أو رئيس كنيستها ، أو الأسقف المقيم من التسلطية .

ثم إن المرجح في العربية نذهب الى أن «تموقس» هذا هو نفس «تموقس» الذي أرسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته مع حاطب بن أبي بلتعة في السنة السادسة للهجرة ، أي قبل سير العرب الى مصر ثلثي

عشر عاماً ، وقد نفى كثير من المستشرقين أن يكون الرجلان شخصاً واحداً ، لأن مصر كانت في سنة ٦ هـ / ٦٢٧ خاضعة للفرس ، بل ذهب بعضهم الى انكار الرسالة جفة ، غير أن إشارة عابرة مؤرخ متأخر هو المتوفى صاحب « كتاب لطائف أخبار الأول قديمين » تصرف في مصر من أبواب الدول « (القاهرة ١٣٠٠ هـ) وما فسرت لنا هذه الناحية ، نفى تقول أن صاحب الأسر في مصر أيام الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأبي بكر وعمر حتى فتح مصر كان المتوفى . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول ان المتوفى هذا كان كبير أقباط مصر ؛ وربما كان يتولى بعض شؤون الحكومة ؛ فلما دخلها الفرس واختفى وجان الدولة البيزنطية تولى هو الأمر تحت اشراف الفرس ، وفي أيامهم أتى مصر رسول النبي (صلى الله عليه وسلم) فلم يجد من يتحدث اليه الا كبير القبط هذا ، فأحسن استقباله ورد رداً لطيفاً وبحث بهدية المعروفة الى النبي .

فلما استعاد هرقل مصر ورحح اليها الروم وجدوا هذا الرجل قابضاً على أرملة الأسور المالية والادارية شر كونه على هذه الناحية ، لأنه لم يكن يصمم من مصر الا ذلك الأ الجارية وكذا الرجل جا شعيراً ، واكتفوا بأرملة قواد مسكونين لبليون والاسكندرية ، ثم أرسلوا الأسقف قيس ليعالج اخلاقه المذهبي بين الأقباط والبيزنطيين ، فأما قيس الى المصريين وتفر

ناحية أخرى ، ويشكل القبط الموقوس وقرى من جنود القبط كانت مشتركة في الجيش البيزنطي وعدد كبير من الرهبان ورجال الكنيسة ثم بقية أهل البلاد ، وكلهم على المذهب المونوفيزي القريب من توحيد الله الاسلام ، وفي ناحية أخرى نجد البيزنطيين تشملهم حمايات من الجند في المعارك والحصون والمساح وخاصة في الاسكندرية ، وعلى رأس كل حامية قائدهم محلي ، ويشكل المسلمون البيزنطي كله قيرس الذي أقامه حورقل بطريركا لمصر وأطلق يده في قسطنطينية .

وهذا المذهب الذي نذهب اليه يحصل اشكالا آخر اوقع المؤرخين المحدثين له قولهم ان قيرس هو القوقس ، لانهم يقولون ان قيرس هذا أتى الى مصر ، وهو حارب عنها ولا عزوة له فيها ، ليهبط سياسة هرقل ، فبدأ يستميل الإقباط بالحسن ، فلما فشل انقلاب عليهم وأعد بضطهم ، مما يدل على عصيته البيزنطية ، فلا يكاد العرب يفلحون أبواب مصر حتى يجدهم ينقلب على البيزنطيين ويسمى في الخارج مصر من أيديهم ، ويشجع الانتباه الذين كان يضطهدهم الى ذلك الحين ، وهذه كلها قضايا لا يستطيع بعضها مع بعض . ورواية الأحداث على هذا النمق تجعل قصة المنح غير منسجمة ولا متمسكة الحتمات ، وهذا هو الذي يفرح به القارىء من كتاب ألفريد بطريرك على طوله وعرضه .

منه المصريون وعلى رأسهم الموقوس ، وأصبح هذا الأخير مستعدا للتفاهم مع أي قوة يسكن ان تخلص الأقباط من اضطهاد البيزنطيين . فلما أقبل العرب وتخاذل البيزنطيون وتوزعت جهودهم وتواتت عليهم العزائم تصدى القوقس لاجتياح المخرج ، وتكلم مع العرب باسم الأقباط نون البيزنطيين ، وكانت هناك لمرات قبطية في الجيش البيزنطي المدافع عن مصر ، فالتكررت بأمره وانضم اليه الرهبان ومن اليهم من أهل البلاد ، وهرقا الرجلين كينب يحصل من العرب على عهد يؤمن القبط على عقيدتهم وأموالهم ، فكانت نتيجة ذلك دخول مصر في طاعة العرب .

وقد وثقنا طويلا أمام مشكلة الموقوس لأن علينا بمسرة قصة الفتح كلها وبمفينا من الكلام الكثير في مشاكل الفتح التي اقتضت من ألفريد بطريرك جهدا عظيما ، ليجعلنا ، ولم يفلح مع ذلك ، لأن قضية البداية ، وهي التسور ان القوقس هو قيرس لم تكن سليمة ، فلم تكن النتائج سليمة بما لذلك . أما قولنا ان القوقس كان زعيم القبط ، وأنه كان يتجه وجهة أخرى لمح وجهة الروم فيجعل قصة الفتح مفهومة ، ويشرح السبب فيما قلناه من أنها كانت أسيبة عسكرية . وبناء على ذلك نستطيع القول بأنه كانت في مصر قبائل المنح قوتان متنازعتان متعادبتان : القبط في ناحية والبيزنطيون في

المرية ، وهي مشاكل لا تتصل بصلب الموضوع ، ولكن لا مفر من التعرض لها ، أحسها - فيما يتصل بالليدياة - رقص عمر بن الخطاب الاذن لسرو بن الحاص في السير

- : البيان والاعراب ، عما بارضى عمر من الأعراب ، القاهرة ١٢٥٦ .
- : أغاني الأمة بكاتب الضمة ، طبعة زيادة والنسيال ، القاهرة ١٩٤٥ .
- : العاطف العظما ، الدكتور جمال الدين النسيال ، القاهرة ١٩٤٨ .
- الهلوي ، تاريخ ، طعة خوتسما ، لبنان ١٨٨٣ جزئين .

أبو المعاسين بن لخرى برقي : النجاشي الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب ، ج ١ و ٢ سنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠ .

حرجس بن السيد (المعروف بالكندي) : تاريخ المسلمين ، لبنان ١٩٢٥ .

Alfred J. Butler. The Arab conquest of Egypt, Oxford, 1909

ولد رسمنا الى ترجمة الأستاذ محمد زويد أبو حديد بعنوان فتح العرب لمصر ، القاهرة ١٩٣٣ .

- : The Army of Islam, Oxford, 1913

Leson Cahsan : Annals dell'Islam T. IV, V, Milano, 1917-1923.

Th. Amhannan : Etude sur la christianisation en Egypte, Paris, 1907

Leah-Poola : A history of Egypt in the Middle-Ages, London, 1925

Gaston Viss : L'Egypte arabe, Vol. IV de l'Institut de la Nation Belge, Paris, 1933

- : L'Egypte Arabisienne, Vol. II du Précis de l'histoire d'Egypte, Le Caire.

سيده اسماعيل الكاشف . مصر في فجر الاسلام . القاهرة ١٩٢٧ .

محمود عكوش : مصر في عهد الاسلام . القاهرة ١٩٤١ .

فاذا بدأنا من هذه النقطة ومضينا نقتص قصة الفتح تعرضنا من أول الأمر لمشاكل من النوع الذي تعودت أن تغلقه الروايات

- (١) عن فتح العرب لمصر - انظر : ابن عبد الحكيم : فتوح مصر والعرب والأندلس ، طبعة نوري ، ليوبان ١٩٢٩ ، وطبعة هنري ماسيه ، عن فتح مصر فقط (العهد العربي للأندلس العربية بالقاهرة ١٩١٤) ، وطبعة أمير جاتو ALBERT GATTAU بعنوان فتوح العربية والأندلس ، الطبعة الثالثة ، الجزائر ١٩٤٣ .

الكندي : كتاب الولاة وكتاب الفساسة ، طبعة رولف سمك (نسخة جيب المتكررة) بيروت ١٩٥٨ .

الجلندي : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٩ .
الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة ، ج ٣

عنا الفيروسي . مبدولة من أسلف لبيروني

Chronique de Joss, évêque de Nîmes. Texte Historique publié et traduit par Mlle Zolberg (Nouveau et élargi des manuscrits de la Bibliothèque Nationale et autres bibliothèques, Paris, 1909)

ابن الأثير الكامل في التاريخ ، طبعة المنظمة المصرية ، القاهرة ١٩٤٣ ، ج ٢ و ٣ .

سارويرس بن الخليل : سير الأجداد البطركية ، Philologie Orientale ١٠ من مجموعة باريس ١٩١٤ و ١٩١٥ .

ابن سعد (كاتب الرائد) : الطبقات الكبرى ، طبع نسخة كرامسكات لبنان ١٩٥٥ - ١٩٤٦ ، وطبعة بيروت (كحلة) سنة ١٩٥٧ .

محمد بن طريف (المعروف بأوتيشا) : كتاب التاريخ الجيوس على التحقيق والتصديق ، جزئين ، بيروت ١٩٥٥ - ١٩٥٩ .

القريري : التواريخ والاعتساب في التخطاط والآثار . طبعة يولاق ١٢٧٠ في مجلدتين

الى مصر ، ثم موافقته على كره من وتخليقه
 الأمر بخطاب يرسله اليه ، فان بلغه قبل حدود
 مصر ارتد عنها والا صار في طريقه ، وهي
 قصة لا تتفق مع طبيعة عمر بن الخطاب
 أو ملكه في سياسة أمور الدولة . ولو ان
 عمر استؤذن في فتح مصر وهو بالمدينة لكان
 من الممكن ان تصعد هذا الإلهذ والره الذي
 تطيل فيه المراجع في هذه المناسبة ، فقد حدث
 مثل ذلك عندما أراد العرب فتح المغرب على
 أيام عثمان ، ولكن عمر بن الخطاب قوبح في
 فتح مصر وهو ينجح مع قواده ورجاله في
 الجابية جنوبي دمشق سنة ٦٣٨/٦٧ :
 والفلس عمر مسح وجهه في ذلك المؤثر
 — الأول من نوعه في تاريخ الاسلام —
 تنظيم ما فتح من البلاد والقطط التي يجري
 عليها المسلمون فيما يلي ذلك من خطوط
 التوسع . وقد أحاط عمر اذ ذلك بالموقف
 تماما ، ووضع الخطوط الرئيسية لما يجب
 فتح فلسطين من الفسوح ، والقول بأن عمرا
 خاضب عمر في الأمر فيما بينه وبينه وخشد
 بحس له لتسبح مصر ويصون عليه أمرها ،
 أو قد عمرا حاصر قيسارية ثم خلفه ابنه عليها
 وسار الى مصر من خلفه نفسه ، فغصب عمر
 لذلك وكتب اليه بعنه ويأمره بالرجوع الى
 موضعه اذ وافاه كتابه دون مصر ، أو ان
 عمرا أمر رجاله بالتسلل ليلا ثم اتبعهم ،
 روايات أقرب الى القصة ، وربما استطعنا
 ان نخرج من مجموعها برأى وسط يستريح

اليه المؤرخ ، وهو ان عمر بن الخطاب كان
 رأيه قد استقر على فتح مصر ولكنه لم يكن
 قد اطمأن بعد الى عمرو بن العاص وقدرته
 على القيام بهذا العمل العظيم . ولكن نعم
 هذا ينبغي ان نذكر ان عمرو بن العاص لم
 يكن اذ ذلك قد فرغ مكائده كقائد من عظيم
 قواد الاسلام ، ولم يكن تفاس ... في رأى
 عمر — يكتبوا قواد الدولة الذين تولوا فتح
 الشام والعراق ، وكان عمر بن الخطاب
 لا يستريح اليه ، فتردد عمر لم يكن اذن في
 الفتح في ذاته ، والما في شخصية الفاتح ،
 ويبدو من مجموع الروايات ان عمر وافق
 فصفاً والغب ، وربما كان يشكر في الاختيار
 فانه آخر ، وهذا احسب هو موضوع
 الكتاب الذي قال لعمر انه سرسله اليه
 أو الذي أرسله اليه فعلا .

على أي لأحوال تسرح عمرو نحو مصر
 وينبغي أن نذكر هنا شيئا لا يسير اليه
 المؤرخون من عظيم أهيت ، وهو ان المناق
 الصبيحة المتشده من جنوبي فلسطين الى
 أطراف ابدلتا كانت تمرها قبائل عربية كثيرة
 معظمها من بطون لضاة وخامسة المجاهم
 منهم . وفي نواحي العريش كانت منسازة
 بني راشد وقبائل أخرى من لضم وبنو
 وكانت في شبه جزيرة سيناء والتاحية الشرقية
 للدلتا وصحراء مصر الغربية مواطن قبائل
 عربية كثيرة . وينبغي أن نذكر أيضا ان هذه
 النواحي لم تكن اذ ذاك قاحلة على الصورة

يسمونها رينوكوردور *Rhinocorura* أو *Rhinocorura* - غاستولي عليها المليون دون جهد (١٠ ذو الحجة ٦٨ هـ / ٦٢ ديسر ٦٣٩ م) ثم تقدم عمرو بن العاص حتى وصل الى موضع أقصى حصون مصر البيزنطية شرقا عند بلدة الفرما (*Pharusium*) وهناك وقع أول التحام بين المسلمين وروم مصر ، واستمر القتال بينهم شعرا أو شهرين حتى اقتصره المسلمون (حوالي ١٢ محرم ٦٩ هـ / ١٣ يناير ٦٤٠ م) وأصبح الطريق أمامهم الى قلب الدلتا مفتوحا ، فلم يضع حسرو وقتها واتجه بين سه نحو بلبيس .

ولم يكن الجيش الذي مع عمرو بالكبير ، فقد كان عدده ، حسب أحوال الرواة ، يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة ، ولكننا نرجح أن أعدادا كبيرة من عرب جنوبي فلسطين وسينا وشرقى الدلتا انضمت الى ذلك الجيش ، لأننا نلاحظ أن خبر سقوط الفرما واتجاه العرب نحو الدلتا كان له رد فعل حثيث في البلاد ، ومن المستبعد أن يتكون ذلك نتيجة دخول آلاف قلبية من العرب أرض مصر ، فقد كانت عارات القبائل العربية على أطراف مصر الشرقية أمرا ناديا ، ولو كان جيش عمرو بهذه القوة لَمَا كان لدنسلوله هذا الصدى البعيد ، ونلاحظ أن العرب بعد أن خاضوا معركة عين شمس وتقبلوا الحصار حصن بابلون كانت لهم قوة عظيمة لا تتناسب مع بقية ثلاثة آلاف أو أربعة ، فلابد أن

التى هي عليها اليمسوم ، وانما كانت مناطق مشابهة ترعاها الماشية ، وكانت يمرون اناه وبها كثيرة ، وحوث كل عين ما يشه الواحة الصغيرة أو الكبيرة ، ودللتنا على ذلك ما نذكره أخبار العصر البيزنطى من أن صحراوي مصر الغربية والشرقية كانتتا علمتينا بالديور والرهبان ، وكان الكثير من أولئك الرهبان نساكا متأبدن وخدمهم في اليفاه بقضون عرهم كله في سياحة دائمة . ولا يتأتى هذا لو كانت هذه الصحارى مغللا كما هي اليوم ، وهذا يصر لنا مقام القبائل انريضة الكثيرة في سينا وصحراوي مصر الشرقية والغربية ، ويصر لنا أيضا كيف استطاع الجيش العربي ، دون أن يتزود بشيء كثير أن يفتخرى سينا دون جهد ، وأن يعبر بعد ذلك الصحراء من الاسكندرية الى رقة ، ومن رقة الى ما يعرفه الآن بولس ، ولو راجدنا ما كتبه حضرفاى كايي جيبسد انبكرى عن المنطقة الواقعة بين مصر والريفة (بولس اليوم) لوجدنا الطريق حافلا بالأبار والعيون والواحات .

ولم يكن للبيزنطيين سلطان على سينه الشواحي المشمة كلها ، أي أن الجيش العربي صار من دفع حتى يلى على الأطل وسط بلاد يكها ويسيطر عليها عرب ، ليس للبيزنطيين فيها الا حايات قليلة .هما في العرش — وهو تعرب لاسمها القديم *o* لاريس ■ *Latris* ، وكان البيزنطيون

دولة ، وأن ملكهم اشطع ، وبأمر القبط بتلقى عمرو ، فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما صاروا يوندع عمرو أنوعا . وسواء كتب بنيامين الى اخوانه القبط أم لم يكتب ، فقد جدد الأقباط موقفهم بعد سقوط الفرما وثبتهم أنه الصراع الحامس على مصر بلدهم قد بدأ فعالوا مع العرب على الروم ، وكان هذا هو العامل الحاسم في تيسير أمر فتح مصر على العرب . ولم ينضم الأقباط الى العرب علانية بعد سقوط الفرما ، بل بعد سقوط حصن بابليون وفتح الفيوم كما يقول يوحنا النقبوسي . أما موقفهم قبل ذلك فكان موقفا المحايد الذي يثنى نصر المبرب وزوال أمر الروم .

وقد وجد عمرو أنه لا يستطيع ترك قوة كبيرة في الفرما لتعطلها ، وكان موقفا عاما من الناحية العسكرية ، فهي مفتاح الطريق من فلسطين الى مصر ، وخاف أن يعود الروم فينهضوا فيها ، فهدم أسوارها وحصلها حتى لا ينتفعوا بها ، ثم اتجه جنويا بشرق فاستولى على يليخة تسمى النواصر ، ومكانها الآن قرية الجعافرة بمرکز فافوس بمدينة الشرقية ، ثم وصل الى بلبيس لا يداقح الا بالأسر الضيف ، كما يقول ابن عبد الحكم . وفي بلبيس التحم المسلمون مع حامية رومية قاتله رجالها نحو الشهر ، حتى انتصر عليهم واستولى على البلد . ويذهب القصاص الى أن عمرا وجد أرماتوسية ابنة

أخا أخرى من العرب تمت الجيش الفاتح وانتضت الى صفوه . وأبسط دليل على ذلك أسماء القبائل التي اتخذت لنفسها خططا في انفساط بعيد اختطاطها سنة ٦٢ هجرية ، فان عدد هذه القبائل يزيد على اثنين وثلاثين قبيلة ، غير أصحاب الرواية الذين سير ذكرهم ، وكان عددهم كبيرا . فلما مرضنا أن الذين دخلوا مع عمرو كانوا ٣٠٠٠٠ ، ثم انضم اليهم المدد الذي جاء مع عبد الله بن البربر لكاف المصوح تسعة آلاف ، أي بمعدل أقل من ٣٠٠ رجل من كل قبيلة ، وهذا العدد لا تكون له عطف أو قسم من مدينة ، فلا بد أن العدد كان أكثر من ذلك . وقد اقتصرنا في هذا الحساب على من تول الفسقاط ، ومن المعروف أنه عربا أخضرين كثيرين زلوا الاسكندرية والجيزة ولواحي شتى من الدلتا .

على هذا الاعتبار لتطبع أن تعميم السبب لهما أحدهم سير هذه القوة العربية من رد فعل بعيد المدى في البلاد . وقد ظهر رد الفعل هذا بصورة جلية في موقف الأقباط ، إذ أدرك رؤسائهم أن الأمر أكثر من الغارة بدوية ، وأن الرضا العربي الذي قضى على أمر الروم في الشام وصل الى مصر ، فخرج الأبا بنهاين بطرك الأقباط الإسكندرية الذي عزله هرقل واضطهده سابقا حتى اختفى نحو عشر سنوات قبل الفتح العربي — وكتب الى القبط يقول : « انه لا تكون للروم

المفوقس في بليس . وأصل القصة في « فتوح مصر » المنسوبة الى الواقدي ، وهي في خطوطها الرئيسية مكتنة الوقوع : وجدد العرب في بليس ابنة المفوقس ، فأكرمها عمرو وبنت بها الى أبيها عمزة ، ولكن خيال القصص اضاف اليها اطوارا روائيا ، فذهبوا الى انها كانت قد خطبت الى قسطنطين بن هرقل ، لبثت بها ابوها و لا جزها بأوالها وجراريا وغلماها لتسير اليه ، حتى يسى به بمدينة قيسارية ، الى آخر القصة التي نسج حولها ش . ه . بوتر ثم جرحى زيدان قصتين نيريتين . وقد نفاها الفريد بطر

بحجة أن المفوقس كان اسما ۞ يسكن أن تكو له بنت ، وهي حجة ولعية ، فلم يكن المفوقس كما رأينا أسفلا ، ولو فرض وكان قدم يكن في قوانين النصرانية اذ ذلك ما يحرم الزواج على رجال الدين ، لأن تحريم الزواج عليهم من النظم التي ابتدعها البابوات ، وسئل ذلك يقامه عن هي بعض المستشرقين لاهداه المتوالت جاريتين الى رمون انه سلسل له عليه وسلم ، فقد قالوا بذلك على أساس أن المسيحيين ، ففسلا عن رجال الدين ، لا يعبوز لهم أن يعرّزوا الجوارى أو يتزوجوا بأكثر من واحدة ، وحده كلها وعادى لا تحرم على أساس ، فإن المسيحية الأولى لم تحرم تعدد الزوجات ولا اتخاذ الجوارى ، وانما جاء ذلك في زمن متأخر ، وقد قرره البابوات أيضا . وربما كان في قصة ارمانوسية في

بابليون ومصر :

واتجه عمرو بعد ذلك لحسمو مركز القوة الفعلية البيزنطية في البلاد ، وكان هذا المركز مساحة عظيمة تمتد من موطنه بين نيس العالية الى الحصن المعروف باسم قصر السبع ، وكانت هذه المساحة تضم عددا من القرى الصغيرة والحصون والأكورة والتنانيس عرفت كلها باسم « مصر » . ولفظ مصر آراضي قديم ومعناه العهد أو الحدود ، أما اسم بلاد مصر عند أهلها الى ذلك العين فكان « كيسي » أو « شيس » أو « ليسي » ومعناه التربة الحمراء ، والعرب هم الذين وسعوا مفهوم لفظ « مصر » وأطلقوه على البلاد كلها . فنقل ان هذا الموضع كان يضم قرى وتنانيس وحصونا وسائين . وهنسه القرى بقايا مدن أو عواصم قديمة الفسحة على طول تاريخ مصر القديم في هذا الموضع ، وتضمها كلها الآن مدينة القاهرة العالية ، فيما عدا مواقع منيس القديمة ، نهر تابع الآن لندر العبيزة . وتضمنت من توالي اتخاذ لندن والمواصم في هذا الموضع على اختلاف العصور ، له الموضع المثالي لحكم مصر والإشراف على الوجهين القبلي والبحري .

وقد بدأ الانشاء فيه على عهد الأميرة

الثالثة ، عندما انشأ الفراعنة منف واتخذوها عاصمة لهم ، وفي نفس الوقت عثر الفراعنة موضعاً آخر على الضفة الشرقية ، وهو بلدة أون ، التي عرّبها العرب الى عين شمس ه ولا زالت قائمة الى اليوم . والى جنوب عين شمس ، في مواجهة جزيرة الروضة ، قام حصن بابليون ، ويرجح أنه من انشاء المصريين القدماء ، وأن اسمه الأصلي هو - هابى - ن . أون - Πιπλ-η-ση . وبذهب شتايندورف الى أن هذا الاسم كان يطلق أولاً على جزيرة الروضة ، وأن صورته الصحيحة بر - هابى - ن - أون - Πιπλ-η-ση ومعناه جزيرة أون النيلية . وسواء أكانت هذه هي الصورة الصحيحة للاسم ، أم الصورة الأولى ، فإنه تعرف الى بابليون . وقد أنكر ذلك كله بطر ، وذهب الى أن الحصن من انشاء البابليين عندما دخلوا مصر ، وهو منسوب اليهم . أما قول العرب أن تفسير الاسم باب - ليون لغير مقبول . وقسمه خلط المؤرخون والرحالة الأوربيون في العصور الوسطى بين بابليون وبابل Nebylonis ، فأطلقوا اسم بابليون على القاهرة ، بل على مصر كلها ، فكانوا يقولون سلطان بابليونيا ، ويريدون سلطان مصر . أما المصريون فكانوا يطلقون على الحصن تسمية قرية من قولنا قصر الشمع ، والإرجح أنه تعرف للاقلى Casira Chemi أي حصن مصر . وقد عمله بعض مؤرخي

العرب تمليلات شتى ، فذهب الواقدي برواية المغربي : الى أن هذا القصر كان ه يوقد عليه الشمع في رأس كل شهر ، فيعلم الناس أن الشمس انتقلت من البرج الذي حلت فيه الى برج غيره .

ووصل عمرو الى أول قرية من فسيري منطقة مصر ، وهي قرية أم دين ، وقد وروث عند يوحنا النقيوصي باسمه تندولياس Tendunyas ، ومكانها اليوم المنطقة التي تقوم بها جامع المنس - ويمصرف انبوم بمسجد اولاد منان - وتصل حدودها الى قنطرة الدكة والدرج الايراهيسى ، وكانت بها حامية صغيرة ، فغلب العرب عليها دون صعوبة وملكوها ، وكان النيل يصل الى ذلك الى حدود القرية ، وبهذا أصبح في أيديهم موقع حصين على النيل ، فحصنه عمرو وشككه بالرجاء ، واجمع نحو حصن بابليون ، وكان مركز الجيش بزلطى كنج يضم عدداً ضخماً من التبط ، وبه عمرو يجابهه ، ثم بين أنه لن يستطيع الاستيلاء عليه بن معه من الجند القليل ، فبث يطالب المدد من حاصر من الغطاب ، واكفى بالتحصن في أم دين وبالانحام مع البيز لطيف في اشتباكات يسيرة .

ويردو أن عمراً ومن معه تعوا محمداً كبيرة إذ ذلك ، خان الأزواد في المنصف لم تكتمهم ، ولهذا نجده يبعث بفر من جنده في التوارب عبر النيل الى الضفة الغربية حيث ساروا بهذاه النيل نحو الجنوب حتى بلغوا

ييضوا أقصى ما يستطيعون ، حتى ضماق
 ذرعهم وصاح فيه رجلا من أهل اليمن : « إذا
 لم تخلق من حجارة أو حديد » فقال عمرو :
 « اسكت ، فأنا أنت كلب » ، فرد الرجل :
 « فأنت أمير الكلاب » . وعالج عمرو الموقف
 بحكايته ، فلم يلق بالآتي إجابة الرجل ،
 وذادى نفرا من أصحاب الرسول صلى الله
 عليه وسلم الذين شهدوا معه الوقائع لستمين
 بهم على استنهاض همم الحارثيين .

وعجل عمر بن الخطاب بإرسال المدد إلى
 عمرو بن العاص ، ويبدو أنه كان لا يزال
 يفتك في فكرة عمرو على اتمام الفتح ففاجع
 الزبير بن العوام في عزمه أمر الفتح . وقد
 روى الطبري البلاذري ، وقال إن عمر قال
 للزبير : « يا أبا عبد الله ، هل لك في ولاية
 مصر ؟ » فقال : « لا حاجة لي فيها ، ولكن
 أخرج مجاهداً وللمسلمين مفساداً ، فإن
 وجدت عمراً قد فتحها لم أحرص لعمري ،
 وقصدت إلى بنى السواحل فربطت به ،
 وإن وجدت في جهادك معه ، فسار على
 ذلك » .

موقعة عين شمس (يابلون) والاستيلاء على الحصن ١

وبين المؤرخين خلاف على عمدة المدد
 الذي أرسله عمر ، فذهب بعضهم إلى أنه كان
 أربعة آلاف ، وقال آخرون بل اثنا عشر ألفاً .
 والمهم لدينا أنه كان مدداً قوياً عليه أربعة
 رجال أشداء هم الزبير بن العوام والقناد بن

موضع مفسس ، ولم يكن لعمرو من غلبة من
 وراء ذلك إلا الحصول على مدد من الأتوات .
 وقد اختلط أمر هذه الغارة على بعض قدماء
 المؤرخين مثل حنا القبيوسي ، الذي زعم أن
 عمراً أرسل في ذلك الوقت حملة لتفسيح
 اليوم ، وأنه في ذلك بطل ، فذهب إلى أن
 عمراً حاول فتح اليوم في ذلك الحين ، وهو
 قول مستبعد ، لأنه لم يكن قد استولى على
 حصن يابلون ولم يفض على قوة الروم بمدد
 والحقيقة ما لفتنا ويؤيده قول السيوطي : أن
 عمراً بعد فتح مصر أرسل جراند الغيل إلى
 القرى التي حولها ، وببيت اليوم - - -
 لا يعلم المسلمون شيئاً عنها ، وسرى مصداق
 ذلك فيما يلي من الكلام .

ورأى عمرو ألا يظل مكانه في أم دبن
 حتى يصل المدد . فتقدم بين يديه نحو حصن
 يابلون وبدأ في حصاره . وكان الروم قد
 حشروا مدقاً حول الحصن واستعملوا
 استعداداً طيباً ، وأسرع القومس إلى يابلون
 ليكون على مقربة من العوادم . وبدأ
 الحصار في جنادى الأولى ١٩ هـ / مايو
 ٦٤٠ م . وتقى المسلمون جناء شديداً ، فقد
 استبان الروم فلة عددهم حتى قال البلاذري
 أن عمراً كان « يرقى أصحابه لبري العدو
 أنهم أكثر مناهم . فلما انتهى إلى الخندق
 نادوه أن قد رأينا ما صنعت ، وإنما منك
 من أصحابك كذا وكذا ، فلم يخشوا رجل
 واحد » . وأخذ عمرو يشتد على جنوده

عمر « الأسود » وعبادة بن الصامت وسلفه ابن مخلد ، أو خارجة بن حذافة العدي . وقد وصل هذا المدد في ٩ جمادى الآخرة / ٦ يونيو ٦٤٠ م ، وبعد وصوله مباشرة دخلت معركة حصن بابليون في دورها الحاسم .

ورئي عمرو أن يجهده لهذه المعركة الحاسمة بالتحصل بين الروم والاقباط فصيلا تاما ، فالتصم برجلين من زعماء الأقباط هسبا أبو مريم جاثليل مصري رئيس رجال الدين من الأقباط - وكان مسادا في الفرس - واليسف أبو مرياه ، ويبدو أنه كان مقدما بين رجال الدين ، لأنه حضر في « أهل البيعات » في القس ، وكلمهما كلاما رقيقا ذكر فيه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأقباط ، وحرض عليهما الإسلام وقال : « لمن أجاها إلي فمثلنا ، ومن لم يبعنا إليه عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنية » . وكان لكلامه أثر بعيد في نفسيهما ، فمردا عليه ردا جميلا ، وعادا إلى القوقس ليستقروا . وعندما علم رجال العناية البيزنطية بذلك تكروه وأهروا على القتال ، وتزعم ذلك الأرطليون ، وهو قائد بيزنطي اسمه الأصلي « أريوس » Arionis كان مشركا في حرب العرب في الشام . فلما انهزم الروم اتجه إلى مصر واشترك في دفاع العرب عنها .

وكان عمرو قد أعطى مثلي القبط مهلة خمسة أيام للسرد عليه ، فإذا هو ينتظرهما فاجأه الروم بالمجوم ، فكانتهم قتالا شديدا

حتى ردهم إلى الحصن . وثين عمرو أنه ما دام الروم وراء الأسوار فإن أمر الحصن سيطول ، وأنه لابد من إخراجهم من حصنهم ومقاتلتهم في معركة في الفضاء ، وعزل على ذلك . وكانت سرايا الروم تخرج بين العين والحين تتجول وتصول في المزارع والبساتين الواقعة بين الحصن والمسسكر الرئيس العربي في أم دنين ، فقرر أن يهاجم من يفرجون منهم هجوما مديرا مرثيا يضطر آخرين منهم إلى الخروج . فأرسل تحت جنح الليل كتيبتهن احداهما إلى طريق أم دنين واثانية نحو الشرق حيث اختبأت في ثنية من ثنايا جبل المقطم . ولخرج الروم على عاذتهم في الصباح الباكر ، وتقدموا نحو القسمان في اتجاه ما يعرف الآن بالياسبة ، فلما توسطوا الطريق وصاروا بين البساتين والأديرة تقدم إليهم عمرو بكثرة من جيشه وانضم معهم ، فتجمعوا لقتاله ، فلما حسي انوطيس خرجت كنية الجبل من مسكنها وهاجمت مؤطرتهم ، فصبوا لهم حصروا بين جيشين ، وأسرعوا هارين في اتجاه أم دنين ، فخرج إليهم الكمين الثاني ، ووقعوا بين جند انسلين من كل ناحية ، واسترح القتال ووقع لهم القتل ، وانهزوا ، وأسرعوا بشيهم لحصو الحصن لنتصم به ، وانتهى اليوم بنصر حاسم للمسلمين تقرر به صير مصر كلها .

وقد عرفت القومة بوقعة عين شمس ، وقد ترجمتها بغير خطأ باسم موقعة هليوبوليس ،

وهي في الواقع لم تكن في المطرية (عين شمس) وفي موقع هليوبوليس الحالية وإنما على مقربة من حصن بابلون ، فهي أولى بأن تسمى معركة بابلون ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها ، ولكن الأغلب أنها كانت في ١٦ رجب ١٩ هـ / ١٥ يوليو ٦٤٠ م ، وقد اشهر موضع انهزام الروم في الروايات العربية المتأخرة بسجده سيسى العاطي بالقرافة الكبرى ، واستشهد فيها نحو أربعين ألفاً من المسلمين دفنوا بتقبة واحدة رفعت بتقبة الشهداء بموضع يعرف بحجري العصى قرب رباط الأمير مسعود .

ويذهب بطر إلى أنه لم ينج من جنسه الروم الذين خلاصوا المعركة إلا ثلاثمائة ، لا طوا بالعصن وأغلبوا الأبواب ، وقد استولى الذعر على من في الحصن ، فخرج جماعة منهم طارين بأنصمهم وركبوا النهر إلى قرية قروس ، وعلق عليها بقوله : « على أنه بيتك من الروم فنة لا بأس بها ، اجتمع اليها من كان في الحصن في أثناء القتال ، فصارت منهم جيها مسلحة قوية تستطيع الدفاع عنه . ولكن النصر أفاد العرب طراد جنة ، فهدمت مدينة مصر في قبضة بلعم بن قنأل (كذا) وكانت من قبل يحياها الجيش الذي في الحصن ، وأصبحوا يملكون نامسية شاطيء النهر من ناحيتي الحصن من أعلاه ومن أسفله ، ونظروا عسكرهم بمسد من

هليوبوليس (الأصح أم دنين) فخر به في شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس ، وذلك المكان هو الذي صار يعرف بالتسلاط فيما بعد . وقد صار جيش العرب بعد ذلك النصر كافياً لحصار بابلون لا يموجه عائق من التضييق عليه بعد أن قصه على جيش الروم ، فلم يبق منه إلا الفضول التي لاقت بالحصن أو هامت على وجهها في بلاد مصر السهلية .

بدأ عمرو بعد ذلك مباشرة في الاستعداد لاقتحام الحصن ، ففرق رجاله كغالب كغالب لهاجة الحصن من نواحيه كلها ، ونصب عليه متجنيلات يبدو لها لم تكن محكمة المنع والوضع ، لأنها لم تقم بشيء ذي بال . وكان في الحصن جماعة قوية من الروم ذكر منهم جنسا التبوسى قائدتين هسيا تيودور وأوديلياوس ، وذكر الصرب قائداً ثالثاً بسموه الأخرج أو الأخرج ويسموه المنفور وهو تعريف لفظ *mandur* وهي مرتبة من المراتب العسكرية في الجبلي البيزنطي ، ويفظ أنه كان حاكم الحصن وإن كان يظن — متابعاً مذهبه للعروفة في حل هسة المتساكل — يذهب إلى أن المراد به جورج حاكم اقديم مصر ، وقد ذكره عسا انتيوس . وكانت في الحصن أيضا جماعة من جند الاحتياط وكبراهم ، وقد نفى ذلك بطر ، وهو حريص أشد الحرص على نفى كل اشتراك للمصريين في الأعمال العسكرية

وردت الروايات العربية الحديث الذي جرى بين عبادة والمقوقس ، وهو حديث يبلغ عبر فيه عبادة عن روح انزعاب المجاهدين أحسن تعبير . والذي يمينا هنا هو تسلك المسلمين بشروطهم المعروفة : الاسلام أو الجزية أو الفئال . وقد ما ان المقوقس الى الجزيرة ورفض هذا التحل كثير من ممة من الروم وقالوا : « الفئال أهون علينا » ، وكانت هذه المناوضة في آخر شبان ١٩ هـ / أغسطس ٦١٠ م .

معاينة بايليون :

وفي أثناء المناوصات تمكن العرب من الاستيلاء على الحصص ، وقد تولى كثير ذلك الربيع بن العرام في آخر طويل . ويبدو أن المسلمين لم يقتصره اقتناعا كما تنهت اليه الروايات ، لأن المحاصرين فيه لم ينزلوا الا على شروط ، وقد أسرف الرواة في الحديث عن تلك الشروط حتى جعلوا حديثها أقرب الى الضلال ، ولكننا نأخذ بالمقول المقبول ونقول انهم سلموا الحصص بمساجيل عشرين ألف دينار ومقصادير من الأرواح والملابس . وقد زخر الضرب بعد ذلك على أيدي الرواة ، فصاغوه منسوبا الى عبد الله ابن عمرو بن العاص فوجملوه في صيغة فقهية فيها شيء على الأرض وعلى الرومس ، وكل هذه زيادات جدت فيما بعد ، فجادت سبها الفقهاء لكن ينغذها الحكام أساسا في تصدير جسياسة مصر وليست من الحقيقة

الغاصة بفتح مصر ، وهو حرص لا معنى له ، إذ أنه من الثابت أن فرقا كثيرة من الجيش البيزنطي في مصر كانت من الإقباط . نعم انهم مالوا الى الحياض بعد سقوط الفرما ، وانضموا الى المسلمين علائقة بمسند ستولم حسن بايليون ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم لم يتكونوا موجودين في الحصص في ذلك الحين . وكانت في الحصص صغيرة طيبة من الزاد والسلاح من كل نوع ، وقد لجأ اليه جمع عظيم من غير الجند من أهل منطقة مصر والأديرة المجاورة للاحتشاء بأسواره . ويؤكد ان المقوقس كان يداخله اذ ذلك ، وهو قول لا نستطيع فيه أو تأكيده : وعلى أي الأحوال فانه لما اشتد حصار العرب للحصص وقتالهم لن فيه ، تسنى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب الحصص الجنوبي وعبروا الى جزيرة الروضة وقطعوا الجسر الذي يصلها بالحصص حتى لا يصل اليهم أحد . وبعد قليل خاف الأميرج وتسر من ممة ، فهربوا الى جزيرة الروضة لاحتين بالمقوقس ومن ممة .

بهذا كان أمر الحصص ، وأصبح الاستيلاء عليه مسألة وقت ، وانتقل مركز الثقل الى جزيرة الروضة ، ورأى المقوقس أن الطرف لا يحتمل طول الانتظار فبدأ بالاتصال بالعرب ، وأرسل الي عمرو يطلب المناوضة ، فأرسل اليه عشرة رجال فيهم عبادة بن العاصم ، وهو الذي تولى الكلام . وقد

التاريخية في شيء . وتسلم القرب الحصص
وخرج من فيه ، وأصبح من ذلك الحين حصنا
اسلاميا .

وفد وجد المفوض في سقوط الحصن
ما يؤوي وجبة نظره ، فأخذ يحض من معه
على ضرورة التسليم والإذعان للجزيرة ،
حتى قبلوا رأيه وتصلح الفريقان . ولم يكن
المفوض مثالا للامبراطور البيزنطي ، ولهذا
فقد نص في صلحة الصلح على أن الأمر
لأهل مصر أو الأقباط ، وفد أورد ابي
عبد الحكيم وغيره نص الماهدة ، وسنوده
ليسا يلي لأهيتها مقسما الى فقرات بحسب
موضوع كل فقرة ، حتى نستطيع الرجوع
اليها فيما يلي من البحث .

١ - ٢ بسم الله الرحمن الرحيم . هذا
ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان
على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنازلهم
وسلبيهم ورحم ورحمهم .

٣ - لا يدخل عليهم فيه من ذلك
ولا ينتقص .

٤ - ولا يساكنهم النوب (أي أهل
النوبة) .

٥ - وعلى أهل مصر أن يعينوا الجزيرة
إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانمت زيادة
نهرهم خمسين ألفا (دون تحديد
والأغلب أن المراد درهم ، وسنترد مناقشة
ذلك) .

٥ - وعليهم ما جنى لغصوتهم (أي
لصوصهم) .

٦ - فإن أبي أحمد متعم أن يعيب (يريد
الى الصلح) ذم (أي خفف) عنهم بقدر
ذلك .

٧ - ومن دخل في صلحهم من الروم
والنوب غله مثل ما لهم وعليه ما عليهم .

٨ - ومن أبي واختار الذهب فهو آمن
حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا .

٩ - عليهم ما عليهم أثلاثا ، في كل ثلث
جباية لث ما عليهم .

١٠ - على ما في هذا الكتاب عهد الله
وذمته ودمه رسوله وفضة الخليفة أمير
المؤمنين ودمهم المؤمنين .

١١ - وعلى النوبة الذين استجابوا أن
يعينوا يكدوا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا
على الأشتين وأولا يسنعوا من تجارة صافرة
ولا واردة .

١٢ - شهد الزبير وعبد الله ومحمد أباه
وكتب وردان وحضره .

ونصوص هذا العهد واضحة لا تحتاج
الى مزيد من البيان ، وهي في ذاتها تليد
ما قلناه من أن المتوقس كان من أقباط مصر ،
وأده كان يتكلم باسم مواشي ، ولو أنه كان
قيرس عامل هرقل لما عقد الصلح عن أهل
مصر دون سواهم من الروم ، الا من قبل من
هؤلاء الأخيرين الذين في ذلك الصلح .
وبعضنا أيضا ملاحظة أنه صالح عن تبعه من

أهل مصر ، لأن نواحي أخرى كانت لم تخضع
بند ، فهو غير مكلف بإدائه الضريبة عنها ،
وإذا ثارت ضاحية على العرب وغطمت أموالها
خفف مقدار الضريبة بقدر ما يخص هذه
الناحية (فقرة ٦) ، لأن أهل مصر غير مكلفين
بإخضاع نواحيهم للعرب ، وعلى عكس ذلك
كانوا مشرطين . عن الأمن في نواحيهم ، ولهذا
فعلهم ما جنى لصوابهم (فقرة ٥) ، وواضح
من الفقرة العادية عشرة أن لغوا عن أهل
النوبة استجابوا لهذا الصلح ، وفرضت عليهم
ضريبة من المائبة والغبل .

وقد ذهب بطر الى أن هذا الصلح
خاص بأهل منطقة مصر وحدها ولم يكن
صالحا عاما عن أهل مصر ، واعتدلى ذلك
على جميع أعمام قلة قدر الجزية التي تنزرت
(٥٠ مليون درهم ، وهي ٣٠ مليون دينار)
وخلقت بين معاينة الصلح هذه وشروط تسليم
حصن يابلون . وغاب عنه أن مبلغ الجزية
الذي تقرر في الصلح كان خمسين مائتا ،
وسعاد التقدير بند تمام فتح مصر كلها على
ما سنراه .

استكمال فتح الوجه البحري والصحراء والقيوم

وبقى للروم بند ذلك معقل آخر هو
الاسكندرية ، وكان لا بد من فتحها حتى يتم
خلاص البلاد من الروم ، ولكن عمرا رأى أن
يشكل افتتاح ما يستطيع الوصول اليه من
نواحي مصر قبل أن يخرج الى الاسكندرية ،
فبعث جرابا سريعة الى نواحي الوجهين

القبلي والبحري ، فذهبت حملات الى
عين شمس وتبسي وديياط وتونة (اندثرت
اليوم ومكانها جزيرة بحيرة المنزلة تسمى
كوم ابن سلام ، شرقي مطرية المنزلة)
ودميصة (حاليا قرية بمرکز طنطا ، مديرية
الغربية) ووسطا (من نواحي دياط على
٥ كيليم مترات منها) ودقهلة وبنا (اليوم
بنا أبو حنبل مركز سنود مديرية الغربية)
وبوسير (اليوم أبو حنبل ، مركز سنود ،
غربية) والبشردان (اقليم كان يقطن
الملك حول بحيرة البرس) ثم الى القيوم
والاشمولين والحميم وغيرها من بلاد صحراء
مصر « لاستتبع سرور بن العاص فتح مصر ،
اصارت أرضها أرض خراج » كما يفسر
البلاذري . وكان أهل هذه النواحي يدخلون
على شروط الصلح الذي قلده الخفوقس ،
فزادت مقادير الجزية ، مما جعل عمرا
يقرر النظر في أمرها جملة بمسد فتح
الاسكندرية .

ويبدو أن فتح القيوم كان أئسبه
بالمغامرة ، لأن المسلمين لم يفتحوا أول الأمر
الا الى قرية متفرقة الى الشمال من قرأها
تسمى الهنسا (رائت اليوم وفي اسمها
بني عروى المهسا ثم المهس ناحية قلمشا ،
القيوم) ، أما الاستيلاء على ناحية القيوم
فلم يتم الا بعد ذلك بنحو عام ، وتذهب
الروايات الى أن أمرها ظل مجهولا للمرب
حتى داهم رجل عليها وعلى الطريق اليها ، وقد

ثم نزل عمرو بنقيس ، وكانت بها حامية رومية يقودها قائد يسمى دومتيانوس تحت يده سفن كثيرة في النيل ، فلما رأى العرب ترك سفنه ومعداته وفر هاريا مع ضر من جنده إلى الاسكندرية ، فأرسل عمرو في أثره سرية يقودها شريك بن سبي المرادي ، فأدركهم عند كوم شريك (مركز كوم حمادة ، بحيرة) وكانوا أكثر من المسلمين عددا فأحاطوا بهم ، فأرسل شريك يستنجد بعمرو ، لأجده ، وراجع الروم حتى سكتشيس (الصدوم سطيس على حافة كيلو مترات جنوبي دمنهور) فالتقوا عندها وانهم الروم ، وتمهقروا حتى وقفوا عند الكريون (قرب معمل القزاز ، مركز كفر النوار بحيرة) وكانت مضاع الطريق إلى الاسكندرية . وكان فيها حصن منيع شمالي الضفة الذاهبة إلى الاسكندرية ، وكان القائد تيودور قد تحصن بها وبعث يطلب النجدة ، فأثته من مواضع ملل الخييس (مكاتها الآن قرية أم حكيم ، مركز شبراخيت ، بحيرة) وسطا (مركز كفر الشيخ) وبليب . واستمر القتال بضعة عشر يوما ، ثم الصدوم الروم وتمتصم المسلمون حتى بلغوا غط الحصون الذي يعنى الاسكندرية فحرقوها عنده .

ونزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط ، بدوهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة ، فأقاموا شهرين . وقد استعد

كتب في تصحاح كتاب قصصى خاص يسمى « فتوح الينسا » . وذهب يوحنا النقيوس إلى أن العرب عندما دخلوا الينسا قتلوا كل من وجدوه فيها من رجال وفسوة وأطفال ، وكذلك فعلوا عند دخولهم قبيوس ، وكلاهما الليرين مستبدان ، إذ لماذا يختص العرب هذين البلدين بهذه المعاملة دون بقية بلاد القطر ؟ ولا يفرج الأمر هنا عن كونه احدى الفترات الكثيرة التي حلا بها اليرغب كتابه .

فتح الاسكندرية :

ولم يضع عمرو وقتا ، بل أتجه نحو الاسكندرية رأسا . وللمرة الأولى لرى النيل إلى جباب العرب صراحة ، وذلك نتيجة شعبة لمساعدة الصليح ، فيقول ابن عبد الحكم عن عثمان بن صالح : « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط ، وفد أصلحوا لهم الطريق وأقاموا لهم الجصور والأسواق ، وصارت لهم القبط أحوالا على ما أرادوا من قتال الروم ، وسحب بذلك الروم فاستمدت واستجاست ، وقدمت عليهم مراكب كبيرة من أرض الروم ، فيها جمع من الروم عظيم بالعدة والسلاح » . ولم يلق المسلمون أي طريقهم أهدأ من الروم إلا عند ترنوت (حاليا العرائفة مركز كوم حمادة ، مديرية البحيرة) ، وكانت بها فرسة يسير النيل عندها في الذهاب إلى الاسكندرية ، وقد لقي المسلمون بها حامية رومية صغيرة الهزمت أمامهم .

الذين وكيوا البحر بذلك ، فدادوا الى الاسكندرية ودخلوها ناقضين للمهد ، مقاتلهم المسلمون قتالا عنيفا حتى استولوا على البلد مرة ثانية . ورأى عمرو أن ذلك يبيح له اعتبار البلد قد فتح بمتوة « بشر عقد ولا عهد » ، فبعث الى عمر يستأذنه لئ ان يجهلها وأهلها غيبة للمسلمين ، فأبى عمر وأمره بأن يجرى عليها العرط الأول . وأصرح فوسس الى القسطنطينية ليحصل على تفويض بقبول الصلح ، وعاد بالمواقفة واشترط المحافظة على الكنائس وعدم التدخل في الشؤون الدينية اللاهالي والسماح للبصود بالاقامة في الاسكندرية ، وأن يبقى العرب أحمد عشر شهرا خارج المدينة حتى يتجه جلاء الروم عنها . وقد قبل عمرو ذلك كله وتم الصلح أوائل ذي القعدة ٢٥ هـ / أوائل نوفمبر ٦٤٦ م ، وأبحر الروم من الاسكندرية لي ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ . وكان فوسس قد مات خلال مهلة الأحد عشر شهرا ، ل ٢١ مارس ٦٤٢ .

بذلك تم فتح مصر كلها في نحو سنتين وأربعة أشهر ، ولقد وصل عمرو بن العاص الحريش في ١٥ ذي حجة ١٨ هـ / ١٢ ديسمبر ٦٣٩ . وبارح الاسكندرية آخر جنده بيزنطي في ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ . وضم العرب الى اميرالمؤمنين الناشئة هذا القصر المصري الذي كان اقضى وأتمن ما ملكته دولة البيزنطيين ، ووضع العرب قلعا ثابتة

الروم في الاسكندرية استعدادا عظيما ، وأهم هرقل للأمر حتى قيل انه استعد للمغاب اليها للمخاع عنها بنفسه لولا أن حال الموت دونه وذلك . وقد عاك وقوف عمرو أمام الاسكندرية ، وكان بطبعه رجلا وانث النساء لا يلبثن الى السبكون ، فقتل بعض جنده في سرايا اضمت بمضي فواح من شمال غرب الدلتا والقيم البحرية ، ثم عاد فشد الهجوم على الاسكندرية حتى طلب المدافعون عنها التسليم مقابل الجزية ورد من عسى أن يكون العرب قد سبوعهم من أهلها . ولم يستطع عمرو اجابتهم الى ما طلبوه الا بالذل من الخليفة عمر ، لأن حكم البلد الذي يستولى عليه بسد هذا القتال الصريف هو حكم الفتوة ، ل حين أن المدافعين عن الاسكندرية طلبوا معاملة الصلح ، فكتب عمرو الى عمر بالأمر ، فوافق على اجابة المطلب ، ودخل العرب الاسكندرية بسد نحو ثلاثة أشهر من القتال والحصار .

وقد روى ابن عبد الحكم خير الفتح عن رجل من حضروه هو زياد بن جسرود الزبيدي . ولم يكن أحد بتصور أن مدينة كالاسكندرية تسقط بسد هذا الوقت القصير ، ولكن هكذا بلغ ضعف الروم واضطراب أمرهم ، وهكذا بلغت قوة العرب وعلو نجمهم . وقد أصرح عمرو بعد دخول الاسكندرية فأرسل جزءا كبيرا من جيشه ليتبع فلول من هرب منها من الروم ، وأحسن

افريقية مكنت لهم غلباً بعد من السيطرة على
 الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ،
 ومن الاسترسال مع الفتح حتى استولوا على
 المغرب كله والأندلس ، وسيطروا بذلك على
 الحوض الغربي كذلك البحر وتمهد السبيل
 لتحويله الى بحيرة عربية . وامتدت حدود
 المشرق حتى وصلت الى المحيط الأطلسي بل
 الى جبال البرت المعروفة بالبرانس ، وافتتحت
 أسس المسلمين الطريق الى قلب القارة
 الافريقية ، فلم يكن فتح من فتوح الاسلام
 عظم أهمية ولا أهدأ اثر اى تاريخه من فتح
 مصر . ولا يتسع المجال هنا لعرض النتائج
 البعيدة المدى لهذا الفتح ، ففى المبر من أن
 تبين وتوضح ، وسرى بعض النتائج عما يلى
 من دواستنا .

مصر جزء من الدولة الإسلامية (١)

تصوّر المؤرخون أن يسولوا ان مصر
 أصبحت بعد تمام الفتح ولاية من ولايات

(١) اصول لآل جانبى شرح مصر والمغرب
 والأندلس ، لابن عبد الحكم ، و كتاب الولاة
 والخلفاء ، للكتيبى ، و خطط المغرب ،
 طبعة القاهرة ١٣٢٤ ج ١ و ٢ ، والطبرى وابن
 الأثير ولبنة التراجع الشى ذكرها فى الفقرة
 السابقة ، الظل ؛

المغزى : العارف العارف ، طبعة الدكتور
 جمال الدين الشيبان ، القاهرة ١٩٤٨ .

- : اسلوب لمرقة دول الملوك ، طبعة
 الدكتور محمد مصطفى زيادة - الجزء الأول ،
 اقسام ١ و ٢ و ٣ .

- . تاريخ الخط ، طبعة نشرعسى
 قسنطنط في جوتجن سنة ١٨٤٥ .

أبو المعاسين بن عمرى بروى . النجوم
 الزاهرة . فى ملوك مصر والقاهرة ، - ١ و ٢ .
 القاهرة ١٦٦٩ - ١٦٧٠ .

ابن حجر العسقلانى : الاصابة فى تمييز
 المشايخ . ٨ اجزاء ، القاهرة ١٢٢٣ - ١٢٢٥
 بمواك عمرو بن العباس وعبد الله بن ابي مروح
 ومطرية بن ابي سفيان ومطربة بن حديج ،

ابن دقماق : كتاب الانتصار لواسطه طه
 الاضواء ، ج ١ و ٢ ، بولاق ١٣٠٦ .

لدائمة بن جعفر : ليد من كتاب الجراح
 وصحة الكتابة ، ج ٦ من مكتبة الجغرافية ،
 ليدن ١٨٨٩ .

الفلستى . صبح الأمل فى صلالة
 الايام ، القاهرة ١٦٦٣ - ١٦٦٩ فى ١٤ جزء
 يحيى بن آدم العربى : كتاب الجراح ، ليدن
 ١٨٦٥ - ١٨٦٦ .

أبو يوسف القاضى : كتاب الجراح ، بولاق
 ١٣٠٢ .

يحيى الأبطاى : كتاب التاريخ ، طبعة
 لويس شستو ، بروك ١٩٠٩ .

ابن الملائس : ذيل تاريخ دمشق ، ليدن
 ١٩٠٨ .

ابن صبيد : المغرب ، الجزء الخامس بمصر ،
 طبعة الدكتور زكى حسن رشوى صبيد
 وسيدة اسماعيل الكانلى ، القاهرة ١٦٥٣ .

ابن فضل الله العمري : مسائل الأخصار
 فى مسائل الأخصار ، جزء واحد مصر فى دار
 الكتب سنة ١٩٢١ .

ابن الجيمان : الحظفة التسمية فى أسماء
 وبلاد المصرية ، القاهرة ١٨٩٨ .

الاسحاقى : لطائف أخبار الأول فى
 تصرف فى مصر من أبواب الملوك ، القاهرة
 ١٣٢٨ .

السيوطى : حسن المعاصرة ، القاهرة
 ١٣٢١ .

أحمد أمين : فجر الإسلام : القاهرة ١٩٢٨ .
وشخص الإسلام : ج ١ القاهرة ١٩٢٦ .
الدكتور محمد كامل حسين : أدب عصر
الإسلامية - عصر الولاة الطليحة الثانية ،
القاهرة ، بدون تاريخ .

محمود فكري : عصر من عهده الإسلام ،
القاهرة ١٩٤١ .

الدكتور عبد الرحمن فهمي : صنع النكبة ،
القاهرة ١٩٥٨ .

Carl Heinrich Doering : *Untersuchung zur Geschichte Ägyptens unter den Fatimiden*, Leipzig, 1903.

— : *Ägypten, Syrien und die Levante*, Leipzig, 1903.

— : *Islamstudien*, 2 Bände, Leipzig, 1914.

Max van Berchem : *Les papirus égyptiens et l'Égypte féodale sous les premiers califes*, Gizeh, 1916.

Une page nouvelle de l'histoire de l'Égypte, *Journal Asiatique*, 63 série, tome IX, Paris, Janvier, Février, 1911.

Buchner, Mrs. E.L. : *The Story of the Church of Egypt*, London, 1909.

Frans Franke : *Kairo*, Leipzig, 1902.

Reichmeyer : *Beschreibung Ägyptens im Mittelalter aus dem geographischen Werke des Araber*, Leipzig, 1903.

Becker : *Papiri Schatz Kairo*, Halleberg, 1906.

Guignard : *Étude de l'histoire géographique de la ville d'El-Fouar ou Mûr dans les Mémoires de l'Institut Fr. d'Arch. Orientale*, vol. XXXV, Le Caire, 1915-1919.

Wachsmuth : *Die Stammhalter von Ägypten zur Zeit der Chalifen*, Göttingen, 1875-1877.

مجموعات أوراق بردية ووثائق نخرها
Gizeh في مجموعات معهد الفرنسي بالقاهرة
سنة ١٩٠٩ - مجلة ٢٢

Max van Berchem : *Manuscrits pour un ouvrage descriptif sur les manuscrits*, tome 1, Le Caire 1894-1907.

وقد نشر المجلة الثاني جاستون فيمت في
مجلته

Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, vol. LII, Le Caire, 1916-1918.

Adolf Erichsen : *Griech. papyri aus Ägypten*, *Sitzber. Acad. Wiss.*, 1903-1904.

Philipp, *Ägyptische Papyri in der Ägyptischen Sammlung & Museum*, Le Caire, 1894-1906.

وقد ترجم العزيزين الأول والثاني الدكتور
حسين إبراهيم حسين ، القاهرة ١٩٣٥ و ١٩٤٠ .
ونشرت أيضا أربع منشورات للإسلامية جروسيان
مترجمة إلى العربية بقلم توفيق استكاروس ،
القاهرة ١٩٣٢ .

Carl Heinrich Doering : *Historische Studien über den Isonubur Agyptenalterswerk* (Der Islam, Band II, 1911).

Kerebassch : *Ägypten*, Leipzig, 1902, *Phokier* *Juch der Antikologie*.

114. Bail : *Transcriptions of the Greek papyri*, *Revue Egyptologique* (Der Islam, Bände II, III, IV, XVII, 1911-1912-1913-1914).

Will Owsen : *Coptic Grammar*, London 1912
Götting 1914 et autres ; *Épigraphie Copte*, *Revue Egyptologique*, 1913-1914.

أبحاث ودراسات :

الدكتورة سيدة اسماعيل الكانفي : مصر
في فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٧ . وهو أهم
يعت في الموضوع .

الدولة الإسلامية . وهذا القول يخالف الواقع
بعض الشيء ، وأقل ما يفهم منه أنه كانت
هناك دولة رئيسية مركزية كالدولة الرومانية
مثلا ، تعتمد على شعب ممتاز حاكم كالنخب
الروماني . والحقيقة فيما يتصل بدولة
الإسلام تخالف ذلك ، فلم تكن هناك ، من
الجهة النظرية الإسلامية ، دولة رئيسية
تقوم على شعب ممتاز حاكم ، يخفض له
ولايات لمشي إياها شعوب مغلوبة على
أمرها ، وإنما العنقبة فيما يتصل بالدولة
الإسلامية أنها كانت دولة عامة يقوم بشرطها
المستطون عامة لا يفرق بينهم في الحقوق
والواجبات جس أو مكان ، فكل مواطن
مسلم في هذه الدولة بعد من أصحابها وله
الحق في ولاية وطاقها العامة وقيادة جبرشها
والإشراف ل وضع التشريع الخاص بها
ومن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تولي
المسلمون من غير العرب وطاقه عامة
وإنتداه من عصر الراشدين اشتركوا في
التشريع والتشريع ، وخلال العصر الأموي
قادوا الجيوش وتولوا الولايات ، وخلال
العصر العباسي ثلاثت مسألة المسلمون ثلاثيا
تماما ، وأصبحت الدولة بالفضل دولة عامة
للمسلمين عامة . كذلك انتقل مركز الدولة
من جزيرة العرب الى الشام ثم الى العراق
والمغرب أيضا ولايات ، ومع ذلك لم ينكر
أحد ذلك الانتقال ، ونظر اليه الناس نظرتهم
الى شيء عادي لا يتعارض مع طبيعة دولة

لامتدادات جديدة لدولة الإسلام .

ومن مصر فتح المغرب كله ، وأصبح
المغرب بجزءه جزءا من الدولة العامة ، وقام
أهله بضم كثر جديد الى الدولة العامة التي
أصبحوا مواطنين فيها ولي جملة أصحابها ،
فتحتوا الأندلس ، أو قاموا بأعظم جانب من
هذا الفتح . ومثل هذا حدث في المشرق ؛
فتح العرب العراق ، ثم اشترك أهل العراق
مع العرب في ادخال ايران في دولة الإسلام ،
ثم اشترك العرب والفرقيون والايديون
في فتح ما وراء النهر وأخذوا يدخلون الأترك
وبلادهم في دولة الإسلام ، ثم قام الأترك
بتوسيع نطاق الدولة غربا بلجهم شرقا حتى
وصلوا الى الهند . ولوالد هذه الأجناس
كلها على قيادة أمور الدولة الإسلامية العامة .

كلما ومن جنس من أجناسها نفس بالأمر من
بعد جنس آخر ، حتى صارت أمورها العامة
آخر الأمر الى الأتراك العثمانيين . والى هذه
الطبيعة الخاصة بدولة الإسلام ترجع الجبوية
المتصلة التي ميزها على غيرها من دول العالمين

القديم والوسيط . وربما شابهتها من بعض
الرجوه الدولة البيزنطية ، التي يرجع طول
صمرها الى أنها كانت في الواقع دولة عمارة
بتولي أمورها الأركان أو الأعمر من أهلها ،
وتألف جيوشها من التتواريين وأهل آسية
المشرقية والأرمن وأهل البلقان بل الأراك
على السواء .

غير أنه في دولة مترامية مترسعة دائما
كالدولة الإسلامية تسنوطن أراضها شعوب
كثي لم يضل الأمر من شعب لقرى وشعب
ضعيف ، أو شعب يكون قويا حينما
حينما ، ومن ثم فقد غلبت في داخلها شعوب
على شعوب وخفضت بلاد لبلاد ، حوذ أن
يكون معنى ذلك أن الشعب الغالب أصبح
صاحب الدولة وأن الشعب المغلوب قد
أصبح رعية محكومة مستتلة ، كما كان أمر
مصر مع الرومان مثلا ، فقد كان من المفروض
والمقرر *De jure or de facto* أنها ولاية
تابعة لروما أو القسطنطينية . فإذا كان
المصريون مثلا قد ظهروا على أمرهم في بعض
عصور التاريخ الإسلامي واعتبرت بلادهم
ولاية خاصة تسيروها ، فعنى ذلك أنهم
لم يستطعوا المحافظة على حقوقهم ، وعندما
استحوى أمرهم بعد ذلك غلبوا غيرهم
واستولوا ببلادهم بل ضلوا المهيم غيرهم .
والحجاز الذي كان المفروض أن يتقل ميد
الدولة كان أقل بلادها حظا في الرياسة
والقيادة على طول تاريخ الإسلام وعرضه .

كذلك لم يضل الأمر في هذه الدولة الإسلامية
الواسعة من سوء إدارة أو غلب أو فساد
سياسة ، وما الى ذلك من المساوي التي
لا تخلو منها دولة من الدول ، ويورد ذلك
دائما الى صعوبة الحكم في ذاته والتي تعدد
المشاكل وعمرها والتي عجز الحكام عن إيجاد
الطول الصالحة ، وذلك أمر لا علاقة له بدولة
الإسلام في ذاتها ، بل هو مشكلة انسانية
خالصة تأس منها بعض شعوب الإسلام كما
تأس منها غيرها .

هذه مقدمة لا بد منها قبل النظر في
شؤون مصر بعد دخولها دولة الإسلام ، فهي
لم تصبح ولاية عربية أو ولاية إسلامية ، بل
جزءا من دولة الإسلام يجرى عليها وعلى
أهلها ما يجرى على الوطن الإسلامي الكبير
وأهله جميعا ، ويكفى أن نقول أن بلاد المغرب
وهم الجنس الذي تنسب اليه الدولة كلها ،
كانت أسوأ حالا من مصر أو غيرها من أجزاء
الدولة الإسلامية خسلال العصر الأموي
وما تلاه ، لا لأن شعبا كان مغلوبا
أو مستضعفا ، بل لأن طبيعة القيم الحجاز
لم تساعد أهله على الصعود الى رحمة الصراع
الدولي الذي لم يبدؤا به قط على طول
تاريخ الإسلام . ولم يتحرر شعب مصر بعد
دخوله في دولة الإسلام بأنه شعب مقهور ،
ولم يكن موقعه من العرب موقفا مغلوبا من
غالب كما يقول نصر من الأوروبيين الذين
أرخوا أمر الإسلام (مثلا يقول جاستون

ليت : Les vainqueurs et les vaincus) ،
 بل اننا اذا نظرنا الى الامر مليا استظمتنا ان
 تقول انهم كانوا — يوقعهم الى جانب العرب
 انتهاء الفتح — في جملة الغالبين ، وهناك عبارة
 مشهورة لمجاهيل السورى يقول فيها : « انه
 ليس بالكسب اليسير اننا نخلصنا من قسوة
 الرومان وشرحهم وسخطهم وعصبيتهم العاسية
 علينا ، ووجدنا انفسنا بذلك في راحة » ،
 وليس هذا كلام رجل يسمو ان قومه قد قبلوا
 على امرهم .

وبعنا ان نلاحظ هنا امرا كان له ابعده
 الاكثر في تحديد الدور الذي قامت به مصر في
 تاريخ العصر الذي تحدثت عنه هنا وما تلاه
 من عصور ، وهو ان مصر بطبيعتها بلد غنى
 بقرم غناه على مورد ثابت هو الأرض ، وان
 تبعها تصب دهب خبير باستغلال اوقهيه
 وما فيها من موارد الطير الأخرى ، وهو الى
 جانب ذلك فروع مسالم يميل الى العيشة
 المستقرة الرابيه . وقد نظم هذا النسب اموره
 على نحو ثابت منذ الزمن القديم ، ومن لم
 لاه تكن هناك في المصور الوسطى مشاكل
 مستعبية أو طائفة كائنى تترس لها البلاد
 ذات الطبيعة الجبلية الوعرة ، أو التى يقتصد
 أهلها على مطر غير مستظم أو على تجارات
 راحة عادية في البر والبحر ، وما الى ذلك من
 وجود امشاش الربط بالظروف الطبيعية
 أو العاصم . وكل ما تحتاج اليه مصر من
 حاكمها في سياسة امورها الداخلية هو ان
 يكون قادرا على ان يقر الأمن في ربوع البلاد
 عادلا في أحكامه وقيما يجهن من أموالها ،
 ولهذا كان الناس يبرون عن الحكم في العصر
 التركى « بالبطط والربط » أى ضبط الأمن
 وربط الأموال . كما ، ما عدا ذلك من الأمور
 كالتنظيم وتمهد المرافق لمن شؤون سكان
 مصر أنفسهم ، تعلموا كيف يرتبوننا على مر
 العصور . وكل ما تعرضت له مصر خلال
 تاريخها من الأزمات والمناهب كأذ سببه عجز
 الحكام أو جنهم أو تدخلهم في شؤون
 الناس تدخلا مضادا .

على أى الأحوال أصبح المصريون
 — سواء من أسلم منهم ومن لم يسلم —
 جزءا من أهل الوطن الاسلامى الكبير ، يجرى
 حايهم ما يجرى على لبرهم من أحكامهم
 وفروقه وتقلب الأحوال به ، فرخيت حياتهم
 واحضأوا بقية خلافة مصر بن الخطاب والنصبه
 الأول من خلافة عثمان بن عفان ، شأنهم
 في ذلك شأن بقية أهل دولة الاسلام . فلما
 نشبت أزمة عثمان وتحركت الأمن اشترك
 أهل مصر ليهما وقاموا بدور معروف ،
 وشاركوا أيضا في النزاع بين على ومعاوية ،
 وكان لهم شأن في النزاع بين الأمويين
 والزيديين . بل فترت اسم مصر بالعراق
 الثمالي بين الأمويين والساسانيين ، شئ أن
 تاريخ مصر خلال هذه الفترة يتر جزءا من
 تاريخ دولة الاسلام كلها . وهذا فانه يصر
 ان فكتبت لها تاريخا مستقلا من الفتح الى
 نهاية الدولة الأموية على الأقل .

المصريون بصفة عامة من تقبل ضرائب أو مبيعات حكما . والفترة الثانية فترة قتل سياسة وفوضى ادلوية تهمصر فيها مدد الحكام ويناقبون فيها على السيلاد واحدا في اثر واحد ، ويفقد الكثيرون من كبار العمال الهية وتتمتع الناس ، وتملأ مبالغ الجبايات ويشكو المصريون الظلم وتكثر ثوراتهم وتعرض امور البلاد كلها للفساد . وهذا الاختلاف بين القترتين لما هو سدى للتطور الصام الذي شمل الدولة الاسلامية كلها خلال هذين المصريين .

الادارة :

وليداً بالفترة الاولى : اقتصر العصاص الادارى الذى انشاء العرب لمصر على وال يعتبر حاكماً عاماً وممثلاً للخليفة وينتخب في اختصاصه كل شئ بصورة مبدئية . فهو الحاكم الادارى الاعلى وامير الصلاة والقائد لسكرى والمسؤل عن شؤون المال وما الى ذلك الا القضاء ، فتمسده انتهرته الدولة الاسلامية من اول الامر وظيفه رفيعه القدر يقتضى صلاحها ان يكون مدعماً مساجها مستهداً من الرئيس الاعلى للدولة مباشرة . وكان الوالى يسمى ايضا السامى أو الأمير أو أمير الصلاة أو أمير الجند ، وتسمى الوثائق البردية انيوناييسه سيبولوس . وتمسده يهرد الخليفة لبعض اختصاصات الوالى موظفاً خاصاً بعينه من عنده ، ويظهر هذا بصورة خاصة في الناحية

لهذا لم تتطلب مصر من العرب ان يضعوا لها نظاماً جديداً ، بل الاكتفاء برعاية النظام التقليدى . ولم يكن الرومان أو البيزنطيون من يعلمهم قد اقلعوا فى حكم مصر ، لانهم انتبروها مورداً للفلال واملأوها بالمطالب والموظفين المكلفين بصنع المال ، ثم اضاعوا الى ذلك التدخل فى شؤون العبيدة . وقد تلاقى العرب ذلك كله من اول الامر ، لقروا على البلاد بالاتفاق مع أهلها قدرا مبنيا من الجباية واختصروا الجهاز الادارى الى أبسط حد ممكن ، وتركوا الناس أحراراً فى عقائدهم فكان من الطبيعى ان يسود الرخاء والاستقرار .

الفترة الثانية الاموية والعباسية :

وينبى ان ترقى عنه دراستنا لأحوال مصر — منذ الفتح العربى الى قيام دولة أحمد بن طولون عام ٣٥٤ / ٩٦٨ — بين قترتين تختلف احدهما عن الأخرى اختلافاً بيناً فى الروح والاتجاه : الأولى تمتد من الفتح الى نهاية العصر الأموى (من شمال ٦١ هـ / سبتمبر ٦٤٢ الى ربيع الأول ١٣٣ هـ / أغسطس ٧٩٩) ، والثانية من بدء العصر العباسى الى استبعاد أحمد بن طولون بشؤون مصر فى التصور الاموية من سنة ٢٥٤/٨٦٨ . فالفترة الأولى تعتبر بصورة عامة فترة استقرار ونظام ورخاء ، تطول فيها مدد العمان ويطلب عليهم وعلى من يعاونهم العدى والتصدرة وحسن السمى ، ولا يشكو

المالية ، فكثيرا ما كان الخلفاء يعينون للقيام بها عمالا خاصا مسئولوا امامهم مباشرة يسمى عامل الخراج .

ولما كانت شؤون المال اهم جانب من افعال الولاى فان ذلك التصرف كان يلقى معارضة شديدة من الخولاة ، بل ترك عمرو بن العاص ولاية مصر عام ٦٤٥/٦٥ عندما قرر عثمان أن يولى عبد الله بن سعد على الخراج الى جابه ، وفي خلافة معاوية شكك أخوه عتبة بن أبي سفيان عامل مصر من تولية وردان عمالا على الخراج الى جابه ، فطمع اليه الخراج . وكان الولاة على حق في هذا الاعتراض ، لأن الخراج كان عصب الولاية في الواقع الأمر ، وانما تولاه رجل قادر استطاع أن يتسلط الولاى ، كما حدث عندما وثى هشام بن عبد الملك حفيد الله بن الحبصان عمالا على الخراج ، فقد استبد بالعمال حتى عزل خمسة منهم خلال ولايته الطويلة على خراج مصر (٧٠٥/٧٠٥ - ٧٣٤/١١٦) ومع ذلك فلم يخلع الخلفاء من المراد الخراج بواله خاص حتى أقام خلفاء بني أمية سبعة منهم لله فترات مختلفة . وعندما ولى هشام ابن عبد الملك على مصر الوليد بن رفاعه لم يدخر الوليد وسعا في التخلص من عامله الخراج حبيب الله بن الحبصان ، وتسكن من اقتناع الخليفة بضرورة إبعاده عن خراج مصر ، فاستحل على المغرب .

وكان العامل هو أمير الجند ، فكانت

قيادة الجيوش وتأمين البلاد من البر والبحر من أهم اختصاصاته ، وبنيى أن تقر أن عمال مصر حتى غاية العصر الأموى كانوا على العجلة قوادسة ، وسرى فيما بعد مقدار اهتمامهم بشؤون الجند والحرب وتدريبهم في ذلك .

وكان العامل مسئولاً عن الأمن والحمل البلاد ، وجرى العادة بأنه يعين الولاى من قبله موظفاً مسئولاً عن الأمن يسمى صاحب الشرطة ، يكون في الغالب لائبا عنه اذا غاب وتاليا له في الأهمية في السلم الإدارى ، وفي أحيان كثيرة كان صاحب الشرطة يخلف الولاى في منصبه اذا غاب أو مات أو تنحى عن عمله . وربما أقام الخليفة صاحباً للشرطة من قبله . ووليت الشرطة بصفة عامة من وظائف الادارة التي لا تعرف من أمورها شيئا مفصلا . وليس يتصل بمشتر لدينا اشارات كثيرة من الشرطة ، ونستطيع أن نستخرج منها اختصاصاتها ، ولكننا لا نعرف المدى الذي كان يمتد اليه سلطان صاحبها ؛ هل كان يشمل بلاد مصر كلها أو القسطنطينية فقط . وقد ذهب بعضهم الى أنه كان يشمل القطر كله ، وأنه كان لصاحب الشرطة ممثلون في النواحي ، ولكننا لا نجد بين أيدينا ما يؤكد ذلك ، وكل ما لدينا اشارات الى ما يسمى شرطة فوق أو الشرطة العليا وشرطة أسفل أو الشرطة السفلى ، والمراد هنا قسمان إداريان قسمت اليهما القسطنطينية .

وعلى أي حال فإن ذلك لا ينطبق على شرعة مصر فقط ، بل على شرعة غيرها من بلاد الإسلام ، ففي العراق كانت الشرعة خاصة ببغداد ، وربما كانت هناك شرعة خاصة بالبحريرة ، ولكننا تابعة لوالى البصرة . وفي قرطبة كانت هناك شرعة عليا وشرعة سفلى لحاصنين بالمدينة ، وكانت هناك شرعات في كبار المدن ، ولكننا كانت تابعة للوالى ، أى أن نظام الشرعة في العالم الاسلامى كان نظاما خاصا بالعواصم ، ولم يكن جواز اداوية ضغما مثل جهاز البوليس والأمن العام عندنا اليوم ، بل هو لم يكن — حتى في هذه الحدود — نظام أمن من أول الأمر ، بل كان يطلق في المصور الأدبى على فرقة متنازة من الجند تنوب بحراسة الخليفة أو الوالى ، ثم امتد سلطان صاحبها الى الأمن في العاصمة ، والفظمنا عرب عن اللاتينى Securitas . أما الأمن في الكور فكان من شأن عمال الكور .

وكذلك يقال من البريد : وقد نشأت وظيفته من أيام معاوية بن أبى سفيان على الإغلب ، وقد أنشأه ليحرف أخبار النواحي ، أى أنه كان نظاما مهمته تسير المكاتبات بين مركز الدولة والنواحي ، وأهم ادواته النفرق التى تسير فيها البرد والغيل التى تحملها وليس لدينا ما يدل على أن صاحب البريد في مصر مثلا كان يقوم على تعيين الطرق المؤدية الى دمشق أو بغداد . انما كان الذى يهتم

بذلك الخليفة نفسه ، فقد أمر عبد الملك بن مروان مثلا بصنعة الأمان — أى تهويد الطرق — وإقامة الزنل على المراحل لتحل بها خيول البريد الراحة أو للاستبدال بخيل آخرى ، ولكن صاحب البريد كان موظفا رئيسيا ، لأنه كان مكلفا بإحصان المكاتبات من مركز الخلافة الى عواصم الولايات .

هذه هي الوظائف الرئيسية التى احتفل بها العرب للفرص أول الأمر ، أما بقية شؤون التنظيم الداخلى فقد تركت لأهل البلاد . وقد تسمت مصر بمسقة عامة الى قسطنطينيين ؛ الصعيد وسهل الأرض ، ويقابلان الوجه القبلى والوجه البحرى ، وفي حالات قليلة كان الأمير يولى على كل منهما عاملا تابعا له . ويتب على الظن أنه كان يتولى شؤون كل من القسمين رجل من أهل البلاد . - ومعظمها شؤون مالية — وكانت البلاد مقسمة الى العهد البيزنطى الى باجركيات فاحتفظ العرب بهذا التقسيم ، وأطلقوا على الباجركية لفظ كورة وهو عرب من الجرنالى .

وقد اجتهد باقوت في مقدمة ص مجسم البلدان ، في تحديد معنى الكورة ، ولكنه لا زال في حاجة الى بيان ، فهو لا يماثل « المدينة » في تصنيف الحسانى ، بل ربما كانت الكورة تقابل « المراكز » وما يتبع كلا منها من زمام ، فإن ابن دقماق مثلا يقول أن كور مصر كانت ثمانين ، وقال المقرئى فلا

عن القضاة ان كور الصعيد كانت ٢٨ فلما ذهب يحصيها لم يذكر الا ٢٢ أو ٢٣ ، وكور أسفل الأرض ٢٥ أو ٢٣ أو ٢٨ ، والمجموع على أي حال لا يصل الى ٨٠ . والمهم لدينا أن الكورة كانت قسما اداريا ماليا يمكنه صاحب كورة « من أهل مصر .

وكانت الكور مقسمة الى قسمي ذهب بنضم الي أن عددها ٢٤٠٠ ، وقال آشورول ان الوليد بن رفاعه «صاحبا احصاء تاما دقيقا خلقت ١٠٠٠٠٠ قرية» ، فلم يحص لي أسخر قرية منها اقل من خمسينة حصبة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية ، يكون جسيمة ذلك خمسة آلاف ثم ويل . وهذه كلها تهبذرات جزائية لا يستطيع المعزول عليها ، وأبسط ما يحصيها أن احصاء الوليد بن رفاعه هذا — الذي يصف القرزي ما أتفق في عمله من جيد . اقدر سكان مصر الذين تجب عليهم الجزية بخمسة ملايين ، فكان ينبغي أن تكون حصيلة الجزية وحدها ١٠ ملايين من الدراهم مع أن جباية مصر كلها في العصر الأموي لم تزيد على أربعة ملايين ، وكل ما استطاع قوله هو أن البلاد قسمت الى كور ، كل كورة تضم عددا من القرى . وعلى رأس كل كورة صاحب كورة مسئول عن شؤون كورته تمام العامل مباشرة ، ويساون صاحب الكورة موظف مختص بشؤون المال يسمى الجيستال ، وهو معرب من اليوناني ومعناه الكاتب أو المسجل .

أما القسرية فيحكمها رجس يسي المازوت أي شيخ القرية ورئيسها ، وهو معرب من اليوناني أيضا . وله معنى الكتاب أو « الجرافوس » القديم .

ويبدو أن عدد الكور وحدها لم تنهد خلال القرن الهجري الأول عما كانت عليه خلال القرن السادس الميلادي ، فلدينا قائمة بأجركيات مصر عسها هيروقليس خلال الثالث الأول من ذلك القرن ، وهي تضم اثنين وسبعين من مواسم الباجركيات ، نجد منها ٤٧ في قوائم الكور التي كانت موجودة في مصر خلال العصر الأموي . غير أن هذا التقسيم لم يظل على حاله ، واتجه الأمر لينا قليلا الى تقليل عدد الكور بضم بعضها الى بعض ، نتيجة للاضطراب والفساد اللذين دبا في شئون البلاد عامة خلال العصر العباسي .

وهذا التقسيم الإداري يختلف عن التقسيم الجغرافي للبلاد ، وقد خلط بعض الكتاب فجعل الأقسام الجغرافية أحيانا ادارية ، مثال ذلك أن تقسيم مصر جغرافيا الى أسطر الأرض والصعيد أم يكن له وجود في التنظيم الإداري ، وكذلك تسمية أسطر الأرس بالريف ، (تسميته الى بلى الريف وهو جزء الدلتا المحصور بين فرعي دمياد ورشيد) والحواف الغربي (وهو ما بلى فرع رشيد غربا) والحواف الشرقي (وهو ما بلى

فرع دباط شرقاً) . وربما كان لهذه الأقسام الجغرافية أثر في التقسيمات الإدارية الكثيرة التي عرفتها مصر خلال العصر الفاطمي وما تلاه ، أما العصر الذي ندرسه فلم يكن لها فيه صدى . ولم تكن الضمائم أو الإسكندرية مطردتين في التكون ، بل كانتا مدينتين ، تعتبر كل منهما وحدة إدارية قائمة بذاتها .

شؤون المالية :

فإذا انقلنا إلى الناحية المالية وجدنا أنفسنا أمام مشكلة جدية بأن قليل الوثائق عندها ، لأن لها معها تلى حشواً نالها على النظم المالية التي سار عليها المسلمون في إدارة دولتهم خلال عصرها الأول . ولقد نورد انباشون عدداً أن يقدموا بما نورد المراجع العربية من بيانات عامة عن هذه الناحية ويجهدوا في استخلاص أحكام منها ، فإذا ذهبنا لدرس هذه البيانات لاحقاً بين بعضها وبعض من الاختلاف ، والتناقض ما يجعلنا لا الملتئان إليها معناه للزلل وسوء التقدير .

ذلك أن هذه البيانات كلها لم تستند على نظر إلى الواقع أو على نقل من وثائق رسمية أو سجلات ، وإنما هي محاولات من مؤرخين كلهم متأخر عن العصر الذي ندرسه تأخيراً يعون بينهم وبين معرفة ما جرى عليه الأمر في الواقع . صحيح أن أقدم الموثوق فيهم من أصحاب هذه الأصول ، وهم ابن عبد الحكم والبلاذرى والطبرى ، يتسبون

ما يقدمونه من مسمومات إلى روافد يعتبر بعضهم **م** مراتب المعاصرين ، ولكن هؤلاء الرواة جميعاً قتلهم أو محدثون أو من يجرى مجراهم ، وأولئك جميعاً كانوا يرون أن مهمتهم **هـ** تفتق الواقع ، أي صياغته في صورة قانونية قهفية ، والتوفيق بينه وبين القواعد الشرعية الإسلامية : فإذا عمدوا عن جسيمة اجتهدوا في تسيبها إلى جزية وخراج وزكاة ، واعتبروا ما سوى ذلك من الضرائب مطروم وسكوما ، وإذا فرغوا من أخبار قمع بلد من البلاد وقموا يفتشون ما فتح منه صلحاً وما فتح منوة وهكذا . وقد أشرنا فيما سبق إلى أنهم لم يوثقوا في ذلك مطلبهم هذا ، فجاءت بياضهم متناقضة متضاربة ، ثم عثر الباحثون على مسمرحات من الوثائق البردية الخاصة بشؤون مصر الإدارية والمالية خلال القرنين الهجريين الأولين ، فاصح منها أنه الواقع بفنائه تماماً ، في جعلته ونصبه ، فما ذهب إليه أولئك المؤرخون .

وقد رأينا في عهد الصلح الذي أوردناه برواية الطبرى (مقرة ٤) أن الاتفاق لد تم على أن يؤدي أهل مصر جزية سنوية قدرها ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دون تعديله ما إذا كان المراد دراهم أو دينار . وقد غلب عنى رأينا أن المراد دراهم ، وقلنا أن ذلك يعتبر اتفاقاً مبدئياً أعاد عمرو النظر فيه منذ فتح البلاد . ثم ذكر ابن عبد الحكم روايتين تفضان في الروح

والضيافة وهو فرض تقبل يدخل ضمن المقارم
المنتفعة في الاسلام . وأغلب الظن أن الفقهاء
هم الذين وسعوا صيغ هذه النظم رغبة منهم
في التوفيق بين الواقع والأحكام الشرعية .
وكانوا يتصورون ، أو يحاولون أن يصوروا
للناس ، أن الأمر جري منذ البداية على
القدراة التي استخرجوها هم أنفسهم من
الأصول بعد الفتح بزمان طويل .

وقد بدأ ينضج ضمير هذه الآراء من
أواخر القرن الماضي ، عندما اكتشفت
مجموعات الوثائق البردية الخاصة بالعصر
البيزنطي والفرنجي الهجريين الأولين . وقد
درس ماكس ثونر ورشم ما استطاع دراسته
من هذه الوثائق واستطاع - اعتماداً
عليها - أن يفرد أنه لا قد فرضت على الناس
ضريبة رأس المال : الأولى ضريبة مالية
كبيرة تسمى الجزية (باليونانية : ديوزيا)
للأدي قداماً بالدينار ، وضريبة ثوية أخف من
الأولى تسمى الضريبة (باليونانية : إيبولي)
تؤدى بأردب الفصح . هذاان المصدران
من مصادر الآراء في ميزانية الدولة يقابلان
وجهين متضادين من وجوه الالتقاء ، فالجزية
تغطي عطاء الجند ، والضريبة تغطي ما كان
يؤدى الى الجند من رزاق . وكلتا الجزية
والضريبة كانت مروضة على الجاعة كليهما
كوحدة . كانتا ضريبتين فعليتين يسأل عنهما
شيخ الساجية أمام الأمير رأسا . ثم حدث بعد

وتختلفان في التفاصيل ، فأما الأولى فتذهب
الى أن المقروض لما خافت على نفسه ومن معه
سأل عمرو بن العاص أن يفرض للعرب
دينارين على كل واحد منهم ، وتعتقد أن هذه
الرواية ان هي الا محاولة غير موفقة لتقنين
الفقرة الرابعة من عهد الصلح . وأما الثانية
فتقول : ان الصلح تم على أن يرضى على
جميع من بقى أهلها وأسفلها من القبط
خاصة ديناران على كل نفس ، ليربهم
وورثتهم ، من بلغ منهم العلم . ليس على
الشخ الثاني ، ولا على الصنبر الذي لم يبلغ
العلم ، ولا على النساء شيء . وعلى أن
للمسلمين النزول بجماجمهم حيث لولوا ، ومن
نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر
من ذلك ، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة
عليهم ، وأن لهم أرضهم وموالهم لا يتعرض
لهم في شيء منها ، وأحصوا عدد القبط يومئذ
خاصة من بلغ منهم الحسام وفرض عليه
الديناران ، رفع ذلك عرفانهم بالإيمان
المؤكد ، فكان جميع من أحصى يومئذ بقصر
أهلها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا
وكتبوا أكثر من سنة آلاف ألف نفس ،
فكانت فرضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف
دينار في السنة . وهذه رواية ظاهرة
الضعف ، فهي تذكر أن احصاء دقيقتنا بأهل
مصر قد عمل وأن جزية الروم وس وحدها بلغت
١٢ مليون دينار : غير خراج الأرض ، ثم انها
جعل للمصر بعملى المصريين حق النزلة

ذلك - نتيجة لما أصاب حصيلة الضرائب العامة من اضطراب بسبب دخول الناس في الإسلام واتساع المفكيات الفغارية التي حازها المسلمون -- أن ظهر « الخراج » وتحدد في مسورة ضريبة واقمه على الأرض أي كان ملكها » .

ثم توفر كارل هاينريش بيكر على دراسة الموضوع منسها على مجموعة الوثائق البردية المعروفة بمجموعة الأرشيدوق رابنر Sammlung des Papyrus Erzhherzog Rainer ودليل هذه المجموعة التي وضعه كاراباتييك Fuchrer durch die Ausstellung نتيجة دراسته فأبحاث مختلفة أهمها الكراسة الأولى من كراستيه المبر ولتين في تاريخ مصر unter dem Islam وفي مقاله عن مصر في دائرة المعارف الإسلامية ، و خلاصة رأيه : أن الحكومة كانت نقائب صاحب الكورة بنوعين من الضرائب : الديموزيا والضريبة الاستثنائية . وكان توزيع المستحق من هاتين الضريبتين على الأقسام الرعية للكورة يتم في الادارة المركزية ببناء على قولهم بعد في الناحية خصما وترسل اليها مقدما ، وتبلغ الى هذه الأقسام يبلاغ رسمي يسمى « الاتناجيون » عن حريق صاحب الكورة . وكانت الديموزيا (الجزية) وهي الضريبة العادية تشمل :

١ - الجزية تسمى وتسمى « خروسيخا ديموزيا » وهي ضريبة مالية صرفة .

٢ - ضريبة الطعام (سينيخا ديموزيا) وهي ضريبة عينية تؤدي قمحا أو شعرا .

وكانت الادارة المركزية تعدد مبالغ هاتين الضريبتين . وكالتا تقران جملة ، وتقسوم الادارة المحلية بتقسيم مجموعها حصصا على الأفراد كل بحسب طاقته .

أما الجزية خصما (خروسيخا ديموزيا) فكانت تتألف من مجموعة من العبايات هي :

(أ) الضريبة المقابرة (ديموزيا جيس) .
(ب) ضريبة الرسوم (المروروسوس دياجرا تومس) .

(ج) الضريبة الادارية المحلية (دابالي) . ولم تكن الضريبة المقابرة خاصة بمللك الأراضي فقط بل كانت تشمل أيضا أصحاب العرف الدين لا يمتلكون عقارا ما . ولم تكن ضريبة الرسوم في أول الامر ضريبة عامة ، ولا تعرف على وجه التحديد على أي أساس كانت تجبى . كذلك كان من الممكن أداء ضريبة الطعام (أمبولي) فخصما ، فيبلغ الانسان جبتهما أو الثلث (ابارينوسوس) بحسب مصطلح هذه الأيام . وكان جزء من الأمبولي ينفق معليا تنفيضة غفقات الادارة المحلية ، وهذا الجزء يعادل الضريبة الادارية

المحلية (داياتي) ويرسل الباقي الى الأهرام
الحكومية في السطاط أو الاسكندرية .
وكانت الفريسة الاستثنائية نسبة
(اكمترا اوردبسا) ضريبة منطمة ايضا ،
ولكن نوعها كان يختلف بحسب الاقليم
والفروق ، كان يطلب الى الكورة مثلا ان
تقدم الحديد وما اليه مما تبني به السفن
وكذلك الأدوات والعمال والبهادة وتلمح
مجودهم ، ووبها اضطر رجال الكورة الى
شراء بعض هذه الأصناف المطلوبة واحتساب
شئها من جملة الاموال الموفرة . وكانت هذه
الفريسة الاستثنائية ترسل مباشرة الى
المسكرات ومراكز جميع الجند . وكانت
العملة لا تقبل من الكورة مقابل حياض
الأصناف بعدد الايام يصل بمئونة القبيل ،
ولكن كان من الممكن للأفراد ان يدفعوا
المستحق عليهم نقدا ثم يقوم رجال الكورة
بتدبير المطلوب

وهذا التفصيل الذي اوردناه مستخرجا
من واقع الوثائق البردية يدل على ان ما ورد
عند ابن عبد العسك من انه لم يكن
الا تصورا نظريا فقط لما كان يجسري في
الواثير . ومع ذلك فالخط المهرزي نظم
خصوصا لزيد ما يدل عليه أوراق البردي .
فن ذلك ما يفوه رواية عن يزيد بن اسلم :
« وكان عمرو بن العاص لما استوفى له الأمر
اقرب ميطا على جباية اروم ، فكانت جبايته
بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر أهلها ريد

عليهم ، وان قل أهلها وسفرت فتمسوا ،
فيجتمع عرفو كل قرية وأمرأؤها ورؤساء
أهلها ، فيتناقرون في العارة والغراب ، حتى
اذا اتروا من القسطن بأزيادة انصرفوا بتلك
القسمة الى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء
القرى ، ووزعوا ذلك على احتساب القرى
وسعة المزارع . ثم يجتمع (رجال) كل قرية
بقتسهم ، فيصمون قسطنهم وخراج كل
قرية وما يقبض من الأرض الصفرة ، فيبتدلون
ويتطرحون من الأرض فداوين كالتسهم
وحداتهم ومداياتهم من جملة الأرض ، ثم
يخرج منها عدد الضباغة للسليم ولزول
السلطان ، لاذا فرغوا تطروا لما في كل قرية من
الضباغ والأجر ، فقسما عليهم بقسط
احسانهم ، فان كانت لهم جالية تسوا
عليهم بقسط احسانها ، وقبلا كانت تكون
الا للرجل الشاب أو المتزوج . ثم ينظرون
ما بقى من الخراج فيقتسمون بينهم على عدد
الأرض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريه الإرع
منهم على قدر خالتهم . لان عجز أحد منهم
وشكا ضيفا من ررع أرضه وزعوا ما عجز
ذو على ذوي الاحسان ، وان كان سهم من
يريد الزيادة اعطى ما عجز عنه أهل الضحف ،
فان لما حركوا قسما ذلك عسلى عدتهم ،
وبكانت قسطنهم على قراريط الدنانير رسة
وعشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك .

وقال المقريزي رواية عن هشام بن
أبي ربيعة اللخمي : قدم صاحب اخا سلى

عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، فقال له :
 أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصبر لها ،
 فقال عمرو وهو يشير الى ركن كيسة :
 لو أعطيتى من الأرض الى السماء ما أخبرتك
 ما عليك . انما أتم خرافة لنا : ان كثر علينا
 كثرنا عليكم وان تنقص علينا خففنا
 عليكم ، ما يلهم منه بوضوح أن مقادير
 الحياة لم تكن معددة ولا ثابتة ، وانما يقضم
 الأمر المطلوب منه عاما عاما على الكور ،
 وعلى رجال الكورة أن يدبروه على التصور
 الألف الذكر .

كذلك روى المفريزي عن يحيى بن سميد :
 « الجزية جزيتان : جزية على رهوس الرجال ،
 وجزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها
 أهل القرية ، فمن هلك من أهل القرية التي
 عليهم جزية مسماة على القرية ليست على
 رهوس الرجال ، فإذا نرى أن سن هلك من
 أهل القرية من لا ولد له ولا وارث أن أرضه
 ترجع الى قريته لي جملة ما عليهم من الجزية ،
 ومن هلك من جزيته على رهوس الرجال
 ولم يدع وارثا فأخذ أرضه للمسلمين » وهذا
 ينطبق تماما على ما دلت عليه أوراق التبردي ،
 فالجزية التي على رهوس هي الضريبة النقدية
 العامة (خروسيغا ديوزيا) . والجزية التي
 تكون جملة على أهل القرية هي ضريبة الطام
 (سبتيجا ديوزيا) . وكانت الحصيلة
 الاجمالية لكل من الضريبتين تحدد مقدما
 بصفة الادارة المركزية .

وهذا يفسر لنا المشكلة التي واجهت
 الحكام بعد أن فتادهم عهد الاسلام بالبلا :
 مشكلة الجزية المستحقة على من أسلم ، فإن
 الديموزيا العامة كانت تتضمن . - كما
 رأينا - الضريبة المفارئة وجزية رهوس
 والضريبة الادارية المحلية . أي أن ضريبة
 رهوس كانت داخلة في جملة الديموزيا ،
 ولم تكن تعين على الأساس المقتن الذي
 دفعه مفعلا في كتب النظم الاسلامية ، وانما
 كانت تحدد حمله على أساس ما كان يجنيه
 التجار لطبوق منها ، ثم ينسبها أهل القرية على
 أنفسهم بحسب الطاقة فلما بدأ الناس
 يسلمون طالبوا بالغاء هذا الجزء من
 الديموزيا . اذ لا جزية رهوس على المسلمين ،
 ورفض العمال ، لانهم لم يبرروها كجزية
 رهوس بل كجزء من ضريبة عامة للترم القرى
 بأدائها جملة أيضا . وقد حال الأخذ والرد بين
 الحكام والخلفاء بسبب هذه المشكلة
 الشرسية ، وانسى الأمر برفع هذا الجزء من
 الديموزيا عن أسلم ، ويؤيد ذلك ما يقوله
 للمفريزي من أن عمر بن عبد العزيز كتب الى
 حبان بن شريح أن يجعل جزية مولى القبط
 على أصحابهم . وقد عسر المفريزي ذلك بأن
 عمر بن عبد العزيز كان يرى أن مصر فتحت
 عنوة ، وليس الأمر كذلك ، وانما الحقيقة
 هي أن هذا البند من النجاية كان متقرا جملة
 على أهل القرية ، وعليهم أدائه جملة كذلك
 بصرف النظر عما يصيب الأفراد من الموت .

ويؤكد ذلك قوله بعد ذلك : « وان الجزية انما هي على القرى ، فمن مات من أهل القرى كان تلك الجزية ثابتة عليهم ، وإن موت من مات منهم لا يفسخ عنهم من الجزية شيئاً » .

تلك هي الضوابط العريضة للنظام الذي سار عليه العرب في معاقبة شتوت مصر المالية ، وهو كما رأينا نفس النظام الذي كان جارياً أيام البيزنطيين والروم مع فرق جوهرى هو أن واقع الضراب في تلك الأعمار السابقة على الإسلام كان يدفع في الواقع أكثر بكثير من المقرر عليه ، وربما دفع الضرب ، إذ أن عمال الدولة كانوا يحرصون على أن يستغلوا لأنفسهم مبالغ جبيلة ، وكان مع ذلك يقع على الناس ، فلما جاء الإسلام انقطع ذلك وأصبح الناس يدفعون المقرر عليهم فأولوا حسب ، ويستعرض النظام الذى وضعه المسلمون لأن ذلك السابى به ورسى السنين . وقد وجد المييل إلى الفساد من أول الأمر ، لأن الدولة لم تحصل بدائع الضرائب رأساً ، بل كان اعتمادها على طائفة من كبار المزارعين أو مستقبلى الخراج ل كل ناحية ، وهؤلاء هم الذين كانوا يؤدون أموال أهل نواحيهم إلى عمال الكور . وكان اضطراب الأحوال في العصر البيزنطى قد زاد في قوة هذه الطبقة وجعلها أشبه بأولياء Patroci المضممار والضميناء ، وكان الضحاف يخلون في ولائهم Petrocolium .

ولما كانت مصر قد اعتبرت مفتوحة صلحا فقد ظلت رقب الأرض ملكاً لفساس : وهؤلاء الأولياء بصورة خاصة ، ونظراً لحاجة الدولة إلى المال ، فقد كان اعتمادها على هؤلاء اكثار عظيم : فهم الذين يتقبلون الجباية ويفسئون المال ، وشيئنا فشيئنا أصبحوا أشبه بالمتزمتين .

ولد وصف لنا المترجم طريقة تسجيل الأرض فقال : « إن متولى خراج مصر كان يجلس في جامع عسرو بن العاص من القسطنطينية في الوقت الذى تنبأ فيه قبالة الأرض ، وقد اجتمع الناس من القسرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكتساب الخراج بين يدي متولى الخراج بكتيون ما ينتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يشاء من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها بالأربع سنين لأجل الضمان والاستبعاد وغير ذلك . فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان يتقبل أرضاً وضمنها إلى حاجته ، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجود أعمالها بنفسه وأهله ومن يتنوبه لذلك ، ويحصل ما عليه من الخراج في أهله على المساق ، ويحسب له من مبلغ قبائمه وضمانه لتلك الأراضي ما يتفقته على عمارة جسورها ومد ترعها وحضر خلعها بصراية مقدرة في ديوان الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات القسان والمتقبلين . يقال لا تأخر من مال الخراج

البواقي . وكانت الولاية تستمد في طلب ذلك مره وتسامح به مرة . ووجبا كان هذا هو النظام المتبع في أيام العباسيين ولكنه منتطور قطعا عن نظام بدائي شبيه به . وربما استلطنا ان نقول انه في هذه الميسور الأولى كان اولئك الأولياء الكبار بمعهدون لعامل الكبرية بجمع المال .

أما جملة المتحصل من هذه الطرأب بطى صنوفها لمن المسير تعديتها ، فان التقديرات التي يوردها المؤرخون تتراوح ، ليا يتصل بالسنوات الأولى ، بين عشرة ملايين وخمسة عشر مليون من الدراهم (الدينار نصف جنيه تقريبا) ويتدخل في ذلك ما يدفع قداا ولين ما يؤدي لولا . ولم يكن هذا المأل كله يرسل الى مركز الخلافة ، بل كان معظمه يبقى في البلاد ؛ يستنزل عمال الكور لم يكتفون ليا بعد جسرها منه في مقابل ما يقومون به من أعماله التميم والاسلأح والصانة ، ويرسلون الباقي الى الأمير ، فيؤدي هذا منه عطيات الجسد وأرزاقهم ورواتب الموظفين والعمال ، والباقي هو الذي يرسل الى مركز الدولة . ولكي نطهر النسبة بين هذا وذاك نذكر ان جباية مصر بلغت في عهد معاوية بن أبي سفيان أربعة ملايين دينار أرسل اليه منها ٦٠٠.٠٠٠ دينار . وعده ذلك مبلغا جسيما . أما متوسط ما كان يرسل الى مركز الدولة ابتداء من القرن الهجري الثاني فكان نحو ٦٠٠.٠٠٠ دينار ، وقد يرفع الى

٣٠٠ ألف أو ٣٠٠ ألف بحسب اختلافات خاصة مع الأمراء .

وقد كان العرب عنسما دخلوا مصر بتصورون أنهم سيجوز منها من الأموال ما لا يحصى ولا يقدر ، فقد كانوا يسمون ، بحسب ما يقول القريظي ، أن قرعون كان يستفصل من مال مصر ، بعد استنائه شنى أنواع المنظفات ، ستة وعشرين مليون من الدراهم ، ولهذا فقد توجبه عمر بن الخطاب بقلة ما بث به عمرو بن العاص من الجباية وشك في أمره ، وجرت بينهما مكاتبات ذات معنى عظيم ، لأن خطابات عمر تدل من ناحية على تصور عمر لضى مصر ، وروده عمرو تدل على الواقع الذى كان يواجهه هذا الأمر الذى الكى القصار ، وشمساجى عبد الله س أبى مرخ مليونين زيادة على ما جاء عمرو فرح الخليفة عثمان بن عفان بذلك وحدت عمرا في الأمر ، فورد عمرو ردا يدل على خبرة وبعد نظر ، وكان معلما في ذلك ، لأن المسألة ليست مسألة ضخامة مبلغ الجباية ، وإنما المهم هو المحافظة على مورد المال مليا حتى لا ينضب .

وتلاهم من هذا النظام اقامى الذى جرى عليه العرب في مصر أنهم تركوا الأرض بيد أصحابها من المصريين ، ولم يعتبروها ملكا للدولة . وقد ناقش الفقهاء في هذا الموضوع وذهب بعضهم الى ان عمر ختمت صلحا وقال بعضهم الآخر انها فتحت عنوة ، ولكنها

مناقشات قضية نظرية صرفة ، لأن الواقع الذي يمسورونه جميعا هو أن أرض مصر اجريت مجرى الصنع ، وأن الملكية العقارية منت بيد الأهالي ، وقد نص على ذلك صراحة في معاهدة بابيوز ، وأكد فيما تلا ذلك من الماهدات وما جرت عليه الامتلات . وبصفا اختلف الوضوح القانوني لأرض مصر من أرض العراق مثلا ، فقد كلف الأخيرة ملكا للدولة وليس للأهالي عليها الا حق الارضان ، أما في مصر فقد ملك الناس الأرض ملكا كاملا ، وقد وثت الأوراق البردية التي ترجع الى عهد الولاة على أنه كان يحق للأهالي مصر التصرف في الأراضي التي يملكونها بالبيع والبراء والتسوير والهبه . وقد تربت على ذلك نتائج ذات أهمية كبرى فيما ينصل بحقوق الدولة الاسلامية على أرض مصر ، فبينما جرى الخلفاء على منح الاقطاع والتسابع في العراق من أول الامر ، لا نجد هذه المنح في مصر الا في حدود ضيقة ، والخصر أمرها في تلك الأراضي التي كانت مملوكة للدولة البيزنطية ورجالها ، فالتت الى الدولة الاسلامية ، ومن هذه الأراضي الأخيرة مدائن الدولة تمنح من زيده من زمن عيسى بن الخطاب . تقول تمنح ولا تقول تعطع » لأن المراجع تخفي . وتستعمل اللفظ الأخير ، مع ما بين القائلين من خلاف في المعنى القانوني والسياسي . أما الاقطاع التي ظهرت بمصر

بعد ذلك فلها ظروف أخرى اقتضاها تطور عام في أحوال الدولة الاسلامية جملة ، ومن الخطأ القول بأنها استمررت أو اتساع لهذه المنح .

وقد حدث كثير من المصيرب الذين نزلوا مصر على أرضي بهذه الطريقة ، أي أنها كانت منعا من أراضي صالات الى الدولة بحق الفتح ، وحصلوا عليها أيضا من أراضي البرد - التي كانت تسمى أرض الموات - ليستصلحوها ، وكانوا يعنون من شريبتها ثرة ما بحسب ما تقضى به العزيمة في أحكام الأرض الموات ، ثم يؤمون عنها الضر بعد ذلك . وكان المالك العربي أيا كان وطبقة يؤدي ضريبة الضر عما يهد ، وكان العرب يسمونها زكاة ترغفا عن دفع الخراج ، ولكنها كانت في الواقع ضريبة عقارية تجرى مجرى الخراج . وقد طالب المصريون الذين دخلوا الاسلام أن يماثلوا بالمثل لتمسك عنهم الجزية (بخرعسا) وضريبة الطصام ، وتمكنوا الدولة منهم بضرورة عقارية هي الضر وتسمى الزكاة ، ومعنى ذلك فقدل الدولة لحظهم ايراداتها ، فرفضت الدولة ، بل ألومت العرب أنفسهم بنسخ الخراج كاملا عسسا بشرطونه من أرض الخراج ، فلا تسحبون أرض عراقية الى أرض عربية . ولهذا فقد ظل ايراد الدولة في مصر متوازنا في حين أن ايرادها من أرض العراق حبط حبوطا شديدا . لأن الدولة ، وهي مالكة ربة للأرض ، كانت

تتمتع الناس الصباغ والاقطاعات ، فتحول
الأرض من خراجية الى عشيرة ، مع عظم
الفرق بين الاثنين ، ويلاحظ أن المقطن في
العراق كانوا يتعاضون من الزراع الخراج
ويؤدون العشر ، فيكسبون وتخسر الدولة .
بينما كانت أرض مصر كلها تتحول شيئا
فشيئا الى خراجية .

والوفاة البردية تؤيد كل ما ذكرناه
خاصا بمصر ، فلدينا خطابات صادرة عن
عمال مثل لرة بن شريك أحدهم مؤرخ سنة
٧٠٩/٩٦ بنصب فيه الى أهل شبراخيت من
كورة مسقوه أن يؤدوا المناجر عليهم من
الجزية لعدا ومن ضريبة الطعام لعدا . وفي
خطاب آخر من نفس الوالي الى صاحب
أنشوفه أيضا يتناول فيه انه اذا تمدد عسلى
الناس دفع ضريبة الطعام لعدا فلا بأس بأدائها
لعدا ، ولكنه يطلب اليه أن يجتهد في إرسالها
لعدا . بل يظهر بوضوح من وثائق أخرى أن
ضريبة الطعام لم تكن تؤدى دائما قسما
أو شعرا ، بل كان من الممكن استبدالهما
بحسب حاجة الدولة بأشياء أخرى من
محصولات الناجه كالصن والخل والزيت
والنسيج والجلود .

وفهم من رواية البلاغوى عن يزيد بن
حبيب أن ضريبة ضريبة الطعام كانت تعادل
الجزية ، فإنه « ان أهل الجسزية بمصر
حولوا في خلافة عمر بن عبد الصلح الاول
سكان الحنطة والزيت والعسل و (عسل)

الحل على دينارين دينارين ، فالزم كل رجل
أربعة دنانير ، فرضوا بذلك وأحيوه » ، ومن
الواضح أن الدنانير الأربعة المذكورة منها
اثنان للجزية واثنان لضريبة الطعام . غير أن
هذا القدر الذى يحدده يزيد بن حبيب لم
يكن ثابتا كما يفهم من النصوص العربية ،
لأن أصحاب هذه النصوص كانوا يفهمونها
على أنها كانت ضريبة الرووس ، مع أنها
كانت فى الواقع الديموزيا التى أثرت البعا ،
وكانت ضريبة عامة تشمل الضريبة العقارية
(ديسسوزيا جيس) وضريبة الرووس
(الدرسيوس داجرافوس) والضريبة
الادارية المحلية (داباي) وكانت حصيتها
الكثيرة فقط هى المحددة ، أما حصص الأخرى
فمنها لتكاد يقرها رؤساء القرية بحسب
ثروات الأحرار ، فهناك من يدفع دنانيرا
أو دنانيرا ونصف أو دينارين أو ثلثي
دينار وهكذا . وقد ذهب المقرئ الى أن
الدولة لم تحصل الزكاة الا فى عهد
صلاح الدين ، ولكن أوراق البردى أثبتت
أنها ترجع الى ما قبل ذلك بكثير ، فلدينا
إبصال مؤرخ همام ١٤٨ / ٧٨٥ من زكاة
بعض الأشخاص وهذا هو المقول .

ولا شك فى أن مبلغ البيضاية أخذت
تتناقص مع الزمن بسبب دخول الناس فى
الاسلام واضطرار الدولة الى معاملتهم
معاملة العرب ، وبسبب تطرق الفساد الى
النظم القائمة من ناحية أخرى . على أى

الأحوال تلاحظ فرقا واضحا بين موقف الدولة من مصر أيام الأمويين ، وموقفها منها أيام العباسيين ، ففي العصر الأول كانت للولاة اعتمادات أخرى الى جانب المنياة يشتركون لذلك : كان هناك اهتمام بالانشاء والتعمير وبناء الأساطيل وما الى ذلك . أما في العصر العباسي فقد كان الاهتمام وجها نحو الجباية وحدها ، وهذا لا ينطبق على مصر وحدها بل على بقية اراضي الدولة الاسلامية الأخرى .

ويلاحظ بصفة عامة ان الفنون المأثبة سارت سيرافليا حتى نهاية العصر الأموي ، والسبب في ذلك يرجع الى ان حكام الأمويين كانوا بصفة عامة على جانب طيب من الأمانة والتكفاية الادارية واتسرفة بما لا يند منه لصالح الدولة وبلادها . ثم ان خلفاء بني أمية كانوا على الجبهة قوى فمهم حسن اشراف المال وتدير لما يصل اليهم منه ، وكانوا أميل الى الاقتصاد في نفقاتهم ، وكانت ادارتهم بسيطة لا تنسكو كثرة الموظفين وقتل رواتبهم كما سببوا اليه الضال أيام العباسيين ، ولا يتسع المقام هنا للكلام على ولاة الأمويين في مصر ، فان الكثيرين منهم يستحقون من المورخ وقفات طويلة . ويمكن ان نذكر ان عددهم نحو ٢٨ واليا حكروا نحو ١١٢ سنة ، أي متوسط أربع سنوات لكل منهم ، وقد حالت مدد بعضهم حتى زادت على عشرين سنة ، ولم تحصر مدد

الولاة الا في أيام هشام بن عبد الملك ، فانه كان عظيم الاحكام يشتركون امان ، ولهذا فقد كان اهتمامه الحقيقي على عامل العراج وخاصة عيد الله بن الحجاب ، فقد تصرف هذا الأخير في الامراء حتى عزل منهم أربعة بره ، ولم تحل مدة الخماس وهو الوليد ابن رفاعه الا بعد ان الطوى تحت جناح ابن الحجاب .

وكان الكثيرون من هؤلاء الولاة من أمراء البيت الأموي ، وأهمهم عبد العزيز ابن مروان الذي تركه أخوه عبد الملك بن مروان على مصر من ٦٥ الى ٦٨٥/٨٦ . أما أعظم أولئك الولاة جباة فهو عمرو بن الماس دون شك ، فقد فتحها وبولائها أول مرة من ٢٠ الى ٦٤٦/٦٤ - ٦٤٩ ، ثم عاد اليها وتولاها مرة أخرى من ٣٨ الى ٤٣ . ٦٥٨ - ٦٦٣ ، وهو من مؤسسي مصر الاسلامية ورواضي قواعد الحكم فيها . وكان عمرو رجلا ذكيا والعبا فاعيا لتسؤل الإدارة والمال ، وكان له فهم عميق لتسايات الناس وقدرة على كسبهم الى جانبه . وقد توفقت العلاقات بينه وبين المصريين وطالت ممارسته اشهرتهم حتى أصبح وكأنه مصري بانفسه عن حقوق المصريين . ومواقفه من عمرو بن الخطاب في ذلك معروفة ، وهو من غير شك أول رجال مصر الاسلامية وأجددهم اثرا تاريخيا . وكان لمصر أيضا أثر بعيد في حياته ،

ففتح مصر هو الذي تقدم به الى الصف الأول من رجال الدولة الاسلافية ، بحيث أصبح بعد قليل من رجالها المدفونين . وقد تعلق قلبه بمصر فلم يعد له أمل بعد عز نستان اباه عنها الا العودة اليها ، وفي سبيلها أنضم الي معاوية وقام بدوره المعروف في الفتنة التي أعقبت مقتل عثمان . ولو حركة عثمان بن عفان واليا على مصر ، أو لو ولاء اباها على بن أبي طالب ، لانتجت العواث في دولة الاسلام وجهة أخرى . وقد عرف مؤرخو مصر قدر عمرو لأحاطوه بمسألة من التدبير والاعجاب وتمسكوا للدفاع عنه ، واليوم يرجع الفضل فيما يحتله عمرو من المكائنة في كتب التاريخ والمصابة .

والحم لدينا انه وضع لمن بعده قلبه العناية بسبلون البلاد ومراقبتها والرعاية لأهلها ، وعلى آثار عمرو من جاء بعده من ولاة الأمويين . فلما جاء العباسيون ضمير الأمر جعله ، وتهد الطريق لاستبداد الولاية بشون مصر ، وهو ما سيحدث على يد أحمد ابن طولون ومحمد بن طنج الأخشيد من بعده .

وقد نصرت براه هذا الكثير من أيام ابن جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ / ٧٥٣ - ٧٧٥) فبدأ يظهر بوضوح تركز اهتمام الخلافة في شئون المال . ولم يكن هذا التطور قاصرا على مصر ، بل شمل الدولة الاسلامية كلها ، لأن الدولة العباسية اصاحت منذ قيامها الى

اضفاف ما كانت تحتاج منه الدولة الاموية . والمجب الأول في ذلك تدمير الأساس العسكري الذي كانت الدولة تقوم عليه ، فبينما كان اعتماد الدولة الاموية قائما على تجارة الشام من العرب ما بين قيسية وكلبية ، أصبح اعتماد الدولة العباسية على الفراسانيين . وكان الجندي المصري أيام الأمويين يشكل ما نعرفه عليه أجناد القمام (أي كثر القمام العسكرية) ، فقد كان خراجها الخطا عسكريا لهم ، وما فضل من ذلك من ايراد الولايات كان يغطي النفقات العظمى والجيوش الفاتحة ، وتبقى بعد ذلك منه جملة مبالغة ينفق شيء منها في المنشآت والبنيات وبدر البالي . وكانت جيوش الدولة في الولايات تنال أوزانها وأعطائها من الايراد المحلي ، ولم يكن للدفوة الاموية في الحقيقة جيش لائم ، فقد أمروا بين جندهم في الشام وسرحوا معظم الفوى العسكرية لتتح في كل وجه .

فلما جاء العباسيون احتاجوا الى جيش ضخم يعيهم ، فاستندت نفقات هذا الجيش معظم ايرادهم ، لأنه كان جيلنا مرتزقا طامعا يحتاج الى المسال الكثير ، ثم انه الإدارة العباسية اتجهت منذ أيام المهدي الى الاسراف والأبهة ، وتعقدت الإدارة وأدخل وزراء القرس فيما كثر مساويء الإدارة الماسانية القديمة ، فبدأ العجز المالي يظهر من أيام الهادي ، ونص به الرشيد احساسا

واضحاً وسعى لعلاجه ، ثم خرج الأمر عن الضبط جملة من أيام اقتصر ، وأصبحت الدولة العباسية في الواقع دولة منفصلة مالياً بجهد الخلفاء والوزراء في مداراة افلاسها بوسائل غير طبيعية ، وابتداء من أيام الواثق تصبح المشكلة المائية مرضاً عضالاً لا سبيل إلى علاجه ، وعلى سفرة العجز المالي نهضت خلافة بني العباس شبهة شبيهاً قبل أن تنهط أثارها وسياسياً .

للخراج ، وكافت الخلافة تطلق أيديهم يفعلون ما يريدون حتى يجثوا بما ضننوه من المال ، وابتدع الولاة ضرائب شتى أنكرها الناس ، ولكنهم دفعوها بالظوف والرهبة ، ونمعد الطريق لاستبداد رجل كاحمد بن طولون بشئون مصر على أساس ضمان مبلغ معين للخلافة .

الاسلام والتعريب :

فإذا تركنا هذه الناحية المالية جانباً ، وهي حجر الزاوية في البناء الإداري لمصر في عهد الولاة ، وجدنا أمور المصريين تجري في مجراها العبادي بعد الفتح مباشرة ، وكأنها لم تتغير الأحوال ولم يذهب زمان وقبيل زمان ، وتبدو البلاد خلال السنين العشرين الأولى من الفتح في هدوء يسوقها النظر ، ربما كان ذلك نتيجة لما علاه المصريون من متاعب وقلق خلال السنين الخمس والسادس الميلاديين ، فلما خلصوا أخيراً من لطف البيزنطيين مالوا إلى الهدوء والسكون كأنهم يستجدون . ثم إن العرب خلال هذه السنوات الأولى كانوا في شغل بشؤونهم وفتوحهم ، فقد كانت الدنيا قد انحصت أمامهم من كل وجه ، قمضت جيوشهم فتبع شرقاً وغرباً ، وأجلبت غلقة العبيوش جبايات من دهاجرة العرب تستقر في البلاد المفتوحة .

قضى خلال العشرين سنة الأولى من تاريخ الاسلام انشر عشرات الألوف من العرب المهاجرين إلى العراق وفارس ومصر

وقبلاً يتصل بمصر بدأ هذا التحول العظيم من أيام أبي جعفر المنصور ، فقد فكر في أن يضمّن خراج مصر ، أي يبعث عن رجل يضمن خراجها بمبلغ معين ، فعرض على واليه جلساً محمد بن الأشعث أن يضمن له خراج مصر ، فرفض محمد بن الأشعث بشية العجز ، فأقام الضليفة على الخراج رجلاً خاصاً هو ثوقان بن الفرات . وحضت مطالبة الخلفاء بالأموال تشتد ، وكثر عيال الخراج إلى جانب الولاة ، وقلت ثقة الخلفاء في هؤلاء فأخذوا يهزلون ويولسون ، فتولى مصر للمصور لمالية ، ولعمدي تسعة ، وللمشيد ثلاثة وعشرون ، ولعمامون سبعة عشر وهكذا . وبدأ الناس يتمكون من قسبل الجبايات بل يتورون بسببها ، واحتاج الولاة إلى الضياع بحلات على السواحي لجمع ضرائبها ، وفي القرن الثالث الهجري نجد الإدارة تستخدم القوة والضرب في استخراج أموالها ، وأصبح الولاة في الحقيقة مستأمناً

والمغرب والأندلس ، وكانت الأرض واسعة
 وفي رحابها تمتد لآولئك العرب المهاجرين ،
 وكان جانب كبير من أراضي هذه التوالمى
 قد شيعه الاحمال ، وكان في حاجة الى نظام
 مادن يطمئن اليه الناس والى ايد عاملة .
 فلما الاستقرار فقد اتهم به الفتح الاسلامى :
 واما الايدي العاملة فجماعات العرب المهاجرة
 التى اشرفا اليها . وهنا نجد عرب اليمن
 يرمون بالجناب الاكبر من ذلك العمل ، واما
 كان حرب الشمال — ولى مقدمتهم قريش —
 قد حملوا عليه الفتح واشتغلوا بالسياسة
 والادارة ، فان حرب اليمن حملوا كيف يجنون
 الثمرات ، فقد كانوا شعبا مبالا الى الاستقرار
 له عهد بعيد بالزراعة وما يشمل بها من أعمال
 الحضارة .

بعد فتح العراق مباشرة لجهد بطون لغم
 زحمه شرقا واستقر في بواحيه ، وتوسع اليها
 جماعات زرد اليمين ، فيكثر عددها حتى غلبت
 على ارض السواد ، ثم زحف فروع منها
 غربا فغمرت غربي ايران ثم امتدت الى
 خراسان ، وشبنا لشينا أصبحت هذه الواحى
 وكالها مستعمرة يسيه عقدت زعامتها جواه
 ارض اليمن ، وكافوا اكثر القبائل عددا .
 اما المسلمال وجنهم فكانت غالبيتهم من
 القبية . وبدأ التنافس بين الجانبين ، ثم
 اتهم الى صراع دموى انتهى بانهزام جانب
 العرب في فارس وخراسان . قبيبا ساد
 العرب هذا الجناح الشرقى من دولة الاسلام

في منتصف خلافة هشام بن عبد الملك حتى
 بدأت اللغة العربية تحمل محل الايرانية ، نجد
 هذه الأخيرة تعود الى مكانها في نهاية العصر
 الاموى ، ثم انتهت سيادة العرب واللغة
 العربية بمعوي العباسيين ونفطسليم
 الخراسانيين على العرب . وبهذهأت العارسية
 تلب على السنة العرب الباقين هشامك حتى
 نسي الكثير منهم لسته واشد ينكتم الفارسية .
 وكان من الممكن أن يحدث مثل هذا في
 مصر: لولا أن الظروف هنا اختلفت عنها هناك ،
 ولم يفلح القبية في مصر فلما يملكها من
 مائة الكلبة ، فخلا البدان تقريبا لهذه
 الأخيرة ، فسارت في طريقها مستغلة بقوتها
 وهيبة العروية والمسررب أمام السكان ،
 وتمكنت من نشر العربية والاسلام ، كما
 فعلت في المغرب والأندلس .

كان معظم رجال الجيش العربى اللاتح
 من حرب اليمن . نستنتج ذلك من أسماء
 القبائل التى لزت الصفاط وانضدت بها
 خفيضا ، أى أماء . فإذا استثنينا نرا من
 فربط ، وكان عددهم قليلا ، وجدنا انفسنا
 أمام أغلبية ينية تستوقفه النظر : مصر ،
 نجيب ، لخم ، جذام ، بنو بحر ، غالفق ،
 حضرموت ، يهعب ، معاهز ، سمبأ ،
 منوائق ، مذحج ، غطفان ، بكلي ، مغولان ،
 المصريف ، وغير هؤلاء كثير . ولا شك أنه
 كان بين هؤلاء كثيرون من عرب جنسوى
 فلسطين وسيناء وشرقى الدلتا وصحراء مصر

القرية ، فمن انتسب منهم الى قبيلة من هذه
فمنه انفس اليها ، والا اندرج تحت جماعة
عامة كانت تضم أبناء من القبائل ، سميت
أهل الرابية . وكانت هناك أيضا جماعات
تسبى قبلة ، وقر من العرب الذين كانوا
يسكنون بلاد الدولة البيزنطية ويسمون
العبراء ، وهم قليل من بقايا فرس اليمن
الذين استبرؤوا وكانوا يسون الفارسيين
وعلى طول العصر الأموي كان يسار
الهجرة العربية نحو مصر مستمرا ، ويبدو أن
ذالقة المهاجرين كانوا كذلك من انفس وقد
بلغ من أمر البنية أن عن ولي مصر من
المبشرين كانوا يحرسون على أن ينفذوا
بإستقدام قبائل نيسية الى مصر : حدث ذلك
في أيام عبد العزيز بن مروان والوليد بن
رعاة وولاية مييد انه بن الحبصاء على
الخراج ، فكثرت جماعات القيسية بمصر ،
ولكنها لم تنزل المصاط ، والما شرى
الذكا : حوالي بلييس اولاً ثم امتدت شمالا
وجنوبا حتى عبرت ما عرف بالحرف الشرقى ،
وزلت كذلك في غربى الدلتا ، لهما يعرف
الآن باسم البحيرة تعرف بالحرف الشرقى ،
أى أن كتلة كل جدم من جذمى العرب
التكبيرين نزلت في ناحية قير ما ولت الأخرى ،
وربما كان هذا هو المنبج في أنه لم يعج
بمصر هذا الصراع السوى بين فطان
وعدون الذى قضى على سلطان العرب
■ فارس وخراسان وكاد يقضى عليه في
الأندلس .

وقد حرم عمر بن الخطاب على جنس
العرب المدون الاستئمان بالزراعة
أو الانصراف الى مطلب آخر من مطالب
الحياة ، ولكنه لم يحرم ذلك على العرب
عامة . لأن الحريم على الجند ضرورى
ومليحي ، كما على عامة العرب فغير ممنون
أو مستن . وينبى أن تذكر أن العرب
لم يكونوا جيباً جندا ممنون ، فكيف يحرم
عمر العمل على مربي عادى هاجس بنفسه
وأهله الى بلد كعمر ليزن ويحيى ؟
من القبيح أن تكون غن وجدت في مصر
وغيرها جماعات عربية مدنية ، وهذه هى التى
استغلت بالزرع والفرج وشرن المطاش دون
أو يكون في ذلك مظالفة لأمر مصر ، وهذه
الجماعات بصب احصاؤها ، وهى التى
البت من أول الأمر بن الأهلين في كلة ناحية
واحتلمت بهم ، وهى صاحبة الفض الأكبر
في حرب الستة الناس ومحوهم الى
الاسلام ، لأن الجند العربى ظل منفصلا
بنفسه في معسكراته ، وأشرها الفسطاط ،
ولذلك لم تتح له الفرصة للاتصال بالناس ،
ومن هنا كان دوره في التعريب وادخال الناس
في الاسلام قليل .

وسواء بعثنا في العراق أو في مصر
أو الأندلس ، فاننا نجد التالفة العظمى من
هؤلاء الذين ابتوا بين الناس كانوا من عرب
اليمن قول الأثر : ثم لما عُثف الأصار على
أمرهم في معترك الحياة العربية ، وانزع

انما جرون الأمر منهم ، ترك الأماصار ميدان السياسة وانصرفوا الى مطالب العيش ، والأماصار يعدون في جملة البنية . وكلما احزم فريق من العرب في ذلك المترك انصرف أمراده الى طلب العيش في الأماصار أو الزراعة في الأرياف . ولهذا فقد كانت السياسة تلمي في ميدان الحياة العامة بفرق من العرب يعد فريق ، وهذه الجماعات الختزمة هي التي حققت للإسلام والعربية نصرهما الحقيقي في بلاد مثل مصر والمغرب والأندلس ، ومن أمراءها تكونت معظم الجماعات التي اشتغلت بالعلم والدرس في مركز الدولة والأماصار .

ولهذا فمن الخطأ أن يقال ان العرب بدلوا يتغلغلون عن سياسة الترفيع عن الاختلاط بالأهالي من أيام هشام بن عبد الملك مثلا ، لأن الأمر هنا لا يتعلق بسياسة بل بعملية طبيعية بدلت منذ البداية . وجدير بنا أن نلاحظ أن أولئك الذين اشتغلوا بالعلم وطلب المعاش والزراعة لم يهضموا عن عربيتهم أو اختزلهم بها ، بل خالطوا الناس محتفظين بشعورهم العربي ، وتزوجوا معهم وأورثوا أولادهم أو منهم العربية ، فأولاد العرب عرب ، ومن ثم فإن أعداد العرب في الأندلس كانت في زياد ، وكانت لهم امتيازات حضوية ومادة بحكم الدين والأصل واللغة ، وهذه الامتيازات كانت مما حيب الى الناس الانتساب اليهم ، ودخول الاسلام واتخاذ اسماء عربية ، بن اصطناع أسباب عربية .

من هنا كان من المعبر تبع حركة الاسلام والترب : لا في مصر وحدها بل في نواحي الدولة الاسلامية الأخرى ، فهي عملية طبيعية بدأت منذ البداية وسارت سيراً لم ينته اليه أحد ، وتعرضت هنا وهناك لظروف اعانت عليها أو عطلتها حيناً ما ، ولكنها مضت في طريقها ، فلم يار من مثلاً نجد الإسلام ينتشر بخطوات أوسع من انتشار اللغة العربية ، وفي الأندلس سعاد الاستعرا به بأسرع مما سار الاسلام ، وفي مصر سار لأموال جنبها الى جنب لأسياب تملق بحالة المسيحية واللغات التي كان الناس يتكلمون بها في مصر عندما دخلها العرب .

لأما فيما يتصل بالمسيحية ، فليس كان اختلاف المذاهب النصرانية قد بلغ مبلغاً حرص أصول العقيدة النصرانية للاهتمام والنموض في نظر الناس . ولم تكن العقيدة المسيحية اذ ذلك محددة المعالم أو متقرة القواعد ، وكانت المعامح الدينية تسمى نحو التعهيد ومعمل على الكثير ، ولكن شئون المعامح شأيتها أهواء الأشخاص وعصبانيت النواحي ، وأندس مرها بمغفل الأباطرة للمعاشرات سياسية حيناً وشخصية حيناً . وكانت مصر من بين بلاد الدولة الميزنطية ، قد اتجهت في تفسير مسضلات العقيدة النصرانية اتجاها واحداً حرص البطاركة والقساوسة والرهبان على الامتسك به من دون الصراع الى نهايته وهو القول بطبيعة واحدة للسيد المسيح ،

وقد كسب رأى المصرين أنصارا كثيرين في
السيام وآسية الصغرى بل في القسطنطينية
نفسها ، واستطاع بطاركة عظام من أمثال
ديوجوروس وكيرلس الاسكندراني أن
يكسبوا انتصارات كبرى في المجالس الدينية ،
واستغللت القومية المصرية أثناء هذا الصراع
حتى أصبحت المونوفيزية - - وهي المذاهب
بالميلية الواحدة - مظهر من مظاهر القومية
المصرية .

وقد تبهد الدولة البيزنطية الى هذه
النتيجة ، وبذلك انتهى جهدها حتى انسحرت
على رأى المصرين في مجمع طلميدولية ،
الذى سمي في كتب التاريخ القبطي بمجمع
اللموصى . ومن تاريخ ذلك المنهج المفضل
المصريون انفصالا روحيا تاما عن كنيسة
القسطنطينية وكتبه روما أيضا ، واخذت
الدولة البيزنطية تستعمل مع المصرين نفس
وسائل الاضطهاد لصرفهم عن عقيدتهم دون
جدوى ، فلما غزا الفرس مصر نزع المصريون
منهم أول الأمر سب ما ارتكبهوا من أعمال
المنه والقسوة ، ولكنهم أحسوا لأول مرة
بمضائق الانفصال فكسبتهم عن تلك الدولة
البيزنطية التي لم يرهاوا في أيامها الا انتاعب
والاضطهاد . فلما خرج الفرس وحسباد
البيزنطيون عذب معهم الاضطهادات والتاعب
وتعدت الدولة ذلك الأسقف المتمصب فيرس
أستقف فارس ليقضى على مقاومة المصرين
ويهدم كنائسهم .

وقد كانت نتيجة هذا الصراع الطويل
وما تخلله من بلبلة الأفكار بسبب المذاهب
الكثيرة التي اقترحتها الدولة رعية منها في
التقريب بين المذاهب المختلفة ، واجتهاد رجال
الدولة في فرض هذه الآراء ، كانت نتيجة
ذلك كله أن ضممه امبر المسيحية في مصر
ضمما شديدا ، وتبللت أفكار الناس ، بحيث
لا يمكن القول بأنه عندما فتح العرب مصر
كانت هناك وحدة دينية أو مذهبية على الأقل ،
حتى ذهب بعض مؤرخي الحضارة الى أن
المسيحية لم تحفظ في أهدان النفس المصرية ،
وقال ليفجر . « ان المسيحية لم تغير شيئا من
روح الجنس المصري ، ولم تصل الى التأثير
التي الحياة الخاصة للأفراد ، ولم تحوّل
الأوضاع تحولا ساددا الى المسيحية » . وقد
حاستون ثين . « ان الشيء الذي لم يكن
له أثر في مصر عندما دخلها العرب هو العتيده
والروح الديني . ان نصرانية الأقباط اقتصرن
على منازعات عقيدية مع البيزنطيين ، وانسأ
لنحط عندهم منذ زمن مبكر معارضة تقوم
على كبرياء ، بل ربما استنفا ان يقول اننا
نلمح عندهم شعورا قوميا بطيبيا . وقد ظهر
هذا الروح القومي المصري بأجلى مظاهره
بعهد مجمع طلميدولية . وكان هذا من
الروصوح بحيث يعنى لنا أن تسأل عما اذا
كان تعصب الأقباط للمونوفيزية في حقيقته
كرعة للسلمان البيزنطي قبل أن يتكون اقتساما
بعقيدة » .

مصر والشام ومن اليهم في ذلك الحين كان مخرجاً مريحاً من مناعة المذاهب المضاربة ومشاكل التبعة الواحدة والظمتين ، حتى ان بعض المسيحيين لم يروا في الاسلام اذ ذلك الا مذهباً جديداً من مذاهب المسيحية ، فالانتقال مما كانوا عليه الى الاسلام لم يكن لي انظر الكثيرين منهم خروجاً من دين الى دين ، لذا اُضغنا في ذلك ما اصاب كنائس الأقباط من هدم ورجال دينهم من اضطهاد وتفريد على أيدي البيزنطيين ، بحيث باتت الكثير من النواحي بلا كنائس ولا قساوسة ، تصوراً سهولة انتقالهم الى الدين الجديد .

ثم ان الدور في الاسلام ينقل المصري أو القري أو الآسياني الى مرتبة الحكام وأصحاب الدولة ، ويرفع عن كواهلهم مطالب ومناوهم كثيرة ، ويجعلهم بنحو من المعاملة الخاصة التي كان بعض العمال يتمتعون بها الدمين . وقد أشار القريزي إشارة غير مقصودة الى العلاقة بين انتشار العرب في الأرياف والشوا الإسلام فيها ، قال : « ولم ينتشر الإسلام في نوى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، عندما نُزل عبيد الله بن العيصاب مولى سلول قيسا بالصحف الشرقي ، فلما كانت المائة الثانية من سنو الهجرة ، كثرت انتشار المسلمين بقري مصر ونواحيها » .

وربما بدا غريباً ان نقول ان مراكز تجمع الجند العربي ، في المساط والإسكندرية والجزيرة مثلا ، لم تكن بذات اثر كبير في

وهذه الأتومات كلها لا تقوم على فهم صحيح للنفس المصرية ، وتتجاهل حقيقة حال النصرانية خلال القرن السادس وأوائل السابع الميلاديين . فالواقع ان القيسرة المسيحية نفسها كانت الى ذلك الحين في طور التكون ، وكان الأسسباتمة والرهبان ورجال الكنائس يحاولون تحديد أصولها ، أما الرجل العادي فكان في حيرة من أمره ، لم يستتر بهد على فهم واضح فيما يتصل بأصول دينه ، وكانت آمار الوثنية باقية ما تزال تحتلط بمفهوم المسيحية عند معظم العوام . وقد اثبتنا في دراستنا لفتح العرب لبلادنا أن نواحي كثيرة من شبه الجزيرة الابيرية كانت لا تزال على الوثنية ، ويسبق هذا على مصر ، ضمن المغالاة ان نقول ان أهل القفر جميعاً كانوا في أوائل القرن السابع مسيحيين ، أو ان المسيحيين منهم كانوا عارفين بأسس العقيدة وشريحتها ، بل كانت مراكز المسيحية اشرؤفاً في مصر ، مثل الإسكندرية وابلون وقبوس ، في خلاص بعضها مع بعض .

وكان الرأى السائد عند زعماء الأقباط قريبا جداً من الإسلام وراية في السيد المسيح عليه السلام ، ولم يكن من السيد لهذا ان يتحول الكثيرون منهم الى الاسلام دون جهد كبير ، خاصة وأن الإسلام دين سهل لا تعقيد فيه ، واقتناع الناس به لا يحتاج الى شرح أو تفصيل طويلين ، وهو بالنسبة لمسيحي

منحطة تعرفه بلاتينية العصور المتأخرى
 1. o bas kata لا نحو لها ولا ضوابط ،
 أغارت عليها لغات الجرماني في كل ناحية ،
 واختلقت هذه بتلك وبدت نشأ لهجات
 في النواحي ، ثم أخذت اللهجات تتعارب حتى
 بدأت اللغة المحلية ، سواء آكادت فرسية
 أو إسبانية أو جرمالية . ولم تكن لهذه اللغة
 الفبطية صورة ثابتة بعض الشيء إلا في بعض
 الكنائس ونيسا كعبه بعض قساوستن . ثم
 اجما ، حتى في هذه الدوائر القبلية ، تأثرت
 تأثرا عظيما باللغة الأخرقية ، بل فقل بعض
 كتاب مصر أن يكتبوا بالأخرقية .

وكانت الوثائق الرسمية تكتب بالأخرقية
 أي أن البلاد لم تكن لها لغة ثابتة لا في الكتابة
 ولا في الكلام .

ثم دخلت اللغة العربية لغة كاملة غنية
 فاهرة على النسيج من كل شيء ، ولها كتابة
 ثابتة معروفة ، ثم هي لغة الاسلام والقرآن
 والحكام ، فلا غرابة في أنها غلبت غيرها دون
 منقطة وأخذت تظف على السنة أهل الودى .
 وهذا الكلام لا ينطبق على مصر فقط بل على
 المغرب والأندلس أيضا . وليس معنى ذلك
 أن اللغة العربية حلت محل اللغات المتداولة في
 مصر ولغة واحدة ، وإنما نحن بسببنا الأسباب
 التي مهدت الطريق أمامها ، أما انتشارها
 نفسه فعميقة بليغة تمت على مر السنين . وإذا
 نحن قرأنا كتابا مسجلا في القضاة والولاة
 للكندی استطعنا أن نتبع بعض خطبوات

انتشار الاسلام في البلاد . ولكن هذا هو
 الواقع ، لأن هذه المراكز ظلت مراكز عربية
 صرفة ينزلها من المصريين ، ولكنهم
 لا يتصلون فيها بالعرب هذا الاتصال الذي يؤدي
 إلى التفاهم وانتقال الآراء والمعتقدات فكانت
 السطاط مثلا مسكرا لا ينزه أهل البلاد ،
 ويعيش فيه العرب في أحياء كل حي منصبا
 خاص يقبل من العرب ، وهذه الأحياء هي
 التي تسمى الخطط ، وفي الإسكندرية عاش
 الجند العربي في مساكن خاصة به عرف
 باسم الأهلان ، وكذلك حول العرب بومسح
 و الجزيرة ، الذي اختط بسوء إلى حصن ،
 وتسموه خططا نسبة لخط السطاط ، وقد
 ظلت هذه المستقرات مغلقة على من نيسا
 رما طويلا ، فلم تكن بذات أثر في انتشار
 الاسلام ، إنما كانت ذات أثر في انتشار
 العربية ولقائنها ، فقد كانت مراكز هربية
 صرفة ، ونشأت في السطاط بصفة خاصة
 مدارس علمية وقضية كان لها أبعاد الأثر في
 تحريك آسئ الناس ، وفي جعل مصر مركزا
 من مراكز الثقافة العربية الرئيسية .

وانشرت المصرية جنبا إلى جنب مع
 انتشار الاسلام ، وقد ساعدنا على الانتشار
 أن المصريين في ذلك المعين لم تكن لهم لغة
 واحدة يتفاهمون بها في كل مكان ، فقد
 كانت اللغة الفبطية إذ ذلك في دور التكون .
 كانت كلمات أوروبا مثلا خلال القرنين الخامس
 والسادس الميلاديين : بقايا لهجات لاتينية

ويبدو أن اندماج العرب في المسيحية
 العمامة بصر كان اذ ذلك قد سار شوطا
 بعيدا ، لأن هذا اقرار لم يكن له رد فعل
 عنيف بين العرب ، فبينما كنا نتوقع أن ينكروه
 عروب مصر على بكرة أبيهم ، لا نلاحظ
 الا استبتكار مصر من لحم وجذام لم
 يزد عددهم على طمسائة ، فظن الروالي على
 مفارقتهم وانتهى كل شيء . وقد استتج
 قبيت من شواهد القبور أن العرب احتفظوا
 بالانساب لبعائلهم حوالي قرنين من الزمان ،
 فكاتبوا بحرسون على أن يكتبوا على شاهد
 القبر — الى جاب اسم الميت — القبيلة التي
 ينسب اليها ، ولكن ذلك تلاشى خلال القرن
 الثالث الهجري ، وأصبح الناس ينسبون الى
 اقبائهم .

وعلى أي الأحوال نستطيع القول بأن
 اللغة القبطية فقدت أهميتها تماما خلال
 القرن الرابع الهجري ، فاننا نجد كتاب
 الأقباط — مثل سيده بن البطريق وساورس
 الأسوليني — يكتبون بالعربية ، وكانت
 كتاباتهم موجهة الى الأقباط ، فلو كانت
 القبطية أخرى على لسانهم لكتبوا بها ،
 لما وجدوا كتبوا بالعربية ، فذلك دليل على أن
 اللغة العربية كانت قد أصبحت لغة الشمس
 أقباطا وغير أقباط . وذلك أكثر انطباقا على
 لغة الكتابة ، ولا ينفي أن الكثيرين من أهل
 النواحي تلووا يتخاطبون بالقبطية ، ولكنها
 كانت في طرفها التي الزوال ، حتى لم يبق منها

هذا الانتثار ، وذلك من خلال عشرات
 الحكايات التي يوردها الكندي في أخبار
 القضاة . ولكننا نعلم من كلام الرحالة أن
 اللغة العربية لم تسد السنة أهل مصر جيما
 حتى القرن السادس الهجري ، فعلى بن سعيد
 مثلا يشكو من أنه الناس في مصر لا يفهمون
 ولسانه المغرب ، تمام اليوم ، بل إن الشريفي
 صاحب « هز القصور » يقول أن الفلاحين
 في بعض النواحي كانوا يتكلمون في أيامه
 بلهجات خاصة بهم .

وجدير بنا أن نشير الى أمرين كان لهما
 تأثير كبير في انتشار الإسلام واللغة العربية
 في مصر : الأول قرار عبد الملك بن مروان
 سنة ٧٠٩/٨٧ بترحيل المولدين ، فقد كانت
 نتيجة ذلك أن اضطر كثير من الأقباط
 — ممن كانوا يتكلمون بالقبطية — الى
 التحويل الى الإسلام وتعلم العربية حتى
 يحتفظوا بوطائهم . نعم إن قرار عبد الملك
 لم يطبق بصدافه ، وظل كثير من الأقباط
 يتكلمون بالقبطية العامة ، ولكن معرفة العربية
 كانت شرطاً لازماً لاحتفاظهم بهذه الوطائف .
 والأمر التالي هو قرار المتعمم بإسقاط العرب
 من المولدين وقطع أعضائهم النساء ولاية
 كيدر نصر بن عبد الله فيما بين سنتي ٦١٩
 و ٦٣١/٣١٩ — ٨٣٤ — فقد أصبح العرب
 بذلك رعية ، شأنهم شأن الأقباط سواء ،
 وزالت الحواجز بين اتجانيين ، وأصبحت لنا
 واحدا على الدولة وأتراكها .

في مطالع العصر الحديث الا بقايا قليلة في
دوائر ضيقة .

ونلاحظ - الى جانب ذلك - ان هذه
العملية تمت في مصر دون ارماف أو ضبط ،
بل لم تتم نتيجة لسياسة خاصة للدولة
الاسلامية ، فان الدولة لم تكن لها سياسة
مبينة في نشر الاسلام . و كان ذلك
من حسن النظم ، فاختار الاسلام من اختاره
طائفا من القناعات ، وتعلم العربية من تعلمها من
ناقاه نفسه بدافع من مصالحه . بل ان المنتجع
لأخبار مصر ، خلال القرن الاول الذي تلا
الفتح ، يلاحظ وكالما كانت سياسة الحكام
دافعة الى احياء المسيحية المصرية ، فقد فضع
الحرب صفة مصر بالدولة البيزنطية فتتس
أخولغيزيون الصمداء ، واقبلوا يرثون ما
وهي من أمور عقيدتهم وكنائسها ، وكرهم
العرب ينضمون لشؤونهم الدينية كيف شاءوا :
يتخبرون البطرك الذي يريدون ويمهدون بناء
الكنائس المتهدمة ، بل يبنون كنائس جديدة ،
ويزلون الأسماء الاخرقبة عن قراهم
ولواحيهم ليحلوا محلها أسماء بطرية .

ومعظم الكنائس القبطية الكورى السابقة
الى لأن النابست أيام الأيوبيين ، مثل كنيسة
أبي مقار وكنيسة القمصين مرفص
بالاسكندرية ومارجرسي وكنيسة الحمره
المعروفة بأبي ميا وما إليها ، بل كان كبار
القضاة من أمثال الليث بن سعد وعبد الله بن
لهجة يرضون عن ذلك ويقولون انه « من

عمارة البلاد » . ولم تطبق على أقباط مصر
القيود القامة باللباس والركوب والمساكن
والكنائس - التي نسبها عمر من القضاة
الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه - الا في
مناسبات قليلة ، ولا تكاد نجد واليا متشددا
في هذه الناحية الا عقبه وال متسامح رحيم
الصدر يعيد أمر الأقباط الي ما كانوا عليه ،
لغاشق من أراد الاحتفانك بدينه في مصر في
سلام حتى نهاية العصر العاطفي بل يمدد ، فذا
كان قد اصاحم بعد ذلك حيف فقد اصحاب
المسلمين مثله ، وكان الرهايا جميعها صرح
حكاهم الى بلاء منذ القرن السادس الهجرى ،
سلمين وغير مسلمين .

تبصرا لا يبنى ان نفس طويلا عند ما
يحبب بمص السنسرتين من ثورات الأقباط
على حكام المسلمين ، ولو أننا احصيا
ثورات المسلمين أنفسهم على حكامهم
لوجدناها أكثر وأبعد مدى وخاصة أن هذه
الثورات لم تقتند وأخذت هيئة جسدرة
بالملاحظة الا في عصر بنى العباس ، وأسباب
هذه الثورات كلها مالية ، وهي جبره من
المتاهب المالية التي ارتبكت الدولة العباسية
فيها . ويكفى ان نذكر ان أكبر هذه الثورات
كامت في سنة ٣١٩/٨٣١ أيام المأمون . وهي
الثورة التي أزجعت الأمور وجاءت به الى
مصر لبتلاف أمرها - فلم تكن هذه الثورة
التي صمت الوجه البحرى كله ثورة أقباط ،
بل شارك فيها العرب أيضا ، لى أن الحيف

الذي دفع اليها كان عاما على الجيـح ، وهي نتيجة مباشرة لسياسة المعتصم عندما ولاء أخوه الخليفة المأمون أمور القسم العربي من دولة بني العباس . وقد أرسل المعتصم قائده الاخير فأخمد ثورة العرب المشركين ﷺ الهتة ، ولم يستمر عليه الا اهل البصرة ، وهي لاجية بمسأل الدلتا جنوبي بحيرة البرلس ، وكان أهلها قوى حث وشدة ، ينتمون بشتتات وراحيهم فلا يصل اليهم أحد وكانوا في حالة ثورة دائمة على الحكم العربي ، وقد حارب المأمون الاسفانة عليهم بانين من يطاركتهم دون جدوى ، ووجه كج قومه لحرهم حتى أخضعهم في أواخر سنة ٢٦٦ / ٨٣٦ ، وكانت هذه آخر ثوراتهم ولوردت الأقيان أيضا . ولما أكتسب زبارة المأمون هذه لمصر حدثت قصة المثيرة مارية القبطية بتسرية طاه النمل ، التي استضافت المأمون وأصحابه ولقدست له هدية عشرة أكيساس من الذهب ، وكه رواتها المتبرزي في خطه . ومهما استبعدا من مبالغاها ، لم يمد على رخاء هذه الفاحية من نواحي شرق الدلتا ﷺ تلك الأيام ، وبين هذه الثورة وقيام دولة أحمد بن طولون سنوات قليلة لا تزيد على ثلاثين .

الأحوال العامة - الزراعة والصناعة والتجارة :

هكذا جرت الأحوال في مصر بعد الفتح الاسلامي عاما فعاما : ازدهرت شتوتها وأمن أهلها ورغبت أحوالها خلال العصر الأموي ،

ثم بدأ يصيبها ما أصاب غيرها من نواحي الدولة الاسلامية من الاضطراب والضيـق والتفتن ابتداء من العصر العباسي . ولكن الأحوال على العملة سارت سرا طيبا مقبولا : أقبل المصريون على معلم الأبدى في الأرض صتمسطين على عبادة الحكم الاسلامي ، ولا حاجة بنا الي تعداد محاسنها ، فهي هي التي عرفها في كل أمصرها القديمة والوسطى ولكنني بالإشارة الي الكتاب ، فقد كان - بعد الفصح - أهم معا صيرل مصر الاقتصادية ، وكان المصريون ينسجونه في نواح فشي المشتمت بالمناسج . وكانت المنسوجات التهبية المصرية مشهورة في العالم الاسلامي كله ، ولما كان القطن والحرير فلبين فقد كان لسج الكتان هو الغالب ، وكان المصريون ينسجون به نوعا عاديا وخبضا لامة القام وأنواعا أخرى دليفة غالية يساع الدرهم من بعضها بدرهم ففة ، وقد اشتمت بهذه الأنواع الرليقة الاسكندرية ونيس ، وكان عساجوها يطرحون لياها غاية في الرولة يسمى الواحد منها البدة ، لا لا يدخل فيه من القزل سداة ولحسا غير أوقنين ، وينسج باقيه بالنصب بصناعة متحركة لا تحتاج الي تعصل ولا خياطة . وتبلغ قية هذا الثوب ألف دينار . وكان أهل دمياط ينسجون نوعا يسمى القصب يغلب أنه كان نوعا من الدتلا . واشتمت بالنسج أيضا شطا ودميرة وثوفة ، وكلها

قرب تيس وحمباط . وكان الصوفاء واقطن
يسجنان بالهنسا والتيس والأشمونين
واخميم واهناس وجوسير قريديس من بلاد
مصر العليا ، واشتهرت اخميم خاصة بالحرير .

ويبدو أن الحكومة كانت تحتكر انوفا
من النسيج ، وقد ورنيت الإدارة الاسلامية
في مصر ذلك عن الادارة البيزنطية التي كانت
تحتكر الحرير . وكان التجارون المصريون
يخرجون ما يصنعونه ملونا وسادجا (وهذا
أصل لفظ « سادة ») وقد ينسجونه بخيوط
الذهب والفضة ، وقد يرنونه بالكتابات .
وكان النسيج المنوي يخرج من المناسج التي
تحتكرها الدولة يسمى بالطراز ، غير أن لهذا
اللفظ مدلولات كثيرة ، أهمها أقدمه خاصة
بالدولة ورجالها ، ثم أصبح معناه مصنع
النسيج ، فكان يقال « طراز العامة » أي منسج
عام ، و « طراز الخاصة » أي منسج تملكه
الدولة ، وعلى النجفة فقد كانت مصر أعظم
مركز للنسيج في العالم الاسلامي ، ومن
مناسج مصر لیس الطللح والأمرام ، ومن
مصر كان التجار يحملون النسيج في كل وجه
وكانت كسوة الكعبة تصنع في مصر منذ أيام
عمر بن الخطاب ، ولا زال الأمر على ذلك إلى
الآن عاما بعد عام .

وظي النسيج في الأهمية من صناعات
مصر صناعة السفن ، فقد دلت الأبحاث على
أن مصر كانت إذ ذاك أعظم مركز لهنا في
العروض الشرقى من البحر الأبيض المتوسط .

وقد بدأت عناية المسلمين بالسفن والأساطيل
بعد فرارهم من أمر تعصيف سواحل البحر
الأبيض التي تحت سلطانهم ، واتامة المحارس
على السواحل وشكها بالمقاتلة ، واتامة
« المناظر » وهي أرباع تقام لمراقبة الشواطئ
وتنظيم « المراكب » وهي موانع توفد فيها
النار للافارة ، ففي مصر مثلا كانت اتصالات
المراكب تنتقل من موقد لموقد حتى تصل
الأخبار عن الساحل إلى القبط في زمن
لبليل . لم بدأ المسلمون بعد ذلك بالعناية
بأساطيلهم ، وظهرت هذه العناية بوجه خاص
في مصر ، فحضر العرب خليج أمير المؤمنين ،
وجو قناة تفرج من النيل شمال القبط
وتصل إلى خليج السويس عند القلزم .
واهتموا بإنشاء السفن التي تحمل الترح
وما اليه من القساطل إلى القلزم ومنها إلى
البحار ، فأنتشروا لذلك دار صناعة عند
جزيرة الروضة بمصر ، ولهذا سميت بجزيرة
الصناعة ، وقد ظهر المصريون براعة فائقة
في بناء السفن ، فسلما أسطول فري . ثم
خطوا بعد ذلك خطوة أخرى فأنشأوا سفنا
كبيرا لضوض الماركة انحرية .

وكان اهتمام المسلمين بصناعة السفن
جزءا من اهتمامهم العام ببحرهم في شرق
البحر الأبيض المتوسط ، وصاحب الفضل في
تلك الحركة سماوية بن أبي سفيان ، فقد اهتم
اتمام ولايته على اتتمام بإنشاء السفن في موانئ
الشام اهتماما اخافه الدولة البيزنطية ، فقرر

ابن عبد الملك ، أن صناعة السفن كانت زاهرة في مصر ، في جزيرة الروضة وفي القلزم - الاسكندرية . فبعض تلك الأوراق يدلنا على أن الوالي قره بن شريك كان كثيراً ما يطلب من صاحب كورة اشقاو أن يرسل اليه ممالاً وحسانات وملاحين للعمل في دور الصناعة والمساعدة في امتداد الأسطول المصري العربي . كما تدل تلك الأوراق على أن الوالي كان يشق مقعداً على أجور هؤلاء الصالحين والملاحين الذين يصلون في الأسطول المصري ، كما كان يفرض على اشكورة قدرها من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن وتثقيفها . كذلك كان يفرض عليها لمعين الملاحين الذين يعملون في الأسطول ، كما كان والي مصر يرسل بعض الملاحين للعمل في أسطول المغرب أو أسطول المشرق والمساعدة في المشروعات البحرية المأمنة للدولة الاسلامية .

وله استمرار ذلك طوال العصر العباسي وعصرى الفاطميين والأيوبيين ، ولم تصرف مصر عن الاهتمام ببناء السفن البحر إلا في أيام المماليك كما يقول القريزي . ولدينا وثيقة يردية يرجع للويضا الى سنة ٣٤١ / ٨٥٥ تعطينا فكرة عن عظيم اهتمام ولافا مصر بطبع الفيزنطيين عن سواحل مصر ، ومعدار ما كان المصريون يماثرونه من المتاعب للقيام بالخدمة في الأسطول وحماية شواطئ الاسلام . وكانت مصر تستورد الخشب اللازم لبناء

امراطورها فنسازان أن يقضى على ذلك القوة البحرية الاسلامية **■** مهدها ، فتصدى له الصلحون وتوقعوا بالأسطول البيزنطي حزيمة موقمة الصواوي ثم ذات الصواوي ٣٤ / ٦٥٥ التي قفلت سيادة العرض الشرقي للبحر الأبيض المي أهدى المسلمين ، وكانت نواة الأسطول الاملاسي الذي كتب هذا النصر شامية ، ولكن القوة العاسية امت من مصر . فبينما سار معاوية يسكن الشام الى ليصرية بأسية الصغرى ، خرجت جماعة بحرية مصرية من مصر على رأسها عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان يقودها ثمانية من المصريين ، بل كان من يهتأ سحن ليس فيها الا أنباط . وكانت هذه الموقعة حافزاً للمسلمين عسلى الاهتمام بشئون الأساطيل ، ويبدو أن دار الصناعة في جزيرة الروضة نعتت فسين المسلمين على أهمية هذه الدور ، فقد قال البلاذري : **h** انه لما كانت سنة ٤٩ هاجم الروم سواحل الشام ، وكانت دور الصناعة مصر فقط ، الأمر معاوية بن أبي سفيان بالقضاء دار للصناعة في عكا . وعظمت مصر طوال العصر الذي تحدث عنه في هذا الفصل مركزاً من أهم مراكز بناء السفن ، وظل يغطيها معجوداً لهم بالنفوس في اخلاء الثغور البحرية حتى كان يستعان بهم في كل ناحية من نواحي المملكة الاسلامية .

وقد أظهرت أوزان البردي التي كشفت في كوم اشقاو ، والتي ترجع الى عصر التوليد

المسفن من الشام ، وربما من آسيا الصغرى
وبعض بلاد أوروبا .

وكان البردي خلال عصر الولاة من أهم
منتجات مصر ذات القيمة الاقتصادية ، فقد
كانت أوراق البشنين تسمى بكترة في
مستنقعات الدلتا والنهر ، وشهرة المصريين
بعمل الورق منه معروفة . قالت الدكتور
سيدة الكاشف : « ويذكر ابن الفقيه في
أواخر القرن الثالث الهجري أن لأهل مصر
القرايس التي لا يتركهم فيها أحد ، ويذكر
البعقوي أن القرايس كانت تصنع في بورة ،
وهي على ساحل البحر من سهل قضاة ، وهي
مدينة صغيرة وهي على ساحل البحر ليرى فرج
رشيد ، ويقال لها وسيمه . وطالما كان الناس
يستعملون البردي للكتابة كانوا يعتمدون على
مصر . أما في القرن الرابع الهجري فيحدثنا
الثعالبي أن كوافيد سمرقند عطلت فرايس
مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها
لأنها أحسن وأنعم وأرفن وأول ، ولا تكون
إلا بسمرقند والصين . ويذكر كرابانيفيك
أن صناعة ورق البردي للكتابة انتهت في مصر
بالاجمال حوالي القرن الرابع الهجري ،
والواتح أن ورق البردي المؤرخ الذي وصل
إينا ينشئ في عام ٤٣٤/٤٣٣ هـ على حين أن
الوثائق المكتوبة على الكاغذ يبدأ تاريخها
عام ٣٠٠/٩٦٢ هـ . وهكذا يرى أن مصر كانت
طوال عصر الولاة تحريا تكاد تحتكر صناعة
الورق . وكان سناع الورق ، كثيرهم من

الصناع في مصر ، من المصريين . وكانت
أغنيبتهم ، أو كلم ، في أول عهد الفتح من
الأقباط . وإلى أواخر القرن الهجري الأول
وأوائل الثامن الميلادي كانت صيغة الطابع
الذي يطبع على الورق « آب والابن وروح
القدس » ، ومع أن هذه الصيغة استبدلت
فيما بعد بما يتفق والدين الاسلامي ، إلا أن
الكتابة ظلوا يرسمون علامة الصليب على
شهر أوراق الحكومة » .

والى جانب هذه الصناعات الرئيسية
اشتهرت مصر بصناعات تقليدية أخرى
كالجارة والحجر على الخشب والخسوف
والزجاج وصناعة المعادن ، وكل هذه
صناعات متوارثة من العصور القديمة . فإذا
أضنا إليها ما كانت مصر تصدره من الحبوب
وتستورده من العمامات لينا أن تجارة مصر
في ذلك العصر كانت نافذة ، وأن القلم
وحياط والاسكندرية ورشيد كانت وافر
انتشاط . فلم يشجع أمر الاسكندرية
وتحول الى قرية لا أهمية لها بعد النتج
الاسلامي كما يقول بعض المستشرقين ، فقد
زارها عبد الفتاح الاسلامي بنحو ثلاث سنه ،
أي سنة ٥٠ - ٥١ هـ / ٦٦٠ ، آركونف
أحد عجاج بينه انفس ووصفها بأنها ملتقى
التجارة العالمية . ويذكر آدم ميزر أن
الاسكندرية وبنداد كانتا تخرجان في القرن
الرابع الهجري الأسعار العالمية ، ولا يسا
في البضائع الكمية .

الفسطاط والجزيرة ومنازل العرب في الاسكندرية

وفيما عدا ثورات الإقباط التي أشرنا إليها ، لا تذكر أصول تاريخ مصر الاسلامية من الحوادث التي وقعت فيها الا ما يتصل بين نزلها من العرب سواء تمكن ذلك خاضعا بين أقاموا في مراكز البسرب كالفسطاط والجزيرة والاسكندرية أو من تفرق منهم في فواح من مصر السفلى كالحوفين الشرقي والغربي ، بحيث يسكن القبول بأن تاريخ مصر الذي نقره عند ابن عبد الحكم والكندي مثلا العا هو تاريخ الجاليات العربية في مصر . فقد عاش العرب في الفسطاط خاصة منفصلين عن بقية الأهليين ، الا فيما يتصل بما تعلق به ضرورات الحياة ، وتنفرد الفسطاط من بين ما أنشأ المسلمون من مدن في ذلك العصر لتكون بأنها كانت مركزا عربيا خالصا كالعراق لم يغادر عربا جزيرتهم . فبينما لجسد الكوفة والبصرة فاضحتين بأهل العراق الأصلاء ، والقيروان مدينة غالبية سكانها من أسلم من البربر ، وقرطبة مدينة إسبانية حلت فيها الجالية الاسلامية ، نجد الفسطاط يبدو من أول الامر مدينة عربية خالصة لا يسكنها غير العرب ويسودها جو عربي خالص .

وهي ، على خلاف البصرة والكوفة ، ظهرت مدينة كاملة واضحة التخطيط مبتدئة البيوت ، في حين ان هاتين نمتا أول الامر بالقبص ، ثم استبدل القصب بباني اللين فيما بعد . ولا يتصور هذا الا على فرض أن

وكانت العملة المستعملة في مصر هي الدينار الذهبي ، وكسوره الدراهم النقية ، وربما استعملت كسور هذين وهي الدوايق والأشاش البرونزية ، ولكن الأساس هو الدينار الذهبي بوزنه البيزنطي . وقد ظل وزن الدينار البيزنطي ثابتا معتوقا به حتى أيام الأسرة الفسطاطية . وكان ييات وزنه أساس التقة فيه وفضان سلامة الميزان الاقتصادي للدولة البيزنطية ، حتى ان اختلاف وزنه اعتبر من العلامات العاسمة الدالة على انهيار أمر هذه الدولة ، وعن البيزنطيين أخذ المسلمون الدينار بوزنه وروسته أول الأمر ، ثم بدلوا يسكون دينارا اسلاميا من عهد عبد الملك بن مروان . ولكن الدولة الاسلامية لم تحافظ على وزن دينارها ، فاضطرت قيمته وقلت التقة فيه ، واصبحت الدوايق سلمة كثيرها تفسر بوزن ما فيها من الذهب ، وظل الناس يفضلون الدينار البيزنطي الثابت الوزن ، وظلت المعنجان مستعملين جنبا الى جنب مع اختلاف في قيمتهما .

وقد احتفظت مصر بالدينار كأساس لمعاملاتها ، في حين أن العراق مثلا أصبح يتعامل بالدراهم الفضية لثقل الذهب وقرضه للفلس . وكان وزن الدينار المصري ثابتا على الغالب ، وذلك لأن الأمراء وعمال الخراج وولاة القرملة حرصوا على تثبيت أوزان العملة على أساس منتج زراعية رسمية مطبوعة بأسمائهم .

التصطاط إنما نشأت على أساس موضع كان منسكونا قبلا ، أعاد العرب تخبطه وتنظيمه بماودة أهل البلاد . فلم يكن العرب بنائين ، وليس لدينا ما يدلنا على أنهم بنوا مدينتهم هذه بأيديهم ، وما تقول المراجع من أن اسمها مشتق من تصطاط عمرو بن العاص فرض لا يمكن رفضه تماما ، وإن كان من المحتمل أن يكون الاسم مشتقا من لفظ «توساطون» آيو لاني بمعنى الصبر أو الصنق . وقد سبق أن أشركنا إلى أن المنطقة الواقعة بين قصر النصح (حصن بابليون) التي ما يعرف الآن بعين شمس كانت حاضرة بالقرى والمزارع والأديرة ، فاختار العرب أن تكون مدينتهم بيتها .

القط ، وكان الود بينه وبينه متبادلا ، فكان يشاورهم في الكثير من شؤون البسلاد . والغالب أيضا أن هذه المساحة بالذات كانت من أملاك الدولة ، فاستصفاها عمرو ، ثم قسمها قطعا هي المروقة بالتصطاط ، ويرجع أن الخط لم تكن متباوية ، وأن كلا منها لم يكن حيا واسعا ، بل قسمت الأرض بحسب الظروف والحاجة ، لأن الرواة يذكرون لنا مثلا خطة عبد الرحمن بن ملجم ، أعطيت له بأمر عمر بن الخطاب ليتخذ فيها منزلا يعلم الناس فيه القرآن ، وابن ملجم هذا هو الخارجي المشهور الذي المتسأل على بن أبي طالب رضوان الله عليه .

ومن الدلائل على أن أهل البلاد كانوا يستركون في الإلتناء ، أن عمرو بن العاص بنى حيا ما استصخره القبط وقالوا : يتضح للفار ، أي أن النساء لم يصيبنهم . أما حمامات مصر فكانت ديباسات كجارا (جمع داموس وهو البناء الكبير ، من «Dios» اللاتيني ، لم أطلق على ما يعرف اليوم بالمتروند ، ومنه يقال : فول منسى ، أي تشق في الداموس أو الديباس) ، ثم كانت حمامات التصطاط بعد ذلك كجسارا نتيجة للاعطة لولئك المصريين . ثم الخط عمرو مسجده ، وهو أقدم ما وجد مصر ، وإن كان قد عدل وجمع وبنى من جديد بعد ذلك مرارا ، ولا زال قائما إلى اليوم ، ويعرف لقومه بالمسجد المنق . ثم اتخذ عمرو داره شرق المسجد وبنى

ولقد كانت عادة المسلمين في ذلك العهد إذا أرادوا أن يبنوا مدينة ، أن يبدأوا ببناء مسجد جامع تقوم من حوله المباني بعد ذلك . هكذا حدث مع الكوفة والقيروان مثلا ، أما في حالة التصطاط فقد بدأ العرب بتصطاط المدينة ، أي بتحديد المكان الذي ستقوم فيه وتقسيمه خطيا ، بل أقام عمرو بن العاص رجلا من أصحابه مشرفا على هيئة المدينة وهو معاوية بن حديج الكندي ، الذي سيكون له دور عظيم في نصرته بماودة بن أبي سفيان ثم في فتح المغرب بعد ذلك . ونستبعد أن يكون هذا الأسلوب المرتب في الإلتناء من عند عمرو ، بل يظن أنه استرشد فيه برأي من كان حوله من كبار

تسمى خطة الليف . وكان الوافدون من العرب يتزفون في خبط قبائلهم ، فلما ضاقت الخبط أنشئت خطة جديدة عرفت بخطة أهل القاهر .

وكانت هدية الخطة أول الأمر بسيطة : جميع القبيلة منازل على حدود خطتها ، وترك ما تدور عليه لفساد ، ولقد ضاقت هذا الفساد شيئا فشيئا بإنشاء مبان جديدة فيه وتحويل إلى جوار من اثباتي تغلغلها الدروب والأزقة . ولهذا فلم تكن في القسماط القديمة شوارع رئيسية أو مسجات تأخذ من طرف لطرف . قال ابن زولاق : « وفرق عسرو بين الروم والفرس ، وجعلهم في طرفي البلدة ، فأسكن الروم الصحراوات ، وأسكن الفرس بني وائل وراشدة وبساتين بني وائل ، ولهم إلى اليوم مسجد يعرف بمسجد الفارسيين ، وأسكن القبط العسكر ، وأسكن العرب الغلظ ، أي أله جبل من الغم إلى جبهته من عرب المسلمين الذين كانوا يعرفون بالحصراء في طرف البلد الجنوبي على شاطئ النيل في الغالب ، لأن الموضع الذي نزلوه يعرف بالحصراء الدنيا فيما بين حصن بابليون والنيل . ثم ابتنى الناس صفوفًا من المنازل على شاطئ النيل زحفوا بها إلى الشمال ، ولقد نفا عن ذلك ما عرف بالحصراء الوسطى ثم الحصراء القصوى . أما القصر الذي أسكنه الإقباط ، فأكبر به ما يلي قصر الشمع إلى الجنوب ، أي أنه أنزلهم خارج البلد .

أصحاه الدور فيما يجاوره . وكانت الدور أول الأمر من طبقة واحدة ، ولا تزيد غرف البيت عن ثلاث أو أربع . ولابن دقماق صاحب كتاب « الاستثمار لواسطة عقد الأعمار » مبالغات فيما حرم من المسلمون عليه من البساتين في الأودية . ولم يكن بحاجة إلى تكلف ذلك كله ، فإن الأمر بطبعه لم يكن يخرج عن هذه البساطة .

وقد استطاع رولف جست أن يطرح رسماً للقسماط الأولى اعتماداً على أطلالها وبقيتها أسس بيوتها التي تم كسبها ، وأتم عمله الأخرى المصري على بهجت . وقد ذهب إلى أن البلد كان يمتد من القرية الواقعة جنوبي القاهرة والتي كانت تعرف بدار الطين ثم عدل اسمها إلى دار السلام وتصل حتى بركة الحبش وقد جعلت الآن ، وكانت تقع قرب المرتفع الذي كان يعرف قبلاً بجبل يشكر ويعرف موضعها الآن باسم أرض طولود ، وعليها تقع جامع أحمد بن طولود . وكان في كل خطة منسوبة إلى قبيلة ديوان أو سجل بالمهدين في الجند الرئيسي من أهلها ، وفي دار الاسماوة كان يوجد السجل العام أو الديوان وهو أداة إحصائية صغيرة تقوم بتسجيل العرب المستقرين في الجيش وأبنائهم من لهم الحق في الانتظام في الجندية والحصول على العطاء والرزق . وكان لأهل الرابية ديوان خاص في خطتهم ، وكانت هناك خطة للعرب الذين لا ينتمون إلى قبيلة معينة ، وكانت

وشينا تشبهاً احتفى اسم بابلون وبقي اسم القسطنط . وكان اسم مصر يطلق على القسطنط ايضاً ، وأطلق قريبا بعد ذلك على القاهرة . أما النصوص اليونانية فأطلقت على البلد اسم فساطون ، وهذا هو الذى حدا بالمستشرق دوزي الى القول بأن تمط الصلطا مشتق من فساطون اليوناني . ويقول هذا الرئي أن بعض النصوص العربية تقول قسطنط ، ويصفه أن اللط لم يحط أول الأمر بشغفني وإنما حصن بزوب أو ذرية ، وهو السر يتخذ من يسات ذى شوك .

ولابد أن نضيف أن العرب لم يضعوا اسم مصر لهذا الموضع وإنما كانت تشمله قبل دخولهم القبائل العربية الحاربة الى شمال الجزيرة بسنى الحدود أو الحد ، وربما استعمل أيضا للمسكر الذى يقوم على الصدود . ويرجح أن أصله نبطي ، فلما أنتهت العرب انراكر العسكرية سموها مصارا ، فقالوا مصر الكوفة ومصر البصرة . ويرجح أنه كان يطلق أيضا على موضع حصن بابون ، ثم قالوا مصر القسطنط ، ثم أطلقوا الاسم على بلاد مصر كلها . أما الأفسريون فكانوا يقولون Aegyptus وقد أخذ هذا الاسم طريقه الى اللغات الأوروبية . أما اسم مصر القديم وهو خيمي أو شيسي أو كيمي فقد اختفى نهائيا .

ولم تكن القسطنط عاصمة مصر بقدر

ما كانت مركزا للعرب ، حتى أثنائه العصر الأموي نجد عبد العزيز بن مروان ينقل دار الامارة الى حلوان . ولم يغم السائل خلال العصر العباسي في القسطنط وإنما موضع بالحيرة القصوى عرف بدار الامارة . وقد تباث حول دار الامارة بلدة صغيرة عرفت باسم مدينة العمكر ، تم فيها مسجد جامع جديد عرف باسم جامع المسكر أو جامع ساحل الفل . وقد أهدت القسطنط من ذلك لأن يسالي الجيلدين اتصلت ، فهدت الى القسطنط أصبنا كعاصمة ، وأنتت لها شرطة خاصة عرفت باسم الفرطة العليا . وقد اسمت القسطنط واذهبتم بالقاس شيئا نسبيا ، ولكنها لم تسور . وفي سنة ٦٨٢/٦٤ حفر عامل ابن الزير على مصر حفيرا حصول القسطنط ليحتميا من جنود الخليفة مروان ابن الحكم . وقد أنتت فيها المنشآت الحكومية الواحدة بعد الأخرى ، فمصر الجامع المشق ، وأنتت مساجد صغيرة في الخط عرفت بالمصليات ، ثم أنتت أهراء كبيرة لتلقيح فكرت في النصوص الأخرى ، ثم أنتت بيت المال على مقربة من الجامع . وكان يقوم على أساطين مني أمعة ، وكان يتصل بالجامع ، وبابه الرئيسي داخل المسجد ، ولهذا كان المسجد يغلي من المعلن بعد الغشاء . وقد أصبت القسطنط بكوارث كبيرة خلال العصر الذى ندرسه ، أقامها اهل ق مروان بن محمد ايها سنة ١٢٢/٧٥٠

أنشاء فراره أمام العباسيين ، حكى ذلك ساورس بن المتعم . وقد استمرت مدينة العسكر مقام الأبرار حتى قدم أحمد بن طولون مصر وأقام دونه مستندا على جنده الأتراك ، وأنشاء القطائع . وسنجدت عن ذلك فيما بعد .

ولقد ذكرنا أن نفرا من الصرب تولوا موشح الجزيرة واختطروا مدينة الجزيرة وجعلوها خطئا ، وكان معظم من تولوا من العرب من قبليتي همدان وياض . وقد بنى عمرو بن العاص في المدينة حصنا قويا بين سنتي ٢١ و ٢٢ / ٤١٦ - ٦٤٢ ، ثم بنى فيها مسجد جامع عرف باسم مسجد همدان وينسب الى مرثد بن عامر بن بكيل ، وقد عرف أيضا بالمسجد الأعظم لاسيما وكان ملاصقا للحصن . وقد تلاثي الحصن والجامع فلا نجد لها ذكرا عند ابن خلدون .

أما الإسكندرية فلم يبنى الصرب لأولون فيها شيئا ، وإنما تولوا في سبأكن كانت لبعض الروم وغلبت بغزوهم من مبر ، فكانت تسمى الأخاذ . وكان المسلمون يسكنون هذه البيوت في رياضهم ، فأذا تغلوا سكنها الروم وعلبهم مرمتها ، لم استغروا بها بصورة نهائية .

أهم أحداث مصر من الفتح العربي ال قيام دولة أحمد بن طولون

هذه هي المراكز التي تجمع فيها العرب من أول الأمر ، وقد عاشوا فيها كما قلنا

حياتهم العربية الخالصة متصلين اتصالا دائما ومباشرا بأبناء عمومتهم في الجزيرة العربية ، ولهذا فقد كان تأثيرهم عظيما بكل ما يقع في شبه الجزيرة من الأحداث ، مثلهم في ذلك مثل عرب الكوفة والبصرة وما إليها . ولهذا فإن تاريخ هذه الجبايات يستمر جزءا من تاريخ الخلافة عامة لا من تاريخ مصر فحسب ، وينبأ ظل أهل مصر بعهدتين عن الفتن الكبرى التي عزت كيان الدولة الإسلامية خلال القرنين الهجريين الأول والثاني اشترك عرب مصر في هذه المشاكل كلها وقاموا بنحو حاسم في الكثير منها . فقد اتى عرب مصر بأهملهم في مصعان القتل التي انتهت بقتل عثمان بن عفان .

وليس هنا موضع تفصيل ذلك ، وإنما بمضائق نلاحظ أن عبد الله بن سبأ الذي يقال إن أصله من يهود اليمن وجد أذنا صافية من اليمنيين في مصر ، فكان الذي دفع عرب مصر الى الاطباع في هذه الفتنة هو استنكار جماعة البنية لما أهلهم إياه بعض المعاذ من أن يرقوا من لعرش مستبد بالأمر مضيق لتسبون المسلمين . أما من انضم الى الحركة من القرشيين فكانوا ينكرون استنهاد بني أمية بالأمر دون غيرهم من القرشيين باسم الخليفة عثمان ، وقد زاد نفورهم تولية عثمان أمور مصر أخاه من الرضاع عبد الله ابن سعد . وقد بذل الرجل جهدا عظيما ليثبت أنه جدير بتبة الخليفة ، فقام بحملة كبرى على

المغرب ، واتصر على الروم في سيطرة سنة ٦٤٧/٦٧ انتصارا لا يقل عن انتصار عمرو على الروم عند بابليون ، ثم غزا التوبة وبلغهم أهلها على معاهدة المسلمين سنة ٦٥١/٣٦ ، ثم كتب انتصار ذات الصواري سنة ٦٥٤/٣٤ ، ولكن ذلك كله لم يشتم له ، وأسر عرب مصر على الكاراء وكراهمته له .

وربما كان من أسباب هذه الكراهة اجتهاده في جمع المال والارتفاع بالفراج حتى جمع منه لفرق ما جمع عمرو بن العاص ، وبهذا كان عبد الله بن سعد مشتبلا بهذه النهج كان ابن سبأ ومن انضم اليه يكيون له ، فلما عاد من غزوة ذات الصواري سنة ٦٥٥ هـ / ٦٥٥ م حين حليفة الأمر ، فاستخلف على مصر عقبة بن عامر الجعفي ومضى الى المدينة ليلقي الخليفة . فلم يكده يخرج من مصر حتى لار حريسا على عقبة وطردوه وترجمهم محمد بن أبي حليفة ، وربما كان غرضهم الأول التخلص من والي عثمان عليهم ولكنهم وجدوا من عثمان اصرارا على واليه ، فزادوا سطحا . وتلقوا عندما علموا أن لهم من حرب الأمصار الأخرى يشاؤكولهم الرأي في ولاية عثمان ، فهبوا الى المدينة بجسامة منهم بلان ان عددهم كان ٦٠٠ رجل ، وفي المدينة التي حولا . بغيرهم من الثوار وتطور الأمر حتى انتهى بمقتل عثمان بن عفان في ذي الحجة سنة ٦٥٥ هـ / مايو ٦٥٥ . وقد إنكش المناصرون . لثمان على

انفسهم أثناء ذلك كله ، وعرفوا بالعثمانية ، وعلى رأسهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة وسلفه بن مخلد وبسر بن أبي أوطاة ، وعرفوا كيف يحافظون على وحدتهم ومركزهم أثناء ذلك الوقت العصيب . والختم حولهم تفر من حرب مصر ، وتبنتوا لخصومهم ، ولهم ما بذله محمد بن أبي حذيفة والي علي على مصر من الجيود ، ثم اقبل اليهم معاوية ابن أبي سفيان بنفسه واتلى بسم في سكتت من كورة عين شمس سنة ٣٦ / ٦٥٦ واحتال على محمد بن أبي حذيفة حتى تخلص منه ، فوالى علي حتى مصر فبس بن سعد بن قبيصة الأماصري ، فدخلها سنة ٣٧ / ٦٥٧ ولكن معاوية وعسرا عرفا كيف يوقعان منه وبين علي فزله ، وولى مصر الأشتر بن مانك بن العارث النخعي فدير معاوية الحيالاء ، فوالى علي محمد بن أبي بكر فلم يستطع الثبات لأنه كان رجلا طائفا قليل التدبير ، لم يلبثه عمرو بن العاص ان اتصر عليه واستعاد مصر لمعاوية سنة ٦٥٨/٣٨ ، أي قبل مقتل علي بستين .

ويبدو أن هذا الابتكار لاستئثار بني أمية بالأمر دون غيرهم هو الذي دفع بهالوية حرب مصر الى تأييد عبد الله بن الزبير عندما طلب الخلافة لنفسه عام ٦٦١/٤٨٠ ، ولم يكن يقتصر ذلك على عرب مصر بل شمل عرب الحجاز واليمن والعراق وكثيرا من عرب الشام . ومن الواضح ان عامة العرب لم يكونوا قد سلخوا

بحق بنى أمية في الخلافة ، وإن كانوا قد خضوا للقوة . ويبدو هذا بصورة واضحة عند عرب النواحي ، فقد كانوا يعبدون عن مركز الخلافة ينتمون بجانب كبير من الحرية ، ويبدو ذلك بصورة واضحة في حالة حرب مصر ، فقد كان لهم وضع خاص يختلف عن وضع عرب العراق مثلا . فقد كان هؤلاء الأخيرون يعيشون من أرض تملكها الدولة وليس لهم الألبان . أما حرب مصر فكانت رقلاب أرضهم بأديهم أو بأيدي المخربين ، ولم يتكولوا يشعرون أن منزعمهم المولوة من الأرض أو نصاريهم بالأسلحة التي حارب الحجاج عرب العراق بها .

ومهما كان الأمر فقد كان عسرب مصر مستعدين لتأييد أي منافع بنى أمية في الخلافة ، سواء أكان المناضلين ابن الزبير أو غيره ، وخاصة عندما اقتنص الخلافة مروان ابن الحكم سنة ٦٨٥/٦٤ فقد بدأ بوضوح أن المسألة مسألة مسارة وخداع وغصب بالقوة ، ومن قنر على الخلافة حازها بصرف النظر عن الحق أو رأى الأمة . وقد بدأ مروان من الحكم أمره بأسامة مرج راعط حيث أول القيسيون بالكليين هزيمة فادحة تردد صداعها في نواحي الدولة كلها ، ولم ينمن اليمينيون منسية مرج راعط أبدا ، ومنل الحصد ينلى في صدورهم ، ولم يغادروا فرصة لزراعة بناء دولة المروانيين الا ابتدوها ، بحيث يسكن القول بأن انضمام بنى مروان

وخرج الأمسر عن أيديهم بدأ يوم مرج راعط .

وقد انهم مروان بأسمر مصر اهتماما عظيما ، وأسرع اليها ليستعيدا من والى عهد ابن الربيع عنها وهو عيد الرحمن بن حبة بن حجة بن الصمدي ، وقد أبلى ابن جدهم بلاه عظيما في دفاع مروان بن الحكم وجنسه ، ولقرع حرب النسطاط لونه ، وكانت طابيعهم ينية ، ولكنهم انهمروا لنفس السب الذي حرم الينية في صرامها مع انشامية في كل ناحية من نواحي الدولة ، وهو أنهم كانوا أكثر امتسنا كما بنا كانوا منصورين اليه في الولايات من زرع وشون وعاش ، في حين أن الشامية كانوا قليلي الاهتمام بهذه الناحية ، أما همهم الحقيقي في السياسة وطلب السلطان ، فكانوا أصبر من اليبين على الكفاح السياسي والعسكري ، وربما كسب اليمينيون المنصارات أولى ، ولكنهم لم يتكولوا بصبرون في الصراع الطويل ، وهكذا عندك الاتصارات النهائية دائما بلواه القيسية . وقد دخل مروان بن الحكم النسطاط سنة ٦٨٥/٦٤ وبأيه حرب مصر الا هر قليل تغلص منهم مروان بوسائل شتى وقد انصرف بنية مصر بعد ذلك عن المناوأة واستقرقا في شون وعاش ، فعدت أحوالها إلى نهاية العصر الأموي .

غير أن اليمينيين شعروا منذ أيام يزيد بن الوليد أن أمر بنى مروان الي زوال ، فقد

ضخف أمر التيسية بعد ذلك الجهد الطويل الذي بذلوه في تهيئة بني مروان منذ أيام مروان بن الحكم . وإذا كان اليمينيون قد عجزوا عن مواجهة التخلّفة المروانية جملة واحدة ، فإنّ جماعاتهم في كل ناحية من نواحي الدولة أخذت تناوى ، من معها من التيسيين ، ولعل ذلك بصورة واضحة جداً عندما ولي الأمر مروان بن محمد ، فقد اعتمد على القيسيين اعتماداً كاملاً كإخراج سدور البنيين في كل ناحية . وفيما يصلح بصر نجد والبا حصن بن الوليد الحفصى ، وكانّ يسيباً ، يستغنى من ولاية ، مرّ حثب سابعه التميميب مروان بن محمد خليفة ، فولى مروان عليها حسان بن عثاية وعلى خراجها قيس بن أبي عطفة وصبا مضر بن قبيان ، فانتمت اليمينيون بقاوموناً حتى اضطرروها إلى الخروج من مصر ، ولجسوا على أنفسهم حصن بن توليد مرة ثانية .

وكانت دعوة العباسيين قد قوى أمرها وتراست أخبار جميع قواهم في شرول الدولة الإسلامية ، وربما وصل إلى مصر نفر من دعائهم ، لتشجع اليمينيون وصارحوا مروان ابن محمد بالعداء . وقد اجتهد في الحطابهم فولى مصر حنظلة بن صفوان الكلبي ، وكانّ يمنيّاً من المتخلصين لبني مروان ، وكانّ قد خاض مبارك طويّة في المغرب لم يوفق في شيء منها ، فرغض المصريون الاشراف به وأخرجوه من القضاة . وظلّ حصن بن

الوليد والبا على مصر حتى أوائل سنة ١٢٨ / ٧٤٥ ، وقد روع مروان روعاً شديداً لخروج مصر عن سلطانه ، فانتدب لاضعاع عرجا رجلا من خيرة رجاله هو حوثر بن سويل الياهمي ومعه سبعة آلاف من جنده حصن والحزيرة وفسري ، فهاجم عسريب مصر ، وتعلّى حصن بن الوليد عن الأمر وطلب أنصاره الأمان ، لأنهم ، لم يلبس بهم وقتل زعامهم بما قيم حصن بن الوليد سنة ١٢٨ / ٧٤٥ .

ولم تمض سنون حتى كانت هزيمة مروان بن محمد أمام قوات العباسيين على نهر الراب (جمادى الآخرة ١٣٢ / يناير ٧٥٠) ، ولشرب بنو مروان وولائهم أن أمرهم قد انتهى . وهنا بعد فكرة التحصن بصر تدور بفكر مروان بن محمد ، وحدته بعض أصحابه بالعسارة التي لا تزال تتردد في أحداث مزرعى مصر الإسلامية : « هي أكثر بلاد الأرض مالا وخيلاً ورجالا » ، وهي « كليلية » لا يزال يتردد على السنة رجال السقاة ، دون أن يعاول أحد منهم الانتفاة منه ، حتى جاء أحمد بن طولون .

وبينما كان مروان بن محمد يفكر في هروب يلبأ إليه كانّ إليه علي مصر حبه الملك ابن مروان يستعد لحماية يده من العباسيين ، وقد لوتك في ذلك السبيل حباقات ما كان اغناه عنها : حنادر أموال الناس وامتولى على ما قدر عليه من نعاى وحديد ليستخدم

وذكر مكافأة المبشرين لآخوانه على ما قاموا به من حرب مروان ، فقد خففوا عنهم الخراج وطلتوا سراح الأقباط ميخائيل وبسطوا حمايتهم على الكنيسة المصرية وأملكتها ، وأغفوا أهل البشمور من الخراج ومنعواهم مالا على سبيل المكافأة .

هكذا دخلت مصر في طاعة المبشرين ، وتولى أمرها صالح بن علي عم أبي عبد الله الصفاح أول خلفاء بني العباس . ولم يعلم عرب مصر الذين استسلموا في المعاونة خطي القضاء على بني مروان أن هلاك آخر مروالي إنما هو إيذان بنهاية امتيازهم في مصر ، وقد كانت للمبشرين وجهة أخرى في الحكم طير وجهة الأيوبيين ؛ فاست دولتهم على غير العرب واختارت عاصمتها على حدود أرس الفرس في بغداد على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وابتعدوا بذلك عن الجناح الغربي للمؤلة الإسلامية ابتعادا تاما ، وبدأت وحدات هذا الجناح تنفصل عن كيان الدولة الإسلامية الواحدة بعد الأخرى ؛ بدأ الأمر في الأندلس بقيام دولة عبد الرحمن الداخل ، ثم انفصلت إفريقية عندما استولى بأمرها بنو الأغلب على أيام الرشيد ، وفلتت مصر بين طاعة وعضبان وحرب وغوشى متى استبد بأحوارها أحمد ابن طولون .

وقد كثر الطارحون على المبشرين في مصر كثرة تتوقف النظر ، قضى خلافة المهدي وأثناء ولاية إبراهيم بن صالح بن علي (١٦٥

ذات كله في شئون الدفاع . فتغيرت النفوس عليه ، ورموا بني مروان عن قوس واحدة ، حتى إذا بدأ مروان بن محمد يسير إلى مصر هاربا من بني العباس اجتمع قتر من الجنود معه من دخولها ، ثم أقبل مروان بظول جيشه ، فوجد مصر حبيسة ، ومن الإسكندرية إلى أسوان ، مع المبشرين عليه . ثم انظم إليهم أهل البشمور (ويسمونه أيضا أهل البشرد) واعتصموا بمستنقعاتهم ، وفضى مروان في مصر نحو القهريين يحاول أن يجبع أمره دون جفوى .

فلما علم بأن قائد المبشرين صالح بن علي وأبا عون في الطريق إلى مصر أمر باهران القضاة ، ثم أحرق جميع المراكب الراسية في دار الصناعة بالروضة ، ثم مضى جنده يطربون ما استطاعوا تغريبه من أراضي الوجه البحري ، كالمناظير أن سياحة الأرض المحترقة *La terre brûlée* . قد تنقذ من مصيره المحتوم . ولم تكن لذلك نتيجة إلا تطهير أهل البلاد جيما — حربا ومسلمين وأقباطا — فقد شاء له رأيه الدردي أن يهبش على البطريرك الأبا ميخائيل لأنه لم يرد إليه مالا معلوما ، وانتهى الأمر بالقهني عليه وفتله في وصير الملقب (مديرة الجزيرة) في ٧ من الحجة ١٦٣٣ / ٧ يوليو ٧٥٠ . وهذا لقي آخر خلفاء بني مروان مصره على ترق مصر ، وأصبح لساويس بن المقفع مؤرخ الأقباط أن يعنى هذه المناسبة في تاريخه ،

١٦٧/٧٨١ - ٧٨٣) كاد يستقل بصعيد مصر داعية أموى هو دحية بن مصعب بن الأصبح بن عبد العزيز بن مروان . وكانت كفة المظيرة قد شالت وآذ الأوان لليبنة لترد اليها ما أسلفت من المساءات أيام عز بني أمية ، ووقفه العهبان وجها لوجه يتقاولان في نواحي مصر حتى عمت العوضى ، وزاد الأمر سوءا لن ولادة بني العباس ثم يتكولوا على قدره أو كفاية ولم يميز أحد منهم بينه من الخيرة أو حسن الإدارة ، وكانت العولة لا تكاد تولي واحدا منهم حتى تمزله ، لا بسبب العجز في ذاته ، بل لأن سياسة العباسيين الصامة نفسها قامت على تغيير الولاة لحول من استبدادهم بالأمر .

ثم إذ الولايات بالنسبة لبني العباس كانت قد أصبحت مجرد مصادر للإيراد ، فمن مرض على الخليفة أن يأبى بفراج أكثر ولاء الأمر ، وهي سياسة ساسانية قديمة أدخلها حذراء بني العباس ، وكما كانت هذه السياسة من أسباب زوال بني ساسان فقد كانت من أسباب اضطراب ملك العباسيين ، ومن غروب الأمر أن خلفاء بني العباس كانوا مولعين بالنظر في تاريخ الفرس : فلما أن الأساقم بعثير بالتاريخ لاقتير به العباسيون ، ولكن التاريخ قلنا فاد صيرة أو بعض درسا ، وكل من دلى أمرا يحسب أنه أول عاقل تربع على عرش أو ليس تاجا .

والتأمل في أحداث تاريخ مبر خلال

المصر العباسي يشر وكألبا قد تحولت البلاد إلى ميدان فسيح الذكر والفر ، بين رجال الدولة وخصومهم حينما وبين بعض قبائل العرب وبعض حينا آخر . وقد بدأ الأمر بنتنة دحية بن مصعب بن الأصبح المرواني الذي ذكرناه ، وقد طال أمره (من ١٦٥ - ١٦٩ / ٧٨١ - ٧٨٥) ولم يشكّن ولاة بني العباس من الغلاص منه الا بعد عناه لشديد . وكانت ثورات حرب مصر مع العلويين كثيرة كذلك ، وأول فتنة علوية نسمع بها كانت في خلافة المنصور ، فادعا أحد العلويين في مصر وهو على بن محمّد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . فقد دعا لأبيه محمد المعروف بالنفس الزكية وانتهى أمره بالنها ، أمر آيه في وقعة ياخرا بين الكوفة وواسط في أول ذي الحجة ١٤٥/٧٩٢ .

وبعد أن مصر بدت لدعاة العلويين وكألبا قرية حسنة لدعواتهم فكثروا فيها واشذوا بسببون المشاهير للولاة ، حتى ضائق العباسيون بأمرهم ، فأمر الضليفة المنصور واليه على مصر بالأا يتقبّل علوي طيمة ولا يركب فرسا ولا يخرج من التصنابل ، ثم أخرج كل من عثر عليه بمصر من العلويين التي بغداد في رمضان ٢٤٨/٨٩٢ أيام خلافة المستعين .

ولا ينبغي أن تصرغنا تورمت هؤلاء العلويين عن الحقيقة التي عسرت تحتها ، وهي كراهة عرب مصر وأهلها تجند الشرك الذين اعتمد عليهم العباسيون ، فقد كانوا

خلافا على الناس شديدى الوطأة على البلاد ،
ومن ثم قلم يكن الناس يسعون بسعوة
علوى الا يسرعون انى تأييدها ، وفي بعض
الاحيان لم يكونوا بحاجة الى انتشار علوى
ليؤدهم في الثورة ، كما ترى في ثورة جابر
ابن الوليد اندلجى بالاسكندرية ﷺ ربيع
لأخر سنة ٢٥٢ / نوفمبر ٨٦٦ أيام الحضر ،
فقد اشد أمره حتى بسط سلطانه على الكتيبة
من بلاد الروم البحرى وجبى خراجها ، وقد
اصطر الخليفة الى ارسال جيش كبير الى مصر
ينفض على جابر هذا ، فأتى الجيش بئوده
مزاحم بن خلطان ونفى على التار وحمولى
مزاحم أمر مصر في ربيع الأول ٢٥٣ / ٨٦٧ .

وعندما ثارت الفتنة بين الأمين والأمين
أحسن أهل انواحي أن هيبة الدولة فد
رالت ، فقد اتم كل منهما الآخر بكل روية ،
ولم يكن النزاع بينهما في أول أمره لانا بين
الفرس والعرب كما ذهب كثير من المؤرخين ،
لأن كلا المعسكرين كان يضم عربا وفرنسا ،
ولكن الأمين عندما بدا له ضياع أمره فكر
فى الاستعانة بعرب الشام ، وأخذ دعائه
يصورون دعوة الأمين على أنها دعوة العرب
ودعوة الامون على أنها قتلهم مبرم على
العرب . وقد بره في كتب التاريخ حسدى
هذا الدور الأخير الذى أخذ ذلك النزاع
المحزون بين ابنى الرشيد في مصر ، وتزعج
جانباً من عرب مصر في الدعوة للأمين السرى
ابن الحكم بن يوسف وظل يسعوا للأمين

حتى بعد هزيمته . ولكن والى الامون على
مصر عباد بن محمد بن حيان استطاع أن
ينقلب على خصمه ويأخذ بيمة أهل القسطنطا
للامين في جمادى الآخرة ١٩٦ / مارس ٨٦٧ .

وقد وقعت في البلاد فتنة عنيفة بعد
ذلك ، إذ خشي السرى بن الحكم ووالده ساره
على أنفسهم ، واسنظفوا أن يكتسبوا عرب
الحواف الى جانبهم ، وبعث الأمين الى ربيعة
ابن ليس زعيم الليسيين بالحواف يوليه أمر
مصر ، فتمضى ربيعة بن تبس بهم وتبسل
يعاصر القسطنطا . ورأى عباد بن محمد بن
حيان عامل الامون أن يكتسب الى جانبه سرا
من عرب مصر يتلقى بهم بلاه أنصار الامين ،
فالتفت للامر عربيا ضوحا الى السلطان هو
عبد العزيز بن الوديع الجبروى ، فالتزم
الجبروى في ذى القعدة ١٩٧ / سبتمبر ٨٦٣
ومضى بشقول قومه من لغم وجدام الى
فاطوس ، وحنان ألقى المساره في نفسه فكرة
الدعوة لنفسه . ولم لا / أم يصيح الأمر
لومى لا ضابط لها ؟ وبالتفصيل ، دعا
عبد العزيز بن الوديع الجبروى لنفسه
والي على مصر وحث سماء لجباية الخراج
من الروم البحرى ، وتصدى له السرى بن
الحكم ومن معه ، وأصبح النزاع في الحليفة
بين فرقيتين من عرب مصر ، على أحدهما
السرى بن الحكم وعلى الثانى عبد العزيز
الجبروى . وقد قال النزاع بين انجائين ،
حتى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ حين أجمع جنده

القساط على السرى ، ولكن الحسروى اعتمس بشرق الدنا من شطونف الى القرما وجين خراجها ، بل استقل بالاسكندرية وما حولها بمضى زعماء الصرب ، وتفرقت البلاد ابدي سباعت نواحها القوضى .

وليس ادب على ذلك من استيلاء الرهبنيين الالبيين على الاسكندرية واستبداهم بأمرها في ذلك الحين ، وأسر أولئك الالبيين أقرب الى الاسطورة ، فقد كانوا في جيلة من لار على الحكم انبضى الالدى وكافوا بصون عليه ، فلما أخذت فنتهم وانسر له الأمر أخرج أهل دهن قربة الجنوبي سنة ٨١٣/١٩٨-٨١٤ من الالدين عقابا لصم على قيامهم بهذه الفسة ، فذهب بعضهم الى الدوة الاخرية وامسقر يماس وأنته نكسه فيها حيا خاصا يعرف سدوة الالبيين ، وأما الباقول فقد ساروا بهرا ونزلوا على مفرية من الاسكندرية عام ٨١٤/١٩٩-٨١٥ يهودهم رئيسهم أبو حصص عمر بن عاصم بن شبيب بن الوليد البكلونى ولم يؤذن لهم بفسول البلد لأن الولاة كانوا لا يسمحون لجماعات الالبيين بدخوله ، وكان محمد حولا الالبيين الرهبنيين نحو ١٥٠٠٠ وبصل عدا نائمهم وانفعالهم ، وقد ظاوا خارج البلد حتى وقع خلاف بين عامه عمر بن حلال وعبد العزيز بن الوزير الحسروى صاحب السلطان على الدانا اذ ذاك . فاسرح الرالى

عمر بن حلال يستجد بالاندلسيين وأدخلهم البلد ، وتكن الالعين أنكروا ذلك وتاوروا بالاندلسيين وأخرجوهم بعد أن قتلوا منهم وطردوا عمر بن حلال أيضا .

وقد استطاع هذا الأخير أن يعود الى ولاية الاسكندرية اثر هزيمة وتجنبة بين السرى ابن الحكم وهبه العزيز الجوى ، فلما استقر فيها طلب اليه الالديون أن يدخلهم مرة اخرى ، فخلفه أن يلح له ما وقع لى المرة الأولى ، فما كان منهم الا أن اقتصروا البلد بمساولة طائفة عرفت بالصوفية ، كانوا يقولون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويطرطون الولاة ، وماونهم كذلك فر من بس لطم كانوا في الاسكندرية ، ودارت بينهم وبين عمر بن حلال حرب لث فيها سنة ٨١٥/٢٠٠ . واستقر الأمر للاندلسيين والفخمين في الاسكندرية ، ثم اختلفوا فيما بينهم ، ووقعت الحرب لاتصر الالديون واسبحوا سادة البلد ، ووتوا عليها عبد الرحمن الصولى وليس جماعة الصوفيين الذين ذكرناهم ، ثم عزلوه دولوا ورجلا منهم يرامه بالكناي ، وهكذا انصلت الاسكندرية عن بقية البلاد وحكمها أولئك الالديسيون . وأراد البروى أن يستخلص البلد ، فحسار اليها في جيش عده خمسون ألفا ، ولكنه لم يتمكن من ادراك غايته ، لأن تناقه السرى أراد أن ينتهز الفرصة ليستولى على مقره في نيس ، فماد الجوى مرعا .

وقد استمر النزاع بين السرى والجروى ثم بين ابنيهما كذلك ، ولم ينته الا عندما قدم الى مصر عبد الله بن طاهر قائد الامون ، فانضم اليه على بن الجروى ومن معه ، ثم دخل عبد الله بن السرى طابث سنة ٢١١ / ٨٢٩ على امان وعهد . وبعد ذلك سار عبد الله ابن طاهر في صفر ٢١٢ / ٨٢٧ الى الاسكندرية وصالح الأندلسيين على أن يسبروا من الاسكندرية الى اى موضع يريدون ، فخرجوا في البحر الى جزيرة كريد فانتزعوها من ايدي البزلعين يطرحهم زعيمهم ابو حفص عمر بن عيسى البلوطى .
وعلى هذا النحو من الاسطرلاب والقرطوبى

توالى ولاية بنى العباس على مصر ، لا يكاد أحدهم يستمر حتى يزل . وكان أمر الولاية كذلك قد هان ، لأن الخلفاء ، أو من يديرون لهم الدولة ، حرصوا على أن يفسلوا الخراج عن الولاية ، ويعهدوا فيه الى رجل ضليح في شؤون التجهيزه يقسم لهم خراج مصر بأقصى مبلغ مستطاع ، وقد اشتهر من أولئك رجل يسمى أحمد بن المديبر ، وكان ماليا قديرا يميزان تلك الأيام ، تولى خراج مصر وأهل الناس بالجبايات حتى لم يبق شيئا حول ضريبة ، وكان لهذا محل ثقة الخلفاء ورجالهم . وفي أيامه دخل أحمد بن طولون مصر واستقر في القسطنطين في ٢٣ رمضان ٢٥٤ / ١٢٥١ سبتمبر ٨٦٨ وكيلا لعميره عامل مصر للخليفة المولى .

دولة بنى طولون^(١)

أحمد بن طولون

ولد أحمد بن طولون في ٢٣ رمضان ٢٢٥ / ٢٥ سبتمبر ٨٣٥ في بغداد أوسر من راقى ، وكان أبوه طولون تركيا من سواى نوح بن

(١) أصول

ال جناب المراجع العامة التى أوردنا ذكرها خلال هذا البحث ، انظر :

أحمد بن يرمسخت المعروف بابن الداية : مسيوحة أحمد بن طولون ، نشرها Vossler في فبراير ١٨٩٥ .

— كتاب التكتات . القاهرة ١٣٣٢ / ١٩١٤ البلوى ، عبد الله بن محمد بن عمير بن محمود المدينى : سيرة أحمد بن طولون ، نشرها محمد كرد علي ، دمشق ١٣٥٨ .

أسد الساماني عامل بطارى وخراسان ، أهداه الى الامون في جملة مماليكه ، لرفاه الامون حتى صار في عداد أمراء جنده . ويقال ان أحمد ليس ابنه بل تبناه لما توسمه فبسه عن

كسالة الدين ابو الفضل حنبل بن الحسن الأدهوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء الخلفاء والرؤساء بأرض الصميمه ، القاهرة ١٣٣٢ .

المصمم بن العاصم القوطى : الفرج بمسرة السنة . القاهرة ١٣٤٧ .

— : جامع التواريخ المسمى بكتاب نقباء الخاضرة وأخبار المماليك : ١ - ١ طبع مصر ١٩٢٦ ر ج ٨ طبع دمشق ١٩٢٠ -

الجيشيارى : كتاب المؤزرة والكتاب .

مقابل الحجابة، وقد أنكر ذلك أحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية صاحب كتاب سيرة أحمد بن طولون. قال أبو المعاسن: « ونشأ أحمد بن طولون على مذهب جليل، وحفظ القرآن وأتقنه، وكان من أمتهب الناس صوتاً به مع كثرة العرس وطلب العلم وتفقه

حقله الإضافة السلف والاباري وحسبي،
الفاخرة ١٩٢٨ .

ابراهيم بن محمد المصري المصروب بابن
والسالي: الإلهام لواسطة بعد الإحصار، نشر
الجزيرة ٤ د، المشرق ٧٥٧٥،
الفاخرة ١٣٠٩ .

أمين الدين أبو الفتح علي بن منجب
الاصبرلي: الأشارة إلى من نال الوزارة، طبعة
المعهد الفرنسي ثلاث البرقية، الفاخرة ١٩٢٤
مجمعه بن علي بن طباطبا المعروف بابن
التططلي: الفهرى في الآداب السلطانية والعول
الاسلامية، الفاخرة ١٩٢٧ .

جمال الدين علي بن طاهر الأندلي المصري:
كتاب الدول المنقلبة، سورة شمسية نادر
الكتب المصرية لجزء من مخطوطات المكتبة
البريطاني، وهناك مخطوطه أخرى في جنوة
نصر منها مستنسخ كتابه الذي سميت الأشرة
أليه من حكام مصر أيام الغدنا،

بندر الدين محمود الصيني: عقد الجمال في
تاريخ أهل الزمان، مخطوط بمسند الكتب
المصرية، ج ٦٦ .

أبن كثير: البدايه والنهاية، ج ١ جزء ١،
الفاخرة ١٩٢٣ (الجزء الخامس) .

أبو المعاسن: النجوم الزاهرة، طبعة دار
الكتب، ج ٣ .

القريني: السموك، الأجزاء المشار إليها
سابقاً .

أبن إباص: بدائع الزهور، ج ١
أبن خلدون: طبعة بولاق ج ٤ من ٢٦٧

وما يليها .

على مذهب الامام الأعظم أمين حنيفه . ولما
زرع أحمد تزوج بأبنة عمه خاتون قولمت
له المعاس سنة ٢٤٢ ، ولما مات أبوه طولون
قوض اليه الخليفة المتوكل ما كان لآبيه . ثم
تغلب به الأحوال الى أن ولي مرة الثور
امرة دمشق ثم «زار مصر» .

وقد قال كارل هاينريش بيكر ان أحمد بن
طولون يعتبر نموذجاً لغيره من الأتراك، وهي
ملاحظة لم يعالسه فيها التوفيق، لأن أمين
طولون كان يختلف عن زملائه الأتراك في كل
شيء، فمقد كان سياسياً أوريا واسع الصدر
حسن التدبير بعيداً عن الثور عارفاً بشؤون
المال، وكان إلى ذلك مثقفاً ذا اطلاع واسع،
وهذه كلها خلال لا نراها إلا في القليل جداً
من معاصريه الأتراك، بل كان هو ينكر خلق

أبحاث ودراسات:

أصل كتاب في الموضوع هو: الطروليدون
Das 'Ishydes للدكتور ذكي محمد حسن،
بالفرنسية، باريس ١٩٢٣ .

مادة: الطروليدون، بقلم كارل هاينريش
بيكر، ومادة أحمد بن طولون بقلمه أيضاً
في دائرة المعارف الإسلامية .

أدم سينز: العنصرية الإسلامية في القرن
الرابع الهجري، ترجمة الدكتور محمد
عبد الهادي أبو ريد، القاهرة ١٩٤٠ .

A Müller: Der Islam in Aegypten und Arabien
Abend, S. 357-360.

Luca P. Toled: A History of Egypt in the Middle
Age, pp. 39-399.

Corbett: The life and work of Ahmad ibn
Tulun (F.R.A.S. 1891) III 52-90.

Carl Heilerich Becker: Beiträge zur Gesch.
Aegyptens unter den Isma'el., S. 148-149.

الإمراك - روى أحمد بن محمد بن خاقان ، وكان خصيصاً عند ابن طولون انه قال يوماً : يا أخي ، الى كم قسم على هذا الائم مسح هؤلاء الموالى ! (يعنى الإمراك) لا يتأولون موطناً الا كتب علينا الخطأ والائم ، والصواب ان تسمأ الموزير ان يكتب أوزاقنا الى الأخر - فكتب له ، ولحقنا الى طرسوس ، فلما رأى ما عليه الناس من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سر بذلك .

وكان لخصروج أحمد بن طولون الى طرسوس واقامته فيها أثر بعيد في تكوينه وتاريخه ، فقد كانت اذ ذلك قسراً عامراً بالمجاهدين والرمسان والمرابطين ، يقضون أيامهم في منازلة من يلبس من الروم والتنجيد والفرقاء ، فاقضى القروسية وحصل جانياً كبيراً من الثقافة . وقد انتفع بذلك بقبسه أيامه ، وكانت ذكرى أيام شببته في ذلك الثغر عزيزة عليه ، وسراه فيما بعد يبدل جهداً ومالاً عظيماً في سبيل الحصول عليه .

وعندما غدر الإمراك المستعين ، طلب هذا ان يكون الموكل بشأه أحمد بن طولون . ثم طلب الإمراك الى ابن طولون انه يقتل المستعين لماي حفظاً للجليل ، فبشوا تركيا آخر فقتله ، وقام أحمد بن طولون بدقلته بما ينبغي له عليه من حرمة . ثم عاد الى سر من رأى وظل بها الى ان حصل صهره باينكياك - وكان من كبار أجناد الإمراك - على ولاية مصر لبعث أحمد بن طولون الى مصر وكيلاً له . وكانت الولاية اذ ذلك لا تخرج عن فساد الخراج ، أي ان باينكياك ضمن خراج مصر للبلدالة ببلغ معين ، وأرسل صهره وكيلاً عنه ليدبر البلد ويحصل المال بمعاونة عامل الخراج ، وأقام هو في بغداد ليكون على مقربة من ذكر السعيات والمؤامرات مطافة ان يدبر أحمد علمه عن الولاية أو اغتياله .

وكان لخصروج أحمد بن طولون الى طرسوس واقامته فيها أثر بعيد في تكوينه وتاريخه ، فقد كانت اذ ذلك قسراً عامراً بالمجاهدين والرمسان والمرابطين ، يقضون أيامهم في منازلة من يلبس من الروم والتنجيد والفرقاء ، فاقضى القروسية وحصل جانياً كبيراً من الثقافة . وقد انتفع بذلك بقبسه أيامه ، وكانت ذكرى أيام شببته في ذلك الثغر عزيزة عليه ، وسراه فيما بعد يبدل جهداً ومالاً عظيماً في سبيل الحصول عليه .

وأهم ما أعاده ابن طولون من اقامته بالثغر ابتعاده عن مجتمع الإمراك في بغداد وسر من رأى ، فقد كان البحر الذي يبتشون فيه قائماً حافلاً بالمأسى والمؤامرات ، تختلط فيه شؤون الدولة والرؤساء بشؤون القدم والبحورى امتلاظاً جعل الحياة فيه أشبه بالمغامرة ، اذا سلم بلد الانسان من المنكب لم يسلم خلقه . وقد كاد أحمد بن طولون نفسه ان يفقد حياته نتيجة لعبث جارية من جوارى أبيه ، وكان

دخل أحمد بن طولون القسطنط في ٢٣ رمضان سنة ٣٥٤ كما قلنا ، ولم يلبث صهره ان توفي فصارت اليه الولاية ، وقد تبه من أول الأمر الى ان الحكم لا يستقيم له ما دام

الخراج خارجا عن يده ، وكانت الدولة تعرص على أن يقل الخراج في يد عامل خاص ، وكان العامل إذ ذاك أحمد بن المدبر ، فما زال يكين لابن المدبر حتى عزله ونسأ إليه الخراج . ثم عهد إليه الخليفة في أن يخرج لعرب أحمد الثوار في الشام ، فتأذّن في أن يجمع جيشا لهذه المهمة فأذن له ، فأرسل بشكويين فرقة قوية من الجند كانت نواة جيشه الذي أصبح بعد قليل أكبر قوة عسكرية في بلاد الخلافة العباسية . وكانت نواة هذا الجيش من الأمازيغ ، عبر أنه لم يلبث بعد استنقراره في مصر أن ضم إليه فرقتا من السود ، ووصل بعد قليل إلى ما يقارب المائة ألف جندي ، وهكذا اكتملت له أدوات السلطان وسار في طريقه قدما .

وبعد العودة العسكرية استطاع أحمد بن طولون أن يقضي على كل متاعبه في مصر ، وقد لجأ في ذلك إلى كل مسيئ مشروع أو شير مشروع ، ووضع على أساس الجواسيس وأخذ بالفتنة حتى انتهى أمره بالفقر والظلم والبطش . وقد حكى ابن الداية فيما رواه من سيرة أحمد بن طولون كثيرا من مساوئه ، وحاول البلوي الضائع والدفاع عنه ، ولكن يبدو أن ابن طولون كان قاسيا مفرقا في السماء ، ويبدو ذلك واضحا في كلامه من دفاعه عنه ، ويبدو أيضا أن ذلك كان في أول أمره ، ثم صلحت سيرته بعد أن استقر له الأمر ومال إلى الخير والعدل تكفيرا عما سلف من أعماله .

وقد تعرض ابن طولون لأول خطر حسيم على سلطانه بعد استنقراره في مصر بوضع سنوات ، فإن الأمير الموفق كان قد غلب على عهد الخليفة للمتمتع وحصل منه على تفويض يحكم الولايات الترفيعة من أملاك الخلافة ، حتى أن تكون الترفيعة - ومنها مصر - تحت حكم الأمير الموحس بن المعتمد ولكن الموفق تعطل بما تحتساجه حرب ثورة الزنج من حال وطلب أن تضم إليه مصر ، طمعا في مالها ، وحصل على موافقة الخليفة على ذلك ، وكتب الموفق إلى أحمد بن طولون يطلب الأموال ، فرفض ابن طولون ، وأراد أن يظهر للموفق قومه ، فلتمت فرصة موت عامل الشام سنة ٨٧٧/٨٧٨ وسار بجنده واحتل الشام ودخلت الزملة ودمشق وحمص وحماه وحبش في طاعه ، ثم استولى على أطلاكية بعد حصار قصير . وقد تزوج الموفق لذلك ، وبينما كان ابن طولون في الشام حرج عليه ابنه العباس في مصر ، وكان يفر من الثورات قد تمردوا به ، فعاد أحمد بن طولون إلى مصر مسرعا ، وأحمد العترة وقتل المسئولين منها واكتفى بسجن ابنه العباس . ثم عاد إلى الشام سنة ٨٧٩/٨٨٠ - ٨٨٠ ، وس ذلك الحين يبدو ابن طولون حاكما على دولة واسعة تشمل مصر إلى النوبة ، وتمتد غربا إلى يرق ، وتشمل الشام أيضا .

هكذا انضمت مصر والشام تحت سلطان واحد ، وبدا وكأن هذا التركي التريب عن مصر قد سار في آثار الرعاية الأفنديين في ضم

انتقام ومصر تحت راية واحدة - ولم يكن ذلك سوى المصانعة ، وإنما هي ظاهرة تاريخية لا تزال تظهر على طول تاريخ هذين القطرين : إذ قامت في مصر حكومة محلية قوية لم تلبث أن ضمت الشام إليها ، أو لم يلبث الشام أن انقسم إليها . حدث هذا في تاريخ مصر القديم ابتداء من أيام الأسرة السابعة عشرة ، ثم ظهر عندما قام في مصر مثلك البطالمة (وإن لم يوفقوا إلى الاحتفاظ بالشام ، وكان ذلك من أقوى أسباب ضعف هولتهم) ثم ظهر في أيام ابن طولون هذا والاشعبي والفاطمين والأيوبيين والملك ، ثم ظهر في أيام محمد علي وتجدد على أيامنا هذه ، كآيا وحدة هذين البلدين ضرورة منطقية تستلزمها سلامتهما وسلامة الشرق العربي كله .

اتفصلا المرء بسا ويجراضا المتسلطون والمتهدون . وقد عرف الطامعون في الشرق العربي هذه الحقيقة في العصر الحديث ، فمنعنا أردت فخطرت أن تهبط لنفسها طريق الاستيلاء على ما نستطيع الاستيلاء عليه من بلاد الشرق العربي بدأت باقتضائها على قوة محمد علي في الشام فعمل عليها الأمر بمسد ذلك . وما يجري تحت أظنارنا من أحداث أباينا خير مصداق لذلك . والكلام هنا ينطبق على الشام بمعنى التاريخي الكامل ، لأن التقسيم العالي لبلاد الشام في جديد فرصته مصالح الطامعين في الشرق العربي خلال النصف الأول من هذا القرن ، وهو إحدى النتائج للحكم العشوائي في البلاد العربية .

وفي خلال المصور الإسلامية اللاحق أن الضامهما لم يأخذ صورة سيطرة أحد منهما على الآخر ، بل أخذ صورة التولية الواحدة ، تصورا لشرقنا في تاريخ العصر الطولوني أو الأشعبي أو الأيوبي أو المملوكي ، نجد أن أمراء مصر وسلاطينها يقيمون بالشام قدر ما يقيمون في مصر ، ويولونه من الصاية قدر ما يولون مصر ، بل أكثر بكثير . فقد حارب أولئك جميعا في سبيل الشام أكثر مما حاربوا في سبيل مصر . وكان رجال دولتهم ثمانية ومصريين على حد سواء ، وقد ارتفعت سلامة الجناح الشرقي لسلم الإسلام بانتعاش مصر والشام ، فإذا اتحدت ارتدت عنه الكطامع ، وإذا

وخالف الموقفي " أحمد بن طولون بعد أن اتسع سلطانها إلى ذلك الحد ، وبدأ يدبر عليه . وكان ابن طولون واحيا لأمسه منتبها لكل ما يصدر عن خصمه ، وكان إلى جانب ذلك حرصا على ألا يسلن المصباي على الخلافة ، بل نزل يدعو على مناره للخليفة المنصور ، ولم يقطع إرسال الأموال إلى بغداد ، بل ظل يرسل إلى الخليفة ما جا من مال ، حتى ذكر أبو الحسن أنه حمل إلى الخليفة المنصور في ٤ سبتمبر مبلغ ٣٠٠٠٠٠٠٠ دينار أي بمعدل ٥٥٠٠٠٠ دينار في العام ، أي نحو ثمن خراج مصر كله (كان الخراج على أيامه ٣٠٠٠٠٠٠٠ دينار) . ومع أن محمد بن

طولون بعد أن ضم الشام إلى سلطانه حصل
عنه الحرب مع الروم ، وسد عن الفتنة هذا
الباب الثقيل بالتكاليف ، الا أن ذلك كله لم
يقن عنه شيئا في نظر الموفق ، وانتصب هذا
يكيد له حتى استعان قوتلوا قائد أحد بن
طولون على الشام ، فاققلب على يديه والضم
للموفق .

وخرج أمر بن طولون والمسلح إلى
منازل الموفق عابسة ، فأعلن نفسه حاميا
للخليفة المعتد المفلوج على أمره وسجن
أخيه ، واستخرج من الفناء قنوى بإبطال
دعوى الموفق في السلطان ، وقد شد عن ذلك
القاضي بكار بن قتيبة ، وكان من أكبر فقهاء
العصر وصاحب لابن طولون ، فلم يرحم ابن
طولون حرته وحبه ، وكان ذلك من أخطاء
ابن طولون التي أخذت عليه ، وندم عليه هو
السه بعد فوات الوقت ، وأراد استصلاح
القاضي وهو على شفا القبر ، فرفض القاضي
وقال فاجته المشهورة : « شيخ فاذ وعابيل
مدلف والمتلى لريب والقاضي اله عز وجل » .
وكان نمته العيارة وقع شديد على ابن
طولون ، حتى يسأل انه قضى عليه عندما
سبها ، ثم أمر بنقله من السجن إلى دار
الكورن له ، ولم يلبث الشيخ أن مات ، وهو
آخر القضاة الذين ترجم لهم الأندلس في كتابه
عن قضاة مصر .

وكان الخليفة المعتد ضجرا من أخيه
الموفق وما يبسطه عليه من سلطان ، وكان

بظمه وجلا عاجزا قليل الملكات ، ولو ترك
وحده لفضى عليه صاحب الزبح أو القواد
الارتك ، ولكنه كأد دائم الانتكار لاستبداد
أخيه الموفق من دونه بالأمر . وكان ابن
طولون يعرف هذا ، وكان له في دار الخلافة
هيون وأرحام ينهونه بكل شيء ، فأودع إلى
المعتد أن يفادر بلاد أخيه ويلجأ إلى مصر ،
ومع نوبة الفكرة -- لأن حال المعتد مع ابن
طولون لم تكن تكون أحسن من حاله مع
الموفق -- فقد رثت له الفكرة ، لأن ضجرا
بأخيه يبلغ به إلى حد حقه مستعدا لقبول أي
مخرج . فانتهاز فرصة غياب أخيه وتواده
وخرج لي تفر من أمهاته متوجها نحو الموصل ،
ثمضى من هناك إلى حلب وهي من أعمال ابن
طولون ، ويبدو أن الضجر مني إلى اسحاق بن
كنداجيو عامل الموصل ، فقبض على المعتد
وأبعده ، وبيع الخليفة على ما قبل ، ثم رده
إلى سرمن رأى . وصحنا من تفاصيل هذا
المضرب قول اسحق بن كنداجيو لأصحاب
المعتد : « الكم قادرتم عمل ابن طولون ،
والأمر أمره وتصبرول من جنده ونعت يده ،
أفترطسون بذلك وقد علمتم أنه كواحد
منكم ؟ » مما يدل على أنه حدود ملك أحمد
ابن طولون كانت والمسحة يتعاضد قواد
الخلافة التطريي إليها ، وعلى أن سلطانه كان
بالفعل جباريا في ملكه الراسع حتى هذه
الناحية القامية ، ويدن أيضا على أن رجال
الموفق كانوا يتظرون إلى ابن طولون على أنه
ند لهم ، لا يزيد عنهم في شيء .

وأصبح العداء بعد ذلك بين أحمد بن طولون والموفق مسافراً ، فطلب الموفق إلى أخيه المعتد أن يصدر أمراً بلمن ابن طولون على المنار ، ومنذ هذا الأمر على رغم المعتد ، وقطع ابن طولون الأموال التي كان يرسلها إلى دار الخلافة ، بل حاول سنة ٣٦٧/٨٨٠ أن يستولي على مكة ، فبعث جندا واستعان بنصر من الضالعين والجزارين ليرقى إليهم مالا ، ووفق ابن طولون أول الأمر ، وهرب هارون ابن محمد عامل الخلافة على مكة ، خوفاً على نفسه ، ثم حتمه أمداد مكنته من القضاء على محاولة ابن طولون . وقد رد الموفق على ذلك بتولية اسحاق بن كنداجين عامل الموصل أعمال ابن طولون ، ولم يجسر عامل الموصل هذا على صود جنود ابن طولون ، ورد ابن طولون باستقاط اسم الموفق من الغلبة ، الفرار ، ولكنه ظل يخطب للمعتد .

وقد ظل هذا العداء بين الرجلين حتى سنة ٤٧٠/٨٨٤ عندما تبين لهما أن الخلاف بينهما لا يؤدي إلى خير ، فبدأت مفاوضات الصلح بينهما فلما عاربت على انضمام 'درك أنوت ابن طولون بعد عودته من طرموس في ذي القعدة ٤٧٠/ مايو ٨٨٤ عقب أسفال شميد . وكان ابن طولون عمه كلفه نهباً إلى الأكل مسرفاً فيه ، حتى في عتته الأخيرة كان يأكل سرا حتى لا يعلم بذلك أهلياًؤه ، فلما زاد الأمر عليه اعترف لهم فأستقط في أيديم .

وكان آخر جهود ابن طولون محاولته

لاستعادة ثغر طرموسين ، وكان هذا الثغر من أحب بلاد مملكته إليه ، لا يفتأ يطم به المرة بعد المرة معاودة لذكريات الشباب ، فزادت المقادير إلا أن تفجعه فيه في آخر أيامه ، فقد وثب به أحد خدمته من الجنود وقبض على حامل ابن طولون ، فأمرج ابن طولون إلى هذا الثغر القصي الذي يقع جنوبي آسية الصغرى ، ولزل أذنة ، وكتب إلى خادمه يستبئيه دون جدوى ، بل لجأ الضادم إلى كسر حدود ثغر كان يمر بالبلد فاندفع الماء فأغرق مسكر ابن طولون . ولازم ابن طولون هذا الثغر وألح في طلبه ، وأقبل الشتاء والشتد البرد وتساقط الثلج وغظت للغة ابن طولون وتسحياته في سبيل هذا الثغر العوير عليه ، وضحج العسكر ، فاقطر إلى الرحيل عنه محتقاً ، وكتب إلى ذلك الوهاب بالبلد يقول : ه لم أرحل إلا خوفاً أن تخرق حرمة هذا الثغر فيطلع به العدو . وعاد إلى طلاكية ، وهناك مرض ومات .

وقد اختلفت الآراء في ابن طولون ، فبعض الرواة يصورونه رجلاً قاسياً غليظاً لا يشورج عن شيء في سبيل درك مآربه ، وبعضهم يصورونه رجلاً حقياً كريماً لا يكاد يقدم على شيء فيه سأس بالحرمة أو الخلق الكريم ، بل يتألى بعضهم فيجعله شبه بالأنبياء ، لا يضل شيئاً إلا رأى الله عز وجل . أو الرسول مسلمي لله عليه وسلم في نومه يهديانه إلى الطريق السليم . والغلاصة في

هذا الموضوع أن شأن ابن طولون كشأن غيره من الطامحين ورجال الدولة ومؤسسي الممالك في تاريخ الاسلام : يستحلون كل شيء في سبيل الوصول الى السلطان والحفاظ علىه ، ولا تعرف قلوبهم الرحمة إذا اتصل الأمر بسلاطنتهم ، خلا محجوبون عن شيء يتصورون أنه يثبت ملكهم . أما فيما عدا أمور سلطانهم لهم كرماء ذور حطم وسما صدر وضو وحطب على الفقراء والمساكين ، ومهما بلغ خطا الانسان فالعفو رجو عندهم ما دام الأمر بعيدا عن تهديد السلطان أو المنافسة في الحكم وما الى ذلك .

وهم يبررون سلوكهم بأن كل شيء جائز في سبيل القضاء على الفتننة ، ويكفرون عن تصوراتهم ببناء المساجد والمدارس وأعمال الخير والاحسان : هكذا كان شأن معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وأبي عبد الله الصفاح والمنصور والرشيد وابن طولون والاعشى والمنصور بن أبي عامر وسلاطين المماليك ومن بعدهم . ومن لم قلده اختلافه الحكم عليهم ، فمن نظر الى حناتهم ومأثرهم ونشاطهم ومبايهم هو بهم بأهل العلم والفضل والمساكين لم ير غير الناحية المشرفة من خلقهم ، ومن نظر الى كراههم السياسي رأى الناحية القاتنة . ولا يد من اعتبار الوجهين معا في الميزان ، وما دعنا قد عرفنا معناه سلوكهم فلا معنى لتشديد الحكم عليهم ، فقد عاشوا في أزمان كانت الوسيلة

الوحيدة فيها للسلامة من أنقى خصم هي قتله ، وكانت قاعدتهم للذهبية التي لم يظنوها هي قول دوميير : أرسل أعداءك الى المتصلة قبل أن يرسلوك .

ومن هنا كان رجال أحمد بن طولون علمي حروف دائم منه ، خطية أن تصل اليه وشاية في حقهم ، فيكون سبه أسرع الى رطابهم من دفاعهم عن أنفسهم الى أذنبه . وقد خبر عن ذلك طبيب سعيدي بن توفيل النصراني ، فقد سجر عن علاجه غلظا اشتد عليه الاسهال الذي قضى عليه ، فقيل له : لست بمداقي ا فقال : والله ما خدمت له الا خدمة القمار للسور ، وان فتلي لأهون علي من صعبت ؛ وقد بلغ به الضعف أثناء مرضه الأخير الى درجة أن تعذر عليه الانتقال الى مصر براه فحمل في البحر ، فلم يكن يسلم حتى همد أطباءه بالقتل إذا لم يعالجوه ، فعاجله الموت قبل أن ينفذ وعيده .

ولا شك أن توفيل ابن طولون يرجح أولا وقبل كل شيء الى سياسته الادارية والمالية ، فقد أدرك الرجل من اول الأمر أن مصر بلد ضئلي كثير الخير ، وآله اذا أحسنت ادارته أعطى من المال أكثر مما يعطيه لغيره من التواضع ، وإذا أحسن مديره الحاصل أسكن الوصول به الى الكثير . ولهذا فقد وجبه همه من أول الأمر الى تنظيمها وترتيب شؤونها ، وكان ابن أندبر ومن سبقه من ولاة العباسيين قد سونوا الادارة الى مجرد أدلة

لجمع المال ، قرضوا من الضرائب والمغارم
ولمكوس ما اتقل كامل الأهلين ، وأهملوا
الى جانب ذلك العناية بمراعى البلاد وميون
الثروة ، فغلبت الأحوال الاقتصادية هيوطا
شديدا ، ووقفت الحياة عند ٨٠٠٠٠٠ دينار ،
رغم العجايب الاستثنائية والمغارم .

فلما جاء أحمد بن طولون عسول على
اصلاح الحال ، ولم تكن له وسيلة الى ذلك
الا بتسيب الادارة واحكام الرقابة على
الموظفين ، وخفض المبالغ التي كانت ترسل
هدايا ورشى الى مراكز الخلافة . وقد نبه
أحمد بن طولون الى ما لم ينتبه اليه أحمد
من تولى البلاد قبله من الأمراء ، وهو أن
أهل مصر أقدر على تدبير شؤونهم المالية من
الأجانب ، فاستكثر من الموظفين المصريين حتى
أصبحت الادارة المالية كلها في أيديهم . وقد
انكر الترك وغيرهم ذلك ورووا عن سادىء
هؤلاء الموظفين كثيرا من الأخبار البعيدة
عن التصديق ، كمنذ الخبير الذي يرويه
أبو الحسن بن ابن هشومة (برسومة ؟)
مشروى المال ونصبه لأحمد بن طولون
بالاستمرار في العجايب القالة (سسى المطالم)
وكيف أن ابن طولون رفض ذلك ، ثم عرض
الله عما نازله عنيه بكثر عظيم عن عليه .
والمقرزى يتحدث عما يسميه «مكر الأقباط» ،
ولكن ذلك كله أن هو الأ رد فعل لما عمله ابن
طولون من وضع الأمور المالية في أيدي
المصريين وما أدى اليه ذلك من الخير ، فقد

ارتفع الإيراد من ٨٠٠٠٠٠ الى ٣٠٠٠٠٠٠ دينار
ووجد ابن طولون عسه ق سمة .

أما الكنز الذى عثر عليه ابن طولون
وربى من ذهبه جامع فلم يكن أمرا غريبا ،
فقد كان الناس على ملوك تاريخ الدول
الاملاوية يحملون بالعتور على شىء من كنوز
المرخنة كما يحلم الناس اليوم بالثور على
البتروول ، وكانت هذه الكنوز تسمى بالمخائن ،
وقد بلغ من اهتمام الناس بها أن ابن خلدون
عقد لها في مقدمته فصلا . وقد استفاد ابن
طولون من حكمة أحمد بن محمد الواسطى
الموكل بشؤون المال ، فقد كان رجلا شديدا
صالعا حاول بعض المقرضين أن يجعله من
واسطى ، ولكننا نرجح أنه مصرى من
الواسطى . واستعان ابن طولون أيضا بأبى
بكر المادرائى ، وكان ماليا ثديرا ، وأصله من
مادرايا ، ولكن المقرزى يحكى عنه حكايات
تدل على سوء استئذاله للسلطان واعطائه
القبالات لغير من أصعابه في مقابل حصص
ميينة له (وكذلك كان بقية المادرائين ،
وستحدث عنهم فيما بعد) .

وللاحظ أن تصرفات ابن طولون المالية
شيئا من الشبه بتصرفات محمد على ، فقد
اختكر بعض المستوعات كالتيل ، وناجر في
المحاصيل (ولو أن المقرضين يقولون انه عدل
عن ذلك لأنه وجده معطبا بشأه ، ولكن
الثابت أنه عاد الى المتاجرة في المحاصيل في
أواخر أيامه) . وكانت نتيجة هذه الادارة

المالية الحازمة أن كثر المال في يدي ابن
 طولون ، فأقبل على شراء الجند واستكثر
 منهم حتى يقال أن جيشه بلغ ٦٠٠٠٠٠
 جندي ، وإلا راجح أن معظم الجيش كان من
 البربر ، فقد ذكر المؤرخون أن ٤٠٠٠٠
 من جنده كانوا من البربر ، و ٢٤٠٠٠ من
 الأتراك ، أما الباقي فمن أصفه شتى من
 المرتزقين ، فيهم نفر من الروم والنصارى .
 ومن هذا المال الكثير بنى أحمد بن
 طولون مبانيه الكثيرة ، وأحيا جامع الباقى
 إلى اليوم ، وهو من معالم تاريخ المسارة
 الإسلامية ، فقد بنى على صورة جامع سمرقند
 وخاصة مئذنته ذات السلم العسائري
 العزلوى . وقد شرح ابن طولون لمهندسيه
 كيفية بنائها في خبر لطيف ساقه أبو الحسن
 وقد عثر ما حول الجامع عمارة عظيمة حتى
 جرت مسطبة من حجره اتجهار لمرض
 بفنائهم بالنى عشر فرهما في اليوم ، مع أن
 مساحتها لم تزيد على ذراع في ذراع . ولما
 ابن طولون أيضا البيمارستان ، وأنشأ في بنائه
 ٦٠٠٠ دينار غير نفقته اليومية ، وهذا
 البيمارستان يعتبر أول مستشفى عام في تاريخ
 مصر الإسلامية ، وكان مقسما أقساما بحسب
 الأمراض ، وفيه الألبسة والكحلون
 والمرضون ، وكانت الأدوية والأغذية تصرف
 للمرضى . وأنشأ قصره الكبير على طرف
 فسوق خلفه بتداد ، وجعل أمامه ميدانا
 فيها لمرضى السكر ، مسده وأقام فيه
 المظلات ، وكلفه ذلك ٥٠٠٠٠ دينار .

وكانت هفاته في أبواب الخير كثيرة ،
 فكان يوزع الأكلمة والصدقات على الناس
 وفق نظام معين وضه . ووقع ذات مرة حريق
 في دمشق ، فأنفق في تمريض خسائر الناس
 ٦٠٠٠٠٠ دينار . ومع ذلك فيقول بعض
 الرواة أن أمة تمالي لم يضر له كل ذنوبه ،
 فقد روى محمد بن علي المادري أن قارىء
 القرآن على ضريح ابن طولون اطلع عن
 الغرامة مدة ، فلما سأله عن السبب قال :
 « رأيت في النوم وهو يقول : أحب ألا تحرق
 عندي ، فما شئت آية إلا قرئت بها وقيل :
 أما سمعت هذه ؟ » .

وقد سكن أحمد بن طولون أول ولايته
 في « السكر » على حافة أمراء مصر من قبله ،
 فلما كثر جنده بنى لهم ضاحية للفساطح
 سميت « الطائع » ، وكان موضعها من قبة
 الهواء (موضع قلعة القاهرة العالية) إلى
 جامع ابن طولون ، وعرضها من الرملة إلى
 حي ربن العابدین . ولم تكن مدينة ، وإنما
 هي ضاحية . قال أبو الحسن : « وكانت
 مساحة المطاع ميلا في ميل . رتبة السواء
 كانت في السطح الذي عليه قلعة الجبل :
 وتحت قبة السواء كان قصر ابن طولون »
 ويوضح هذا القصر الميدان السلطاني الآن
 الذي تحت قلعة الجبل بالميلة ، وكان موضع
 سوق الخيل والعيير والبغال والجنان سابقا
 ويجاورها الميدان الذي يعرف اليوم بالقليبات ،
 فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع الذي
 أنشأه أحمد بن طولون المروقه به ، ويجوار

وهو أكبر أبنائه وهو الذى تأثر به فقبض عليه
وحبسه ، وخمارويه الذى خلفه على الولاية ،
وعدنان ومضر وشيبان وربيعة وأبو العنتر .

وقد ذهب نفر من المؤرخين المحدثين الى
أن استبعاد أحمد بن طولون بمصر بعد حركة
فوجوية مصرية ، وأنه بذلك بدأ عصر الاستقلال
لمصر فى ظلال الاسلام . وذلك امراته فى
تأويل التاريخ مع الحقيقة ، فإن ابن طولون
أولاً لم يستقل عن الخلافة بل ظل تابعاً لها ،
وهو لم يقطع الخطبة لبنى العباس ابداً ،
والمصر يرسل أمال الى بغداد معظم أيامه ، ولم
يقضه الا عندما وقع الخلاف الصريح بينه وبين
الموفق ، وس ناجحه اخرى كان المصريون يبدون
عنه وعن حركته ، نعم انه اعتمد عليهم فى ادارته ،
أكثر ، ولكنه لم يتصر ولا شرهه بعمل لحساب
مصر أو يمتز بفوجوية مصرية . وكل ما هنالك
انه كان رجلاً ذكياً عادوا أحسن الاستفادة من
الظروف واستخدم امارة مصر فى ادراك
ما تصبر اليه للسع من الانفراد بالسلطان
ناحية ما . وكان من الممكن أن تنصر دعوته
لو خلفه أبناء قادرون على مواصلة سياسته ،
فان مصر لخلافة على من يقيم فيها ، وقد بدأ
الرجل اول خطواته من خطوات التنصر فتغلى
نسباً فحسبنا عن تركيته وتغرب ، وقد رأينا أنه
كان يحرمى الثقافة والدوق . وقد عرف مؤرخو
مصر الاسلامية قدره ، فأحاطوا به بالتقدير
والاجلال ، ونسجوا حول سيرته الأساطير .

الجامع دار الامارة فى جهته الشمالية ، ولها باب
من جدار الجامع يتخرج منه الى المقصورة ؛
المحيطة بمسكن الأمير الى جوار المعرب ،
وهناك دار الحرم . والتلوات عند قطع يسكن
فيها عبيد الأمير أحمد بن طولون وسواك
وغلمانا . وقد كسبت القلانت الى أقسام
تشبه سخط المسطاط ، قال القاضي : وكان
للوية قبة مفردة تعرف بهم ، وللروم قبة
مفردة تعرف بهم ، وللغراشين قبة مفردة
تعرف بهم ، ولكل صنف من الضلالم قبة
مفردة تعرف بهم ، وهى السواد مواضع
منفرة ، وحمرت القلانت حمارة حسة ،
وتفرقت لهما السلك والأرفة ، وحمرت فيها
المساجد المبان والقبوامين والحمامات
والأفران والأوابن والسوراح »

وقد خلف ابن طولون فى خزانته من
الذهب النقود ١٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، ومن
المطالينك ٧٠٠٠٠ مارك ، ومن الفلساين
٣٤٠٠٠٠٠٠٠٠ قلام ، ومن العيل المبدانية ٧٠٠٠٠
رأس ، ومن البغال والحمير ٢٠٠٠٠ رأس ،
وذكروا أنه كان يدخر فى كل عام ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠
دينار ، وفاق فى ذلك القليلة المتضد ، فقد
أراه هذا الأخير أن يستفصل كل عام بعد
نفاذه ميفرد دينار ، حتى اذا اكتملت عمرة
ملايين صاغها قطعة واحدة وجعلها أمام باب
مصره حتى يعلم امره النواصي أنه انتهى منهم ،
فان دون هذه العاية . وترك ابن طولون من
يعده ٣٣٠٠٠ وندا منهم ١٧ ذكرنا أصهم العباس ،

« خمارويه وابو الصمغ جيش وهرون بن »
 الهجوم على مسكر العدو . وفي سؤال
 ٢٧٦ / أبريل سنة وقع اللقاء بين الجانبين عند
 نهر أبي فطرس المعروف بالطولحين شمالي
 يافا . ولم يكن خمارويه قد حضر قبل ذلك
 تمثالا ففرغ عند اللقاء وهرب مسجلا الى مصر
 ومعه معظم جيشه ، واقتضى جنده أحمد بن
 الموفق على معسكر المصريين ينهبون
 ويأسرون . وفي هذه اللحظة تقدمت فرقة من
 الجند المصري يقودها قائد يسمى سمه الأيسر
 أمهجت على جنده أحمد بن الموفق ، فصب
 هذا أن خمارويه عاد من مصر بالجند ، ففر
 هاربا واحتل بشام جيشه ، فتمسك عليهم
 المصريون وهزموهم هزيمة كبرى بزيادة سعد
 هذا ، ثم شرع المصريون فاحتلوا دمشق .

وفد استخف سمه الأيسر بخمارويه وبدأ
 يفكر في الأفراد بالقيام ، ولكن خمارويه
 اطلب عليه وقسله . واستمر الضالعة . بن
 خمارويه والموفق طاعة زمان ، ثم عقد الجانبان
 صلحا ثم تركت فيه مصر والقيام لخمارويه لقاء
 مبلغ سنوي معين . واستقرت الأحوال بين
 الجانبين حتى مات الخليفة المعتمد وخلفه
 أحمد بن الموفق باسم المعتضد في رجب ٢٧٩ /
 أكتوبر ٨٧٢ : فتأكد الصلح بين مصر والخلافة
 وعرض خمارويه أن يزوج ابنته غنم الكبرى
 لابن الخليفة المعتضد ، ولكن هذا الأخير
 فضل أن يتزوجها هو ، وأصدقها مليون درهم ،
 ودخل بها عام ٢٨١ / ٨٧٥ . وقد بالغ خمارويه
 في تجهيز ابنته حتى قيل « إن المعتضد أراد

وخلفه ابنة خمارويه ، وهو ثاني أولاده ،
 وقد كان ابن طولون أوصى له بالامارة وبأبيه
 الجند عقب وفاة أبيه في ذي الحجة ٢٧٠ /
 مايو ٨٨٤ ، وقد احتج العباسي على ذلك وهو
 في الحبس فمجلوا بقتله . وكانت مفاوضات
 الصلح بين ابن طولون والموفق دائره عند
 مات الأول ، وكاد الجانبان قد اتفقا على أن
 نقل مصر والقيام له ، فلم يكد فواد الموفق
 يسعون الخبر حتى حازروه على الشوق ،
 وكان منهم قد ولي على الشام قبل ذلك
 - وهو ابن كنداجين كما ذكرنا - فاضم
 اليه أبو الساج عامل شمالي العراق وقررا
 السفر الى الشام ومصر واتزانهما من أيدي
 خلفه ابن طولون ، واضم اليهما عامل دمشق
 لابن طولون وتزل لابن كنداجين عن أنطاكية
 وحبش وحمص . وبسط خمارويه يده للاقعة
 خصومه ، فمكروا عند شوره ، وحسن
 النساء فتوادح الجانبان .

ولي النساء الشتاء التمسر ابن كنداجين
 وأحمد بن الموفق الفرصة وقررا مهاجمة
 معسكر المصريين على حمص ، وقد فوجئ
 المصريون بذلك الهجوم ، فتهتمسوا على
 الرملة . ثم وقع الخلاف بين أحمد بن الموفق
 وقواده ، فتركوه في نحو ٤٠٠٠ من جنده .
 وفي هذه الأثناء وصل خمارويه من مصر ومعه
 ٧٠٠٠٠ من جنده مصر الطولونيين ، وقدر

دار الحرم ، فيجد ما يشتره ليتجسّل به
 لضيقه مما لا يقدر على حل مثله . كانت
 نفقة الطبخ في الشهر ٢٣٠٠٠ دينار . وقد
 مات قبلا على أيدي خصمه وجواربه في
 دمشق في ٢٧ ذي الحجة ٢٨٢ / يناير ١٨٩٦ .
 وخلفه ابنه أبو العسائر جيعي ، وكان
 شابا صغيرا لا يصح من الأمر شيئا ، انفض
 حوله مائة من أمثاله الضمان والمكفيل فأفسدوا
 أمره وزيّنوا له قتل عمه أبي العسائر بن
 طوئون قتله ، فثار الحسد به وحوّلوا على
 ظمه . وكان الجيش الذي كوله جسده قد
 أصبح القوة الفعلية في البلاد ، ولم يكن من
 الممكن أن يلا مثل هذا الحدث أمين قواده ،
 فنخلى عنه رجال مثل خافان المفضي وبعد
 أمين اسحاق بن كسداجق ووصيف بن
 سوارتكين وبنديق بن لمجور (أو المعروف
 بلمجور) وأخيه محمد بن لمجور وأمين
 قراضان ، وإنما أئمت بهذه الأسماء ليشين
 القاري ، كيف كان قواد الجيش . وبالتالي
 جنودهم — من غير المصريين ، والله من
 الغريب أن لاحظ كيف حرص أولئك الحكام
 على الاعتماد على جنده أجنبي ، وأمامهم أهل
 البلاد يسكن التجنيد منهم ، لا في مصر وعدها
 بل في بقية بلاد الدولة الإسلامية . مسح أن
 التيزليين اعتمدوا كثيرا على جنده المصريين ،
 وانتموا بذلك . ولكن هذه هي القاعدة التي
 جرى عليها حكام المسلمين جميعا في المصور
 الواسطي : اعتبار أهل البلاد رعية مستأمنة

رواجها أن يفر أباهما على جهازها ووزلت
 الوحشة بين الخليفة وخارويه بعد حصد
 الزواج وولاء المنضد من العرات التي رقة
 ثلاثين سنة ، وجعل إليه الصلاة والخسراج
 والقضاء بصصر وجميع الأعمال ، على أن يحل
 خسارويه إلى المعتصم في العام ٢٠٠٠٠ دينار
 عما مضى و ٣٠٠٠٠٠ دينار عن المستقبل ،
 واستقرت الأحوال لخسارويه بعد ذلك .

ولم يحسن خسارويه الاستفادة من
 الفرصة التي أتيحت له ، فمضى يلف المال
 على نحو جملة مثله في أهواء معاصره ، وبلغت
 لفتته على جسده قرابة المليون دينار ، وبالغ
 في مناشاته حتى تجاوز الحد المعقول ، فألبس
 حديثا لم يسمع بمثله ، الأجملة صديقة نباتات
 وطيور وحيوان في آن واحد ، ويظال له
 أشيا لنفسه بركة من الزئبق يوضع له على
 سطحها قرائش لسان وهو يتهدد ، إذ كان
 النوم كثيرا ما يتنع عليه . وقد أنفق خسارويه
 في هذه اثقافات ما كان أبوه قد أنفقه
 وما كان يأبسه من خسراج ، واستكثر من
 الجوارى والعسائر حتى ضاع أمره ، وكثرت
 نفقته على طعامه حتى كان الباقي في حطيفه
 من مصانف الماكول يريد من حاجة الضم
 قبيبهوه ، واشتهر بيع الخضم لذلك ، فكان
 الناس يأتونهم لذلك من البعد ، ويستترون
 منهم ما يتشكوهون به من الأنواع الغريبة من
 اللاكس . وكان هذا دواما في كل وقت ، بحيث
 أن الرجل إذا طرقة ضيف خرج من فورهِ إلى

تتحكم بواسطة جند أجنبي مرتزق ، وكان هذا من أكّد أسباب زوال هذه العول جميعا . وكان كبير الدولة والمدمم في هؤلاء الجند أبو جعفر بن أبي (يكتب خطأ أبان) فكلّمه القواد في أمره : ولأموامه إذ فصر في توبيخه وتوبيخه ، وانتهى الأمر بتخله وغت داره ، فوجه في يدهي الجند من ليهما ما يسلا للويهم وهو نوم ، حتى أن بعضهم من كثرة ما حصل له ترك الحنيدية وسكن الريف ، وصار من مزارعيه وتجاره .

ثم خلفه أخوه هارون بن خسارويه ولم يكن بأحسن حالا منه ، فلم يكن يرجح للدولة صلاح على يديه ، فهذه العول لا تقوم على أساس من سياسة أو هدف أو سد من أهل البلاد ، وإنما يشتغلها ضروح رحيل فردة ومكافاة ، فإذا انقضت أسره زالت الدولة . تولى هارون في ١٠ جمادى الآخرة ٧٨٣ : سبتمبر ٨٩٩ وكان جند الدولة قد سد أمره وتفرقت وحدته ، إذ كان هذا الجيش يقوم على فرق من البرك وأصغرى من السود وجماعات شتى هم أخلاد من المرتزقين أصعب الروم ، وكان أمر هؤلاء الأخيرين قد حصل بفصل ثلاثة من موادهم هم بدر وفائق وإمام ، وكانوا من خيرة القواد عقلا وغدرة ، فعقد عليهم الباقون ، وخاصة السود . وكان ربيعة ابن أحمد بن طولون ، وهو عم هارون ، قد أنكر ولاية هذا الغلام وحدته نفسه بطلب الأمر لعمه . ويبدو أن عماد هارون كان على

السود ، فضرب فواد الروم ، واجتهد كل سهم في أن يحور لقبه ملاكمة من الجيش يستولي على عظامهم ويوزعه عليهم كأجور غنائه وقد تمكن هارون بفصل جسده السود من العضاء على ربيعة وفضله : فزاد احتراس بدر وموفق وصافي منه .

وتولى أمر هارون أبو جعفر بن أبي ومضى يحاول إصلاح أمر أسح من السير إصلاحه . وفي هذه المناسبة أظفر فواد الروم مساحة ويرا يستوقاف النمل ، فذهبوا للصح واحدا بعد واحد وانقادوا بعض منسكان البر . لبني بدر مضافة لجماع ابن طولون وسببلا لثرب الناس وأكثر من تفرق المال والطعام على المساكين ، وفعل فائق وصافي مثل ذلك ، وأظهروا من الإحلاس لبيت الطولوس ما لم يظهروه غيرهم ، رغم سياسة هارون في الإهمال بهمهم . وقد استند أبو جعفر بن أبي مع الروم وتفرق قواهم في البلاد . وفي ذلك الجهد بدأت حركة انقراضة جناح السلام ، فنصدي لها جند الطولوسيين وتكلموا من الباب في وجهها ، فاستند ذلك جابجا كبيرا كما كان قد بنى لهم من قوة .

وكان أمر هارون قد ساء ونفر منه جند الروم حسنة ، وتسامح وجان الضلالة بذلك فما شرع ما لمحواف استعادة سلطانهم على مصر ، وذهب الحليفة المكتفى ووزيره القاسم ابن عبيد الله الكاتب المالك محمد بن سليمان الحيفي للقيام بالمهمة . وكان محمد بن

حتى صاروا يتدبحون جماعة جماعة بين يدي القائد العباسي ، ثم أحرق القطائع ونهبت السطاط نهباً ذريعاً وأصاب الناس أذى شديداً ، وانتهت دولة بني طولون ، ولم يحكم شيان غير تسعة أيام . وقد اجتمع محمد بن سليمان في إزالة آثار الطولوليين جملة حتى لم يبق منها شيء ، واستقصى أموالهم ونهبها وحمل التي بفساد جزاء وسرق الباقي ، ولقد حاسبه الخليفة على ذلك أحمر الحساب . ولم يطل مقام محمد بن سليمان بمصر ، إذ استبدله الخليفة المكتفي يعقوب النوشري ، وهدت مصر ولاية عباسية كما كانت ..

لقد عامة في دولة بني طولون

حكى أبو طولون مصر ثمانية وعشرين عاماً ، وأن من يسمع سيئهم في تاريخ مصر يحسب أنهم حكموا أصفاد هذه الأمة ، وهم كما رأينا لم يدخلوا على مصر جديدة ولم يتقدموا بأمرها مطوية ، إنما كانوا كسجاعة صيف ، أما صيتم الحميد هذا فيرجع انفصل فيه إلى المصريين وطرخيم . ولكن يبدو أن ما يقوله أبو المحاسن من أن الدولة الطولولية كانت من « نحر الدول وأيامهم من محاسن الأيام » لم تكن مبالغاً ، فقد أمنت البلاد في أيامهم وودخيت أحوالها ، وخاصة في أيام أحمد ابن طولون وخصارويه . أما ما أتينا بطرف منه من النزاع بين الجند فكان أمره مقصوراً على المحاربين : يتصارعون ويتعاطون في واد

سليمان هذا من خدم ابن طولون ، إذ استخدمه لؤلؤ الطولوني كاتباً له ، فلما أحرق لؤلؤ عن بني طولون وانضم إلى رجال الخلافة انصرف منه محمد بن سليمان ، وما زال أمره يرتق حتى أصبح في جملة القواد ، ثم نذبه المكتفي للقضاء على أخسر الطولوليين .

وبينا كان جند العباسيين يستولي على أملاك الطولوليين في الشام ، وثب شيان بن أحمد بن طولون على ابن أبيه هارون وذبحه بيده في ١١ صفر ٢٩٢ / ١٠٠١ وولى الأمر مكانه . وكان شيان « هوج جسيماً جلداً شديداً البدن في غنموان شبايه ، فصار يصرخ في أموره ، وذلك بعد أن تم أمره » . وكان جند الطولوية قد أسروا من الأمر ، فانضموا جماعة بعد جماعة إلى جند الخليفة المكتفي . ووصل محمد بن سليمان إلى العباسية (بدمرية الشرقية) وقد أغلقت الناس عن الطولوليين ، وأسرع ديمانة قائد الأسطول المصري فأحرق جسر مصر الشرقي وبعض الغربي حتى تمزق القسطنطين من الصعيد . وأقبل محمد بن سليمان بين ميه ووقف دون القسطنطين ، وطمش شيان بن يقي منه من العجلد السود وطارق الدفاح . ثم كتب إليه محمد بن سليمان يؤمنه وأهله جميعاً ، فاستأن وسار إليه بأهله ناركاً جنده واقفين في المصاف وهم لا يملكون تخليه عنهم . فلما علموا بالأمر تفرق أمرهم وانهاز عليهم الناس

والناس في واد آخر ، إلا إذا دار القتال في العاصمة مثلا فيصيب الناس أدنى .

وقد تنس الناس الصعداء مع آل طولون وانكف عنهم جب ولاية الباسيين ، وبدأ ينمو في البلد وعنى بالشخصية المصرية ، ولكنه كان دعبا ضعيفا خافتا يحتاج الي متوات طوائ ليتعطي ويأخذ صورة واضحة . ولو تبه آل طولون لذلك لكان لدولتهم شأن آخر ، ولكنهم مضوا في أحقاب طيرهم من الاعتماد على الصكر الأجنبي ، فحيل بينهم وبين اقتطاف ثمر ما غرسوه ، وظلموا بجانب مزعزين تعصيف بهم رياح السياسة والعسكرية ، وللاشئ أمرهم مع أمن الدابر . ومع ذلك فقد أسف المصريون عليهم وقالوا في رثائهم شعرا كثيرا ، بل تراجم الشعراء على أحمد بن طولون حتى قاله القاطن أبو عمرو عساف النابلس في كتاب « حسن السيرة في انقاذ الحصن في الجزيرة » : رأيت كتابا قمر النثر عشرة كرامة مطسبونه فهرست شعراء الميدان الذي كان لأحمد بن طولون ، فإذا كان اسم الشعراء في النثر عشرة كرامة ، فكم يكون شعروهم ؟ .

ولقد كان أحمد بن طولون أجنبيا من مصر ، ولكنه يمد ببولون شك من رجال التاريخ المصري . فقد كانت تلك أيام لا تعرف غير القوية الإسلامية ، فأحمد بن طولون مصري في مصر وشامي في الشام وعراقي في العراق ، وهو أبا كان موضعه وأصله منسوب

الي البلد الذي كرس معظم جهوده للنهوض بأمره ، وحولته دولة مصرية اسلامية ، وفي الاطوار العام لتاريخ الاسلامي يعد ابن طولون من أقداد ذلك التاريخ ومن أبطال التاريخ المصري تبعا لذلك . وإذا قارناه بغيره ممن استبدوا بتواحي الدولة الإسلامية في ذلك العصر رأيناه يمتاز عنهم بشكوة واضعة عن الدولة وما يبئى لها . وقد كان متعظا بابيها ومتظما ماليا متنازا . وكان ذلك من حسن حظ مصر ، بل ربما كان ذلك كرم مصر فيه . وإذا كان عمرو بن العاص صاحب الخطوة الأولى في بناء مصر الإسلامية ، فان ابن طولون صاحب الخطوة الثانية .

وهو صاحب أول شجرة لانشاء كيان مصري خاص داخل الكيان الاسلامي العام ، وفضله من هذه الناحية عظيم ، فهو النموذج الذي جرى على مثاله محمد بن طنجج الاخشيد ثم الفاطميون ثم الأيوبيون ، فإذا كانت الشجرة قد اتمت الي الفلفل فان ميرها ظلت يائسة وأصبحت معسور تاريخ مصر الإسلامية . ومن ذلك العين سيجهد كل من وانه المرصعة في إعادة انشاء دولة في مصر والاعتماد عليها ، سا جصيل تاريخ مصر الإسلامية خلفا متظلا مستغلا عن التيار العام لتاريخ الشرق الاسلامي . وقد هيأت البيئة المصرية ذعن أحمد بن طولون للاجتهاد في الوجهة التي ينفيا تاريخ مصر العام : ففسد استبد بها ثم ضم اليها برقة واتجه بمد ذلك

الأب نعت مصر بالهدوء بضع عشرات من
السنين حتى عادت إليها غائيبها وبدأت شجرتها
تورق ثم ثمر . وهذا حقيقة لم ينتبه لها ابن
طولون ورجاله وخلفاؤه . وكان في ذلك ضياع
أمرهم . ولكن شح مصر شعر بها شعورا
غير واعي كما يحس المريض بالانتعاش يسرى
في كسائه دون أن يصدق أنه في طريق العافية .
بقي سؤال قبل أن تترك هذه التجربة
القولونية : ما الذي جعل رجس الدولة
العباسية يقرون هذه القسوة على نقابا
القولونيين /

لو أننا نظرنا إلى الدولة العباسية في
مجموعها إذ ذلك للاضطلاع أن بني طولون ،
رغم كل شيء ، كانوا أرب الناس بها وأنهم
لها ، فهم لم يطرحوا على العامة ولم يمتنعوا
مالا ، حتى السنوات التي فطسح فيها ابن
طولون ما، مصر عن الخلافة عوضها ابنه
خساروه فكان يدهم ٢٠٠.٠٠٠ عن سنوات
انافية و ٣٠٠.٠٠٠ عن كل عام جديد . وفي
بلك السنوات المظلمة التي عث بها الزنج
بصائر دولة العباسيين وجب عليها ربح
القرمطة لم يكن للخلافة من عساد حقيقي
الما يرد من مصر من دلائر الذهب ، ثم ان
الطولونيين صاحروا الخلفاء ووسعوا عليهم
قدر ما استناعوا وحصلوا عن الدولة عبء
الحرب مع البيزنطيين ، فما الذي جعل محمد
ابن سليمان الكاتب وبنده يفعلون بقايا بني
طولون ما فعلوا من حلوههم إلى بغداد

إلى الشام ، وجعل من ذلك كله وحده واحدا
وسيفعل ذلك كل من يجيء بعده . والتجربة
القولونية من هذه الناحية عظيمة القيمة في
تاريخنا ، فقد دلت على أن مصر قاعدة القوة
الاسلامية ، فإذا اضبط إليها انشام أصبحت
العمود الفقري لدولة الاسلام ، وتبيننا فتنينا
سيصبح ذلك حقيقة واقعة ، وتصل مصر
عبد الاسلام والخلافة والثقافة العربية .

وفيما يتصل بمجرى التاريخ المصري
لعمام دلت هذه التجربة القصيرة المدى على أن
مصر لا زالت تحتفظ بعناصر القوة في كيانها ،
فعلى الرغم من الكوارث التي توالت عليها
منذ دخول الفرس أرضها سنة ٦٣٥ قبل
الهجرة ، وقضائهم على مشاهير الحضارة
الفرعونية ، وما تلا ذلك من محاولات للقضاء
على الجذور البعيدة لتجربة الحياة المصرية :
من عث الفرس في مصر وتخريفهم لها ،
وعطب الأفريق وثقاتهم خلال العصر البطلمي ،
ثم ما نزل بمصر من مصعب الرومان ونهب
البيزنطيين واضطهادهم ، ثم الفتح العربي وكل
ما أتى به من مقومات حضارية وقبم مصوية
روحية جديدة ، وما صاحب ذلك كله من
الانتقال من الوثنية الفرعونية إلى النصرانية
فالاسلام ، ومن تغير اللغة من لهجات مصر
القدسية إلى لغة اللغة القبطية ومرامها مع
اليونانية ، وذهب هذه وتلك وجريان كمنية
أهل مصر باللغة العربية : على رغم ذلك كله
ظلت الجذور مليحة والروح واحدا ، وما هو

زنور على الغزاج وولى أصحابه التواحي ،
وهي بحسب ما يذكره أبو العباس :
الإسكندرية وفرنسيس ودمياط والأحوصاف

وبرقة ، والصعيد وأسوان وربما كانت هذه
هي أهم التواحي ، ويقتضى أن نلاحظ أن برقة
كانت معدودة جزءاً من مصر في ذلك الحين .

ثم جمع النوشري نقاباً رجال الدولة الطولونية
وأخرجهم من البلاد موكلًا بهم ، ثم أبقى جنود
الطولوية فقدم ساروا مع محمد بن سليمان
حتى بلغوا دمشق ثم تقوى أمرهم ، فمضوا
دعوا إلى العراق وسقط من عاد إلى مصر

وكان من بين هؤلاء الثماليين شاب من

الجنيد يسمى محمد بن علي الخليلجي
(يلقب أيضاً بالطنجي والخلنجي) كان قبل
ذلك في قيادة صفاء الرومي ، فقدم إلى
مصر ورأى ما حل ببني طولون وما فعله ضد
العباسيين بمصر أعت نفسه وقرر القيام على
الدولة . واجتمع إليه نفر من الجنود وياجور .

فأسرع حينئذ مع نحو الرملة في شعبان ٢٩٢ هـ ،
يونيو ٩٠٥ م وقضى على العباسية العباسية بها
وملك المنفذ وخطب فيه لمخليفه ولايراهم بن
خمارويه بن طولون ونفسه . ثم كر إلى
مصر ، وطارق عيسى النوشري أن يقضى له
فأهزم أمامه ، ثم فر إلى الجزيرة وأحرق
العصريين المؤذنين من التسطاط إلى الجزيرة ،
ودخل الخليلجي القسطنطينية . ثم هرب النوشري
إلى الإسكندرية فأرسل الخليلجي ورقة من
جيشه تنبهه بقيادة جندي نوبى يسمى حنيفاً ،
فأهزم هذا الأخير

مصغدين في الصعيد كأهم أمرى حرب ، ثم
عاثوا في بلاد مصر وأحرقوا وهبوا كأنهم
يقنعون بحد ما عارياً ؟

الحق أن ذلك يدل على انحطاط المستوى
الخطي العام لرجال الدولة العباسية ، فقد
كانوا شرذمة من القذاز والغباء تثبتت بهم
بغداد ودمشق كما تثبتت بهم المستطاط ،
ولم يبق الخلفاء سيم غير ما قامى بنو طولون .
كانت بلاد الخلافة العباسية كلها غريبة أولئك
الطغاة ، وإذا تأمل الإنسان أفعالهم أورد أن
حداد فرقت لم تكن أسوأ من هؤلاء الرجال
بحال ، وأنه لم يكن بدءاً به أهل له ، فإنه خير
أعلن الحرب على هذه الدولة ورجالها واسطل
دماءهم ، وفعل ما فعل مما تقصير منه الأبدان ،
فلم يكن رجال الدولة خيراً منه ، وكانت
بوضاهم قد قضت على كل مفهوم للدولة أو
الحق أو النظام .

من الطولونيين إلى الاخشيديين

عادت مصر مرة أخرى إلى بحسب الدولة
العباسية الجاهل بالمواصل . ولم يكن من
المسؤول أن تستقر حالها أو يبدأ أمورها
والدولة ورجالها على ما وصفا . فما هو أن
استقر محمد بن سليمان الكاتب بمصر شهيراً
حتى عزله الخليفة المكتفى ببس بن محمد
النوشري ، وكان من حملة فواد محمد بن
سليمان ، فبدأت أمارته عليها في جمادى الآخرة
٢٩٢ هـ / مايو ٩٠٥ م وبدأ يرتب أمور فجملة
الحسين بن محمد المادرائي المعروف بأبي

عليه وزالت دولت بيه أن حكم مصر مسبعة أشهر وأياما .

وهذا الحادث يكشف عن ضعف بناء الدولة وقلة غناء القائمين بأمرها من الرجال ، فقد استطاع هذا الشاب الغامر أن يحول دون الدولة ورجالها ، وسيطر على مصر وهزم جيوشها ، وأغزى بأهل العباسيين حتى أصبح يجر أمته من الصسائط إلى الصبيد إلى الاسكندرية . ولولا أنه هو نفسه لم يكن كفتا للمطلب الذي أراد لما استطاعت الدولة أن تنضب عليه . ويتكفي أن نذكر أن سنة ٢٩٢ / ٩٠٤-٩٠٥ شهدت أربعة ولايات لمصر ، هم تبيان بن أحمد بن طولون ومحمد بن سليمان الكاتب وعيسى التوشري ومحمد الفاضلي .

الإخشيديون (١)

كاملين ، وكل من قدر على ناحية استبد بها . فلما لم يشرق الدولة ، أي فيما يلي الممران شرقا ، فقد أصبحت البلاد تنجس موزعا بين الانقطاعيين الكبار والحقارين . فلما الطائفة الأولى فتكأت نفرا من الأتلياء حازوا مالا سكن لهم من استطاع جند مركزا ، وبهذا الجند المروقي حازوا ما استطاعوا حيازته من الأرضين وقاملوا الدولة عليه بمال معلوم . وأما المحاربون فتكافوا أجناسا من الترك والديلم والفرس والمخرسانية ومن الهم ذوى ملكات وهيئات تصلح للحرب والقتال ، وظهر فيهم أفراد يمكن أن نشجعهم بالكوندوتيري Coudotieri الإيطاليين في القرن الخامس

وقد اضطرب أمر الختجي بعد تلك الهزيمة فأخذ يطالب الناس بالأمور ليؤدي لجنده أوزاقهم . وقد بلغ الذعر رجال الدولة أن الحسين بن أحمد الماشرائي أخذ الدواوين — أي دفاتر الأموال — وفر بها حتى لا يرفقه على معرفة أصول الأموال ، فلجأ الختجي إلى إكراه الناس على أداء ما يطلبه ، وأجسرى أعماله على الظلم والجور وصادر أعيان الطبقة فظني الناس منه شذائده ، إلا أنه كان إذا أخذ من أحد شيئا أعطاه خطه ، وبعده أن يرد له ما أخذ منه أيام الشراخ ، ولم يستقم الأمر لهذا الرجل ، فقد اضطربت الأحوال وتكاثر عليه رجال الدولة ونوالت قواتها ، فقبض

وقد فتحت التجربة الطولوية أمين رجال الدولة على ما يمكن أن تقدم مصر للستولي أسرها من اسكاليات . وقد كانت الدولة العباسية إذ ذاك في حباله تشقق ونصعدع

...
(١) جميع المراجع التي اشربا اليها في الصبيد عن الطولويين تحدث عن الاخشيديين . وبالإضافة إلى ذلك نذكر أهم دراسه في تاريخهم للسيدة المذكورة سيدة اسماعيل الكاشف . مصر في عصر الاخشيديين ، القاهرة ١٩٤٠ والمراجع المستخرجات المذكورة في ذلك الكتاب ، وعدة اخشيديين ، بدائرة المعارف الإسلامية بقلم كارل هاينريش بيكر . وانظر :

C.J. Toorberg : *Atémoires sur les musulmans des Aghlabides* (dans *Nouveaux Actes Société Scientifique Orientaliste*) 3e série, vol. II.

مصر ، وهم متعهدو جنود ، يقدمون منهم الى من يريد لقاء أجور مميّنة ، وقد يتودون هم هؤلاء الجنود ويقرعون أنفسهم ومن معهم لمن يريد .

وقد نبغ من الطلائع — ملاك الأراضي والمهاجرين — أفراد تمكنوا من أن يندثروا ، دولا ، بل منهم من دخلوا في خدمة الدولة العباسية وأصبحوا أصحاب الأمر فيها ، كالجورجيين والسلاجقة من بينهم . غير أن هضاب إيران وتركستان وما يليها حتى حدود الصين كانت بلادا غفيرة قليلة الغيرة لا تميز دولة على الصعود زمنا طويلا ، وغاية ما كان يرجوه أصحاب الدول فيها أن يفرسوا أنفسهم على قوة الخلافة ، ولئلا يظفوا المضطرب العائل بالاحتلايات والديسائس ضاع أمر معظم أصحاب هذه الدول ، فكانها في تنابها كانت موجات بحر يلى بعضها بعضا ولاشئ يمسها بعضا .

وقد رأى هؤلاء الناس جميعا أن الجبابرة من الغريم من الدولة العباسية يقدم للطامع فيه فرسا أحسن ، فضلا عن القاعدة العسكرية الاقتصادية الكبرى ، من تمكن منها استطاع أن يحصل على مال وغير متصل ، وهذا دليل التوهم يستلجح أن يقطع مطامع أهل الدولة ويقبم لنفسه ملكا يدوم بدوامه وورثته أعقابهم . وهذه هي عبرة التجربة الطولونية في نظر رجال الدولة العباسية ، فتمتد بدأ أمر بني طولون يضعف شهرته أنظار رجال الدولة

الى مصر وأصبح الأذكيا منهم حرصين على أن ينبتوا أقدامهم فيها محاولين إعادة التجربة الطولونية لحساب أنفسهم . وأكبر من حاول هذا الأمر القائم تكن التركي ، ثم محمد بن طنجح الاخشيد . فأما تكن فقد تولى مصر فيما بين سنتي ٢٩٨/٩١٠ — ٩١١/٣٢٣ — ٩٣٤ — ٩٣٥ أربع مرات حكمتها في مجسوعها قرابة ستة عشر عاما . فأذا ذكرنا أن عمر دولة بني طولون كلفها لم يزد عن ٣٨ سنة والاخشيد عن ٣١ ، تصورنا طول المدة التي سيطر فيها تكن هذا على مصائر مصر وجانب كبير من الشام أيضا .

غير أن جميع من طعموا في مصر من أولئها القواد لم يزرخوا شيئا مما ورثه أحمد بن طولون من الملواهب والكفاليات ، حتى أحمد ابن طنجح الاخشيد نفسه ، لم يكن يستازع من تكنين بشيء ، فلم يكن على ثقافة أو اصملاع ذهن أو شموح بعيد ، بل كان بغيليا أميل الى العجب وسوء التصرف . ولولا أن أمور مصر المالية كانت في أيامه الى أسرة المادرائيين لما استطاع أن يقيم لنفسه في مصر كيانا ، ولولا قيام كالمور الاخشيدى بشؤون بنيه بسند وفائه لتلاشى أمر بني الاخشيد عقب وفاته . والآن فاننا بين محمد بن طنجح وكالمور لرجعت كلمة هذا الأخير ، فقد كان أعقل وأقدر وأعرف بشؤون السياسة ، وهو عماد هذه الدولة ومحمور سياسة مصر خلال العشرين السنة التي انقضت بين موت محمد بن طنجح وزوال أمر بني الاخشيد على أيدي الفاطميين .

ومن هنا فانه يبدو لنا انه من المبانيعة ان
تحتب دولة الاخشيديين في مصر بين الدولات
دات الخنزف او الأهمية في تاريخ مصر العام .
ملا هم انشأوا شيئا ذا بال أو وضعوا رسا
أو ملكوا سياسة تجعلهم في عداد دول
التاريخ المصري ، ومن الانصافه الأيقال دولة
الأخشيد ، بل دولة الاخشيد وانقاديين
وكالفور .

وقد ظهر أمر محمد بن طنج أثناء خلافة
الراضي بالله ، حتى يقال انه هو الذي منحه
لقب الاخشيد عام ٣٣٧/٩٢٩ على أصح
الآراء . والذين يروون هذا الأمر يقولون ان
محمد بن طنج هو الذي طلب الى الراضي أن
يحتسبه بهذا اللقب ، ويقال ان الاخشيد كان
لقب ملوك فرغانة . كما ان أئشيبيد لقب
ملوك خزرستان ، والاختسيد لقب ملوك
أخرسية ، وما الى ذلك . ويقال أيضا ان
معناه ملك الملوك ، وهذا تفسير لا يمكن
القطع بصحته ، مثله في ذلك مثل قولهم ان
معنى الخنج « سيد الرحس . وعلى أي
الأحوال فقد اتصلت بنت محمد بن طنج بن
جف المباسين من أيام المنصم ، فقد كان
جف من رجائه المقربين اليه ، وقد أقلصه
المنصم اقلاما سنيا ، وخلق جبه في البلاد حتى
توفي في الليلة التي مثل فيها المتوكل من سنة
٤٤٧/٨٦٩

وخلفه ابنه طنج بن جف وكان من كبار
الجنيد وأصحاب الولايات ، وقد دخل
في خدمة الفضوليين وتولى لهم الشام وخلص

خدمتهم ، وهبوا الذي قبض على قتلة
خمارويه في الشام ، مع أن خمارويه كان قد
أزعم العنك به ثم حال مصرعه دون ذلك .
ومثل طنج واليا على دمشق وطبرية أيام أبي
العساكر جيش . وفي أيام هارون بن خمارويه
بعده وانبا على الشام مستبدا بالأمر فيه ، ثم
تسكن رجال الدولة الفضولية من اسرغضائه
واستماله : فدخل في طائفهم وأقروه على
الشام وعندما قتل شيبان هارون لم يترك
طنج بشبان ، وانضم الى محمد بن سليمان
الكتاب ، وشارك بهذا في القضاء على دولة
الفضوليين . ثم انتقل طنج الى بلاط المباسين
ولاله ما كان يدل وجسا الدولة اذ ذلك من
الأذى ، فغلبه الخليفة المتكنى بالله مع ابنه
محمد وعبيد الله سباه الوزير المباسين بن
الحسن ، وقد مات طنج في السجن سنة
٤٤٦ - ٤٤٧ هـ وهرب محمد وعبيد الله .
وكان محمد أكبر أبناء طنج وبكس أبي بكر
لما أخوته الأخرول لهم أبو الحسين محمد
وأبو المظفر الحسن وأبو نصر الحسين
وأبو القاسم علي ، وسبكون لمعظم دور في
أمر مصر أيام دولة عليهم وأبائهم .

ومثلت الأحوال بمحمد بن طنج متى
مصر أمر سنة ٤٤٧/٩٥٤ وكان في الخدمة تكين
والى مصر ، فقد اشترك في رد غزوة قاطية
على مصر ، فتربه تكين حتى أصبح منه بمنزلة
الولد . وعندما قتل تكين عن مصر صمحه
محمد بن طنج ، فلما تولى دمشق جعله نائباً

يعزل محمد بن طنج ويصل محله - ودخل مصر
والأولى للمرة الثانية في شوال سنة ٤٧١/٩٣٣ ،
أي أن محمد بن طنج تحول مصر للمرة الأولى
نحو ٣٠ يوما دون أن يدخلها . ولكنه لم
يبأس ، وتسم بزلما يسمى حتى حصل على
ولايتها مرة ثانية من الخليفة الراضي ، ودخلها
واليها في رمضان سنة ٣٧٣ / سبتمبر ٩٣٥
وظل يحكمها من ذلك العهد الى وفاته سنة
٤٥٦/٩٦٤ .

ولم تكن الظروف التي تولى فيها محمد
ابن طنج الاخشيد مصر موثية، فقد كان ضع
رجال الدولة فيها عظميا . أما من جهة الغرب
فقد اشتد طبع الفاطميين ، ولم يند بر عام
دون أن يوجهوا الى مصر حملة . وقد عاش
الايخيد وخلفاؤه بين حبري الرحي هذين
سؤال مدة حكمهم مصر ، والتي أمرهم عندما
طلبهم المزم الفاطمي على البلاد ، وفصل مصر
عن الخلافة العباسية جملة .

ولم يكن محمد بن طنج الاخشيد يتولى
مصر مصر حتى لهي محمد بن رائق . وكان
هذا من قهول الرجال وفتاه ذلك الزمان ، لم
يزل أمره يعلو حتى اضطر الخليفة الراضي الى
تقليده جميع أمور الدولة « وبتل حينئذ أمر
الوزارة والعداوين وبقي اسم الوزارة لا يبرء
كما يقول أبو المعانس ، أي أن ولايته كانت
نهيدا للشؤون وليفة أمير الأمراء فيما بعد .
وقد فرغ الاخشيد من الثغرات محمد بن رائق
البحر وسار لحره ، والقى الجانبان عند

عنه في حناه وجبل السراة . فلما عاد تكين
لولاية مصر ولاء الاسكندرية ، وهناك اتبعت
له الفرصة لرد الفاطميين عن مصر مرة أخرى .
وفي أثناء ذلك وثق محمد بن طنج علاقته بأبي
بكر محمد بن علي المادرائي والحصين بن
أحمد المادرائي المعروف بأبي زبير ، وعرف
منها شيئا كثيرا عن شؤون مصر المائة اتمتع
به فيما بعد . ثم ولاء تكين أمر الفاطميين
الشركي والغربي ، وفي أثناء ولايته على
الاسكندرية ثم العرفين بدأ يظهر شرهه الى
أقاليم ، فاقبل على مصادرة اطماسير والاسنيلاه
على التركات . وقد اترك ذلك منه تكين
وبدأت العلاقات تسوء بينها .

وأحسن محمد بن طنج بذلك ، فسي
حتى دبر له بعض مدارفه ولاية الرملة بالشام
ثم هرب من تكين الى الرملة . ثم حصل على
ولاية دمشق سنة ٣١٩/٩٣١ ومكن لنفسه
فيها ، وها أخذ يكون نفسه قوة عسكرية
يعتمد عليها في سراع السيفطان الذي كان
دارا اذ ذلك ، ثم استفاد اخوه عبيد الله
والحسن والحسين ، وأخذ يستعد لانتهاز
أول فرصة تسبح . ولا شك أن عنيه كاننا
متبين على مصر ، فاشغف بجميع المسائل
بالمصادرات وطبعه التركات ، وكلمما اجتمع
له مال اصطح به جندا يربونه من غايته .

واستطاع وهو في الشام أن يستصدر من
الخليفة الفاهر أمرا يضم مصر الى ولايته في
الشام ، ولكن أحمد بن كتيخان استطاع أن

اللاجئون على مقربة من طبرية في فلسطين .
وقد انتصر الاخشيد ، ولكنه أحس وعزم
انتصاره أنه لن يستطيع الصمود لآين رائق ،
فصالحه على أن يحمل إليه كل عام ١٤٠٠٠٠
دينار على أن تكون له الرملة ، ويترك باقي
العمام لآين رائق ، وكان ذلك في المحرم ٣٢٩/
آكبر ٩٤٠ . ثم توفي الخليفة الراعي في
ربيع الآخر من السنة وخلفه أخوه المنقلى ،
وقتل ابن رائق في الشام التالي ، فسار
الاجنبد ودخل دمشق وعزم الشام الى
ولايته ، وأقره المنقلى على ذلك . وقد عرف
محمد بن طنج كيفه يكسب لغة المنقلى ، بل
دعاه الى ترك بغداد والمجيء الى مصر ، فقلدها
في ذلك ما قلعه ابن ملولون مع المستد ، ولكن
المنقلى لم يقبل هذا الرأي .

وفي ذلك العين كان أمر بني حمدان في
حلب قد اشتد ، وبدأ الصراع بينهم وبين
الاجنبد ، وهو صراع كتب النصر فيه
للاجنبد ، فظلت ولايته على مصر والشام
خلال بقية أيام المنقلى ثم المستنقلى لم المطح .
وفي خلافة هذا الأخير توفي الاجنبد ﷺ
دمشق في ذي الحجة ٣٣٤ / أغسطس ٩٤٥
وخلفه ابنه أبو القاسم أولوجور أو أشوجور ،
أى أن الاجنبد ظن واليا على مصر ١١ سنة
و ٣ أشهر ويومين كان في معظمها واليا على
الشام أيضا ، وكانت سنة عندما توفي ٦٦ سنة
ودفن بالقنس .

وقد استطاع محمد بن طنج الاجنبد أن

يحفظ بسلطه خلال هذه السنوات بفضل
القوة العسكرية التي استطاع أن ينشئها ، ثم
انه كان الى ذلك كيشا مداورا يستطيع أن
يراوغ ويداور ويتحنى كلعواصف ، وما كان
أكثرها اذ ذاك ، وقد رأينا موقفه من ابن
رائق . وكان الزمان مصيبا لا يسلك في متاعته
الا من كانت له هبذه الضلال ، فقد كانت
تمارت الترامطة لا تنكف عن الشام والعباز ،
وليس هنا مرفع لفصيل آفاهلهم ، والسما
المهم أن نقول ان الله رحم المسلمين بموت
أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنايبي
انقرمطى في سنة ٣٣٢ / ٩٦٣ بعد أن فصل
بالشام والعباز والعباج الأفايل ، وسرق
رجال الصير الأسود من الكعبة عشرين سنة ،
ولم يردوه الا بسد فناء . هذا والآثارك
المستبدون بدولة بني العباس ينهزمون امامه
مرة بعد أخرى ، وكلما انهزموا لم يجسدوا
أمامهم الا الظلفاء المساكين يمدبرتهم
ويسلون أعينهم ووطنونهم . ولم يكن أولئك
الظلفاء على شوء من المعابة واحترام النفس ،
وقد بلغ من أكلهم وهر القاهر ، وكان
قد خلع وسلبت عيناه — أنه لما بلغه خبر
قبض توزون التركي على المنقلى وسلبه عينيه
قال : « صرنا اثنين ، وفتناج الى ثالث ،
يمرض بالمستكى الذي يوبع بعده . ولم يكن
الوزراء يخبر من الخلفاء ، ويكفى أن نذكر
أن الوزير ابن شيرزاد وزير المنقلى كان قد
أمن لهما فاتكا » وخلق عليه ، وشرط عليه

أن يصله كل شهر بغصنة عشر ألف دينار ،
وكان يكبس بيوت الناس بالمسجل والشمع
ويأخذ الأموال .

وكان محمد بن عتيق يحاول التنبه بأحد
ابن طولون ، ولكن شتان بين الرجلين من كل
ناحية . وقد ألقنا بصفة ابن طولون والمناسبات
بشبهه من خصال محمد بن طنج ، وبقي أن
نضيف أن جعله إلى المال واستماتته بما في
أيدي الناس وثقة بمنفقه جعلته موضع الرواية
والالتكاذب والتندر . بل كان يطعم في الليل ،
حتى لقد طعم في فرو كان يلبسه أحد رجاله ،
فجعل يمرض له به لعل الرجل يديه يماه
وتكنه لم يفعل ، فلما أيس منه عرض بعض
غلمانه ففصبوا الرجل الفرو وهو خارج من
عند الاخشيد لم أنكروه . ثم أراد الاخشيد
أن يتفرقه فلبس الفرو ، فلما دخل عليه الرجل
مرة أخرى ورآه عليه ضحك الاخشيد وقال :
« كيف رأيت ؟ ما أصفل وجهك ! ولكنك
ابن أبيك .. وكم حرطت لك وات لا تستحي
فلم تفعل ، حتى أخذناه بلا شكر ولا منة ! »
وربما عطف من ذلك أن الرجل كان
شديدا التقى ، ولكن تفاه لم يكن يظهر إلا بعد
قيامه بالأذى . ولم يكن حاله الاخشيد من
هذه الناحية يختلف عن حال غيره من رجال
الدولة والسياسة في ذلك الزمان ، فقد كانوا
يظهرون الأست والندم على ما يفعلون بعد
فوات الوقت ، وكانت ضراحتهم إلى الله خوفا
من العذاب لا عاطفة جينية كريمة . وكان

الاخشيد من هذه الناحية حربيا على
الافتقار فرصة لطلب القمطران ، حتى لقد
تكاسل مرة عن حضور ختم القرآن في جامع
عمرو ، وكان حربيا على ذلك أثناء شهر
رمضان ، فدعت إحدى جوارحه إلى القمود
علي أن تمتق عنه عشر رقاب فقال : « اعتبر
رقاب ؟ ويحك ! لعله يكون في هذه الليلة
رجل صالح له عند الله منزلة فيقول في دعائه :
اللهم اغفر لجباعتنا ، فمسي أن أدخل بهم » ،
ثم ركب إلى الجامع العليل تحضر الصلاة
والختم . وقد حاول أن يشبه بأحمد بن
طولون في مظهره ، فلم يوفق . وظل الناس
لا يوفروه توقير الملوك حتى أصبح يطلب
ذلك ويصر عليه ، وقد قرب عمرا من يتسايأ
الطولونيين فأصبحوا من بدلاءه ، وربما جلس
للعملاء والشعراء .

وجدير بنا قبل الانتقال إلى خلفاء
الاخشيد أن نلف وثقة عند المادرائين ، فهم
كما قلنا يفاهمونه فضل ما أدرك من تواليق .
وقد سبق أن ذكرنا أن أفراد هذه الأسرة كانوا
في مصر أيام الطولونيين . وهم في الفسلب
أسرة فارسية الأصل أتت أولهم إلى مصر أيام
أحمد بن طولون وأصبح من حواشي ، ثم
تداعوا بعد ذلك حتى كثروا في البلاد . وأهم
رجالهم ثلاثة : أحمد بن إبراهيم أو محمد
ابن أحمد بن إبراهيم المادرائي الأخروش ،
والحسين بن أحمد المادرائي المعروف بأبي
زبور ، وعلي بن أحمد المادرائي ثم ابنا هذا
الأخير أبو بكر محمد وأبو الطيب علي .

١٣٢١/٩٢٢ وأصبح صاحب السلطان القلى في البلاد . ويبدو أنه كان يعتمد على قوة عسكرية خاصة به تعينه من خصومه ورد عنه أيدي الطامعين في ثروته . ولم تكن الحسين بن أحمد المادرائي المعروف بأبي زنبور بأقل كفاية ولا مهارة من ابن أخيه أبي بكر ، فقد صار إليه الأمر بمسئد ذلك ، وعندما توفي سنة ٣١٧/٩٢٩ كانت شؤون مصر والشام المالية والإدارية في أيدي أهل بيته . وكانوا جميعا ينجبون أموال الدولة ويوزعون في الأوقاف ، وكان رجال الدولة ينامون ذلك ويستغلون مصادرهم ، وكانت المصادرة جزءا من الشقة العادية عندهم ، يدخرون المال كما ينزل بهم منها ويقبى لهم بعد ذلك الثراء الطائل مخبأ في سراديب وأماكن لا يعلم بأمرها أحد .

وكان العمل الرئيسي للمادرائين أنفسهم كانوا يضمنون الخراج للخلافة أو لصاحب الأمر في مصر ، فبدفتمون ملساً ميسراً ثم يستخرجون من الناس ما يساءون . وقد اشتهر أمرهم بذلك ، حتى ان أصحاب الأمر كانوا يكرهونهم ويحسدونهم ولكنهم لا يستغلون منهم ، نظراً لمعرفتهم بوجوه الأيراد والاتفاق ، ولم يكن هناك من يجرؤ على شتم الخراج بالمبالغ التي كانوا يضمنونه بها .

وفي سنة ٣٢٧/٩٢٨ - ٩٢٩ أو التي بعدها استدعى الاخشيدي أبا بكر المادرائي

فأما أحمد بن ابراهيم فقد ولي خراج مصر سنة ٣٢٩/٨٧٩ شركة مع ابن شعيب المدائني ، ويطلب أن الذي وضعه في هذا المنصب كان أحمد بن طولون نفسه ، ثم اضرد أحمد بن ابراهيم المادرائي خراج مصر . وبعد قليل عهد ابن طولون الي الحسين بن أحمد المعروف بأبي زنبور في عمل من أعمال الخراج في الشام . ثم ظهر من بين أفراد البيت على ابن أحمد المادرائي وعلا أمره أيام خضارويه حتى قال المقرئزي انه كان يملك النظر في جميع أمور مصر لأبي الجيش خضارويه بن أحمد بن طولون ووزاره . وفي سنة ٣٧٢/٨٨٥ استندم علي هذا ابنه أبا بكر محمد بن علي وأما الطيب أحمد بن علي ، واستخلف أبا بكر على الخراج لم علي الرسائل ، وهكذا أصبحت الأمور المالية والإدارية كلها في مصر بأيدي أفراد هذا البيت .

وقد قتل علي بن أحمد المادرائي مع أبي العساكر جيش ، فنهض ابنه أبو بكر مكانه وتولى أمور خضارويه بن خضارويه . وعندما دخل محمد بن سلیمان مصر انضم اليه أبو بكر محمد المادرائي ، ودافقه الي بغداد ، ثم عاد الي مصر وتولى خراجها الي سنة ٣٥٤/٩٦٦ أيام تكين وأصبح صاحب السلطان انطلاق في البلاد وحاز ثروة واسعة . ثم أجد هو وعنه أبو زنبور عن مصر وطوليا في بغداد بأموال جلييلة ، وظلا يبيدين عن خراج مصر ٤٢ سنة ، ثم عاد أبو بكر الي خراج مصر سنة

ولعود الى خلفه الاخشيد : بعد وفاة محمد بن طنج خلفه ابنه أبو القاسم أونوجور، وكأنت سنة أربع عشرة سنة عندما تولى الأمر . وانتهز كافيرو الاخشيدى الفرصة ووسخ بده على الأمور كلها . ومن ذلت التاريخ الى دخول الفاطميين مصر سيطر كافور هذا على مضاير مصر وجزء من الشام في بعض الأحيان . وهو عبد أسود يصنفه المؤرخون نفيح النسل وكبر البطن والقدمين وتقل البدن ، وقالوا انه كأن مشقوب الثمينة السفلى . ويبدو أن هذه مبالغات من المؤرخين رادوا بها أن يجعلوا كافورا مثلا لقدرة الله على إعطاء الدنيا لم يشاء . ويرجح أنه ولد بين عامي ٩٢٩ و ٩٣٠ م ، ٩٣٠ م بالنسبة أو العيشة ، ويسمى في بعض الأحيان بالابى نسبة الى ناحية الزاب من بلاد النوبة . ويقال أن الاخشيد اشتراه بثمانية عشر دينارا . ومما يكن من أمر لقسمه أخلص كافور للاخشيد إخلاصا عظيما لأمدى معله ورفع قدره ، وعهد اليه في تربية ابنه أونوجور وعلى .

وكان الرجل ذكيا عالمًا بالكثير من شؤون الدولة ، ورؤى خلفه الاخشيد سفارا لا رحى منهم خير ، ورجلان الدولة لا يتنازون بأمانه ولا إخلاص ، فنظر الى الأمر وأخذ بمصده لنفسه بكسب الصدقات والأموال . فلما سارت الأمور الى أونوجور أصبح هو صاحب الرضى الأعلى ، ودام له ذلك على أيام أخيه على . وقد حاول كلاهما أن يتخلص

وفوض اليه أمور المال ، وخلع على ابنه الحسين بن أبى بكر ، وأصبح أبو بكر أشبه بوزير للاخشيد . قال ابن سيد : لا ورد اليه الاخشيد التديير بمصر والشام والرملة ، وليس انزعافه ونزع الطليسان ، وكان الاخشيد لا يصدر الا من رايه ولا يخفيه من حضور مجلسه ، ويحول للناس اذا انصرفوا : كم قبلت بده ووقفت بين يديه اذ - والفراسة هي شارة الوزراء ، فكان أبو بكر المادرائى قد أصبح بالفعل وزيرا وان لم ينسب بذلك . وقد غضب عليه الاخشيد سنة ٩٤٩ م - ٩٤٣ م وعزله وحبس في بيته مكرما ، وجرى عليه رزقا يثبت اليه في سجنه .

والتبت العادل أبى بكر ، حتى اذا تولى الاخشيد وتولى أبو القاسم أونوجور ظهر أبو بكر همه عظيمة في تأييده . فاعاده الى ما كان عليه . ومن قريب ما حدث بعد ذلك أو قالدا بسى فلبون خرج بالصعب وغلب جيش أونوجور وتولى الأمر فضده أبو بكر وضمن له الفراج . فلما عاد الأمر الى أونوجور حبسه وصادره وشره ، فلما صار الأمر الى كافور أخرجه من سجنه واعاده الى ما كان عليه . في أن هذا الرجل استطاع أن يظهر على السليح رغم كل شيء ، وأنه ذهبت دولة وفتنت دول والمفكراتيون على حالهم من السلطان والغنى والجاه . وقد تولى أبو بكر المادرائى في الثامنة والثمانين من عمره أيام كافور سنة ٩٤٥ م / ٩٥٦ م وكان قد ابتعد عن الأعمال في أواخر أيامه .

والعباسية ، وله تسماء « وكان عظيم الحرمة ،
 وله حجاب يستع عن الأمراء » وله جواهر
 مغنيات ، وله من العنقاص الروم والسود
 ما يتجاوز الوصف ، زاد ملكه على ملك مولاه
 الاخشيد ، وكان كريما كثير القلع والهبات
 لحبها بالنسبة فظنا ذكيا جيد العقل داهية ،
 كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله
 اليه ، وكان يذبح بالضامة لبنى العباس
 ويهدى ويهدع هؤلاء وهؤلاء ، وتم له
 الأمر . وكان لا ينفك عن ارسال الأسر وال
 الهبات الى الحجاز . وكان يظهر أمام
 الناس بكل ما يحبه الى قلوبهم . ذكروا أن
 عظيميا مرض به في إحدى مواعده وذكره في
 مرض التبدليل على هوان أمر الدنيا على الله ،
 فسمع كأمور بذلك فأرسل اليه خلعة ومائة
 دينار ، فسار الواعظ يقول بسمد ذلك :
 ما أحب من ولد حام الا ثلاثة : لقمان ولئال
 القزذ وكافور .

ويكنى للتدليل على ما بلغه كافور من
 المكانة ما وقع له مع المتنبى ، وقصد هذا
 القاهر الكبير اياه ومدحه والتعرب اليه ، حتى
 لقد كان المتنبى على احتفاره لكافور يضافه
 ويركب في موكب . ولم يبلغ المتنبى من كافور
 شيئا ، فأتجه الى رجل من منافقيه هو أبو
 شجاع قائم الرومى المعروف بالجنون ،
 فمدحه ، وحصل منه على ألف دينار وهدايا
 أخرى ، ثم خاف كافورا فهرب من مصر ،
 وعندما صار على حدودها أطلق لسانه فيه .

من دون جردى ، وظل كافور صاحب
 الأمر المطلق في البلاد مستعينا بأبي بكر
 فلادرائى وغيره من رجال الدولة . ويذهب
 بعض المؤرخين الى أن كافورا تخلص من
 أمي العاسم . فوجد جردى ثم من أخيه على
 باسم ، وذلك غير متبذ وان كما لا نستطيع
 القطع به . وبعد أن ترقى على لم يمد هناك
 الا ابنه أسد ، وكان صبيبا في التاسعة من
 عمره ، فأراحه كافور جلة ودما لعمه على
 المنابر وأصبح أمير مصر ولكنه اكفى بقلب
 الاستاذ ، فكان يقال « الاستاذ أبو الملك
 كافور » . وقد صمد كافور في الحفاظ على
 كيان الدولة وردعها الفاطميين أكثر من مرة
 وحماها من عدوان الدولة العباسية ،
 ولولاه لضاع أمر بنى الاخشيد عقب وفاة
 محمد بن طليح بمبارة . أى أنه طلى يحكم
 مصر فعلا من سنة ٣٣٤/٩٤٥ الى سنة ٣٥٧/
 ٩٦٧ ، ولد سقطب مصر في أيدي الفاطميين
 بعد وفاته بعام واحد .

وكان رجال الدولة يمشون بأبي كافور ،
 أما جمهور الناس فكافوا يعبونه . وقد جمع
 من الصفات ما أهله لهذا وذلك ، فأما مع رجال
 الدولة فكان حاسما حازما بل قاسيا ، ولم
 يمنه ذلك من القدرة على الترويع والمطالبة .
 وأما مع الجمهور فكان يظهر النفي والتواضع
 وحب آل البيت . قال الفهسي : « وكان
 كافور يذبح الشعراء ويحيزهم ، وكانت جردا
 له في كل ليلة السير وأخبار الدولة الاموية

وبعد أن تولى كافور اجتماع رجال الدولة وولوا أحمد بن علي بن محمد بن طنج الاخشيد في جمادى الأولى سنة ٣٥٧/٩٦٧ وجعلوا الحسن بن عبيد الله بن حجاج (ابن عم أبيه) خليفته ، وتولى أموره أبو الفضل جعفر بن الفرات . وكان أحمد في الحصادية عشرة من عمره لا يستطيع أمرا ، وقد أمناه جعفر بن الفرات التصرف وصادر بعض الناس وفي جلستهم يقوب بن كلس وكان من سراوات الناس ، ففر إلى المزمع لدين الله وأخذ يعرضه على دخول مصر ، وقد بلغ ابن كلس بعد ذلك مركزا عظيما أيام الفاطميين .

اهتمامهم فعمو مصر وطمعوا فيها بسبب ما كانت عليه أحوالها من الاضطراب ، وقوى طمعهم عندما صار الأمر إلى كافور ، ولكنه عرف كيف يرد طمعهم عن بلاد . وكان العالميون قد دعوا الاخشيد إلى المدخول في عاتقهم ، فجعل يراوتهم ، حتى ولد علاقته مع العباسيين والعلماء من ناحية رجالهم ، فولف من الفاطميين موقفا حاسما . فلما مات الاخشيد عاقوا يعاقبون مع كافور ، فأخذ يراوتهم هو الآخر : لم يرض طلبهم ولم يصبه ، وطلب يجتهد في المحافظة على مركزه بين العباسيين من جهة والفاطميين من جهة الأخرى .

وكان الفاطميون لمصر بالمرصاد منذ أيام الاخشيد ، وقد أشرفوا على كلائنا عن الاخشيد إلى بعض محاولاتهم لتنتحيا . والواقع أن الفاطميين منذ أن قامت دولتهم في القيروان لم يتركوا راحة ولا اطمئنا ، فقد ناصبهم أهل البلاد العدا ، وكرهوهم وحاربوهم ، حتى ضاق ذرعهم . وكانت البلاد فقيرة لا تعينهم على انزال ما كانوا يطمعون من ملك عظيم ، ثم انهم عجزوا عن السيطرة على المصريين الأوسط والأقصى ، وبدأ لهم بوضوح أن أمرهم إلى زوال إذا علم ملوك في هذا الركن الذي شامت القادير أن تقوم دولتهم فيه . فانجحت أنظارهم إلى ضم بلاد أخرى إلى إفريقية ، وبعثوا الميون والجواسيس في كل ناحية ليعلموهم بأحوال بلاد مثل الأندلس ومصر ، غير أنهم بعد أن مات الاخشيد اتجه

وقد بدأ للسز الفاطمي بوضوح أن فرصته لفصول مصر قائمة يوم يموت كافور ، وبدأ بالفعل يستعد للأمر ، وبدأ في حشر الأبار على الطريق من إفريقية إلى مصر من سنة ٣٥٥/٩٦٥ ، وعندما وصلت الأخبار ب موت كافور سنة ٣٥٧/٩٦٧ عجل بإعداد الحصة . وزاده حمة في ذلك ما تسامح به من سروره سياسة التوزيع جعفر بن الفرات . ويبدو أن دعاة الفاطميين في مصر كانوا كثيرين ، لأننا نقرأ في أخبار هذه الشهور العاسية ما يدل على أن الجموع في مصر كان مهبا لاستقبال الفاطميين الجسد ، وعندما اقربت عساكر الفاطميين من مصر اجتمع جعفر بن الفرات بكبار رجال الدولة ، وقرروا مفاوضة القائد جوهر على شروط التسليم ، ثم اجتمعوا بجوهر وحصلوا منه على أمان لأنفسهم وأهل

البلد وقد أورد المقرئ نص هذا الأمان في
و اتفاق الحنفا ، وهو لا يخرج عن تأييد
الناس على أرواحهم وأموالهم ، ولكنه حافظ
بما اشهر عن الفاطميين من تعجبهم لأنفسهم
والسخط على غيرهم وانتان على الناس
بطاعتهم . وفي شعبان ٣٥٨ : ٩٦٨ هـ حمل جوهر
الصقلي مصر بجيوش الفاطميين بعد مساومات
بسيرة ، وبدأ في تاريخ مصر عهد جديد .

ولم تكن للاخشيديين أثناء حكمهم في
مصر رعاية متقينة الا بشؤون أسأل ، وقد
ولفوا في ذلك بفضل الممارئين ، ولعلوا
يصبون مال مصر كل سنة نحو مائتين من
الدنانير على قول و ٣٥٧٠٠٠٠ على قول
آخر . والراجع أن الرقم الأخير أقرب إلى
الصحة . وقد تمتد الاخشيديون في ذلك
حتى أدهتوا الناس بالمعاره والجبابات ، حتى
كان الجاهل يستخرجون من الناس طرائف على
أراضي البور . وقد قرر المقدسي أن الضرائب
والمكوس كانت ثلثة ، وبخاسة في نيس
ودمياط وعلى ساحل النيل . وقد ذكرنا أن
الاخشيد كان لا يتورع عن مصادرة الأموال
كما كان محمد كلف يده عن ذلك ، ثم نادت
المصاهرات بعد وفاته ، وأسرف جفتر بن
الفرات في ذلك ، ويسو أن رجال الدولة قد
أهدوا صيانة الخراف ، فقد عوانت على البلاد
العلوات ، وفي السنة التي دخل الفاطميون
مصر فيها كانت الحالة قد بلغت مبلغا جعل
بلاد على حافة الخراب ، وقد تدارك الأمر
ذلك لأول دخوله .

تلك هي التجربة الاخشيديية : أراد
صاحبها من ورائها أن يبدع تجربة ابن طولون
فلم يوفق ، وانقضت سنواتها الأربع والثلاثون
وكانها كل مر على حائط دون أن يخلف نرا .
وإذا كان ولا بد أن نجدها دورا في تاريخ
مصر الغويل فلنا انها نالحت للشعب المصري
عدوا من السموات عاشها بسادا عن النواصف
التي هزت بقية أجزاء الدولة العباسية في ذلك
العهد . فلقد شقت الجزيرة العربية والشام
والعراق بغارات الرماطة ، وتهددت الدولة
البيزنطية حدود مملكة الاسلام من الشمال
واجتاحها في مواضع ، وبقيت مصر هادئة
تجرى الحياة فيها على ماألف عهدها في تلك
المصور من النشابة والتكاسل ولا شك أن
محمد بن طنج كاذ حريصا على الدفاع عن
مصر والابتعاد بها عن المسمة الدائرة ، وضحى
في سبيل ذلك بمطعم الشام ، فلم يخطئ منه
الا بالرمقة . وهي مفتاح مصر من ناحية
الشام .

ورسا استطعنا أن نقول انه لولا الاخشيدي
وكافور لتقدم استيلاء الفاطميين على مصر
بضع سنوت . لقد وندت الدولة الفاطمية في
افريقية بعد زوان دولة ابن طولون بأربع
سنوات ، ومنذ أن تربح في دمنها حيه أنه
انتهى في سنة ٦٩٦ : ٩٠٨ هـ قصحت عيناه على
مصر وأخذت حملاب الفاطميين تنوش حدودها
الغربية . وقد دفعهما لاة بنى القساس
ما أمكنهم اندامعة ، فلما جاء الاخشيدي اعتم

بالمغاغ وأعد له عدته وتمكن من رد كل معاولات الفاطميين ، وأصاف إلى ذلك سياسة مرنة جعلته يصانع الفاطميين حيناً ويتصدى لهم حيناً ، حتى ليبدو في بعض سنواته أميل إلى الدخول في طاعة الفاطميين والخروج من دولة بني العباس ، ولكن قوى الفاطميين لم يبدف أباه الميفع الذي يخيلسه أو يدعوه إلى ساعته ، فنزل البقاء على طاعة العباسيين ، فهم مهما كان أمرهم أضف من الفاطميين ، وهم مشغولون عنه بما حزبهم من انتاعب ، فكانوا ينعون منه بما يرسل ، ولم يكن الفاطميون يبرسونه بأعداء ذلك .

لم جاء كالفور شفي على سياسة مولاه ، وأخذ يراوغ الفاطميين ويدافعهم ، حتى إذا انتهت أيامه كان على عرش الفاطميين تميم أبو محمد أعظم رجال دولتهم ، ول خدمته قائد مظهر ماهر هو جوهر ، جاس خلال المغرب كله يترى ويحارب ، حتى تجبعت له تجربة عسكرية جعلته من أكبر فزاة زمانه ، وقد يشي المعز وقائده من مصر فونتم إلى المغرب وتمثلت آمالهما بدخول مصر ، ووجها لحوها كل قواصا ، فصارت اليهما دون كبير جهد .

ولابد أن نضيف إلى الأخشيذ جانباً من المشغول في مداومة البيزنطيين عن بلاد الإسلام ، فقد كانت الدولة البيزنطية قد نهضت إذ ذاك نهضة كبيرة على يد ققصور فوقاس ثم يوحنا الشمشيل من بعده . وأغاراً على بلاد الإسلام وغزياً شمال الشام فسقطت أنطاكية ودغمت حلب الجزيرة وبهذه القطر دمشق ، وتصمدى لمداغمتهم الصندانيون أصحاب الموصل وحلب والأخشيديون ومشطوفة المسلمين الذين نكاثروا في الفخور الإسلامية بتدعيم الحوية الدينية ، وخاصة عمر طرموس ، وعلى الرغم من أن فولتي الأخشيديين والصدالين لم تستطعا رد هادية البيزنطيين عن بلاد الإسلام بصورة حاسمة ، إلا أنهما تمكنتا من القاذ ما أسكن القاذ ، وأرسل الأخشيديون لقواتهم لصاية الفخور وأخرجوا الأموال لافسداء أسرى المسلمين ، وقد هابهم البهرنثيون وكاتبوهم رأساً متفطين رجال الدولة العباسية . وكانت سياسة الأخشيدي وكالفور مع البيزنطيين سياسة ملاينة وموادعة في الضالاب ، ولم يكونا يستطيحا أكثر من ذلك على أي حال .

اولهما أنا لا نعرف على وجه التحديد متى بدأت الدعوة الاسماعيلية . أو من بدأ بها ، فقد بدأت سرية ، وما كتبه المؤرخون السنيون عن أصولها وبدؤها فيه تناقض كبير واضطراب ، ويختم في أكثره بحمل العائقات المفروضة .
 ولإيهما أن الاسماعيلية أسهم لجأوا في أول الأمر إلى التلوية فقد كان العهد عهد ستر ، وعضد السجدة لمواصل الاضطهاد .

المختلفة من سجع وقتسمل وتفريد ، ولهذا لم يورخ الاسماعيلية لحرکتهم بأنفسهم ، لأن الستر أصل من أصول مذهبهم ، ومن ضعف العقيدة عندهم كشف المستور ، وكانت النتيجة أن كل ما نعرفه عن عهد الستر -- وهو العهد الذي يبدأ بوفاة جعفر الصادق وينتهي بفيسام الدولة الهاشمية -- يسوده التناقض والاضطراب ، ولا يسكن الركوز إليه أو الولوق به .

الحزب الشيعي - نشأته وتطوره

المعمور الذوات أن مصدا عليه السلام تولى ولم يوص لأحد بالخلافة من بعده ، وترك الأمر شورى بين المسلمين ، ومن طريق هذه الشورى اختبر الغنم الأربعة الراشدين ، وإن اختلفت أساليب الشورى عند اختيار كل واحد منهم .
 وكان علي بن أبي طالب يطمح في أن يأن هذا المنصب منذ اللحظة الأولى التي نشأ حول الرسول عليه السلام ، ولكن المنصب خافه في الحالات الثلاث الأولى ، ولما أدركه في الحالة الرابعة أدركه في شروعه عمسرة نصية ، فقد تولى علي الخلافة في أعقاب الفتنة الكبرى التي انتهت بقتل عثمان بن عفان .

انصرفت إلى اليوم ؛ وتولى معاوية زعامة المعارضة ، وكانت حجة الكبرى أنه إنما قام للمطالبة بثار عثمان ، والانتقام من فتنه ومن حذاه هؤلاء القتل ، غير أنا نرى أن هذه حجة عاطفية انبذها معاوية شعارا ليثير شحور المسلمين على علي ، أما الصراع الحقيقي فهو صراع سياسي لتتد جذوره إلى الماضي البعيد ، إلى عصر ما قبل الإسلام ، عندما كان ائتلاف على أشده بين بني أمية وبني هاشم في سبيل السيادة فلما ظهر محمد برسائه كان بنو أمية من أشد الناس عداوة له وكان أبو سفيان -- زعيم بني أمية -- حامل لواء المعارضة والمقاومة .

ونصرت هذه محمدا ، وانقلبت السيادة إلى بني هاشم ، فمنهم اختار الله نبيه ، وقد استجاب العرب جميعا لرسالته وخضعوا لشرفه بعد أن كوز دولته الجديدة التي

وحدث المؤمنين والمسلمين من الحرب جميعا
ليكونوا أمة واحدة من دون الناس .

آلم بنى أمية أن ينال بنو هاشم هذا
الشرف كله ولكنهم خضعوا على مضض ،
وخاصة بعد دخولهم في الاسلام ، غير أن
ينجذب هذا النزاع لم تست بل ظلت كاسية في
التعويض التي أن ولي عثمان - وهو من كبار
بنى أمية - الضلالة فاستبطلت بمواصل
الخلاف من جديد ، والثنا رجال هاشم
الأسرة حوله يلوون سياسته باللون الذي
يريدون ، فلما لارت الفتنة وتسل عثمان ،
وولي على الخلافة عشوا أن تستقر السيادة
ثابتة في بيت بنى هاشم ، فعمل لواء المعارضة
معاوية - كبير بنى أمية في ذلك الوقت -
وقاد معركة النضال في عناده واصرار شديدتين
ستملا كل ما أوتي من مكر وجهاد .

فلم يكن الصراع بين علي ومعاوية إذن
صراعا للأغضب بنار عثمان أو للانتقام من
قتله ، وإنما كان حلقة جديدة في سلسلة
النزاع القديم في سبيل السيادة بين بيتين
كبيرين من قريش هما بنو أمية وبنو هاشم ،
ولقد كان تقي الدين أحمد بن علي المقرئ
- زعيم مؤرخي مصر الإسلامية - أول من
قفز إلى هذه الحقيقة ، وأول من عالجا
معالجة طيبة في كتابه الصغر القيم : « النزاع
والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم » .

إبان هذا الصراع ظهر الحزب الشيعي
وهو الحزب الذي يضم من يتعصبون لعلي

أو يتشيعون له ، وقد انضم الى هذا الحزب
أكل الشائتين والكفرين من العرب وغيرهم ،
ومن الموالي بوجه خاص ، وسنح رجال هذا
الحزب لأقسامهم مبدأ خاصا ، وفلسوا هذا
المبدأ فلسفة تأثروا فيها التي حصد بعيد
بنقربات الحكم عنسد الفرس التي كانت
تؤمن بعلي المثلث المقدس وحجر الزاوية في
هذا المبدأ جهدهم في الإمامة ، وبنوا هاشم
القيادة على حديث لبي ، فقالوا ان
الرسول عليه السلام مر عند أخته من حجة
الوداع بغدير خم - وهو مكان بين مكة
والمدية - وعنه هذا الغدير أخي بينه وبين
ابن عمه علي وقال : « علي مولاي ، اللهم
وإن من والاه ، وعاد من عاداه » .

وقالوا استنتاجا من هذا ان هذا الحديث
يشتمن سيادة طسنية من محمد لعلي ، وإن
عليا وصي الرسول ، وصي له بالإمامة من
بعده لشروط خاصة ينرد بها ، ولطوم لدية
تلقاها عنه ، وإن الإمامة يجب أن تنتقل من
علي إلى أولاده الواحد بعد الآخر لأن هذه
الشروط ، والطوم تنتقل في سلس على بطريق
الوراثة من الآين إلى الآين .

ولهذا وقد أتباع هذا الحزب فيما بعد
إلى جانب أولاد علي يحرضونهم على المزايدة
بضهم في الخلافة ، وحسوا أولا الحسن بن
علي ليلي أمر المسلمين بعد مقتل أبيه ، ولكن
الحسن كان رجلا بعيد النظر ، قرأ أن أهل
الشام ومصر والحجاز واليمن قلوبهم مع

وبعد ثلاث سنوات من وصوله الى بلاد المغرب أي في سنة ٢٩١ هـ (٩٠٣) بدأ جهوده الحربية فخضعت له مدن كثيرة و ساعده على هذا النجاح ما كان قد تصاب الدولة الأغلبيّة صاحبها الحكم في تونس حينذاك من ضعف وانحلال .

وعند ذلك أرسل أبو عبيد الله الى عبيد الله المهدي - الامام الاسعيلي صاحب الصمّوعة - وكان يقيم في مدينة سطية بالشام ، يستدعيه للظهور الى بلاد المغرب ، وأسرع تلبية الدعوة ، وخرج من الشام ومعه أموال وفيرة ، ويقال ان الخليفة العباسي علم بجروحه فأرسل الي قتاله في مصر والمغربية بوصيهم بالقبض عليه ، ولكن عبيد الله استطاع بانتصر تارة ، وببذل المال تارة أخرى أن يفر من مراقبة الولاء ، واشتد به الرحلة الى مدينة سجلماسة في المغرب الأقصى حيث قبض عليه وألبها وسجنه بها .

وفي سنة ٢٩٦ هـ تم لأبي عبد الله النصر النهائي على الممويولات القائمة في شمال أفريقيا ؛ دولة بني مدرار في سجلماسة ، ودولة بني رستم في تاهرت ، ودولة الأغالبة في أفريقيّة (تونس) ، وأطلق سراح عبيد الله ، فعاد الجيش بنفسه ، وسار حتى دخل مدينة رقادة في سنة ٢٩٧ هـ ، وزل بقصر من قصورها ، وفي يوم الجمعة خطب باسمه على منابر رقادة والقيروان

— بعد أن قضى نوائيا على ملك الأغالبة — ولقب بأبى المؤمنين عبيد الله المهدي .

وهكذا نجح الشيعة الاسماعيلية في الوصول الى عرش الخلافة بعد جهاد طويل مرير ، كان يفضي في السلن الى عهد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وبعضه في السر ويشتد في عهد بن محمد بن اسماعيل الى نجاح الدولة والظهور بعبيد الله ، ويهرف هذا العهد الثاني بعهد الكنتان ، لقد كنت فيه أسماء الأئمة تخبه وعلوا وكان يقوم بالدعوة العلنية ويشرف على توجيهها الأئمة المستودعون من لسب عبد الله بن محبوب القهاس ، ومن هنا لار الجهال حول صحة النسب الفاسي فقد أصبح كتمان أسماء الأئمة المستترين من محمد بن اسماعيل الى عبيد الله المهدي جزءا من المذهب ، ولم يكن الخلفساء الفاطميون يسمون إعلان هذه الأسماء حتى بعد نجاح الدعوة وتوليم الخلافة ، ومن هذه الفترة دخل أعداء الدولة الفاطمية من العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس للطمس في نسب الأئمة الفاطميين يريدون بذلك أن يحوضوا الدعائم التي قامت عليها الدولة .

والى هذا القدر — الذي لار حسوسل نسب عبيد الله المهدي منذ اللحظة الأولى — يرجع بعض المؤرخين السبب في النزاع الذي قام بين عبيد الله وقائده أبي عبد الله ، والذي انتهى بقتل هذا الأخير بعد قيام الدولة بنحو عام .

الخلفاء العاطميون

١ - في المغرب

٣٢٢	ت ١٤ ربيع الأول	المهدي أبو محمد هيب الله	٢٩٧ (٩٠٩)
٣٣٩	ت ١٣ شوال	القائم بأمر الله أبو القاسم نزار	٣٢٢ (٩٣٤)
٣٤١	ت ٢٩ شوال	المنصور بنصر الله أبو الطاهر اسماعيل	٣٣٤ (٩٤٥)
٣٦٥	ت ٣ ربيع الآخر	المعز لدين الله أبو محمد محمد	٣٥٦ (٩٥٣)

٢ - في مصر

(و في شعبان ٣٥٨ هـ تحت مصر ، و في رمضان ٣٦٢ هـ قبل المعز اللاهية)

٣٨٦	ت ٢٨ رمضان	العزيز بالله أبو منصور نزار	٣٦٥ (٩٧٥)
١١١	انقضى في ٢٧ شوال	الحاكم بأمر الله أبو علي منصور	٣٨٦ (٩٩٦)
٤٢٧	ت ١٥ شعبان	الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي	٤١٦ (١٠٢٠)
٤٨٧	ت ١٨ ذو الحجة	المنصور بالله أبو محمد محمد	٤٢٧ (١٠٣٥)
٤٩٥	ت ١٤ صفر	المستغل بالله أبو القاسم أحمد	٤٨٧ (١٠٩٤)
٤٢٤	قتل ٢ ذو القعدة	الآخر بأحكام الله أبو علي منصور	٤٩٥ (١١٠١)
٥٤٤	ت ٥ جمادى الآخرة	الحافظ لدين الله أبو يعقوب عبد الحميد	٥٢٥ (١١٣٠)
٥٤٩	قتل ٣٠ محرم	الظاهر بأمر الله أبو منصور اسماعيل	٥٤٤ (١١٤٩)
٥٥٥	ت ١٧ رجب	الناصر بنصر الله أبو القاسم عيسى	٥٩٧ (١١٥٤)
٥٦٧	سقط ٣ محرم ، و مات ١٠ محرم	العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله	٥٥٥ (١١٦٠)

الأبواب

الفتح الفاطمي لمصر

الثاني ، فاستبد الأتراك يشنون الحكم
العملية حتى غدا الخلفاء كالدلمي في أيديهم
يعركونهم كيف شاءوا ، وانطبق عليهم عند
ذاك قول الشاعر :

خليفة في قلبي

بين وصيف وبغما

يقسمون ما لآل له

كما تقول البيضا

وأدى هذا الضعف إلى اجترأ كل
طموح أو محب للشغب أو رغب في السلطة
إلى الثورة ، قامت ثورة الإلج في اليم
البصرة والجزء الجنوبي الغربي من فارس ،
وظلت منطقة خسر عمرا سنة (٢٥٥ —
٢٧٥ هـ) ، ثم تلتها ثورة القرامطة الذين
تقدموا حتى ملكوا بأبداة الشام وجنوبه
وهندوا حدود مصر الشرقية ، وغاثوا في
الجزيرة العربية فسادا ، واستلبوا الحجر
الأسود حيث بقي معهم مدة النين وعشرين
عاما ، ولم يردوه إلا بعد أن دفع لهم الخليفة
العباسي مبلغا كبيرا من المال ، وصاحب هذه
الثورات انفصال الأطراف وقيام دول مستقلة
لها .

وفي الشرق قامت الدولة الغزنوية
والسامانية والطارقية ، وفي المغرب قامت
الدولتان الطولونية والأخشيدية .

وفي قلب الدولة نفسها ، في العراق
قامت دول ملكت زمام الحكم في أيديها ،

كان الفرض الأساسي الذي سعى
المؤيدون دائما لتخفيفه هو تكوين خلافة
جديدة تقضي على الخلافة انبساطية النسبة
وترزها في ملك العالم الإسلامي ، وقد رأينا
كيفه نتيج الفاطميون في تحقيق القطر الأول
من فرضهم فأقاموا دولتهم في المغرب ،
ولكنهم لم ينسوا بعد نجاحهم الشطر الثاني
والأهم وهو القضاء على الدولة العباسية
ومصر هي أول جزء من أملاك العباسيين
يجاور الدولة الفاطمية من ناحية الشرق .

لهذا كانت مصر حطم الفاطميين عند
المعركة الأولى ، ولهذا لم تكن الأمور تستمر
نوعا ما للعهدي — الخليفة الأول — حتى
أعد العدة للإتجاه شرقا وغزو مصر ، فأرسل
في سنة ٣٠١ جيشا لتحقيق هذا الفرض ثم
أرسل في سنة ٣٠٧ حملة أخرى ، ولكنهما
منيا بالفشل ، وقد هذا حذوه إبه القائم
فأرسل في سنة ٣١٦ حملة ثالثة — ولكنهما
لم تكن أسعد حظا من سابقتها ، ولم يكتب
النجاح إلا للزوجة الرابعة التي تمت في عهد
المز لدن الله .

وقد ساعد على نجاح هذه الغزوة الرابعة
أمور كثيرة ، أهمها ضعف الخلافة العباسية
صاحبة السيادة على مصر ، وضعف الدولة
الأخشيدية صاحبة السلطان العملي فيها .

أما الخلافة العباسية فتد بدأت عوامل
الضعف تسال إلى كيانها في مصر العباسي

المحارب ، فمات رجلاً وامرأة في الزحام ، ولم تحصل الجمعة يومئذ .. » .

« وفي سنة ست وخسين لم يبلغ النيل سوى اثني عشر فرساً وأصابع ، ولم يقع مثل ذلك في الملة الإسلامية ، وكان على إمارة مصر حينئذ الأستاذ كافر الأخصي ، فعلم الأمر من شدة الغلاء » .

وفي سنة ١٠٤٧ هـ مات كافر ، فالهارت المقاومة ، وكثر الاضطراب ، وتعددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين الجنود والأمراء قتل فيها خلق كثير ، وانتهت أسواق البلدة ، وأحرقت مواضع عديدة فأشدت حول الناس ، وطاعت أمواتهم ، وتغيرت نياتهم ، وارتفع السعر ، وتغير وجود الأوقات حتى بيع الفصح كل وية بدينار ، واختلفت الأسعار : فلحق الكثير منهم بالعمى بن عبد الله بن شنج - وهو يومئذ بالرملة - وكان « الكثير » منهم المعسر لدين الله الفاطمي ، وعظم الأراجاف مسير القرامطة إلى مصر ، وتواترت الأخبار بسجى مسافر المعز من المغرب ، إلى أن دخلت سنة ثمان وخسين وثلاثمائة : ودخل القائد جهر بمسافر الإمام المعز لدين الله .. » (١١) .

هذه صورة راحة لساعة في مصر قبيل التمرز والفاطمى ، ومنها قطع المبدع تقي الدين الكردي ربيعهم مؤرخ مصر الإسلامية ، ويستطيع أي غمان أن يجعلها برشته والروان إلى لوحة ناعمة نرى فيها (١٢) التمرزى : إعادة إلهة بكشف الفضة . شر ويانة والتمثال . ص ١٢ - ١٣ .

قضى الشمال قامت الدولة الحمدانية في فواحي الموصل وحلب ، وطالما حاربوا دخول بغداد نصفا ، وفي المصاصة بغداد قامت الدولة البويهي في سنة ٣٣٤ هـ ، واستبدت بأمر الخلافة جيبا ، وأصبحت للبويهيين الكلمة الأولى والعليا في تولية الخلفاء وعزلهم بل والتميم ، وصدق بذلك قول البيروني فيهم : « ان الدولة والملك قد انتقل من آل عباس إلى آل بويه والذي بقي في أيدي الدولة العباسية الماهو أمر ديني اعتقائي ، لا ملكي ديني » (١٣) .

وفي مصر انتهت الأمور بعد موت محمد بن فنج الأخصي في سنة ٣٣٤ إلى الضعف إذ لم يخلفه أحد من نسله له مقصود وسجاعة ، حقيقة لقد استبد كافر بالحكم دون ولدي الأخصي ، فاستطاع أن يفسد الثروات التي تقيت وأن ينصر على الحمدانيين ، ولكن هذه الرواية كانت أشبه شيء بصورة الموت ، فقد ساءت أحوال البلاد الاقتصادية في سنة ٣٥٢ هـ قشر النيل في قضيضاته ، وحدث بمصر غلاء شديد نتجت عنه مجاعة ظلت نحو سبع سنوات ، قامى المصريون في خلالها الشدائد ، فحدث في سنة ٣٥٣ هـ مثلا أن « عظم الفيضان » والتفتت الأحاسال لكثرة الفتن ، وفتحت الضياع والغلات ، وماج الناس في مصر بسبب الأمر : فدخلوا الجوامع العتيق بالمساطر في يوم جمعة ، وازدحموا عند (١٤) البيروني : الآثار الباقية - ص ١٣٣ .

بالستان الكافوري ، ودير النصارى يعرف
بدير النظام وبناء يعرف بقصر الشوك ، وقد
بنى مكانه بعد تأسيس القاهرة أحد قصور
الفاطمين الكبيرة وسمى بقصر الشوك .

وقيل في سبب تسمية المدينة بالقاهرة أن
جوهرا لما أراد تأسيس العاصمة الجديدة
أحضر النجيني ، وأمرهم باختيار طالع سعيد
لوضع الأساس ، جعلوا بدائرة السور قوائم
من حطب ، ووصلوا بين كل قائمتين بحبل
ملقوا فيه أجراسا ، وقالوا للمسال : إذا تحركت
الأجراس فالتقوا ما بأيديكم من طين وحجارة ،
وينا المسال منظرهم إذ وقف هراب على
أحد تلك الحبال ، وتحركت الأجراس جميعا
وبدأ المسال في البناء ، فصاح المنجور :
لا ، لا ، القاهرة في الطالع ، فسويت المدينة
بالقاهرة - والقاهر هو المربح .

ولكننا لا نليل إلى تصديق هذا الرأي ،
فهو أقرب إلى التمسس الخيالية ، ويؤيدنا في
شكنا المقريري نفسه راوي هذه القصة ، فإنه
يقول في موضع آخر أن جوهرا « لما سار
من الجيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء
لمسح عشرة خلعت من مسجبان سنة ٣٥٨
بمسارده ، ولصعد إلى مناخه الذي رسمه له
عولاه الإمام المنز لدين لله أبو تميم معد ،
واستقرت به الدار اختط القصر وأصبح
المصريون يشعرونه فوجدوه قد حفر الأساس
في الليل ، فأدار السور اللين ، وسميها
المنصورية ، إلى أن قدم المنز لدين لله من

بلاد المغرب إلى مصر ، ونزل بها فسميها
القاهرة » (١) .

وهذا فيما نرى السبب الصحيح لتسمية
القاهرة ، فإن جوهرا عندما وضع الأساس
للمدينة الجديدة سماها « المنصورية » ،
ولعله كان يريد أن يتفرب إلى خليفته المنصور
بأحياء ذكرى والده الخليفة المنصور ، فسمى
العاصمة الجديدة باسمه ، واختار لها موقعا
خارج العاصمة القديمة المسطحة لينزل بها
الجند ، كما كانت المنصورية خارج القيروان ،
وسمى بابن من أبواب المدينة الجديدة
باسم زوية والفتوح ، وهذا اسمان
لبابن بمدينة المنصورية في المغرب : فلما أتى
المز إلى مصر سماها « القاهرة » ثمؤالا ،
يريد بذلك أنها ستعمر المولة القديسة التي
قام الماسيون لمناستها والتفاه عليها ، وهي
الخلافة النيسابية ، فالمنز نفسه هو صاحب
هذه التسمية ، وقد اختارها وهو بعد في
المغرب ، فقد روى أنه قال عند وداعه لجوهرا
أمام جمع من شيوخ كتامة : « والله لو خرج
جوهرا هذا وحده لفتح مصر ، ولتدخلن إلى
مصر بالأردية من غير حصر ، ولنزلن إلى
خرابات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى
القاهرة ، تهر الدنيا » (٢) .

ومما ينبغي قصة المزاب والخيال فيما

(١) المقريري . المعطوط . ج ٢ . ص ٤٠٤ .

(٢) المقريري : التمام النعناع . نشر

السيال . ص ١٦٢ .

بأننا أن السمرودي^(١) يروي قصة شديدة
الشيء جدا هذه القصة ونسبها إلى
الإلكندر عند بنائه الإسكندرية ، فحصل
المقرئزي نقلها عن مراجع متأخرة شُبه عليها
الأمر عند الكلام عن قاهرة المزمع ، فقتبست
ما قيل من إسكندرية الإسكندر .

وأول ما بني في القاهرة القصر الكبير
ليكون سكنا للظليفة وأيامه ، ونفسرا
لذواوين الحكم ، وضع جرحه أساس هذا
القصر لئلا يزل ما شاخ .

وفي يوم السبت لست بدين من جصاتي
الإخرة سنة ٣٥٩ هـ (٥ مايو سنة ٩٧٠ م)
اختطت القاهرة فزلت كل قبيلة أو فرقة من
فرق العبيد في مكان خاص بها ، وسببت
خطتها بالعارات ، ومنها حارة زويلة ، وزلت
بها قبيلة زويلة ، وحارة كنانة ، وزلت بها
قبيلة كنانة ، وحارة البرقية ، وزلت بها قوم
من فرقة . . وهكذا .

ويقال في سبب اختيار جوهر لهذا المكان
كقبيصة مدينته عليه له رغب في أن تصح
حصنا قريبا بين القرامطة وبين مدينة مصر
لهما لهم من دولها ، فأدار السور اللين على
متاخة الذي لول فيه عساكره ، وأنشأ من
داخل السور جامعا وقهرا ، وأعددها مغللا
يتحصن به وتزله عساكره ، واحتر الخندق
من الجهة الشمالية لمنع اقتحام عساكر

القرامطة إلى القاهرة وما ورامها من
المدنية^(٢) .

وكانت القاهرة عند انشائها صغيرة
المساحة ، ويقدر على مبارك في كتابه الخطط
أن كل جانب من جوانبها كان يبلغ وقتذاك
ألفا ومائتي متر ، وأن مساحتها كانت ٣٩٠
فداناً (الفدان ٤٢٠٠ متر) ، وكان القصر
يشغل خمس هذه المساحة ، أي نحو سبعين
فداناً ، وكان بستان كافر يشغل عشر
المساحة أي ٣٥ فداناً ، وكان الميدان الممدد
لعرش الجند يشغل ٣٥ فداناً أخري ،
أما الباقي فقدره ماثنا فدان فقد خصص لترويل
فرق الجند المختلفة .

وكان السور الأول الذي بناه جوهر من
الطين ، وقد أدرك المقرئزي قطعة منه كالم
باقية حتى سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٦ م) ، وأعجب
ببنائه ، وذكر أن اللبنة الواحدة منه كانت قدر
فراخ في ثلثي ذراع ، كما ذكر أن عرض
جدار السور عدة أذرع ، وأنه يسح أن يمر
به فارسان .

وكان للسور خمسة أبواب في جهاته
المختلفة ، فكان في جهته القبلة بابان
متلازمان يقال لهما بابا زويلة ، وفي
جهة البحرية بابان مشاهدان ، هما : باب
الفتوح ، وباب النصر ، وفي جهته الشرقية
بابان ، هما : باب البرقية ، والباب الجديد .

(١) المقرئزي : الخطط . ج ٢ .
ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) السمرودي : مرجع الغمب ج ١ .
ص ٢١٥ .

وفي جهته الغربية بابان ، هما : باب القنطرة
وباب سماعة . ثم أصبحت أبواب أخرى بعد
نمو المدينة وتجديد السور .

ولم يكن هذا السور هو الوحيد الذي
بنى حول القاهرة ، وإنما بنى بعده سوران
آخران : أحدهما بنسبه أمير الجيوش بدر
الجمالي وزير الخليفة المستنصر في سنة ٤٨٠هـ
(١٠٨٧ م) ليعبط زيادات أضيفت إلى
القاهرة في الجنتين البحرية والقباية ، وكان
هذا السور من اللبن وأبوابه من الحجارة ،
ولا زال بابان من أبواب هذا السور ، وهما
باب النصر وباب الفسحوح موجودين حتى
اليوم وعليهما نقوش تحمل اسم منشيئهما
(بدر الجمالي) وتاريخ إنشائهما .

وبنى السور الثاني صلاح الدين يوسف
ابن أيوب ، بدأ عمارته سنة ٥٩٩ هـ وهو
وزير للخليفة الفاطمي العاضد ، وفي
سنة ٥٩٩ هـ عيّن قائمه بهاء الدين قراقوش
للإشراف على إنشائه ، وقد بنى هذا السور
كله من الحجر ، وكان يضم داخله مدينتي
القاهرة ومصر — أي القسطنطينية — ولا تزال
أجزاء منه باقية حتى اليوم جنوب أملاك
القسطنطينية ، وكان يحيط هذا السور ٤٩٣٠٤٣
فراخ ، وكان يبدأ في الشمال عند قلعة المعين
(ميدان باب الحديد الحالي حيث كان يجري
البلبل وقتذاك) ميناء القاهرة على النيل ،
ويحيط حول القاهرة والقسطنطينية جيما ثم
ينتهي جنوبا عند ساحل مصر (القسطنطينية) ؛

وكان خارج السور خندق لصنائه وحماية
المدينة ، وبذلك كان حدا المدينة الشمالي
والجنوبي ينهيان عند السور ، أما الحد
الغربي فكان خليج عمير المؤمنين ، كما كان
جبل المقطم هو الحد الشرقي .

وكانت القاهرة في العصر الفاطمي ضاحية
حضرية ، يسكنها الخليفة وجماعته
وجوامعهم ، وكان — كما وصفها
المفريزي — « مثل شمال يتحصن بها ويتجأ
إليها » ، فلما قدم إلى مصر أمير الجيوش
بدر الجمالي أثناء السنة العظمى التي كانت
في عهد المستنصر وجد أن القاهرة مدينة خالية
غير عامرة ، فأباح للناس من الكوفة
والملاحية والأرمن ، وكل من وصلت قفصرته
إلى عمارته وأن يصر ما شاء في القاهرة مما خلا
من سطوة مصر ومدت أهله ، فأخذ الناس
ما كان هناك من أبقاع النور وعشيرها ،
وعمرها به المنازل في القاهرة وسكنوها (١١) .
ولما انتهت الدولة الفاطمية وولى حكم
مصر السلطان صلاح الدين ، نقلها مما كانت
عليه من الضبابية ، وجمعها مبتذنة لسكن
العام والجمهور ، وحدث من مقدار قصور
الخلافة ، وأسكن في بعضها ، وتهدم البعض ،
وأزيلت معالمه ، وتغيرت مبادئه ، فصار
خطا وحارات وشوارع ومساكن وأزقة ،
وزل السلطان (صلاح الدين) منها في دار
الوزارة الكبرى .. الخ .

(٦) المفريزي : الخطط . ج ٢ . ص ١٦٦ .

● الأقاليم المجاورة نحو أربع سنوات ،
ولما تم له إخضاع مصر والشام والعمارة ،
وبعد أن أكمل تأسيس القاهرة وبناء القصر
والمسجد الجامع أرسل للمز يستعنيه إلى
مصر ، وخرج المز من المنصورة يوم الاثنين
ثلاث من شوال سنة ٣٦٦ هـ ، وفي يوم
الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ
وصل القاهرة ، ولما دخل القصر خرج ساجدا
له تعالى ثم صلى ركعتين .

الجامع الأزهر

مصر ، فقد كاد الغرض الأساسي من الفتح
الإسلامية لشر الدين الجديد ، ولذلك كانت
ولاية الصلاة ذات أهمية كبرى ، فكان الولى
على مصر يجمع بين الولاية على صلاحها
وخراجها ، أو يتكفل بولايتها على صلاحها ،
ويجوز إلى جانبه وال آخر على خراجها .

وكانت المساجد أيضا مقرا لدواوين
الحكم ، ومجلسا للقضاة ، ومعهدا لنشر العلم ،
ومسجدا لإذاعة الأوامر الحكومية .

بنى الجوامع الأزهر اذن وفي مصر
مسجدا جامعان : جامع عمرو وجامع أحمد
ابن طولون ، لأن جامع المسكر كان قد هدم
وذاكت معالمه ، وقصد الفاطميون ببناء هذا
الجامع أن يكون مضافا للخليفة بجنوده ،
وأن يكون مسجدا جامعا للمعاشرة الجديدة ،
وأن يكون مركزا لنشر الدعوة الصبعية ،
وأن يكون رمزا لانتصار الدعوة الجديدة على
الدعوة العباسية .

ثم تخطيط القاهرة بعد الفتح الفاطمي
بعام ، وفي يوم السبت ثلثت بقين من جمادى
الأخرة سنة ٣٥٩ هـ (٥ مايو سنة ٩٧٠ م)
بدأ جوهر عمارة الجامع الأزهر في الجنوب
الشرقي من القصر الكبير ، وتم بناؤه بعد
عامين ، وفتح للصلاة أول مرة في شهر رمضان
سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٢ م) .
وظل جوهر يحكم مصر ، ويعد الفتح

كانت القاهرة — كما أسلفنا — رابعة
المراصم المصرية في العصر الإسلامي ، وكان
سياسة الدول الإسلامية تلمس بأن تنشأ في
كل عاصمة جديدة مسجد جامع ، وترجع
هذه السياسة إلى عهد عمر بن الخطاب ، فقد
كتب إلى ولاته على الأقاليم المقسومة
— ومنهم عمرو بن العاص — أن يتخذ كل
منهم في عاصمته مسجدا للجماعة ، وأبشاه
لهذه السياسة بنى عمرو مسجده في
الفسطاط ، فلما أثلثت العسكر في أول
العصر العباسي بنى فيها مسجدا جامع ،
وعندما أسس أحمد بن طولون مدينة القطائع
بنى فيها مسجده الجامع كذلك .

فهذه المساجد الجديدة كانت رمزا لظفر
المسلمين ، وكانت مركزا للدعوة الدينية ،
وفيها كانت تقام صلاة الجماعة ، وكان يحرم
الناس في الصلاة — في العصر الأول — ولا

يدى. في انشاء الجامع الأزهر في ٤٠
جمادى الأولى سنة ٣٥٨ هـ (أبريل ٩٧٠ م)
وتم بناؤه في عامين وثلاثة أشهر وافتتح
للصلاة أول مرة في يوم الجمعة السابع من
رمضان سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٣ م).

وسمى الجامع عند التسمية جامع القاهرة
— أي باسم العاصمة الجديدة — ، وظلت
هذه التسمية غالبية عليه طول العصر الفاطمي ،
ولم يُسمَّ بالجامع الأزهر إلا في تاريخ
متأخر ، ودليلنا على ذلك أن معظم مؤرخي
العصر الفاطمي - وفي مقدمتهم النجاشي
وابن بطويع - يذكرون هذا المسجد دائما
باسم جامع القاهرة ، وقبلنا بشيرون إليه
باسم الجامع الأزهر .

ويرى البعض أن هذا المسجد سُمي
بالجامع الأزهر بعد انشاء القصور الفاطمية
في عهد العزيز بالله ، فقد كانت هذه القصور
تسمى بالقصور الزاهرة ، ومن ثم أطلق على
الجامع اسم الصلح الأزهر ، ولكننا نرجح
أن هذه التسمية مشتقة من لفظ الزهراء ،
لحب السيدة فاطمة الزهراء ، ابنة الرسول
ودرج على بن أبي طالب ، واليهما تنسب
الدولة الجديدة ، وباسمها تسمى .

وكثرت الجامع الأزهر موضع عناية الخلفاء
الفاطميين جسيما ورعايتهم فكان كل خليفة
منهم يتولى الحكم يعمل على تجديده والزيادة
فيه وتزيينه حتى زالت الدولة ، وبدأت في
مصر دولة صلاح الدين ، وهي دولة متنية

قامت للقضاء على المذهب الشيعي ، فأهل
الجامع الأزهر ، لأنه كان لمركز الرئيس
نشر الدعوة الشيعية ، وأبطل الخطبة في
الجامع الأزهر قاضي القضاة في عهد
صلاح الدين ، واسمه صدر الدين عبد الملك
ابن درباس ، ففسد كان شافعي المذهب ،
والمذهب الشافعي ينتج إقامة خطبتين للجمعة
في بلد واحد .

أبطل هذا القاضي الخطبة من الجامع
الأزهر ، وأقرها بالجامع الحاكمي ، وظل
الأزهر محطلا من إقامة الجمعة فيه نحو مائة
عام حتى وفي عرش مصر الظاهر بيبرس ،
فأعيدت الخطبة إلى الجامع ، وعادت إليه
أهيبته ، وحتى به كثيرا في عصر المماليك
والممصور اللاحقة إلى وقتنا الحاضر .

كان للأزهر عند انشاءه الصفة الدينية
الرسومية — شأنه في ذلك شأن المساجد
الجامعة الأخرى — ولكن لم يلبث أن أخذت
صفة أخرى عامة هي الصفة العلمية،
وذلك منذ فكر الفاطميون في نشر مذهبهم
الجديد بواسطة دروس تلقى في حلقاته ، وقد
كانت المساجد الجامعة التي بنيت لحسبته
— وخاصة جامع عمرو — مراكز لنشر
العلم ، وفي حلقاتها كانت تلقى الدروس في
التقنة والتفسير والحديث واللغة والأدب
وسائر العلوم المختلفة ، نجر أن مسجدي
عمرو وابن طولون كانا قد اتخذوا لصا في
العصر الإسلامي الأول تحاليد علمية خاصة ،

فكان من الأوفق اخذ أن يكون المسجد الجامع الجديد هو المركز الجديد لنشر المذهب الجديد .

يقول الفرزى : « وفي صفر سنة خمس وستين وثلاثمائة جلس على بين النعمان الفاضل بجناح الصحابة المعروف بالجامع الأزهر ، وأملى مطبوع أمه في الفقه عن أهل البيت .. وكان جمعا عظيما ، وأثبت أسماء الطائفتين » ، وكانت هذه أول حلقة عقدت للتدريس في الجامع الأزهر ، لم تلبث حلقات بني النعمان بعد ذلك لتدريس المذهب الطبيعي .

وفي رمضان سنة ٣٦٩ (٩٨٠ م) جلس يعقوب بن كلس - وزير الخليفة العزيز بالله - وقرأ على الناس كتابا ألفه في الفقه الشيعي على مذهب الأسماوية ، وكان يجلس بعد ذلك لقراءته في الأزهر ، وبعضه دروسه الفقهاء والقضاة وكبار رجال الدولة .

ويعتبر الوزير ابن كلس أول من فكر في جعل الجامع الأزهر معهدا للدراسة المنتظمة ، ففي سنة ٣٦٨ هـ (٩٨٨ م) استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء (أي الطلاب) للدرس والفراسة في أوقات منتظمة مستمرة على أن تقدم حلقاتهم في الأزهر كل يوم جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، وكان عددهم خمسة وثلاثين فقيها ، ورثب لهم العزيز - تنفيذا لاقتراح ابن كلس - أرواقا

وجرايات شهرية ، وبني لهم دارا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر ، « وخلع عليهم يوم عيد العطر ، وحمام على بساتين .. » ، « وكان لهم أيضا من مال الوزير صفة في كل سنة .. » ١١٤ .

فمنذ هذا التاريخ اتخذ الأزهر صفة التلمية الجامعة ، ففتح له طلبة مترجمين للدراسة ، وولفت الدولة لهؤلاء الطلاب كل ما يعينهم على الدراسة والتحصيل حتى لا تشغلهم مطالب الحياة أو السعي وراء الرزق ، قربت لهم الأرواق والجرايات ، ولبت لهم المساكن ، وقدمت لهم الكسوة في كل عيية ، وبسرت لهم مسجلا للركوب والانتقال .

ونلت هذه الصفة التلمية الجامعة صفة للجامع الأزهر طول العصر الفاطمي ليزاد عدد طلابه وأساتذته ، وكثرت أرواقه وحلقات التلمية فيه ولبت الدراسة وازدهرت حتى بدأ يجتذب إليه الطلاب والطفاء من خارج مصر ، وتمثلت هذه الصفة التلمية وقتا ما في العصر الأيوبي ، وتلدتها لم تلبث أن عادت إليه مرة أخرى أقوى وأعظم مما كانت عليه ، وذلك منذ عهد الظاهر بيبرس ، وعززت عند الصفة بروزا واضعا في مصر الماليك وما تلاه من منصور ، وساعد على هذا أن تحوالت المول في المشرق ففت على

(١) الفرزى : المخطوط . ج ٤ ، ص ٤٩ ؛ والتميمي : صحيح الألف . ج ٣ ، ص ٤٦٧ .

معظم المدارس فيه ، وكان معاهد العلوم
والمساجد الإسلامية المزدهرة بالمغرب انتهى
أمرها أيضا حوالي هذا العصر الى الضعف
والانحلال ، وتوافد العلماء من الشرق ومن
الغرب الى مصر يجدون فيها الملجأ والملاذ ،
فأصبحت القاهرة في العصر المملوكي مركز
العالم الإسلامي وأصبح الأزهر قبلة طلاب

العلم من مختلف جهات هذا العالم الإسلامي.
وقد مرت بالأزهر محصور ازدهار وعصور
اضمحلال ، ولكنه قاوم الأعاصير التي
قابلته ، وحافظ على المكانة المرموقة التي
يتمتع بها في قلب كل مسلم في جميع أنحاء
الأرض ، فانه يمتد حتى اليوم أكبر معهد
للدراسات الإسلامية .

العصر الأنسلاطي الأول

عصر الفتوة والازدهار

ولها امتد النفوذ الفاطمي الخارجي حتى
وصل أوجه واقصاء ، فطُصمت لاسم الهين
والعجاز ومصر والمغرب وسفلية الشام ،
وعُطبت لهم في الموصل وبغداد ولتاما .
وغير ما يزيد هذه التسمات التي اتسمت
بها الخلافة الفاطمية في السطر الأول من
حكمتها إذ تستعرض جهود الخلفاء الذين
تولوا الحكم في هذه الفترة :
كان أول الخلفاء الفاطميين في مصر هو
المعز لدين الله ، وقد حكمها ثلاث سنين
(٣٦٣ — ٣٦٥ هـ) مركز جهوده في خلالها
لتنظيم مركز حكمه الجسدي ، فحسب أول
ما عنى بشؤون مصر المالية ، لأن مصر كانت
وشبكة الخروج من المعاجة الضخمة التي
أصابها قبيل الفتح الفاطمي وابانته ، فضع
المز اتداء بزيادة النيل — كما كانت العادة
قديما — وأمر الايكتب بذلك الا اليه وإلى
قائده جوهر ، حتى اذا تم الفيضان ووصل

حكمت العولة الفاطمية مصر مدة ثيناب
على التقري (٣٥٨ — ٥٦٧ = ٩٦٩ —
٩٦٦ م) غير أنا نستطيع أن قسم هذه السنة
لحين على وجه التقريب ، كانت الخلافة
الفاطمية تنقسم في كل منهما بسمات وصفات
خاصة ، ففي القسم الأول ومداه قرابة قرن
من الزمن وينتهي في النصفه الأول من حكم
العليفة المستمر تقريبا (حوالي سنة ٥٦٧ هـ)
بذلت الخلافة الفاطمية جهودها لتنظيم شؤون
مصر الداخلية ، فنشرت الأمن في ربوعها ،
ووضعت النظم الاعارية الدقيقة ، وعنت
بالجيش والأسطول ، ونشت الزراعة ،
ولضمت بالتجارة الداخلية والخارجية ،
وشجعت الأداب والعلوم والفنون .
وفي هذه الفترة أيضا امتياز خلاصاء
الفاطميين بقوة الشخصية فكانت السلطة كلها
في أيديهم ، ولهم على الشعب ورجال الدولة
النفوذ الأول ، وللوزراء المكانة الثانية .

الى اقصاء اعلى ذلك للناس ، واشترك في الاحتفاء بوفاء النيل ، ثم عهد بإدارة شؤون مصر المالية جميعا الى رجلين من قِدم رجال ذلك العصر وهما يعقوب بن كلس وعملوج ابن الحسن ، فقاما بما عهد به اليهما خير قيام حتى زادت إيرادات الدولة ١١١ وقت وجيز زيادة كبيرة ملحوظة .

وتأكيدا لاستقلال مصر الاقتصادية عن الدولة العباسية أمر الخليفة فصرحت سكك مصرية جديدة باسمه ، وفضل الدينار المنوي في المعاملات الحكومية على الدينار العباسي ، فقلت قيمة هذا الأخير وتزد من السوق شيئا فشيئا .

وفي عهده اشتد خطر الترامنة وهدوا مصر برا وبحرا ، ووصل أسطولهم الى مدينة نيس ، فقاتلهم قتلها ، وأخذت عدة من سجنهم ، وأسر عدد كبير من جنودهم .

وأفرك الخليفة ما قد تعرض له مصر من خطر الهجوم عليها من ناحية البصر ، فعنى بالأسطول عناية كبيرة ، وبنى دارا جديدة لصناعة السفن في القس — بينا القاهرة — وأتى بهذه الدار في عهده الفصح ستمائة سفينة حربية ، ولم يثر مثلها فيما تقدمه كبرا ووفائة ومدينا ١١١ .

وولي الخلافة بعد الخليفة ابنه العزيز بالله ، وكان رجلا سمحا كريما شجاعا ، ولئن كان

عصر الخليفة قد امتاز بالتنظيم الداخلي للدولة الجديدة ، فإن عصر العزيز قد امتاز بالتوسع الخارجي ، وامتدت الدولة المصرية ١١١١ من المحيط الأطلسي غربا الى الخليج الفارسي شرقا ، ومن أقصى اتسام شمالا الى بلاد النوبة واليمن جنوبا ، وقتحت له حصن وحسبابة وشيزر ، وخطب له القسطنطينية المتكثرتين — صاحب الموصل — بالموصل وأصلها في الحرم سنة ٣٨٤ ، وشرّب اسمه على السكك والبشره ، وخطب له باليمن ، ولما باه أمير طور الدولة البيزنطية قطيب وده ، وأرسل اليه رسلا يحملون الهدايا ، ويطلبون الصلح والهدنة ، فأجابهم العزيز والشروط شروطا شديدة التزموا بها كلها ، منها : أنهم يعطون أنه لا يبقى في مملكتهم مسير الا أطلقوه ، وأن يخطب للعزيز في جميع القسطنطينية كل جمعة ، وأن يحصل اليه من أتمة الروم كل ما أقرهه عليهم ، ثم دأبهم بعقد الهدنة سبع سنين ١١١١ .

وهكذا بلغت مصر الذروة في عهد العزيز فأصبحت إمبراطورية واسعة تضم — كما أسلفنا — المغرب ومصر والس والجزيرة العربية والعمام وجزيرة سقلية ، وبهذا خالفت الخلافة العباسية قوة وعمودا واتسع ملكها ، وأصبحت الدولة الإسلامية الكبرى في الشرق ، وبدأت تهتد ما بقي في أيدي

(١) ابن تقي بري : النجوم الزاهرة ،

ج ١٤ ص ١٥٦ - ١٥٤ .

(٢) القريزي : الخطط ، ج ١٤ ص ٣٦٧

(٣) عن المسج ،

العباسيين من ملك ، وفي الوقت نفسه كان العزيز يرعى بصبره نحو الخلافة الثالثة ، وهي الخلافة الأموية الستية في الأندلس ، يريد أن يربطها من الوجود لتصبح في العالم الاسلامي خلافة واحدة هي الخلافة الفاطمية . لهذا أرسل العزيز الى خليفة الأندلس بوجهه ويشهده ، ليسر آل الأندلس كانت في ذلك الوقت في عنفوان قوتها ، فأرسل صاحبها ردا على خطاب العزيز — الجملة المشهورة التي يعرف من فيها بنسب الفاطميين والتي يقول فيها : « أما بعد ، فقد عرفنا فجوتنا ، ولر حرفناك لأجناك » .

وقد رأى العزيز أنه الجيش القوي هو السياج الطبيعي لحماية هذه المولة الكبيرة المترامية الأطراف ، فصرف همه للمعونة بالجيش ، وهو أول من استعان من الفاطميين بالتمصرين التركي والسوداني فأصبح في جيش مصر فرق من هذين العنصرين بعد أن كان امتداد الفاطميين على المضاربة الذين ساعدوهم في فتح مصر واقامة ملكهم بها ، وقد كانت هذه العناصر مصدر قوة في أول الأمر لما امتاز به الترك والسودان من الشجاعة والامداد ، فحسب أنها لم تثبت أنه أصبحت سببا من أهم أسباب ضعف الدولة واختلالها عندما صب النزاع وقامت أسباب المنافسة والنضال بينها .

ولم تكن عناية العزيز بالأسطول أقل من عنايته بالجيش ، حتى لقد أصبحت مصر في

عهد أكبر دولة اسلامية في الشرق الأوسط . وقد عرف العزيز بالتسامح مع أهل الذمة فقد نعموا في عهده بالحرية التامة في أداء شعائر دينهم وتزيم كنائسهم ، وبناء كنائس جديدة ، ولا غرو فقد كانت زوجته — أم ولده الحاكم — مسيحية رومبة ، وقد عين العزيز أخسويما بطريرك كنيسة ملكانيين في الاسكندرية وأورشليم ، وكان من جزرائه : يعقوب بن كلس اليهودي ، وعيسى بن اسطورس المسيحي .

وفي عهد العزيز نمت لروة البلاد وزادت ثروتها فعاش الناس في راحة وعاش الخليفة حياة كلها بدخ وترف ، وبنى لنفسه قصرا جديدا — عرف بالقصر الغربي — مقابل القصر الشرقي الكبير الذي بناه جوهر السعدي ، وكان يفصل بين القصرين ميسدانه متسع يستخدم لعرض الجند ، كما بدأ بناء جامع الكبير الذي اتمه ابنه الحاكم فيما بعد ، وعرفه باسم الجامع العائلي .

وكان من حسن حظ مصر أن طالت مدة حكم العزيز ، فقد حكمها واحدا وعشرين عاما ، وتوفى سنة ٣٨٦ هـ ، فخلفه ابنه الحاكم بأمر الله ، وهو بعد طفل لا يجاوز العادة عشرة من عمره .

والحاكم شخصية جديبة هي في الحقيقة جماع المتناقضات مما يدل على أنه كان ملئنا العقل غير مترن التفكير ، فقد امتاز عهده بالقسوة والتمف وكثرة سفك الدماء .

وأوضح ما يميز الحاكم النافض والزدواج الشخصية ، فهو حيناً دكتور في كل حيناً آخر متر هايد : وهو تارة شجاع متسامح محب للمعلم والمعلماء وهو تارة أخرى جبان متردد منتقم من الملمساء قاتل لهم ؛ وكان الغالب عليه السخط ، غير أنه ربما يخل بما لم يخل به أحد قط ، وأقام يلبس الصوف سبع سنين وامتنع من دخول الحمام ، وأقام سنين يجلس في الجبع ليلاً ونهاراً ، ثم عن له أن يجلس في القلعة فجلس فيها مدة ، وكتب على المساجد والجوامع : « أي بكر مصر وعثمان وعائلة وملحة والوزير وسواوية وعسرو بن العاص في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، ثم محاً ما كتب في سنة سبع وتسعين وأمر بقتل الكلاب ، ثم نسي عنه يولي عن الاشتغال بالنجوم وكان ينظر فيها ، ومنع من صلاة التراويح عشرين ثم أباحها ، ومنع من بيع الحب ، وقطع الكروم ، وأرلق خمسة آلاف جرة سئل في البحر طولاً من أن تعمل لبيدا ، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلاً ونهاراً ، وجعل لأهل الذمة علامات يرمون بها ، وهشم الكنائس في بلاد - ومن بينها كنييسة القيامة - ثم أمر بإحادة بنائها ^(١) . . وهكذا .

وقد قتل الحاكم عددا من وزرائه ،

(١) ليل يوم الزاحمة . ج ٢٩ ص ١٧٦ - ١٧٨ نقل عن سبط بن الجوزي من مرآة الزمان .

واتهم به الأسر إلى أن ادعى الألوهية وتكونت طائفة جديدة تنادي بآلهيته هي طائفة الدرزي ، (نسبة إلى الدرزي أول دعواتها) .

ورغم هذا التناقض المريب في تصرفاته كان الحاكم شخصية قوية جبارة ، يخافها ويخشي بأسها الجميع ، وكان للخلافة الفاطمية في عهده الشأن الكبير والمقام العظيم ، ولم يكن لأحد من وزرائه ورجال جيشه وهولته نفوذ إلى جانب هؤلاء .

ومع هذا فقد كان لطمية الحاكم المضطربة ولسياسته الخرقاء أثر جسد خطير في الدولة واستقبلها ، ففي عهده بدرت برادر كثيرة مهضت لضعف الدولة واضلالها . بدأت هذه البرادر بأجراء الضالنتين السيتين المعاصرتين عملى مهاجمة الدولة الفاطمية ومحاولة القضاء عليها ، وقد حالت شخصيتا المعز والمعزى الميزان من قبل دون هذا الاجراء وهذا الهجوم .

أما الخلافة السباسة فلم يكن لديها من القوة المادية ما يمكنها من تدبير هجوم ايمايى ، ولهذا فقد اتخذت هجوماً شكلا سلبياً ، فصيح الطفيلة القادر عددا من علماء بغداد وقضاها وكثروا محضرا طغسوا فيه في النسب الفاطمى والمخلوا فيه أن الحاكم وسلفه « أديعاً خولج ، لا نسب لهم في ولد على بن أبي طالب ، وانما هم « كفسار فساق زنادقة ، ملحدون مطلرون ، وللإسلام

جامعون ، ولذهب التنوية والمجوسية
معتقدون .

كتب هذا المحضر في سنة ٤٠٢ هـ ووقع
عليه المحضرون من العلماء والقضاة وأرسلت
منه نسخ إلى مختلف أنحاء العالم الاسلامي ،
فكان له صدق قوي .

وأما الخلافة الأموية في الأندلس فقد
اتخذ هجومها شكلا آخر أكثر ايجابية
وخطرا ، فقد خرج في الصحراء الغربية خارج
اسم أبو ركة - وادعى أنه ينسب إلى نبي
أمية ، وجمع هذا الرجل جيشا كبيرا ، وهاجم
حدود مصر الغربية والضم إليه بنو قره -
من عرب البعيرة - وكافرا لاثمين على
الحاكم لكثرة ما وقع بهم وغنم من أموالهم ،
واشد خطر أبو ركة فأرسل إليه الحاكم
جيشا لقتالته ، فهزم الجيش ، فأرسل إليه
جيشا آخر فكتب له النصر وتبع أبو ركة
في الصيد ، واتهم الأمر بالقبض عليه في
بلاد النوبة وإرساله إلى القاهرة وقتله .

لقد اكتفت الخلافة العباسية بأضعف
الإيمان ، فأصدرت هذا المحضر وأرسلته إلى
أطراف العالم الاسلامي ، واتصت ثورة
أبي ركة التي كانت تؤيدها الخلافة الأموية
الأندلسية بالتمسك ، ولكن هاتين الحركتين
أثرتا دون شك في الدولة الفاطمية ، فأضاعتنا
ما كان لهما من هبة قديمة ، وبدأ الكل
يجترعون علبسا ، وتطور الأمر إلى أن قام
النزاع في الداخل بين العناصر المختلفة المكونة

للجيش الفاطمي من مغاربة وآثراك وسودان ،
واشد النزاع بين كل فريق والآخر ، ولم تعد
الفترة إلا بعد أن قتل عدد كبير من قادة
الجيش .

ومن الأمور التي بدأت تزعزع كيان
الدولة الفاطمية ما أقدم عليه الحاكم نفسه من
محاولة تنبيه أصل هام من أصول المذهب
الاسماعيلي ، وذلك أن نظام الوراثة عند
الشيعة الاسماعيلية يقضي أن تكون الإمامة
في نسل علي بن أبي طالب دون غيرهم ، وأن
تنتقل دائما من الأب ، لأنهم كانوا يعتقدون
أن للإمامة صفات وعلوما خاصة تنتقل
بالوراثة كما تنتقل الصفات الغالبة تماما ،
ولقد التزم الفاطميون منذ إقامة دولتهم هذا
النظام ، فكان كل خليفة ابنا للخليفة السابق ،
ولكن الحاكم حاول مطاقه هذا المبدأ فأوصى
بولاية المهدي لابن عمه عبد الرحيم بن السباس
وأصدر أوامره بأن يضرب اسمه إلى جانب
اسم الخليفة على السكة ، وأن ينقش على
البنود والطرز ، كما أمر أن ينوب ابن عمه
وولي عهده عنه في الخطبة والصلاة والتبصر
والنظر في المطامير ، وأن يسيره في الثرائب .
وكادت هذه المحاولة أن تؤدي إلى
القسام خطير بين الشيعة الاسماعيلية لأن في
تنفيذها هذا لركز قوي من أركان المذهب ،
لولا أن الحاكم قتل ، وقضت ست الملك أخت
الحاكم على هذه المحاولة ، فأرسلت إلى
عبد الرحيم من قبض عليه وقتله وأجلست
الظاهر بن الحاكم على عرش الخلافة .

مدة حكمها خليفة مسلم ، وقد بلغت الخلافة القاضية في القسم الأول من حكمه أوجها في العظيمة داخليا وخارجيا ، وزار مصر في هذا التصرف الأول الرحالة الفارسي ناصر خسرو ووصفها ووصف نطمها ومدنها وغناها وثورتها وحضارتها ووصف المعجب بما رأى وشاهد .

وبدأت مصر في هذا التصرف الأول ترفو بأبصارها لآلية نصر العراق وبغداد مقر الخلافة العباسية المتهاوية ، وأسس الخليفة العباسي برامر العطر فأصدر في سنة ٤٤٤ هـ محضرا لآليا شيئا بالمحضر الأول الذي صدر في عهد الحاكم للطن في لسب الخلفاء القاطنين ، ووقع عليه كبار العلماء والتضادة في بغداد وأرسلت منه نسخ إلى كسرى المصالح الاسلامي .

ولكن وه المستنصر كان فورا وإيجابيا ، ففي سنة ٤٤٨ هـ خرج على الخليفة العباسي أحد قواده وهو أبو الطارث الباسيري ، واتى للخليفة المستنصر فأرسل اليه الأموال والسلاح ، وتقدم الباسيري لى سنة ٤٥٠ هـ فدخل بغداد فحر منها الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وأرسل الباسيري ثياب هذا الخليفة الفار وعصامته الى التماهرة ، وعلقب للمستنصر على منابر بغداد نحو عشرة شعور ، وحذت مدن العراق الأخرى حذو بغداد ، فخطب للمستنصر في هذه السنة على منابر البصرة وواسط وأعمالها .

يتضح من هذا كله أنه هسلخه العوام الأربع : المحضر العباسي بالطن في النسب القاطن ، وثورة آبن ركوة ، والنزاع بين عناصر الجيش القاطن ، ومحاربة الحاكم الخارج من أصول المذهب الاسماعيلي ، كان لها أثر قوي في عز كيسان الدولة القاطنية فبدات عوامل الضعفة تعمل في بنائها .

وولي الظاهر في سنة ٤١٦ هـ عرش الخلافة بعد أبيه ، وكان عند ذلك صبيا مراغلا لى السادسة عشرة من عمره تحت وصاية عمته ست الخلك ، فترك أمور الحكم بين يديها وبين أيدي رجال الدولة من وزراء وقادة وللمائة ، وأبرز ما يميز عهد أه أبايح كل ما كان قد حره أبوه ، بل أه قد لخالى فأقبل هو نفسه على شرب الخمر ، ورخص للناس بشربها فأقبلوا على حياة النهور .

وسا بعده له أه غسل على نصين العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن كانت قد بلغت من السوء مبلغا كبيرا في عهد أبيه ، فجدد الصلحة مع صاحب الروم في سنة ٤١٨ هـ بشروط كان أهمها أن يتنسخ جاسبع القسطنطينية وأن يعين فيه مؤذن وينطبق فيه للظاهر ، وأن يبني الظاهر ببناء كنيسة القمامة بمدينة القدس .

وفي سنة ٤٣٧ هـ ولي الخلافة المستنصر بن الظاهر ، وعمره ٧ سنوات ، وقد طالت مدة خلافته حتى بلغت ستين عاما ، وهي أطول

حتى تعطلت الأراضي من الزراعة ، وشمل
الضوء ، وخيفت السبل برا وبحرا ، وتعذر
السير الى الاماكن بالفتارة الكثيرة وركوب
الغمر ، واستولى الجوع لئدم القوات حتى
أبيع وغيب عجز في النداء بزقاق القناديل من
القطاط كيج الطرف بطمسة عشر دينارا ،
وأيسح الأردب من الفصح بشاتين دينارا ،
وأكلت الكلاب والقطاط حتى قلت الكلاب ،
لبيع كلب ليؤكل بطمسة دنانير ، وتزايد
العمال حتى أكل الناس بنظمهم بعضا .. ثم
آل الأمر الى أن باع المستنصر كل ما في قصره
من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره ، وسار
يجلس على حسيب ، ولعلقت دواوينه ،
وذهب وقاره ، وكانت نساء القصور تخرجن
لأشترات لشحورهن نصن : « الجوع ا
الجوع ا » تردهن المسير الى العراق ، تستقطن
عند المصلي ، وتشتي جوعا .. الخ .. الخ^{١١١} .

وكان من نتيجة الغلاء الذي صاحب
هذه المجاعة أن منمت مصر ما كانت ترسله
الى العجاز من خلال ومؤل ، فخطب الخطبة
للمستنصر في مكة والمدينة ، وخطب للمخليفة
المباني في سنة ٤٩٣ هـ : وان كانت قد
أعيشت للمستنصر في سنة ٤٩٩ .

وهكذا توالي انقصال أجزاء الدولة ،
فانفصل شمال أفريقيا كله وخطب للعباسيين ،

(٦٦) المقريري : اعانسة الأمة ، نشر زيادة
والنبيال ، ص ٣٤ - ٣٥ .

وهكذا بلغت الخلافة الفاطمية المصرية في
النصف الأول من حكم المستنصر أوج عظمتها
وأقصى اتساعها فامتدت من المحيط الأطلسي
الى العراق ، ولكن بمراحل انضغته الكامنة
لم تلبث أن بدأت تنخر في كيان الدولة في
النصف الثاني من حكم هذا الخليفة ، فقتل
قتل بك السلجوقي بسواد ، وقتل
الباسيري ، وأمساد الخليفة العباسي الى
مرته ، فاشطت الخطبة للمستنصر وعادت
للقائم .

وقيل هذا بليل لسب نزاع بين اليازوري
— وزير المستنصر — والمزين باديس عامل
الفاطميين على المغرب ، وآل الأمر الى أن قطع
ابن باديس الخطبة للفاطميين بالمغرب والامها
للعباسيين .

وفي سنة ٥٠٧ هـ أصيبت مصر بالمجاعة
الخطية التي قلت سبع سنوات (٥٠٧ —
٤٩٤) فكانت الطامة الكبرى ، وتدهورت
أحوال مصر الاقتصادية تدهورا خطيرا ،
والقريبي بسى هذه المجاعة ، بالنسبة
المغلي ، ويرجع أسبابها الى ضعف
السلطنة ، واختلال أحوال الملكة ، واستيلاء
الأمرء على الدولة ، وانقصال الفتر بين
المرابن ، وقصور النيل ، وعدم من زرع
ما شمله الري .

وكان من نتائجها — في رايه — أن :
« زرع السمر ، وتزايد الغلاء ، وأغيب الوباء

ثم قطعت الخليفة من بغداد والعراق بعد أن أتيت للفلسطين عشرة أشهر ، ثم انقطعت الخليفة لهم في الحجاز لمدة سبع سنوات ، وأخيراً في سنة ٤٣٣ دخل النورمان صقلية واستولوا عليها ، فخرجت بذلك عن حكم الفاطميين بعد أن ظلت جزءاً من أملاكهم منذ قامت دولتهم في سنة ٣٩٧ هـ .

وفي سنة ٤٦٦ هـ غلبت الحسامية واضطربت أمور مصر اضطراباً شديداً وانحلت أحوالها ، وعجز المستنصر عن أن يصنع شيئاً لملاجئها ، فاستدعى واليه علي عكا بدر الجمالي ، فلبى الدعوة وتولى بعد سجنه أمور مصر كلها ، وتلاشت — منذ ذلك الحين سلطة الخليفة ، وبدأ عهد سيطرة الوزراء .

وقد جرى المؤرخون الإسلاميون على تقسيم الوزارة إلى نوعين : وزارة تنفيذية ، وفيها تكون السلطة كل السلطة بيد الخليفة وإنما يقوم الوزير بتنفيذ أوامره ؛ ووزارة تفويض وفيها يكون الخليفة مطلوباً على أمره ، والأمور كلها ماثورة للوزير .

وطبقاً لهذا التقسيم النظري نستطيع أن نقول أن وزراء العصر الفاطمي الأول كانوا يسموا وزراء تنفيذية ، أما وزراء العصر العائلي الثاني فكانوا جميعاً وزراء تفويض ، وكان أولهم أمير الجيوش بدر الجمالي .

وقد أتى بدر سجل خاص بتفويض أمور الحكم إليه ، جاء فيه :

« وقد قلقتك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، ونماط بك النظر في كل ما وراء سريره ، فباشر ما قلناك أمير المؤمنين من ذلك مديراً للبلاد ، ومصالحاً للبلاد ، ومعتزراً للأهل البلاد . . . »

وأصبحت الأسر كلها مرفوعة إليه ، والاتصال بين الخليفة وبينه اتصالاً مباشراً ، وجعل له تعيين قاضي القضاة وداعي الدعوات — وكان تعيينهما من اختصاص الخليفة دون غيره — ، ولهذا لقب بكامل لفظة المستنير ، وهادئ دعاة المؤمنين .

وقد كان وزراء العصر الأول جميعاً من أرباب القلم ، أي من رجال الفكر والفن ، أما بدر فقد كان من أرباب السيف — أي من رجال الحرب — ولهذا لقب أيضاً بالسيد الأجل ، أمير الجيوش ، وهو اللقب الذي توارثه من بعده وزراء التفويض في العصر العائلي الثاني ، فقد كانوا جميعاً من أرباب السيف .

ولم يحدث أن وثى الوزارة ابن بدر أبيه في العصر الأول ، وإنما حدث هذا في العصر الثاني ، فولي الوزارة بعد بدر الجمالي ابنه شاهنشاه ، فمور للمستنصر ثم للمستعلي ثم لناصر ، وولد زيد في آتاه « الأفضل » وبه اشتهر حتى أصبح يعرف بالأفضل شاهنشاه ، وقد أضيف هذا اللقب أيضاً للوزراء من بعده .

ومنذ عهد الخليفة الحافظ لقب الوزير

ولقب « التليك » ، وأول من لقب به رشوان ابن وقتشى وزير الخاقان لدين الله ، فقبل له : « السيد الإجل الملك الأفضل » ، ولقب به كذلك من أمى بعده من الوزراء ، فقبل للصالح طلائع بن زريك « الملك المنصور » ، ولقب ابنه زريك بن ملائح « بالملك العادل » ، ولقب شاور « بالملك المنصور » ، ولقب صلاح الدين — وهو أخو زوزاء العولة من أبواب السجود — « بالملك الناصر » .

ولغير ما تدل عليه هذه الألقاب أن الوزير في العصر الفاطمي الثاني أصبح هوكل فيء له العولة ، فقد أصبح « السيد الإجل » ، ثم « أمير الجيوش » ثم « الأفضل » ثم « الملك » ، يقول القرظي : « وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلى آخر الدولة هو سلطان مصر ، وصاحب العدل والمقد ، وإليه الحكم في الكفاة من الأمراء والأجناد والقضاء والكتاب ومسائر الرعية ، وهو الذي يولى أبواب المناصب الديوانية والدينية .. » (١) .

ولهذا عرف العصر الفاطمي الثاني عند المؤرخين بمصر الوزراء العظام ، وتأسيسه لسلاطنتهم بنيت لهم دار خاصة في القاهرة بالقرب من القصر الخليفي يشار إليها الوزير شؤون الحكم ، وعرفت باسم « دار الوزارة الكبرى » .

وهكذا تعددت العناصر المكونة للجيش الفاطمي ، فأصبح يتكون من الممارة والعرب والأحرار والسودان والأرمن وغيرهم من الأجناس وبدأت أسباب النزاع بين كل عنصر وعنصر ، وكثيراً ما أدى هذا النزاع إلى خراب البلاد ونهب أموال الأهليين ، وكانت أسوأ نتائجها ضعف الجيش الفاطمي وبالتالي ضعف الدولة نفسها .

ولم تكن هذه وحدها هي الأسباب التي

ولها عرف العصر الفاطمي الثاني عند المؤرخين بمصر الوزراء العظام ، وتأسيسه لسلاطنتهم بنيت لهم دار خاصة في القاهرة بالقرب من القصر الخليفي يشار إليها الوزير شؤون الحكم ، وعرفت باسم « دار الوزارة الكبرى » .

ولغير ما تدل عليه هذه الألقاب أن الوزير في العصر الفاطمي الثاني أصبح هوكل فيء له العولة ، فقد أصبح « السيد الإجل » ، ثم « أمير الجيوش » ثم « الأفضل » ثم « الملك » ، يقول القرظي : « وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلى آخر الدولة هو سلطان مصر ، وصاحب العدل والمقد ، وإليه الحكم في الكفاة من الأمراء والأجناد والقضاء والكتاب ومسائر الرعية ، وهو الذي يولى أبواب المناصب الديوانية والدينية .. » (١) .

ولهذا عرف العصر الفاطمي الثاني عند المؤرخين بمصر الوزراء العظام ، وتأسيسه لسلاطنتهم بنيت لهم دار خاصة في القاهرة بالقرب من القصر الخليفي يشار إليها الوزير شؤون الحكم ، وعرفت باسم « دار الوزارة الكبرى » .

(١) القرظي : المخطوط - ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

أدت إلى ضعفه الدولة وانحلالها ثم زوالها ،
 وأنا كانت تصاف إليها كما استخدم الزمن بالدولة
 عوامل جديدة ، منها أن معظم خلفاء العصر
 الثاني تولوا الخلافة وهم بعد أطفال صغار
 مما راد في شوكة الوزراء واستقلالهم بأمور
 الحكم ، فقد ولي الخليفة الأمر وعمره خمس
 سنوات ، وولي العائز في نفس العصر توفي
 في العادية عشرة من عمره ، وولي العاطفة
 كذلك وعنده أحد عشر عاماً .

وقد ولي هؤلاء الخلفاء في هذه السن
 المبكرة لأن نظام الورثة عند الشيعة
 الاسماعيلية كان يفضى — كما ذكرنا — أن
 تكون الامامة - أي الخلافة — في نسل علي
 ابن أبي طالب دون غيرهم ، وأن تنتقل دائماً
 من الأب إلى الابن ^(١) ، فهم في هذا يختلفون
 عن أتباعهم الخلفاء السنيين من الأمويين
 والعباسيين ، الذين كانوا يبيحون أن تنتقل
 الخلافة أحسباً إلى الأخ أو إلى ابن العم
 أو إلى أكبر أفراد الأسرة منا ، لأنهم كانوا
 يشترطون فيمن يتولى الخلافة شروطاً أخرى
 كثيرة من أهمها أن يكون بالغاً عاقلاً سليم
 الحواس ، وقد كان لنظام الورثة عند
 الفاطميين فوائد كثيرة أهمها أنه كان عاملاً
 من عوامل الاستقرار ، وأنه جنب الأسرة
 والدولة — التي حد كبير — عوامل الفاسدة
 والنزاع والتخاصم في سبيل العرش .

وقد التزم الفاطميون منذ إقامة دولتهم
 هذا النظام الوراثي بجميع شروطه فيما عدا
 ثلاث حالات :

— في الحالة الأولى حاول الخليفة
 الحاكم بأمر الله أن يحرم ابنه ، فبعد بولاية
 العهد لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس ، وقد
 آثرنا إلى هذه المحاولة وأثرها فيما سلفه ،

(١) الفتيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ،
 القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٠ -

وقد لعبوا دورا خطيرا في التاريخ الاسلامي
في القرنين العاشر والسادس .
— والاسماعيلية للمتعلقة بأبناخ الخلافة
الفاطمية في مصر .

وقد غاصب النزارية الصيوانم في مصر
العداء ، ولم يلق الخلفاء الفاطميون — منذ
عهد المستنلى — اعطاء أحد قسوة من
النزارية ، بحيث تستطيع أن تحول في تاريخ
الحركة الاسماعيلية بوجه عام ، وتاريخ
الدولة الفاطمية في مصر بوجه خاص كان من
الممكن أن يتخذ لسكلا آخر غير الذي عرفناه
لولا الاسماعيلية النزارية (المعيشية)
المتعدوا مع الفاطميين في مصر بدلا من
انتهازهم كل فرصة ممكنة للمكيدة لهم
والاضرار بهم .

والعقيدة أن ابعاد زرار وعمولية المتعطل
يعتبر انقلابا سياسيا (Coup d'état)
واضح المسالم ، قام به الوزير الأفضل
شاهنشاه معافظة على السلطان القوى الذي
كان يتطلع به منفردا منذ أواخر عهد
المستنصر ، فقد كان زرار — عند موت أبيه
المستنصر — رجلا مكتمل الرجولة ، ولم
تكن العلاقات بينه وبين الأفضل — أثناء
حياة المستنصر — علاقات طيبة ، بل تعدت
كالت على العكس علاقات يشوبها الكره
المتبادل .

والاقتسام المذهب الثاني حدث بعد
وفاة الخليفة الأمر ، فقد حولت أصول

ورأينا أنها لم يكتب لها النجاح ، فقد مثل
الحاكم قتلة تحولها الرب والتسكوك ،
وسمت أخته « ست الملك » حتى أقامت
« الظاهر » ابن الحاكم على عرش الخلافة .
— والحالتان الثانية والثالثة حولت فيهما
هذا المبدأ فضلا ، وتولى الخلافة ابن العم
لا الابن ، فبعد وفاة الخليفة الأمر بأحكام
الله ولي الخلافة ابن عمه المحافظ لدين الله
وبعد وفاة الخليفة الفارز ولي الخلافة ابن
عمه المعاضد لدين الله ، وهو آخر خلفاء
العوية .

وفي كل مرة حولت فيها نظام الوراثة
— كما نص عليه المنهج — حدث اقتسام
مذهبي سياسي ، وهذه الاقتسامات المذهبية
السياسية — وقد حدثت كلها في العصر
الفاطمي الثاني — عزت الدولة عزات خيفة ،
وكانت من أهم العوامل التي أدت الى ضعف
الدولة وانحلالها .

فبعد وفاة المستنصر حدث خلاف في
تعديد النص ، فقال زرار — الابن الأكبر ،
بأن النص والوصية له ، وقال الوزير القائم
بالحكم الأفضل شاهنشاه بأن النص والوصية
للابن الأصغر أبي القاسم أحمد — الفدى
ولي الخلافة باسم المتعطل — ؛ واتى
النزاع بعزيمة زرار وتولية المتعطل ، وانقسم
الاسماعيلية منذ ذلك الحين الى فرقتين .

— الاسماعيلية النزارية التي نجح دعواتها
في إقامة ملك لهم في قلعة الموت ثم في الشام

المذهب ، وولى الخلافة الحافظ ابن عم الأمر ،
في حين أنه كان قد ولد للأمر قبيل وفاته ابن
اسمه « الطيب » وأخذت له اليعبة بولاية
العهد ، ولهذا اتسمت الاسماعيلية مرة ثالثة
الى :

- اسماعيلية الحافظية .

- اسماعيلية طيبة .

وقد مرت الدولة الفاطمية عند مقتل
الخليفة الأمر بأزمة عنيقة كادت تؤدي بها
ولضح جدا لعباها ، وذلك أن بعض جواسيس
الزيرية تسللوا الى القاهرة ورمصوا للأمر
وقتلوه في ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠م) ،
وتذكر المراجع المطبوعة المتداولة - ومنها
مراجع سنية - أن الأمر لم يكن عند قتله قد
أعقب ، وإنما ركب من بعده إحدى زوجاته
حاملًا ، فتمنن الحافظ ابن عم الأمر حاكما
مرفها ، على أن يكون وليا للعهد وكتيلا للطفل
الذى يولد أن أبى ذكرًا ، ولكن الزوجسية
أنجبت بنتا فاستقر الحافظ عليها

كان هذا هو الرأي الذى تعرضه المراجع
السنية المتداولة الى عهد قريب ، ولا تذكر
رأيا غيره ، ثم بدأت تظهر في عالم المطبوعات
مراجع تاريخية سنية تشير الى رأى آخر ،
وأول هذه المراجع لتاريخ مصر لابن ميسرة ،
وقد أورد المؤلف فيه نصا يشهد الى أن الأمر
كان قد ولد له قبل موته بشهور وله أسماء
أبوه « الطيب » واحتل بمولده احتمالا
علنيا رائعا ، وأعطته وليا للعهد ، وأرسلت

السجلات بتولية الطيب ولاية العهد الى
اليمين ، وأعلنت هناك ، ولهذا سيظل اسماعيلية
اليمين - في معظمهم - بعد ذلك طيبة ، ثم
يكونون لهم جالية أخرى في الهند تتبع نفس
المذهب والفرقة .

ولكن بعض المؤرخين لا يزالون مع هذا
- وحتى اليوم - يشككون في هذه القصة
وفي وجود الطيب ، لأنه منذ مات الأمر لم
يظهر الى الوجود ، بل أظنت القصة الجديدة
قصة وجود زوجة من زوجات الأمر حاملًا ،
ولصق كفاة الحافظ للسولود المنتظر .

ثم ظهرت للنور بعد ذلك بعض المؤلفات
السنية والقميية تعمل خصوصا جديدة عن
الطيب ، وكلها تثبت وجوده وأنه ولد في
ربيع الأول سنة ٥٢٤ هـ ، وأنه أمّن بعد مولده
وليا للعهد ، وزينت القاهرة ومصر زينة حافلة
بعده المناسبة ، وورد في كتاب « البستان
الجامع » الذى نشره الأستاذ كلود كاهن نص
يبيد أن الحافظ دس لهذا الطفل - بعد مقتل
أبيه - أحد أتباعه « فأخذته عنده ، ولم يظهر
له خبر الى الآن سموت أو بنهيه » (١) .

وهذه النصوص تثبت أيضا أن الطيبة
- أتباع الطيب - انتصروا بعد ذلك في
اليمين والتمام دول مصر .

اختفى الطيب لأذن من اليريدان - بعد
مقتل والده - وانتقلت السلطة القطبية الى

(١) الثيبال : مجموعة الوثائق الفاطمية .

ص ٧٩ - ٨٥ .

الذين من رجال الجيش هما : هزارة الملوك
وبشرغش ، واختار هذان القائدان عبد المجيد
— ابن عم الأمر — ليلى السلطة من الناحية
الشكلية فقط ، وليكون كفيلا للمولود المرتقب
ان أتى ذكرا .

واختار عبد المجيد (العاهل) هزارة الملوك
ليكون وزيراً له ، ولكن هذا الوضع الجديد
لم يصر غير نصف يوم ، فقد دفعت الفجوة
برغش الى تحريض قائد آخر له مكائنه على
الثورة ، وهذا القائد الآخر هو أبو علي أحمد
ابن الأفضل شاهنشاه — الملقب بكنيتان —
وقد ثار هذا القائد لسلام ، ولار ممه الجيش
تتبع الاحتفال بتولية هزارة الملوك الوزارة ،
واتهمت الثورة بالقبض على هزارة الملوك
وقتلها .

« واستمرت الوزارة لأبي علي أحمد بن
الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر
الجسماني ، وكان يقب بكنيتان ، الى يوم
الخميس سادس عشر ذي القعدة ١١١٤ .

« واستدعي (الحافظ) الشيخ لأبي علي ،
فأقيمت عليه يوم الأربعاء خامس عشرة ،
وركب الى دار الوزارة ، والجماعة مشاة الى
ركابه ، فكانت وزورة هزارة الملوك نصف يوم
بغير تصرف ، ١١١٤ .

وكان أول عمل بشاره أبو علي أحمد بعد
توليه الوزارة أنه : « أحاط بالحافظ وسجنه

في خزانة قيسا بين الايوان وباب العيب
وتسكن أبو علي ، واستولى على جميع ما في
القصر من الأموال والذخائر . ١١١٤ .

هذا انقلاب جديد واضح المعالم كاد يضع
حدا نهائيا للدولة الفاطمية الاسماعيلية ، فأبو
علي قائد قواد الجيش له مكانة خاصة في
الدولة ، فهو ابن وزير وحفيد وزير ، وأبوه
وجده كانت لهما السلطة الفعلية الكاملة
والمكانة الأولى في الدولة أيام وزارتهما ، وقد
ثار أبو علي ثورة عسكرية اتهمت بقتل الوزير
القائم ، والقبض على الكتيبة وسجنه ، ثم
توليه هو السلطة كلها دون منازع أو مشاركون .
ويضاف الى هذا كله أمر هشام بالغ
الأهمية ، وهو أن أباً علي لم يكن اسماعيلياً
المذهب ، بل كان امامياً ، ولهذا بدأ بانتطاف
اجراءات كثيرة تهدف كلها للقضاء على المذهب
الاسماعيلي والفصائل ، والاعتراف بالمذهب
الامامى ، ومعنى هذا انتهاء الدولة الفاطمية
الاسماعيلية ، وتقيام دولة علوية امامية ، يقول
المقريزي : « وكان (أبو علي) امامياً مستخدماً
فالتفت عليه الامامية ولموا به حتى أظهر
المذهب الامامى ١١١٤ .

ومن هذه الاجراءات التي اتخذها
أبو علي لأظهار المذهب الامامى أنه : — رتب
في المحكم أربعة قضاة — قاضياً لتشافعية ،
وقاضياً للعلانية ، وقاضياً للاسماعيلية ،

(١٦) المقريزي : مخطوطة تصاعط المنفا .
ص ١٣٣ ب .

وعاشيا للإمامية — وسار كل قاض بحكم
بذمعه ، وبورث بذمعه ، وعلق المقرري
على هذا بقوله : « ولم يسع بثل هذا في
الفة الإسلامية قبل ذلك » (١) .

— واستط اسم اسماعيل بن جعفر
الصادق — الذي نسب إليه الإسماعيلية —
واسم الحافظ من الخطبة .

— والتي الإذنان الإسماعيلية الناطية .

— وجعل الخطبة على الثأر له وحده
باعتباره « لاصر امام الحق في حالي لحيته
وحضوره ، والقالم نصرته بماضى سيته
وصائب رأيه وتديده » .

— وضرب دراهم ودنانير جديدة باسم
الامام المنتظر .

حكم أبو علي أحمد ابن حكما مطلقا ،
واتخذ هذه الاجراءات الكثيرة التي تصالف
جميعا الى القضاء على الاسمايلية ومنهجهم ،
غير أنه ظل يشغله أمران : أمر الحافظ كبير
أمراد الأسرة وولي العهد والكفيل السابق ،
وأمر المولود الجديد الذي ولد للامر .

أما الحافظ ، فيبدو أنه لم يكن ذا خطر ،
ولم يكن له أهوال يفسدون أذره ، وقد سجنه
أبو علي أحمد ، وشهد عليه الرقابة في سجنه ،
وقد فكر أكثر من مرة في قتله ولكنه لم يفعل .
وأما المولود فقد ظل أمره يتلق بال أبي
على أحمد ، وظل نائب البحث عنه ، وقد

(١) القريري : مخطوطة تصالط الحنفا .

تضاربت الأحوال في شأن هذا المولود ، فبعض
المراجع المشورة المتداوله تشير الى أن المولود
جاء بنتا ، وبهذا أمن أبو علي أحمد واطمان ،
وبعض المراجع التي لا تزال مخطوطة تشير الى
أن المولود جاء ذكرا ، وأن أمه عملت على
إخفائه خوفا عليه من الوزير أبي علي ومن
الحافظ الوي أن قبض عليه الحافظ أبيها بعد
وقته .

والرأي الثاني ذكره القريري في كتابه
« تصالط الحنفا » قلا عن الشريف محمد بن
أحمد الجبراني ، وهو الصحيح ، يدل على
ما يذكروه المراجع أيضا من أن أمر هذا المولود
لمد شغل بال أبي علي أحمد كثيرا أثناء السنة
التي التزم فيها بالحكم ، وأنه ظل طول هذه
السنة نائب البحث عن ، فقد قال القريري في
نفس المرجع : « والمستند طوره (أي ضرب
أبي علي أحمد) على أهل القصر من الأرحام
والأبراق ، وأكثر من أراجهم ، والتفتيش على
ولد الأمر » .

وليت أبو علي أحمد يحكم — مثلا
ما يزيد على السنة قبله ، فلو طالت مدة حكمه
لكان قد لبس على الدولة الفاطمية والمذهب
الإسماعيلي نهائيا ، ولكن الإسماعيلية لم
يرشوا عن حكمه ، وتكونت منهم ممارسة
قوية تولى زعامتها الفساند باشي ، وظلوا
يربصون بأبي علي الفرس للقضاء عليه ، الى
أن تمكنوا من قتله في المحرم سنة ٥٣٦ هـ .

قضى لذن علي أبي علي أحمد ، وقضى

بطبيعة الحال على المحاولة التي حاولها لجمال
الدولة اممية ، وعادت الدولة اسماعيلية كما
كانت ، وأعيد الحافظ — بعد اطلاق سراحه —
الى منصب الخلافة .

واعتبر هذا اليوم الذي قتل فيه أبو علي
نصير وأمهيد الحافظ الى الحكم يوم ميسد
تومس — لا للحافظ نفسه بمناسبة اطلاق
سراحه واعادته للحكم — بل للدولة كلها ،
وللمذهب الاسماعيلي وولماعه ، فقد كان
المذهب على وشك أن يفسى عليه ، ولهذا
اعتبر هذا اليوم عيداً للاسماعيلية ، وسي
« عيد النصر » ، وضخم الى قائمة الأعياد
الرسمية ، وطلب الدولة تحتفل به سنوياً في
عهد الطائفة ، وفي عهد من أمي بسده من
الخلفاء الى أن دالت الدولة وراثت .

ورغم تولي الحافظ الحكم فقد كانت
المشكلة الشرعية المذهبية لا تزال قائمة ،
للمذهب الاسماعيلي — كما أسلفنا —
لا يبيح أن يتولى الخلافة من ليس ابناً للخليفة
السابق ، والحافظ ليس ابناً للامير ، بل هو
ابن عمه ، والطفل الذي ولد للامير بعد مقتله
والذي أخفت أمه كان لا يزال موجوداً ،
ويبدو أن الحاصل كان يعلم بوجوده ،
فلا يصح إذن أن يتولى الخلافة مع وجود
الطفل ، ولهذا لم يجرؤ رجال الدولة وشيوخ
المذهب على تعيين الحافظ خليفة ، بل أعادوه
— كما كان — ولما للمهد وكفيلاً للمتسل
المخفي ، يقول المقرئى : « قاتسح الناس ،

وأخذ له المهدي على أنه أولى عهد كعبيل لمن
لم يذكر اسمه » (١) .

ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية وجود عملة
ضربت في الاسكندرية في سنة ٥٣٦ هـ (ومن
المؤكد تبعاً للحوادث التاريخية أنها ضربت في
المسجد بين الحرم وريبع الأول من هذه السنة)
تحمل اسم عهد المهدي ولقبه كوفي للمهد ،
ونصها ما عليها : « أبو الميزون عبد المهدي ،
ولي عهد المؤمنين » (٢) .

ويبدو أيضاً أن العاقب تامل منذ تلك
اللحظة بسبل جاهدا للبحث عن هذا العنصر
لينخلص منه لبايا ، ولنخلص له الخلافة من
كل شائبة ، ولم يفل بالحافظ الوقت ، فقد
شر على الطفل بعد نحو شهرين ، وحسم
الأمر بقتله ، ورأى أن يعلن على الملأ توليه
الخلافة ، فان المقرئى يقول في حوادث
سنة ٥٣٦ هـ :

« وفيما استقرت حال الحافظ لذمين الله ،
ويعرج له بيعة ثانية لما عدم الحمل » (٣) .

وأخيراً ولي الحافظ الخلافة ، وتوليت
حدث القطار في الفرع القاطن الاصيل ،
فقد كان الخلفاء الفاطميون الذين حكموا حلبه
كلهم من نسل عبيد لله المهدي ، وكل خليفة

(١) المقرئى : مخطوطة انماط السمسما .
ص ١٦٣٤ .

(٢) الفصال : مسبوحة انوار القاطنة .
ص ٩٨ - ٩٩ .

(٣) المقرئى : مخطوطة انماط العنقا .
ص ١٦٣٥ : رابين ميسر : تاريخ مصر . ص ٧٥ .

اليه ، ففريه على الناس ، نسا زاده ذلك
الا جرامة عليه ، وانساده و

ولم تخمد هذه الفتنة الا بعد ان قتل
حسن ، ولكننا كانت عاملا جديدا من عوامل
اضفاف الدولة بعد انقسام الجيش على نفسه
وقتل عدد كبير من كبار قواده .

ولم تشب الصعوبات في هذا العصر
الثاني في الداخل وحسب ، بل لفتت يه
صعوبات اخرى في الخارج ، اخذت اثر في
كها الدولة ونصل على فصل اهلها طرفا
طرفا ، وقد اشرفنا من قبل الى اتصال شمال
افريقيا كله ثم انقطاع الضفة الفاطمية في
الحجاز لغزاه ما ، ثم انفصال جزيرة صقلية .

وقد استمرت حركة الانفصال في طرفها
ففي عهد المستعلى بدأ عدوانا خطيرا ان يهددان
املاك الدولة في الشام ، فاستولى الأتراك
السلاجقة على دمشق والاجزاء الداخلية من
الشام وقطعوا المنطقة للمستعلى وخطبوا
للمخليفة العباسي ، ولي عهده 'بضا ، في
سنة ٤٩٠هـ تحركت الحملة الصليبية الاولى من
القسطنطينية لاخذ سواحل الشام فملكوا
الطائفة ، وفي سنة ٤٩٦هـ ملكوا بقية الساحل
عزيت المقدس ، ولم يبذل بأيدي الفاطميين غير
مدينة عسقلان .

وفي عهد الامر استولى الفرنج على عدد
آخر من مدن الشام وخاصة طرابلس وبنائس
وصور .

منهم ابنا للمخليفة السابق ؛ وسيمعج الحافظ
اصلا لفرع جديد ، ولكن هذا التحول تمت
الاسماعيلية ففتيا جديدا ، فانقسموا - كما
املنا - الى اسماعيلية حاشية وهم 'نياع
الخليفة الفاطمية الجديدة في مصر واسماعيلية
طهية وعده انتشروا في اليمن والهند .

وفي عهد الحافظ حدثت أزمة اخرى كانت
معدلا جديدا ساعد على تعظيم ما بقي للدولة
الفاطمية من قوة ، فقد اراد الحافظ ان
يتخلص من سلطة الوزراء واستبداهم
بشؤون الحكم ، كما اراد ان يسهل لاستقرار
الحكم في أسرته ، فاصدر في سنة ٥٢٨هـ سجلا
بنولية ابنة الأكبر سليمان ولاية العهد واقامه
مقام الوزير .

ولكن سليمان توفي بعد مسدور هذا
السجل بشهرين ، فاصدر الحافظ سجلا آخر
بنولية ابنة الثاني جاهدة ولاية العهد ، فتمت
ذلك على اخيه حسن فبعد كان اكبر اولاد
الحافظ منا بعد وفاة سليمان ، وقام حسن
بثورة حربية خطيرة ، وانضم الجيش الفاطمي
تتجه لهذه الفتنة على نفسه ، وكانت هذه
الوقعة - كما يقول المقرئ - في اول
مصيبة نزلت بالدولة من لقد رجالها ونصر
عند عسقلان . . .

وحاول الحافظ محاولات كثيرة لاصحاد
هذه الثورة واسترضاه ابنه حسن ، ولم يجد
بدا من معاراة حسن ، وتلقى امره عماد
ينصليح ، وكتب سجلا بولايته العهد ، وأرسله

وفي عهد الحافظ قطع الصليبيون الخطبة له في اليمن ، وغضبوا للليب وهكذا تجملت هراقل الضعف لتعمل مجتمعة على انهاء الدولة ، وامسيح وزراء الدولة هم اصحاب السلطان الفعلي ، بل لقد أصبحوا هم الذين يختارون الخلفاء ، ومن الشواهد القوية على عظم هذا النفوذ أن الصالح طلائع بن زريك صعد الى اخطار طفل صغير ليطي الخليفة بعد

موت التاز ، وهو الذي سمي فيما بعد باسم «العاقد لدين الله» ، واجتمع الناس للاحتفال بتوليه واحذثوا ضجة كبرى ، فسأل طلائع عن مصدر هذه الضجة فقيل له ان الناس يفرحون بالخليفة ، فقال : « كأي مسؤول الجبهة يقولون : ما مات الأول حتى استخلف هذا » وما علموا أنني كنت من ساعده أسترضهم استراض الفهم (١) .

اتهام الدولة

كان أهم الأسباب التي أدت الى ضعف الدولة - كما أسلفنا - هو استبعاد الوزراء بفكرهم الحكم ، لهذا أصبح منصب الوزارة محط انظار فواد الجيش وكبار رجال الدولة ، فقامت بين بعضهم والبعض الآخر مناسبات دلمية في سبيل الوصول الى هذا المنصب ، وكان ان نزاع الذي قام بين شاور - وزير العاضد آخر خلفاء الفاطميين - وصرغام - صاحب الباب - هو آخر حلقة من حلقات هذه المناقشة ، وقد انتهى الصراع بين الرجلين بانتصار صرغام وتوليه الوزارة ، وفرار شاور الى الشام .

نور الدين ، وسأل أن يرسل معه جيشا الى مصر ليساعده في نضاله مع خصمه صرغام ، وفي اعادته الى منصب الوزارة ، وعرض أن يدفع له - مقابل هذه المساعدة - ثلث ايرادات مصر ، وأن يدين له بالولاء ان عادت اليه مقاليد الحكم والوزارة .

ورحب نور الدين بشاور واستضافه ، وردد أول الأمر في اجابته الى مطلبه ، ولكنه لم يلبث أن واقف ، ففي هذه الموافقة تطيق لفظته التي كان يمدق من ورائها الى توحيد الجبهة الاسلامية توتئة لتقاومة الخطر الصليبي والقضاء عليه .

وكانت القسام قد انضمت من الملك الطامير ، واتسست ملكها قوتان : قوة نور الدين محمود بن زكي الداخل ، وقوة الصليبيين في الساحل وفي فلسطين .

وأرسل نور الدين مع شاور جيشا بقيادة قائده أسد الدين شيركوه وصاحب أسد الدين معه ابن أخيه يوسف صلاح الدين ، وعلم

(١) المغربي . مخلوطة انعطاف الحنقا .
 ص ٦٥ ب : وانظر الشيبان : مجموعة الوثائق
 المناطبة من ١٢٠ - ١٢٣ .

ضرغام بفروج هذا الجيش وقرب وصوله الى مصر ، فأصابه الفزع إذ لم يكن الجيش القاطن في حالة تمكنه من المناومة أو احرار النصر ، وأرسل ضرغام يستنجد بالقوة الثانية في الشام ، بالمليين .

ووصل اسم الدين شيركوه الى مصر - ولى بمصر شاور - ، واقترع على جيش ضرغام ، وفرق عن ضرغام قواده وأهوانه ، لم قبض عليه وقتل ، وأعيد شاور - نتيجة لهذا النصر - الى تحت الوزارة .

غير أن شاور كان من خلفه الضر والضيافة ، فلم يلبث أن حث برعمه ، ورفض أن يدفع لشيركوه المبلغ المتفق عليه ، بل طلب اليه الانسحاب بجيشه والعودة الى الشام ، وآلم شيركوه ملك شاور ، وأبى أن يستمع له ، وعسكر بجيشه عند مدينة بليس ، وتحصن بأسوارها ، وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل ، فلبث الى عموري Amalric ملك بيت المقدس الصليبي ، وأرسل يستنجد به ، ورحب عموري بالدعوة وأسرع بالفروج بجيشه ، لانه كان يفتنى أن يملك نور الدين مصر فيصبح أقوى الصليبيين وأملاكهم في الشام معاصرة بقوى نور الدين من الشمال والجنوب .

اتجه عموري بجيشه في سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤م) نحو مصر ، وحاصر أسد الدين بلبس شهورا ثلاثة ، وأحس نور الدين بما يهدد جيشه في مصر من خطر ، فبدأ يضغط

على أملاك الصليبيين في الشام ، وهاجم باناس ، مما جعل عموري يفكر جددا في الانسحاب ، واتفق أخيرا مع شيركوه أن ينسحب معا في وقت واحد من مصر .

خرجت القوتان من مصر ولكن لتعودا اليها ثانية وثالثة ، وكل منهما كانت تحاول في كل مرة من المرات الثلاث أن تستولي على مصر للقضاء على القوة الأخرى ، ولكن النصر كتب أخيرا في الصلة الثالثة لقوى نور الدين بقيادة أسد الدين ليركوه .

وقتل شاور لفدرة وخيافته واستماتته بالصليبيين المرة بعد الأخرى ، ولم يجد العاضد من بين رجسائه من يصلح للوزارة ، فاختر أسد الدين ليكون وزيره ، غير أن أسد الدين لم يهتم في الوزارة غير شيرين ثم مات ، فاختر العاضد ابن أخيه صلاح الدين وزيراً .

كان موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة مولفا غريبا ، فهو وزير لصاحب مصر الخليفة العاضد المملوكي الشيبلي ، وهو في الوقت نفسه قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السني ، فهو موزع الولاء ، ومع هذا كان يشبع في سياسته ازاء الرجلين الحكمة والظرف .

فسير أن نور الدين كان يود أن يسيطر صلاح الدين بالقضاء على الدولة القاطنية ، وقطع الخطبة لآخر خلفائها العاضد ، والخطبة للخليفة العباسي ، وكان نور الدين مدفوعا في هذا بسنيته ، وكرهه للشعبة ، وبلغهته في

أجابه الخليفة العباسي الي طلبه ، فقد كان دائم الالاحاح عليه أن يعين له الخبشة في مصر ؛ ولكن صلاح الدين كان أعرف من نور الدين بأحوال مصر ، ولهذا أكر التمول ، وأن يمد الطريق قبل أن يضرب خبرته الأخيرة فقد كان رجال القصر والدولة التاملية لماضين ،

ويودون فر استطاعوا أن يضفوا على صلاح الدين ومن معه ، ليمتعدوا لوقوفهم وسلطانهم المطلوب ، وكان صلاح الدين يطش على هو أسرع بقطع الخبشة والقضاء على الدولة أن يتجه هؤلاء في الثورة عليه ؛ يقول ابن واصل في كتابه «ملوح الكروب في أخبار بني أيوب» : « كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية ، وأنه لم يبق لهم منعة ، كتب الي صلاح الدين بأمره أن يقطع خبشة العاضد ، ويطلب للخليفة من بني العباس ، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من دعوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة لذلك ، فليهم الي الخليفة ، فلم ينسخ نور الدين الي قوله ، وأرسل اليه يلزمه ذلك الواما لا فسحة فيه .. »^{١١٥}

وبدا صلاح الدين بالخطوات السعيدية لتعلم أطناف الخليفة العاضد وقواد جيشه ؛ ورجال مصره ، غايمة هؤلاء القواد عن الظاهرة واستولى على أقطاعاتهم ، ومنعها لقواده هو ، ليضمن ولاهم وإخلاصهم ، ثم أرسل الي

(١١٥) ابن واصل : معرج الكسروب . نشر الشيبان . ج ١

المعاصي في مساجد القسطنطين والقاهرة جميعا،
وبذلك انتهى آخر عهبط حياة الدولة
الفاطمية .

أما الخطبة المعاضد فيقال انه كان مريضاً،
فلما سمع بهذا النبأ اشتد به المرض ، وتوفي
في يوم عاشوراء ، أي في اليوم العاشر من
المحرم من هذه السنة ؛ وهكذا انتهت الدولة
الفاطمية بعد أن حكمت مصر قرابة ثلثين من
الزمان كانت مصر في خيالاتها امبراطورية
مستقلة واسعة مترامية الأطراف ذات حضارة
مجيدة مزدهرة .

للتهدد لتحقيق رغبة الخليفة المعاصي ونور
الدين يقطع الخطبة للماضد .

ولما تم له ذلك كله جمع أمراء جيشه
نبيستشيرههم في أمر قطع الخطبة ، فترددوا
كثيراً ، وأخيراً تقدم عقبه يدعى الأمير العالم
بالمعروف أن يبدأ هو بتنفيذ هذه الفكرة ؛ وفي
يوم الجمعة الأول من المحرم سنة ٥٦٧ هـ
خطب هذا الرجل ، ولم يدع للخطبة المعاضد ،
والما دعا للخليفة المعاصي المستضيء بنور الله ،
فلم ينكر ذلك أحد عليه ، فلما كانت الجمعة
التالية أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة

الدولة الأيوبية

للكنوز محمد مصطفى زباده .

مصر حقيقة تامة . ولكن هذه السنة المختارة ١١٣٧ م ، لا لأهمية تاريخية خاصة أو إمامة ، بل لصالحية تسمية مميّنة ، وهي أن عماد الدين زنكي أمير حلب بعن وراثة أمارتها عن أبيه صار لها أميراً كذلك على الموصل ، بعن تعيينه عليها من قبل السلطان محمود السلجوقي والتخليفة المسترشد العباسي ، وبذا أصبح بحكم موقعه الجغرافي أمير أقوى دولة إسلامية في غرب آسيا في زمنه . ثم جيمت الصدفة التاريخية بين زنكي والأخويين الكرديين مجسم الدين أيوب وشمس الدين شيركوه ، وأولهما أبو صلاح الدين يوسف مؤسس الدولة الأيوبية في مصر ، وهذا هو الأصل العائلي لهذه الدولة

وولدت هذه الصدفة سنة ١١٣٣ م ، حين وصل زنكي إلى قرب قلعة تكريت منفرماً يريد عبور نهر دجلة ، كيلا يتبع بجيشه إلى يد أعدائه ، فتعاضده نجم الدين أيوب حاكم تلك القلعة على العبور ، ومن حينه المروعة لتأثت صداقة بين زنكي وأيوب وشيركوه . ثم حدث سنة ١١٣٨ م ما حمل أيوب وأخوه وأهلها على الرحيل في شيء من السرعة لئلا عن تكريت ، ويقال أن ميلاد صلاح الدين يوسف تلك الليلة لم يستمتع أن يؤخر ذلك

يخترب المؤرخ الحديث من تاريخ الدولة الأيوبية في مصر من زاويتين متكاملتين ، وهما البيئة السياسية التي نشأت فيها هذه الدولة ، والأصل العائلي الذي بنت منه ، وهذا التكامل يجعل العبارات الافتتاحية في قيام الأيوبيين بمصر مزيجاً من هاتين الزاويتين . أما البيئة السياسية التي نشأت فيها هذه الدولة فهي الشرق الأوسط في منتصف القرن الثاني عشر الهجري وأما أهم عناصر هذه السياسة وأوضحها ثراً في قيام الدولة الأيوبية فهي الخلافة الفاطمية التي سوف يحل الأيوبيون محلها في مصر ، ثم الخلافة العباسية التي عدت مستد لونها من السلطنة السلجوقية المقيمة في بغداد عاصمة العباسيين ، ثم المملكة الصليبية التي تأسست في بيت المقدس وما حولها ، ثم الدولة الزنكية التي أسسها عماد الدين زنكي ، وهي الدولة التي تستطيع أن تكون نقطة بداية تاريخية لظهور الأيوبيين .

والمؤرخ الحديث يعمن حسناً إذا مر اخبار ستة من السنوات لوقفة يقفها هيمنة لاستعراض أحوال هذه الدولة الزنكية ، ثم يتقدم من هذه السنة المختارة بعد ذلك ويبدأ رويداً حتى يمدو تأسيس الدولة الأيوبية

الرحيل ، مما يشيء بأن سببا خطيرا هو الذي دعا الى انتقال الاخوين أيوب وشيركوه وأمرتصما عن تكريت .

وذهب أيوب وشيركوه الى زنكي بالموصل ، ودخلا في خدمته ، ولم يلبثا أن شاركا في حروبه وسياسته ، وهي العمل على تكوين جبهة اسلامية قوية لاجراء الصليبيين من الشام . وقد سبيل ذلك لم يترح زنكي من الهجوم على مدينة دمشق سنة ١١٣٩ ، على انه فتح من هذا الهجوم باستيلاء قائديه أيوب وشيركوه على بعلبك التابعة للاسيرة المسيحية ، وعين أيوب حاكما عليها . وبفضل هذين القائدين وغيرها من رجالة الدولة الزنكية استطاع زنكي أن يتقدم بمشروع الجبهة الاسلامية المتحدة خطوات منسوية واسعة ، أهمها استيلاءه من الصليبيين على الرها سنة ١١٤١ م . ثم توفي زنكي بعد ذلك بسنتين ، إذ اغتيل وهو على حصار حصن جسر الواقع على نهر الفرات الى الجنوب الشرقي من حلب .

ثم بعد وفاة زنكي فرصة لبعض أمراء البلاد المفتوحة أن يستردوها من ولديه ، وهما نور الدين محمود الذي آل اليه القسم الغربي من المملكة الزنكية وعاصمته حلب ، وسيف الدين غازي الذي آل اليه القسم الشرقي منها وعاصمته الموصل . ومن تلك البلاد حلبك التي حاول الدمشقيون أمراءها الأقدمون استرجاعها من حاكمها نجم الدين أيوب ، ولم

هو أيوب على دعمهم عنها بالقتال ، ففضل الرصوخ للواقع وسلم بعلبك سنة ١١٤٦ ودخل خضعة أمراء دمشق ، ولم يلبث أن أوغل سياسة الامارة الدمشقية وحدودها حتى أصبح القائد العام لجيوشها . أما شيركوه فانتقل بعد وفاة زنكي الى خدمة ابنه برد الدين محمود يعلب ، ولم يلبث هو الآخر انه صار القائد الصام في الدولة النورية . وفي سنة ١١٥٤ جهز نور الدين حملة للاستيلاء على دمشق ، تحقيقا لسياسة توحيد الجبهة الاسلامية التي ورثها عن أبيه ، وعين شيركوه لقيادة هذه الحملة . ومن ثم بدأ شيركوه في مفاوضات أخيه أيوب لتسليم دمشق بالصنيعة وانتهت المفاوضات أوأخر تلك السنة بأن أصبحت الدولة النورية سيطرة على معور عاصمته حلب الى دمشق .

أما الأخوان أيوب وشيركوه فبلفا ذروة القوة والنموذ بعد تسليم دمشق ، إذ عين أيوب حاكما على هذه المدينة من قبل نور الدين ، وميزه نور الدين عن سائر رجاله باعطائه حق الجلوس في حضرته ، رعاية لسابق علاقته بأبيه زنكي . وتسمين شيركوه نالبا للسلطنة بأقليم دمشق كله ، كما استقر باتطاع كبير في حصن . ولما انتاب صلاح الدين يوسف بن أيوب فليس بوجوده بالموصى المعروفة ما يشرح تفاصيل حياته (إذا أردت توسعة فعندك على بيومي ص ٨ - ٨٤) ما عدا أنه عاش بالبلاط النوري بدمشق ،

وأنه قلب في بيئة عالية ، ولابد أنه قضى معظم أيامه في تعلم علوم طبقة وفتونها ، ويستخلص كذلك ما هو معروف من اشارات مبشرة أن السلطان نور الدين عين الشاب صلاح الدين ، وهو في الحادية والعشرين من عمره ، أي سنة ١١٦٠ م في وثيقة شحنة دمشق ، وهي وظيفة رئيس الفرقة والموكل بالأمن بها .

هذه خلاصة عابرة لبعض أحوال الدولة الإيضية النورية التي نشأ فيها مؤسس الدولة الأيوبية في مصر ، ولا أقل هنا من عرض مشابه لبعض أحوال الدولة الصليبية بالشام والدولة الفاطمية بمصر ، وكلاهما قد شأن في تأسيس الدولة الأيوبية ، المقصود بالصليبيين هنا مملكة بيت المقدس سنة ١١٥٣ م بالذات ، حين استولى ملكها بالدين الثالث على ميناه استقلال الواقعة على الطريق بين الشام ومصر ، إذ ترتب على هذه الحركة العربية قيام نور الدين بالاستيلاء على دمشق في السنة التالية ، كما ترتب عليها كذلك تطور سياستين النورية والصليبية إلى سباق جدي للاستيلاء على مصر من خلفائها الفاطميين .

وكانت الخلافة الفاطمية في مصر وقتذاك في طور الاحتضار ، وظيفتها العاضد العربية لينة وسط حزبية فاسدة ، ولا سيما بعد أن دعا شاور أحد زعميي هذه الحزبية السلطان نور الدين لمؤازرته ، على حين دعا ضرغام — وهو الزعيم الآخر — الملك عموري الأول لمؤازرته . ولذا جرى السباق النوري الصليبي

بين ثلاث حملات عسكرية صليبية ومثلها نورية ، وأولها سنة ١١٦٣ ، وآخرها ١١٦٩ ، وانتهى السباق حين استطاع القائد شيركوه أن يخرج الصليبيين من مصر ، وأن يتخلص نهائياً من الزعيمين ضرغام وشاور ، وأن يصبح وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي . وهذا حقيق شيركوه رغبات نور الدين ، ما عدا اعتلاءه الوزارة لأن نور الدين رأى في ذلك شيئاً من الضروح الخطير .

ومحب شيركوه في حملاته الثلاث صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب ، وشارك صلاح الدين في حروب هذه الحملات ومؤامراتها ، ودل على مهارة ملحونة . فلما تحوّل شيركوه (مارس ١١٦٩) بعد ثلاثة أشهر فقط من توليه الوزارة الفاطمية ، اختار الجيوشون بالخليفة العاضد بنده للوزارة ظناً منهم أن السلامة السياسية تقترح عليهم إحلال الشاب محل عمه ، وعمره وقتذاك إحدى وثلاثون سنة ، باعتبار أنه أقل ضباط الجيش النوري خبرة بشلون الصرب والسياسة . غير أن صلاح الدين لم يلبث أن اتقى على رجسالة العصر الفاطمي درساً عمده ولم يستطيعوا نسيانه ، وهو أنهم يبتوا له سيف تلك السنة مؤامرة بزعامة خصم نوردين اسمه مؤمن الدولة نجاح ، واتصلوا بالملك عموري لترتيب هجوم داخلي وخارجي على القوات النورية في وقت واحد . غير أن صلاح الدين علم بتفاصيل المؤامرة قبل تنفيذها ، فقبض على زعيمها

وشركائه بالقاهرة وأمر بإعدامهم وأخذ حركة
حمايئة بالجنش الفاطمي ، كما استطاع إجلاء
أسطول صليبيين بيزنطي بنفسه عن دمياط .
وذل صلاح الدين بذلك كله على مقدرة فائقة
في غير جلبة ، كما دل عليه نور الدين بحركاته
الحرية المتوازية ضد الصليبيين بالشام على
عزمه على مساعدته ، ما دامت أهدافه قهوية
مركز الدولة النورية بالقاهرة .

وكان إجلاء الصليبيين عن سواحل دمياط
تلك السنة لقلة تحول في تاريخ صلاح الدين ،
وفي تاريخ الحملات الصليبية على مصر .
ذلك أن رجوع هذا الوزير المسكوي من
دمياط منتصرا ، أضعف الخلافة الفاطمية والباقيين
من رجالها ، وكذلك القاهرة وأهلها بأنه
يستطيع حماية الدولة من غارة المغيرين ،
فضلا عن حماية مركزه من مؤامرات المتآمرين
وبدأ بذلك ما جعل على يناك لنفسه في قلوب
انخاس العام . وانتم صلاح الدين هذه
الغرض فأرسل إلى سيده نور الدين يطلب
أرسال الباقيين بالشام من أهله حتى وفندائك
إلى مصر ، ليستعين بهم في وظائف الدولة ،
فوصلوا إلى القاهرة في فبراير سنة ١١٧٠ هـ
وعلى رأسهم أبوه السياسي الفاضل نجم الدين
أيوب ، فجعله صلاح الدين على بيت المال ،
كما جعل بهاء الدين قراقوش مملوك عنه
شيكوكم واليا على القاهرة ، وأقطع أخوته
وأعمامه وأولادهم أفضاعات الفاضلين الذين
تقوا إلى الصعيد بعد عدم ثورة مؤمن الدولة .

ويبدو من تطور الحوادث بعد ذلك أن
تجم الدين جاء إلى مصر بتعليمات معينة من
عند نور الدين وأن قيامه إلى جانب ابنه
يوسف شاعف من حركة هذا التطور فأعقب
وصوله إلى القاهرة مثلا تأسيس مدارس
(كليات) لتتربى الفقه على المذهب الأربعة ،
وبهذا بدأت مناهضة فقه المذهب الشيعي
ومراكزه الرسمية ، ثم أخذ صلاح الدين إلى
أزالة كثير من مظاهر المذهب الشيعي في
الأقاص ، كما أخذ إلى إضافة أسماء الخلفاء
الرائسدين في الخطبة ، فضلا عن الدعاء
للسلطان نور الدين بعد الخليفة العاضد . ثم
حدث أن مرض الخليفة العاضد فألقى صلاح
الدين مع أبيه أيوب على استئلال ذلك بقطع
اسم الخطبة الفاطمي من الخطبة واحلال اسم
الخليفة العباسي محله في أحد جوامع القاهرة ،
وتم ذلك في الجمعة الأولى من شهر المحرم
سنة ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر سنة ١١٧١ م)
وتقرر أن يتم ذلك أنحاء القاهرة في الجمعة
التالية ، لكن العاضد لم يمتد به أجله إلى هذا
الميعاد ، إذ مات خلال الأسبوع الواقع بين
هاتين الجمعةين ، وسقطت الدولة الفاطمية
سقوطا صامتا بعد قيامها في مصر قرنين ونصف
قروا من الزمان .

وكان لسقوط الخلافة الفاطمية في مصر
أسداء كثيرة في الشرق الأدنى كله ، فأرسل
الخليفة المستنصر العباسي نور الدين بسنتين
أحدهما رمزا لسيطرته على الشام بما في ذلك

حشوق ، وثانيهما رمزا لاجتداد سلطانه التي
 مصر ، على أن يكون نائيه فيها صلاح الدين
 (على يومي ١٨١ - ليهيول ١٩٥ - مذكرات
 ٣٣) . أما صلاح الدين نفسه فأصبح القوة
 الكبرى في مصر ، غير أنه لم يشأ أن يظهر
 بمظهر المنتسب بأسالة العاطمين ، فظل مثلا في
 دار الوزارة ، ولم ينتقل إلى قصر الخلافة حتى
 لا يثير انتقاه شيئا من النشون ، وفتح القصور
 الفاطمية ، لا ليستولى على ما فيها لنفسه ،
 بل ليوزع موجوداتها على أتباعه وأنصاره ،
 وليرسل لنور الدين منها هدية ضخمة ، وأما
 أبناء البيت العاطس وأتباعهم فأودعهم صلاح
 الدين دورا مختلفة ، ومنع الاختلاط بينهم
 بتحديد الأقسام .

ثم عكف صلاح الدين على التمسك لنفسه
 نهائيا في مصر ، وساعف من جهوده في حشد
 سور القاهرة حتى لحدا محيطها بالفسطاط
 والقطائع والسكر ، وبدأ في تسييد القلعة
 على الأطراف الغربية من جبل المقطم ، لتكون
 مشرفة على جميع أجزاء هذا السور ، ونفذ
 حيلة إلى برقة ، وأتبعها بحملة لاهية إلى
 فلسطين لتأمين الدولة التي أزمع التناها في
 مصر وظهوريتها عسكريا واقتصاديا ، ولم يشأ
 أن ينتظر قسوم نور الدين إلى فلسطين ، بل
 قتل راجعا إلى مصر اجتنابا لقتاله .

وبدأ الشك يساور نور الدين بسبب
 هذه الحركات الداخلية والخارجية ، وشاع
 في الأوساط المديقة والمعادية للأيوبيين في

القاهرة وحشوق وحلب أن نور الدين يوشك
 أن يسير إلى مصر على رأس حملة كبيرة يؤكد
 بها تبعية مصر وصلاح الدين للدولة النورية
 أو يقوم بعزل صلاح الدين ، واستدعت هذه
 الاشارة مجلسا جمع بالقاهرة أبناء البيت
 الأيوبي وأتباعهم وخواصهم ، وأوردت
 المراجع العربية محضرا بما دار في ذلك
 المجلس ، وجب دلالات على ما جال في قلوب
 الزعامات الأيوبية من مختلف النيات الملوحة
 على تكوين دولة البيت الأيوبي في مصر أو في
 غيرها من بلاد الشرق الأوسط . وهو على أية
 حال يشرح نظرية المقرري في تكوين الدولة
 الأيوبية ، ولما : « وفيها ابتدأت الوحشة
 بين .. نور الدين .. وصلاح الدين .. وعمر
 (نور الدين) على دخول مصر وفتح صلاح
 الدين شيئا فبلغ ذلك صلاح الدين ، فخاف
 وجعل أهله وخواصه واستأجرهم ، فقال تقي
 الدين عمر ابن أخيه : « إذا جاء (نور الدين)
 فأبنا ، كذا ، وصددناه عن البلاد » ووافقه
 جماعة من أهله على ذلك . أسهم نعم الدين
 أيوب ، وأبكر عليهم ، وكان ذا رأي ومكر
 وقال لابن ابنه تقي الدين : « أقعد ، وسه .
 والثمت إلى ولده .. صلاح الدين ، وقال :
 « أنا أيوبك ، وهذا شهاب الدين الحسامي
 لماك أمثل في هؤلاء من يحبك ويريد الخير
 لك أكثر منا » قال « لا » ، فقال (نجم الدين) :
 والله لو رأيت أنا وخانك هذا السلطان نور
 الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ، ونجسب

الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف قطعنا .. فإذا كنا نحن هكذا ، فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراهم من الأمراء والساكن لم يرأى السلطان وحده لم يتجاسر على الثبات في سرجه ، وما يسمه الأتراك وتقبيل الأرض بين يديه . وهذه البلاد له ، وقد أقامته فيها لاتباعه ، قال أرباب عزلت فأى حاجة إلى الحجى ؟ فأمرتك بكتاب مع لجباب حتى تصد خفتك ، ويولى البلاد من يريد ، وقال للجماعة كلمهم : « قوموا عنا ، فنحن مماليك السلطان نور الدين وحميده ، يفعل بنا ما يريد » . فتصرفوا على هذا ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بهذا الخبر ، ثم أن لهم الدين خيلا بأنه صلاح الدين وقال له : « أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير ، وتظلمهم على ما في نفسك فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلت أهم أموره ، وأولاه بالقبض ، ولم قصدك لم تمنع أحدا من هذا المسكر ، وأسلموك إليه . وأما بعد هذا المجلس فانهم سيكتفون اليه يقولون فأكتب أنت أيضا في هذا المعنى ، وقل له أين حاجة إلى لصدي ؟ فاجاب يحيى ، فأخذني يبتديل يضح في عنقه ، فانه إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج ، والله عز وجل كل يوم هو في شأن » . فضل صلاح الدين ما أشار به أبوه ، فانخدع نور الدين وعدل عن قصدك ، واندرجت الأيام كما قال نجم الدين .

غير أنه يبدو أن صلاح الدين لم يطمئن إلى هذا الموقف السالب ، فعاد إلى عمليات تأمين مركزه داخليا وخارجيا ، بل تبنى بعض هذه العمليات عن تفكيره في الاعتقال عن مصر التي غيرها من البلاد المجاورة إذا أخفقت مطروحات تكوين دولة يومية في القاهرة ، مثال ذلك تقريره عن بلاد النوبة وإرساله حملة كبيرة إلى تلك البلاد بقيادة تورانشاه وهو أكبر أخوته . وسار تورانشاه إلى أسوان وأخر ١١٧٢ ، وحظ جنوبا حتى استولى على ابريم ، ثم عاد إلى مصر بعد أن وجد أن تلك البلاد لا تصلح للأغراض التي فنيهاها صلاح الدين . ومثال ذلك تقرير صلاح الدين إرسال حملة بقيادة أبيه تورانشاه أيضا لمحاولة فتح اليمن ، حيث تكلفت هذه المحاولة بالنتجاج أواخر سنة ١١٧٣ . وأما من الناحية الداخلية فإن صلاح الدين استطاع أن يمدد مؤامرة لاية لاعادة الدولة القاطية إذ فطى على هذه المؤامرة وهي في مهدها ، بأن فني على زعمائها ورئيسهم حارة اليمن ، واستغنى النساء نعيم فأقتوا بقائلهم ، فقتلهم جميعا في أبريل سنة ١١٧٤ . وفي الشهر التالي توفي نور الدين والدرجت الأيام ، كما عال لهم الدين أيوب الذي كانت وفاته في السنة الصابعة لوفاته نور الدين .

على أن الجو لم يصب بذلك خاليا تماما لصلاح الدين ، ولذا تم إعلان استقلاله بمصر مباشرة ، بل عمد أولا إلى معالجة الموقف

الذى تشأ عن وفاة نور الدين ، وقيام ابنه الطفل اسماعيل في المملكة النورية الشاملة للمشرق وحلب ، ثم كان هناك سيف الدين غازي ملك الموصل ، وهو ابن أخي نور الدين ، ولا بد لصالح الدين أن يحسب له حسابا وهذا فضلا عن ملك السلاجقة بالروم (أى آسيا الصغرى) ، وهو فليح أرسلان الثاني ، على أن صلاح الدين لم ير في هذا أو ذلك عدا له أو منافسا أو بديلا ، إذ لم يحدث عنه أنه هو الرواثة الكفة لمشاريع نور الدين وسياسته في تكوين جبهة اسلامية متحدة لمجاهدة الصليبيين ، وأنه هو الذى يستطيع النهوض بذلك الصب المزدوج .

وبدا صلاح الدين عمله في سبيل تكوين جبهة اسلامية متعدة بالتسام ، حيث كان المحبطون بالطفل اسماعيل بن نور الدين حزينين ، أحدهما تمسقى يريد أن تكون صديق عاصمة للملكة النورية ، وتكون اقامه الملك الطفل اسماعيل بها ، وثانيهما حلبى يريد أن تظل حلب عاصمة للملكة النورية كما كانت منذ نشأتها . وتطلب الحليون بمساعدة الصليبيين ، واستنجدوا بالملك صلاح الدين ، فظف اليهم بفرقة قليلة من الجنده ، وأعلن أن عرضه حياة مصالح الملك الطفل ، ودخل دمشق في نوفمبر سنة ١١٧٤ . وذهب منها الى حمص ثم حماة ثم حلب ، حيث كان الملك الطفل مقبلا . غير أن مدينة حلب أغلقت أبوابها في وجه صلاح الدين ، فقام بها حصارا

قصيرا ، ثم ارتد عنها قائما مؤقتا بولاء الشام له ما عدا حلب . وهنا تحرك سيف الدين غازي ملك الموصل ، ولم يكن من المنتظر منه أن يقف صامتا ، على حين صلاح الدين يعلم أنه يعمل لصالحه الملك الصغرى . وكذا أرسل سيف الدين غازي حملة الى حلب لموازاة الحليين ، فيما سرف يقومون به من حركات لمقاومة صلاح الدين ، وانضمت هذه الحملة الى الجند الحلبى ، وانتقلت بجيش صلاح الدين قرب حماة من بلدة اسمها قرون حماة في ابريل سنة ١١٧٥ . وأعقب صلاح الدين اقتضاره هناك بانتصار فاد على القوات الحلبية الموالية في ابريل من السنة التالية (١١٧٦) عند بلدة اسمها بئر الركباند ، ودخل مدينة حلب وعقد مع الملك اسماعيل بن نور الدين صلحا تم فيه الاعتراف بشرعية تطلعه صلاح الدين على جميع ما بيده من البلاد التى امتدت ولذلك من مصر الى قرب أطراف العراق .

ومنذ هذه السنة (أى ١١٧٦ م) لمسدا صلاح الدين ملكا مستقلا بمصر والشام إذ شهدت بذلك معاهدة الصلح بينه وبين الملك اسماعيل بن نور الدين ، كما شهدت به توفيقات وصلت اليه من عند الخليفة المباسى ، وهذا وذلك فضلا عن سك النقود الذهبية والفضية والنحاسية باسم صلاح الدين بمصر والشام . وانصرف صلاح الدين مسدا السنوات التالية حتى سنة ١١٨٢ الى أعمال

داخية ، ومنها بداية بناء القلعة وتكسيب
 السور المحيط بالقاهرة وأصلها من العواصم
 الاسلامية ، وتجديد بعض تحصينات دمياط
 والاسكندرية وترميم الأستول بإنشاء سنن
 جديدة . ومن أعمال صلاح الدين في تلك
 السنوات كذلك تأسيس المدارس - أي
 كليات التخصص في علوم الدين على المذهب
 الشافعي - لناهضة الشيعة التي طوطت بمصر
 على أيدي الفاطميين ، ومن هذه مدرسة
 الامام الشافعي والناصرية والشمسية والسيدي
 بالقاهرة والسيوط ، والشافعية والسلفية
 بالاسكندرية ، وبعض هذه المدارس يرجع
 أصله الى ما قبل أيام صلاح الدين . على أن
 هذه السنوات التي صرف صلاح الدين
 معظمها في أعمال سلمية داخلية لم تخل من
 أعمال عسكرية وميابة أهمها بدء اصطدامه
 بقوى مملكة بيت المقدس الصليبية بقيادة
 أولاد أمير الترك والبرامه أمام ملك القوي
 عند الزمعه سنة ١١٧٧ ، مما كان بمثابة درس
 نافع للمستقبل . ويبدو أن هذه الصدمة
 أجهت صلاح الدين الى فكره مصداقة
 الصليبيين مؤقفا ، بدليل عقده سنة ١١٨٥
 هدنة لمدة سنتين مع مملكة بيت المقدس ،
 وبعده هدنة مشابهة في أواخر تلك السنة مع
 طنج أرسلان ملك الملاجفة بالروم ، وأمره
 الموصل والجزيرة وأربل وكبفا وباردين .
 ودلت هذه الهدنة الناتجة على ميلج ما وصل
 اليه صلاح الدين من مكانة بالشرق الأوسط
 ولما يفض على استقلاله بمصر والشام سوى
 بضع سنين .

ثم توفي سيف الدين غازي أمير الموصل
 في أواسط سنة ١١٨٦ ، وتوفي بعده اسماعيل
 ابن نور الدين في ديسمبر من تلك السنة .
 واضطرت شئون الهدنة القائمة بين صلاح
 الدين والأمرام المسلمين ، حين عهد بعض
 أولاد الأمرام الى مفارضة الصليبيين ليكونوا
 بذا واحدة على منح صلاح الدين من
 الاستيلاء على الموصل أو حلب . وجعل
 صلاح الدين من هذه المفاوضات سببا للوحص
 من القاهرة في مايو سنة ١١٨٢ إتهام القضاء
 على جميع أنواع المقاومة ضد نهيدا لإعلان
 الجهاد ضد الصليبيين . على أنه لم يبق أن
 يكون القيادي بالمطردون ، احتراميا للهدنة
 المفردة ، فقتل بدمشق حتى انتهى أجل هذه
 الهدنة في سبتمبر من تلك السنة ، ثم
 تحرك منها نحو الفرات ، فحصره عند مدينة
 البيرة وماهبت التصارت صلاح الدين في
 الأراضي الفراتية إذ سلمت له الرها وسروج
 والرقه وقرنيسيا وتصيبين وتقدم صلاح الدين
 أخيرا نحو الموصل في نوفمبر من السنة
 نفسها ، لكنها استمضت عليه ففضل الاستيلاء
 على غيرها من المدن مثل ستجار وآمد ، وما
 زال يعمل في تلك الأفران حتى سلمت له
 حلب في يونيو من السنة التالية .

وأضحى صلاح الدين بعد تسليم حلب
 أقوى ملوك المسلمين في الشرق الأوسط
 وأحسن هو نفسه بأهمية هذا الحادث ، بدليل
 قوله للمحيطين به وهو مساعد الى القلعة
 الحلبية ما سررت بفتح مدينة كسروري بفتح

هذه المدينة ، والآن قد تبينت أني مُملك
البلاد ، وعلت أن ملكي قد استقر
وثبت .. ٤ ..

والواقع أن دولة صلاح الدين بعد
تسبب حلب نغمت من حيث القوة والسمة
والمناعة البحرية أعظم دولة في الشرق الأوسط
كله ، كما أصبح اسمه موضع التمجيل
الصيق ، ومصداق ذلك قول ابن جبير في
مذكراته بصدده صلاة الجمعة إذ العجاج
حين سمعوا دعاء العطيب لصلاح الدين
« ارتفعت أصوات الظالمين بالتأنيب بالنسبة
لصددهم القلوب الغافضة والنيات المصادفة ،
ونفخ الالسة بذلك طعنا يذيب القلوب
خسرها لما وهب الله لهذا السلطان العادل
(صلاح الدين) من الثناء الجميل ، والتي
عليه من معة الناس » . وليس عجبا أن
يشعر صلاح الدين بمد أن صارت له كل هذه
التوجيهات أن واجبه أصبح متركزا في الجهاد
ضد الصليبيين ، وإذا كان ثمة ما ينهه من
الإقدام الكلي على الجهاد حتى ولتذلك
كبقاء الموصل وبعض البلاد المجاورة خارجا
عن حوزته ، عاد صلاح الدين سار لأخطأح
هذه البهايا سنة ١١٨٥ ، ولم تنته السنة التالية
حتى دخل أمراء الموصل وشهرزور واريل
وغيرها في طاعته ، ولم يبق أمامه من كردستان
إلى السودان سوى مملكة الصليبيين وغيرها
من الإمارات الصليبية بفلسطين .

وكان صلاح الدين عليا بمواضع القوة
والضنف في الأوساط الصليبية ، وذائق مرارة
الهزيمة على أيديهم في وقعة الرملة سنة ١١٨٧ ،

كما ذاق حلاوه النصر عليهم في وقعة مرج
صيون سنة ١١٧٩ . على أن صلاح الدين لم
ينسأ أن يجعل مشروع توحيد الجبهة
الإسلامية مرهونا بما يأتي به الحوادث من
هزيمة أو نصر في ميدان الفضال ضده
الصليبيين ولذا فصل الإنصاف التي شئون
توحيد الجبهة الإسلامية ، وفتح سنة ١١٨٥
إلى معاهدة مملكة بيت المقدس مؤقتا لمدة
سنتين غير أن عدوا صليبيا أقسمه جو
الهدنة ، وهو أرناط أمير حصن الكرك ، إذ
عند هذا الأمير في أوائل سنة ١١٨٣ إلى
القيام معصاة بحرية من خليج القبة للإمداد
على شواطئ البحر الأحمر ، تمهدا لترحله
على المدينة أو مكة . وأرسل العادل أخوه
صلاح الدين ، وهو وفندك والي مصر سنفا
مصرية تمقت السلن الصليبية هي اشنبتك
معا في ميناء الحوراء شمالي بنيم ، وألحقت
بها وبجنودها هزيمة فادحة . حدث كل ذلك
وصلاح الدين مشغول بأعمال توحيد الجبهة
الإسلامية مرهونا بما يأتي به الحوادث من
الصليبيين لمدة أربع سنوات تبدأ من ١١٨٥ .
وللمرة التالية كان أرناط أمير حصن الكرك
سيلا في الصناد جو الهدنة القائمة بين الطرفين ،
ولذلك أنه هاجم قافلة تجارية سنية وهي تمر
على مربة من حمسن الكرك سنة ١١٨٧
فامتولى على مناجرها ، كما احتجز أمنا
لصلاح الدين كانت على سر مع تلك القافلة
على ما قيل . ولذا أقسم صلاح الدين إبتتن
أرناط إذا وقع في يده يوما من الأيام واعتبر
حادثة القافلة إعلانا بانتهاه الهدنة وبدايه

المدون ، وأرسل في طلب الجند من مصر والشام والبلاد القراية . وخرج صلاح الدين من دمشق في مارس سنة ١١٨٧ مسعداً للقتال ، فعسكر عند عسرى جنوبي قصر يعقوب ، حيث تلاخفت إليه أجناد مختلف البلاد ، واستقر الرعي بين أوروبا مشورته على السير نحو طبرية ، تمهيدا للزحف منها نحو صفورية حيث اجتمع عساكر سلطنة بيت المقدس ، وهي قرية في منتصف الطريق بين طبرية وعكا . على أن الاصطدام وقع أخيرا بين الفريقين عند قرية حطين وهي في منتصف الطريق تقريبا بين طبرية وصفورية ، وذلك في يوم السبت ٤ يولية سنة ١١٨٧ ، وأسفر ذلك الاصطدام عن هزيمة صليبية فادحة ، ذهب فيها معظم جيش مملكة بيت المقدس ، فضلا عن جيوش الإمارات الصليبية التي اشتركت في المعركة ، كما وقع فيها ملك بيت المقدس وأرناؤد أمير الكرك ، وغيرهما أسرى في يد صلاح الدين .

لذلك كانت هزيمة الصليبيين عند حطين بداية النهاية لسلطنة بيت المقدس في فلسطين ويكفي للبرهان على ذلك تسجيل خطوات صلاح الدين بعد يوم هذه الواقعة ، ففي اليوم التالي عاد صلاح الدين إلى طبرية ، فسلمت إليه قلعتها من غير مقاومة ، وهي التي استعصت عليه بعد استيلائه على طبرية نفسها قبيل حطين . ثم وجه صلاح الدين هجومات خاضفة نحو بلاد الساحل ، لينطلق بالأسنيلاء عليها بما عساه يرد من نجدة

أوربية لمملكة بيت المقدس ، فغصلا عن أنه يصل بها بين مصر والشام . وكان اقرب هذه البلاد من مواقع صلاح الدين وقتذاك مدينة عكا ، فسلمت له في ١٠ يولية ، وكانت شروط التسليم أن يرحل الصليبيون عن البلد إذا شاءوا ، أو يقيموا حيث هم بشرط دفع الجزية المقررة ، فمن شاء الرجوع ضابت عليه أملاكه الثانية ، ومن شاء ابقاء بقية أملاكه في يده . وأسرع إلى التسليم بهذه الشروط معظم مدن الساحل شمالي عكا وأجوبها ، فضلا عن كثير من المدن الداخلية بما في ذلك مدينة بيت المقدس نفسها التي كان يسلمها له بعد حصار قصير ، وكل ذلك في مدة لم تتجاوز ثلاثة أشهر من وفاة حطين . والواقع أنه لم تات سنة ١١٨٩ م حتى سقطت معظم المدن الصليبية في يد صلاح الدين ، ولم يبق في حياة الصليبيين سوى امارتي أملاكية وطرابلس وبعض المدن الساحلية ، وأنها صور التي نجحت في مقاومة الحصار لها مرتين ، بسبب ما اجتمع بها من جاليات المدن التي استولى عليها صلاح الدين ، ووصول حملة صليبية ضخمة إليها وقتذاك .

ومن صور نجحت المقاومة ضد صلاح الدين ، فغتها ساربه رسول إلى أوروبا تستنصر ملوكها لتجديد الحملة المروفة باسم الحملة الصليبية الثالثة ، ومنها تحركت القوات الصليبية نحو عكا ، لمحاصرتها عملا في استعادتها من صلاح الدين . وغدت عكا منذ أواسط ١١٨٩ م ميدانا لمعطيات حربية

نصف دائرية تقريبا ومركزها حامية أجوبية تحاصرها قوات صليبية ، وبعدها القنوت الصليبية حاجها صلاح الدين بعمد طيها حصارها للحامية الأيوبية المركزية . ثم لم تلبث الحلة الصليبية المعروفة بالكافة أن وصلت كذلك الي عكا بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وانضم السفن والجند الانجليزية والفرنسية الي القوات الصليبية المحاصرة ، وشددت على عكا الحصار من الجهتي البر والبحر حتى سقطت في يدها بعد حصار طويل حتى أواسط ١١٩١ (يولية) أي مدة سنتين مررتين مغلغلتهما حوادث بطولية حقبية ولغصية ، وكثير منها يدور حول صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد .

ثم رحل فيليب أغسطس ملك فرنسا عن الشرق الي بلاده بعد سقوط عكا ، على حين بقي ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ستة كاملة بالفسام ، وجعل من عكا قاعدة لاستمادة مملكة بيت المقدس . وفي هذه المدة استطاع ريتشارد أن ينتصر على صلاح الدين مرة واحدة في أرسوف ، وأن يستولي على يافا ، غير أنه أفلح في جميع محاولاته للزحف ضد بيت المقدس . ولم تثير أفعاله الحربية كلها شيئا من مجرى الحوادث ، لأن ما أحدثه صلاح الدين بالصليبيين تطلب مجهودا لا تستطيع حملة واحدة أو شخصا واحدا أن تمحوه في بضعة أشهر ، ومن الدليل على ذلك أن ملك إنجلترا عبد بعد انتصاره في

أرسوف مباشرة الي فكرة المفاوضات والمصالحة ، ليصل الي تسوية مرضية لهما تكفل بقاء دولة صليبية أوروبية بالشرق الي جانب دولة صلاح الدين . وانتهت هذه المفاوضات بمقد صلح الرملة (سبتمبر سنة ١١٩٢) الذي اتفق فيه الطرفان على أن تظل المدن الساحلية بين عكا ويافا بيد الصليبيين ، وأن يؤخذ لغنائم الحجاج المسيحي بزيارة بيت المقدس على شرط قدمها من عكا .

وتضح من هذا الصلح أن صلاح الدين حقق في عهده أقصى ما تضافت اليه أجيال المسلمين بالشرق الأوسط ، من حلل حلول الصليبيين بفلسطين ، وأحس صلاح الدين وهو في أوجه هذا أن مسننه تحففت فعلا ، لغير أن العروب والجهود التي تجتمعها من أجل ذلك أنهكت صحته فأصابه المرض ، وتولى بتسحق (مارس ١١٩٣) ، ولما بلغ من العمر سبوي خمس وخمسين سنة ، وقبره على مسافة بسيرة من قبر أستاذه نور الدين بن زنكي ، ومن الجاحح الأموي .

والباحث لا يستطيع الا أن يشعر بالفراخ الكبير الذي أحدثته وفاة صلاح الدين ، وما يزيد في هذا الفسحور أن الدولة الأيوبية المتحددة سري عليها بعد صلاح الدين ما سري على أمثالها من المصور الواسطي من تسميم بين أفراد البيت الأيوبي ، إذ قسم صلاح الدين دولته في وصيته بين أولاده وأخوته وأولادهم . غير أنه لم تعض سبع سنوات على وفاة صلاح الدين حتى طوى أخوه

أوروبا والشرق أنه لا قائمة من معارفة القوى الإسلامية بالشام ، ما دامت السلطة الأيوبية قائمة بصر . وشجعت المدن التجارية الإيطالية على تنفيذ هذا المشروع ، لأن الاستيلاء الصليبي على مصر سوف يسكن لهذه المدن من امتسياس جاليات تجارية لها بالمواحي المصرية ، على غرار ما تم لها بالمدن الفلسطينية وسوق بفتح لها الطريق الى البحر الأحمر ومراكز التجارة الشرقية . ووافق هذا التحول في النشاط الصليبي دعوة البابا الوست الثالث ١٢١٦ م لأعداد مشروع حملة صليبية هي المعروفة بالغامسة . ومن تنفيذ هذا المشروع سنة ١٢١٨ م بوصول أسطول صليبي كبر وغائه الصغار على دمياط . وأسرع السلطان العادل بالتقدم من شمال الشام الى مصر لفتح هذه الحملة الصليبية ، لكنه تولى في الطريق قريبا من دمسق ، وأغرب وقائه تقسيم العدة الأيوبية مرة أخرى بين أفراد البيت الأيوبي ، وكانت مصر من نصيب ابنه محمد المنقب بالملك الكامل ، لولع عليه شبه الدفاع عن البلاد المصرية .

واستطاع الصليبيون الاستيلاء على دمياط ، ومع هذا أظهر السلطان الكامل روح المسألة التي صار عليها الأيوبيون عموما نحو الصليبيين منذ أوائل أيام ابنه العادل عند المعالجة المشككة الصليبية الرابضة بسخما وجنودها في دمياط ، يعرض المفاوضات والمعالجة مع المحافظة على كرامة الطرفين . وحلاصة ما عرض السلطان الكامل أن

الأكبر وهو العادل هذه الموصية ، وملا هو الفراغ الذي أحدثته وفاة صلاح الدين ، وذلك بعد أن أخضع لسلطانه جميع أبناء البيت الأيوبي ، ووجد معظم أملاكهم تحت يده . وأعلن العادل موثقه هذا سنة ١٢٠٠ ، حين خطى الخطوة النهائية في سبيل توحيد الدولة الأيوبية مرة أخرى ، بإخضاع صفي صبي من أحفاد صلاح الدين بالقاهرة ، إذ قال في مجلس من أمراء الدولة أنه قبض على أن أكون أنا بك صبي ، مع الفيخوطة والتقدم ، والملك لس هو بالأرض ، وأنا هو لمن علي والرؤى أن يمضي هذا الصبي الى الكتاب وأقيم له من يؤدبه ويعلمه ، فأذا لأهل وبلغ أشده نظرت في أمره وقتت بمصالحته . وامتد عهد العادل في العدة الأيوبية ثماني عشرة سنة (١٢١٠ - ١٢١٨) وظلت السلطة بيد أولاده دون غيرهم من أبناء البيت الأيوبي ، ولذا كان تاديخ اندولة الأيوبية بعد صلاح الدين ، ثم بعد العادل كذلك ، سلسلة من المنازعات الداخلية حتى اتصت الدولة الأيوبية المتحدة سنة ١٢٥٠ ، وتأثرت بهذه المنازعات الداخلية سياسة الدولة الأيوبية نحو الصليبيين ، فلم يستطع سلاميتها القيام بمجهود مشابه لما قام به صلاح الدين ، بل عدوا الى مياسة المسألة ورغبة في تجنب البلاد وميلات الحروب . وفي هذه السنوات تحول التسلسل الصليبي نحو مشروع الاستيلاء على مصر بالذات ، إذ اعتقدت الزعامات الصليبية في

تياهم البليدة ، لأهم لم يصلوا الى قرارهم هذا الا بعد ثمانية عشر شهرا من تفكيرهم فيه . وقبالة بلدة ملخا ، وشمالى المكرك الأيوبي عند بحر أشموم طناح ، توقفت القوات الصليبية فى البر والبحر استعدادا لمعركة الأيوبيين الى الورا ، وارتأهم عن الطريق الى القاهرة . غير أن السلطان الكامل أمر بفتح كثير من السدود والجسور ، فمكنت مساحات شاسعة من الأراضى ، ولم يلبث الصليبيون أن وجدوا المياه تموتهم عن التقدم الى الأمام ، وتعلمهم عن قاعدتهم العسكرية بدمياط ، ما عدا طريقا ضيقا صدى بلدة أشموم طناح . هكذا انصر الصليبيون ، وذهبت آمالهم فى الزحف جنوبا نحو القاهرة ، ولم يبق لهم سبب الا أن يشقوا لأنفسهم طريقا شمالا عن قاعدتهم فى بساتين ، واهبطوا فرجة المسمييت الانسحاب فى حنى الظلام تعال الماء والصكر بينهم وبين منصودهم ولعقهم هزيمة فادحة . عند ذلك - وليس قبله - رضى الصليبيون بالهجرة التام عن الأراضى المصرية ، فى غير عهد أو شرط ، أواخر سنة ١٢٢١ .

على أن فكره معالجة المشكلة الصليبية بالمفاوضة والمصالحة لقت هوى فى نفس الأميرالمور الألماني فرديريك الثاني ، ودارت بيه وبين السلطان الكامل مراسلات وصلت الى مرحلة الاتفاق على معاهدة سلمة بين الطرفين ، وجاء الأميرالمور فرديريك الى فلسطين على رأس قسوة ومربة من جنده

يجلو الصليبيون عن ديماط والنوالمى ، ثمرة جلاء تماما ، ولا يقدم السلطان للصليبيين مقابل ذلك مدينة بيت المقدس ، ومعظم المدن الفلسطينية التى أخذها منهم صلاح الدين ، أى مملكة بيت المقدس الصليبية وبلاها كلها تقريبا ، ما عدا بلدين صغرتين واقعتين عند الأطراف المصرية الفلسطينية ، وهما الكرك والقفوق لما لهما من أهمية استراتيجية ، غير أن الصليبيين رفضوا هذا العرض السطحي ، ولو كان لهم ضمير دينا فقط لما ترددوا فى قبوله ، بعد أن وضع لهم ان السلطان الكامل ينزل لهم عن مدينة بيت المقدس وغيرها من المدن المتلقة بأصول الديالة المسيحية . أما الأسباب التى دعت الى رفض عرض السلطان لعمى أن المنصور الأيوبي فى المسكر العليى وأسمه بلاجوس رأى أن المفاوضة لا تكون الا عند هزيمة الأيوبيين ، وأن المصالحة لا تكون الا بعد دفع هدية تسلمها الصليبيون لئلا يتحركوا من ديماط . ثم ان المدن الأبطالبة التى اشتركت فى هذه العملية ببناؤها وأمواها وأهلها عز عليها أن تكون هناك شروط معانها الجلاء عن ديماط ، وهى ولقد ذلك الشر التجارى الهام الذى تستطيع المصالح التجارية الإيطالية أن تدم منه الى جوف البلاد المصرية .

وفى صيف سنة ١٢٢١ م ، والتيل على وشك الاستلاء بى، المضان السوى ، تحرك الصليبيون من ديماط ، حسبما انفعت عليه

تجمعت وقتذاك فوق أطرافه غرب آسيا حيث الدولة الخوارزمية ، ولم تلبث أن محت هذه الدولة محوا تاما جعل جندرها فوللا ومناسر مبتثرة تتداول الدخول في خدمة الراغبين في استخدامها ، كما جعل الشرق الأوسط كله عربة لما سوف يقوم به اتنول من زحفه آجل أو عاجل طوامة لتفتحيات حركتهم الموسمية المتراصة . وأدخل الملك الصالح أيوب بن الكامل من هذه المبرالام الخوارزمية فثبات عدتها بظرة آلاله لارس ، ووصلت هذه الفئات الى القمام ، فهاجمت ضواحي دمشق العادية ، كما هاجمت مدينة بيت المقدس الصليبية واحتلتها باسم الملك الصالح سنة ١٢٤٤ ، وهكذا اختل التوازن السياسي احتلالا لظن الدوائر الصليبية في أوروبا والشرق الأوسط من جديد .

ومن باب الأمل في تصحيح التوازن السياسي تصحيفا صليبيا حاسما وصلت الى الشواطيء المصرية حملة ملبية لرليه نقادة لويس التاسع ملك فرنسا وألفت هذه الحملة مراسيها كما فعلت الحملة الصليبية السابقة خارج ديباط ، وكاننا نراه الملك لويس التاسع بذلك أن بيده بهذه البداية من يجارب الصلطة السابقة . على حين أنه وقع في معمم أخطائها الى درجة تجعل الكتاب مضمرا هنا الى استعمال تعبيرات متشابهة لوصف حوادث متشابهة في الحملتين .

وكان الملك الصالح بن الكامل مريضا ، لكنه لم يستسلم للعرض بل عكف على تجهيز

سنة ١٢٢٩ ، لتوقيع هذه المعاهدة الثريمة في تاريخ العصور الوسطى . وخصت هذه المعاهدة على أن يلم السلطان الكامل مدينة بيت المقدس للإمبراطور فردريك باعتبار ملك الدولة الصليبية ، وأن يسلم له كذلك بيت لحم والباصرة وخرق الحج من عكا الى بيت المقدس ، على أن تظل منقطة المسجد الأقصى لظلا من بعض المدن الفلسطينية بيد الأيوبيين . ولعهد الإمبراطور فردريك الثاني مقابل ذلك بأن يصل عسلى منح أية حملة صليبية من أوروبا ، وأن يوقف الأمداد الأوربية عن الإمارات الصليبية بالظاكية وطرابلس ، وأن يكون حليفا للسلطان الكامل . غير أن هذه المعاهدة الكاملة الترهوكية تمت نقدا مررا في الأوساط المسيحية الأوربية ، فضلا عن الأوساط الإسلامية في مصر والشام ، مع العلم بأنها ضمنت السلام بين المسلمين والصليبيين لمدة ستين . ومن الدليل على ذلك أن حركة أو حملة صليبية كبرى لم تحدث رغم ما انتشر من أخبار النزاع والتخاصم فيما بين أبناء البيت الأيوبي بمصر والشام ، وبرغم وفاة السلطان الكامل سنة ١٢٣٨ ، واضطراب أحوال الدولة الأيوبية مدة الملك المنصور المتعاقب الثاني بن الكامل ، وهو الذي خلفه أخوه الصالح بن الكامل سنة ١٢٤٠ م .

غير أن خلوا الأحق السياسي من سحب صليبية كبيرة لم يكن معناه سلام عام دائم في الشرق الأوسط ، وذلك أن غيوما مغولية

قواته في البير والنهر ، فجمع جيوشه أولا عند بلدة أشمووم طنّاح جنوبي البحر الصغير ، وكان معظما من الكبارك الأتراك ، وجمعت مركز قيادته في بلدة المنصورة التي عُدت مشهورة باتمرار أبيه الكامل على الصليبيين في المعركة السابقة ، وأكثر الملك الصالح في تعيين دمياط بالأسلحة والإقونات استمدادا لما عساه يقع عليا من هجوم أو حصار يتطلب دفاعا قويا ، وألف القائد فخر الدين بن حمويه بجزء من الجيش للزول على أثر العربي قبالة دمياط نفسها على البر الآخر . غير أن القائد فخر الدين كان مشغولا بفكرة احتلال ولاة الملك الصالح ، وضرورة وجوده هو قريبا من المعسكر الأيوبي ليستترك في الأزمات والمنازلات التي تنو أخبار الوفاة ، والسحب بسكركه إلى أشمووم طنّاح ، وبانت مدينة دمياط محرومة من الجيش المكلف بحراستها ، ولم تلبث أن وحل عنها أهلها جافلين . ولذا دخل الصليبيون دمياط دون حاجة إلى قتال أو حصار ، واستولوا على ما فيها تقنية باردة .

ثم استمر الرأي الصليبي على الرصاص جنوبا نحو المنصورة ، وخرحت العبيوش العديلية من دساح في نوفمبر ١٢٤٩ . وبينما الصليبيون في أول زحفهم جنوبا توفي الملك الصالح ، خراى للملك لويس التاسع أن التقارير في مئيتها كتبت للصليبيين نصرا سرعيا ثم تنقصت الأخبار عن قيام زوجة الملك الصالح واسمها شجر الدر على شؤون

الدولة وشما يصل ولي العهد إلى مصر ، فأطلأن الصليبيون إلى سرعة النصر الذي شاءته لهم التقادير . وأخيرا استطاع الملك الفرنسي أن يصل بالجيش الصليبي الرئيسي إلى بلدة الهرمون الواقعة على البحر الصغير ، وأصبح هذا البحر فاسلا بين المعسكر الأيوبي المنته من أشمووم طنّاح إلى قرية جديدة وبطلت المنصورة وبين المعسكر الصليبي المركز في الهرمون وتباوش الجيشان من هذين الموقعين مدة شهرين ونصف شهر - أي حتى أواخر يناير سنة ١٢٥٠ . وكان الملك الفرنسي في هذه الأثناء مشغولا بإقاسة جسر من الخشب في عرض البحر الصغير ليبر منه إلى المعسكر المصري الأيوبي ، غير أن هذا المشروع عثما مستحيل التنفيذ ، ووقفه العمل فيه بعد أن جاء أحد الخونة إلى المعسكر الصليبي وأرشده الملك إلى مغاضة لعمور جبلة متما إلى مواقع الجيش الأيوبي . وغرت الضلالع الصابغة ذات يوم قبل البحر بقيادة أخي الملك ، وتفقدت حتى هجعت فجألا على المعسكر الأيوبي في جديدة . وانتبهت الطرفان اشتباكا عاما مات القائد فخر الدين قتيلاً في أوائله وتمهزت الجنود الأيوبية إلى المعسكر الرئيسي بالمنصورة ، ووراهها الضلالع الصليبية . ودلن أشو الملك الفرنسي أن النصر الصليبي السريع اضمى فإب قومين أو أدنى . غير أنه لم يلبث أن رأى منه في النصر السريع يخيب كل الخيبة ، إذ دخل بلدة المنصورة فوجدتها خالية من المقاومة ، ثم لم يكده يقرب

الغنية ، ولا سيما حتى التفاوض التي
اشتملت في المعسكر الصليبي اشتغالا ممتدا .
وكذا جمع الملك الفرنسي مجلس قادة جيشه ،
وقرر معهم وجوب التفتت إلى ديمياط ، على
أن تكون عودة الرضى والجرى على المراكب
الصليبية الباقية في النيل ، وأن تكون عودة
الجبلى عن حلب إلى اليرموك وغازي سكور ،
وبدأت هذه الحركة التفتتية في البر والنهر
أوائل أبريل سنة ١٢٥٠ ، وكانت هذه البداية
مؤذنة للمساكر الأيوبية أن تخرج من
المنصورة لمطاردة الصليبيين وحرقة تفتتهم .
ثم لم تلبث هذه العملية أن انقلبت من مفارقة
وحرقة إلى حركة تطويقية عرفها الاحاطة
بالجيش الصليبي واجبارها على التسليم
وترات الهزيمة المحتومة للملك الرضى وهو
يعالج الآم المرضى بالعصى وقتذاك ، ولا يكاد
يستطيع الجلوس على ظهر فرسه ، ولذا رضى
بالتسليم قبل قوات الأيوبيين ، وجاءت طائفة
من الجند الأيوبي فسلمت الملك الفرنسي أسيرا
مكبلا في السلاسل إلى المنصورة حيث سجن
عدة بدار قاضيها إبراهيم بن لقمان ، وهي دار
لا تزال قائمة بفارح الحوار بالمنصورة
العالية . ثم اتفق الطرفان على أن يجلسوا
الصليبيون عن ديمياط جلاء تاما ، وأن تجسر
السلخ الصليبية عن التسواطي المصرية في
سرعه ، وأن يتهد الملك بدفع فدية مالية تعين
سبلتها وموعده دفعها وأن يدفع كل من كبار
الصليبيين فدية عن نفسه ، وكل ذلك مقابل
إطلاق سراح الملك وكبار الصليبيين ، فضلا

من القصر الملكي حتى أعادت بعبوته حركة
تطويقية متفق عليها . وبذا انقلب النصر
الصليبي عند جديفة إلى هزيمة طامة عند
المنصورة ، حيث بلغ عدد قتلى الصليبيين
ما يقرب من ألف وخمسة مائة في بضع ساعات ،
وهو معظم عدد الملائح الصليبية .
أما الملك الفرنسي فمهر البحر الصغير ،
وتقدم استمدادا إلى صوف يقسم به الجيش
الأيوبي من حركات هجومية . وتمتدّد حتى
القتال بين الفرنجيين ، وتبادل الأيوبيون
والصليبيون النصر والهزيمة ، وظل المعسكر
الصليبي في مواضعه خارج المنصورة ، مالا
في أن يدب النزاع في المعسكر الأيوبي بين
السلطانة شجر الدر وولي العهد نورانشاه
عند وصوله إلى مصر ، لكن لانا لم يقع في
الصورة أو في الرمة التي تطامن إليها الملك
الفرنسي ، بن وصل الملك الجسدي إلى
المنصورة وتسلم زمام الموقف ودل على مهارة
فائقة بما اتخذ من تدابير حريصة مشنومة .
وكان أول هذه التدابير أن أمر نورانشاه
بإحضار أسطول من السفن الغنية ، وحملها
وهي منفصلة على نفود الجسال إلى مكان
يميد شمال المنصورة ، حيث تم تركيبها
وتفويسها في النيل واستخدامها لمنع المراكب
الصليبية الواردة بإلوان من ديمياط من
الوصول إلى معسكر الصليبيين . واستطاع
هذا الأسطول أن ينهض بهذه المهمة ، وبانت
الجيوش الصليبية مهتدة بالمجاعة . ثم لم
تلبث المجاعة أن تعقبها الأمراض الوبائية

عن عامة الأبرياء الذين تم الاتفاق كذلك على إطلاق سراحهم بعد الوفاء بأخسر قسم من أقسام المدينة المكيّة .

ثم كان زوال الدولة الأيوبية بعد هذه الحوادث التي ظهرت فيها مسألة معاليك السلطان الصالح وشجاعة زوجته شجر الدر ومهارة خلفه تورانشاه ، ذلك أن تورانشاه أساء الظن بماليك أبيه ، وهم أصحاب الفضل في وطمه المنصورة ، واعتقد أنهم يعملون مع شجر الدر على خلعهم ، فأخذ يضيق شجره بختلقه الوصائل ، ويضيقها بجوارحه أموال أبيه واختلافها عنه ، وهو طامع في ملكها بها ، ويزعم للماليك . غير أن هؤلاء سبقوه إلى مثل ما دبره لهم ، إذ اقتلوه شر قتلة في مارسكور سنة ١٢٥٠ . وهكذا كانت نهاية الدولة الأيوبية في مصر .

وبما يتبادر للذهن هنا أن تاريخ الدولة الأيوبية لا يبدو أن يكون تاريخاً لمكوّنين جهة إسلامية منحدّة ، واستخدام سلاح الدين لما نأدى له تلك العجبة المتعددة من هزة عسكرية هدم بها مملكة بيت المقدس الصليبية تقريباً وهذا وذلك صحيح في جملته وتفصله ويدل عليه ما تحقق لمعظم سلاطين الأيوبيين منذ أيام صلاح الدين إلى أيام نور الدين من توميقات في ميادين الحرب والسلام وما بينهما من دبلوماسية ماهرة اشتهر بها السلطان العادل صاحب الفضل في معاهدة البندقة التي أعيدت الحملة الصليبية المروقة بالرماة عن مصر ، والسلطان الكامل صاحب المعاهدة

الكاملية الصليبية التي عطلت مشروعات الصليبيين لمدة عشر سنين ولدينا من الوثائق المتقولة من تحددات القضاة المتفاضل ما يساعد على تقدير أعداد القوات البحرية والبحرية التي استعان بها صلاح الدين في أمته البحرية المخلصة وتقدر القوات البحرية مثلاً بها لا يقل عن خمسين مئراً الف فارس من الأتراك والأكراد ، وأولئك عدا جيوش الشام والجزيرة ، وهرباء الأقاليم المصرية والشامية . واشتعلت القوات البحرية على سفن مشرقة عدتها خمسون سفينة لحماية السواحل المصرية والشامية ، وثلاثون لأعمال الهجوم البحري على موانئ الصليبيين . وتوحدت هذه السفن ، فكانت منها الشينى والغراب والطريفة والحراقة والسفندية والبسة والحسانة ، والمركوش والفوقل وجرى الامسلاخ على نسبة وجبال هذه السفن باسمه وجبال الأسطول ، كما بلغ من عتابة سلاح الدين بشؤون البحرية ما جعل لها ديواناً خاصاً سماه ديوان الأسطول .

واعتمدت لغات هذه القضاة البحرية والبحرية ، كما اعتمد جزء كبير من لغات الدولة عسوما ، على تنظيم نظامه أصله صلاح الدين بصر والنسب محل نظام الروان والأعطية ، أسوة باللاجئة والرتكيبين قبله نذا سارت الأراضي كلها أقطاعات للسلطان وأبناء البيت الأيوبي وأمره الدولة الأيوبية وأجنادها . وانقسمت هذه الأقطاعات إلى نوعين ، وهما الأقطاعات الإدارية التي يختص

فصلى الزمبي والصيف حين تصدو ملاحاة
المصور الوسطى في البحر الأبيض المتوسط
أقل تمردا للاخطار .

وجلبت هذه السفن وأصحابها من أوروبا
الى ميناء الاسكندرية وسائر الموانئ المصرية
والشابة كميات كبيرة من انحاء والجسوخ
والقطران والحديد والأخشاب والإسراع ،
وذلك رقم تحريرهم للمرسومات البابوية على
التجار ان يتاجروا مع مصر في المواد البحرية
التي يمكن استعمالها في أعمال حربية .

وأغلل التجار الأوروبيون — ومعظمهم من
البنادقة والبيادنة والجنوية هذه المرسومات ،
لأنهم اشتروا بالمان بضائعهم هذه بضائع
شرقية غدت الأسواق الأوروبية التي طلبها
بكميات متزايدة سنة بعد أخرى ، وأهمها القطن
والقرفة وجوز الطيب والقرنفل والنسك
والكافور والطاج والبخور والشر والبنسلة
والقوثر والزمرد والشب والظرون والأقشعة
الرفيعة والمنسوجات الكماشة والعربية
الحوشاء بالذهب والفضة والبسط والسكر
والحلوى .

وأنتجت مصر جزءا كبيرا من هذه السلع
المادية والصناعية فأخرجت مناجمها الزمرد
من قرب قوصي ، والنسب من قرب أسوان
والواحات والنشرون من وادي القطرون
ومنخفض الغمارة ، كما أخرجت مراكزها
الصناعية في تيس وديمان والاسكندرية
واديق أنواع المنسوجات ، فضلا عن
الماس التي أنتجت كميات وغيره من المعكر
بالوجه القبلي .

بها السلطان وأبناء البيت الأيوبي وكبار
الأمرام والمؤمنين وكل من هذه فتن عاد مع
وحده اقليمية ادارية ، ثم الاقناعات البحرية
التي يستعملها السفان مقابل ما يؤديه انقلح
للذولة من خدمات حربية بانتاء عدد من
الفرسان وتقديهم للجيش العامل بين العرب ،
ولم تكن هذه الاقناعات بوجها وراثية ، بل
للسا ظل الاقناعات في يد واحدة مدى الحياة ،
وكفى دليلا على ذلك ان الوظائف الكبرى
كانت مربوطة الى القناعات مبنية لا تنذر ،
فاذا انتقل صاحب وظيفة ما الى ولاية أعلى
انتقل بذلك الى اقناعات جديدة ، وهكذا .

وبالإضافة الى التنظيم الاقناعات وموارده
التي استمدت الدولة منها جزءا كبيرا من
شقاها ، استمدت الدولة كذلك على عدة منابع
مالية أخرى ، وأهمها الخراج المنحصل من
الأراضي المزروعة ، وخراج العائد مثل الزمرد
والشب والظرون ، وأموال الزكاة التي نشأ
صالح الدين من أجلها دبرانا خاصا ، وأموال
الغمس الموقوف على المدر الأجنبية الواردة
من أوروبا الى دسباط والاسكندرية ، وأموال
المكوس المرسومة على البضائع التي يجلبها
التجار الكارمية في البحر الأحمر الى عيذاب
والصعد والنشور والسويس .

ونشطت التجارة في ذلك العصر الأيوبي
بشما دل عليه أن تعداد السفن التجارية
الأوروبية الرامية في ميناء الاسكندرية وحدها
بلغت في سنة ١٢٨٨ م سبعة وثلاثين
سفينة ولابد أن هذه الأعداد زادت كثيرا في

على أن الظاهرة الكبرى التي استقامت
 لخص في هذا الميدان التجاري هي كونها
 المستودع الدولي انعام لتجارة مناجر الغرب
 والشرق ، فكما تكندت البضائع الأوروبية في
 الموانئ المصرية الشمالية ، امتلأت موانئها
 الجنوبية على نهر النيل والبحر الأحمر بحركة
 تجارية فيها من كميات البضائع الشرقية ما جعل
 الطريق النهري من القاهرة الى المنيا ومن المنيا
 الى أسوط ولطوس وعيذاب ، أشبه بشيء
 بطريق الاسراطورية البريطانية الى الصد في
 القرن الثامن عشر الميلادي . ووصف ابن جبير
 هذا الطريق الدولي العظيم ووصف حجاج ناه
 بفسون الحج والتفوي عن شئون المشاجر
 والأموال والمكوس ، إذ تنقل بين مراحل حتى
 عيذاب ، فوصف فوس مثلا بأنها كانت مدينة
 حافلة الأسواق منسجة المرافق لكثرة الصادر
 والوارد إليها من التجار المصريين والمغاربية
 واليمنيين والهنديين ولتجار أرض الحبشة ،
 كما وصف عيذاب بأنها كانت من أحل مراسي
 الدنيا في العصور الوسطى ، سبب أن مراكب
 الهند كانت تهبط إليها وتقلع منها ، وهذا
 فضلا عن مراكب الحجاج الى جدة ، وهي
 التي كانت تسمى العلاب ، وواحدتها جبلية .
 وشهد ابن جبير من فوافل البضائع في هذا
 الطريق ما أعجزه عن الإحصاء ، ولا سيما
 اقوال العيذابية المحملة بسلع الهند الواصلة
 الى اليمن ، ثم من اليمن الى عيذاب ، وخيل
 اليه أن أحمال الثقل والقرقة في هذه القوافل
 توازي التراب في كثرة كمياتها ، فإذا تعطلت

هذه الأحمال في الطريق بسبب اعياء الأبل
 الحاملة لها بقيت مطروحة لا حارس لها حتى
 ينقلها صاحبها مصنوعة من الآفات والمسرقات ،
 تنوبها بأحوال الأمن والرخاء الاقتصادي في
 مصر زمن السلطان صلاح الدين غير أن هذه
 العبارات الوضعية الدافعة على مركز مصر في
 تجارة الشرق زمن الأيوبيين لم تطل من لقد
 مرير لأعمال رجال الديوان (الجسرلة) في
 مختلف الحواشي والمدن ، لأنهم لم يميزوا شيئا
 بين الحاج والتاجر ، ليهتموا متاع هذا
 وذات بعضا عن المال ، ويفرضوا الزكاة على
 ما يجدهونه ، سواء حال عليها العول أو لم
 يحل ، مع العلم بأن صلاح الدين أبطل
 المكوس على الحجاج ، وهي سبحة دلالة
 ونصف دينار من الدلائل المصرية يلتمسها
 الحاج الواحد عن نفسه بعيذاب أو جسة ،
 برسم ميرة مكة والمدينة .

وكان الغاء هذا المكس الثقيل جزءا من
 حيلة سياسية ضخمة استعمل صلاح الدين بها
 عهده من باب الدعاية الطيبة لدولته المسنية
 وللتشريف عن كولهل الناس . ولذا بلغت حدة
 المكوس التي ألغها صلاح الدين مرة واحدة
 في مرسوم واحد خمسين مكمسا ، قيمتها مائة
 ألف دينار سنويا ، أي مليون دينار في عشر
 سنوات ، ذلك فضلا عن كميات هائلة من
 القلال التي سامح بها ، وأبطل تحصيلها من
 المستحقين عليهم . ومن هذه المكوس ما كان
 معروفا باسم مكس البهار ، ومكس البضائع
 والقوافل ، ورسم الخشب الطويل ، ورسم

التحتيى ومسمرة الكتان ، ومربعة العسل ، وغير ذلك من المكوس الثيرة للسخط . أما معنى هذه السياسة القريية الحكيمية فهو أن المجتمع الأيوبي المصرى تمتع بكثير من الرخاء الاقتصادى سواء من ناحية هذه الاعطامات العامة من المكوس ، أو من ناحية الحركة التجارية الناشئة فى البحر والبحر ، ومن ناحية النهضة الصناعية التى تطلبت حركة التجارة الداخلية والخارجية ، بالإضافة الى ما تطلبته الجيوش البرية والبحرية من أنواع الملابس والأسلحة والسفن والألصمة .

ويبدو أن هذا الرخاء الاقتصادى فسط صفة للمجتمع المصرى الأيوبي حتى بسد سلاح الدين بدليل الماهدات التجارية التى عقدها حلفاؤه من السلطان العادل فصاعدا مع الجمهوريات الإيطالية والامبراطورية ، وبدليل الصدام ثورات الفلاحين فى المصر الأيوبي كله ، وهذا وذلك فضلا عن هيلل ثالث هو استطاعة القوات المصرية الأيوبية أن تنلب على حملتين صليبين كبيرتين ، وهما الحملة المعروفة بالقاسية بقيادة حنا برت ، والعملة المعروفة بالماسية بقيادة لوس التاسع ملك فرنسا .

وللدولة الأيوبية آثار روحية عميقة فى الحضارة الاسلامية فى مصر والشام ، نتيجة انتقال الحكم من الفاطميين الشيعة الى الأيوبيين السنيين ، وأون ذلك ما عسد اليه سلاح الدين وحلفاؤه من تعضيل معاهد الدعوة الشيعية ومذاهبها ، وأسيس المدارس

السنية بالقاهرة والاسكندرية ودمشق وغيرها من المدن الكبرى . وأهم هذه المدارس التى رادفت لواءة منها الكلية الجامعية فى العصر الحاضر ، المدرسة الناصرية الصلاحية التى بناها السلطان الناصر صلاح الدين بجوار مسجد الإمام الشافى لتدريس فقه الشافعية خاصة . وهذه المدرسة زادها ابن جبير قبل أن يكتمل بأؤها الفصح الأتني ، ووصفها بأنها لم يمر بالشرق الأوسط مطلقا من حيث المساحة والبناء ، حتى أنه لبخيل لمن يتطوف عليها بأنها بلد مستقل بذاته ، وبازالها الحمام والمسكن للطلاب ، التى غير ذلك من المراتى . ولقى ابن جبير شيخ هذه المدرسة الناصرية الصلاحية ، وهو نجم الدين الضيوشانى ، ولم يلق من كبار رجال مصر غيره ، ولتته صادف أو عمل على لقاء صلاح الدين ، أو أخيه العادل ، أو بهاء الدين قراقوش ، أو الفاضل الفاضل ، وهم أصحاب الفضل الأول فى إقامة الدولة الأيوبية .

على أن هذه المدرسة الناصرية الصلاحية لم تكن أولى المدارس التى ألقاها صلاح الدين فى مصر ، كما أن فقه الشافعية الذى اتخذه مذهبها رسميا للدولة الأيوبية ، وخصص هذه المدرسة لتدريسه ، لم يكن كذلك المنحى السنى الوعيد الذى حظى بمعاية . والواقع أن أول مدرسة أنشأها صلاح الدين بمصر هى مدرسة أسسها كذلك المدرسة الناصرية ، بجوار جامع عمرو بن العاص ، ثم لم تلبث هذه المدرسة أن اشتهرت باسم مدرسة ابن زين التجار ، نسبة الى أحد أعيان الشافعية

هذا الأمير . ومدرسة ابن الأرسوف ، نسبة إلى التاجر عفيف الدين عبد الله بن الأرسوف . وانتشر بعد هذه المدارس الجديدة في ازدياد ونمو زمن الأيوبيين ، كما تطور التعليم فيها تطوراً ملحوظاً ، فظهرت المدارس المتخصصة لتدريس علم الحديث ونموذجها المعروف هو المدرسة التكاوية التي أسسها السلطان الكامل بن العادل ، وكانت الأولى من نوعها في مصر ، وتم بسبقها في هذا التخصص سوى المدرسة العادلية بدمشق نسبة إلى السلطان العادل نور الدين محمود ابن ركني ولاحية أخرى من ذلك التطور أن بعض المدارس أخذت تسع لتدريس فقه الصنابلة ، بحيث صارت هذه المدارس شاملة المذاهب الأربعة ونموذجها المعروف المدرسة الصالحية التي أسسها السلطان الصالح أيوب أواخر أيام الدولة الأيوبية .

ولم يهتصر هذه النهضة الثقافية الأيوبية على مصر ، بل تمدتها إلى الشام ، بحيث بنيت العادلية الكبرى .

ولى هذه المدارس جرى تدريس عدة علوم مساعدة إلى جانب الفقه والحديث والتفسير والتقراءات والمنطق والحساب فاشتملت برامجها على النحو والهندسة والهندسة وعلم الهيئة والموسيقى ، على مستويات مختلفة بحسب الحاجة إليها ،

ولمنا في هذه النهضة السنية اجتذبت الدولة الأيوبية جنابلات من القراء الصوفية من مختلف بلاد الشرق الأوسط ، وجمعل السلطان صلاح الدين من أولئك المتصوفة

الذي بدأ التدريس بها ، وصارت تعرف بعد ذلك باسم المدرسة الترفيفية نسبة إلى الشرف قاضي المسكر الذي درس بها كذلك ، ويجوز أن جامع عمرو بن العاص كذلك قامت المدرسة الفصحية التي أسسها صلاح الدين لتقهاء المالكية ، وعرفت باسمها هذا لأن الفصح الذي جاء من أوقافها بالقبوم كان يورع مباشرة على مدرستها وبلغتها وأسبأ صلاح الدين كذلك المدرسة السببوية مذهب الحنفية ، واشتهرت هذه المدرسة باسمها هذا من أجل أنها أنطقت على سوق السببوين بالقاهرة وتندلك .

وأسدت هذه القوى المتبعدة بالعاصمة المعمارية إلى أبناء البيت الأيوبي وسمراء الدولة الأيوبية وكبار مؤلفيها ونسائها فأثقت الملك العادل محمد آخر صلاح الدين أندرسة العادلية ، وأقام أخوه الآخر تقي الدين عمر المدرسة المعروفة بشارع العز أو المدرسة الثموية نسبة إلى الأمير تقي الدين نفسه ، كما أنشأ هذا الأمير مدرستين بالقبوم بعد أن صارت بلاد القبوم جزءاً من إقطاعه . وأنشأ القاضي الفاضل وزير السلطان صلاح الدين المدرسة الفاضلية للشافعية والمالكية ، وهي المدرسة التي احتوت على مكتبة بلغت كنفها فيما قيل مائة ألف مجلد في مختلف العلوم .

ومن هذه المدارس كذلك أندرسة الأراكبية انحنفة ، نسبة إلى مؤسسها أركش أحد أمراء السلطان صلاح الدين ، والمدرسة العاشرية نسبة إلى الست عاشوراء زوجة

دعاة للمذهب السنى ، وخصص لهم دورا تسمى الواحدة منها الخانقاه ، وهي كلمة فارسية معناها بيت العبادة ، كما شجع كثيرا من المتصوفة المخلصين على سكنى الربط والروايا ليكنون هداة ووعاظا منجوثين بين الناس . وأولى خطاه : يومية هي العبادة الصلاحية ، وأولها دار فاطمية كبيرة اسمها مسجد السعداء بجوار دار الخوارق ، واختار صلاح الدين هذه الدار عمدا لهما يسدو لتكون للفقهاء الصوفية ، وجعل لها رئيسا منهم ، وثقف علما بمسألة جهات ، ورب لسكانها طعاما يوميا ، كما بنى بجاليها صابنا خاصا . واتخذ رئيس الصوفية مكان هذه الخانقاه شيخ الشيوخ ، وترعى هذه الوظيفة أولاد ابن حمويه الجوينى مع ما كان لهم من الدولة الأيوبية كلها من الوزارة والإدارة وتدير الدولة وقباده الجيش وتقدمه المساكين ، على قول المقرئى ، والمسرحم فخر الدين يوسف الذى قتله الصليبيون فى رقعة جديدة قرب المتصورة .

وأضحى لهذه الخانقاه الصلاحية صيت دينى ذائع ، وصار اسمها رمز الصوفية ، وغدا المتاد فى كل يوم جمعة أن يأبى الناس من مختلف البلاد الى القاهرة ليعسجدوا صوفيتها ، وهم متوجسون فى دوكهم الى صلاة الجمعة بجامع اتعالم الكاظمى ، دون غيره من الجوامع ، ويبدأ هذا الموكب بخروج شيخ الشيوخ من الخانقاه ، وبين يديه خدام الرتبة الشريفة وهي محمولة على رأس أكبر الخدام ، والصوفية سائرون وراءهم فى

سكونة وخشوع . وعند وصول هذا الموكب الى جامع الحاكم ، يدخل الصوفية مقصورة اسما وتندك مقصورة البسلة ، إشارة الى البسلة المكتوبة فى صدرها بحروف ضخمة ، فيصلى شيخ الشيوخ ركعتي تحية المسجد ، ثم يجلس الصوفية ، وتوزع عليهم أجزاء الرقعة للقراءة قبل الأذان والضربة ، ثم اذا قضيت الصلاة قام قارئه من فراء الضائقات ، ورثل بطسح آيات من القرآن ودعا للسلطان صلاح الدين ولسائر المسلمين ، وكان ذلك الدعاء بشابة إشارة لاستعداد المركب للعودة الى الخانقاه ، حيث يكون الناس لى انتظارهم للشرك بهم .

وبالإضافة الى هذه الخانقاه والمعارس التى غيرت ملامح المجتمع المصرى وطوقته زمن الأيوبيين اختط صلاح الدين القلعة بالقاهرة وشرع لى تسوير القاهرة ومصر بسور واحد من الحجارة ، الرجوع أن صلاح الدين بدأ فى هذين المنسردعين الكبيرين فى وقت واحد ، فأراد من بناء القلعة أن يجعل لثونه وحكومته وجهته سكلنا جديدا ، لا صلة له بالقاهرة الفاطمية وتصورها وذكرياتها ، كما أراد ببناء السور أن يجعل من القاهرة ومصر وحدة حرية واحدة ، بحيث لا يحتاج كل منهما الى حرسية خاصة من التجند . وتعتبر القلعة من الناحية العسكرية أعظم ما بدأه صلاح الدين من منشآت ، ومن المعروف أنه توفى قبل أن يكتمل بناؤه ، وأن خلفاء من السلطان العادل فصاعدا اضلغوا

اليها اشغافات انشائية ومدعية كثيرة ، فبنى العادل الثلاثة الأبراج الكبرى الكائنة بالجباب الفيلى ، كما أتم بناء اليرجين الكبيرين الواقعين في الركن الشمالى الشرقى ثم جاء الكامل فبنى الأبراج والقصور المسلممانية وباب السم المؤدى اليهسبا ، والاصطبلات وقاعة المساجد الوزير ، وأبراج حمام الزاجل اتي غدت مركز البريد بين مصر وسائر بلاد الدولة الأيوبية من أسوان الى حلب ، وخزانة الكتب التى ضمت مكتبة القاضى الفاضل ، ونقل الكامل الى القلعة دواوين الادارة والحكم ، وتحويل هو من دار الوزارة الفاطمية التى سكنها صلاح الدين وأغوى العادل بسنده الى أحمد القصور السلطانية الجديدة ، ثم بنى السلطان الصالح أيوب بن الكامل القاعة الصالحية التى اهدت خصيصا لتكون مسكنا سلطانا يهدا عن سائر المباني الحكومية . وهكذا سارت القلعة مقر الحكومة والبلاط والجنين في مصر ، منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادى . غير أن هذه المباني الأهلبة لم يبق منها سوى اسماء أو موضعا ، وحلت محلها مباني جديدة في العصر المملوكى والممصور التالية .

أما أهمية بناء القلعة والسور هى أولا : أن تركيز الجهاز الحكومى والإدارى والجنين في القلعة جعل القاهرة تسمى فوا جديدا من ناحيتها الجنوبية ، حتى تم الاتصال الفعلى بينها وبين القلعة ، كما أن امتداد السور الجديد الى التبل من ناحيتها الشمالية جعل من اليسير أن تنمو القاهرة كذلك في هذا

الاتجاه . ولهذا وذلك اشغالات العاصمة الأيوبية بحركة بنائية واسعة ، وشهد الرحالة عبد الطيف البندادى الذى زار القاهرة أواخر عهد صلاح الدين ، وتل بها مدة غير قصيرة ، ما نجم عن هذه الحركة البنائية من دور مكثفة عالية البناء ، وحمامات عامة وحية وأسواق مستوفى .

واتصل عهد الطيف البندادى في أثناء رحلته هذه بأعظم رجال الدولة الأيوبية أمثال الوزير القاضى الفاضل ، والكتاب المؤرخ عباد الدين الأصفهانى ، والادارى الشهير بهاء الدين قراوش ، وكثير غيرهم ممن أسهموا في خلق حركة عظيمة أدبية كبيرة ، وشجعت الدولة الأيوبية بدورها هذه الحركة العظيمة تشجيا واضحا منذ أيام صلاح الدين ، ولذا فمن حق هذه الدولة وسلطانها أن يضم هذا التلخيص الحضارى للعاصمة باستعراض لأسماء العلماء والأدباء ورجال السياسة الذين أنجبتهم هذه الدولة ، وحسم بالإضافة الى المتقدمة أسماؤهم ، العالم الزاهد نجم الدين الحنوشانى شيخ المدرسة الناصرية ، والأستاذ ابن مثنى فاطر الدواوين ، وموسى بن ميون الطيب ، وشيخ الشيوخ صدر الدين بن حوى شيخ الفقهاء الصلاحية سعيد السعداء ، وجاء الدين بن شداد المرغى وزميله شهاب الدين عبد الرحمن المعروف بأبى شامة والشاعر العظيم بهاء الدين زهير ، والقاضى جمال الدين بن فاضل صاحب التاريخ الحافل بحوادث انقضاء الدولة الأيوبية وبداية عهد سلاطين المماليك .

الدولة المملوكية الأولى

الدكتور محمد مصطفى زياد

(١٢٥٠ — ١٣٨٢)

وبالإضافة إلى حصفه التوفيقيات الكبرى أسهمت السلطة المملوكية الجديدة بسم كبير في تطور الحضارة الإسلامية وثقافتها ، نتيجة انتقال مركز الخلافة من بغداد إلى القاهرة ، وهذا فضلا عما أسهمت به من دور فعال في التجارة الدولية منذ القرن الثالث عشر الميلادي حتى كلفه الطريق إلى رأس الرجاء الصالح والهند وأمريكا في أواخر القرن الثامن عشر .

والممالك — كما يدل عليه اسمهم . ارتقاء أسبغوا في حيازة أو ملكية عهدهم عن طريق البيع أو المبادلة أو الأسرى الحروب أو المهاداة ، أو كجزء من الضريبة المفروضة على أحد الحكام التابعين . ولكن إذا كان كل سلوكة في أصله وقتها لهم يكن كل رقيق من طبقة المماليك . وذلك أن الرقيق في الإسلام لما سمود أو أبيض ، وفق أصولهم والبلاد المصدرة التي جلبوا منها . فالنوع الأول كان من الزنوج والسمود عامة وخير مثل لهم جماعات الزنج بجنوب العراق في القرون التاسع ليلادي .

وكذلك الأمير كافور الاخشيدى الذي

لم يكده النصر يحقق على حملة لويس التاسع الصليبية سنة ١٢٥٠ حتى شهدت مصر نجاح سلطنة المماليك ، وهي السلطنة التي سملت في عز أيامها مساحات واسعة منه في معالمها الرئيسية الامبراطورية الأيوبية التي سقتها في الشرق الأوسط . ذلك أن السلطنة المملوكية شملت جميع الأقاليم الحديثة المعروفة باسم مصر وفلسطين وسوريا وبنان ، فضلا عما كان لسلطين المماليك من سيادة متقطعة على بعض الفلاح والمدن في أطالي اترات والجهات الجنوبية الشرقية من آسيا الصغرى وشمال السودان وبرقة والعجاز .

والذا تبعت السلطنة الجديدة في أن ، البيت الأيوبي في الحكم ، فإن عوامل هذا النجاح لا ترجع إلى النصر الفنى أحرزه القادة المماليك على حملة لويس التاسع الصليبية فعمد ، بل إلى عوامل بائنة مكنت لهؤلاء التساهة من إقامة دولة استطاعت أن تكسر موجة الغزو المنولى في وقعة فاصلة وإن تزعم حركة الجهاد ضد الصليبيين في المرحلة الأخيرة من مراحل الحروب الصليبية بالشرق .

حكم مصر فيما بين سنتي ٩٦٦ ، ٩٦٨ م .
 أما النوع الثاني وهو الرقيق الأبيض —
 هؤلاء هم المماليك ومعظمهم في الأصل
 ترك جاءوا من مختلف أقاليم آسيا
 الوسطى ، أوقات السلم والحرب . ثم لم يلبث
 لفظ ملولك أن أصبح معناه حتى تشمل جميع
 أنواع الرقيق للجنوب من غرب آسيا وكثير
 من أقاليم أوروبا ، بما فيها الجيومات المحيطة
 بالبحر البلطي .



تدفق أولئك المماليك على المجتمع الاسلامي
 في أعداد كبيرة بآيات باختلاف البلاد التي
 ينسبون اليها ، وذلك منذ أيام الخلافة
 العباسية في بغداد عندما أصبح العبيد
 العباسي يهوى أعدادا متزايدة من الرقيق
 لأبيض . ثم كثر أنواع المماليك نتيجة
 لبشاط حركة التوسع الاسلامي عن طريق
 الفتح والغزو أو التجارة فكان منهم التركي
 واليوناني وانصليبي والكرجني والأرميني ،
 ولكنهم تباهاوا جميعا بنسبة أصحهم
 المماليك ، من باب إطلاق الجزء الغالب على
 الكل ، ولا سيما بعد أن ولدوا أصحاب الرق
 واضح في توجيه السياسة الاستعمارية في
 العصور الوسطى ، كما أصبحت حساباتهم
 موضع دراسة المؤلفين . ومن أمثلة ذلك
 وصف ابن حنون المتوفى سنة ١٠٥٨ للملوك
 التركي بأنه : « لم يرض إلا بأن يساويه سيده
 في مطعمه ومشربه وملبسه ومركبه ، لا يفسد

في خدمته إلى ما يفيد اليه سواء من العاطلين
 في الرق ، والمجولين بالسي ، ككنس الدار
 ومياة القواب ، وما أشبه ذلك مما يستخدم
 فيه سائر الرقيق . وليس يرضى التركي إذا
 خرج من وثاقه إلا بزعامة جيش أو التوسم
 بصحابه أو الزيادة على فرقة ، والإلمر وانصي
 على عصبية » .

وتدل شواهد تاريخية كثيرة في العصور
 المتقدمة والمتأخرة على مدى العناية بتربية
 هؤلاء المماليك وتدريبهم ليصبحوا عساة
 الجيوش التي انضمت عليها الدول الاقليمية
 المستقلة في العالم الاسلامي . ومن عبء
 سلطة السلطنة (١٠٣٦ — ١١٥٧ م)
 اذا اعتمد سلاطينها على هذا النوع من الجنود ،
 ووسعت وزيها السجهر نظام الملك (ت ١٠٩٢)
 في مؤلفه « سياسة نامه » مختلف المراحل
 التي يمر بها المملوك منذ دخوله ملكية سيده
 إلى وقت عتقه ، حين يفكر حرا ويصبح
 فارسا ، ومن ثم يستلج أن يرتقى إلى سلط
 الوفاة العسكرية والسياسة وفي أيام هذه
 السلطة السلجوقية هم النحور من الاعتماد
 التفتق إلى الاقتصاد الاقطاعي العسكري ،
 بحيث صار أبواب الوفاة العسكرية
 والإدارية — ومعظمهم من المماليك يتكون
 على أساس نظامي شعوى حربي .

وسارت الدولة الأيوبية (١١٧٤ -
 ١٢٥٠) التي تفرعت بطريق غير مباشر عن
 الامبراطورية السلجوقية ، على هذه القاعدة
 من حيث الاعتماد على المماليك إلى مسدى

التصف تقريبا في تكوين الجيش الأيوبي ،
 ومن حيث التسمية في التملك الاقطاعي
 لأولئك المالك وغيرهم في مصر والشام
 وسائر اقاليمها في الشرق الأوسط . ومن
 الأدلة البارزة على ذلك ان صلاح الدين
 أحاط به بهم سومة مختارة من المالك
 الذين انفقوا بعناية ودرّبوا تدريجا فانتمى الى
 قوتهم الحرب ، وأخذ هذا النظام المملوكي
 الاقطاعي ينمو على نطاق أوسع زمن خلفاء
 صلاح الدين في سالكم واماراتهم ، وكانت
 كل جماعة من المالك الأيوبيين ينسبها الى
 مؤسسها : أمرا كان أو سلطانا ، فالأسدية مثلا
 نسبة الى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين
 وسلطه في السيطرة على مصر ، والصلاحية
 نسبة الى صلاح الدين نفسه ، وهكذا .
 وأسهمت هذه الجماعات الصلاحية
 المملوكية بسهم كبير في حروب صلاح الدين
 قبل (قعة حطين وبعدها ، وتدل كثرة أسماء
 مولاهم وجرحاهم على مدى اشتداد هذا
 السلطان في حروبه وحملاته على جند المالك
 الى جانب جنده الأحرار الذين كان معظمهم
 من الأكراد .

ولما دليل آخر على ضخامة النسوة
 المملوكي في امبراطورية صلاح الدين ، وهو
 ما تحمله الآثار والمؤسسات الخيرية والأوقاف
 من أسماء أولئك المالك بالفاخرة ودمشق
 وغيرها من المدن الكبرى في العصر الأيوبي .
 ثم ترتب على حروب الأمراء الأيوبيين بعد
 صلاح الدين لتزايد أعداد المالك وتضخم

فوقهم ، ولا سيما زمن الصالح أيوب بن
 الكامل (١٢٤٠ — ١٢٤٩) وهو السلطان
 قبل الأخير من سلاطين البيت الأيوبي في مصر
 — ذلك ان الملك الصالح لم يشعر ببيل
 نحو الجند من المالك الأكراد .

كما انه لم يتق كثيرا في الكامية وغيرهم
 من طوائف المالك الذين دأب لهم بمساعدته
 في الوصول الى السلطنة . ولذا أكثر من
 نراه المالك الجديد ، واستوردتهم من مختلف
 الأسواق ، وان كان معظمهم من الأتراك
 المتمدنين بالتركية ، وبعد ذلك شيد الصالح
 أيوب بجزيرة الروضة قلعه لنفسه تطل على
 بحر النيل . واتقى من هؤلاء المالك صفة
 لتكون حرسا خاصا له تلك القلعة . وأطلق
 التنظيم المملوكي على هذه الفئة اسم المالك
 البحرية الصلاحية ، تمييزا لهم عن سائر
 طوائف المالك الصلاحية السابقة واللاحقة ،
 كسائر البحرية العادلية وغيرها من طوائف
 المالك المشابهة التي عرفها التساريخ قبل
 قيام الدولة الأيوبية وبعدها .

على أن نسبة هذه الفئة باسم البحرية
 ليس مصدوره بحر النيل ، إذ لفتت همسة
 التسمية بصفات معينة عن المالك في مصر
 والشام ، بل قد البس كذلك زمن الرسولين
 ولذا يبدو أن هذا اللفظ جرى على المالك
 المجلوبين من البلاد الشمالية أو بلاد ما وراء
 البحار ، وشرح جواميل هذا اللفظ شرحا
 يطابق هذا المعنى تماما ، وهو المؤرخ العربي

الذي عاش مدة بين المماليك البحرية في مصر .
 وما يؤيد هذا الخبر أن المؤرخين العرب
 المعاصرين رأوا على اطلاق لفظ البحرية على
 الحناعات الصليبية الواقعة من وراء البحار .
 ولقى أولئك المماليك البحرية الصالحة
 صيدهم المهجوم الصليبي على المنصورة (خبر إير
 سنة ١٢٥٠) والهجم يرجع الفضل لما النزاع
 النصر من أبواب الزينة في وقت كان مصر
 بدون سلطان بعد أن توفي سلطانها الصالح
 أيوب في نوفمبر من العام السابق على أن
 حسن الحظ شاء عنده أن تستلم بزمام
 الدولة امرأة فقيرة ، هي شجر الدر زوجة
 السلطان الصالح أيوب المتوفى ريثما يصل
 ابنه وحليف تورانشاه من مفره بحسن كيفا
 بأعلى العراق . ثم وصل هذا الابن الى
 مصر ، فصلمته شجر الدر مقابل الدولة
 وسنويات القتال ضد الصليبيين ، على أن
 تقتل تورانشاه ١٢٥٠ م على أيدي زعماء
 المماليك البحرية الصالحة — وهو الحادث
 الذي أنهى الدولة الأيوبية في مصر — أدى
 الى فراغ كان لا يبد من الاسراع الى مته ،
 قبل أن يملأ زمام الموقف من أيدي أولئك
 الزعماء . ذلك أنه كان بالشم عدد كبير من
 وراء البيت الأيوبي الذين تطعموا منذ سنين
 الى الوراء بالسلطنة على مصر ، وهذا فضلا
 عن الخوف من مجيء نجده صليبية حربية الى
 مصر للانتقام مما حل بحملة الملك الفرنسي
 لويس التاسع . ولذا وقع الاختيار على شجر
 الدر لمواجهة الأمراء الأيوبيين العاملين في

عمرش مصر ، باعتبارها زوجة السلطان الصالح
 أيوب ، وربما أيضا كوسيلة لوضع حد
 لأحلام بعض الأنصار الطامعين كذلك في
 الاستبداد بشؤون السلطة ومنهم الوزير
 أبو علي الهذلي والزعم الممنوكي اقطاي .
 ثم عرض بمسئ ذلك بمسب أنانية
 المسكر — وهو من أهم مناصب الدولة —
 على أحد الأمراء الذين ظلوا مضمورين حتى
 ذلك الوقت وهو أيك التركمان ، فقبضه
 وهكذا تم مولد دولة المماليك (مسايو
 سنة ١٢٥٠) التي لم تكن في الواقع سوى
 استمرار للدولة الأيوبية في سياستها الداخلية
 والخارجية ، لأن أماليك التسم صنائع
 سادتهم السابقين . وعبرهم في شئون
 الحكومة والادارة محدودة في دائرة الطام
 الاقطاعي الذي قام في مصر والقام في مصر
 الأيوبي .

وكان أول اجراء اتخذه السلطنة شجر
 الدر هو الهاء ثبوت الحصة الصليبية الفرنسية
 باقرار شروط الصدية التي تم الاتفاق عليها بين
 تورانشاه و لويس التاسع . واستطاعت زوجة
 الملك لويس في صباط أن تجتمع نصف المبلغ
 المتفق عليه ، واجتث الحصة الصليبية عن
 الشواطئ المصرية التي عكنا بعد قيام الدواه
 الجديدة بجسعة أيام على الرغم من المعارضة
 الشديدة التي لقيتها في مصر فكرة اطلاق
 سراح الملك الفرنسي .

ثم أخذت شجر الدر تصرف في توزيع
 العطاءات والمناصب والاقطاعات على جميع

التخلص منه فيما بعد ، ولذا تم تمض بضعة أيام على قيام أيك في السلطنة حتى استقر الرأي بينه وبين بعض المايك الماديين لأقطاي على اشراك أحد أمراء بني أيوب في السلطنة ، وسواء جاءت هذه الفكرة المفاجئة نتيجة الإحماسي بدمج مسيحية أيك أو لمواجهة المعارضة المتزايدة من جانب الأيوبيين ، فموضوع الأهمية هو أنه وضع الاختيار على طفل من بني أيوب اسمه موسى لم يتجاوز العاشرة من عمره ، ليكون شريكا لأبيك في الحكم .

لكن هذه الصلة لم تطل على اصحاب العن الدرع من أمراء البيت الأيوبي الذين أخذوا يحسون فعلا تنحصر مصر ، زعامه الناصر يوسف أمير حلب ودمشق ، ثم أن ثمة من المايك في القاهرة نفسها احتارت أميرا آخر من بني أيوب — وهو الأمير الخبيث عمر أمه الكرك — لبتعود سطحا على مصر (سبتمبر سنة ١٢٥٠) أما أيك الذي ظن البعض أنه شخص سهل يمكن التخلص منه دون صعوبة فغالب أنه أكثر مهارة مما تراهي للناس ، إذ أهل أن مصر تابعة للحلولة العباسية في بغداد ، وأنه يتولى السلطنة فيها بوسفه لئلا تنال من الخليفة العباسي كرجة أيك التي الحصوله دون أي تقارب بين الأيوبيين الراغبين على مصر والملك الفرنسي نورس التاسع الذي لم يزل مقيما وقتذاك في عكا ، بأن أطلق سراخ بعض الأسرى

فئات المايك الذين دامت لهم بوصولها إلى منصب السلطنة ، على حين بدأت الهستات تتردد في القاهرة مستكرة فينام امرأة في السلطنة ، على أن حركة خطيرة في هذا الصدد بدأت من دمشق حيث رفض الجند الأكراد أن يضموا إلى الولاء للسلطنة المسيحية الجديدة ، وأعلنوا الثروة واستعاد هؤلاء النوار بالملك الناصر يوسف الأيوبي أمير حلب ، وطلبوا منه أن ينهض -- وهو سليل سلاح الدين -- ضد منصبى الحكم في القاهرة . ولذا زحف الناصر يوسف على دمشق التي فتحت له أبوابها ، فقبض على جسيم من كان فيها من المايك . ثم أن الخليفة العباسي في بغداد لم يفر فينام امرأة في حكم الدولة الأيوبية ولا سينا لها كانت في وقت ما من جوانب ، وهذا فضلا عن وجود بعض آراء دبية تنكر قيام امرأة في حكم أية دولة اسلامية .

لذلك استقر الرأي أخيرا في القاهرة على أن تزوج شجر الدر من أئليك الصكر أليك، على أن تترك له العرش . وعم الاحتفال بزواج شجر الدر من أيك وأتمت أيك عرش السلطنة المملوكية في شهر يولية سنة ١٢٥٠ ، وعلى هذا الترحمة السعيدة انتهت مدة التدوين يوما التي قضتها شجر الدر في دست الحكم . على أنه يبدو أن هذا الاجراء تم يرضى المايك ورعيتهم وقتذاك تقضى ، ولكنهم اغرفوا بأبيك مؤقنا لهمم يستضيحون

الفرنسيين الذين لم يزالوا بمصر . ومع هذا لم يشأ أيك أن يترك مجالا لاغراء لويص التاسع أو غيره من الصليبيين فأمر بهدم مدينة دمياط القديمة وتحصيناتها في أكتوبر سنة ١٢٥٠ ، تحديدا لبنائها من جديد في موضعها الداخلي الحالي ، بعيدا عن ساحل البحر . وفي هذه الأثناء تمت الاستعدادات في مصر لإرسال حملة لمنع الأيوبيين الراضين من اللطين إلى مصر ، ودارت معركة بين الجانبين قرب الصالحية العالبة (فبراير سنة ١٢٥١) أي داخل البلاد المصرية ، وحلت الهزيمة بالغزاة في هذه المعركة ، ووضع كثير من أمراء الأيوبيين أسرى في أيدي المماليك وإن استطاع بعضهم الناصر يوسف الفرار . على أن أيك لم يفتح تماما بهذه النتيجة ، فأرسل أنطاي لهدم معالقات المقاومة الباقية بفلسطين ، حتى لا يتسكن الأيوبيون بعد ذلك من الزحف إلى مصر أو اجتياز حدودها في سهولة .

وحوالي ذلك الوقت تراءى الخطر المنولى واضعا في غرب آسيا ، تهدد الخلافة العباسية نفسها في بغداد . ورأى الخليفة أنه من الأمور الحيوية أن يتناسى أمسواه الدول الإسلامية ما بينهم من الخلافات لمواجهه الخطر الجديد . وعقدت معاهدة (أبريل سنة ١٢٥٣) بين أيك والناصر يوسف بحيث تكون لأبيك مصر وجزء من فلسطين حتى صر الأردن بما في ذلك بيت المقدس — فضلا

عن الأجزاء الساحلية حتى نابلس ، على حين يظل الناصر يوسف وغيره من أمراء البيت الأيوبي على اماراتهم بسائر فلسطين والشام . وهكذا اجتازت الدولة المملوكية العقبة الأولى التي اعترضت طريق تأسيسها في القاهرة ، ولو إلى حين على الأقل .

على أن اهتمام أيك على المماليك البحرية الصالحة في معارضة الأيوبيين زاد من سلبتهم بحيث صار من الصعب قباتهم أو تخطوهم لأي شخص عدا زعيمهم أنطاي . ومع هذا ظل أيك حريصا حذرا في تصرفاته نحوهم ، طالما كان الخطر الأيوبي قائما ، حتى إذا انعقدت معاهدة الصلح بينه وبين الناصر يوسف ، أخذ أيك يتحرك في سرعة ، فأبعد الطفل موسى الأيوبي عن منصب المفاركة في الحكم ، وعين مملوكه قنفر في منصب نائب السلطنة ، ولم يبق لديه من الشخصيات سوى المماليك البحرية . لغير أن قيام ثورة العربان ، ومناذاة زعمائها بأن المماليك — وقد سمهم الرئي — لا يصح أن يحكموا لوما من الأحرار ، جعل أيك في حاجة إلى قوة المماليك البحرية للصالحية مرة أخرى . فحشد إلى أنطاي باقتضاح هذه الحركة الضالعة التي ضمنت أعدادا ضخمة من المهاد ، ولجج أنطاي في هدمها في وقعة حربية قرب بليسي (يولية سنة ١٢٥٣) .

لكنه إذا كان النجاح في إخضاع هذه الثورة أدى إلى إزالة عقبة أخرى خطيرة

استمرت الواقعة بين ١٢٥٩ - ١٢٥٧ بربق حركات المماليك البحرية في الشام، ولجأ إلى أسلوبه القديم بإعلان تبعيته للخضاعة، وإرساله بيعة إلى بغداد لعقب الخلع والتقاليد اللازمة، ثم أنه جدد العدة مع الصليبيين وجانب الأمير الأرميني الأوسل بامر الدين لؤلؤ أمير الموصل عسلي أن يتزوج ابنته ويتخلص بذلك من سيطرة شجر الدر ويضربها من أهل المماليك البحرية للمصريين. غير أن هذه الخطوة الزوجية أمارت شجر الدر التي لم تتوقع أن يصل لكران الجبيل بالسلطان أيك إلى هذا الحد، وهو الذي أصبح سلطانا بفضل مساعدتها. وأخست شجر الدر بأن كبرياءها خدشت بعد أن هجرها أيك لتقيم في منزل صيني قرب جبة باب اللوق العالي. ودرت مؤامره للاتقاء منه فمعتة إلى اجتناع للتوثيق والصلح، ولقى مصرعه في هذا الاجتناع على صورة وحشية في حسان الفصر السلطاني بالندمة (أبريل سنة ١٢٥٧). وأذفعت شجر الدر أن أيك مات ميتة طبيعية فجاء، غير أن العنيفة انكشفت، فتمرضت هي الأخرى للقتل على صورة وحشية كذلك، بعد ثلاثة أيام من مقتل أيك.

ولذا تبصنا التاريخ أيك في شيء من التفصيل، فذلك لأن سنوات حكمه بمثابة اختبار لفنونه العرفة الجديدة على البقاء غير أنه لم يكن للصبي على بن أيك أي حق

اعترضت قيام السلطنة المملوكية في مصر، فإن هذا النجاح زاد من خطر أقطاي والمماليك البحرية الصالحية.

وبعد ذلك واضحا عندما أخذ أقطاي يتحلل لنفسه بعض السلطات والسمائر التي هي من حق السلطان وحده، ومنها ركوبه من داره بالقاهرة إلى مقر السلطنة بالقلمة في موكب حافل، ثم تزوج أقطاي من إحدى أميرات البيت الأيوبي في حفاة بالشام، وطلب من أيك أن يسمح له ولعروسه بالاقامة في القلمة، على أساس أنه أصبح زوجا لسليمة أيوبية. وعند ذلك أحس أيك أنه أمام أمر واحد لا ثاني له، وهو التخلص من أقطاي قبل فوات الأوان، واستنماة إلى القلمة لبعض مهام الدولة ودبر مؤامرة سرية لقتله. وعندما لقي يرأس أقطاي إلى أتباعه المنتظرين أسفل أسوار القلمة، أصاب الدهر فترات المماليك البحرية الصالحية، فهرب كثير منهم إلى مختلف البلاد الخارجية كما هجر بعض أيك على الدين بقى منهم في القاهرة. وهكذا يبدو أن أيك أخذ سلطنته ولكنه في الوقت نفسه أثار على نفسه مشكلة كبرى بهروب كثير من المماليك البحرية إلى بلاد خصيصومه من الأيوبيين بالشام حيث عاشوا لأحيان سياسيين يترشحون الناصر يوسف وغيره من أبناء البيت الأيوبي على مهاجمة مصر، فضلا عن أمارتهم المستمرة على فلسطين والأشرف المصرية. لذلك فضى أيك معظم الثقات

في وراثة السلطنة بعد أبيك في ظل الطام
العسكري المفلوكي ، ما عدا رغبة من ناحية
كبار الأمراء في احترام وصية سلطان داخل ،
وذلك حتى يمكن الالتصاق على أن يتولى
السلطنة بين أولئك الأمراء أنفسهم ، وعندئذ
يتخلصون من السلطان الصبي في غير جلبة
أو اضطراب . وتكررت هذه التمثيلية مرة
بعد مرة عقب نهاية حكم كل سلطان
سلوكي ، فأقام زعماء الماليك ابن السلطان
المثولي مؤقنا ، ثم تخلصوا من هذا الابن
بالنفي الى بعض جهات مصر أو الخارج .

وإذا استطاع بعض أولئك الأبناء أن يظل
في سلطنة صامتة من الزمن ، فلم يكن ذلك
راجعا الى اعتقاد الماليك في مبدأ الوراثة .

بل الى مجزهم أحيانا من الاتفاق على من
ينبغي أن يتولى البية السلطنة من بينهم ،
لما مبدأ الوراثة نفسه علم يكن مقبولا
أو مقبولا في أوساطهم .

هكذا خلف الصبي على أباه أبيك .
وتحين الأمير قطز — وهو أقدم مساليلدابه —
في منصب نائب السلطنة . وقال هذا الصبي
سلطانا اسما لمدة سنتين ، لم يدل في أثناءها
على شيء سوى مهارته في ركوب الحمار
والطواف بها داخل أسوار القلعة على حين
كان قطز يبعد لنفسه بممارسة السلطات
الفعلية في الدولة ، وفي خلال هاتين السنتين
بالذات كان الخطر الممولى على نفسه في
غرب آسية فخطت بغداد والخلافة العباسية

على يد هولانكو وجنوده في فبراير سنة ١٢٥٨
واتسرت موجه من الذعر في جميع البلاد
الإسلامية المجاورة وبخاصة بلاد الشام حيث
أعلن الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب
ودمشق عزمه على مقاومة الممولى في أول الأمر
والفصل من أجل ذلك بالسلطنة المملوكية ،
وامتثل نائب السلطنة فطر حينه الحوادث
ومرح مجلس الثورة ان التصديق الممولى
سوف يلتزم مصر بعد الشام ، وأن الموقف
يستدعي قيام رجل قوي في الحكم بدلا من
صبي قليل الخبرة بشئونه . وبذا خلع
السلطان الصبي على بن أبيك من السلطنة
دون عناء وأعلن قطز سلطانا في أكتوبر
سنة ١٢٥٩

ولم يمض شهر على هذا الانقلاب حتى
أخذ هولانكو يحفد نحو حلب الأيوبية
وسط مظاهر التدمير والسلب ، وشاورته
في الاستيلاء عليها في فبراير سنة ١٢٦٠ فرقة
عسكرية من عند هينوم سلاش أرمينيا الصغرى ،
وهو هوبولد السادس أمير السلاكية الصليبية ،
وفي حلب جاءت الأخبار الى هولانكو بوفاته
الغالب الممولى الأعظم منكوخان ، فاضطر الى
الرحيل عن الشام الى المقر الممولى العام في
جوف آسيا للمشاركة في الحصار الغالب
الجديد ، بعد أن ساند قيادة جيشه الى كتبنا
وهو أحد الممولى الذين اعتنقوا المسيحية على
المذهب النسطوري . ثم لم يلبث كتبنا أن
رحف جنوبا نحو دمشق ، وهي كذلك

أيوية ، فانهارت أمامه قوات ملكها الناصر يوسف الأيوبي ، وسلمت له دمشق نفسها أخيرا في مارس سنة ١٢٦٠ . وزحفت بعد ذلك قوات مغولية نحو الجنوب ، وهددت أراضي السلطنة المملوكية في فلسطين ، فهب قتل للملافة هذا الزحف الداهم بجيش كبير . وامتنعتت طلائع هذا الجيش بقيادة الأمير بيبرس البندقداري أن تطرد الطلائع المغولية من غزة حيث وصل لقتل بعد قليل للزحف فوراً نحو القنال .

أما كنيثا القائد المغولي فرعد الصليبيين في عكا أن يعالهم ويساعدهم ضد السلطنة المملوكية ، متسائل قيامهم سرسلة الزحف للملوكي وعدم السماح للسلطان قتل بالمرور شمالا . غير أن الصليبيين لم يأمنوا لوجود المنول واستطاع قتل أن يحصل على حياض عكا الصليبية في هذه الحرب ، وأن ينير بجيشه في غير صعوبة إلى منقطة الجليل . ولذا لم يلبث المنول أن فوجئوا برسول المائيك إلى طهريه ، وبفضل هذه الملاجاة سكن السلطان قتل من انزال الهزيمة بالمنول في وقفة حاسمة عند عين جالوت قرب بلدة الناصره ، في سبتمبر سنة ١٢٦٠ ، وهي أول هزيمة لعقت بهم في تاريخهم الصاحب منذ أيام جنكيزخان ثم عقب ذلك تهمر مغولي عام قانجبت القوات المغولية عن دمشق ، وحلب ، على حين عكفت القوات المملوكية على مطاردتها إلى ما وراء الفرات .

وبذا تسقط قتل سيادة السلطنة المملوكية على جميع بلاد الشام وفلسطين ما عدا اماراة الكرك الصغيرة التي ظلت بيد أميرها الأيوبي ، وذلك قتل عما حققه للسلطنة المملوكية من هية داخلية وخارجية بفضل هذا النصر العظيم ، لأن عين جالوت لم تنفذ مصر وحدها من المنول وتبادل ذلك ، بل انقذت كذلك أوروبا المسيحية التي تعرضت أطرافها الفرعية للخطر المغولي .

على أن قتل لم يلبث أن جوزى على انتصاره هذا جزءا عكسيا ، إذ وقع خريسة مؤامرة قتله وهو في طريق عودته إلى مصر في أكتوبر سنة ١٢٦٠ ، على يد صديقه الأمير بيبرس البندقداري . وأسرع الأمير بيبرس إلى دخول القاهرة حيث انخضب عرض السلطنة وسط مزيج من الدهشة والرعب . وقال أن بيبرس قام بارتكاب هذه الهزيمة لا لرض قتل يمينه على حلب فحسب كما يتواتر في معظم المراجع ، بل تسوية كذلك لتأثير قديم يرجع إلى مقتسبل الزعيم أقطاي وتقريرد المماليك البحرية ، وهي حوامت كال للاسير قتل فور هام فيها .

وذن الواضح أن وسسول بيبرس إلى منصب السلطنة كأن صفاء عودة ثلثة المماليك البحرية ، ولم يلبث السلطان الجديد أن دل على ذلك كما دل على براعة فائقة في تسون الإدارة وقيادة الجيوش خلال حكمه الباتح سبعة عشر عاما (١٢٦٠ - ١٢٧٧) والواقف

ان أعمال بيبرس اكتسبت لقب مؤسس دولة المماليك ، لأن هذا السلطان قام فعلا بتنظيم جهازها الادارى والحرمى على أسس منبنة . عبر ان اغتصاب بيبرس للسلطنة لم يرق في عين نائب دمشق وهو الذى عمده قطز الى منصبه بعد بريد المقول ، ولذا رفض هذا النائب ان يمتدحه بذلك الاغتصاب ، وأعلن لنفسه سلطانا في نوفمبر سنة ١٢٦٥ ، ودعا الأمراء الأيوبيين والنواب والمماليك بالنسبات العباسية الى الاعتراض به ، وأرسل بيبرس حملة ضد هذا الأمير انقارح ، فقصت على حركه في سرعة ، وجاءت به الى القاهرة مكبلا بالسلاسل (يناير سنة ١٢٦٦) بعد ان أقامت محبسه في لينة دمشق الأمير علاء الدين البندقدارى ، وهو الذى كان في وقت ما سيد بيبرس ، أى أسناده الذى اشتراه ورباه على قول المصطفى المدوكي ، وفي تلك الأثناء قامت بالقاهرة حركة من نوع آخر برعاية رجل من الشيعة اسمه الكوراني ، وناهت بنداوات بدت كأنها مهدى لثورة الصرب أيام أيبك فهدهما بيبرس الى الأخرى في سرعة كذلك ، لا نجس على رجالها وزعيمهم الكوراني القبيح ، وشتم جميعا على باب ذوبان (بوابة المنولى الحالية) .

وامتاز بيبرس في جميع أعماله بسرعة التنفيذ ، كما امتاز في سياسته بالحزم والشجاعة وبعد النظر فضلا عن المقدرة على القيام بعدة أعمال في وقت واحد ، وتصره

ادارة شؤون الدولة أثناء أسفاره الكثيرة من مصر والشام . ووضعت هذه المواهب في بضعة لأشهر الأولى من حكمه ، حيث عمل جاهدا على ترتيب شؤونه الداخلية ليتبرغ لمشكلة تطلبت منه جميع ما أوتيته من مصارة سياسية وشجاعة وحزم ، وهي مشكلة الفراغ الذى نجم عن سقوط الخلافة العباسية في بغداد وتشكيل بعض ملوك الدول المجاورة في احياء هذه الخلافة في بلده . ومن أولئك الناصر يوسف الأيوبي حين كان أميرا على حلب ودمشق . إذ حاول استمالة أحد العباسيين الفارين من وجه المقول الى الشام ليعينه خليفة عنده ، ولستعين به في مقاومة الزحف المغولي بقيادة حولاكو ، عبر ان سرعة الهوانت أسسنت عليه محاولته . وقام السلطان قطز بسئل هذه المحاولة بعد أن دخل دمشق ظاهرا لمساعدة عين جالوت ، وأعلن خلافة لاجي عباسي آخر . وأسندة بفوات وأسلحة للميل على استرداد بغداد . وحققا بيبرس هذا الحدوه أى انه لم يكن منكرا لهذه الفكرة ، ولكنه كان صاحب الفضل النعالي في احياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ١٢٦٢ . وهكذا استطاع بيبرس أن يجعل مصر قاعدة الخلافة الإسلامية ويحط انظار المسلمين ، وأسست القاهرة مركز العالم الاسلامي ، وهي تقرب الى حواضر البلاد الاسلامية من بغداد . لذلك أخذ كثير من علماء المسلمين يقدون الى مدينة النبيل ؛ حيث وجدوا بتاييد والفرقة من الرعاية

والتسجيع وأحدثوا بمصر نهضة علمية في مختلف الدراسات ، على حين أسس العقلاء الميسونيون في القاهرة فتياناً لسلالين المالكيين .

وحق لبيبرس أن يختر هذه النتيجة التي جعلت السلطنة المملوكية صاحبة الفضل في إحياء الخلافة الممبارية ، وأمنت السلاطين على مستقبلهم في الفرق الأوسط وسائر الصالح الإسلامي باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين بيمينها . غير أن مشكلة أخرى عاجلة تطلبت من السلطان حلاً عاجلاً ، وهي ان الخيف عمر الأيوبي - أمير الكرك - ظل متمسكاً بعلمه الفرضي في السلطنة بمصر ، بخلاف غيره من أبناء البيت الأيوبي الذين ركنوا إلى الهدوء بالقام وورثوا بالعيش في سلام إلى ظل الحكم المملوكي . وعرف بيبرس أطماع الخيف عمر جيد المعرفة منذ لجوله إلى إمارة الكرك أيام تفرده إبيك للمماليك البحرية ، واشترك معه في الأفاة أكثر من مرة على الأمصار المصرية . ولذا أسرع بيبرس على عادته إلى مهاجمة الكرك رغم وساطة الخليفة العباسي ، ولم يلبث أن ألقى القبض على الخيف وأرسله أسيراً إلى القاهرة ، حيث أتم بالانصصال بالقبول والتأمر معهم ، وحكم بإعدامه في أبريل سنة ١٢٩٣ .

وعمل بيبرس في هذه السنوات الانتاحية الثلاث من حكمه على تنظيم الجيش المملوكي وتجديده بناء الأسطول واعسادة توزيع

الانقطاعات على الإمراء والأجناد فضلاً عن عنايته بإنشاء الطرق وإصلاح البصور وحفر القنوات في مختلف البلاد المصرية على مقياس لم تشهد مصر سوى أيام صلاح الدين . كذلك لعتم بيبرس بتقوية حصون الشام وشحنها بالجنس من المماليك ، كما نظم المواصلات البرية بين دمشق والشاهرة بحيث صار تبادل البريد بينهما مرين في الأسبوع . أما الاسكندرية فبنى بيبرس بإصلاح حصولها والسهم إليها ، كما عني بداخل النيل عند رشيد ودمياط بالقامة الأبراج والسلاسل لحراسها ، وكل ذلك خفية حملة صليبية مرجحة ، ولي هذه السنوات الانتاحية كذلك بدأ بيبرس ببناء الجامع والمنورة المنسوين إليه ، كما أتمها بحيرة للفراء .

وتدري هذه الأعمال الداخلة المتنوعة على أن بيبرس كان يبنى لنفسه وللسلطنة المملوكية في قلوب الناس ، وأنه كان يمد العدة العربية للقيام بشروعات عسكرية ضخمة ، والواقع أنه أراد أن يحصل من تصه صلاح الدين الثاني ، واستطاع أن يحوز نجاحاً لا يقل عن نجاح سلفه العظيم ، وذلك في أكثر من جهة واحدة . ذلك أنه عين على السلطان بيبرس حجابة الأمراء الفرانية لسلطته من أقارن الدولة المفسولة التي تأسست بمد هولانو في فارس والعراق ، وعتاب الإمارات الصليبية مثل أنطاكية التي

أما تحالف بيبرس مع دولة السلطنة بالروم (آسيا الصغرى) فلم تقل أهمية عن هذه التحالفات السابقة ، لأن الوضع الجغرافي لهذه الدولة السلجوقية جعلها مسبح خطر على الأطراف المغولية الفارسية من ناحية ، وأطراف سلطنة زيمنا الصغرى المسيحية من ناحية أخرى . على أن أعظم ما اهتم له السلطان بيبرس وقتذاك هو احتمال قيام الدولة المغولية الفارسية بهجوم مفاجئ على الأطراف الملوكية الشرقية عن طريق أعلى الراى ، ولذلك حرب طريق الغزو ومحايرة بين آسده وطلاط ، على حين أصلح الفلاح الشابة التى سبق لهولاكو وجورهه تخريبها أثناء الزحف المغولى الأول

لم يكن عجبا بعد هذه الاستعدادات والتحالفات والاحتياطات ، وبمسد الماوشان التبريرية التابعة التى قام بها بيبرس أوائل سنة ١٢٦٥ عند الصليبيين والمغول أن يقوم هذا السلطان منذ أواسط هذه السنة بهجمات حربية صيفة في أكثر من جهة واحدة . ولما اصطبقت حر كاله الذابة في هذه الجهاب بكثير من الضرر والتبكت والقسوة ، قال حسده الحركات كانت في ذاتها سلطة من انتصارات تتواصله ذالة على أن السلطان بيبرس امتاز بعزيمة لا تنكل ، وعتلية ناشطة ، ومنعدرة على استمرار التنقل بين مصر والشام ، غارة لإدارة دفة الحكم ، وغارة لتنظيم شؤون القتال .

وبدا بيبرس هذه الانتصارات المتواصله بالاسنبلاء على قيسارية وعتليت وحبضا

دابث على مخالفة تلك الدولة ، وذلك فضلا عن الاستعداد لمواجهة أية حملة صليبية جديدة تأتي من أوروبا . وضبيعى انه لم يكن لدى بيبرس أية معلومات عن الدول الأوروبية وأحوالها السياسية التى جعلت ارسال حملة صليبية كبرى الى الشرق أمرا غير ممكن أو ميسور ، بدليل قيامه بالأعمال التحصينية المتقدمة لتأمين القوافل المصرية والشامية ، واهتمامه بمقصد سلطة من المعاهدات والملاقات الودية مع حكام البلاد المجاورة ، ومنهم الامبراطور البيزنطى ميخائيل پاولوحيس — وهو الضمير القدود للمسيين بالشرق ، وملك متقلبة ما فرد هو هنتناو في ابن الامبراطور لودريك الثاني . ويبدو أن هذا الحلف بين بيبرس ومالفرد جدا بالأمير شارل لأنجوى هو الآخر الى ارسال ستة لتأكيد حسي علاقته بالسلطان بيبرس . واستقبل بيبرس هذه البثنة ، واكرم وفادتها بالقاهرة سنة ١٢٦٤ . وحالف السلطان بيبرس الملك بركة خان صاحب القبيلة الذهبية أو منقول القصبالى وعاصمتها سراى في ولدى القولجا ، وهو أحد أطفاد جنكيزخان وكان بركة خان على دين الاسلام منذ شبابه ، غير أن العلاقة الدينية وحدها لم تكن هى التى أدت الى هذا الحلف ، بل كان اتحاد الدولة المغولية الفارسية نحو الأخاليم المجاورة تسلكه القبيلة الذهبية هى التى أدت الى تبادل الرسل والبعثات بين القاهرة وسراى ضد هذا العدو المشترك .

وارسوف من الصليبيين قبل أن تنتهي سنة ١٢٦٥ ، ثم عاد إلى مصر ليستأنف رحلته تفتيشية لمعرفة أحوال حصون الإسكندرية ، ويديم فوائده ببيش جديده من المليك . ثم رجع بيبرس إلى الشام سنة ١٢٦٦ ، وأسر بهاجية المدن الصليبية على امتداد الساحل الشامى ، على حين استولى هو على صفد ، وعاد منها إلى دمشق للسفر بنفسه على رأس حملة ضد مدينة سيس عاصمة أرمينيا الكبرى وانتهت هذه الحملة الأرمينية بتطريب سيس ، وكل ذلك في سنة واحدة . وبعد زيارة قصيرة للقاهرة أوائل سنة ١٢٦٧ ، ذهب بيبرس إلى الشام حيث عقد تحصينات صفد الجديدة ، ثم عاد إلى القاهرة مزحوا بنتائج حروبه . ثم رجع بيبرس إلى الشام أوائل العام التالي (سنة ١٢٦٨) فاستولى على بلا وسقيف أرلون ، والتي الحصار أخيرا على مدينة الطائفة ، وهي وقتذاك عاصمة أهم الإمارات الصليبية الباقية بالشام . وحقق الاستيلاء على هذه المدينة للسلطان بيبرس نصرا واثنا ، فغضى أيام سنة ١٢٦٩ منتقلا في سلام بين مصر والشام وبلاد العرب ، وأدى فريضة الحج في نجد عظيم ، وأكد الصياغة المملوكية على مكة والمدينة والحرمين الشريفين وعاد إلى القاهرة بعد أن عين واليا في مكة للإشراف على الكسوة التي تعدها السلطان للكعبة مفرزة باسمه محروف من الذهب .

وفي سنة ١٢٧٠ أجرى السلطان بيبرس

مفاوضات مع طائفة الاسماعيليه الحثييه بالشام ، وتم الاتفاق على أن يدفع شيخ هذه الطائفة - شيخ الجبل - جزية سنوية ثمانا لسلام بين الطرفين . وفي هذه السنة نفسها قام الملك لويس التاسع بعقد الصلح على تونس ، فرأى بيبرس أن يظل بالقاهرة لمقرب أخبار هذه الحملة عن كذب ، وأعلن استمهاده لمساعدة تونس ضد الغزاة الصليبيين . غير أن موت الملك لويس التاسع في تونس بدون جرح مغاوب بيبرس فسار إلى الشام سنة ١٢٧١ . حيث استولى على صاليتا وحصن الكرك وبعكا ، وأعقب ذلك بحركات خاطفة استولى فيها على بعض قلاع الاسماعيليه فغابا لهم على نفس ما به وبنتهم من التناق وحزيرة و سلام . ثم رجع بيبرس إلى القاهرة لواخر تلك السنة ، لكنه عاد مره أخرى إلى الشام سنة ١٢٧٢ ، حيث عقد حاميات المدن التي استولى عليها من الصليبيين في حملاته السابقة .

وفي هذه السنة نفسها (١٢٧٢ م) أرسل بيبرس أسطولا عدته إحدى عشرة سفينة للإغاثة على قبرص ، فحطمت عاصفة قرب لياسوس ولم تستلخ سفينة من سفنه أن تصل إلى الشاطئ القبرصي . وفي العام التالي أي سنة ١٢٧٣ قاد بيبرس دمشق إلى البيرة على المرات : لدفع فزارة مغولية تلك السنة . فأزق بالخيبرين هزيمة كبرى بعد أن عبر النهر سابحا على رأس قواته لملاقاتهم . وفي طريق عودته إلى دمشق استولى بيبرس على بقية

قلاع الاسماعيلية ، على حين كانت قوات سلوكية تحصل في برقة وأرمينيا الصغرى ، فضلا عن النوبة التي اعتدت منذئذ على العونة المملوكية في حل مشاكلها الداخلية ، ولا سيما وراثة عرش مملكة النوبة .

وشمرت الامارات الصليبية وقتذاك بأن مستبهاها يطلب هدية عامة عقدها ببيرس مع كل من هذه الامارات سنة ١٢٧٤ ، وريسا كانت هذه الهدية هي التي شجنته على الزحف بنفسه على أرمينية الصغرى سنة ١٢٧٥ ، حيث استولى على سيس وأياس ، كما شجنته على الزحف بطول حرية مرة اخرى الى القسطنطينية سنة ١٢٧٦ ، حيث أحرز انتصارا كبيرا على قوات المغول والسلاجقة بالروم ، ودخل العاصمة السلجوقية قيصريه وجلس على عرش سلاطينها ، وأخيرا عاد ببيرس الى دمشق أوائل سنة ١٢٧٧ وتوفي تلك السنة وهو في أوج مجده بعد مرض قصير بسبب تناوله ثرابا مسوما .

ويقال ان ببيرس كتب في أواخر أيامه وصية الى السيد بركة ، وهو أكبر أبنائه وولي عهده في السلطنة وأنه لصحه في هذه الوصية بالانصر عن كبار الأمراء بما لصه . و فمن بملك عنه ما يشوش عليك ملكك ، وتحفظت ذلك عنه ، خاضب شتق في وقته ، ولا تتقله ، ولا تستر أحدا في هذا ، وافعل ما أمرتك به والا ضاعت مملكتك على أن الخطر على سلطنة بركة هذا جاء اليه من أمته

في أغسطس سنة ١٢٧٩ ، حين خلع حرمه قلاوون ، وأقام مقامه ابنا ثانيا لبيرس ، وهو طفل في السابعة من عمره اسمه سلامش . ثم لم يلبث قلاوون أن خلع سلامش كذلك في نوفمبر سنة ١٢٧٩ ، وأقام نفسه سلطانا .

وكان السلفان قلاوون — مشعل ببيرس — من المهالك البحرية ، وشبارك زعماء زمن أيبك ، وعاد الى مصر مع ببيرس تلبية لنداء الظفر في تمبة القوى لصعد المغول ، ولما آلت السلطة الي ببيرس خدعه قلاوون أحسن خدمة ، وطهرت كتابته في الحرب ضد المغول وأرمينيا الصغرى ، ولكنه بدأ منضوبا عليه أواخر أيام ببيرس لأسباب غير واضحة ، وواجه قلاوون معارضة قوية لسلطنته ، واضطرت هذه المعارضة بشيء من الولاء لأبناء ببيرس ، وهي في الواقع لم تخرج عن أن بعض أمراء المهالك الذين أسهموا بتسقط واقف في الانتصارات البيرية أصحوا بأن لهم حقا مثل قلاوون في السلطنة .

ومن هؤلاء سقر الأشر نائب دمشق الذي أعلن نفسه سلطانا بها ، ووجد تلبية لحركته في الشام وفلسطين . واستنطاع قلاوون أن يقضى على هذه الحركة في وقته حربية جنوية دمشق ، غير أن سستقر تسكن من الفرار ، وذهب الي بلاط أيلخسان أيضا بن هولاء كور يطلب نجده . وكان أيضا من أشد الدعاة لمشروع التحالف بين الصليبيين والمغول ضد المهالك ، مستعندا تمام الاستعداد لمساعدة أية حركة نوبوية ضد السلطنة

الملوكية في مصر أو الشام ، ولذا حصر
أبنا لخدمة ستر ، وغزت فرقة مغولية شمال
الشام في سبتمبر سنة ١٢٨٥ ، ودمرت كثيرا
من القوى المحيطة بحلب ، وخرج قلاوون الى
الشام لمواجهة هذا الغزو ، على حين أرسل
الى ستر يسترضيه بأن تكون له بعض المدن
في شمال الشام ليحكمها حكمها مستقلا ، وأنه
تكون برتبته من حيث الوظيفة والاقطاع تالفة
لرتبة السلطان . وبفضل هذه الترضية
استطاع قلاوون أن يركز جهوده ضد الغزاه
الذين زحفوا لحر حلب مرة أخرى بقيادة
منكوسر — أخي أبنا ، فزازهم فثابت من
رئيسها الصلبي وجورجيا وغيرها من البلاد
التي طغمت للمغول . وأخيرا وقعت الواقعة
بين الطرفين عند حصص (أكتوبر سنة ١٢٨٥)
حيث الهزم منكوسر ، واضطر الى الانسحاب
من الشام .

وبعد ذلك بعام توفي أبنا وخلفه في
الاطليانية الفارسية أحمد تكدار الذي ركز
المسؤولية واحتق الاسلام ، وولت خطابه
الودية الى قلاوون على مدى ثلثه بدينه
الجديد وهي خطابات كثر فيها تكदार رعيته
في الدين في ظلال السلام مع جميع البلاد
الاسلامية المجاورة . غير أن الايطليانية نفسها
لم تتأخر في هذه الرغبة ، معنى لذا اثنى
عرشها سنة ١٢٨٤ أرغون اقبلت سياسة
تكदार رأسا على عقب ، واخذ أرغون في
إحياء مشروع أبنا لانشاء حلف صليبي —
مغولي ضد السلطنة الملوكية . على أن هذا

المشروع لم يتحقق يوما من الأيام مع العلم
بأن قلاوون خصسه كان يفتي تحقيقه في
عهد ، يدلل ما حرم على عقده من مفاوضات
وصحلات مع مغول القبلة الذهبية
والامبراطورية البيزنطية وملكوك فرنسا
وظنناة وصقلية ، وجمهورية جنوا ، فضلا
عن الامبراطور رودلف هامسبرج ، عتقيا
في ذلك الى سياسة بيرس .

وفي طريقه لصد الغزو المغولي ، أي قبل
وقعا حصص ، جدد قلاوون الهدنة العامة التي
عقدتها بيرس في أواخر أيامه مع المدن
الصليبية . وكانت هذه الهدنة لمدة عشرة
أعوام ، فأضاف اليها قلاوون شروطا مصغفة
دالة على مدى ما صارت اليه الامارات
الصليبية الباقية من ضعف واضمحلال . ومع
هذا لم يكن في ليه قلاوون أن يحترم هذه
الهدنة بعد مرافعه من المغول ، إذ أرسل — مثل
بيرس — أن يقوم كذلك ضد الصليبيين
بدور عربي مشابه لما قام به سلاح الدين .
ولذا لم يكند قلاوون يعلم بخبه مشروع
أرغون في عقد حلف مغولي صليبي ضمه
سلطنة الصليبيات حتى أخذ هو يركز جهوده
ضد المدن الصليبية .

وكان قلاوون عندئذ في العاصمة والمدين
من عر ، ويبدو أنه اشقى أن يختم حياته
بصفحة من الجهاد الذي أكسب بيرس
شهره في خدمة الدين . وجعل قلاوون هدفه
الأول حصن الاستبارية بالقرب قرب الأخراف
الشمالية لامارة طرابلس ، فاحياء والنم

أسواره في سرعة أذهمت حليته واضطر
الإسبانية إلى التسليم والجملاء في مايو
سنة ١٣٨٥ . ثم زحف فلاوون صوب مرقنة
وهي قلعة حصينة على ساحل البحر ، وصاحبها
تابع اعطى للمكونت بوهيمند السابع أمير
طرابلس . وألحق فلاوون الكونت بوهيمند
بأنه إذا لم تجرد هذه القلعة من سلاحها
وجاءتها ، فإنه سوف يشن الحرب على
إمارة طرابلس نفسها . فأسرع بوهيمند إلى
إصدار التعليمات بتنفيذ ذلك سنة ١٣٨٦ ،
في سبيل إنفاذ الإمارة الطرابلسية . وأمرعت
كذلك مرجريته أميرة مدينة صور التي شره
السلطان من فلاوون بشروط من أملاكه ، وعقد
نير الثالث ملك رُبنيا الصغرى اتفاقية مشابهة
تعهد فيها بدفع جوية سنوية باهظة للسلطان .
وأحس فلاوون بأنه حقق مقام كبيرة
من الصليبيين في غير مئاة ، فأقره هذا
التوفيق بخصمه القديم سنتر الأكر ،
واستطاع أن يخرج من إمارته الواصلة في
سبيل الشام سنة ١٣٨٧ ، وأن يجعل على
الفتوح بالعش في القاهرة بطالا ، أي بعيدا
عن الحياة السياسية

وحاصرهما وخسرب حصونهما ، حتى تم له
الاستيلاء عليها سنة ١٣٨٩ . وبعد ذلك بقليل
استولى فلاوون على قلعة البعلون جنوب
طرابلس بعد أن خربها هي الأخرى ثم عاد
إلى مصر حيث أمد العدة لحصار عكا ، وهي
البنية الباقية للصليبيين بالتمام بعد أن ادعى
أن التجار المسلمين يتعاملون فيها معاملة سيئة ،
تبريرا لما بينه من زحفه حربي صدعا عبر
أه مرض ومات قليل أن يحقق هذه الغلوة
النهائية ضد الصليبيين وكانت وفاته في
(نوفمبر سنة ١٣٩٥) بمسكنه خارج
القاهرة ، وهو في السجون من عمره
وإذ اقتنى فلاوون أثر بيرس في سياسته
ضد الصليبيين والمنول ، بحكم تكسبه
الأهداف والأحزان ، فإنه اقتنى أثر بيرس
كذلك في إقامة المباني والصالق في مدن مصر
والعراق ، بما في ذلك مسجد وشریح مشهوران
بالقاهرة . أما المستشفى العام (البيمارستان)
الذي أنشأه فلاوون بالقاهرة ، فأكسب
ساحبه شهرة خاصة ، مع العلم بأن هذا
المستشفى لم يكن الأول من نوعه في قاهرة
المصور الوسطى . واهتم فلاوون بتشييد
الجيش المملوكي وزحف ستواه ، وأضاف ،
فرقة جديدة تبلغ لث عدده القديم ، وجز
إقامة هذه الفرقة التهيؤ بأبراج القلعة ، ومن
ثم تسمى أفرادها باسم البرجة .
وعين فلاوون ابنه الأكبر عليا ليكون
خلفاه في السلطنة ، غير أن هذا الابن توفي
في حياة أبيه ، فصار أخوه خليل هو الوريث
التالي ، برغم ما اشتهر به من ميل إلى العنف

والشر ، فضلا عن الظن بأنه من السم لأخيه
المتوفى .

ولذا رفض قلاوون التوقيع على تعيين
خليل لولاية العهد ، وقال : أنا ما أولى خليلا
على المسلمين ، أملا منه في الاحتفاظ بولاية
العهد لابن صهير أنجب في أخريات أبيه من
زوجة مولية ثمانية ، اسمه محمد . لكن وفاة
قلاوون على غير انتظار لم تترك مجالاً للتردد ،
واقم خليل في السلطنة وعلم في اجتماع
مجلس المفوضية بإعلان سلطنته في نوفمبر
سنة ١٣٩٠ ، وتلقبه بولاية العهد ، فقال
و إن السلطان امتنع أن يعطيني ، وقد أعطاني
الله .

ظهر أن السلطان خليل اسباق وراءه
ما اشتره به من ميل إلى القمر والصف ، فمكث
على الاتهام من رجال أبيه ، اعتقاداً منه بأهم
السبب في تسوية سمته واتهامه بفسق المسم
لأخيه . ولذا بدأ حكمه من هذه الناحية
الداخلية بسلسلة مضيئة من أعمال المصادرة
والتعذيب والسجن والقتل ، وكان الأسير
طرطاي خصمه القديم أول من ناله من هذا
وذلك حتى مات في السجن . وانتابت خليل
مع هذا نوبات من كرم الخلق وحسن السلوك
أدرك مثلاً عن أملاك طرطاي لابنه ، وأعطى
أرض مصر والشام من المتأخر عليها من بعض
الضرائب من عهد أبيه ، كما أنه أعيا ذكرى
أبيه قلاوون أحياء سنوياً بحفلات .

أما من ناحية السياسة الخارجية ، عدلت
أعمال خليل على شجاعة ومقدرة وقوة كما هو

واضح من تصرفاته في أكثر مواقفه . ذلك أنه
أخذ في تنفيذ مشروع أبيه للزعم على عكا ،
فأضاف إلى الاستعدادات الكائنة أعداداً من
الجند وكميات من أدوات القتال ، حتى فاقت
آلات الحصار حول عكا في ربيع سنة ١٣٩١
أيه كمية سابقة ضد أية مدينة من مدن
الصليبيين بالشرق ، على أن عكا كانت هي
الأخرى محصنة تحصيناً قوياً ، ولذا قاومت
مقاومة شتى عشرة أيام متتامة ، حتى لمرد
خليل مهاجنتها والاستيلاء عليها عنوة .

وهنا يطبق المجال عن وصف أعمال
الشجاعة والبطولة التي بذلها المهاجمون
والمدافعون سواء ، مع العلم برجعتان كفة
الجيش الملوكية ، بعد أن بات الصليبيون
وليس لهم في الشام من المدن الكبرى سوى
عكا . ثم كان الهجوم النهائي على عكا صباح
يوم الجمعة ١٨ مايو سنة ١٣٩١ ، فعدت
المدينة لمدة عشرة أيام منذ ذلك الصباح
سداً للهجوم والتماع ، والكر والفر حتى
انتهى الأمر بهم تحصيناتها وسقوط المدينة
لنفسها في أيدي جيش السلطان خليل
ابن قلاوون . وهكذا سقطت عكا آخر معقل
الصليبيين بالشام ، وفي بضعة الأشهر التالية
تم الاستيلاء على سائر المدن الساحلية التي
كانت لا تزال في قبضة الصليبيين ، فهدمت
أجمعها ، ماعداً بيروت التي استجاب إلى طلب
النسليم يعون قذافي .

وتخبرنا رحل السلطان خليل عن عكا إلى
دمشق ، وفي موكبه عدد كبير من الأسرى

والقصور الرائعة ، بفضل ما توافر من الموارد
انتعشة المنهكة من التجارة العالمية ، وبفضل
ما أجراء الناصر في زمنه من إصلاحات ﷲ طرقت
الزراعة في كل من مصر والشام .

وإذ تولي السلطنة المملوكية بعد الناصر
محمد لعائبة من أبنائه ، والثاني من أجداده
ثم الثاني من أبنائه أعفاده على الثغاب ،
فبتطوع من هذا وحده أن شيئا من مبدأ تولية
الابن الأكبر للحكم أخذ محل ما سبقت تفصيله
من تنصيب ابن السلطان ﷲ متوقفا على
الطريقة المملوكية المعمورة . ولذا أشبهت
هذه الطريقة الطوية من إسماء السلطان
الناصر معبد سلسلة الملوك المبرزين
المتأخرين الذين حكموا فرنسا ، وأوائل العصور
الوسطى . غير أن سلطنة الواحد من أولئك
السلطانين من أبناء الناصر وأحفاده لم تمتد
إلا بقدر ما سمح به زعمهم أو آخر من زعماء
الثغابك ، ولعل الأمر على ذلك تقريبا حتى
استطاع برقوق ، زعيم المماليك البرجية ، أن
يتخلص من آخر سلالة الناصر محمد ﷲ
سنة ١٣٨٢ ، فأصبح بذلك أول سلطانين
المماليك البرجية أو الجراكسة في مصر .

وفي خلال حميدة المرحلة التي استغرقتها
حكم أولاد الناصر وأحفاده ، ومدتها البالغة
أحدى وأربون سنة ، وقعت ثلاث حوادث
تختلف ﷲ أهميتها ودلالاتها في التسايرخ
الملوكي . وأول هذه الحوادث الوباء الكبير
المعروف في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

باسم الوباء الأسود ، وهو الوباء الذي أنزل
الفناء والدمار بأهل مصر وسائر سكان الشرق
الأوسط بين سنة ١٣٤٨ وسنة ١٣٥٠ ، وامتد
كذلك إلى أوروبا وأدى إلى خسائر فاحشة في
الأرواح والمال والزرعة وترتب عليه نتائج
اقتصادية واجتماعية في الشرق والغرب .

أما الحادث الثاني فهو أن أسطولاً مؤلفاً
من سفن قبرص ورودس والبندقية وجنوة ،
جاء بجينسود من عناصر مختلفة ، وهاجم
الاسكندرية في حريف سنة ١٣٦٥ وتولى
قيادة هذا الأسطول بغرس الأول لوريجان
ملك قبرص ، وهو الذي أيضاً طائفة الرسائل
الصليبيين المسروقة باسم طائفة السينب ،
لاسترجاع بيت المقدس من المسلمين ، واستولى
هذا الأسطول على الاسكندرية واستباحها
جنوده أسبوعاً ، فلم يسلم من شرهم ولهبهم
سليم أو يهودي أو مسيحي . ثم غادر
الأسطول مياه الاسكندرية ، بعد أن حملت
سفنه ما يقرب من خمسة آلاف أسير من
الرجال والنساء من اليهود والمسلمين
والنصارى ، ويروي شاهد عيان من المسلمين
أن سبعين سبيته من هذه السفن أبحرت من
ميناء الاسكندرية محملة بأرواح الفناء ،
فضلا عن هذا العدد الكبير من الأسرى .
وأعطيت هذه الكارثة مغاوضات شرهت
للفشل والاضطراب بسبب ما جرى من حين إلى
آخر من اغارات قرصنة على سواحل الشام
ومصر للضغط على السلطان وأخيراً تقدر عقد
الصلح بين قبرص والسلطنة المملوكية

سنة ١٣٧٠ بعد أن توسط بينهما كل من جمهورية جنوة والبندقية .

أما الحادث الثالث فيربط بالملكة المسحية في أرمينيا الصغرى بإقليم قيليقية بإطراره آسيا الصغرى مما يلي الشام ، إذ دأبت هذه المملكة منذ تأسيسها على تقديم المساعدة للصليبيين في القرن ، فأصبحت بذلك هدفا للاغارات المملوكية المتكررة . فلما سقطت عكا في يد السلطان خليل حدثت مملكة أرمينية الصغرى هذه الهدنة التالية للحملات المملوكية ، حتى استولى أمير حلب المملوكي على عاصمتها بسس ، سنة ١٣٧٥ ، باسم السلطان شهبان ، ولتتم الأسراء المتطوعون أراضي هذه المملكة ، بعد اعلان نيبيتهم للسلطنة المملوكية . أما ليو السادس آخر ملوكها فإنه وقع أسيرا ، وحمل إلى القلعة بالقاهرة حيث قُتِل في أسرته إلى أن جرى افتدائه سنة ١٣٨٢ ، وهذه السنة هي التي صار فيها برقوق أول سلطان في دولة المماليك الجراكسة أو الدولة المملوكية الثانية .

يبقى للثاني ، هنا بعد هذا العرض المار تصور عام للحكم المملوكي من حيث البناء السياسي ونظم الحكم والجهاز الإداري والاقتصادي ، فضلا عن التركيب الاجتماعي والحركة الفكرية ، والنشاط البنائي الحضاري الذي اشتهر به عصر سلاطين المماليك وأول ما يبدو واضحا من ملامح هذا التصور أن أقلية حربية مملوكية حاكمة مستندة إلى طبقة

عسكرية من المماليك هي التي تسيطر على البلاد . ورمز سيطرتها بسلطان هو نفسه ملوك من هذه الطبقة إلا إذا كان أبنا لسلطان وأحاط زعامة هذه الأقلية المملوكية الحاكمة بالسلطان وكلهم يدور حبانهم منته سمالك صغار في الجيش السلطاني العاص أو جيوش الأمراء ثم لتخرج الواحد منهم في مراتب العسكرية تدرجا متناسبا مع طبقتة . وكان المماليك جميعا - مثل السلطان - يربوا عن البلاد ، ينتمون إلى بلاد وأصول عديدة ، وإذا كان معظمهم في القرن الثالث عشر من مشرق القفقاز الذين اتسوا اليوم ببيروس وغلارون فإن أفرادا منهم جاءوا من إيطاليا وألمانيا وروسيا والصين وتسا أولئك المماليك على أساس من الفروسية الاقفاصية ، وفق مراتب عسكرية ووظائف سياسية معينة ، بحيث تحدث في أيديهم جميع المناسبات العسكرية والوظائف البلاطية واقطاعاتها فضلا عن الوظائف الإدارية الكبرى واقطاعاتها في مصر وسائر أقاليم الدولة المملوكية . وكانوا جميعا مسلمين منذ اندماجهم في الزمرة المملوكية ، وأطلق عليهم عموما اسم رجال السيف تمييزا لهم من رجال القلم ، وهم أصحاب الوظائف الدبلوماسية المدنية ، من أهالي البلاد المسلمين وغير المسلمين ، ويبلغ عدد غير المسلمين في الوظائف الدبلوماسية ، ولاسيما الوظائف المتعلقة بالأموال وحسابها أعدادا كبيرة معظم الأحيان .

ريد بلعلاظلك راد الى سلكها الرباه عليه ثابته
 مقلوبها فهو من المقلوب بلعلاظك بقسمي كبريه ووطاظك
 في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 قد يردنا كقولنا بلعلاظك في الحقيقة مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج

وهذا في ذاته ليستصيح اختلافاها من ١٣٣ من اجزاء
 في اسو اها فضلا فوق على ما في المقلوب في مقلوب
 فنفسه ذلك في ذاته على مقلوب مقلوب الثلج
 في المقلوب في مقلوب الثلج بلعلاظك في الحقيقة
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج
 بلعلاظك في الحقيقة ثواب البؤرة في مقلوب لعل مقلوب الثلج

برغم أجنبيّتهم عن مصر التي عدت مركز سلطنتهم ، لو كان كونهم جديدين على شؤون الحكم جعلهم يشعرون شعورا خاصا بسننولياته ، لو كان حداثة عهدهم بالاسلام جعلتهم متحسين لاحامة العنائر الدينية ، من باب التقوى والزهد الى الله ، أو من بلب السياسة واجتذاب القلوب . وكليهما كان الأمر ، فالعروف آل السلاطين المالكات هنا اكر عناية . بتقليد أسماهم في منشآت مصرية اعطت ملامح القاهرة ومعلمها وآفاقها مسحة من الجيسان الهندس والفوق المنى بالاضافة الى مسحتها التي امتازت بها منذ أيام الفاطميين والأيوبيين .

ومن هذه المنشآت المعمارية الملوكية عدة كبير من المساجد والمدارس والغوازي التي تزين السناء القاهرة بيتاهاها الرامة ، من مآخذ سامقة وقباب فاخرة ، وتلا احباء القاهرة القديمة آثار لا يرى فيها الزائر سوى صنفا البليغ . وتول هذه المنشآت مفرسة بناها السلطان المزيك التركالي بمصر (مصر العتيقة الحالية) ، على شاطيء النيل ، قبالة مقايص جزيرة الروضة ، ولطق عليها اسم الجزيرة نسبة اليه وهي فيما يرجع أول مباني الدولة الملوكية بالقاهرة ، وأغلب هذه الفتحة المعمارية سلسلة من المباني المتنوعة الدالة بكثرة عددها على استقرار الدولة الملوكية عسما ، واختناع سلاطينها با تلك المباني من نصيب في ذلك الاستقرار ، فضلا

عن تأثيرها في مصائر السلاطين أنفسهم في الحياة الدنيا والآخرة . ولذا بنى السلطان الظاهر بيبرس مسجده العظيم المعروف باسمه ، والذي يعرف به أحد أحياء القاهرة الحالية ، وهذا المسجد بالاضافة الى المدرسة الظاهرية وهي كذلك بالقاهرة بسارح النحاسين .

لما السلطان المنصور فلاوون ، فهو صاحب المارستان المنصورى الذى وصه أحد مديريه الاهارين ، وهو الثويرى المورخ ، وسسفا تصليبا في كتابه : « نهاية الأرب في فنون الأدب » ، ولا يزال جزء من هذا البناء يستخدم لبياد طبية لأمرضى العيون ، ويسمى مستشفى فلاوون ، ولهذا السلطان وعهده يرجع كذلك بناء المدرسة المنصورية ومدرسة زوجته أم ابنه الأكبر الصالح على ، ومدرسة ابنه الثانى خليل ، وهذه وتلك فضلا عن القبة المنصورية ، ومكتب السبيل المخصص لتعليم الأيتام .

ثم ياتي بعد ذلك عصر السلطان الناصر محمد بن فلاوون ، وهو عصر الدرورة المعمارية الملوكية ، بكل ما فى ذلك الوصف من منى ، إذ استمر الحكم الفعلى المباشر لهذا السلطان مدة اثنين والثلاثين سنة (١٣٠٩ — ١٣٤١) ، وعظت هذه السنوات الطويلة من أية حروب خارجية أو فتن داخلية كبرى ، فانصرف السلطان — ونساؤه وامرأؤه معه — الى أعمال ميمارية مخلفة القاصد والمتابع ، وأولها من حيث الأهمية عدد حائل من

الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والقباب ، إذ هي تبلغ نحو تسعين مبنى ، ومنها على سبيل المثال جامع السلطان الناصر محمد هبسه بالقلعة ، ومسجد الأمير الضحا المارديني ، بالبنانة ، ومدرسة الأمير أيقبا بيد الواحد داخل الجامع الأزهر ، وخطابه الأمير قوصون بالقرافة الغربية ، وقبة طنشر حصن أخضر بالقرافة الشرقية ، وجامع سيد حدث القهرمانه بحي الناصرية ، وبضيق المجال ها عن ذكر ما عدا ذلك من هذه المباني التي تملأ أوصافها صفحات من كتاب القرزي الذي عنوانه : « المواضع والاعتبار في ذكر الخطط والأمصار » .

وبالإضافة إلى هذه المنشآت فوات الصفات الدينية والتعليمية والتذكارية أوجب النشاط الحضاري الملوكي مجموعة مصاريف ثمانية من القصور السلطانية والدور الأميرية التي بناها السلاطين لأنفسهم أو لأمرهم ، أو بناها الأمراء اقتداءً بتمنك سلاطين بالمصارف . ولما أنتجت جهود السلاطين المسكرين وهم أيك وقطن وبيبرس وتلاوون وخليل ، عدداً قليلاً نسبياً من هذه النوع الثاني من المنشآت السلية ، نظراً لاهتمامهم بالمنشآت العسكرية ، فإن هذه القلة النسبية أبرزت عظمة النشاط الحضاري الذي امتاز به عصر السلطان الناصر محمد ، وتوصل ذلك أنه على حين اقتصر عصر السلطان بيبرس على بناء القصر المعروف بالدار الجديدة بالقلعة

(موصلاً ٢٠٠ - ٢١٢) واقتصر عصر السلطان تلاوون على مبانيه التي تقدمت الإشارة إليها ، كما اقتصر عصر السلطان خليل بالدار الاشرافية وقصر الخوف (مواضع - ٢ - ٢١٢) استلما عصر السلطان الناصر محمد بعدد كبير من هذه المنشآت البيكيتية ، ومثلها القصر الألبان الذي بناه السلطان الناصر لنفسه ، وجملة مطلقاً على المسجد المخصص لعب الأسماء بالكرة والصالحة (البول) وعصر السلطان الناصر كذلك القصر المعروف باسم السبع لغات بلغة الكيلس (مواضع ٢٠ - ٢١٢) ، وجملة لجواربه وسراريه ، كما أنه عمر بالقلعة لكل أمير من الأمراء تزواج بناته الأحدى عشرة داراً خاصة . ثم إن السلطان الناصر عمر عدة قصور لغد أولئك الأزواج من كبار الأمراء ، ومنها قصر طنشر الدلمقي بحدوة البصرة وقصر بكتر الساني على بركة النيل ، وقصر بهادر الجوراني بجوار قلعة الكيلس (مسلك - ٢ - ٥٤٠) . ولم يكتف هؤلاء وأولئك من الأمراء بما أغلظ عليهم السلطان الناصر محسباً من منشأته ، بل أخذوا يتنافسون فيما بينهم لتشييد قصور عظيمة لأنفسهم ، وهي قصور امتدت على طول المنابع الناصرية (الفليح المصري) من قرب ميدان بلب الشلق العالي إلى بلدة سرايوقس الواقعة على مسافة عشرة كيلو مترات شمالي القاهرة الحالية ومن هذه القصور دار الأمير ابدغيش أمير نخود ، دار أيقبا ، ودار طقزدر .

الدولة المملوكية الثانية

للكاتب محمد مصطفى زبادو

(١٣٨٢ - ١٥١٧ م)

دون احتياج من ناحية بعض الشخصيات المملوكية التي سئلت حكم السلطان المظروع كما سئلت على السلطان الجديد وصوله إلى دست السلطنة . ولذا لم تلبث هذه الشخصيات المملوكية أن تأمرت لأقامة الظليفة المتوكل الصباي سلفا إلى دولة من نوع جديد ، كما لم يلبث السلطان برقوق أن هدم هذه الممارسة سنة ١٣٨٣ ، لكن ممارسة ثانية تكونت سنة ١٣٨٩ ، وتزعمها أميران مملوكيان مناصبان للسلطان برقوق ، وهما مطاش أمير حلب ، ويلها أمير منطية ، واستطاعت هذه الممارسة الثانية أن تضيق على السلطان برقوق ومرسله منبيا إلى الممرك ، وأن تقيم الصباي حاجي في السلطنة مرة أخرى . ثم هرب برقوق من سجنه ، وجمع لنفسه جيشا استطاع به أن يستعيد مركزه ، وأن يدخل القاهرة سنة ١٣٩٠ محسوبا بأنواع الاحتمال والترحيب ، بعد أن أمر بملع الصباي حاجي ، مع السماح له بالأقامة بالمنطقة وسط جواربه ومنهايه .

وبينا يتغلب برقوق على هذه الأخطار الداخلية ظهرت في الأفق الخارجي أخطار من

دنا الممركزي المؤرخ على حسابة قوية بالحمية التاريخية الدينية ، حين وقف كتابه : « السلوك لمركة دول الممرك » عند منتهى أيام السلطان حاجي بن شعبان ، وهو آخر سلاطين الدولة المملوكية الأولى ، وقال ممقيا : « شعبان محبل الأحرار ومدبر الدول » ، ثم بدأ في السطر التالي بداية عهد السلطان برقوق ، وهو أول سلاطين الدولة المملوكية الثانية . بعبارة أخرى وقف الممركزي وقلقه عدم ليدوح دولة ويستقبل أخرى في آن واحد ، لأنه يعلم تمام العلم أن الدولة المملوكية الثانية لن تكون في جملتها أو محصلها سوى امتداد للدولة المملوكية الأولى من حيث العناصر العضارية ، والتنظيمات الإدارية ، والاتجاهات الاقتصادية والقواعد السياسية ، وهذا فضلا عما التفرق بين أهل مصر والشام وغيرها من الولايات المملوكية من الرضى العام بالمحكم المملوكي - - - أوله وثانيه - - - رغم أجنبيته وصغته : الاستقلالية على أهل البلاد .

غير أنه لم يكن من المنتظر أن يمر حادث خلع السلطان حاجي واقامة السلطان برقوق

ناحية الدولة المنقولة التي أسسها القرائد
الصاعقة تيمورلنك ، وأزعج بها أرجاء آسيا
الوسطى والهند والشرق الأوسط ، أواخر
القرن الرابع عشر الميلادي . ذلك أنه لم يكف
تيمورلنك بمود من فتوحاته الخربة بالهند
حتى بدأ متمكنا للحركة بهنوده للبحث عن
ميدان جديد للحرب والتدمير ، فزحف على
العمان واشغول على بغداد سنة ١٣٩٣ ، وعلى
مادون في السنة التالية ، وهي مدينة تابعة
للسلطنة المملوكية وقتذاك . ولم يكن السلطان
برقوق تموزة الصبغة ، فنهض لمقاومة هذا
الخطر العدواني واستطاع أن يقيم جيبة قوية
سعدية لتصد يدات تيمورلنك والفرانج .
وأول ما قام به برقوق في سبيل تكوير هذه
الجيبة أنه اتصل بسوك البلاد المعرضة
لحركات تيمورلنك ، وهم فرا يوسف
التركمانى ، وورغان الدين أمير سيواس ،
وبايزيد الأول السلطان الشامي ، وطمنش
خان القبيلة النجبية المنقولة على بحر الفلج .
وتوفر للسلطان برقوق من الصلاب والمساعدة
ما جعله يرحب بانجود الفريد سلطان بغداد
المعروف باسم أحمد انجلارى الى القاهرة .
ولما أرسل تيمورلنك الى برقوق سفارة
لتفاوضته على الامتعة الاقتراف بالسيادة
النيمورية ، أمر برقوق بقتل السفراء ، فجرى
بذلك على نهج ما فعله السلطان تغز قيبيل
مركة عين جالوت وأعقب ذلك أن احتشد
جيش سلوكنى عند مدينة البيرة على نهر

الفرات ، وهي المدينة التي شهدت احتضار
المالِك على المغول زمن بيبرس وقلادون .
أما تيمورلنك فانه وجه كل لعناته وتنهذك
الى جورجيا (بلاد الكرج) بأقصى الشمال ،
لفتاك فقتلش الذى اعتبره أخطر أعدائه ،
وأما برقوق فانه مات قد يونيو سنة ١٣٩٩ قبل
أن تنهى له الفرسه وشجائته وبطولته في قتال
المغول .

وتولى السلطنة بعد برقوق ابنه فرج ،
وهو أكبر أبنائه ، وأمه بولاق ، وكذلك كانت
أم أتابكة تيمرى برقى والد المارح المعروف
أبي المعامن يوسف ، مؤلف كتاب : « النجوم
الراهرة » ، ولم يكن فرج عند سلطنته يتجاوز
الثالثة عشرة من عمره ، غير أن تعصبه تجاه
لج جو خال من المؤامرات الداخلية المعتادة
عند قيام سلطان صغير ، ولم يلبث أن سار الى
الشام أواخر سنة ١٤٠٠ على رأس الجيش
المملوكى الزاحف لوقف التقدم التيمورى
الباشر نحو الأراضى المملوكية . وكان
تيمورلنك يتحول وقدذاك جنوبا لى سرعة
صاخبة ، فذهب حلب واقرب من دمشق .
وجرت معركة عنيفة شمال دمشق ، فازت
الجيش المملوكى على أعقابهم ، وبأمر السلطان
فرج الى الإفصاح الى القساهرة ، وفرك
جيشه فى مكة المقدسة ، فامتسبت دمشق
على شروط استخفافها المؤرخ ابن خلدون من
تيمورلنك ، وتعرضت عاصمة الشام برعم ذلك
لكل ما اشتهر به المغول من التخريب ..
وبدعى أن السلطان فرج لم يكن كفتا

القبصرية ، فاستولى على لاساؤل ولاراقا ، وأوغل في الدلفل حتى هزم جيشا قبرصيا بقيادة الملك جانوس لوزينانز، ودخل عامته نفوسيا . وعادت تلك اتصلة المنتصرة بالملك جانوس أسميرا بين الأسرى ، ثم لم يلبث السلطان أن أطلق سراحه مقابل فدية كبيرة ، على أن يصيح تابعا للسلطة المملوكية في مملكته قبرص . أما حسن بن عجلان شريف مكة فحصرى الحصار قبل نهاية هذه المشكلة القبرصية . وبذلك استردت مصر سيادتها على مكة ومينائها جده وقدم الشريف حسن الى القاهرة صعبا ركب الحاج المصري والجيش المملوكي العائد ، لأكاد لبرسباى ولاءه واخلاصه للسلطنة ، ومحمد بأن يدفع جزيرة سنوية كأكيدا لتبعيته . خير أن تصود ابقاؤه بالقاهرة وهينة حتى يتم تأدية القسط الأول من هذه الجزيرة .

وجند قبيل مفادره الجيش المملوكي سواحل بلاد العرب أن وصل الى جده فلقه من السفن محمل متاجر الهند وذلك بعد أن أضحي مبناء جده خاضعا لسيادة المملوكية ، بعد أن تصد القائد المملوكي لقائه هذه السفن بتحديد كل ما تحتاجه سفنه من المساعدة . وكان مبناء علفن باليمن حتى وقتذاك الميناء الوحيد الذى زده اليه التجارة الهندية ، لخير ان سوء الماملة بهذا الميناء مرفه قائد هذه السفن شمالا حتى جدة ، فآدت هذه الاتحافية الى تحويل التجارة الشرقية كلها اليها تدريجا . ولم تلبث جدة أن أصبحت مركزا ومستودعا

وساد السلام أرجاء الدولة المملوكية بمصر والشام ما يقرب من سنة ونصف سنة ولم يمكّر سغو ذلك السلام الا خروج نائب صعد بالشام ونائب اليمنى بالاطراف الشمالية ، فأخذ السلطان هاتين العركتين في سموله . غير أن برسباى ارتاع لما ورد في أغسطس سنة ١٤٢٣ من خبر هروب منافسه الاظهير جانيك الصرولى ، من سجنه بالاسكندرية ، فأمر بالقاء القبض على كل من له صلة بالأمير الهارب ، ولكن لم يستطع الحصول على شيء من اخباره . وكانما كان هروب جانيك الصرولى مؤثرا فلبام عينة مشاكل مختلفة لى وجه برسباى في وقت واحد ، وهى خروج نائب دمشق من العاصم ، والهاراة القراصنة الافرنج على سواحل مصر على البحر المتوسط وانتباغ الأمير حسن بن عجلان شريف مكة عن الامتصافه بالولاء والخضوع للسلطنة المملوكية . وبدأ برسباى بمعالجة هذه المشاكل الثلاث بارسال حملة الى القمام صعبة نائب جديد لدمشق اسمه سودون ، حتى اذا جاءه الاخبار بانتصار سودون هذا على النائب الااثر وسجنه بعلمة دمشق ، وجه اهتمامه لمعالجة المشكلتين الأخرين ، وكانت قاحدة القراصنة الافرنج وقتذاك جزيرة قبرص اللوزينانية ، فأغار برسباى على سواحلها الفارين ناجحين : ثم عزم على الاستيلاء عليها نهائيا سنة ١٤٢٦ . ففى تلك السنة أخذ برسباى جيشا يسانده أسطول كبير من مصر والشام الى الميناء

احتكاره على حين امتد الاحتكار وقامت دائرته حتى شملت خشب الفوفود واللحم والحبوب ، ولم يعد بيع الماشية مباحا . ولذا انتشرت المجاعة في جهات كثيرة بمصر ، كما اشتعل الوهاب أكثر من مرة بالقاهرة ، وزاد العالة سوءا ما حدث على أيدي فئات المالكين الجلبان من أدنى الناس في الظروف والشوارع .

درب على تطبيق سياسة الاحتكار الشام أن حل بالتجار والناس من الضعفاء والمتاهب مثلما حدث بمصر غير أنه لم يتعرض السكاد لما تعرض له أهل مصر من آسافات المالكين الجلبان لفترة وجدهم بالمسكن الضامية . ثم شهدت العام منذ سنة ١٤٢٩ عدة تجمعات حربية موجسة لمراغبة قبائل الركسان ، ومراقبة حركاتهم المختلفة على الأطراف السلوكية . وهم قبيلة القاء البيضاء ، وقبيلة القاء السوداء وقبيلة الدلفادية . وكان وراء هذه الحركات الصعدائية التركمانية شاه رخ بن تيمور لوك الذي ساءه رفض السلطان برسباي السماح له بالمشاركة في كوة الكمية ، ولذا حالف قبيلة القاء البيضاء ، وشجع زعيمها عثمان قرايوك على تحدي برسباي ومقاومة الحصار الملوكي الذي خربه برسباي بنفسه حول آمد سنة ١٤٣٦ . أما قبيلة الدلفادية النابعة فعلا للدولة السلوكية فتعد ذلك فضلاصة حركتهم العدائية أنهم الجأوا الأمير جانك الصوفي الهارب من سجن الاسكندرية سنة

لهذه التجارة الهائلة . واهتم السلطان برسباي صاحب الريادة على جدة المورد التجاري الجديد . قائما بالقاهرة ديوانا خاصا أطلق على توليه اسم شاد جدة ، وصار هذا القائد يجمع من هذه التجارة السنوية ضريبة على قائمة العشر من قيمتها . ولم يكن له برسباي بهذا الدخل اللجائي الضخم بل عمد الى احتكار التجارة الشرقية كلها لنفسه ، فطلا عن صناعة السكر في مصر . ورتب على هذه الاجراءات ارتفاع جوني في الاسعار بحيث لم يعد في استطاعة التجار الأوروبيين احتياجا ، على الرغم من استمدهم للشراء . واهى هذا الى قيام كل من البندقية وقلنتالة وأرجونة والفكوري والتهديد بمقابلة هذه الاجراءات بمثلا ، أي رفع اثمان هذه السلع الأوروبية الواردة الى مصر والقسام ومعظم هذه أسلحة وحديد ومواد معدنية وحجرة مما يلزم للجهن الملوكي والتصوير الملوكية .

على أن برسباي لم يكن باحتكار التجارة بل عمد أيضا الى التدخل في الصلحة والتعد بأن يتر هبار الذهب والفضة بما يتفق مع صلحته ولموضه ، ومنح تداول النقد الأجنبي كبا يفتريه بمصر منقصر . ثم الملاق تداوله بعد ذلك ، مما أدى الى الملاق الخسائر الكبيرة بالتجار الوطنيين والأجانب على سواء . واشتد سخط الأهالي أيضا على السلطان بسبب ما اتخذ من طرق تصفية لجمع الأموال ، ومنها رفع أسعار السكر مع

السنة الأولى من سلطنة برسباي ، وأنهم أعلنوا حمايتهم له ، على أن النصر تحقق خيرا للسلطان برسباي ، إذ قهر عشاق قرابلك مصرعه في حرب صد قرا يوسف زعيم قبيلة الشاة السوداء ومات جانيك الصوف قبيلة ، وعاشت قبيلة الداغادارية الي تبميتها القديمة .

ولم يمض برسباي طويلا لينعم بهذه الانتصارات التي لم يكن جديرا بها البتة ، على قول المقرزي المؤرخ فلعمبر « ومات هذا السلطان غير مأسوف عليه ، في يومه سنة ١٤٣٨ ، بعد أن جعل ابنه يوسف الذي يبلغ من العمر أربع عشرة سنة خلفا له في السلطنة ، وعين أحد خلفائه من الأمراء وسيا عليه ، واسمه جتشي ، وكان برسباي ملكا صوفيا محبا للعدل . ولم يكن ما انظر في عهده من هدوء وسلام طويلا على شيء من الرخاء أو الطمأنينة بين الناس ، لأن اتح جزيرة قبرص لم يتفتح به إلا مسالكه ، وسياسة الاحتكارية لم تملأ جيوبا سموي جيوبهم الواسعة . أما أهل مصر والشام فتحملوا أنواع الأرهاق أثناء ذلك المهسد الذي امتد الي ستة عشر عاما لث هدهدم المعاجات والفلساه حتى في سموات وقره الحاميل .

ولم يبق يوسف بن برسباي في السلطنة مواء نسمة وأربعين يوما : عمل أثناءها جتشي على جمع مقاليد الأمور في يده . ثم ما لبث

جتشي أن عزل يوسف وسجنه بقلعة الجبل ، وأقام نفسه مكانه في السلطنة في شبهر سنة ١٤٣٨ . وبينما يتجهز جتشي للسفر على رأس حملة الي الشام لقمع حركة المعارضة لسلطته في دمشق وحلب فرالسجون يوسف من القلعة متخفيا في زي خديم القطارح السلطانية ، ولحق به مؤيدوه في جوف الصعيد حيث قامت حركة مراضة أخرى ضد السلطان . على أن جتشي استطاع التغلب على هاتين الحركتين في سهولة ، إذ قبض على يوسف في أبريل سنة ١٤٣٩ وُرسله الي الاسكندرية ليقضي أيامه بها حبيسا مكروما ، ولي الضمير التالي لمتمت حركة دمشق وسار جتشي على نهج برسباي المحدث من الفراسة المسيحية الذين فسطوا في البحر من جديد ، على الرغم من حرماتهم من موانئ جزيرة قبرص ، وذلك لأنهم جعلوا من جزيرة رودس التابعة لهيئة الفرسان المصرية والقامية وعالوا فيها قسدا . ولذا أرسل جتشي في أغسطس سنة ١٤٤٠ حملة لمحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس . ومع أن المحاولة تبهدت سنتي ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، فإن الجزيرة استطاعت مقاومة الأخطارات الملوكية الثلاث ورضى السلطان جتشي باتصاله على قاعدة متح الفرانسة من اللجوء الي سواحل رودس ، واحترام مصالح هيبة الفرسان الاستبارية في كل من قبرص وسواحل آسيا الصغرى ، وساعد على عقد هذا الصلح

وحب الخمر بالفلاس التي ما اشتهرت به حكومة سلفه من الجشع . واصف يفتق بصفتا وخلال شخصية نابعة من تقوى عميقة ، على غير اليهود في معظم سلاطين المساليك ، اذ راعى في حكمه ما ورد في القرآن الكريم من احكام ، فلم يتاول طعاما نهي عنه الشرع ، ومنع شرب الخمر ، وحرم استخدام الادوات الموسيقية وكره الملابس المبهجة والرم ورجال القصر والأمراء بارتداء الثياب القصيرة ، ولقي ثور بهم الطرفة . واشتهر يفتق بسفاله وكرمه مع العلماء ، واعتقد أن الكتاب القيم لا يقدر بشس مجا ارتفع هذا التن . لم مات يفتق وهو يناهز الثمانين ، في فبراير سنة ١٤٥٣ ، بعد مرض طويل قل يعايه في صبر وشجاعة مدة سنة .

ونازل يفتق عن السلطة وهو على فرائس الموت ، وهو أمر لم يكن له سابقة منذ المسالك ، وترك أمر تعيين سلطان بعده للتخليفة العباسي والقضاة وجماعة الأمراء ، اذ اسدى هؤلاء ، ولئلك لحضرة ، وخطاب الطاهرين قائلا : لا الأمر لكم ، انظروا مين سلطانوه و اعتقادا منه لهم سوف لا يشغلون ايه . وهكذا اجري اختيار عثمان بن يفتق ليخلف اياه في الحكم .

وبعث عثمان بن يفتق الناسمة عمرة من مصر حين صار سلطانا ، لئى أنه لم يكن طفلا صغير السن ، غير أنه كان أقصر عمدا من صفار الأبناء الذين خلفوا آباءهم في السلطة.

التاجر القرمسى الشهير جاك كبير على أن هذا التاجر الذي سيطر في زمنه على جزء كبير من التجارة بين فرنسا والدولة المملوكية لم يستطع أن يفتح السلطان يفتق بضرورة الفاء السياسة الاحتكارية التي بدأها برسباي . وانتهج يفتق نفسا نفسا العيون الاسلامية المجاورة سياسة مبنية على التساهل والتسامح . فلم يكتف بآراء أمراء المشورة بشأله شاه رخ بن تيمور لئلك بل سمح له سنة ١٤٥٣ باوسان كسوة الكعبة ، فأنهى بذلك مشكلة التراع القائم بين المملوكين والملوكية والتبويرية منذ أيام برسباي ، وذلك دون أن يفقد شيئا من حقوقه أو كرامته . وحرص يفتق على استمرار العلاقات الودية مع السلطان العثماني مراد الثاني ، وأمراء آسيا الصغرى ، وكل ذلك في سبيل السلام .

على أن يفتق لم يحرر من النجاح في الحياة الداخلية ما أحرزه في المساحة الخارجية بسبب ما عاب عليه فئات المسالك السلطانية من حركات التمرد والاساءة الى الأمراء ورجال الحكم والادارة ، مما يلا صفحات عديدة من التاريخ المعاصرة وازدادت اهتمامات دولئك العالين على الكبير والصغير حتى النساء في أيام المراسم والأعياد ، دون أن يستطع السلطان يفتق بدعمهم ، وكذلك لم يستطع يفتق أن يوقف ما تسرب من الفساد في الاحتكارات التجارية . ومع هذا اشتهرت حكومة يفتق بالاعتدال .

بالكرامة والاحترام ، ولم يلبسوا أن ملكوا
زمام الحكم ، فصاروا يزلون ويولون من
يريدون من الموظفين ، ولم يجرؤ سلطان أن
يؤنبهم على ما ارتكبوه باسمه .

ولذا يبدو عجا أن السلطان ينال
استطاع اصلاح النفود الفعلية سنة ١٤٥٨ ،
اذ أمر بحجب النفود التي أصدرها السلاطين
الساجون منقضة العيار وأحل محلها عملة
جديدة ، كما أمر بتوقيع النقوبة القصوى
على المكتوبين بنفى النفود ، وهم الرقبة الذين
كثرت أعدادهم منذ أيام التلاعب بالنقد زمن
برسبای .

وأصاب السلطان ابنال كذلك فجاءه في
السياسة الخارجية فالتست علاقته بالسلطان
العثماني محمد الثاني بالود الخالص ، وذهبت
من القاهرة سفارة خاصة لتقدمهم التهنئة
للسلطان بتصح القسطنطينية . ورغبت
السياسة الايالية بما حل "بامارة قرمان وآسيا
الصحري من اقتداءات العثمانيين ، وهي امارة
معروفة بولائها القديم لسلاطين المماليك ،
ويرتب على ذلك أن اخار أمير قرمان عسلى
الأطرافه المملوكية بشمال القاصم ، واستولى
على عدة بلاد من إقليم قيليقية (أي أرمينيا
الصحري سابقا) ، غير أنه لم يلبث أن ارتد
عنها بعد أن لخص ابنال الى مصالحت
سنة ١٤٥٨ ثم تلتحل في النزاع حول وراثته
العرش ■ مسلكته قبرص التابعة للسلطنة
المملوكية منذ أيام برسبای اذ قدم الى القاهرة

ويرجع سبب خلعهم بعد ستة أسابيع فقط من
اعلان سلطنته الى ميثبه الذي أدى به الى
استبعاد جميع فئات المماليك عن شؤون الحكم
ما عدا مماليك آبيه ولذا حاسرته هذه الفئات
المملوكية برعامة الأتابك ابنال بالفلحة في
مارس سنة ١٤٥٣ وجرى خلعهم قبل استلامه
للمحاصرين ، بمرافقة الخليفة انبساط الذي
التروك في الاحتفال .

ومع أن ابنال تولى السلطنة وهو في
الثلاثه والسبعين من عمره ، وأنه بلغ من
الأمية والجهن ما جعله عاجزا عن كتابة اسمه ،
فأله استطاع أن يثقل في الحكم ثماني سنوات
وتعمل هذا ، أن السلطان ابنال التزم اللومة
والمطوعة والانتحابة لمطالب الفئات المملوكية
التي وصل على كتابها الى السلطنة ، ولا سبأ
فئة المماليك الجلبان . فعد أن استمرار
خضوع السلطان للطالب المالية التي حكفه
الجلبان على تديبها جعل هذه الفئة أجيرا
مصدر فتنة وخطر على مركز ابنال ، بدليل
رعيهم اياه مرة بالحجارة ، وهو في شريقه اليهم
من الفلحة لمناقضته مطعب من مطالبهم
سنة ١٤٥٦ . وما زاد الطين بلة أن هذه الفلحة
القارمة أدت بالسلطان ابنال الى الاستنجابة
لمطلب الجلبان ، ووضعت المورخ أبو المعانس
يوسف هذا الامعان في استرضاء الجلبان ،
بأنه الاحتمال الذي يؤدي الى قلة المروءة .
والموقع أن الجلبان غدوا بسبب هذه
الترضيات المستمرة فئة غالبية من كل احساس

جيس لوزجسلان رئيس نفوسيا ، وطالب
 بعه في العرش كما طالبت بقها كذلك أخته
 الملكة شارلوت لوزجان . وعاد جيس الى
 قبر من صحبة حسنة مسلوكية لتجدته ،
 واستطاع بمساعدة هذه الحملة أن يحتل
 العاصمة يتروبا غير أن النزاع بين جيس
 وشارلوت أشد بضع سنوت ولم تظهر
 نتائج في حياة اينال الذي كانت وفاته في
 فبراير ١٤٦٦ ، وعرك اينال أسرة اشملت على
 أربعة افراد ، بنان وولهان من زوجة وحيدة ،
 وهو أمر نادر الحدوث في التاريخ الملوكي .
 غير أن ستارا كثيرا لا بد أن يسدل على حياة
 السلطان الشخصية .

وتنازل السلطان اينال ، قبيل وفاته يوم
 واحد ، عن العرش لابنه الأكبر أحمد الذي
 تولى وظائف مسؤولة مختلفة في حياة أبيه ،
 واشتهر بعنه للإصلاح ، وبلغ الثلاثين من
 عمره حين آلت اليه السلطنة ، ولذا كان
 لأحمد بن اينال من الخبرة الإدارية والعبارة
 والشجاعة السياسية ما يطر بعهد جديد . غير
 أن العزمية الملوكية التي رفض السلطان
 الجديد رضىها على طريقة اينال اجتمعت على
 تدبير مكرامة لاقتسامه عن العرش وإقامة
 الأتابك خستهم أو غيره مكانه . وتمرضت
 القلعة لهجوم المتآمرين في يونيو سنة ١٤٦١ ،
 ولم يلبث السلطان أن أعلن التسليم ، وتم
 عزله واخسراجه من القلعة مسجينا الى
 الاسكتنبورية وجرت المناقاة بعشقدم سلطانا .

ويختلف خستهم عن سائر سلاطين
 المماليك السابقين من الجراكمة بأنه يتنى
 الى أصل يوناني ، واليه ترجع تجربة مريرة
 في ذكران الجيل ، وهي أنه تخلص بالقتل
 والمعجن والتشريد والمصادرة من أممراه
 المماليك الذين أقاموه في السلطنة ، وأب
 القات الملوكية بعنفا على بعض ، أملا منه
 في السيطرة به ذلك على ممالكه الجبلية ،
 واستخدام شعبه في الاستيلاء على أسواق
 الأغنياء من التجار ، فضلا عما استولى عليه
 من أموال الأمراء المصادرين . وهكذا تخفى
 خستهم الجو للمماليك الجبلية ، فأخذوا
 يعيشون قسادا كما يقدمون ، ويقتلون
 الأبرياء ، وهذا على حين ذاب السلطان
 خستهم على جميع الثروة لنفسه بفاج الوظائف
 الحكومية علنا ، وهدم مولزين العدالة
 بمساومة المتقاضين أمامه في دار العدل .
 وأسوأ من ذلك كله ما لجأ اليه هذا السلطان
 من زيادة كبار الأغنياء ومسييا في بيوتهم ،
 ومطالبة الواحد منهم بتقديم الهدايا اللالفة
 بالسلطنة .

أما من ناحية السياسة الخارجية فيعتبر
 عهد خستهم بداية النزاع بين السلطنة
 المملوكية والسلطنة العثمانية ، وهو النزاع
 الذي أدى احيرا الى زوال دولة سلاطين
 المماليك بصر والشام ، واستيلاء العثمانيين
 على هذين القروين أوائل القرن السادس
 عشر . وبدا هذا النزاع في سنة ١٤٦٣ بسا

جرى من اختلاف حول الوراثة في امارة فرمان حيث أيد السلطان الشافى محمد الثاني أميراً معروفاً بعدائه للسلطنة المملوكية ، وأمدد بقوة عسكرية مقابل نزوله عن عدة بلاد قريه من الأطراف المملوكية ، غير أن هذا النزاع لم يؤد إلى حرب بين الدولتين زمن السلطان خشمقدم .

وجرى خشمقدم في قبرص على سياسة سلمية ابتال لغرض أمل من مجرد المساعدة العربية للملكها جيس الثاني ضد أخته شارلوت ، وكان هذا الغرض هو التخلص من بابا الفئات المملوكية التي عدت نائمة على السلطان بصر والشام ، وبدليل تكرار هذه المساعدة العربية دون الحاجة إليها ، وفي أواخر حكم خشمقدم ، أخذت قبائل البدو تتهرب والاضطراب لا في الوجه القبلي تحسب ، بل في الشام ولسان بلاد العرب ، حيث تعرضت قوافل الحجاج لمطوهم ونهبهم . وسبباً تجرى الاستمدادات لأرسال الحملات اللازمة لقمع هذه الحركات البدوية حل المرض بالسلطان خشمقدم ، ومع أن حملة ساربه فعلا إلى شمال بلاد العرب فإذ حصلت أخرى إلى الصعيد ، وفضت السير ، إذ فضل قائمها البقساء في القاهرة ليرتقب ما تأتي به الأيام بعد موت السلطان . وفي أكتوبر سنة ١٤٦٧ ، مات خشمقدم ، وترك ولدوين أكبرهما هو المعروف باسم منصور .

وفي الشهور الأربعة التالية عدت القاهرة

سرحاً لأمورات واضطرابات بين الفئسات المملوكية وتولى السلطنة في هذه السنة الصاخبة سلطانان . وهما صليل ما حدث أن السلطان خشمقدم لم يجر على القاعدة التي درج عليها السلاطين السابقون ، فلم يرشح ابنه منصوراً ليهنئله ، ولم يوزع إلى أحمد بترشيحه ، ولم يعزل زعماء المماليك بدورهم بما عسى يكون للرجل الراحل من رغبات باطنة حول هذا الموضوع ، بل عقدوا اجتماعاً قبيل وفاة خشمقدم ساعات قليلة ، واتفقوا على إقامة أحمدهم وهو الأتملك بلباى في السلطنة ، وهو المشهور بالجنون ، وجرى اعلانه سلطاناً في نفس اليوم بعد الانتهاء من تسريح جنازه خشمقدم ودفنه . وبعد شهرين فقط قرر أولئك الزعماء عزل بلباى فنزلوه ، لأنهم أرادوا إقامة زعيم آخر منهم فقاموه ، وهو ترميزاً اليونانى الأصم في ديسمبر سنة ١٤٦٧ . ولم يتم ترميزاً في السلطنة أكثر مما أمام سلفه سوى أيام محمودان ، وتراءى للمعاصرين أن سوجه تتكرر الحال على هذا المنوال ، ما دامت الفئات المملوكية على ما هي فيه من مناسبات ولتن ، وما دامت زعامتها لا تنطوي الا على أمثال بلباى وترميزاً . غير أن السنوات لم تثبت أن لعبيت ورجلا من لوم آخر ، وهو الإنابك قايشاى الذى أقامته الفئات المملوكية سلطاناً في يناير سنة ١٤٦٨ ، ظل منها أنها سوف تتخلص منه سريعاً كما تخلصت من سلفيه . فكان قايشاى ظل سلطاناً ما يقرب من تسع وعشرين سنة . ويرجع هذا

على أن المشكفة الخارجة الكبرى زمن قايتباي جاءت من ناحية الدولة العثمانية التي أخذت منذ تم لها السيطرة على البقاع تمتل على الاسيلاء على ما تبقى خارجا عن طاعتها بآسيا الصغرى : وهما امارتا قرمان وذلنادر المنسولتان بحماية السلاطين المماليك وعليهما لعضدت الدولة المملوكية في مستون الامن والدفاع على طرفها الشمالية . ورضى قايتباي معالجة هذه المشكفة بمساعدة والقت السلطان المشائبة والمملوكية لهما على عدم التدخل في لشون هاتين الامارين : وبحسب هذا الاتقان ظلت العلاقات في وثام ظاهر بين السلطنتين حتى وفاة السلطان العثماني محمد الثاني سنة ١٤٨١ . لم يحدث أن أساء قايتباي الى السلطان العثماني الجديد بايزيد الثاني باستقبال آخيه ومنافسه الأمير جم بالقاهرة سنة ١٤٨٢ ، بل ان قايتباي قدم لهذا الأمير عدة انواع من المساعدة للقيام بشورة لثلفة ضد بايزيد الثاني في آسيا الصغرى . ولهذا السبب فضلا عما قام به حال قايتباي من اعتراض سفارة هندية الى البلاط الشمالي ، أعلن بايزيد الحرب على مصر في سنة ١٤٨٦ . فاستولى جيش عثماني على لاهة وطرسوس وسائر مدن قيليقية ، على حين تسام جيش بحصار مدينة ملطية ، وكلها مدن تابعة لسلاطين المماليك وأعقب ذلك بعدة سنين حرب دفاعية هجسومية رجعت فيها كمة الجيوش المملوكية على المشاية أكثر من مرة ، واختتمت بصلح سنة ١٤٩١ لاعادة

التخبر الى شخصيته ، كما يرجع الى خبيثة المشاكل الخارجة التي واجهته منذ أوائل سلطنته وهي مشاكل صرفت الثقات المملوكية عن شئها القديم الذي لم ينقطع منذ سنين ، وأدت بما أشيرا الى التكتل وراء السلطان في سبيل الدفاع عن مصالح الدولة المملوكية . ولهذا لم يكن عهده قايتباي أطول عهود دولة السلاطين الجراكسة فحسب ، بل أكثرها توفيقا ولجاحا . وأول هذه المشاكل الخارجة حركة الزعيم التركماني شاه سوار رئيس امارة الدلفادية وآسيا الصغرى ، إذ صكفه هذا الأمير على الاغارة على أطراف السلطنة المملوكية ، مستندا في ذلك على مودة الدولة العثمانية ، فما زالت الحملات المملوكية حتى هزمت وحملته أسعرا الى القاهرة حيث أعدم أولها سنة ١٤٧٣ . ولم يكن قايتباي أقل اسما على جهوده ضد أوزون حسن (حسن الطويل) زعيم الشاة البيضاء الذي حلاله أن يشاهر بالولاء والاخلاص للسلطان قايتباي أثناء حركة شاه سوار وأرضى له قايتباي العجل على الغارب حتى انتهى من هذه الحركة وصاحبها . ذلك أن أوزون حسن كان يطالب بمشاركة السلطنة المملوكية في كسوة التكمية ، كما طالب بها قبلا شاه رخ بيسبولوك زمن السلطان برسباي ولهذا عمل قايتباي على عدم هذه المطالبة بارسال حملة مملوكية نحو أخرى كنزو الأراضي الغرائية التابعة للشاة البيضاء حتى وفاة أوزون حسن سنة ١٤٧٨ .

الأوضاع السياسية التي ما كانت عليه قبل الحرب ، غير أن هذا الصلح لم يكن سوى خدعة من تغعات الهدوء قبل المصافاة .

واستطاع قايتهاي برغم انصرافه الى كل هذه الحملات والحروب السابقة أن يجد وقتا للدبلوماسية الهادئة التي تطلبها جزيرة قبرص من بعد أن سار عرشها الى الملكة كاترينا كورفار والتي ترجع الى أصل بندي ، وبعد أن لهذا للبندقية كلمة نافذة في شؤون ذلك العهد ، ذلك أن الملكة كاترينا لم تواب على دفع ما هو مقرر عليها من جزية سنوية منذ ١٤٧٨ ، فما زال قايتهاي يضغط على جمهورية البندقية ، ويهدد تجارتها بمختلف التضيقات التجارية بالاسكندرية ، حتى قامت البندقية بدورها بالضغط على كاترينا لارسال الجزية المقررة في النظام . على أن دبلوماسية قايتهاي لم تنجح في كل الأحوال ، إذ حاول سامنت أي عبد الله ملك طرابلس ، بأن يهدد فرديناند ملك اسبانيا المسيحية بتدمير بيته المقدس واستئصال شاةة المسيحيين بمصر والقمام فذ لم يفته من هذه الحرب بصلح عاجل . غير أن الملك فرديناند أي أن يذهن لهذا التهديد وظل يحارب مملكة طرابلس حتى استولى عليها تماما ، وكل ذلك دون أن يتمكن قايتهاي من تنفيذ أية فاحية من نواحي تهديداته .

أما السياسة الداخلية زمن قايتهاي ، فأول مميزاتها أن السلطان تبع طرقا ووسائل مخالفة لما سار عليه سائر السلاطين العراكمة

قبله وبمده ، ومثال ذلك حسن معاملته لجميع من جرى خلفه من السلاطين وأبنائهم ، إذ حرص على دعوتهم الى مشاركته في لعب الكرة بالقاهرة ، وسمح لهم بتأدية فريضة الحج ، بل أنه أجاز لهم النزول الى القاهرة أثناء غيابهم ، ولم تساوره الشكوك فيهم ، ولم يمتحن كيدهم . وأكثر قايتهاي من مقادرة القلعة لا للتزده والصيد خارج القاهرة فمصعب ولا للحج زلفى ، بل لمعرفة أحوال المدن والحصون ، فزار حيرون وبيت المقدس والاسكندرية ودمياط ودمنق وحلب ، وبلغ شاطيء الكمرات . وهو طرف السلطنة المملوكية . وختلف قايتهاي أيضا سار آثارا دالة على عظمته ، من طرق وجسور ومساجد ومدارس واستحكامات ، ومن هذه القلعة المرولة باسمه بالاسكندرية حتى العصر العاشر .

على أن قايتهاي لم يبلغ ما بلغه من النجاح في سياسته الخارجية والداخلية إلا بفضل نخصته الناضجة ، فالى جانب ما اشتهر به من الكياسة والصفاعة ، كان قايتهاي كذلك سلطانا حازما مسيطرا بقوة الفلق على ممالكه الجبلان تمام السيطرة ويضلل مساعدتهم الخاصة له استطاع أن ينجح في طسيط الأحزاب المملوكية الأخرى ، وبذا انتصر في السلطنة المملوكية من مظاهر الأمن مالم يكن سرورا من قبل . غير أنه كان أمنا مشروبا بكثره المطالب المالية الاضافية التي فرضها قايتهاي على مختلف طبقات الناس بمصر والشام ، للمصرف على حملاته العرية وعماثره

التيغمة ، فلم يكتبه مثلا بما فرضه على
 الأملاك المقارية من ضريبة مبلغا بجار سبعة
 شعور ، بل فرض مكا بأهاف أو أوجسو
 أيامه على ما جرى بيه من القمح . وانتد
 قاييى قاييى كذلك في استخلاص الأموال من
 اليهود والنصارى ، ولم يسلم كبار موثقى
 الدولة من مطالبه ، كما لم يسلم منها أعيان
 لأقاليهم الذين أكرمهم السلطان بإيراته
 الرسمية ، كما يحصل منهم على هدايا قيمة
 لم يقدموها اليه من طيب خاطر .

لم استدل بمصر ويا سنة ١٤٩٣ ، واجتاح
 القاهرة والأقاليم حتى أغنى ما يقرب من مائتى
 ألف من أهل البلاد ، عدا لئى المماليك من
 مختلف الفئات ، وذهبت ضحيته ابنة السلطان
 وأما في يوم واحد . وما كاه بضى على
 الوباء ستان حتى أصاب القصف عامة البلاد
 المصرية ، وتشت الأمراض في المائىة . ثم
 أعقب ذلك موجة من القصب بين الفئات
 الباقية المتسوكية ، ومع أن السلطان بلغ
 وقتذاك الضائقة والشاين من عسره ، فانه
 نهى لاعتماد القننة فود سلفك دماء
 سنة ١٤٩٥ ، فبر أن المسيطوخة أقتله ،
 والمرضى تظب عليه وكانت وفاته ١١ بولمعة
 سنة ١٤٩٦ .

وشهدت القاهرة ١١ السنوات الخمس
 التى أعقبت وفاة قايتباى عهود خسة من
 السلاطين طلعت بالقوضى الدمشلية
 والاضطراب ، وأولها عهد محمد الابن الوحيد

للسلطان قايتباى من خنقته أصسلباى ،
 وكذلك عهد خاله قاصوه الأشرقى ، ولذا
 لم تنقر الطال الا سنة ١٥٠١ ، حين أقيم في
 السلطنة أمير شبيه بالسلطان قايتباى من حيث
 السن والخبرة بشون الحكم والمصاراة في
 معاملة فئات المماليك واسمه قاصوه القوري .
 وعلى الرقم من إذ السلطان الجديد تجاوز
 السنين من عسره ، وأنه تولى السلطنة بفضل
 اتفاق جماعة من الأمراء على توليته ، فانه
 لم يلبث أن أظهر لأولئك الأمراء أنه لن يكون
 صنيعة أحمد منهم . ولم يختلف السلطان
 قاصوه القوري عن سائر سلاطين المماليك
 فيما ولجه عند توليته من اجتماع فئات
 المماليك حسبول القاعة والعاقبم في طلب
 ما جرت به العادة من دفقة التولية ، فبر انه
 استغل هذه المطالبة لمعالجة الضائقة المالية التى
 كدستها أحوال السلطنة الملوكية منذ أواخر
 أيام قايتباى ، ووعد بتوزيع أموال النفقة
 الملوكية في أقرب فرصة . ولذا فرض السلطان
 القوري من الضرائب الفجائية ما لم لشهد
 حولة الجراكسة له شيلا ، إذ أمر بجباية إيجار
 المقارات لعمرة شعور دفعة واحدة ،
 ولم يقتصر في ذلك على الندر والموثمت
 فحسب ، بل تصداه الى الحمامات والمواقى ،
 والطواحين والسفن ، ودواب الحمل . وتقرر
 على الأوقاف الغربية أيضا أن تدفع ما مقداره
 ربع سنة كاملة ، وهذا فضلا عن تخفيض سعر
 القرد لمصاحبة الخزانة السلطانية . وترتب

على هذه الاجراءات ان تؤثر للسلطان النورى من الدخل ما استطاع به ان يدفع اسواق التفتحة لغات المالك بحسب وعده السابق ، كما انه اشترى عددا كبيرا من الجبلان الم منهم طواخم جديدة نسبت اليه ، وهي طائفة النورية . على ان المعروف ان النورى اتفق جانبيا كبيرا من هذا المال كذلك في تصوية حصون الاسكندرية ورشيد وحلب ، وفي اصلاح طريق الصجاج الى مكة ، وتشييد مسجده ومدرسته بالقاهرة .

ولذا ساء الهدوء مدن السلطنة المملوكية ، برغم ما امكن له من جمع الاموال ولم يقع من الحوادث ما يكر صفو الأمن في السنوات الأولى من عهده ، ما خلا حركات البسند المعتادة في مصر والشام ، وما تطلبت من حملات تأديبية على نحو ما جرى زمن جميع السلاطين . غير ان ما حدث من وصول البرتغاليين الى الهند واقامة أول محطة تجارية اوربية على الساحل العربى الهندي أهدى أثره منذ أوائل عهد النورى في التجارة الشرقية المتدفقة على مصر والشام عن طريق عدن وجدة ، إذ ذهبت مسند التجارة القنطرة تدريجيا الى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح . وذهبت معها حصة كبيرة الضرائب الرومية الهائلة منه مروها بالوانى المصرية التى جمعها سلاطين المماليك على هذه التجارة ، كما ذهبت أرباح التجار المصريين والناسمين الى البرتغاليين . وأضاف سوءا

الى هذه الحال ما ععد اليه البرتغاليون من مهاجمة السفن المصرية في بحار الهند ، وبيت النورى استمع وقتذاك لما كرده له جمعورية اتبندعية من النصح ، فبادر الى استخدام القوات البحرية المملوكية لوقف الاعتداء البرتغالى قبل استفحاله ، لكنه حاول الوصول الى نسوة سلمية ، وبمسئ رمسولا الى روما سنة ١٥٠٤ بشكوى الى البابا يوليوس الثامن تضمن التهديد بتدمير الأماكن المقدسة ل لمسلمين اذا لم ينتعج ملك البرتغال عن اذى مصالح التجار المسلمين بالهند ، وتهديد سفنهم التجارية . غير ان هذه السفارة لم تحقق شيئا ، ورتب على ذلك ان اعد السلطان أسطولا كبيرا في البحر الأحمر لقتال البرتغاليين في البحار الهندية وهاجم هذا الأسطول المملوكى البرتغاليين في ميناء شول بالهند سنة ١٥٠٨ ، واستطاع بمساعدة قوات بحرية من سلطنة جوجيرات الاسلامية ، ان تنزل المصطربة بالبرتغاليين . فغير ان البرتغاليين انقسموا لالتسهم في السنة التالية في معركة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ ولم تهم للتجارة المملوكية في الهند بعد ذلك قائمة .

ولم يفض على معركة ديو البحرية سوى سبع سنوات حتى زالت السلطنة المملوكية من الوجود على يد السلطان المشائى سليم الأول ، وذلك أنه منذ صلح سنة ١٤٩١ بين السلطان قايتباى والسلطان بايزيد الثانى ، ظلت العلاقات ودية بين المماليك والعثمانيين .

وينا تروج القاهرة وأهلها بأجساد
 هزيمة السلطان قانصوه الغوري ومصرعه ،
 جرى اختيار سلطان جديد في أكتوبر
 سنة ١٥١٦ وهو الأمير طومانباي ، الذي عهد
 إليه قانصوه بصرفه أمور الحكم أثناء
 غيابه . وقبل طومانباي السلطنة كارها ، بعد
 أن أقسم الأمراء له في مقبرة ولي من أولياء
 الله وهو الشيخ أبو السعود ، بأنهم سوف
 يبدلون أموالهم وأتسمم الله سييل دفع
 العثمانيين عن البلاد .

أما العثمانيون فانسحروا في رحفهم نحو
 مصر ، وعلى الرغم مما بذله طومانباي من
 جهود لوقفه ألزحف السريع حلت الهزيمة
 بالجيش المملوكي أولا في بيان قرب قوة ، ثم
 في الريدانية خارج القاهرة . ووقعت معركة
 الريدانية في يناير سنة ١٥١٧ ، وفي اليوم
 التالي توقعها ثم الانسحاب بسليم الأول
 سلطانا على مصر والشام وجرت الضربة باسمه
 من منابر القاهرة واستمر طومانباي يناضل
 بضعة أشهر ، غير أن الهزيمة حلت به مرة بعد
 مرة ، ووقع أخيرا في قبضة العثمانيين وجرى
 اعدامه مساء في أبريل سنة ١٥١٧ ، على باب
 زويلة (بوابة القلعة الحالية) ، وبلغداده
 التهنين أمر العظيمة المملوكية .

ولابن اياس المؤرخ في وصفه الأيام
 الأخيرة من حياة طومانباي عبارات مؤلها
 العز على ما صارت إليه مصر من التفتير ،
 بعد هجاب السلطة المملوكية ومجرو

ثم ما لبثت هذه العلاقات أن تحولت تحولا
 خطيرا سنة ١٥١٦ ، بعد سلطة سليم الأول
 العثماني الذي اشتهر بأطماعه التوسعية
 اشياعا للحركة العثمانية الذاتية ، وتحققا
 لسيطرة العثمانيين على العالم الاسلامي ،
 فما كاد يتمي بسليم من هزيمة الشام اسماعيل
 اول ملوك الأسرة الصفوية الشيعة بإيران في
 معركة تيمالدران سنة ١٥١٤ ، حتى وجه
 اهتمامه الى الأطراف المملوكية العثمانية بآسيا
 الصغرى ، فاستولى على اسسارة دنشاور
 وعاصمتها الايلستين ، رغم الصلح القائم بين
 المماليك والعثمانيين . ثم مزق سليم الأول على
 محاولة السلطنة المملوكية ، فانقضد من
 الاتهامات النافذة التي وجهها الى السلطان
 قانصوه ذريعة للحرب ، والتي بالعبس
 المملوكي في أغسطس سنة ١٥١٦ لله دابق
 شمالى حلب ، حيث انهزم السلطان قانصوه
 هزيمة ساحقة ، ولقى حتفه في الميدان . ورجع
 هذه الهزيمة الى تفوق عدد الجيش العثماني ،
 والى المدفعية العثمانية التي لم يكن لدى
 الجيش المملوكي ما يقابلها ، وهذا وذالك فضلا
 عن عبسانة قائد الجيصادح الأمير للجيش
 المملوكي ، واسمه جابر بلدا ، وهو الذي لفته
 التاريخ باسمه خاين بك . فسلط له حطب
 دون مقاومة ، كما سلمت له دمشق كذلك بعد
 مفاوضات قصيرة ، ولقى العثمانيون أيضا حلوا
 كل مقاهر الترحيب بسعيهم لانتفاذ البلاد
 وتخليصها من المماليك .

المشائين . على أنه لم ير في ذلك التعبير شيئا
 إلا ما جرت به التقادير التي ليس لسان عليها
 سلطان ، ولم يدرك — أو أنه لم يستطع أن
 يدرك أن عوامل داخلية وخارجية كثيرة
 كانت تتخرق الجسم السياسي للدولة
 الملوكية ، وأن معظم هذه العوامل وارد
 صراحة وتلميحا في تاريخه الكبير . وجزء في
 نفس ابن إياس أن مصر صارت ولاية تابعة ،
 بعد أن كان سلطانها على قوله « أعظم
 السلاطين في سائر البلاد قاطبة ، لأنه خادم
 الحرمين الشريفين ، وحامي ملك مصر الذي
 افتخر به فرعون . . . » .

وعاقب ابن إياس بالفساده سنوات
 طويلة بعد حلول المشائين بالبلاد وشهد
 بنفسه التلاقق مصر التي بداية عهد أجمعت
 المراجع على أنه من أحلك العصور في التاريخ
 المصري الطويل .

والأختنت السلطة الملوكية في مصر
 والشام وغيرها من الولايات الملوكية على
 هذا النحو الكبير ، وذلك بعد مرحلة زمنية
 بدايتها ١٣٨٢ م وانتهت ١٥١٧ م ، في مدة مائة
 وخمس وثلاثين سنة فلا تقل من استمرار
 بعض العوامل العامة التي مكنت لهذه الدولة
 أن تمتد قوتها في شئ من الاضطرابات
 الداخلي ، والخارجي كذلك . أما من الناحية
 الخارجية فمن الواضح أن الأعمال الملوكية
 في قبرص ورودس وأطراف الرائق وآسيا
 الصغرى جعلت للحكم الملوكي هبة عامة في

البلاد المصرية والشامية ، على غرار ما كان
 للدولة الملوكية الأولى من هيبة عامة في
 قلوب الناس ، بفضل ثروياتها في احياء
 الخلافة العباسية بالقاهرة ، وفي دفع الخطرين
 الصليبي والمغولي من البلاد .

أما العوامل الداخلية التي مكنت لهذه
 العولة استمرارها رغم قصور سلاطينها عن
 مستوى سلاطين الدولة الملوكية الأولى «
 فلا مساحة أن أول هذه العوامل هو أن
 الممالك سيطروا على جميع الوظائف
 العسكرية والادارية كما سيطروا على وظائف
 البلاط السلطاني ، ثم الم حرسوا — ابتداء
 من السلطان الى الملوك المهجوب حديثا —
 أن يفلوا طبقة أولي الجاركة متارة منزلة عن
 سائر أهل مصر والشام وغيرها من الولايات
 الملوكية ، ومن هذه الطبقة ألفت فئات
 الجيوش العسكرية الوحيد في البلاد .

وأدركت هذه الطبقة ضرورة التمسك
 والتمسك بين أجزاءها ، وعرف كيف تعصر
 ما وقع من منازعات داخلية في دوائرها
 الملوكية ، ولم تلتصق في هذه المنازعات
 مساعدة المصريين أو الهند بالاقاليم ، ولم
 تقل أن يتدخل فيها جيرانها . ولم يخرج على
 هذه القاعدة سوى قلة من الأمراء المستردين
 الذين التمسوا لانفسهم ماوى خارج البلاد ،
 وتسببوا للسلطان القائم في الأارة التلاقل على
 أطراف السلطنة ، على أن معظم البلاد
 المجاورة لم تستجب لحركات أولئك الأمراء

المتروين ، بل فضل ملوكها البقاء في سلام
ورثام مع السلطان السلوكي .

ثم ان السلطة المملوكية توغر لها جهاز
ادارى بالغ الدقة والمتدرة على الاستمرار
الذاتي ، برغم ما أحاط به احياء من مظاهر
الاضطراب لأن عامة موعضى هذا الجهاز
الادارى كانوا من المصريين والشاميين على
اختلاف عقائدهم الدينية ، فلم يفتكروا بما
جرى في بؤار السلطة ، أو بين زعماء
المماليك من أطراد ومنازعات .

والواقع أن أهل مصر وانضم لم يبدلوا
لحكامهم المماليك متعصب كثيره ، الا نسوا
إبراهيم الأرض ودفعوا ما هو مفروض عليهم
من ضرائب ثقيلة متعددة ، ومنعوا ما احتاج
اليه السلطان والامراء والجيش من معدات
مدنية وعسكرية ، ورفضوا بما أصابت عليهم
أعمالهم في الزراعة والصناعة من أرزاق يرمية
قليلة . ولذا لم يكن أهل مصر والشام أداة
راضية في أيدي السلاطين فصعب ، بل أداة
طبعة كذلك ، وكان ما اشتروا به من الوداعة
والهدوء مما يسر لسلاطين المماليك بأن
يجمعوا يجمعهم خارج البلاد ، أما البدو
بالاتاليق الذين لم يعضوا بنا للقتال من
سلطان فلم يشتهروا بنا اشتهر به الصربون
والشاميون من الرضى السام واليسل الى
السكون والهدوء ، بل كانوا دخلوا على
الحكم للملوكي منذ أيامه الأولى ، وكانت
كرهيتهم للمماليك سببا من أسباب انهيار
المقاومة المملوكية ضد المنانيين .

ويستطيع سلاطين الدولة المملوكية الثانية
أن يفخروا بمدد من المباني التعليمية
والتذكارية ، فضلا عن المآثر التجارية الدالة
على ما يقفته تجارة مصر الخارجية في زمنهم ،
من ضخامة وتنوع زمن هذه الدولة ، سواء
مع فرنسا وإسبانيا والجمهورية الإيطالية
من ناحية ، أو مع الهند والصين عن طريق
البحر الأحمر من ناحية أخرى . أما المباني
التعليمية والتذكارية فأهمها ، مدرسة السلطان
برقوق ، وموضعها شارع المنز لدين الله
العالي ، وهي المدرسة التي ألقى فيها الخوخ
الفن من يد الرمس III خلدون دروسه في
منصب فقه المالكية . ولابد أنه تظل هذه
الدروس اشعارات كثيرة التي تظفراته
الأجتماعية والاقتصادية التي امتلأت بها
قدست المشهورة . وهي النقريات التي تأثر
بها المريني في مؤلفاته . ومن عند المباني
كذلك ، شاهة السلطان فرج بين برقوق ،
وموضعها القرافة الشرقية العالية بالقاهرة ،
ثم مسجد الخريد شيخ ، وهو المسجد الذي
ظل حائلا يعطقات بدرسية أزهري حتى
العصر الحديث ، وموضع هذا المسجد
بالسكرة بجوار باب رولة (بوابة المنولى) .
وهناك كذلك المدرسة الإشرقية بربساب ،
وهي التي وفق الانتهاء من بنائها فجاء
الأخبار الى القاهرة بوصول الملك القبرصي
جانوس الثاني سيرا الى الاسكندرية في
ركاب الحملة المملوكية المائدة من قبرص ،
ولذا أمر السلطان بربساب بتطبيق خوضة

على المستويات التجارية والضيعة أواخر عصر
سلطين أماليك .

واحتفى عدد من أمراء الدولة المملوكية
الثانية حذو سلاطينهم في البناء والعمارة ،
كما حدث إمام الدولة المملوكية الأولى ،
ولكن على مقياس أصغر من حيث الضخامة
والضخامة والكثرة العددية ، فبنى جركس
الظليل الخان المروك باسمه ، وهو السوق
الذي يمد أحد البهاج السياحية بشاهرة
المصور الوسطى ، وبنى القاضي يحيى
مدرسته الكائنة بشارع الأزهر الحالي
ومسجده الأول بشارع انصكة يسولان
ومسجده الثاني بالحجابية ، وترجع لمهسد
قائمتى هذه بمان اميرية ، أولها مدرسة الأمير
تجباس الاسحافي ، ومدرسه أبو بكر مزهر ،
وقبة يشيك بن مهدي الدوادار ، وهي الضبة
الفاوية بالحجابية .

وهناك كذلك مدرسة أربك اليوسفي في
طولون ومدرسة قصري يردى المؤدى
بالمصلبية .

وفي هذه المباني السلطانية والأسجدة
ما يبرهن على أن سلاطين الدولة المملوكية
الثانية وأسرانها لم يتكولوا أقبل اهتماما
بالمباني الدينية والفكرية عن سلاطين الدولة
المملوكية الأولى وأمرائها ، طواعة نقص
العوامل السابعة ، واتساعا لنس الأعراس
الديوية والأخروية .

واعتر سلاطين الدولة المملوكية الثانية

جائوس على باب تلك المدرسة ، تذكارا لتبعة
قبحس للسلطنة المملوكية ، ولا تزال هذه
المدرسة قائمة على رأس سوق الطيرين
بالماهرة الحالية . وللسلطان برساي كذلك
خلفاه ومدفن بالهافة الشرقية ، فضلا عن
مسجد لا يزال كذلك قائما بقدة الخانكة
الحالية ، شمالي القاهرة . وللسلطان ابنال
كذلك خلفاه ومدرسه ومدفن بالمرافة
الشرقية ، أما السلطان قايتماي وهو الذي
ظل في دست السلطنة المملوكية لمابسا
وعشرين سنة مبلادية ، فهو مساحب أكبر
مجسده من المنشآت المعمارية ، ومنها مسجد
ومدفن بالهافة الغربية ، ومنها كذلك القلعة
التي بناها هذا السلطان بالإسكندرية على
أقصى المنار القديم ، وفي ناله لها دلالة
واضحة على خيبة الدولة المملوكية من ازدياد
القوة البحرية الثمانية ، سده أبو أسعد
السلاطين العثمانيون بمدون أبصارهم نحو
جزيرة رودس وسواحل آسيا الصغرى .
وللسلطان النوري مدرسة وقبة بصوار
الجامع الأزهر ، ولا تزال القبة تستخدم
لأغراض ثقافية ، وهي إحدى اقباب المملوكية
التي شاءت المفاير أن يموت صاحبها بيدها
عها ، فلا يدفن فيها ، وسما يشيد باسم
السلطانتين : قايتماي والنوري في ميدان
المنشآت المعمارية ، وكالة قايتماي عند باب
النصر ، ووكالة النوري في نهاية شارع
الغورية ، وكلاهما كثر زائر بالمعلومات الدالة

بالقلعة اشترازا ملحوظا ه وهم الذين نشأوا بها — واشتهروا باسم البرجية نسبة الى سكنهم بأراجها . ولم يكن لديهم من الحروب الخارجية ما يضطرهم الى التنقل والسير بعيدا عنها ، بل كان لديهم من الثمن الداخلية ما جعلهم يتعمقون بها ، وكذا أقاموا بيوتها أكثر مما أقام سلاطين الدولة المملوكية الأولى . على أنهم لم يصدروا بها جديدا ، نظرا لاكمال ما فيها وأسوارها وأبوابها وأبراجها وأحواشها ، فضلا عن يسوتها السكية والحكومية ، منذ أيام سلاطين الدولة المملوكية الأولى . ولذا انصرف اهتمامهم بها على أعمال ترميمية وإضافات تكميلية وتعديلات تحسينية ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر أن السلطان برقوق عثر بها مسرى بها وطاحولا ، واشترى بها خمسة أمدار العدل ، وأن السلطان جنق جيسه باب المدرج ، وأن السلطان قايتباي جدد عسارة الأيون الكبير ، وأشا مقعدا وبببر بالعوش السلطاني ، كما أن السلطان المورى جدد عسارة المنبلع الكبير ، وأشا المقعد القبطي الصغير .



والى هنا تكون الدولة المملوكية الثانية مسورة سكرة تقريبا من الدولة المملوكية الأولى . بعد تصغيرها غير أن هذه الدولة المصنفة امتازت على سالفاتها بما أنجبت من حركة جديدة في كرامة التاريخ ، بفضل قدم ابن خلدون الى القاهرة وقيامه بشرح نظراته

الاقتصادية والاجتماعية في حقايق دروسه ، وتأثيره في تلمينه أحمد المقرئ وغيره من المعاصرين الذين تملذوا عليه . ووضع ذلك لأول ما وضع في كتاب صغير عنوانه : «التراجم والخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ه حيث أرجح المقرئ مشكلة اسلامية كبرى التي جفورت قبيلة قديمة ه كما وضع في كتاب : «الملوك لمعرفة دول الملوك ه حيث خصص المقرئ تأليفا عظيما لي أربعة أجزاء ضخمة لتاريخ مصر زمن المولدين الأيوبيين والملوكية حتى سنة وفاته ه وهو الكتاب الذي تقدمت الإشارة اليه في الفاتحة من هذا الفصل . ويلاحظ أن المقرئ خصص كتابا آخرى لمصورة من التاريخ المصري ه مثل «تقد جواهر الأسفاط في ذكر تاريخ الأسفاط ه ، و«معاد العنقا بأخبار الأئمة الخلفاء الفاطميين .

وتبدو هذه النزعة المصرية القومية الضالصة في مؤلفات أخرى للمقرئ مثل : «المقنى الكبير ه الذي أراد المقرئ أن يجعل منه مجيما مصرية قويا من أقدم المصور الى عصره ه ومثل «درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المنيدة ه وهو معجم ترمي لمعاصره . وامتضت هذه النزعة القومية في تلايد المقرئ والتابعين لهم ه فكتب يوسف بن غزى بردي تاريخه الضخم المسمى : «النجوم الزاهرة في آحاد مصر واتقارها ه وكتب عبد الرحمن الميوطي : «حسن المعاصرة في

وقد هذه العناوين شواهد بليغة فاطقة
بالتطور في مفاهيم التاريخ ، ولكننا شواهد
لم نلبث أن زالت بزوال ما لمصر من كيسان
سياسي ، نتيجة للمفتح المشافي الذي جعل
البلاد المصرية ولاية تابعة لدولة لا تعرف
ولا تفكر من اللغة العربية وقرائها سوى
النرد اليسير القرووي لشرف الدين ،

تاريخ مصر والقاهرة ، كما كتب محمد بن
ابن : « جذائع الزهور في وقائع الدهور » ،
وهو كذلك في التاريخ المصري .
ويبدو تأثير ابن خلدون واضحا في نوع
جديد من المؤلفات ، منها : « لغاة الأمة
يكشف الغصة » للفريرزي ، « وعلان بالتاريخ
بن ذم التاريخ » للسخاوي ، « والمسارح في
التاريخ » للسيوطي ،

الحياة الدينية في مصر الإسلامية

من ظهور الإسلام إلى مطلع العصر الحديث .

لؤستاذ أسبى الحرلى

جزء المنهج :

الدين . . والتدين

« هو الذى يرىكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينشىء
السحاب الثقيل ، ويسبح الرعد بحمده .
واللائحة من حيلته ، ويرسل الصواعق ليعذيب
بها من يشاء . »

سورة الرعد آية ١٢ و ١٣

تحدث عن صلاة - وتطور - ومقارنات ..
ولم يمس تنظيم الحياة الدينية .. وسنسى
اجتماعية لها .. ونحو ذلك .

« وهو منهج لا يد لإحد بالفروج عليه ،
ولا فذرة على انكاره .. وما أخالها في الحديث
عن الحياة الدينية المصرية إلا مصنفين شأ
يقوله في هذا ، لغير متكرين لما يرى من صلات
مثلا ، بين ألوان التدين المختلفة ، في مصر ،
وفي سواها من بلدان أخرى ، وما يجد من
روابط بينها ، أو مشابه ، وما يفسر به شيئا
من هذا كله .

وهو انجاء يفتنى أن يعده فيه صاحب
دين ساوى : مسلما أو مسيحا ، أو غيره مما
شيئا من غضاضة ، أو مساسا بكرامة عقيدته ،
انذا جمع الدرس بينها وبين ألوان من التدين

منذ وجد الانسان على ظهر هذا الكوكب :
الأرض ، قبل أن يكتب تاريخه وبعد ما كتبه ،
كان يهتمكم في حياته هذان السموران :
الغوف والضح ، ثم توفى أمام الفواهر
الجيرية ، رضى وسماويه ، واحسانه
الواضح بضمته ، وعجزه ، وجهله ، آمسام :
ضخامتها ، وشمولها ، وغبوضها ، وتكرارها
.. وما الى ذلك .

ولذلك تدين الانسان في كل زمان ، وكل
مكان لونا ما من ألوان التدين ، يتوخ ما من
أرواح الدين .. خرفت له ديانات وثنية
مختلفة في أنحاء الأوطى « كما كانت له
ديانات توحيدية ، في أرجاء من الدنيا .

والدرس العلمى نظلماهرة التسمدين ،
والأديان المختلفة يفتنى على منهجه المحرر ،

اليدائي أو المنظور ، لا يرضاها صاحب الدين
السوي الأَسَاطِير ، أو حرافات ، أو
تحريفا شوهت عقائد سفية الأَسَاس ،
كرية المصدر .

ومن أجل هذه الخشية انتحجة عدنا
هذه الكلمة عن « الدين .. والدين » لنقول
فيها لكل هذا المتحرج أو المتكسر لسطح
مقررات المنهج العلمي الاجتماعي ، في درس
تاريخ الأديان ومعارفها .. الخ : ان هذا
المنهج لا يسيء الى الأديان السماوية انزلة ،
حين يقرنها في درسه الى الديانات الأخرى ،
التي يرضاها الديانات السماوية ضلالات ،
ومحرفات ، أو تحريفات تحقائق صحيحة .

نعم .. لا يسيء ذلك الى الأديان السماوية
في شيء ، ويبين هذا بيانا كافيا وقوف الاسلام
بخاصة ذلك الموقف الذي يقدم لنا تفسيراً
يفر العلم فيما يصل به بين هذه الديانات التي
يختلف لعلم المتقدين اليها ، وهو موقف
يتجلى في «صالحين اجتمعتين دينيين» ، قد
قررهما القرآن في صراحة ووضوح ، وفيهما
التوفيق بين تناول العلم ، وتكريم المؤمن
لعقيدته ، وبمما تصر الجحيم بين أديان هي
تحريفات ، أو ضلالات في رأي المؤمن مع
غيرها عن الأديان انزلة ، فبمما يمكن للعلم
أن يسلكها معاً ، حينما يدرس ظاهرة التدين
الإنسانية .

وهذان الأصلان الاسلاميان اللذان
يبيئان هذا التوفيق هما : —

أولاً — وحدة الأديان ، التي يقررها
القرآن ، بوضوح وصراحة تكررت في مثل «آية
١٣ من سورة الشورى » « شرع لكم من
الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا اليك ،
وما وصينا به ابراهيم ، وموسى ، وعيسى أن
أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه .. الآية ..
فهو يقرر ان الحقيقة التي شرعها لينا وهي
في الرسل المتعددين واحدة .. والوحى الذي
أوحاه اليهم جميعا متماثل .. وهذه الرسالات
قد دخل عليها مع الزمن من التبخر ما دخل ،
وجرى حولها من التخالف والتناكر ما جرى ؛
كما يحدث الفرقاء شبه من ذلك فيها بين
اليهود والنصارى وسواهم ، لكنه مع ذلك
كله يقرر وحدة أصلها ، وأن ما أوحى الى
رسلها ، وأوصوا به واحد . والصلة بينها
قائمة في الأصل ؛ وهم العوامل التي طرأت
عليها في تأثرها وتطورها يبيح لباحثها أن ينظر
اليها في مثل هذه الوحدة ، وأن يلتبس
العوامل الفعالة في حياة هذا الأصل الموحد ،
وما طرأ عليه من تغيرات ، دون أن يجد
التدين المرحم خصاصة في الجمع بين ما صارت
اليه رسالة نوح و ابراهيم ، وما في رسالة
موسى وعيسى ويحدد بينهما مثلاً .

١٤) في معنى هذه الآية المبررة للوحدة
الدينية آية ١٦٣ من سورة النساء : اما اوحينا
اليك كما اوحينا الى نوح وانبيي من بعده
واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ..
الآية . وآية ١٦٦ من سورة البقرة . وآية ٨٤
من سورة آل عمران ، وغير هذه الآيات مما
لا حاجة بنا الى احصائه .

وثاني الأسلوب اللغوي يجرهما الإسلام،
 وبمجان للمنهج العلمي يعقلته هو: أن كل
 أمة قد جاءها نذير، أي أنه قد امتثلت إليها
 رسالة مبجلة، كانت مناسبة لوقتها، ملائمة
 لحالتها وهو ما نقرؤه قويا، بصيغة التصرف في
 آية ٢٤ من سورة فاطر: وإذا من أمة إلا خلا
 فيها نذير.. وتطاهرها إلى حد ما آية ١١ من
 سورة إبراهيم: وما أرسلنا من رسول إلا
 بلسان قومه ليبين لهم ..

وما دام الأمر كذلك فممكن أن يقال:
 إن ما عند كل جماعة بشرية من دين قد جاءها
 على يد نذير، وله أصل ساسي. ثم تغير مع
 الزمن كما تطفئ بذلك سبحة التطور، فإن كانت
 فيها حقيقة أو حقائق قد حامت بها رسالات
 مساوية أخرى فليس ذلك مما انفق فيه تدين
 خرافي أو ضال مع تدين مساوي، ينزعه
 المؤمنون، بل هي من الحقائق التي اشتركت
 فيها الوحدة الدينية في الرسالات، ووصية
 السماء، وما حولها من جائل في رأى المؤمن
 هو ما لعقها من تشويه أو تحريف أو تقييد ..
 وعند لذلك مثلا يزيد الأمر وضوحا وهو
 الطوائف الأخرى، ووزن الامتثال في دار
 الجزاء على النحو الذي يوضح به ويرسم في
 الوثائق المصرية: فصل هو من الوثيقة
 المصنوعة، وقد انتقل إلى الديانات اللاحقة
 المتأخرة بعد ذلك؟ وفي هذا ما فيه من المساس
 بحرمة تلك الأدب المنزلة؟ أو أن هذا الوزن
 والميزان في الوثائق المصرية يمكن أن يقال —

في ظل ما يقرره القرآن من الوحدة الدينية،
 وإرسال النذير إلى جميع الأمم قاطبة — أنه
 حقيقة دينية موحدة خلا بها غير، ثم تفسر
 من أسر هذه الرسالة ما تفسر، وحفت بها
 التخيلات والتحويلات الوثنية ..

وإذا ما لم يكن: يُقال هذا فلا بأس على
 المدارس المصطنع للمنهج العلمي في فهم ظاهرة
 التدين الإنساني أن يقرر الصلة بين التدين في
 مختلف كوائمه، ومتعدد صورته، وأن يفارقه،
 ويوازن بين الأدب المختلفة، وأذ يفضعها
 للفرائض مطروحة، وسنن موحدة، لأنها في
 حديث الوحي المنزّل، من القرآن، ليست
 إلا حقيقة واحدة، ولا فرابي في أن يكون قد
 طلا في امتها — حيث كانت — نذير من
 السماء بها .. ولا بدع في الربط بين الأدب
 المختلفة، في أي زمن من الأزمان، ولا يصح
 أن يبتدئ ذلك على مؤمن، أو يرى فيه بأسا،
 أو مثلا من دينه الذي يدين به .

وهكذا يزيل الهدى القرآني كل صعوبة
 تعرض بالمنهج العلمي في درس الأدب على
 مستوى اليوم .. لم يستشع المتحدث فيها أن
 يقول ما يجد من صلة بين الدين .. والتدين
 في الحياة المصرية، على اختلاف أزمته،
 وتنوع دياناتها، وأن يلمح أوجه التشابه بين
 هذه الصور المختلفة .. وأن يستخرج منها
 دلالات على الشخصية المصرية الدينية مثلا،
 غير مشتق من أن يظن تلاف هذا المنهج خطرا
 على إيمان مؤمن برسالة مساوية، أو نيلها

منها في شيء .. وعلى هذا المنهج نتقدم الى الحديث عما نشهد اليه من :

التاريخ الحضارى

ف نقول : نحن أمكن — بكل تساهل — أن يكتب التاريخ العام ، أو التاريخ السياسى ، وما أشبه ، على أنه أحداث مبرودة ، وأساء معدودة ، وسنين مرقومة ، فانه لا مجال مطلقاً لأن نقبل — بأى تساهل — كتابة التاريخ الحضارى عنى مثل هذه الصورة .

انما تاريخ الحضارة حديث عن خصائص ومميزات تجبئة من الناس ، وطوابع لها ، ومفومات ، يسكن في ضوئها تفكير اتجاه خطوات تلك الجبئة المورثة ، في حريق التقدم الانساني ، ومسير التمدن البشرى .. وفهم أهدافها في نشاطها ذلك ، وكشف البواطن والموادع التي سبوت عنها أعمالها ، في هذا المجال .. وتبين الموالم النسبية التي سيطرت عليها في ادوارها المختلفة وسادت أنفس أجيالها المتتابعة .. ولتحديد الفكرة الثابتة التي دارت عليها حياتها ، وصنعت تاريخها ، وكانت محور فلسفتها الخاصة ، ومدار تشويرها لفسنون الكون ، وسمح ادراكها لمشكلات العالم ، وأفاق المستقبل .. وعن طريق معرفة ذلك وما اليه في حياة مجموعة انسانية موحدة يسكن فهم شخصيتها المميزة ، وهى هى متأسكة ، واضمحة ، منقحة ، كما يكون الانسان الفرد التوى ، في شخصيته .. أو هي منها فة مهتره متفارة ،

كما يكون الانسان الفرد الضعيف ، وتكون شخصيته ..

ومن هنا يدن القول في هذا التاريخ الحضارى ، دقة هذا التثيل للشخصية .. والاهتداء لعناصرها ، بالجمع والتبجح تارة .. وبالتفليل والتجزؤلة تارة .. وما يتطلب كل ذلك من التفرقة التساملة ، العبقسة ، الفاحصة .. المنظمة للعبارة المورثة في مختلف قصورها ، ومتشعب أسوالها ، ومتشوع مجالاتها ، منذ عرف عنها خبر ، أو كتب لها تاريخ ، وتقلبت بها الظروف ، بينا إرس ونسيم ، ونصر وغلبة ، أو هزيمة وضمان ، ورخاء وجلب ، وجهل وعلم ، وما الى ذلك .. تجعل هذه النظره انقلافة المنسفة في حياة الجبئة ، على أنها كل لا ينضم .. ووحدة لا تتجزأ ، مثلها مثل النهر المتواصل الجريان ، المتلاحق الأمواج .. لا نجد في تياره فجوة ، ولا ترى بين موجاه ثغرة .. وانك تفسد وادبه مولات .. أو توحذت سياسات ..

وليس من الصواب في شيء أن يقال باحث فقط أن حاضر جماعة بشرية ينتر من ماضيها ، أو يبت ما بين مستقبلها وحاضرها ، فذلك ما لا تسمح به الجبئة ، ولا يجيزه تسلسل الوراثة ، ولا يسكن منه تأثير البيئة ، ولا تقبله النواميس الكونية والاجتماعية المطردة ..

وما دام الأمر كذلك فلن نستطيع الحديث عن شيء من أمر الحياة الدينية ، في مصر الاسلامية ، خلال وسبط التاريخ وحديثه

الات تحت أسماء من الشخصية المصرية الدينية
في قديم تاريخها وأوله ..

وكذلك لن يكون حديثنا الحضاري عن
هذه الفترة الاحقائق الاجتماعية عامة تعمرها ،
وتعلمها ، وظهرها ، عوامل الشخصية المصرية ،
التي صيرت تاريخ هذه الأمة ، منذ سميت في
هذا الرواوي ، وما رسب الحياة في جنباته .

ولئن كنا ذلك - ولا محالة - بأن
لنستحضر في الفسنا ، ولنحضر القاري ، معنا
صورة واضحة الملامح للشخصية المصرية
الدينية بطامة - على الأقل - - فلما سنعاول
ذلك ، في أقصى ما يمكن من الايجسار
والاجبال ، تاركين كل تفصيل أو استدلال
لتقافة القاري ، ونحن نعتقد أن التاريخ
الحضاري لمصر ، فيما كتب من هذا الكتاب
قبل الفترة الاسلامية التي تحدث عنها ، لا بد
أن قد هيأ القاري ، لما نعمل عليه ، ولجسد
القول فيه ، من سمات هذه الشخصية ،
وسلوك الأمة المصرية ، في عصرها السابق
على العهد الاسلامي من حياتها .

والى القاري ، ما لا بد منه ، أساسيا ، من
الفكرة الصغيرة الموزعة هي :

ملامح الشخصية المصرية الدينية

ولمصر - على سبب التاريخ - شخصية
واضحة السمات ، باهية التسمات ، بيضة
الملامح ، راسخة العرق ، ابنة العظم .. بميل
عقد بالتحضر ، قديمة الأثر في التمدد ..
مؤسبة مملعة ..

وتلك الشخصية المصرية حقيقة يعرفها

العلم ، قريبا يفرس من شئون الجنس ،
والوراثة ، والبيئة ، ويقررها الدرس حين
بحسايد ولا يتجزئ .. وليس القبول بتلك
الشخصية زخرفا من الكلام ، وسحرا من
البيان ، أو اعتمادا من عواطف قومية .

وكما رسمنا خطة الحديث لا تعرض
لشيء من أصوله ذلك ودلائله ، بل لكتفي
بالإشارة العاطفة ، بعبارة موجزة لجوستاف
لورجون ، تعبر عن أمر هذه الشخصية الى
أصول عامة ، وعوامل جامعة ، وهي :

1 .. لسدرك الآن المسبب الذي أدى
بالجنس المصري ، بعد تكونه البطيء ، في
عزلة من الدنيا بها جرى الصحراء والسما
أنى بلوغ الوحدة القوية ، التي استخرجها
من أصله انماض ، واحتفظ بها الى أيامنا
هذه فاهرة على أبنائه ظهورها على الخراب
معاينه ، ونبوره الفاشة من الآلهة الستين .



وتلك الشخصية المصرية جوايبها
المختلفة ، وتواحيها المتعددة ، من دينية ،
ولحفية ، وعقلية .. وسواها ، وبينا هنا من
ذلك الجوانب الديني ، الذي سفسى الى
الحديث عن بضعة عشر قرنا من تاريخه ..
لنطول بتسلي ما قدمنا الآن من الشارة لحاطفة
أن نضك ولامح تلك الشخصية الدينية ،
لنضع في يد القاري ، بذلك ما يفسر شواهد
الحياة الاسلامية في مصر ، ويردها الى انشتر
المعروف ، من أمر شخصيتها على الزمن .

ومن أبرز ملامح الشخصية المصرية
الدينية :-

ومن الأثر القريب لهذا الايمان افقوى
 بالعبادة الثانية : سيادة عقيدة البعث ، وما
 اتصل بها من الايمان بالخلود ، وتفنن
 المصريين في بيان ذلك ، ثم في العمل من اجله .
 عقيدة البعث في النفس المصرية هي
 محور النشاط العملي في وجودها ، وهي
 اوضح الجواهر والذوايق في أصلها ، وهي
 سر تاريخها ، وخلاصة فلسفتها في التفسير
 حياة الكون والانسان .

وقد وجدت في البيئة المادية حولها تعبيرا
 وتصويرا لهذا المني ، فالنفس تعكس ذلك
 كل يوم بشروطها الناشئة فظهرتها القباة ،
 الى أصيلا الكحل ، فنرويها القاني في غلام ،
 يقبه بمت ومياد مصبح ، اذا الصبح تنفس .

والنيل سكتيح بفضله الزاخر رسال
 التصعراء ، وجبود الجسد الميت ، فيعبي
 الأرض بعد موتها ، ثم اذا هو يبط ويثني في
 تعاريفه فتشرب الحياة من الأرض الرايبة
 رويدا ، ويسودها الموت الى بمت جديد
 بنيفضال معاد ، وكذلك عبر القلب المصري
 بأمل لا يقب في الحياة الدائمة بغسل
 ما يمشله من ذلك نيلها الدائق ونسبها
 الرضاة .

وفي سهل هذه المفيدة وبسويهما هيرت
 مصر ما جبرت ، وبذلت ما بذلت لأجلها من
 التماس عوامل البقاء ، ومهيات المعاد ،
 فكانت قبور راسيات كالإطواد ، وأهرام
 شامخات ، راسخات ، ومعارف ، ومباحث

فبين أول الدهر عرف المصريون بمسوة
 التبين ، ولا غليل في ذلك ، بل تكفى بنا
 فانه أبو التاريخ هيرودوت : ان المصريين أشد
 البشر تدينا ، ولا يعرف شبح بلغ من القوى
 هرجتهم لها ، فان صورههم بجملتها تشمل
 لاسا يملون أصام الرب ، وكتبهم — على
 الجملة — أصفار عبادة وتستك . .

وسرى لسيطرة انشور الالهي ما يسكن
 ان لضعه من أثر في حيلة المصريين الدينية
 على اختلاف الصور ، ومع مختلف الأدبان . .
 ثم ان من أوسيح ملامح الشخصية
 المصرية الدينية أيضا : —

قولا الايمان بالعبادة الأخرى

فحين لا نجد في أصول اليهودية مثلا
 عناية بتلك العبادة تجد ان المصريين قد احتضروا
 الحياة الدنيا مخالفين كل جنس سواهم ،
 وتمسقوا الموت — كما قيل — فلم يكن
 المصري يضم ما يصر أو يعز أو أو يمن يجب
 ويصل ، ويسكن وينسى ، على ضلالتة النيل ،
 وانما يصرق همه الى المومياة الضالمة . .
 والمصريون — وهم اقدر البنايين القدماء في
 الصالح لم تكن فصور ملوكهم الاغالات
 بالنسبة للصور ، وذلك لأن المعسكن ينسى
 عندهم ليأثر اليه الانسان في حياته ، والتبر
 يبقى خالدا على الدهر ، وعند القدم قد لحظ
 هذا المعنى في فهم العمارى من حوهم من
 الامم ، كاثيونان .

المسدى في تدوين البشرية بسا هو ظاهرة اجتماعية ، في حياة الجنس الانساني .

وحينما كان الدين وثنية تجسيمية عرفت مصر من هذه الوثنية الكثير جدا ، مما عرفت الوثنيات القديمة في اقاصى الارض واتصلت بمقالات مختلفة الصور ❏ ديانات متعددة .. فوثنية مصر ❏ عرفت تمدد الآلهة ؛ بمختلف الاقائيم من ثلاثة الى ما بعد التسعة .. كما عرفت تلك الوثنية عقيدة الغذاء والتخليص وولادة المخلص الالهي ، وقيامه من بين الاموات .. وكما عرفت اومنة العذراء .. وما يتصل بذلك .. وكان لها من القسوس الكثير ، فعرفت التمسيد والرهينة .. و .. مما تكثفت مقارنة الاديان عن قوة المشاركة المصرية فيه ..

لم اذا ما كان التدوين توحيدا عرفت الديانة المصرية في هذا التوحيد ما لها من محاولات وتفسيرات . وهكذا تترك من هذا الاجمال ما في الشخصية المصرية الدينية من سمة الاثنى ، وبسطة النظر الدينى .. وتفرد انها بذلك وما اليه من مشخصات تشارك في حياة التدين البشرى بامة ، وفي حياة الاديان الكبرى المعروفة اليوم بخاصة .. مفاركة نظرية متضادة .. عملية ايجابية .. فاليهودية ربيبة مصر ، وفي حجرها دنى رسولها موسى .. عم — والصلة بين التوراة والبيئة المصرية موضع الدرس الواسع عند المختصين ..

والمسيحية لا تنفض العهد القديم ، بل

نهي . فذلك كله ، وتمكن من صون الجسم ، ليتلقى الروح في الوقت الموعود .. وانتشرت في الوادي تلك المساقل الخفية في جوف الارض ، وتلك المعالم الشامخة على سطحها .. وكانت مصر بذلك بينة دنية لها بتلك الجهود الجبارة ابعاءتها وتأثيراتها الزلمية الاصل ، وان اختلفت صورها . فمصر البرابي هي هي مصر الاكثريه ، لم هي هي مصر السباحة الصولية .. بمعنى روحها الدينية ، ونظمتها للحياة الاخرى -- واعلمتها الروحى الامل .. ومصر بهذه المعاني هي مصر التي تنس من معاني تدوينها في اخلاصه ، ونفسه ، ونفاله من الطبيعة اصداء تلك الجهود الجبارة التي كانت صورها صلوات .. وكتبها أسفار عبادة .. وفنونها اعدادا تليق وتمكين من الضلود .. وسرى حياتها الدينية الاسلامية .. فبسا يلى — امتدادا متصلا لهذه المطاى المتدينة بلا تخلف .

لم من ابيّن ملامح الشخصية المصرية الدينية التي ترازر عمت التدين ، وقوة اليقين الاخرى .

بسطة الافق الدينى

فقد اوتيت مصر بسطة في النظر الدينى ، ونظما الى ضيق الاثاق وبعدها في عالم التدين . وكان من ذلك ان عرف البحث المفارن في الاديان البشرية صلوات لها ، وروابط ، وشابه بأديان مختلفة في مواطن هرقة التدين ، فاذا لمصر مشاركة واسعة

تعد تراث اليهودية شرطاً لها .. والاسلام
مصلق لما بين يديه من التوراة والانجيل ..
وتلك لفظة الى المشاركة النظرية الاعتقادية من
مصر في حياة الأديان الكبرى عندنا ..

وأما المشاركة الإيجابية العملية وما أدت
مصر في مختلف عصورها ، من خدمات جليلة
لحياة هذه الأديان فقدمتها فيها وامسخت ،
وجهدتها بعفوى ، في لحظات دقيقة ، ومواقف
حاسمة ، تعدل في حاشتها ما أدته كذلك من
الخدمات الجليلة الخالدة لعلماء الحضارات
وصون التراث الانساني ، المتولي ، كما
صارت التراث الانساني الوجداني الاعتقادي ..
وهذه المشاركة العملية الإيجابية في حياة
الأديان والحضارات منا لا فرصة هنا للقول
فيه بتفصيل ولا اجراء ، وحسب القارىء
ما تذكره به هذه الاشارة من ثقافته التاريخية ،
عن تلك المشاركة المصرية .



وبسببها هنا أن نقول أن هذه الشخصية
المصرية الدينية لم هيئت لمصر المشاركة في
الأديان الكبرى ، بمرافقتها . وقائلها ..
وتبناها في أناة وحكمة .. وتكبتها من الحياة
في بينما الاعتقادية ، ثم الوفرة الى جانبها
بعد التمثل الصحيح لها ، وقوف المستنشد
العين الأيمان .

ولمك بعد هذه الاشارات العابرة ،
المصورة تصات الشخصية المصرية وملاح
تكربتها تتجلب لما قدمت اليه من هذا

التصور ، فتدرك المظاهر العامة المعقدة التي
نجلوها هذه الشخصية ، فنسلم معنى بأن :
مصر ساحبة هذه الشخصية الدينية قد حققت
على اختلاف الأدهار معاني نعمت عليها في فهم
حياتها الدينية الاسلامية ، ليتسق فصنا
لتاريخ الحضارى من جانبها الديني .. وتلك
المظاهر العامة هي : -

(أ) لانة التدين ليست كما يقول التعبير
العربي ، نبضة رقيقة ، تستند في سهولة
وتصفاً في سهولة .. كلا .. بل هي متانة
فيما تقبل من عقيدة ، لا تعدم أصلاً في أقدم
تدينها ، وسترى ذلك في العديدي تقريباً عن
لقبها الاسلام ..

ثم هي اذا ما تقبلت لى أداة ظهر اثر هذا
التألي في تدينها ، رأيت لذلك أنها : -

(ب) متمسكة بروح الدين الذي تعشقه ..
لا تترك منه عشق التمسور والمظهرات بل
تستلطف الباب وتدرك الجوهر ، وسترى
هذا في اسلامها بعد اختناقه .. ولعلها لهذا
لاجهل جهداً كبيراً في شققة الخلاف الديني
واقتراق المقالات الاحتجاجية ، بل ترى موقفها
في هذه النحل والخلافات هو موقف غير
انقبل ولا المرف .. وهو ما سنجده أمثلة له
في الكلام على حياة الاسلام قديماً ..

ثم اذا ما فصف في تدينها رأيت لذلك
انها :

(ج) مضحية في سبيل الدين الذي تلقت
في اناة وتعفت روحه . وكذلك نجد انها
المضحايا في مختلف الأديان على شتى الصور :

فأما ما يحدث عنه التاريخ الديني فأوممة
هاجر المصرية للغرب السمرية ، إذ أهداهما
ساحب مصر لإبراهيم - عم - حين دخل
مصر ومعه زوجته سارة ، وكان من أمره
وأمرها مع ملك مصر ما يحكى ..

ثم هي صلة بجدهما إهداء المقوفين
مارية الفبطية التي ولدت للرسول محمد
- عم - ولده إبراهيم على ما هو معروف ،

ويطعن بما يحدث عنه التاريخ الديني من
سلالات ما تحكى الرواية العربية من دخول
العرب الى مصر ، وقصة عمرو بن العاص ،
ودفوع الكفرة في كنه ، بطلب الاسكندرية ،
وأن من كانت تقع في كمة تلك الكفرة يطلق
مصر ، ونذا عجب المصريون من وقوعها له
كم هذا الأخرى .. ولكنه أخيراً ملك مصر .. !!
ومما يكن الراي في تلك المرويات كلها
لأن لها دلالة اجنسية على صلة ما بين
الانقليبين القائمين على شاطئه ، بحر واحد
هو البحر الأحمر .. ولهذا الجوار ما يكون
لثمة من التسلالات ، ومبادلات ، مادية ومحموية
لا يمر منها .

والتاريخ المادي المصدر يحدث من حله
الاضلالات بأشياء معينة ، من رحلات مصرية
وتجارات لا لخصوس في ثمن منها ، ولكن
تسير على ما يذكره ذلك التاريخ من صلة
دينية بين الوثنية لمصرية ، والوثنية العربية
جعلت المعبودات الوثنية العربية ترجع في
أصلها الى معبودات مصرية ، حتى أمكن رد

ناضلت عن الوثنية التي عاشت بها أجيالا ..
ثم لما تلقت المسيحية قدمت لها شهادهما
مقاومة عن مسيحيتها ، حتى تلقت الاسلام
في ثناء - ولما تعمقته بذلك في سبيل حماية
عقيدته ودينه ما بذلت في صراعها الدامي ،
مع الغرب الصلبى ، والشرق الترى الهمجى ،
وقد كادا يفتان عليها من الجانبين في عصر
واحد .

وبمثل هذه الملاحقة العامة نسير أنا قد
مهذبا للقول الاجسامي في التاريخ الحضاري
الديني لمصر الاسلامية ، واقفاً من المعالم
ما يرد الحديث عن هذا العهد الاسلامي الى
معان عامة ، تدل على تنامع أمواج نهر الحياة
المصرية ، متلاحفة متواصلة بين السابيل منها
للأحق .. ويزيد الأول وضوح الشاى ..
ويستقى به التبيان شرايباً ، نو اصلاً ، مشفوا
مندرجا .. كما ينبغي أن يكون الأمر في تاريخ
انحصاره ، ليكن أن يلقى أمراء جليلة ، ركزة
على الأحداث وتطورات الحياة ، وليجسمل
القصود في شخصية مصر العنصرية ثابت
الأسس ، أصيل المنهج ، لا تكثراً .. ولا تعجزاً
.. ولا تعصياً .. ولا افتراء مدمى .

وعلى هذا الأسس ننظر الى :

سيرة تنالى الاسلام

ولمصر بعهد الاسلام وولته الأول سلالات
كبيرة ، بعضها يحدث عنه التواريخ الديني
الرواية .. وبعضها يحدث عنه التاريخ المادي
المصادر .

أسماء لإلهة المشهورة التي ورد ذكرها في القرآن وهي : اللات ، والعزى ، ومنلة .. بل رد غيرها أيضا — التي تتأخر عن آلهة مصر ، اسمها شبيه بالاسم العربي ، ووصفها شبيه بوصف مصر لتلك الآلهة وعملياً ، فاسمها ودينها مصري .

واللات مثلا ، هي معبودة مصرية ، اسمها المصري شبيه بالاسم العربي ولعل بها في مصر إلى العباد ، حين يذكر في العربية أن الاسم من لغة الصويق ، المأخوذ من العظة والتسكير .

وقد تولي هذا البيان الأثرى المصري المرحوم أحمد كمال باشا .. ولا يتسع المقام للمطوّل في شيء منه هنا ، لكننا هي الإشارة إلى تلك الصلة بين مصر والجزيرة العربية على أساس أقوى من مجرد الخبر الذي تعرضه الروايات الدينية الشائعة .. هو اتجاه إلى الناحية الدينية في البلدين بخاصة ، وهي موضع عنايتنا هنا .

ولا تعرض كذلك لشيء من أخبار تلك الصلة بين البلدين في العهد القريب من الإسلام . ولكننا بالنظر الجامعة تسمر في اطمئنان أن بين البلدين من المشاركة الناتجة عن الجوار ما يمتد إلى جيلود عميقة في حياتهما ، ويصل لها من الروابط الدينية والاجتماعية ما يتطلب الترس المفسرد باعتبارهما جارتين متقاربتين على جانبى بحر واحد — كما قلنا .

ولعله ليس من البعيد أن نجد الصلة بين

قيام المركز الدينى الصام فى الحجاز غرب الجزيرة العربية وبين مقابلة هذا الغرب لمصر بلد الحياة الدينية العافلة القوية ، الواسعة الألفق .. وهو احتمال تكفى منه ها بالإشارة إلى قوة الاتصال بين مصر وبين مهد الإسلام ومنشئه الأول ، لترى أن الإسلام لم يكن صورة غريبة على مصر . ولا يهددة عن جوها وبيتها الدينية ، على ما أشرنا إليه ..

وقد كان لهذا الجوار أثر فى أن وجهت الدعوة الإسلامية إلى مصر برسالة من محمد نفسه إلى المقوقس أو - قيرس - حاكمها الميماى وزعيمها الدينى ، فى السنة السادسة من الهجرة .. وكان الرد على هذه الرسالة من غير الردود على ما وجهه الإسلام من رسائل إلى المسوك والحكام حوله ، أن لم يكن خيرا .. وتتوسع المصاحم العربية لى وصفه لقبل المقوقس للرسالة ، وسؤاله حاملها فى غلوة خاصة ، عن صفة رسول الإسلام — هم — وأعلانه فهم الدعوة الإسلامية ، وانتظار شهرورها ووطنها إلى حد القول بأنها ستنزّل بساحتهم هذه — مصر —

والى لم يكن هذا كله قد كان كما وصفت الروايات الإسلامية لأن الهدايا المرسله ، والرد الحسن يكفى فى وصفه تنبل المقوقس لهذه الدعوة .. وسواء أكان هذا التقبل الحسن سياسة من الرجل ، أم كان حسن فهم لسير الحياة الدينية فإنه يتصل — على كل حال — بآ وصفنا فى ملامح الشخصية

المصرية ، من سنة اتفقها الديني ومشاركتها
الواسعة في حياة التدين الاتسالي .

ولعل ما يؤيد هذا المعنى أيضا ما تسوقه
المصادر العربية كذلك من أن المغيرة بن شعبة
في حرجة له إلى مصر ، قبل أن يسلم ، قد
تحدث إلى المقوقس بهذا صاحب الدعوة
الإسلامية الجديدة لبلاد المغرب ، كما
تحدث إلى أمستف قبلي ، بهذا الشأن ، لم ير
المغيرة أحدا أشد اجتهادا منه ، فأخبره عن
آخر الألباء ، النبي الأسى العربي .. الخ ..
وهي روايات ، إذ لم تصح كلها فإد لها
ولأنها على ما كان في البيئة المصرية من علم
بالفلسفون الدينية ، يؤيد ما وضعنا لها من الأصل
واسع في التدين .

لم لم تض بضمة عمر عاما من هذه
الدعوة السلبية حتى جاءت دعوة الإسلام
الموجهة .. فأقامت له دوقه داعية في مصر ،
بعد ما كان من وقائع الفتح التي لم تسترق
وقتا قصيرا .

ولا لبعد إذا ما قلنا أن مصر القسوية
التدين ، والملهية بالأديان قد كانت لها مشاركة
في حياة الدين الإسلامي ، خارج مصر ، في
مهده بالحجاز ، ثم في مصر نفسها ، على
عصور مختلفة .

ففي الحجاز بعد بين صحابة الرسول
.. عم - غير واحد نعت بالقبطي ، مثل :-
جبر بن عبد الله - م ٦٣ هـ - الذي
نعت في كتب الصحابة بالقبطي ، ويروي

السيوطي أن القبط تفخر بأن منهم من صحب
النبي - عم - ..

وفي بعض خبر القوم عن هذا الصحابي
القبطي : أنه كان رسول المقوقس ببارية إلى
رسوله الله - عم - فبقي هناك وأسلم
وصحب .. وإن كانوا يقولون مع هذا : إن
منهم من رأى بعض ولده بمصر .. فهو على
هذا ليس مجهولا ، قد هاجر إلى الحجاز
فألبا ، بل عاده أو بنوه إلى مصر ، وكانت
لهم فيها أسرة .

ومن الصحابة الثعوثين بالقبطية أيضا
صحابي قوى الصفة برسول الإسلام نفسه
هو :

أبو رالم القبطي مولى النبي - عم ..

لأن هو الذي حرره في روايه - وليس
فيها رأيت من حرهم عنه ما بين مصريه ، أو
سبب انتقاله إلى الحجاز إلا لبنا واحدا هو
رواية لهم ، في اسمه الأول ، أن يقولون : كان
اسمه «قزمان» لم يغير إلى أسلم ، أو إبراهيم
أو غيره ، بصيغة التصخير التي كان يلقب
بها ..

وفي كل حال فإن لهذا الذي نعتته كتب
الطبقات بالقبطي رواية للمسند عن النبي
- من - وعن عبد الله بن مسعود ، كما
روي عنه أولاده ، وأحفاده ، وغير قليل من
الصحابة .

وفي هؤلاء وأمثانهم من اتصلوا بالإسلام
في مهده ، ولأول عهد مشاركة من مصر

ويشها في تلقى الدعوة الإسلامية التي وجهت
لمصر منذ عهد مبكر — كما رأينا .

ثم تصل مصر حبلها بالإسلام ، وتتجه
المادة الى الثقافة الإسلامية الخاصة في
مدارس القرآن ، والحديث ، وما يتصل بذلك
من العلوم الدينية كالفتنة ونحوه فلما مصر
تشارك في ذلك برجال غير مفسورين ،
ولا يزالون ينتفون بالقبطية ، عند الحديث
عنتهم بين المحدثين في حياة تلك الثقافة
الدينية الخاصة .

لحق قراءة القرآن وتلقه ، وتحرر لعه ،
ووصل السلسلة في نقله بغيرك قبلي من
وجوه القراء السبعة المعروفين ذوى الأسماء
الثمانية الى اليوم ، هو القارىء :

ورثى — القبطى المصرى مولدًا وولاد
— ١١٥ هـ — ١١٧ هـ .. الثقة المحبة في
القراءة ، واكثرت بعنه أصحاب هذه المادة فيهم
بأنه : شيخ القراء المحققين ، وامام أهل الأداء
المرتقين .. وأله التمت إليه وبأسنة الإقراء
بالديار المصرية في زمانه .. أخذ عن لافع بن
أبى تميم .. وله اعتبار — في القراءة —
خالف فيه نالما .. وكان جيد القراءة ، حسن
المصوت ، لا يمله سامعه ..

ثم في ميدان الفقه ، ولعله مبكر نجد بين
العلقة لأولى من أصحاب الشافعى الذين
جالسوه قبليًا فيها هو :

أبو حنيفة الأسوانى القبطى — ٣٧١ هـ —
واسمه حنزم بن أبى حنزم ، ولعله اسم

مصرف في التروى — صاحب الشافعى ، وكتب
الكثير من كتبه وروى عنه عشرة أجزاء من
السنن والأحكام .. وكان آخر من صحب
الشافعى موتا .. وبلغ في الفقه مبلغًا طيبًا
فكان مفتيًا .



هذه وما إليها شواهد على مشاركة من
مصر وبيتها في تلقى الإسلام تلقيا مبكر
الوقت ، واضح المساهمة ، صيد الصور
والآثار لبحارة الإسلام مقبذة ، وطما دينا ..

وهي شواهد لمدعا مصر مع ما تعرفه من
أد الكتاب العرب في الموارد المختلفة يتعون
بالقبطية من في مصر ، ولو كان رومانيا مثلا ..
ومع ما تعرف من أن المسيحية قد اعتنقا في

مصر أخلاط من عناصر شتى ، ومع هذا وما
إليه تمد تلك الشواهد مشاركة مصر وبيتها
وعانها الدبلى ، الذى عرفنا معاملة قريبا ، لأن
ذلك في التاريخ الحضرى صواب ، ولا ينفر
بعض من فرق أو جنس .. غالبية بوتجة
تزوج العناصر المختلفة التي تستقر فيها
وتتبعها بطلابها ، على قدر قوته وأصلته ..

ولعن لا نتمند إلا على مثل هذا الأصل
فيها لقرناء وقرره من المبادئ الاجتماعية
التي زرى فيها التفسير المنسق للشخصية
المصرية ، والحياة المصرية ، في العصور
المختلفة ، فرغم اختلاف الأشكال والصور
الخارجية نقل الحقيقة الجوهرية — فيما
عرفنا من قوة الشخصية المصرية — وانسجة

ثانية .. وهو ما نرجو أن يجد القاري - صحة
في هذا التفسير التاريخي بشواهد متعددة ،
والمراد متفق .

وكنن كنا قد قدمنا شواهد المشاركة
انصرية الاسلامية التي تتجج عليها قوة
الدين المهرى ، وسمة الاتفق الدينى المهرى
.. كما بينا - - غاد لا نسو ما لمعناه بن
المعالم الثابتة لثله الشخصية ؛ وأها متابة
فيما تتبل من هبة ، لا تعلم أصلا في تدينها
- ص ٥٣٩ - فهل تختلف هذه المظاهر في
تلقى مصر للاسلام ؟ سنرى الجواب فيما كان
عملنا من .

تعول .. لمح سريج

أذا انك تفسر في تاريخ الطبرى ، من
حوادث سنة ٢٥ هـ : أن صاحب الاسكندرية
عرض على عمرو بن العاص ، بعد ما أصاب
سببا كثيرا ، بلغ بمضه المدينة وسكة ، أن
يعطيه الجزية على أن يرد عليه ما أصاب من
مسي . وأن عمرا استأذن عمر في ذلك ، فرأى
عمر أن ما تفرق من السبي بأرض المغرب فيبلغ
سكة المدينة واليمن لا قدرة على رده ، ووما
من في أيدي المسلمين بمصر من السبي
فيغيرون بين الاسلام وبين دين قومهم ، فمن
استار سهم الاسلام همسر من المسلمين ، له
ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه
وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل
دينه . وأن صاحب الاسكندرية قبل ذلك ..
قال : فجبنا ما في أيدينا من السببا ،

واجتمعت النصارى ، فجبنا ثاني بالرجل
من في أيدينا : ثم نخبره بين الاسلام ، وبين
النصرانية ، فاذا اختار الاسلام كبيرا فكبرية
هى أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية ، قال :
ثم نحوزه اليئا ، واذا اختار النصرانية خرب
النصارى ، ثم حازوه اليهم ، ووجمنا عليه
انجزية ، وجزعنا من ذلك جزءا عديدا ، حتى
كأنه رجل يخرج منا اليهم .. قال : فكان ذلك
الذوب حتى لرعنا منهم ، وقد أتى فيمن أيننا
به بأبي مريم عبد الله بن عبد الرحمن قال :
وقد أدركه وهو عريف بنى زبيد - قال :
فرفعنا لعرضنا عنه الاسلام والنصرانية ،
وأبوه وأمه ، وأخوته في النصارى ، فاختار
الاسلام . فعزاه اليئا ، ووثب عليه أبوه
وأمه وأخوته بجاذبوننا حتى شقوا عليه ثياباه ،
ثم هو اليوم عريفنا ..

وأحسب أننا لو أردنا أن نتشغل بهذا
التجادب الدينى في مصر منذ عرفت الاسلام لما
وجدنا أوضح صورة مما تصور هذه الرواية
التي ساقها الطبرى ، نهي تصوير ماضى ونفى
قيم لهذا التجانب في أرض مصر على اختلاف
الأومان ، ومع سلطان الصقيدة الدينية إذ ذلك .
ولهذا التصريح في الوقت نفسه دلالة على
ما لمعناه في شخصية مصر من عدم سرعة
تحولها من دين إلى دين .. وإنما هي ذلك بل
بعثها .. إذ شئت أن تقول :



وتقرأ في الطبرى : من خير هذه السنة
نفسا - ٢٥ - ما يلي :

وراجع الى عيش ابيوم الأول .. ففارقوا وهم
يقولون : لقد رمتكم العرب وأهرون عليهم .. وبلغ
عشر قتال لجسائمه ولفه ان حربه لينة ، ما لها
سطوة ، ولا سورة كمسورات العروب من
لحيره ، ان عسرا لعيش .. تم امره عليها وقام
عها .

وحسب ان هذه القصة — مهما يكن
أصلها — لننشئ ابن التمثيل التناهي
الاجتماعي بين العرب وللصيرين ، وعوامله ،
وأهدائه « حتى ما نجد ابلغ منها في عرض
ذلك كله موجزا والا .. وان فيها من هذا
التمثيل الصادق الاشارة لما يجلي نظرة
المصريين للعرب لتلك التخلية التي تلمس
لعلمها في هدهو التحول الديني او الاجتماعي —
ان لم يكن في بطنه — ان ثبت ان يقول .

وتحت كل ما سبق من موجبات ملقرات
مضت الحياة في طريقها .. وكانت ثورات في
مصر خلال القرنين الأول والثاني الهجريين ،
وصدرا من القرن الثالث ، نارة من المصريين
متخردين ، ونارة مع عناصر هريسة شاذية ،
حتى أوفد اليها الأمويون ولي عهد المنصم ،
لم لم يكتف بذلك ، وانقضى الأمر مجيء الخليفة
بنفسه ، من بغداد الى مصر ، وحضر الأمويون ،
فدبر للعرب وأشرف .. وأسرف أيضا .

وكل مؤتتق وما اليه تقضى به السنين
الاجتماعية في سير الحياة .. وعلى مر الزمن
تم هذا التحول البطيء ، واتفقت مصر — في

.. وحضرت القبط باب عمرو ، وبلغ عسرا
أصم يقولون : ما أرت العرب وأهرون عليهم
أقسامهم ، ما رأينا مثنا مان لهم ، فخاف ان
يستتبعهم ذلك من أمرهم ، قام بجزر
فذبحت ، فخطبت بالاء ولمر أمراء الأجداد ان
يجتروا ، وأعلموا أصحابهم ، وجلسي ، وأذن
لأهل مصر ، وجرى باللحم والمرق ، فطافوا به
على المسطين ، فاكلوا اكلا هريا : انشلوا
وحسوا ، وهم في العياء ، ولا سلاح ، فاقترى
أهل مصر ، وقد ازدادوا طمعا وجرأة ، وبمت
في أمراء الجنود في الحضور بأصحابهم من
الغد ، وأمرهم ان يجيئوا في ثياب أهل مصر
وأحذيتهم ، وأمرهم ان يأخذوا أصحابهم
بذلك ، فاعلموا ، وأذن لأهل مصر فراوا شيئا
غير ما رأوا بالأمس ، وقام عليهم الغوام بالوان
مصر ، فاكلوا اكل أهل مصر ، ولعوا لعوهم ،
فانفروا وقد ارادوا ، وقالوا : كدلا .. وبمت
اليوم ان تسلموا للعرض غذا ، ولهدا على
العرض ، وأذن لهم ، فعرضهم عليهم . لم
قال : الى قد علمت انكم رأيتم في أنفسكم
أنكم في شيء ، حين رأيتم اقتصاد العرب
وهون لزيجتهم فغلبت ان يهلكوا ، فأجبت
ان رأيتم حالهم ، وكيف كانت في أرضهم ،
تم حالهم في أرضكم ، ثم حالهم في العسرب
فظفروا بكم ، وذلك عيشهم ، وقد كلبوا على
بلادكم قبل ان ينالوا منها ما رأيتم في اليوم
التاي ، فأجبت ان تعلموا ان من رأيتم في
اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني ،

الا عن تطهير للروح ، وتصفية للقلب ،
وعذوب للنفس ، وتعميم لضراوة الشهوة ،
وتخلص من تلام المادة .. كما يعرف المتصن
ذوه ..

وقد كان للمسلمين نصيبهم من هذا
الاجتهاد منذ ظهور الاسلام ، بما في كتابه ،
وهدى لبيه ، من زهد مترفع عن الكمثرات ،
لا يمد عينه الى زهرة الحياة الدنيا ..

ثم تقدم عمل المسلمين في ذلك الى الاخذ
بصور من الرواية الخاصة في العبادة ،
والصل ، لم الى امداد ذلك بتشكير وروح
ديني ، يأخذ بأسباب من الفلسفة وآراء
قوية التمثل في تسمير الكون والحياة والصلة
بالله ، وهو تشكير لا يمدم تألوا بفضاهب الحياة
من الفلسفة العامة ، والاديان القديمة ، من
آمنى الشرق أو أدناه ، قد توثقت الرابطة
بيها وبين الفكر الاسلامي ، حين خاطها في
بيئات كانت موائل لها وموطن ..

وما نفس لا تنس أن هذه الصورة
الجميلة من التصوف الانساني ، أو التصرف
الاسلامي ، لا تثبت حيث تمثلناها في تلك
الأقاليم النسانية ، بل تنجز مع الزمن حتى
تصير الى صور من الاستقلبات القافضة ،
والطواهر السلعية العاجمة ، يربطها جعل
يشؤون الدين وشؤون الدنيا جميعا ،
وتسودها مخرفة وشعوذة ، بتأذى جا الذين
والدنيا ، أخيرا .. وهو ما لن نساء ، ولا نجب
أن ينسى القارىء . أما لا نغنيه حين تحدث هنا

أناها — الى الاسلام ، وقد أبتت الى جانبه
ما أبتت من مسيحتها وكتبها الرقبة ،
وما لها من شأن في المسيحية وحياة أهلها في
هذه البقعة من أفريقية ، وملتقى اتقارات
الثلاث .. وما لها من ميراث لاهوتي ، وفلسفي
من مدرسة الاسكندرية ، وأندرة الوادى .

* * *

استقر الاسلام في مصر ذات التسطحية
المبارزة ، الواضحة المعالم الدينية ، على
ما تبيتها — أول هذا الحديث — وحلت
طوايمها التي ذكرناها في كبريات واضحة
- ٥٣٤ ، ٥٣٥ - توجه حياة الاسلام في مصر
توجيها بنا ، يميز حياة هذا الاسلام في مصر
عن حياته في غيرها ، وينفذ التشكير في
الاسلام ، كما ينفذ العمل كذلك بتناصر غير
خالصة .. تشير هنا الى أهماتها في اجمال
لا يسبح المقام أكثر منه .. لننتحدث عن :

بوحية مصر ١٠ في الاسلام

وتنجه في ذلك أول ما تنجه الى التصوف ،
الذى هو حركة انسانية عالمية عامة ،
متصاعدة ، في حياة التدين البشرى ، على
اختلاف ألوانه ، وتمتد صورته ، وبساعده
دياره .. حركة انشائية من دقة الحس الدينى ،
ورقاها الوجدان الالهامى ، نفس بالتدين
الى أعين من التكليف العملية ، والعبادات
المرسومة ، وتمثل روح الابدان ، ودفعه الى
التفانى في المعبود ، واستلاء القلب بشئله ،
وجهه ، ونسيان كل ما سواه ، والصدور في
كل شئ عن رضاه ، وهي مشاعر لا تتم

عن التصوف ، وعن أثر الروح المصرية في
تصوف الإسلام ، قلا زيد من ذلك
الاتصوف في شأنه ، وتطوره نحو الكمال
لا في فترة مدهوره الأخيرة .



وقد كانت مصر بها هي بيئة دينية ، قوية
التدبير ، واسعة الأفق ، على ما نينا : .. أهم
بما هي بيئة فكرية أيضا ، قد شاركت في جهاد
الاساية العقلي ، وأعطت ما حولها من لفظار
ذات ماضي فكري ، واتخذت منها ، وجمعت
الفتنات والحضارات — كما أشرنا — .

كانت مصر مثل أولئك في عهد انتشار الإسلام
بأنحاء الدنيا القديمة ، ذات تأثير وسمح ، في
بنت الثقافات الروحي الصوفي للمسلمين ..
ولي امداده بنبر قليل من العناصر الديبسه
والفلسفة جببها ، وسشاركتها في عمق هذا
التصوف وتطوره .. ولو اكتفينا بهذا الاجمال
لكان في ثقافة الفاري ، ما يبينه وجهها من
البيان ، قريبا دُ سيدا .. وذلك لأن الزهد
الاسلامي الذي حصله القرآن ، وصادت به
السنة لله اتصل في مصر — خاصة — بطرائق
دينية ، من الأديان الشرقية المختلفة ، وصلت
لمصر عن طريق متسدة ، من الحسروب
والرحلات ، وغانة الأمم المختلفة ، وجمعا
الأديان المتعددة في مصر كعبها ، من وثنية ..
ويهودية .. ومسيحية ..

واتصل الزهد الاسلامي كذلك في مصر
— خاصة — بترات فلسفي من الأفلاطونية
الجديدة ، والفلسفة الدينية اليهودية ،

والهلسنة الدينية المسيحية ، والمذهب
انتموصي ، وهو المذهب الفلسفي الديني
اندي نستطيع ان نسيه « المذهب الفدني »
لأن يقوم على المعرفة بلا واسنة ..

فكل أولئك وما اليه من النماذج الفكرية
كانت الاسكندرية من أهم مراكزه .. إذ في
مصر تازت الفلسفة بالدين ، ولأثر الدين
بالفلسفة .. والبا هاجرت الثقافة اليونانية
بعد سقوطها حاصنها .. وبعد اتصال طول
تصيل بين مصر وهذه الثقافة والحضارة ..

وطرح الفكر الاسلامي يعرف جيدا أن
المسلمين قد عرفوا علمة أرسطو نفسها من
طريق الأفلولوجية الحديثة التي انتشرت بينهم
أوسح الانتشار .. ومصر وما حولها قد كانت
سوطن ثلث الفلسفة ، لم موطن ما أشرنا اليه
من التيارات الأخرى ، مثلبا وانقافية .. كما
يعرف مؤرخ التصوف الاسلامي أن هذه
السفنة نفسها كانت ونس الصوفية والتسرف
الاسلامي المتطور ، الذي نشو فيه آثار تلك
الرواقد الفكرية والاعتقادية واضحة ، بتولي
بهاها الباحثون .

ولو اكتفينا كذلك بهذا الاجمال من
البيان اصمادا على لناقة الفاريء العابة لتثار
له من ذلك ما يفتح الجبل الى ادراك تأثير
روحية مصر على الإسلام في تصوره ، الذي
هو عمق شعور ديني فيه .. لكننا نجد كذلك
وراء هذا من مظاهر التأثير ما لا بد من الإشارة
الى بعض خطوطه الكبرى ..

على أن الصوفية يكون لهم ما لهم من
المواجد والأذواق ، والأحوال ، فإذا هم
يقنعون من الفن آفاقاً رفاة شغافة ، تجاوب
فيها أنغام موسيقية ساحرة من شعرهم ،
وحجم ، وتقائيم .. فإذا مصر تقدم في هذا
ال ميدان الصوفي ، المحب ، الشاعر :

أس الفاضل - ت ١٣٢ هـ . الذي
يرضع لل طبخة الأولى ، من أصحاب الشعر
الصوفي ، بما ل كثير قصائده من جمال
النظم ، ورقة الأسلوب ، وألقه ، وقوة الروح ،
ومنى النفس ، مما يقول الباحثون المحدثون
عنه : انه من البعيد أن يكون عملاً تبحراً ، بل
هو نتيجة لوجي أحوال الوجود الصوفي ،
الذي يشابه ما يسمى في عرف علم النفس
الصدبت ، الكتابة لالية .

وكذلك قدمت البيئة المصرية العنصر
الفنى ، الفعول بالألحان ، يتمتع التصوف ذى
المحب الالهى المتفاني .. ولا أمن من هذا
فى الروحية .. ولا أول منه على ما أشرنا اليه
من روية مصر ، فى الإسلام .



والحديث عن التصوف جدير بأن يضع
القارى فى جو من التسامح الوديع ، يشمره
بجوهر الندين ولبابه ، ويشرف به على
الوحدة الدليلية ، التى سمعا القرآن نفسه
يقررها فى قوة وحلا . - ص ٥٣٠ -

فهذا مصرى - أو ثوبى - من اختياره ،
كان كثير الملازمة لربا اخيم ، لأنها بيت من
بيوت الحكمة القديمة - فيما يقول القدماء -
كما يقولون أيضاً : انه قد فتح على هذا
الايخيسى علم ما فيها من كتابات !!! .. ذلكم
هو الحكيم الصوفى :

ذو النون المصري - ت ٢٤٥ هـ -
قول عنه المصادر الإسلامية : انه وحيد دهره
علما وعبادة ، وحلا ، ومعرفة ، وأدبا ..
واله : هو رأس هذه الفرقة - الصوفية -
لأن كل فده أخذ عنه ، وانتسب اليه ، وقد كان
المشايخ قبله ، ولكنه أول من صر اشارات
الصوفية ، وتكلم فى هذا الطريق ..

ويقول الباحثون المحدثون عن هذا
المصرى : هو أحق رجال الصوفية - على
الإطلاق - بأن يطلق عليه اسم واضح أسس
التصوف .

ولو كان فى المجال شيء من سعة لينا من
قوال ذى النون المصرى وقصائله ما يكشف
المصيبيل الواضح لتأثير على التصوف
الإسلامى من البيئة المصرية الطاغية ،
ببذاهبها الفكرية من المعرفة ، وبالتداول فيها
من معارف كيميائية ، ونفسية ، وبالنشاط
الشعبى فى صور مختلفة .. الخ .. لكننا لم ن
ذلك كله للمبحث المختصر .. وحسبنا ما قيل
برهاناً على ما دلت عليه ملامح الشخصية
لمصرى من بث الروحية .. فى الإسلام ،
نتوجيه تصوفه واتلاعه ..

تكون الحياة الدائمة المتصلة ووفقا شاهدا ،
 وفكرة سائدة .. وأنت واجد ذلك في قرب
 قريب ، ووضوح سائر ، شخص أمامك حين
 تمر بذاكرتك شريطا تاريخيا مرهبا ، لعالم
 الحياة في مصر ، منذ تقدمت سكان هذا
 الكوكب ، برقاد طرق الحضارة ، الي الساعة
 التي أنت فيها . فسيبدو لنا جليا أنها كانت
 دائما علي مسرح هذا التاريخ ماثلة لناهرة ..
 لم تخف منه لحظة ما ، كما اخضت لهم
 قديمة ذات يد علي الحضارة ، بعد ما لعبت
 دورها القصير أو الطويل ، فالروائيون ..
 والفيلسوفون .. والأشوريون .. الكلدانيون ..
 وسواهم قد قاموا بصيهم من مشاركة في
 الحياة ، ثم نسلهم فلام غادر ، حجبهم عن
 الأنظار ، غفقت أصواتهم ، وفتر نشاطهم ،
 فاذا بلاهم أقابله مهمة ، أو ماتفق مستمره ،
 لا تمض فيها دولة ، ولا يتسيز لها كيان ..
 علي حين توي مصر في تقديم التاريخ ،
 ومتوسطه ، وحديثه ، تقدم للدول المجال
 العبري الصالح المسند علي الثبات والنهوض ،
 في مصر .. ولمصر .. وعاسم مصر .. فترها
 يوم كانت تحمل مشعل الحضارة : دولة واحدة
 منافس أمهات العواصم ، التي دارت حولها
 الدنيا .. لا يشرق حالها مع روما ، عن حالها
 مع ببلاد ، ولا ينبر عن مركزها مع الإستانة ..
 يعوذ بها الرافضة .. ويحتمي الخلفاء .. ويمتز
 السلطين ، ويجد الطامحون من الفرسة
 للاستقلال المنعرد عن العاصمة الكبرى

وفي هذا الجو يمثل الفاري . كذلك
 شخصية مصر واضحة القسمات ، جليلة
 المعارف ، تميز الأحيال ، وتمضي في التاريخ
 بخطى ثابتة ، وطيبة ، مشقة . فهي في تاريخ
 الرصنة انشحة ، أو الرحنة العالمية ، هي
 هي في تاريخ التصوف الاسلامي ، أو التصوف
 العالمي . هي في كليهما بيئة سالحة — بقوة
 التدين التي استقرت فيها منذ قديم الزمن —
 لالعاتش النجرد الروحي ، والنيل النسي ،
 والضوض النقلي ، واستشعاف أسى سامي
 التدين وأبل أثره .. ومن الترهيب
 والتصوف مقابله شائخة ، بل مسالك
 واسعة ، لا سهل علي النظر الناقد تجاهها
 أو تناسيها .. وللفسوف في مثل هذا مكانه
 انحصار .

وينتبر الحال بالرهينة ، علي الزمن
 وأحداثه ، كما ينبر بالتصوف كذلك ، فيكون
 مبهما من السوء والقصد ما يكون .. وتبقى
 معها الحياة بما تنطق به . وهو ما قد يشير
 الي شيء من الكلفة عن الدين والمجتمع
 المصري .

وفي الذي أصبل عن روحية مصر .. في
 الاسلام ما يبينه وأساوات عامة كذلك عن :
حيوية مصر ١٠٠ في الاسلام

فهي هذه اليعة التي قاد حياتها الايمان
 بالمت .. وفير تاريخها هذا البعث دينا
 يعتقد ، وفسلغة توارث .. في هذه اليعة

عاشت فكرتها في العالم الإسلامي ، وأعات
المصلحين على شق الطريق للتيار الإسلامي
الجارى مع الأجيال .

في حياة هذه العكرة التجديدية نجد
عصر — كداية : مشاركة بجهوبها :
حاضرة بانيسائها ، الذي يجردهه قدينها
المختلف ، وتلفها المتدين ، وعلمها العبد
في البحث .. ومن أجل البحث .

فهذا التجديد كل قرن ليس الأ مسورة
من صور البحث الذي آمنت به مصر وعملت
له ، فكان من عباسا الاسلام أن قدمت
جبهه من الرجال ، الذين ربهم وأنضحتهم ،
فكانوا محددى قرون متعده ، بين أولئك
البضمة عشر ليرا ، الذي نهضوا على رأس
البضمة عشر قرنا من حياة الاسلام ..

ويبدأ العادون من القدماء ، والمحدثين
بمصر بن عهد العزلة ، ريب مصر ، وساكن
خلوك ، ويمضون جعدون غير واحد حتى
شكون الكفرة — أو الألفية المطلقة . لسار
اليوم — ممن نضم مصر ، واشتروا مصر ،
من وجوه رجاء العمى — ثم يطنن المحدثون
الى أن يقدوا مجدد القرن الرابع عشر الهجرى
في الاسلام بصريا بصريا .. وهو ما تشير
اليه حين نحدثك ، عن انديانا الدينية بصرفي
العصر الحديث .

ولا نجد المجال شيء من التفصيل لفكرة
التجديد ، والمجددين المسلمين ، فلهذا مكانه

ما يعين ، لهب الدولة القوية ، والمغايرة الناجحة ،
ويجرى الأمر في ذلك على نسق متماثل ، بل
يكاد يكون موحدًا في صميمه . « غاب
ملولون ، والخلافة في بغداد في القرن التاسع
الميلادي كمحمد علي وخلافة الامانة في
انقرف التناجح عشر ، رسم الجبهة لأهدافها
سياسية متمسالة . تنفض بهم مصر ،
ويهضون هم بمصر ليمسواوا الخلافة
الكبرى ، وراوا معها ما انصدح يده مصر ..
فأنت واجد دائما ، وعلى مر الأيام ، وفي كل
حين « مصر في الميدان التربوي ، والتمب
العبيري لامة مرموقة ، فعالة مؤثرة . دائما
العبوية .

وتلك العبوية الراهرة هي التي نحاول
أن نلمح شيمتها العالمة في حياة الاسلام
بمصر .. ونظير — بين يدي ذلك — ما في
شبيعة التندي من ميل الى المعاملة ، وحنوح
الى الثبات ، ولعوا من التغير ، بل شبه انكار
للتطور ولكننا واجهود مع هذا في
الاسلام البعاثا جيوبا ، ينبلع لاستئناف
النشاط ، ومجديد النظر ، واستدامة النباء ،
واساماف الحياة بالنتطين الجديد ، والتصرف
المرئ ، الذي يحفظ للأصول العبيرية
مسلحتها ، ويقضا من عوامل التجمسية
والجفاف — وهذا هو ما يشير اليه حديث :
« ان الله يمت على رأس كل مائة سنة من يجدد
لهذه الأمة أمر دينها .. » أو ما في هذا المعنى
وهو تمييز عن تلك المحاولة المرة التي

كذلك - وحبنا هنا تلك العالم العامة ،
التي تحيي لمؤرخ الحضارة أن يحدث عن
حيوية مصر في الاسلام ..

ولننضم بعد ذلك ابي فحة من خصائص
تدين مصر بالاسلام ، واعتقادها له نرى :

اسلام مصر ١٠ بلا نحل ولا انقلابات اعتقادية

ولعب أن نرد هذا - كما اخذنا الى
خصلة أصيلة لمصر ، وطبع لها مألوف ، بعد
الذي عرفنا ، من ملامح شخصيتها الدينية
لمجدد أن مصر القوية التدين ، الواسعة الأفق
الديني ، المستشفة لجوهر العين الذي ترمز
به وروحها - من ٤٣٤ ، ٥٣٥ - فجدد أن مصر
الذي هذا شأنها ... كما عرفنا - لم يمس
كثيرا للجدل الاعتقادي في الاسلام ، ولم
تسمح صبرها كثير الاصحاب النحل ، وأرباب
المقالات الاسلامية .. وقبل أن نعطي في بيان
هذه الظاهرة وتجليها نقد أمام :

سر تاريخي .. فسلمه .. وذلك ما يذكره
بنظر صاحب «فتح العرب لمصر» ، عند حديثه
عن مقاومة المصريين لما أرادته هرقل ، من
حملتهم على المنجب الديني الذي قسروه
بطاركته ، والمهم تلقوا ذلك بكرهه شديده ..
لم تصبر له هذه الكراهية بأصوله .. وقد
كان استقلالهم في أمور الدين كبير ما تعلق
به قوسهم فأغصم لم يعرفوا الاستقلال ،
العمومي قط ، ولعلم لم يعلموا يوما بمثل
ذلك الأصل ، وأما الاستقلال في أمر الدين

فقد ناضلوا من أجله وجاهدوا في سبيله ، لم
ينتسوا عن ذلك في وقت من الأوقات منذ
مجلس خلقدونية ، وكانوا حريصين على
يلوغ ذلك المرض لا تنفل عنه قلوبهم
ولا يحجمون عن بذل كل شيء في سبيله مهما
يعظم . ذلت عو سر حوادث تاريخهم جسيما .-

هكذا يصل المؤرخ الى أن سر تاريخ
هؤلاء المصريين - أو القبط ان شاء - هو
أنهم لم يعرفوا الاستقلال القومي قط ،
ولعلم لم يعلموا يوما بمثل ذلك الأصل ،
وأما عرفوا الاستقلال الديني ، وناضلوا من
أجله ولم يعجبوا عن بذل أعظم شيء في
سبيله .

وهوول للسيد المؤرخ : انها شئنة
للممك معروفة .. فسرتم بها تاريخنا نصيرا
ضالنا معموها مفروضا مفسدا .. نزعوني به
أنا لم نعرف هذا الاستقلال القومي منذ آخر
عهد الفراعنة .. ولم نعلم نحن منذ ذلك
العهد .. ولم .. ولم .. مما التريتم وجاهدكم
فيه نتائج منا ، نعلم حتى اليوم ، وبعد
ذهاب ديتكم يرفدونه .

والكم بذلك لنفكروا خاصة شاهرة
جلية من خصائص هذه البيئة المصرية ، وذلك
هي صلاحيتها بتكوينها التثبيتي التخصيص ،
المتجدد ، المحوط بغواصله من الصعراء ،
والماء ، لأن تكون مهدا للوجود المنفصل ،
والدولة المنفردة ، والقومية التباغصية . وبهذه
الخاصة القطرية الطبيعية ، وما تكسبه لأهلها

من خصائصه معنوية وفسية تهيأت لقيام الدول ذات الشخصية في ابان فورة الأمم التي اتصفت بها ، وثاوتات — كما اشترنا - آتينا وروما ، وبغداد ، والتسطنطينية .. وكانت منفردة عالية الرأس في كل الامبراطوريات التي وصلت جبلها بها ، وظلت على مسرح التاريخ لم يخلف منه أبدا ، بل لم تستقد عليها ظلال صا تملل الاضواء على لمساحها وميزانها .

لحديث التاريخ الصحيح : ان مصر بنسبة استقلال بطبيعتها .. واهلها بذلك من اكثر الناس شعورا بهذا الاستقلال .. وليس هذا العناد الذي وصفه لا يطره منه روائح في المقاومة ، الا لو تات من قوة تلك الشخصية التي لا تنجزا .. ولا يتفصل منها جانب عن جانب.

وحديث غير المصريين من العاكفين بمصر ليس الا حذاجة وغرارة او هو نثرير بالسمين ، لأن تلك اليهود لم تعرف القومية الاقليبية ، والوطنية العلية .. بل كانت نظريا وشملها عصبيات من غير هذا اللون ، هي في الأمم الأعلى عصبيات دينية او سياسية ، نلونها أمة غالبية حينما كانت ظروفه الحياه المادية ومواصلاتها تتيج لأمة واحدة أن تحبل شملة الحضارة .. حتى بين ساعدها فنلقاها أمة أخرى .. فلم يقف المؤرخ وبتلزم بقوله هذا على شيء من سر تاريخ المقاومة المصرية للذهب الديني الواحد ، ولعله بد وقتنا هذه أمام زعمه الذي زعمه يطنن الى

ما نجد من تصير لهذه الظاهرة الدينية : بعد ان نصف عمل مصر الاسلامية فيها ، وتصير الى شواهد عليها .

ففي الحوادث الذي تقدم جاءه الخلاف الذي من التسطنطينية بأمره وهرقله و وقاومته مصر مقاومة شديدة ، يمثلها ما يروى من أمر أحد رجال المسيحية فيها ، إذ يذهب بالقاه المشاهير ، وتسلط نارها على جسمه ، حتى يسيل دمه من جانبه الى الأرض ، ولكنه لم ينزعزع عن ايمانه ، فخلعت اسنانه ، ثم وضع في كيس سلوه من الرمل ، وحمل في البحر ، حتى صار على قيد سبوح غفران من الشاطئ ، ثم عرضوا عليه الحياه اذا هو آمن سا يعرضونه ، وخذلوا ذلك لئلا ، وهو يرفض في كل مرة ، فرموا به في البحر ، فمات غرقا ... ا

ولك ان تجد في هذا مبالغة ، او كثيرا منها ، بل لك ان تعدد معتقلا .. لكن له على كل حالة دلالة النسبة والاجتماعية ، بما به من تمييز الفئتين صالحوه أنفسهم عما يجدونه من شعور ديني ، يفتنض المؤمن مثل عسفه المقاومة السنته ، وينتجس هذا الشعور في تعقيب راوى غير هذه المقاومة بقوله بعدها : ولكنهم بدلم هذا لم يشهدوا لفلانا الذي مات شهيدا ، بل قد غلبهم هو بصبر الايمان المسيحي .. !

ثم يمشى أكثر من مائتي عام ، وتتجدد

الأحداث في الميدان الديني بسر فإذا القيلة
 أشبه بالبارحة ، فهذا المأمون تيه و هرقل ،
 في غرض مسألة اعتقادية ، هي قضية خلق
 القرآن المعروفة التي تقول وتجدد بسر
 عصره ، ويكتب الخليفة الواثق التي البراة
 بالامتحان فيها ، كما فعل المأمون ، ويحيى
 لأمر الي والي مصر ، باستنجان البيهطي الكفبه
 الصبيدي ، كبر أصحاب الشافعي ، من ٣٣٤ هـ
 .. و امتحنه الوالي : فلم يصب ، وقرر
 المحاكمة ، وكان الوالي حسن الرأي به فيقول
 له : قل فيما بيني وبينك ، فبرد عليه
 البيهطي : انه يقتدى بي مائة ألف لا يعرفون
 الحقى ! ، ثم يحصل البيهطي من مصر الي
 بغداد ، على بطل ، في أربعين وعل حديد ،
 هي عل في عنقه ، وقيده في رجله ، و بين الفل
 والقيده سلسلة ، فيقول : لئن أدخلت عليه -
 يضي الخليفة - لأسدقنه ولأسورن في
 حديدى هذا حتى يمى عوم يعلون انه قد
 مات في هذا المكان قوم في حديدهم . ويسجن
 في هذا الحديد وقد عجز عن أداء الفرائض
 من الطهارة والصلاة ، اد كان مفيدا الي
 أنصاف سابقه ، مفسولة يدها التي عنقه ،
 ويموت البيهطي في سجن بغداد ، في اللبس
 والنظ ، كما مات أخه ذو زين في البصر
 قديما .

هو الحال العامة ، وان مصر لا تلجج في
 النزاع الاعتقادي ، ولا تتولاه بتأليف أو
 كتابة تسيء عن رواج ، وحين تقبل ، بل
 تمارضه مثل هذه المعارضات المشرفة في
 التحدي ، على نحو ما سمعنا في حادثين ، من
 دينين مختلفين ، في زمانين متعاقبين ، يؤكدان
 ان للبيئة في هذا ميلا خاصا ..

ولو نظرت النظرة الجامعة الي موقف
 مصر من مقالات الاسلاميين الكلامية على
 اختلافها لفرجت بالنتيجة التي صدرنا القول
 بها ، وهي عدم الأقبال في اسلام مصر على
 هذا العدل الانتقادي .. وعند رواج النحل
 الاسلامية في مصر ، مهما تشبه عناية المسلمين
 بها في غير مصر . ومهما ينسبوا للتأليف فيها
 والخصوصا حوتها ومهما تساعد الظروف
 المعطية المناسبة أو غيرها على رواج هذه
 النحلة أو الفرقة أو المقالة ، ومهما تظهر معلا
 بى ، من ذلك في مصر ، تحت تأثير العوامل
 المختلفة فانها لا تثبت ان تقرر ، ولا تترك من
 الانفعال بها ما يسم مصر بسره خاصة ، في
 المقالات الكلامية ، أو يجعلها ولما خاصا
 لفرقة من الفرق ، كما كانت ايران مثلا مركز
 المنتعج قديما وحديثا ، أو كاتب اليمن حوتنا
 خاصا القريدي .. أو ما الي ذلك .. بل لا تلت
 مصر ان تلود بالمعنى الجامع ، والكلمة
 الشماملة ، أي بالتحوير الخاص ، والكتاب من
 الدين .. وكانما تحول سعة الحقها الدينى دور

وما شك في ان ماسا كانوا يفتنون بمثل
 هذه الاضطهادات ، وينزلون على اراهم أمثال
 و هرقل ، و المأمون ، لكن الذي بلغتنا هنا

الاعتداع الحاد ، والتعزب المتطرف لفرقة
دينية دون فرقة .

ولعلنا وجدون فيما يلي من قول عن
النظرة المصرية في الأمور المدنية ، والنظم
القانونية الفقهية ما يزيد هذه السمة الفسحة
في الألفاظ .. والرجابة السجدة في ادراك هذه
الشؤون الفسحوية والتشذير لها .. وعدم
الاطمئنان الكثير الى الاعتراق المذهبي فيها ..



وفي عرض موجز غير نفاذ الى بعض
الفرق الاسلامية في البيئة المصرية ، وما كان
من أمرها .. نقتصر لذلك أولاً :

محنة ذات صفه سياسة واضحة ، هدأت
لها العجاة العصلة من أسباب التكمير القسوى
قدرًا كبيرًا فهدمت السياسة ديوتها ، وعملت
القوى الحكومية على نشرها وحمايتها بمختلف
وسائل الترغيب والترهيب ، ولعلنا هي :

التشيح : فقد جاء مصر أمسه وجذره
المسيحى د ابن بيا - مما لكن شخصته -
حين طورد في خارجه ، فاسفر بها وجعل
يعمل لما يعزى اليه من توهين الاسلام ووحده
المسجدين بمختلف الوسائل .. ومن ذلك
مديته عن وصاية علي ، وأخذ عمال الخليفة
منه بغير حق - فكان لمي بمصر نشأتهم ضد
عثمان - كما هو معروف - واتجه الاهتمام
الى التشيخ لملى - لكن مشاركة عمرو بن
العاص لمعاوية : والظلم معاوية عمرا مصر

جعل الأمر يستمر لمعاوية والثمانية ، ويقف
صوت التشيخ .. ويقتصر الناس بسبب على ..

ثم يسقط الاموية خدمت الثمانية ..
وفي عهد العباسيين كان يخرج مصر علويون
أو كانوا يظهرون الخارجيين على أبناء عمم
العباسيين ، فتكون النتيجة هي اخراج
العلويين من مصر الى العراق ، غير مسرة ..
ويضطهدون فيخرج الأمر في مصر بلا يقبل
علوى شبيهة ، ولا يرك فرسا ، ولا يسلم
من الفسطاط الى فرقة من أطرافها ، وأن
يتمم العلويون من انقاذ المييد ، الا اجد
الواحد .. ول من كان بينه وبين علوى
خصومة يتبل فوه في العلوى ولا يطالب بيينة
.. الخ .

ثم حتى العصر الطولوسى نشأت الحديث
عن تفضلية أهل البيت وينقسم الناس بلسانه
حتى يرجع القول به .. فيقول أمر الشيعة
بمصر شيئًا ما .. لكن لا يشر ذلك ولا يزداد
.. ففي منتصف القرن الرابع الهجرى يبيع
السودان على الناس منكرين ذلك ، صفتين
فيه ، حتى يسألون الذي يلقاهم في الطريق :
من خالك ؟ .. فان لم يقل : خالى مساوية
بلشوا به .. وكان في مصر من يهتف على باب
المسجد يوم الجمعة لمعاوية خالى ، وغسال
المؤمنين ، وكاتب الوحى ، وردينه رسول الله
- عم - .. وكان المشيخون يمدون ..

ويست الظالميون من الغرب دعائمهم :
ويجدون في مصر تلك البيئة التي تخوم بدوله

متميزة فيقولون اليها دولتهم الجديدة من المغرب ، وتستقبل مصر بهذا من الترحيب السياسي ، تدر الدولة فيه الدعوة المنتهية انعاشه بأولئك القواطم بتدبيرها صحيح المدى ، عميق الأساس ، سامنا من الماء والرجاء ، بسئل ما يهذل اليوم وزارة العناية الحديثة أو ما كثر منه .. وحديث التاريخ من رجال الدهشة ، ولفظها وخطواتها ، والسرى منها والطنى .. الخ ما يستملكنا وحمله كبا لهم ، وكبا عنهم . وهكذا يسود التشجيع في مصر ، ويجرى العمل على الفقه الشمسى ، نبتلا : لا يرت مع البنت أخ ولا أخ ، ولا عم ، ولا جد ، ولا ابن أخ ، ولا ابن عم .. لأذ في ذلك عداوة لفاطمة بنت الرسول — عم — .

ويعد ذلك الى إحصال العادة في حياة الناس الفاضة فيصدر مرسوم حكومي بتحريم بيع شربات القمبر ، وعرب من بيعه لأن عليا كان ينكره ، والى مثل هذا ترجع لآوت الحاكم بأمر الله فيما كان يصدر من الأوامر بتحريم الطعام أو العراب ..

وهذا إذا كان بسب علي على المنسار يكتب من الصحابة على أبواب المساجد ، وفي داخلها ، وعلى الدكاكين بل على المطاير وفي الصمراء ، ويسود ذلك بالأمس باخ ويذهب بالنهب .

وإنهاء الدولة الفاطمية بتبخر كل هذا ، ولا يمضى كثير من الزمن حتى تنبش قبور خلفائهم التي كانت في مكان خان الخليلي ،

وكانت تعرف بتربة الزعران ، وتحمل عظامهم على العصى لترسى في المزابل . وتلك نهابة مقالة اسلامية سياسية أيدتها قوى الدولة ، وأتيح لها من أسباب التشجيع والانتشار ما لعله لم ينجح مقالة أخرى من مقالات الفرق الاسلامية .. ولكن مصر حين رأينا لا تنسيت بسئل هذا ، ولا لعدة شيئا في البلدين .

ويريد الأمر بالآ أن نفتح في سرعة لونا آخر من الحوان النزاع الاعتقادي غير السياسي في أصوله وهو :

الاعتزال : فانه مقالة كلامية ، فلسفية ، ليست سياسية في أساسها كالتشيع ، وانما ادست عمليا في السياسة بعد .. والاعتزال — كما نعرفه — قد هو أركان الحياة العقلية الاسلامية بدموته الى احترام العسل ، وتمكبه من النظر ، كما هو أركان الحياة الاسلامية الصلبة مدى طويلا ، اذ جعل الخلفاء قضايه عقائد يلزم الناس بها ، ويصطهونون نفس اضطهاد لمخالفتها ، كما فصل الامور وخلفاء بعده في مسألة خلق القرآن ، التي هي فكرة اعتزالية ... قامى الناس بسبها الفتنة الكثير ، وكان منه في مصر ما سمعنا قريبا من أمر البويطى الفقيه الصعدي ، حتى سمعنا في المتساويخ يعنى ومحنة خلق القرآن .

ونسأل ماذا كان أمر هذا الاعتزال في مصر فعرفنا أنه كانت بمصر ، في حين ما خلقه للاعتزال تحدث عن خلق القرآن ، لأن

السياسة قد تدخلت فيه .. وقد جاءت المثالة الى مصر من الخارج .. وفيما وراء ذلك تنقسم ان الاعتزال لم يأخذ في مصر أهمية تقاس في شيء الى ما كان له في بغداد ، وغيرها من ضجة .. وتآليف .. ومؤلفين .. وخطابات .. ومجادلات .. وكذلك تلبث مصر اسلاميا .

بلا خلاف اختلاف هام - ولا فرق .. ولا

مقالات راجعه .



والعدل الاختياري في الاسلام اما كان صدى من أصداه الصناعة المنطقية ، وضرباً من عدى الفلسفة الميتافيزيقية النظرية ، التي تلقاها العرب عن فيلهم ، وكانت في تقدير بعض المحدثين مشيئة القوم عن النزوح العملي الجاد ، وسواء أكان الرأي الحق لها كذلك ، أو لا ، فاد صلة علم الكلام الاسلامي بالفلسفة قوية وانسجة .. ومن هنا تنقسم أن سدوف مصر عن الجدول الكلاسيكي ذو صفة - الى حد غير قريب - بنظرها الى الفلسفة ، وقلة نشاطها في ذلك .. ولبعض الفاتنين تملبات في هذه الملاحظة يستحق المناقشة - ولكن ليس من عدنا الأول هنا أن نؤرخ لمركز مصر العلماني ، في العصر الاسلامي .. فترك ذلك كله للناظرين في الحياة المتقلبة ، من هذا التاريخ الحضاري ، شاعرين بأن نظرة مصر المسألة الى الفلسفة لم تكن نظرة الحضي بها ، ولا المهتم .. وكذلك

سببه من طابع الحضارة المصرية العام .. ومن القروف الخاصة في مصر الاسلامية ما يقف عنده المختصون .

وتسام القول في خصائص اسلام مصر ان نتحدث من :

مصر .. وبراء الخلاف الفقهي

ونعرف ان هذا الخلاف الفقهي في استخراج الاستكام الصليبة ما يتضمنه اختلاف طابع الينيات ، التي عاش فيها المسلمون ، واختلاف عاداتهم ومعاملاتهم .. كما نلحظ أن هذا الاختلاف رحمة - كما يقولون - ولتكن في الوقت نفسه لا ننسى أن التطلع الى وحدة تشريعية جامعة قد وجد سند عصر مبكر ، حيسا طهرت آثار هذا الاختلاف التشريعي ، ولا يصير من هذا الى أكثر مما يذكر من سبب تأليف مالك ، لمجموعه الحديثي الفقهي المعروف باسم «الموطأ» ، وأن طب تأليفه من الخليقة المباسي الذي طلبه . على اختلاف الرواية في تعيينه - اما كان تطلعا الى هذه الرحمة التشريعية ، وربما بأثار هذا الخلاف ، كما يبدو ذلك صريحا في رسالة « ابن المقفع » المعروفة برسالة الصحابة . وفي الحوار بين التاليف ومالك .. ورحمة الغليفة له حصل الناس على الموطأ ..

وهذا التطلع الى وحدة مركزة في التشريع الاسلامي قد أيدت حوادث التاريخ بعد ذلك حسن اثره ، ان كان بين الفقهاء من مسحة

ثم الشافعي ، فكان له حظه من النظر والنقاش ، الذي لم يعرف قبله بمصر .. وقد شعر المصريون بما لهذه الوفاة من خطر الفقرة ، فكان قاضي مصر اذ ذاك يصيح بالشافعي ويقول له : يا كذا . دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ، ورأينا واحد ، ففرقت بيننا ، والقيت بيننا الثمر ، فرق الله بين روحك وجسدتك .. ومهما يكن لقول هذا القاضي من أسباب شخصية أو غيرها فانه يدل على رغبة البيعة في هذه الرحلة في الأمر والرأي .. وعلى أن المسادها هنا يعاب به فاعلمه .

ولعله ليس من ذلك لم ينتشر المذهب الحنلي بمصر ، لأنه فقه الرأي الواضح ، وان كان المقرري يمثل ذلك بأن مذهب أبي حنيفة ايطيال الأذواق ، فمثل أمره على أهل مصر وسنموه .. وهو لعل غير كاف وحده لأن صاحبي أبي حنيفة لا يطولون الإحسان ، والميل له جرى على قولهما ..

وفي كل حال فقد هيأت النضحية المصرية التي عرفنا خصائصها لكرامية الجدل ، في أي لون ما ، ويزيد تلك الكراهية وضوحا عند هذه الشخصية ما قلناه البنا اثناربع من شعور الفقههاء بعد تلمعي الاختلاف وتأمسه بأن التوفيق الموحده لهذه المذاهب المختلفة نعمة يتوم بها فقيه جليل ، رشحوه هم من فقهاء مصر البارزين ، قضي مطلع القرن السابع الهجري طست بسكة مائة من العلماء يقولون لو قدر الله تعالى بعد الأئمة الأربعة في هذا

الخلافة وعنه ما كان منا رأينا معه تبادل القوم وتناحروهم بقوة ، من كل منهم على صاحبه ، قوة لا تشغل الفاري في هذا الموجز بشي . من تقاسيها .. وخلطهم الفقه بالكلام أجهانا فكانت الفتن بين الشافعية والحنابلة .. وقرئ كل ذلك كلمة المسلمون ، حتى شعر أبناء عصرنا هذا بالحاجة المناسبة الى التفرغ بين المذاهب ، وكانت لهم في ذلك التقرب معاولة تأخذ طريقها .. كما اشتغل بعض المصريين بجمع ما سواه الفقه الموحده .. يرجون رجوع المسلمين كلهم اليه .

وكل أولئك كانت لبيان الآثار الاجتماعية غير المحبة للمذهبية الفقهية ، واختيار السعود بضردها في الصور السابقة ضربا من دقة الأيمان وسلامة الفطرة ، وقاء التندين .

وبعد هذا البيان نستطيع أن نقدر عمل مصر في هذه الناحية اذا ما وصلنا موقفها من الخلافة الفقهية .



وما عرفنا من السلوك المصري في الخلافة الكلامي يعني للرأي في شعور مصر نحو الخلافة الفقهية ، منذ أول شيوخ لهذا الخلافة ..

لقد عرفت مصر المذهب المالكي ، لتقدمه ، وصعدت بدار الهجرة ، ثم وفد عليها الشافعي في القرن الثاني الهجري ، وقد أصاب من فقه الرأي حفا بتلمذته على محمد بن الحسن الشيباني ، وصبرورة كبه اليه ، لتزوج محمد

وفي فقهه الذي ارتفع عن الخلاف المذهبي
المفروق .. ودعا الى التوفيق الموحد منذ نضجة
أجيال .. وحاوله فعلا .. وكل أولئك يؤيد
ما تمتلئنا من ملامح الشخصية المصرية
الدينية .. في عمق عديتها .. وسعة افقه ..
وامراك الجواهر الصافي للدين ..



على أنها عين للتبسي الدلالات الاجتماعية
العليا لموقف مصر من المذاهب الفقهية ،
وطرتها الى الاختلاف والتجرب لا نسى مع
كل ذلك ان هناك عوامل سياسية واجتماعية
وكبرها تؤثر في انتشار المذاهب الفقهية
وتدومها ، فنستقر مذاهب فخر قليلة في مصره
أو يسود مذهب منها مثل هذه الامتيازات ..
أو نخدم البيئه المصريه العلمية أحيانا ووجوها
من علماء المذاهب المختلفة .. أو يكون في
مصر مفسدة مشلون تلك المذاهب على
اختلافها .. فذلك كله وما اليه لا يؤثر على
ما اطماننا اليه ، من تصوف الروح المصريه
الاجتماعية الى تلك الافاق العاما ، والغايات
السيدة من الترفع على الخلاف ، والدعوة الى
الوفائق ، ■ الاصليين الامتقادي والعلمي ،
ساستمناه عن كلامها ونفجها .. ولا تأثير
لهذا على ذلك ، ولا ابطال لهذا بذلك ..
وليسفي مؤرخو الفقه مثلا الى وصف جهود
مصر وأثرها فيحاة المذاهب الفقهية المختلفة،
مع كل هذا الذي يقرره التاريخ الحضاري
في نظراته التكاملية العامة .. ولكل وجهته .

الزمان مجتهدا عارفا بمذاهبهم أجمعين يركب
لنفسه مذها من الأدبية بعد اعتبار هذه المذاهب
المختلفة كلها لازدائه الزمان به ، واغناء الناس
له ، فاتفق رأيهم على أنه هذه الرتبة لا تمدو
الشيخ تقي الدين السبكي ؛ ولا ينتهي لها
سواء ؛ والمبكي هذا هو الذي اتحت اليه
رياسة العلم بمصر ، وظالوا ؛ ما جاء بعد
الغزالي مثله ، فقال الصفدي : اللهم يظلموه
بهذا ، وما هو عندي الا مثل سليمان الثوري ..
ولعل العلماء رشحوه لهذا التوفيق المصلح لأن
نرضه نحوه سرورة ..

وإذا لم يكن هذا الميل الى التوفيق مصريا
فقط في هذا المعاد فانا نجد هذا الميل
المصري للتوفيق ، بل الدعوة اليه ينتجه اليها
سرفى مصرى بلدى السبكي المتوفى هو
التحرالى المتوفى أيضا ، وهو أصبل في الفقه
لوق كونه صوفيا من الخراز الأول وقد
حاول التوفيق بين المذاهب الأدبية ، كما حاوله
التوفيق بين أهل الكلف والعباد وأهل النظر
والاستدلال ، ويقول الباحثون الغربيون :
انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا ..
وحسبنا به زكية لبل البيئه المصرية الى هذا
التوفيق الخفي ، الذي لا يسمح فيه لهذه
العصمور صوتا أجبر من هذا الصوت ..



وبذلك يبدو اسلام مصر متسق الجواب؛
متناسق الاجزاء ؛ في روحيته التي قادت
التصوف .. وفي ايمانه الذي لم يعنى للجدل ..

والآن وقد تبيننا اتجاه مصر و آمالها ۞
 الحياة الإسلامية الاعتقادية ، والحياة
 الإسلامية العملية وما نته بينها ذات الطابع
 المتميز الواضح .. الآن نشعر بضرورة توجيه
 مثل هذه النظرة الكلية الشاملة الى :

الإسلام .. والمجتمع المصري

التقديم :

هذه المصوّر التي نتحدث عنها من القرن
 السابع الهجري الى قرابة القرن الثامن عشر
 الهجري أيضا عصور سود فيها النزعة الدينية ،
 وتسيطر الروح الدينية في توجيه الحياة
 وتديرها .. ومصر عنده بخاصة قد عرفنا لها
 هذا النزوع الديني القوي ، وذلك التمسك
 الروحي في التدين فلا غرابة في أن يكون
 الدين في تلك العصور مسيرا قويا للفنون
 السياسية والاقتصادية والاجتماعية كلها .



وقد كان المجتمع المصري يتألفه من
 مسلمين ، ودميين ، من أصحاب الديانات
 الصغرى الأخرى ، كالنصرانية واليهودية ..
 ودون أن ينظر الى نظام الذمة النكري في
 الإسلام ، ومدى انسانيته ، نستطيع أن نقرر
 في قلبه أن النظام الإسلامي للذمة لم يكن دائما
 ذي كل حين هو النظام الواقعي النطلي في
 الحياة ، إذ لابد من وجود الفرق — رغم كل
 شيء — بين المثال المتسل ، والواقع المتحقق ..
 واثنايخ الحضاري اما بلنفس وصف سبر
 الحياة النطلي ، وإن لم يخش التطلم التالي

هفه ، في الدلالة على حسن استجداد متطلبه .
 وبملاحظة الواقع العملي نجد أعمالا
 مختلفة : بعضها لا يخفى المثال الإسلامي
 لحياة المسلمين ، وبعضها يحاول أن يحس مثل
 الصحيح الذي أراده الإسلام .. فحينما يعترف
 وال مسلم فهدم الكنائس المحدثه مثلا ..
 وآلا أذن وإن آخر بنائها ، بشورة الفتوة
 أو التمسك العبرين ، الذين يحتجرون بأن بناء
 الكنائس من عمارة البلاد ، وأن الكنائس
 التي بصر لم تبن الا في الإسلام زمن الصحابة
 والتابعين .

وإذا ما قدرنا أن حكومات هذه العهود
 لم تكن تعكر في شيء من اصلاح عقلي أو
 اجتماعي ، للشعوب المعسومة الا بقدر
 ما تسير الأمور ويستمر النظام ، وأن الأعمال
 الإصلاحية الاجتماعية كانت نشاطا فرديا
 شخصا من نفس العيون ، يتفربون به
 الى الله .

ثم اذا ما قدرنا أن حكام هذه العصور
 أيضا لم يكن لهم من سعة الأفق وبمد النظر
 ما يفهمونه به المعاني الدينية السامية أو
 بشعربون روح التسامح الذي توجيه نظرة
 الإسلام الى الوحدة الدينية الاسامية مثلا ..
 وكان العامة اعمارا جاهلين يدركون عن المسلمين
 منتهه القريب ، ويرون المخالف عدوا محاربا ،
 وصحالا مفضلا ، والحكام في حاجة الى عرضهم
 اذا شفيوا على أهل الذمة أو يطشوا بهم ،
 ثم الحكام أحسهم — كما قلنا — شفيوا لأفان ..

والى جانبهم علماء ، منهم من كانت تقصم تلك المساحة الروحية .. وبكل أولئك يقع ما يقع من ارهاق أو اعنات للذين بالزمان قاسية ، وتصرحات خشنه ، دفعت اليها طبيعة الحياة اذ ذاك وروح العصر نفسه .

وعكذا يتردد الأمر بين تسمح يولى الذين من النصارى واليهود مراكز رئيسية فى الوزارة والادارة .. وتحت يسطهدهم وينتطف فى ذلك .. فلا يستطيع المصنف ان يتخذ من التسخ الأول سورة لعبارة هؤلاء الذين فى المجتمع المصرى لعهد من العهود ، أو فى اليهود جميعا .. كما لا يستطيع ان يتخذ ملكة الصورة لحياة الذين فى المجتمع المصرى من الاضطهاد الذى قد مارسه قلوب قاسية شرسة ، وتطشع لأبدان من نظافتها .. ولعل الاصل ان يقدر المدوخ الحضارى الدرجة التى يظف فيها هؤلاء الناس — حكاما وأفرادا — من سلم الرقى الانصالي .. ويدرك أنهم لم يكونوا يستطيعون ان يرتفعوا على آفاق عصرهم ، وينظفوا الى درجة لولى المروجة التى أهلهم زمنهم للصعود اليها .

والحق الذى ينبى أن تنتهى اليه اليوم هو عدم التكثر فى ادعاء الاختصاص دائما .. مع عدم التجنى فى المؤاحضة بالاعتساف نود تقدير الظروف المنفعة .. ولو قدرنا أن السياسة لا قلب لها .. وان الملك — كما قالوا — عقم .. وأن هؤلاء الحكام فى

معاملتهم للمسلمين أهملهم ، بل فى معاملة أعضاء الأسرة الحاكمة منهم بعضهم بعضا ، قد كانوا يتسبون بل يتوحشون ، رأينا ما يفضى به الواجب الاجتماعى علينا من الحكم المصنف الذى يب اخطاهم لعصرهم ومستواه الانمائى .. ولا يجعل ذلك للدين فى نظامه النظرى وروحه الاجتهادية .. ولا يشر به شيئا فى الأفس اليوم ، فثقت أنه قد خلف لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .. ولا يسأل عن اخطائها دين أو نظام ، بل تسر تصرفها مستوى الهمة لهددها ، ودرجة المعور بالمعاش الاسادية فى أيامها .

وعلى كل حال فقد كان المنصر الاسلامى فى المجتمع المصرى يقدر العنصر المسيحي بخاصة ، ويعرف عند القوم ما له من اثر فى خدمة المصالح المصرية ، عن طريق الصلة الدينية بين مسيحي مصر ومى حوالم من أصحاب مذهبهم ، كالتى كان فى القرون الغلامس من ارسال الخليفة المستنصر بطرك مصر الى بلاد الحبشة بهدية سنية لملكها ، من اجل قص النيل وشر أهل مصر بسبب ذلك فأمر ملك الحبشة بفتح سد يجرى منه الماء الى أرض مصر ، لفتح ، وزاد النيل فى ليلة واحدة للثلاثة أشرع .. — على ما يروى — .

الحكومة : فى مثل هذا الجو تكون الحكومة تيوقراطية — اى جدا — فأساس السلطان فيها الأمر الاكهى بطاعة أولى الأمر مع الأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ وأطيعوا الله

وأطبعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول .. .
وقد يكون من حكامها -- ولاية أو إمارة أو خلفاء أو سلاطين -- من هو غير ينشئ من حوله ، دون نظام مقرر أو ترتيب ملزم ، مع الأمر القسري الصريح بالضرورة ، « وشاورهم في الأمر » وأنها الشأن الثابت « وأمرهم شورى بينهم » .

وفي هذا الوضع كان العلماء الدنيويون ، بظيمة ثقافتهم وعقيدتهم ، هم الذين يشلون سلطة الشعب ، لأهمهم كما قيل ، يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء .. . وهم يعرفون: أن أفضل العباد عند الله كلمة حق في مجلس حاكم ظالم ؛ وهم يصدقون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي صارت به هذه الأمة خير أمه أخرجت للناس . وأن تغيير المنكر مأمور به : باليد ، أو اللسان ، وأضعف الأيمان أن يكون التغيير بالقلب .

ولكن العلماء المشايخ ليسوا هم الموجودين دائما ، فنصمهم -- كما رأينا -- حتى فاهصمنا . من بأول الآية المرآية « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » بترك الأمر وعدم التدخل ، بل منهم من كانوا أدوات ووسائل لتصديق رعيات الحكام ، واختاتمهم بما يريدون ، والتوقيع الكتبي بذلك على ما يطلب منهم الاقتناء به .

وفي مصر بالذات قد عرفت لمستلى سلطة

التي سب هذه وقفات مفكورة في مقاومة الظلم ، ومواجهة الظلم ، ففي القرن الثالث وأبنا البيهقي يريد أن يموت في حديده ليعرف من بعده أن ناسا ماتوا في حديدهم ، كما رأينا البيت بن سعد وغيره قبل ذلك يتقدمون هدم الكنائس ويردون تعميدها من عمارة الجبل ، وفي القرن الثامن الهجري لرى بين مؤلصات الصبكي كتابا اسمه « كشف الدناس في هدم الكنائس » وهو اسم ان دل على شيء فلما يدل على مقاومة رغبة هوجاء في هدم الكنائس والاستيلاء على ما فيها كما كان يحدث في الظروف التي كثرنا إليها سابقا .

بن اثنا في القرن السابع الهجري لسع العز بن عبد السلام الفقيه الشافعي الجليل -- ت ٦٦٠ هـ . يعلم في مصر والنداء : أن المخاطرة بالنفس مشروعة في اعزاز الدين ، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وأن من حال بأن ينزير بالنفوس لا يجوز قسده بعد عن الحق ، ولأبي عن الصواب ..

ولقد عرف هذا العالم الكريم بأنه سلطان العلماء وامام عصره بلا مدافعة ، والقاسم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه .. وله في التجارة والمخاطرة ، وتعدى الظلم من غير جسيمية بأن تدفع ، وهي من الكثرة بحث لا نجد لها المكان هنا ، وحسبنا منها واحدة هي : موقفه من امرء دولة المماليك

الإعتراف في مصر : إذ لم يثبت عنده أنهم
أحرار ، بل أن حكم الرق مستحب عليهم
ليت مال المسلمين ، ومن جملتهم نائب
السلطنة نفسه .. فعلمهم ذلك واستأطوا
غضبا فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال : تعقد لكم
مجلسا ، وينادي عليكم لبيت مال المسلمين
ويحصل منكم بعض شئ .. فرفضوا الأمر
إلى السلطان ، وبلغ الشيخ أن السلطان أكثر
دخوله في الأمر ، وقال : إن هذا لا يتعلق به ..
فغضب الشيخ عذ الدين ، وحصل هو الوجه
على حمار ، وأركب عائلته على حمار ، وبنى
خلفهم خارجا من القضاة ، فاصدا نحو
القيام ، فلعنه غالب المسلمين : لم تكذب امرأة
ولا صبي ولا رجل لا يربه الله يتغلب ،
ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار فبلغ بأ
هذه المظاهرة الهائلة إلى السلطان ، وقيل له :
متى راح ذهب ملكك ، فركب السلطان
بنفسه ، ولحقه ، واسترضاه ، وطيب قلبه
فرجع .. وابتغوا معه على أنه ينادى على
الأمراء .. ثم أرادوا ملامته فلم يند ذلك
معه وأصر على رأيه .. وفضح هؤلاء الأمرء :
كيف ينادى علينا هذا الشيخ وبيننا ونحن
ملوك الأرض !! وقال نائب السلطنة : والله
لاضربنه بسيفي ههنا .. وركب بنفسه في
جناخته ، وجاء بيت الشيخ والسيف مملون
في يده ففرق الباب .. وعرقه الشيخ الحال
فما أكثره : ولا تغير ، وقال لابنه الذي
وصف له ما رأى : يا ولدي ، بؤس أقل من

أن يقتل في سبيل الله .. ثم خرج ، وكأله قضاء
الله قد نزل على نائب السلطنة ، فعمى وقع
بصره على النائب يبست يده وسقط السيف
منها وأرعدت مفاصله : فيكى ، وسأل الشيخ
أن يدعو له ، وقال : يا سيدي خير .. أى شئ
أعني ؟ قال : أنادي بملككم ويبيعكم .. قال :
تبيعهم تصرف لنا ؟ قال : في مصالح المسلمين
قال : من يقضه ؟ .. قال أنا .. نعم له
ما أراد ونادي على الأمرء ، واحدا واحدا ،
ولمالي في نسيم ، وقضه وصرفه في وجوه
الطير ..

لمح كل أعجابنا بهذا المرتقب وغيره منا
يروى عن حياة النور بن عبد السلام لا تقول
الأثام قلنا من قبل عن مظاهر الآسية ،
وأحداث الأقطاب في سعادة النسيم ، تقول :
إننا لا نستطيع أخذ الصورة الصحيحة لموقف
علماء الدين من الحكومة من مثل هذه
المواقف البطولية وحدها .. كما لا نستطيع
التقاط تلك الصورة عن مواقف المسألة
وانراجع أمام الحكام .. فلا هناك سلطة
مقررة لمخاضة العلماء ، ولهم عن المنكر ..
ولا هناك ضمير دالم أمام السلطة الحاكمة ..
والنا هو مجتمع في مرحلة مناسبة تمصره :
لا حماية مقررة لحقوقه .. ولا أهدار مستمر
لهذه الحقوق .. هي نوبات من الصدق
والإحسان .. والجدد المتفضل .. لم تشمر
الحكومة ضيفا بواجب فتلتمه .. ولم يشر

العام ، الذي يحدد ويضبط صور الحياة ،
 وأحداث الزمن في هذه العصور ، واضحة
 الدلالة ، معصرة الأسباب ، مفهومة الأهداف .
 في الحياة الدينية ، وحياتنا من الحياة الاجتماعية
 بما يؤثر فيها اندين بعامه .. والاسلام بتفاحه
 ولعننا بهذا الإطار قد ميزنا صورة مصر
 المسلمة ، أو صورة اسلام مصر عن غيرها من
 البيئات الاسلامية الأخرى .. أو عن الاسلام
 في تلك البيئات .

... وفي كل حال غاندي قدعناه بهي
 للحديث عن :
 الحياة الدينية بمصر في العصر الحديث .

العلماء فيها دائماً شعورا واضحا بعق
 فبقرره .. ولا الشعب بين هذين بدرك حقه ،
 فيصم على طبعه .. ويقدم من يقتضيه كما
 اقتضى الشيخ المزين عبد السلام أثمان
 الأمرام الحراك الحاكمين ، وصرفها في المصالح
 العامة --- فذلك كما قال ناكلو هذه الحوادث
 ه ما لم يسمع بشئ ه .



الى هنا حدثنا عن الحياة الدينية ، في سير
 الحضارة الاسلامية بمصر خلال أجيال تاريخها
 المتوسط بمصر الاسلام ، من القرن السابع
 الهجري الى مطلع التاريخ الحديث ه فوضنا
 بين بندي القارئ ه .. لينا لرجو - الإطار

الحياة الفنية في مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى الفتح التركي

للكاتب محمد جبر العزير مرزوق



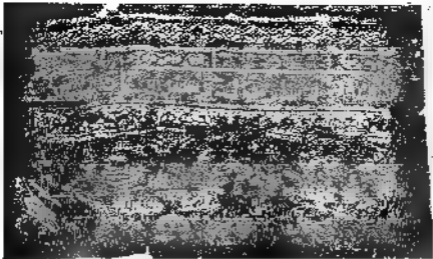
١ - أثر من قصر الخلفاء الراشدين (شاهد قبر مؤرخ سنة ٣٦ هـ بالمعهد الإسلامي بالهاجرة ٢)

لئن كانت الروح الموجهة للحضارة الإسلامية - وهي الإسلام - قد برزت أول ما برزت في بلاد العرب ثم بدأت تضيئ لهاؤها في البلاد التي أثمرت عليها والممتدة من المحيط الأطلس إلى ما وراء الخليج الفارسي في بلاد الهند والصين؛ إلا أن تراث هذه الحضارة قد ضاعت معظم معالمه - بلعل الحروب أو الأهمال أو ينعلها معا - من كثير من تلك البلاد إلا مصر فقد بقي فيها جانب كبير من هذا التراث لشاهده في مساجدها وكتابسيها وفي مدارسها وقصورها وفي حوائقها وقلاعها وأسوارها ولينا تنظري عليه جوامع مناقها الإسلامية من تحف منقولة .

وتكون هذه الآثار؛ سواء ما كان منها ثابتا أو متقلبا؛ سلسلة متناسكة الحقائق



٢ - أثر من قصر الامويين (قطعة عمال شوزخة سنة ٨٨ هـ بالنسب الإسلامي بالقاهرة ١)



٢ - اثر من عصر المسلسل (قطعه صانئ من مدينة القيس من عصر الحضارة الهندي [٦٦٨ م] بالمتحف الاسلامي بالقاهرة)

عنه ، وتحافظ عليه ، وتقوى ما تدهى منه ، وتكمل ما شاع من اجزائه ، وتسمى جامعة لكنى تجليه على الناس في الصورة الرائعة التي كاذ عليها يوم تبيته ، وصنع المصريون في المصور الوسطى .

والمصنعات القليلة المحدودة لي في هذا الكتاب . لا تكني لاي اثار الصورة الكاملة لهذا الجانب الفني من حياة مصر الاسلامية ، ولكنني ما بذل قصارى جهدي لي ان ارسم لهذا الجانب صورة اذ اعرضها بالتفصيل في كتب من اجزائها فلا يميزها الوضوح ، ولعل في هذه الصورة الصغيرة ما يحفز القارئ الى المشاهدة هذه الآثار ويستتوي الى مطالعة المراجع المطولة التي تبنى بها فيزداد ايماننا بمظمة مصر في المصور الوسطى ، ويؤمن بأنها قد شملت نفس المكانة السامية التي شغلها مصر من قبل في عصورها القديسة .

تتلم المصور المختلفة للحضارة الاسلامية : ففي مصر آثار من عصر الرامثدين (صورة ولسم ١) ، ولها آثار من عصر الامويين (صورة رقم ٢) ، ولها آثار من عصر العباسيين يوم كانوا اقوياء (صورة رقم ٣) ، و آثار من عصرهم يوم أصبحوا ضعفاء : ولها آثار ينجلي فيها قيام المذهب الشيعي ولجات أركانها ، ولها آثار تنطق باستمادة المذهب الشعي مكانته وفروءه .

وهيئة الليرة التي تنتج بها مصر دون غيرها من بلاد العالم الاسلامي انما ترجع الى امرين : الاول أنها كانت بنجاة من بعض الكوارث التي تعرض لها العالم الاسلامي لاسيما في جانبه الشرقي ، والثاني أن المصور بأهمية تراث الماضي قد استيقظ فيها قبل غيرها من البلاد الاسلامية فقامت تكثيفه

العمارة

(المعصر ما قبل الطرثوثي)

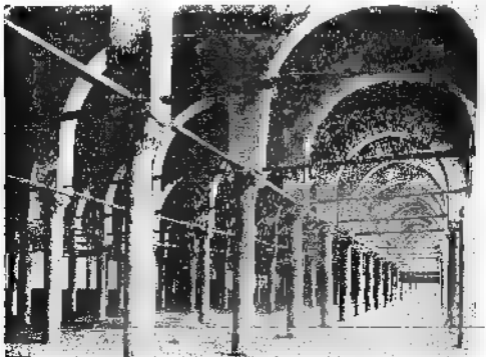


العمارة ما قبل الطرثوثي

شكل - ١

معصرنا المعاصر فقد كان فيها الأحياء الراقية
بمسارها الحالية التي وصل بعضها إلى أربع
شجرة طينة ووقف بعضها عند سبع
ملياب حيث أنشئت حديقة فناء Kiosk-garden

وتعتبر النطاقات الأولى المعاصرة
التي شيدها العرب في مصر ... قطعة
الابتداء في هذا العرض المبرمج ، وخرابها
التي كالتفريغ على يدهم لتفصيل
الكشف عنها في سنة ١٩١٢ تروي لنا فصلا
ثيقا من تاريخ المدن (صورة رقم ١) ، فقد
بدأت ساذجة ، ثم سداجت عن ساحة
منشئها ، ثم تطورت بمرور الزمن حتى
وصلت إلى ما وصلت إليه المدن الإريقية في



جامع عمرو كما هو الآن وترى فيه بيجان الأعمدة ذات الطرز المختلفة .

فالمسجد الذي أسسه محمد ، صلوات الله عليه ، في المدينة التي اتخذ نموذجاً للمساجد من بعده لم يكن سوى قطعة أرض مرمية الشكل أحيطت بعدوان أسما من الحجر وقوامها من اللبن وتجاه بيت المقدس — قبلة المسلمين الأولى — أقيمت مقبنة من الجريد المخلط باللبن فوق جذوع النخل ، ولما تحولت القبلة إلى الكعبة في مكة أقيمت مقبنة جديدة مثل السابقة وتركب الأولى حيث هي ليستظل بها فقراء المسلمين وبذلك أصبح للمسجد مئذنتان بينهما مكان مكشوف أحدهما إلى الشمال والآخرى إلى الجنوب ، ولما زاد عدد

فيها الأختجار والأزهار من سائر الأنواع على حد وصف الرحالة الإيراني ناصر خسرو الذي زارها في القرن الخامس الهجري (١١ م) ، وكان فيها أيضاً الأحياء القليلة بساكنها المتواضعة وشوارعها المظرة ، وكان فيها الأسواق النابضة بالتاجر ، ومصانع السكر ، والصابون ، ومسالك الزجاج والنحاس ، والمران العسيف والفسار ، ولا تزال بعض أطلالها تؤدي إلى حد كبير ما ورد في بطون الكتب عنها .

والامر الوحيد القائم بين خراب هذه المدينة والذي لا يزال إلى اليوم يعبق الفرض الذي من أجله أشيد هو جامع عمرو (عموره رقم ٥) الذي بدأ ساطعاً كما بدأت السطاطة ، ثم أخذ ينمو ويتطور حتى مر الستين ، وكلما ازداد عدد المسلمين ، وكلما ارتقب جباههم ، انعكس ذلك عليه فامتد رقبتيه ، وارتفع سقفه ، وكثرت أبوابه ، وأخذ الشكل الذي هو عليه الآن : صحن مكشوف ، يعيط به من جوانبه الأربع أروقة أربعة مستوفية بعضها ضاعت معالمه ولكن بقايا الأعمدة تدل عليه ، وبعضها لا يزال محتفظاً بشكله .

وهما المختلفت آراء علماء الآثار في مصدر هذا التصميم فالذي لا شك فيه أنه تابع من أصناف قوس العرب ، متمكينة بلزومهم ، وليس منقولة ممن سبقهم من الأمم . فإذا نحن تذكرنا حالة العرب قبل الإسلام وتذكرنا بساطة الإسلام وبعده عن الطغوس المتعددة منهل علينا أدراك هذه الحقيقة ،

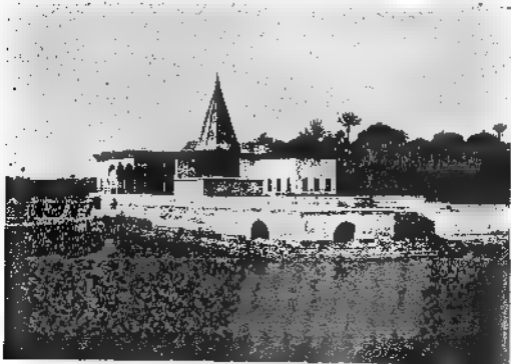


١- من زحارف تواضع عمرو كما كان في العصر العباسي الأول

عند المعابد والتكاثر المهمة ، شاعهم في ذلك شأن الرومان من قبلهم الذين كانوا يتفعلون نقل العمدة اليونانية القديمة الى معابدهم . ولم يشب خط أن العرب قد هدموا قصدا معبدا أو كيسة لكي يحملوا على أعمدته كما يفهم بعض النباين . وينبغي أن نبادر فنذكر أن العصور التي راجع اليوم في مسجد عمرو إنما هي من عهد السلطان مراد بك أحد سلاطين الماليك في العصر التركي ولا علاقة بينها وبين المسجد الأصلي إلا في البقعة المشيد عليها .

• • •

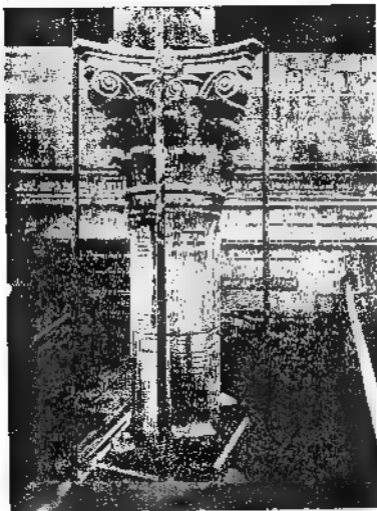
المسلمين ، وسست الحاجة الى قدر أكبر من الظل ، واصل ما بين هاتين السمتين بسقيقتين جاريبتين أحدهما للبين والأخرى للشمال ، وهكذا ولد تصميم بناء المساجد . وطبعي أن يتطور المسجد بتطور العرب الذين تأثروا بما رأوا في البلاد التي فتحوها من الأبنية القديمة فاستبدلت جذوع النخل التي كانت تحمل السقف بمد الرخام (مسورة رقم ٤) . وإذا نحن تأملنا في رؤوس الأعمدة التي تحمل سقف جامع عمرو ، وحدنا أن نبحثها من طرز مختلفة ، ذلك أن العرب استعملوا ما وصلت اليه أيديهم من



٧- مقياس أنزل من انفجار بعد أن جدته مصلحة الأثار .

والتى عصر المرشدين تم عصر الأمويين
وجاء عصر العباسيين الذين اثنوا في شمال
المسلمات وعلى مقربة منها عاصمة جديدة هي
العسكر التي ضاعت معالمها ولكننا نستطيع
أن تصور موضعها في المنقطة القريبة من

المدينة السوذية ومسجد ابي السمود .
والأثر الباقي من هذا العصر العباسي
والذي يند أقدم اثر مصري اسلامي محتفظ
بشكله وتفصيله ، هو معبد النيل بجزيرة
الروضة الذي أمر بإنشائه الخليفة العباسي



٥٦٠ صورة معبد النيل من الفتح ويرى بها أقدم طراز الكعبة الكعبة في مصر وأخرهم
مثال للعقود الذهبية .

عزاز المكتابة الكوفية في مصر وفيه تقدم مثال
للقود المدبية بها . (صورة رقم ٨) .

(العصر الطولوني)

ويبدأ في مصر عصر جديد عندما ولي
أمراها أحمد بن طولون ، عصر أصبحت فيه
أمة جديدة يدين معظم أهلها بالإسلام ،

المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ . (صورة رقم ٧) .
وامتداه هذا الأثر يفسح لنا عن مدى العناية
أجدادنا في المصور الوسطى بأمر النبي كما
كان يرضى به أجدادهم في المصور القديمة .
ولهذا الأثر الذي جددته مصلحة الآثار أهنية
كبيرة للدين ينون بالناحية الأثرية فتمه تقدم



٧ - مسجد ابن طولون من الداخل وترى فيه المنذرة والنافذة -

ويشكل معض أهلها العربية (بدلاً من القبطية) واتجهت فيه إلى استكمال شخصيتها الجديدة بالاستقلال ذاتياً عن الخلافة العباسية التي كانت عاصمتها في لا سر من رأى ، وقد حفل لها حاكمها صالح الذكر هذه الرغبة فأنشأ عاصمة جديدة إلى الشمال من مدينة البصرة سماها القفائع وشيئها فيها مسجده الرائع الذي لا يزال قائماً يحد لنا مكان هذه العاصمة الجديدة على وجه التقريب ، ثم أقام إلى جوارها قصره الذي أمه من بعده ولده خماروبه وكان آية في العظمة على حد وصف المؤرخين له ، وقد ضاعت معالمه من الوجوه وبقت في بطون الكتب .

أما المسجد فيسبر في تسميته على النهج الذي شاهدناه في مسجد حررو ولكنه خطأ لعم النظور فخلوات تنجلي في حصة عناصر هي النافورة والمئذنة والدعامات والزخرفة واللوحة التأسيسية .

أما النافورة التي تتوسط الصحن فقد أعدت في الأصل لشرب مياه الناس ولكنها في عصر المماليك ، عندما جدد هذا المسجد ، انقلبت إلى ميطأة كما تدل على ذلك الآية القرآنية المشقوقة بإدخال القبة التي نطقها .

وأما المئذنة فهي الوحيدة في مصر التي لها هذا الشكل العجيب ؛ وهي مئذنة بعثة المسجد الجامع في مدينة لا سر من رأى ، بالعراق ، وكلتا المئذنتين استعملت تصميمها الأسس من منابذ النار الفارسية المعروفة باسم ازيجورات .

وأما الدعامات التي تحمل العقود فهي الأولى من نوعها في مصر الإسلامية ، وهي كذلك من خصائص العمارة العراقية التي انتقلت إلى مصر في هذا العصر الذي سيطر فيه الفن التيماسي الذي شاع في العالم الإسلامي . (المسورة رقم ٩) .

وأما الزخرفة فهي تجرد علينا صسورة صادقة للفن الإسلامي كما ازدهر في العراق ونحن إذا تأملنا في هذه الزخرفة قليلاً وجدنا أنها لا تستطيع أن ننسب إلى الفنان المسلم فضل ابتكار وحدانها لأن هذه الوحدات كانت موجودة بالفعل في الفنون السابقة على الإسلام ، إلا أننا لا يمكننا أيضاً أن نجعله مقدرة الفنان المسلم في طريقة توزيعها ، والتأليف بينها ، وتقسيمها تنسيقاً جعلها تبدو كأنها اخترعت لأول مرة وما هي كذلك ، ولكن صهرها في بوتقة ، وسط عليها أئسفة عبقرية ، وفخرجت من بين يديه لنا جديداً ، لا يخفى علينا أصله ولكننا لا نستطيع أن نشكر عليه شغفت القوة .

وأما اللوحة التأسيسية المثبتة على إحدى الدعامات ، فندلنا على ما للكتابات التاريخية المنقوشة على الآثار من أهمية عظيمة ، لقد استطعنا بفضلها أن نقف على التاريخ الحقيقي لأئسنا هذا المسجد (٣٩٣ هـ) بأنه أن أعطانا المؤرخون له تواريخ مختلفة جاءت من غير شك نتيجة لأخطاء الناسخين ، أو عدم الدقة في نقل الأخبار .

والقنن الطولوني الذي كشف عنه المرحوم حسن الهوارى سنة ١٩٣٤ م بالقرب



١٠ أحد جدران المزل الطولوني يري به دحارف من طرز « سر من رأى » الثالث .

خطت البلاد في سبيل الحضارة أمادية خطوط واسعة ، وسادت روح الرخاء في كل شئ ، وكتب التاريخ ، والآثار الثابتة ، والتحف المثقولة تمكس هذه العدة الثرة ، وتبرز تخصصة الفن المصري الإسلامي الذي تحلت فيه براعة المصريين في مسود كثيرة تعرض للاعجاب على كل من يراها .

وإذا كانت حضرة الموحدين الأسس لامتداد الحضارة — العظام والمسكر والنطاق حيا قد ضاعت ، وحدود الناحية العاشية لا تزال قائمة نستطيع أن نحرف عليها في سر : صورها انفسا لا يزال قائما تشاهد فيه

من منطفة أبي السعود من الأمثلة السادرة للعمارة المدية في مصر (الصورة رقم ١٠) ، وهو في تخطيطه وزخرفته يسير على نهج طرز مدينة « سر من رأى » بالمرق ، وعلى أساس هذا التخطيط ، وبذلك الرخاوت ينسب هذا القرن إلى العصر الطولوني .
(العصر الفاطمي) .

وإذا لم يكن استيلاء مصر تماما في العصر الطولوني ، فإنه قد أصبح كذلك في العصر الفاطمي إذ صارت مصر مركزا للخلافة مناهمة للخلافة العباسية في العراق ، والخلافة الأموية في الأندلس ، وكان من أثر ذلك أن

لا يتأهل الذكر ، ولكن لا درب سعادة
المجاور لمحافظة القاهرة بذكرها بحدود
القاهرة في هذه الجهة .

وتعد أبواب القاهرة وأسوارها من أروع
العناصر الحربية في المصور الوسطى
في العالم أصح ، وقد كالت ، ولا تزال ،
موضح الإعجاب والتقدير من كل من رآها
أو يراها (الصورة رقم ١٢) .

ول داخل أسوار هذه العاصمة الجديدة
شيد الفاطميون قصرين عظيمين ضاعت معالمهما
وبقيت موقعا : القصر الكبير ويشغل اليوم
المشهد الحسبي وحال الخليلي جزءا من

باب النصر (الصورة رقم ١١) وباب الفتوح ،
وإذا دقت النظر في الكتابة المنقوشة على
السور القائم بين هذين البابين وجدت أن
اسمها هو باب النصر ، وباب الأقبال .
وسورها الشرقي لا يزال يجرى في موازاة
نلال الدراسة ، وقد كتبت معاول عمال
البلدية وهم يعملون لتوسيع رقعة القاهرة
الحديثة عن باب التوفيق منذ بقية
سور .

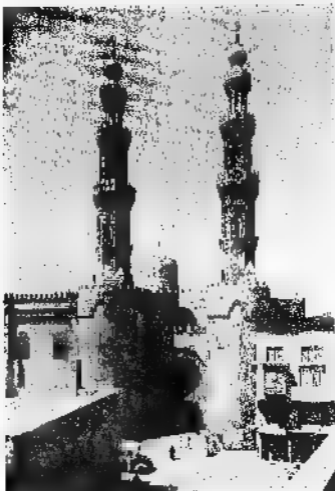
وسورها الجنوبي لم يبق منه إلا باب
زويلة أو بوابة الخولي كما يسميها العامة .
وسورها الغربي كأن يسير بموازاة
شارع الخليج ، ولم يبق منه إلا القليل الذي



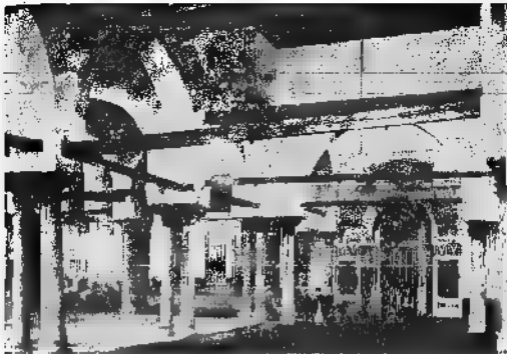
١١ - باب النصر أحد الابواب الشمالية للقاهرة

بين الأثار الفاطمية الكثيرة ما كان محتفظا
بمميزات هذا الممرى فن البناء ، فالأزهر
(صسورة رقم ١٣) على شعورته العظيمة
لا يستطيع أن يعقق لنا هذا الهدف ، لاشاع
منه ، ودخل عليه من التمديل والتجوير ،
بينما الأبور أو جامع العاكف بأمر الله ، على

موقعه ، والفصر الصغير وتسنل اليوم الصاغة
ويستثنى قلاوون جزءا من موقعه .
وفي القاهرة الغربية وفي خارجها سييد
الفاطميون المساجد والمشاهد ولا يزال بعضها
قائما حتى اليوم .
ويغرض علينا شقيق المجال أن نختار من



١١٠ باب زوية أسد الأبواب الجنوبية للقاهرة

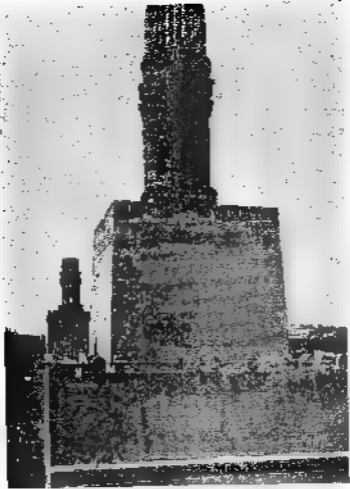


١٤ الجامع الأزهر من الداخل .

أما الواجعة فمتقطعة الظلير في مساجد مصر السابقة ، يقوم في زاويةا برجان عظيمان يكسبان المسجد مظهر القلاع ، يخرج من كل منصا حذقة عالية تمتد أقدم الملائك المورخة في مصر (صورة رقم ١٤) ، تزدان كل منها بإحاراف رائعة ، وبكتابة كوفية تنسب اسم الحاكم بأمر الله ، وقد تصدح الجزء العلوي من هاتين المذئنتين اثر زلزال شديد أصاب البلاد في عصر المماليك ، وأعيد تشييد هذين الجزئين على الصورة التي تراها الآن .
والمدخل الرئيس واقع في منتصف الواجعة ، وبارر عن سبتها بروزا قويا ، وقد

سره حائه ، يبرر لنا هذه الخصائص ، والجامع الأخر على صخر حجه يجلو علينا جمال الفن الإغريقي في صورة واضحة قوية ، ومشهد الجبروش يكفى لبيان الفرقى من مثل هذه الأبنية التي ظهرت لأول مرة في مصر في هذا العصر ، والحمام الفاطمى هو أقدم بناء موجود من نوعه في هذه البلاد .

فجامع الحاكم يحتفظ بالعناصر الرئيسية للمساجد الفاطمية وهي الواجعة النخبة ، والمدخل البارز ، ومجازر القبلة ، والقباب الثلاث .



١١ - صورة جامع الحاكم من الخارج وتبدو فيها المئذنتان .

تفروا بالخلافة أخيراً وبصفتهم لهم بكرة عظيمة
 يناهضون بها الخلافة العباسية في الشرق
 والخلافة الأموية في الغرب .

ومجاز القبلة منشد من الصحن إلى
 المحراب مباشرة ، ويمتاز بعلو سقفه عن سقف
 المسجد ، وبوجود سلسلة من العقود على كل

كأن يتوجه لوج من الرخام فإح اثره وبشي لنا
 رسمه الذي يتضمن اسم الحاكم بأمر الله مع
 الآية الكريمة « ونريد أن نعلم على الذين
 استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً وجعلهم
 المرارين » . ولخيار هذه الآية فيه إشارة إلى
 ما عاهد الفاطميون من النجبة السنية حتى



١٥ من زخارف جامع الحكيم بامر الله

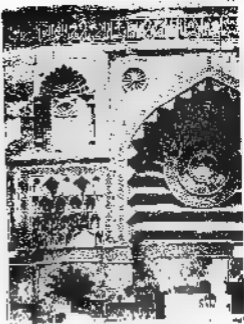
نتطق بأن اللسان المصري قد تغلص من تقاليد الفن الطولوني الذي نل مستملا في الجمع الأزهر ، وقد بدأ يستعمل الآن بالعناصر الزخرفية التي كان يعرفها أجداده قبل الإسلام والتي أتت له عبر انصود . كما نذل أيضا زخارف بعض قواعد علي بدء شهور الروح الأندلسية في الزخرفة المصرية الإسلامية .

والجامع الآخر له واجهة نشر قطعة من الفن الجليل (ص . - سجدة رقم ١٩) ، تنطق بالفسوج الفني الذي وصل إليه أجدادنا في القرن السادس الهجري (١٢ م) ، وتدل على أنهم يفخرون بحسن على قدم المساواة مع رجال الفن ، السابقين منهم واللاحقين . ولن نعصم القول في العناصر الزخرفية المختلفة المتوجدة في هذه الواجهة إنما يكفي أن نقول أننا نشاهد فيها لأول مرة الزخرفة المعروفة بالقرنص Stalactite ، والتي أصبحت من أحسن مسببات الفن الإسلامي ، كما نشاهد فيها الأحيار التي

من جانبها الأيسر والأيسر تسير في اتجاه عمودي على جدار القبلة بينما تسير باقي عقود المسجد في اتجاه مواز لجدار القبلة والتمرض من هذا الجدار هو ايمارز أهبة المعراب في المسجد باعتبارها أهم بقعة فيه .

والقبلة لم يبندها المصريون في المصور الوسطى ولكن فضلهم في تطورها عظيم ، فقد عرفها أجدادهم الفراعنة من قبل كما عرفها العراقيون والرومان ، ثم تسلمها السلجوقيون ساذجة بسيطة محدودة الاستعمال وأخذوا يتطورون بها حتى لقد أصبحت من المميزات البارزة في الفن الإسلامي ، ولم تفقد القبلة المصرية الإسلامية عند العهد الذي لراه في القباب الثلاث الموجودة في هذا المسجد والتي نشاهد فيها في أقصى البين وأقصى اليسار من جدار القبلة كما عرفها أيضا أمام المعراب — بل زناها قد تطورت تطورا يبلغ أقصاه في عصر المماليك والزخارف التي نشاهد فيها في هذا المسجد : في مثذنه (سجدة رقم ١٥) ، وفي مدخله ، وفي واجهته كلها

منها الجيوش (صورته رقم ١٧) فمرض علينا
 ان نسير ولا الى تلك البدعة التي استعدت
 في الاسلام ، واثبت رواجاً عظيماً عند
 المسلمين في شتى البقاع ، وهي تبيد القباب
 وانباء المساجد فوق قبور الباررين والعقلاء
 من رجال الدنيا والدين ، وألغى النظر أن
 الدافع الى هذه البسطة انها هو الرهبة
 في تمييز هؤلاء الناس بحد وثالسم
 كما كانوا مميزات في حياتهم ، وقد ظهرت
 هذه البدعة اول ما ظهرت عندما اذعن
 النية الى تمييز بعض البقاع التي تحفل من
 شمس المسلمين مكانة سامية لارتباطها بتاريخ
 النبي الكريم مثل صحرة بيت المقدس التي
 يقال ان النبي خرج منها الى النساء ليلته
 أسرى به ، فشيءوا عليها قوة عظيمة تمتد حتى
 اجوم من أروع الآثار الاسلامية الى لم تكن
 اروعا حميميا ، وقد كان طبيبا أن ينتقلوا من
 تكريم القبصاع التي قدسها الذكريات الى
 تكريم القبور التي تضم رفات من كانوا أعزاء
 عليهم ، وهكذا ظهر هذا النوع الجديد من
 الأبنية التي سبها القاشيون بالمسجد أي
 مكان القهداء لأهم كانوا يرون أن التمس
 ومظاهرم قد استشهدوا واستحقوا درجة
 القهداء في معجل لسنه بأدبهم ، ومشهد
 الجيوش قد شينه ليدهن فيه الأفضل بن بدر
 الجمالي كما تدل على ذلك الكتابة التأسيسية
 التي تتسوع مدخله ، ويستلفت النظر فيه
 استعمال النبو في التبريق لأول مرة في مصر ،



١٥ - جزا من واجهة الجامع الأحمر .

تتم البناء في فطما وعمدتها وهي ظاهرة
 معمارية ظهرت لأول مرة في مصر في مصر
 البهاقة في مقابر كوم أبو الهول ثم اخذت لتظهر
 من جديد في هذه الواجعة . كما يشاهد أيضا
 كثيرا من العناصر الزخرفية التي كانت مألوفة
 في العصر القبلي قد رست هنا بطريقة
 منضفة تدل على فصوص اشككة الفنية عند
 راسها . والواقع أننا نلصق لي نظارف هذا
 المسجد والمسجد السابق ، البروع الفنية
 المصرية ، وتدرك انها اخذت تبرز من جديد
 قوية واضحة بما أن تحلصت من الفن الأجنبي
 الذي فرض على البلاد في العصر العلوي .
 والكتلام على اشاهد القاطية التي اخترقا

الإسلامي بالقاهرة سنة ١٩٣٤ م ، وهو يقع بالقرب من المنزل انطولوجي الذي استلنا الإشارة إليه . وهو يعد أقدم حمام إسلامي في مصر .

والحمامات عامة لبست من ابتداع العرب بل عرفها الفراعنة واليونان والرومان من قبلهم ، ولقد سار المسلمون في تخطيط حماماتهم على النمط الروماني الذي وجدوه بين أيديهم ، وتحدثوا عنها طويلا في كتب الأدب والتاريخ فذكروا صفاتها ومزاياها وآدابها ، ووصفوا ما ازدادت به جدرانها من صور جميلة ، وأوضحوا ما لهذه الصور من أثر في نفوس المستعدين ، ولقد لعبت الحمامات دورا هاما في الحياة الاجتماعية في العصور الوسطى في مصر وغيرها من بلاد العالم الإسلامي ، والحمام الفاطمي كان ، في أغلب الظن ، حماما خاصا ملحقا بأحد القصور صغر مساحته ، ولكنه على صغره يعطينا فكرة واضحة عن تسبب الحمامات ، وطريقة إيقاظ النيران فيها ، وتوزيع المياه في أجزائها المختلفة ، ولا يزال أثر التي كان يرفع منها الماء موجودة حتى اليوم ، أما الصور التي كانت تزين قبة وجدرانها فقد حلت إلى الأبدل الإسلامي بالقاهرة (صورة رقم ١٩) .

(العصر الأيوبي)

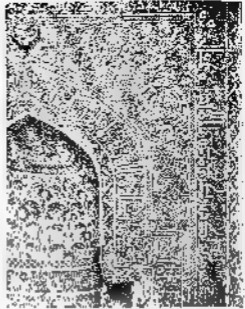
ولقد ضعفت مصر في أواخر العصر الفاطمي ، وضع فيها من جهة مسيحيو العرب (الصليبيون) الذين نشأوا لأفهام ممالك



١٧-مسجد الحسين من الخاوي .

وهذا الاستعمال يكلمنا لنا عن ميزة صسارية تجعل للمهندس المصري في العصور الوسطى فضل سبق على زعمائه الأوربيين المعاصر له ، وسرابت هذا المسجد بعد آية من آيات الفن الإسلامي تجلت فيه عبقرية الفنان في أروع صورها وأبداع مظهرها . (صورة رقم ١٨) .

وآخر ما تذكره من العماائر الفاطمية والحمام الفاطمي ، الذي تكلف عنه المتحف



١٤ - معراب مشبه الجيوش

١١٠ - معراب المشبه بالجيوش

١١ - صورة على النصب (البرستو) كاتبة بالخط الفاطمي ومعه سنة الآن في مسجد المن الإسلامي بالمعاهرة

من الصليبيين العاطمين في مصر لتأمين ملكهم في الشام والاستفادة بقبيلاتها الميعة ، فأوصى اليه هذا الطرف أن يبحث عن مكان حصين يتخذ مقر له ، ويبلغ به عن حاسة البلاد شر العدو المهاجم ، ووقع اختياره على سكان القلعة المشرفة على المنهرة اليوم ، (المسورة رقم ٧٠) ولا تزال الكتابة الأثرية التي تتوضع باب المدرج - وهو أحد أبواب القلعة - تتضمن بعض تاريخها يشير إلى بناء سلاح الدين لهذه القلعة سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) بإشراف أخيه الكامل ومعلمي يدي وزيره قراقوش الذي

صغره في بلاد الشام ، ومن جهة أخرى مسلمو الشرق (الأتراك السلاجقة) ، وكان المسلمك بأعنة الوزارة في مصر سلاح الدين يوسف بن أيوب الذي انتصر فرحمه موت الخليفة الفاطمي الحاكم ليعلم سقوط الخلافة الفاطمية وعودة الخلافة العباسية ، وسرعاد ما كورن هو الدولة الأيوبية التي رعدت لاسما للنضا. على الصيغة في مصر ، وعلمى الصليبيين في الشام .

ولقد وجد سلاح الدين مع مهددا بثورات داخلية من التميميين للفاطميين الراغبين في إعادة ملكهم ، وبحروب خارجية



٤١- قلعة صلاح الدين من الخارج

تاريخ مصر منذ عصر الأيوبيين حتى عصر محمد علي « فالعصر الأيوبي يمثل لنا أوضح ما يمثل في الأبراج التي نشاهدتها في الجانبين الشرقي والجنوبي ، وعصر المماليك يمثل لنا أجمل ما يمثل لنا مسجد الناصر مصممه ذي المئذنين الرائعين اللذين تزدان قمة كل منهما بالوواح القاشالي الأخضر الجميل ، والعصر التركي يمثل لنا بطرازه الجديد في بناء المساجد في جامع سليمان باشا والي مصر ، وهو أول مسجد يذكرنا بمساجد القسطنطينية التي تأثرت في تصميمها وبكنيسة إياصوفيا حيث نشاهد في وسط رواق الأعمدة فية عظمة تحيط بها أربعة أعمدة

لا يزال يردده العامة اسمه حتى اليوم للدلالة على جمود الفكر والسياسة في الحكم . (الصورة رقم ٢١) .

وامتد العمار بين القسطنطينية والمسيك والقطائع حتى أصبحت مدينة واحدة كانت تسمى مصر أحيانا وأحيانا القسطنطينية . وأمر صلاح الدين بإحاطتها بأسوار تنصل بأسوار القاهرة القاضية ، ولقد تمت القاهرة أعينها بعد أن انتقل منها الحكام والحكماء إلى القلعة التي ارتفع نهبها منذ ذلك العصر حتى أيام الخديو اسماعيل الذي بنى قصر عابدين . وتعددت القلعة بأسوارها وأبراجها ، وبما في ساحتها من أبنية مختلفة ، أصدرت حديث عن



٢١- الكتابة الأثرية على الجدران - قلعة صلاح الدين



٢٢- قناطر اشياد التي كانت تحمل الماء من النيل الى القلعة -



٤٢ قبر الامام الشافعي من الداخل

وبلدية القاهرة من جهة اخرى لاطهار هذه
القناطر وتعبيد الطريق الذي يحف بها من
انحايين تشبهو في الصورة التي كانت عليها
عند انشائها . ولكن سكان القلعة ايسوادانا
في ما من من انقطاع مياه النيل عنهم لسبب من
الاسباب ، لذلك حفر في داخل القلعة بئر
صغيرة تستخدم مياهها عند الضرورة ، وهي
لا تزال موجودة حتى اليوم وتعرف ببئر
يوسف .

وانشئت في هذا العصر فوق قبر الامام
الشافعي قبة عظيمة تعد من اجمل التماثيل
واجملها وانماها بالثقوش من الداخل

قرب حافلة بالزخارف الملونة والكتابات ، كما
يشتمل ايضا هذا العصر في باب القلعة المشرف
على ميدان صلاح الدين المعروف باب المغرب
والذي يحف به من جانبيه برجان عظيمان
ينظمان بان البناء المصري كان لا يزال في
هذا العصر يحتفظ بمرامته التقليدية . وعصر
محمد علي يشتمل انا في الماحصل الرئيسى
للقلعة الذي نستعمله الآن ، وفيما وراء هذا
الباب من المصالح الحربية والدواوين
والمدارس ، وفي قصوره التي من أهمها قصر
الجوهرة الذي ردت اليه العياض وزرنا التمامة
والارشاد ما وضع فيه من تماثيل فيدا في
الصورة الجميلة التي كان عليها ، وفي مسجده
العظيم الذي دفن به والدى بشرف بشرفه
الرشيدتين على القاهرة .

وطريقة اتصال الماء الى تلك القلعة العالمة
في العصور الوسطى جديدة أن نلقب عندها
قليلا هي تكشف لنا من مدى ازواج اجدادنا
في تلك العصور في الهندسة المدنية ان كان
الماء ترفع من النيل بواسطة ست حوائق
كل منها ترفع الماء الى حوض كبير يجري منه
الماء في قناة مخفورة في اعلى قناطر بيت
خصيصا لهذا الغرض تمتد من جوار مجرى
النيل وتنتهي الى القلعة (مسورة رقم ٤٢) ،
ولا تزال حتى اليوم — سند هم الخليج —
آثار هذه السواقي وكثير من قناطر المياه
التي جددت في عصر النوردي أحد سلاطين
المماليك ، وتتمثل مصلحة الآثار من جهة



١٤ مسجد الظاهر بيبرس من الخارج

المساجد :

وتقدم المساجد المملوكية هيو مسجد الظاهر بيبرس (٦٦٥ هـ) الذي قطع اسمه على حي عظيم من حياء القاهرة (حي الظاهر) (المصنوعة رقم ٢٤) والذي يعد تاريخه مختصرا لتاريخ مصر منذ ملك المماليك يزمام الحكم ليها حتى العصر الحديث ! ففي بناله التنظيم مظهر لحظة مصر في عصر المماليك ، وفي ابعاده ويح نقاشه مظهر للفوضى التي قامت في البلاد بسبب الفتح التركي ، وفي جسد التراسيل منه قلمية في وسط القاهرة مظهر لغزوة الفرنسي ، وفي تحريكه على يد الانجليز الى مذبح يجهزون فيه ما ياكلونه من الجوارح حتى ليصرفه الى اليوم عند العامة بمذبح الانجليز مظهر للاحتلال البريلسائي ، وفي بدء العنابة به ومعاودة اعادته الى اصله على يد مصلحة الآثار مظهر لعهد الاستقلال . وهو اول مسجد

والخارج . وتحتل في الزخارف المحفورة في رتبة هذه القبة من الخارج روح انسانية لا يخطئها المشاهد . (صورة رقم ٢٣) .
وفي اواخر هذا العصر انتشت شجرة الدرر قبة فوق قبر زوجها الملك الصالح نجم الدين ايوب تشاهد فيها لأول مرة فيعبر الضيفاء المذنبه زين المحراب .

(العصر المملوكي)

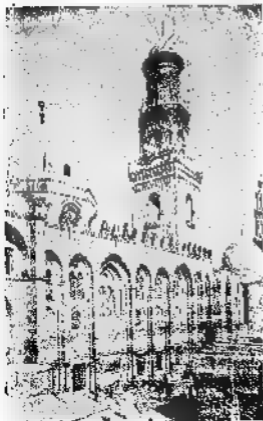
وطغمت الدولة الأيوبية ، واشتد النزاع والتعاضد بين افسراد أسرة منى ايوب ، واستكثر اهلبيهم من شراء المماليك ليكولوا عولا لهم ضد منافسيهم من اقدارهم ، وسلموا هؤلاء المماليك زمام الجيوش والقصر لوصولوا الى درجة عظيمة من النفوذ ، ولججوا آخيرا في الاستيلاء على املاك والتربع على عرش مصر اكثر من قرنين ونصف قرن كانت البلاد ليها من اثنائية السياسية مصرها للفوضى ولكنها بلبت من الناحية السبة درجة سامية لم تبلغها من قبل في عصرها الاسلامي . وفي الحق لقد استطاح هؤلاء المماليك ان يكتسروا لانفسهم في تاريخ الفن المصري صفحات تمنع من بين سطورها آيات الضجج الفنى التي تقرأها ليها تركسره وراهم من ثروة عظيمسة من المساجد ، والقباب ، والفواقر ، والفصور ، والمدارس ، والخانات ، والقلاع ، والاسبلة ، والمدارس ، ومن التحف المتعولة التي يفخر بها المتحف الاسلامي بالقاهرة ، ودار الكتب المصرية ، وكثير من الشاخف في الشرق والغرب .

ظهرت على استحياء في العصر الفاطمي في بعض نوافذ جامع الحاكم ، وأسفرت قليلا عن نفسها في العصر الأيوبي في زخارفه فبه الإمام الناصر ، فهي في عصر المماليك تبدو قوية وانسعة في زخارف الواجهة الداخلية لهذه القبة (الصورة رقم ٢٧) التي نذكرها عند معيهايتها بالزخارف الجصية لشعر الحمراء .

تمتاز واجهته بتلك الملاحظة التي لعبت دورا هاما في العمارة الإسلامية حتى كانت تصبح علما عليها وهي زيين الواجهة بالشرطة عرضة أقمية متوازية لونها أحمر وأسفر على التوالي ، ويلاحظ أنها هنا إنما تمت نتيجة لاستعمال نوعين من الحجارة يختلف كل منهما في الأسطر في لونه ، وصحن المسجد تشقه اليوم حديقة عامة ، وقد ضاعت معظم معالمه من الداخل إلا بعض النوافذ الجميلة ورواق المحراب ، الذي يبقى منه جزء تقام فيه المعاصر .

القباب :

وأجمل القباب قبة قلاوون (٩٨٣ هـ) التي تعتبر من روع المداخل الأثرية الإسلامية في مصر ، (الصورة رقم ٢٥) وهي تتكون من غرفة مربعة الشكل يتم سطحها مشن تتند عتودها على أربعة أكتاف وأربعة أعمدة من الجرانيت الأحمر ثم تيجانها ولوحدها على أنها من صنع المصريين في عصر البطالمة ، ومحرابها قطعة من الفن الجميل ، وواجهتها من الداخل ومن الخارج مثل ما نقل على مدى ما وصل إليه البناء المصري في عصر المماليك من التخصيب الفنى (الصورة رقم ٢٦) ، والواقع أن هذه القبة تزهف الوجودان بجسمها الرائع ، وتهدى النفس بصنيتها المعكسة وتوسع أفق العقل بما فيها من كتابات تاريخية . وإذا كانت التأثيرات الأمدلية قد



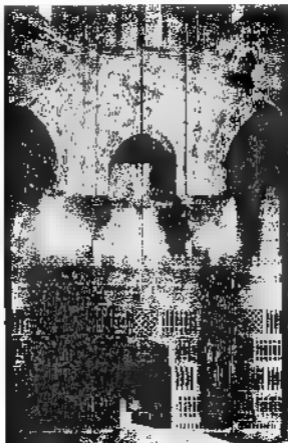
٢٥ - واجهة قبة السلطان قلاوون من الخارج .

المارستانات :

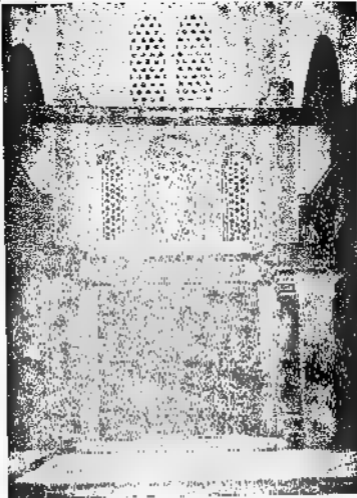
والمارستان (دار الشفاء) بناء يتكون من
 أيهاة وحجر بها أسرة بعضها للنساء وبعضها
 للرجال ، ولكل مرض قسم خاص ، وفي
 مقارنه الملايس التي يرتديها المرضى عنسد
 تواجدهم به ، كما هو الحال في أحسن
 المستشفيات اليوم ، وقد كان يشهد شئونه

أبناء من قبل الدولة بماؤنهم موثعون يقومون
 بطبخ الأدوية والأغذية .

والمارستان قلاوون (١١٣٣ هـ) قد امتدت
 إليه يد الزمن فلم يبق منه الا الأرض التي
 يشقها اليوم مستشفى حديث للرمذ يحل
 اسم قلاوون ، والآنما لا تستأهل الذكر ،
 وهو لم يكن لأول من لومه في مصر بل
 سبقته مارستانات أخرى ضاعت معالمها .



١٠ - قبة السلطان قلاوون (من الداخل)



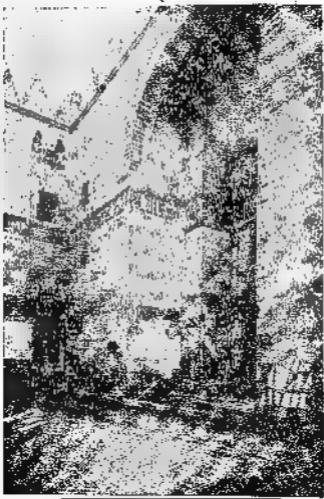
٧٠- واجهة به السلطان للارن من الداخل

وَعَدَّة الْمُنْسَأَتِ الْعَامَةِ الَّتِي كَانَتْ تَنْشُلُهَا
الدولة لكي توفر وسائل العلاج للشعب كما
هو الحال في هذه المارستانات ، ولكن توفر
المعرفة لهم كما هو الحال في المدارس التي
سندكرها فيما بعد ، ولكن تخفقا عنهم وطاق
العلماء في بلد حار — كما هو الحال في الأسباب
التي سيشير إليها — فقد من مناخر الحضارة
الإسلامية (التي كان لصر السيب الأوفر
فيها) والتي سبغت بها غيرها من الحضارات ،
وأوروبا عندما نهضت نهضتها الطليبة ، واتجهت
إلى هذه النواحي الإنسانية إنما انفتحت أثر
الشرق وانفتحت بأجدادنا ، ولعل خير ما يترجم

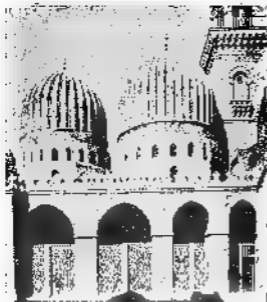
عن سمو حضارة هؤلاء الأجداد في المصور الوسطى — عصور التعصب للجنس والدين والطبقة الاجتماعية — هو تلك العبارة التي قالها قلاوون عند التمرغ من بناء هذا

المخواتق :

المخواتق (دار الصوفية) أنه ما تكون بالدير عند المسيحيين (الصورة رقم ٢٨) ،
المخواتق : « انى بيته لوجه الله ، لمعالجة المرضى من جميع الطبقات والأجناس » من



٢٨-مخواتق بيمرس الثاني (من الخارج) .



٢٤ الطاقم الجبالي من الداخل وبمنظر من الصورة الضبابية المحيرة الجميلة .

العصور كما تدرت في جميع العصور المصرية الإسلامية قبل الفتح التركي ، ولعل السبب في ذلك خشة الناس من الاعتداء على بيوت الله من عقاب الله لعائس الكثير من هذه البيوت حتى وصل بنا ، أما بيوت الأعداء من الضمر لنا أهون الاعتداء علينا إلا ما ملك الإنسان اللطمة والنموة .

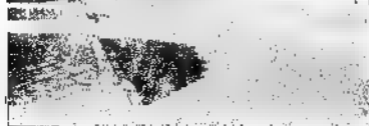
المدراس :

وقد كانت سجلس العلم تمتد في المابعد ، وظلت كذلك إلى أن اتسعت دائرة المعرفة وتشتعت فروعها ، وحيث أحس الناس أن نشاطهم والجدل — وهما من أسس الدراسة — قد يخترجان بالطلاب والأساتذة أهلاًنا عن

وقد نشأت فكرتها عند المسلمين عندما ضمت روح تدين في النفوس ما دفع ببعض الناس إلى الميزة زهداً في انجاء الاجنعية التي أصبحت حائفة بالوان انمو قشيدوا هذه الابنية التي تنوى على غرف متعددة يعيش فيها هؤلاء المصنفون ، وقد تورد الخبوات في مصر أول ما لهرت في مصر سلاح الدين ، وبعد الطامه الجباليه (٧٠٣ هـ) من أجل ما شيد من هذا النوع ، وواجهتها المثلثة على شارع مارسيه تصح عن مفكرة المهندس الذي صنعها ، والبناء الذي عند هذا النخل ، فالقبان المتساكتان ، طهر ، المختلفان ارتدعا ، والمثلثة الفاتحة إلى جوارها تكوّن ما لوحه ليه تنوفر فيها أصول الحاصل التي بصورة رافعا ، وقد امتدت بد التثريب إلى الغرف العبد المصوفية ، ولكن بقي لنا بعض البوائف التي تغطي لشايبته من العصر مزحرفة برخارف جميلة لا مبدل لها في العمارة الإسلامية في مصر . (الصورة رقم ٢٩) .

القصور :

وقصر الأمير بلسك (١٧٣٥ هـ) كان من أعظم ما بنى القاهرة بسطيع الإنسان أن يشرف من أملاء حاش القساعة واللمعة والنيسبل والساني ، كما يقول القريزي ، ولم يقل له منه إلا قدر قليل يستل في قاعة عتبية ذات سقف جميل ونافذة رائعة ، ثم بعض الأجزاء التي تعاون على إعطاء فكرة عن شكل القصر من الخارج في هذا العصر التي تدرت فيه

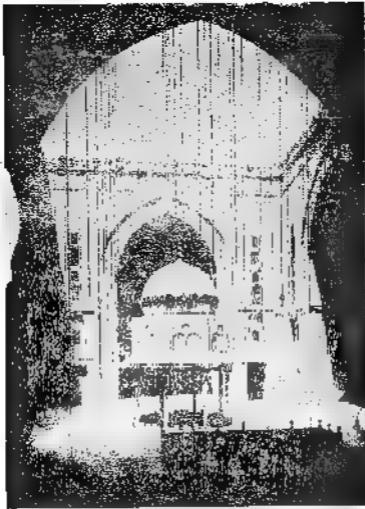


م. مدرسة السلطان حسن (من الخارج)

بعد ذلك في العالم الإسلامي ، ودخلت مصر
مع صلاح الدين ، ثم أقبل الناس على أتباعها
بعد ذلك أيضا شديدا .

و بعد مدرسة السلطان حسن (٧٥٧ هـ)
(صورة رقم ٣٠) من أعظم الآثار الإسلامية

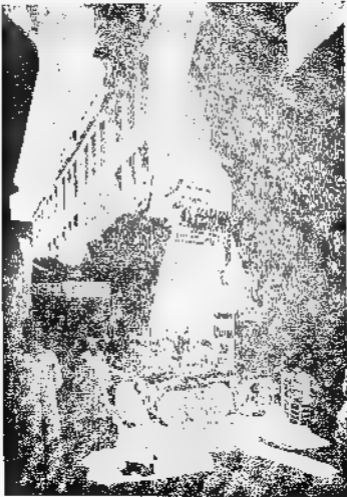
حد الهدوء الواجب بوقته في المساجد ، فأرأوا
أن يختصموا للدراسة قاعه في دورهم ، فلما
ضاق القاعات بالطلاب أنشأوا أماكن خاصة
هي المدارس التي عرفها المسلمون لأول مرة
في القرن الخامس الهجري في إيران ثم انتشرت



١٠- مدرسة السلطان حسن (من الداخل) .

في المسالم وأروعها في مصر ، والواقع ان
 عظمة الفن الاسلامي وجلاله يدوان واصعب
 في كل جزء من اجزاء هذه المدرسة العظيمة .
 وتلخص لنا واجهتها الرئيسية جميع خصائص
 هذا الفن : ففيها الخط الكوفي والخط
 اشمسي - وفيها الزخارف التي تعلمها
 المسلمون من قبلهم من الآمك ، والزخارف
 التي ابتدعوها وصارت من اخص سميات
 فنهم .
 وتصميم المدرسة يقوم على مسجح

مكتسوف توسطه نافورة ، ونظ عليه من
 الجهات الأربع أربعة عقود عظيمة
 (الصورة رقم ٣١) . وفي الزوايا الأربع لهذا
 الصحن أقيمت أربع مدارس يتكون كل منها
 من إيوان ، وقناة ، ونوسفة نافورة ، وتحضن
 به مساكن بعضها فوق بعض ، أعدت ليعيش
 فيها الطلاب والأساتذة . واختصت كل مدرسة
 بتدريس مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة
 المعروفة ، وينصل بهذه المدرسة أو الجامعة
 على الأصح مدخل آمن لكي يدخل فيه
 مؤسسها السلطان حسن ، ثم يلوه قبة شاهقة
 وتزينه زخرفة جميلة وقد يكون من الطريف

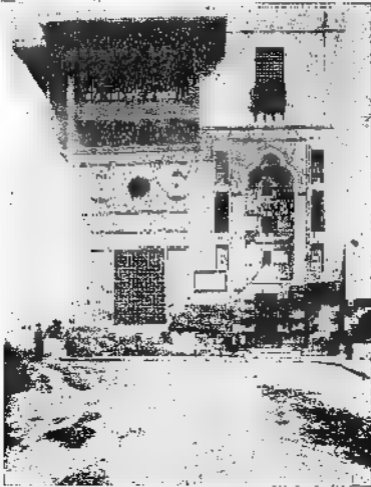


٢٢-ستان الخليل

الحانات :

وخان الخليلي الذي ذاعت شهرته بشفه
أسسه من سيف الدين حركم الخليلي أحد
امراء المماليك الذي كان يعيش في النصف
الثاني من القرن الثامن الهجري ، وقد كان
الخان في الأصل اسمه ما يكون بعداني اليوم
مير فاروق واحد هو أنه كان يتمسح لدواب

أن نذكر أنه كان في هذه الجامعة بكلياتها
الأربع مراقباً لمراقبة الحضور والغياب ،
أحدتها يدعى بالهار والآخر بالكليل ، وكان
لها اغباء ثلاثة اختص أحدهم بالطب الباطني
والثاني طب العيون والثالث بالجراحة ،
وكان في كل كلية مكتبة عظيمة لها أمين خاص
بها .



٣٣-مسجد السلطان قايتبغاى ويرى يااعلامالكاتب .

الفنون الخزفية

بقي علينا ان نتحدث في اجزاء عن
المصنوعات وما كان يزنها من فنون زخرفية
وهي الركن الثاني من ركسي الحياة الفنية في
مصر الاسلامية

واذا كان للعمائر ادينيه التي مررناها
طابع خاص يكاد يكون غفيلغ الصللة بما
سبقه من عمائر دينية في مصر ، طابع يترجم
عن الدين الجديد الذي دخل الى هذه البلاد
ويتشئ من حيث التصميم والمظهر مع العمائر
الدينية الاسلامية خارج مصر فالامر ليس
كذلك في المصنوعات ، وما زادنا به من فن
زخرفي اذ ظلت العاليد المصرية الساخنة على
الاسلام واصعة ومسوحا قويا في العصر
السابل على الفونوني حتى ليصعب علينا في
بعض الاحيان ان نفرق بينها بين ما صنع قبل
الفتح العربي وما صنع بعده بقليل .

ولكني لذلك مدي ، احدهم اجدادنا في
العصور الوسطى من تطور في هذه المصنوعات
ولمخالفا لذي لاما علينا ان نخص كل مادة
من المواد التي استخدمت في الصنعة بكلفة
خاصة تبدلها بما كانت منه قبل الفتح العربي
لم نسر ممها متتبعين تطورها حتى الفتح
التركي .

مرات البناء

ففي مواد البناء نلاحظ انه عن الرغم من
وجود المحاجر التي استمد منها المصريون في
عصورهم السابقة الأحجار تشيد عمائرهم

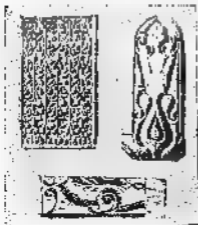
المسافرين — وقد كان أغلبهم من التجار —
ويتسع كذلك لما يصلونه من بضاعة ، ففي
صحة المكتسوف كانت تربط الدواب .
وهي وسيلة السفر في تلك الأيام — وفي غرفة
التي تطل على الصحن كانت تحفظ البضاعة ،
وفي غرفة التي تفتح على الطريق العام كان
يرض البعض من هذه الموضع للبيع أو المبادلة ،
وفي الطبقة العليا غرف تشددة أعدت لزوار
التجار وغيرهم من المسافرين . وقد هدم
السلطان انورى هذا المكان وانما مكانه
حواصل وحواليت وجعل له ثلاثة أبواب لا تزال
تحمل اسمه حتى اليوم (الصورة رقم ١٣٩)

الأسيلة :

وسيل السلطان قاينباي (٨٨١ هـ)
بالصلية بعد من أروع ما شيده هذا السلطان
من مئذنه الكثيرة ، ومن أجمل ما يجعل
طينا هذا النوع من الأبنية ، وهو يتكون
في أصله من مورد ماء عذب يشرب منه
الناس ، وفي أعلاه كتتاب و لتخفيف الفراغ
وتعليم القراءة والحساب ، وقد كان السيل
و الكتتاب جزءا من المدونة أو المسجد
ثم استغلا بوجودها كما هو الحال هنا .
وأقبل الناس على الأكتاف منها ، وجسرا
عليها الأعيان التي يعرف بعضها على التلابيد
وخطيم وعلى توفير ماء الشرب للناس في
بلد اشهر بجوه الحار ، فليس أقرب الى
الله من سقى ماء ونشر العلم . (الصورة
رقم ٢٣)

وهو وإن كان لم يصل فيه إلى الدرجة التي ست بها اتقنون التقديرة الساجدة عملي للإسلام إلا أن هذا لا يبعد قليلا على فخر المبدعين له وليس فيه ما يزرى بمسافة هذا الثمن بين العنود ، لأن لكل فن بيته التي نشأ فيها والمعامل التي تحكمت في نشأته ، وقرأت التكريم لم يحرم عن النعت (صناعة التماثيل) وقد أدركنا أسلافنا أن التحريم إن وجد فهو منصب على التماثيل التي تصب من دون الله ، وأما غيرها فلم يشحروا من استعمالها في تزين للمسرح وقد وصلت إليها أمثلة عدة ، منها ما هو على هيئة الإنسان ومنها ما هو على هيئة الحيوان ، وفي القائمة الفاطمية سنتعرفنا بالفاهرة تماثيل من الحجر بتمثال أسدين يزحفان على مهل تتجلى فيما العضلات والمهد بشكل واضح .

ولا ينبغي أن ننسى أن استعمال الحجر



٤٠٠ - طريقة الحجر المائل كما تتجلى في قطع أخشاب طرونية بالتحف الإسلامي بالقاهرة .

فإن العرب استصحبوا قطع الحجر واستعملوا عمل اللبن فينوا به مساجدهم الأولى . وعندما جاء ابن طولون إلى مصر حمل معه تقاليد العراق في البناء وهي تقوم كذلك عملي استخدام اللبن والطوب المحروق لعدم توفر الحجر عندهم فظلت مصر تسير على نهجها السابق ، وقد كان طبيعيا أن يفضي الطوب بالجص وأن تنقل الزخارف على هذا الجص . وفي العصر الفاطمي — ذلك العصر الذي تحيا تقاليدنا القديمة كما ذكر من قبل — نجد البناء بالحجر يظهر من جديد ، ويعود النشاط إلى المعاصر ، وليس في واجهة جامع الحاكم ومثنتيه ، وفي واجهة جامع الأقصر ، وفي أبواب القاهرة وأسوارها ، أمثلة رائعة للمهارة الفائقة في البناء وفي النقش عملي الحجر .

وقل استعمال الحجر بارزا في العصرين الأيوبي والمملوكي ، وتجلى في هذا العصر خلق أعدادا في نفسه ، وفي طريقة استعماله في المآذن والقباب والتبائك .

ولم يستخدم الحجر في البناء وحده بل اتخذت منه شواهد للقبور (الصورة رقم ١) ، والتحف الإسلامي بالساهرة في هذه الشواهد التي تعطي الباحث فكرة واضحة عن تطور الخط الكوفي والنسخي ، كما عرفت من أيضا المنابر والأواني والتماثيل ، وهذه لأجيرة وإن كانت نادرة إلا أنها كافية لكي تثبت أن الفن الإسلامي قد عرف فن النحت

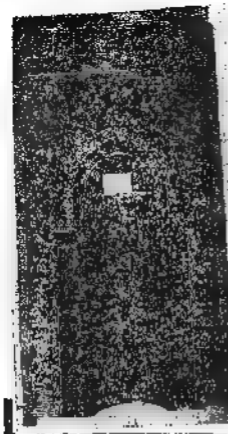
ليس بمناه عدم استعمال العُوب والجص بن
 قد ساراما ، والخيرة التي اكتسبها منذ
 العصر الطولوني في استعمال الجص ظلت
 تتطور وتبلور حتى وصلت الى غاية نضجها
 في عصر المماليك الذي شهد ازدهار أمثلة
 الزخرفة الجصية سواء في النوافذ أو على
 الجدران .

والرطام الذي استعمل على قبة قبل عصر
 المماليك قد شاع استعماله في هذا العصر
 ووصلت اليها من زروة عظيمة منها ما نراه في
 الأبنية القائمة ومنها ما هو معروف بالمتحف
 الاسلامي بالقاهرة . ويكفي أن نشير الى
 أرضية كثير من المساجد التي تكسوها كواح
 الرطام المختلفة الألوان ، وإلى النافورة الرالعة
 في المتحف سابق الذكر .

الأخشاب

ولقد كانت مصر طوال تاريخها فقيرة في
 الأنواع العديدة من الأخشاب ، فاستوردتها
 من لبنان (الأرز والصنوبر) ، ومن السودان
 (الأبنوس) ومن الهند (الساج) ، واستعملتها
 مع بعض الأنواع المحلية (الجوز والبنق)
 في صناعاتها المختلفة ، وفي المتحف المصري وفي
 المتحف اليوناني الروماني ، وفي المتحف القبطي
 أمثلة رائعة تدل على المهارة والخلق في
 صناعة التجارة .

وسار المصريون في العصر الاسلامي
 على النهج القديم في الصناعة وفي الزخرفة ،
 فاستعملوا الحجر ، والتلويح ، والتطعيم كما



٥٥ - محراب السميدة دحية من الحشب وتعمل
 فيه طريقتا الفصيح والحشر بالتحفب الاسلامي
 بالقاهرة .

لمل أجدادهم ولكنهم في العصر الطولوني
 خرجوا على ما اتفوه من قبل ، واستعملوا
 طرازاً زخرفياً جديداً حابه معه أعمصه بن
 طولون هو الحجر المائى (المصودة رقم ٣٤)
 ويشير المقرئى الى التائيل الخشبية التي
 كانت ترين قصر خمابوره والتي تدل من غير
 شك على استمرار تقاليدنا القديمة في هذه
 الناحية .

على أننا قد عدنا إلى التقاليد القديمة بشكل واضح في العصر الفاطمي، فظهرت من جديد طريقة الحفر العميق التي اتفعا أجدادنا ، وتجلت في سور رائعة تشاهدها في حجاب كثيفة البت برابرة بالمنحف القبلي وفي النبر الموجود في مسجد فوجس ، وفي محراب السبحة رقية (سورة رقم ٣٥) « وفي الواح القصر الفاطمي الصغير في المنحف الإسلامي . وإذا كانت هذه المنحف الضخمية تعكس لنا رقي النحوق الفني عند أجدادنا في العصور الوسطى فالنحتتان الأولى والأخيرة تساعدا على تكوين فكرة عن الحياة الاجتماعية في تلك العصور بما عليها من صور تمثل مناظر الصيد ، ومجالس الطرب ، وأشكال الرقص ، وطرق الانتقال ، ومظاهر الزى .

، وتقدم فن الحفر على الطبس تقريبا ملحوظا في العصرين الأيوبي والملوكي ، وقد عنى التجارون في هذين العصرين أكثر ما عنى بالزخارف الهندسية والتجسية التي أنفصوها انقالا ينزح الإحجاب من كل من يراها ، ويمكن دليلا على ذلك ما نراه في لاوت الأسمام الفاصي (بقتة) ولاوت الإمام الحسين (بالمنحف الإسلامي) ، والمنبر الموجود بسجدة ابن طولوت .

على أننا لم نلق في العصور الوسطى جامدين عند تلك الطرق التي ورتناها عن أجدادنا في زخرفة الأخشاب بل ابتدعنا طرقا جديدة لم تكن معروفة من قبل ، وذاعت بفضلنا في شرق العالم وغربه كقرعة التشيق ،

وطريقة التجميع ، وطريقة الخرد ، والعريشان الأولى والثانية تشاهدهما في التحفة التي ذكرناها وفي غيرها من منابر كثيرة ، والطرفة الثالثة تجلى فيما يعرف « بالمثريبات » التي كانت تزين واجهات كثير من منازلنا وقصورنا في العصور الوسطى والتي كانت من غنج شبك منققة مع جو بلادنا ، ومتلازمة مع نظامنا الاجتماعي حينئذ ، فهي تساعد على دخول الضوء الطيب ، ومرور النسيم الطليل ، لتوفر بذلك في المنزل جويا مناسبا في بلد اشتر بهسه الساطعة ومناخه الحار ، وفي المنحف القبلي ومنحف أمروسون أمثلة جيدة لهذه المنبرات .

التصوير

والاستعانة بالتصوير في تزيين الجدران أمر كان معروفا عند أجدادنا المصريين ، وكان معروفا أيضا عند العرب في جاهليتهم فقد زينوا دعائم الكعبة — قبل الإسلام — بصور الأبياء ، وكان من بينها صورة إبراهيم خليل الرحمن ، وصورة السيد المسيح وأمه علي حد قول الأزرقي في كتابه أخبار مكة وما جاء فيها من الأثر .

ولما جاء الإسلام اقتصر المسلمون في استعمال التصوير على تزيين القصور والحمامات دون المساجد ، ولم يكن الدافع إلى ذلك كراهية التصوير كمن ولكن كان سوا بالإسلام كدين يرتع فوق الماديات ، ويجعل الصلة بين العبد وربه صلة روحية

الجدران تقل من الحسام الفاطمي الذي أشرنا
إليه من قبل (الصورة رقم ١٩) ولعل قيسا
ذكرناه هنا يرفع رده على الذين يتهمون بالإسلام
بتحريم التصوير ، فعلى الرغم من أن القرآن
الكريم خلو من أي نص يحرم هذا الفن فإن
المسوق السليم يأبى أن يسلم بأن هذا الدين

قوامها التجرد من كل ما هو مادي ، وقد
كشفت العفائر الأثرية سواء في مصر أو في
خارج مصر عن حملات وقصور ترجع إلى
القرن الثاني والثالث والرابع بعد الهجرة كانت
تزدان بالصور الجميلة ، وفي القاعة العاشرة
بمتحفنا الإسلامي من رائع للتصوير على



٢٠. قطعة تسمى من العصر الفاطمي بالمتحف الإسلامي بالمعاصرة .



٢١. قطعة فسيفساء نسجت في عهد الموم سجل فيها زخارف الفن القبطي والكتابة العربية
التي لها هنا طابع خاص بالمتحف الإسلامي بالمعاصرة .

قد حرم التصور مع ما له من دور خطير في
الحياة العلمية والحياة الاجتماعية .

المنسوجات

ومنذ فجر التاريخ بل وقبل أن يشرق
هذا النور عرفت مصر صناعة المنسوجات ،
والأمثلة التي تنطق بمهارة أجدادنا في هذه
الناحية في كل المعثور تنضربنا المتاحف في
مصر وفي الخارج . والمكانة السامية التي
وصلنا إليها في المعثور القديمة في هذه

النساجين . وأشهر الرسامين وأغلى المراد
الخام حتى تستطع أن تخرج من الأقمشة
ما يليق بالملوك والأمراء والحكام ومن يابوا
بهم ، وقد كان النسيج من وراثةهم يت رسم خطا
عسقة المعانج ، ويسج على هديها
(الصورة رقم ٣٧) وليست لإدار الكوفة
الموجودة حتى اليوم الألفية من «دور الطراز»
القديمة ، وهي لا تختلف عنها إلا في الكماش
اصحابها ، والتتمسارها على لسج كسوة الكعبة
التي أرسلها كل عام إلى مكة .



١٠٠ قطعة من طليسة مصرية عثت للسلطان المناني بأيد مصرية .

الناحية بنسائها أيضا في المعثور الوسطى ،
(الصورة رقم ٣٨) وكان في غالبها في تلك
المعثور من كسوة الكعبة ، وعادة منح الخلع
ما عاون على بلوغ هذه الدرجة بل وتجاوزها
في كثير من الأحيان كما تشهد بذلك قطع
النسيج الإسلامية المروضة في المتحف .
والفضل في ذلك واجمع الى العور الذي
لمبته « دور الطراز » أو بعبارة أوضح
المصانع الحكومية للنسيج التي انتشرت في
طول البلاد وعرضها وكانت تستخدم امهر

ولقد ساهم اجدادنا في المعثور الوسطى
في نشر الحرير في مشارق الأرض ومغاربها ،
وقد ازدهر تجارته في تلك العصور ، ولست
الاسكندرية دورا حاما في هذه التجارة إذ
كانت هي التي تعدد اسماؤه للمالم للمتضر
حفظه .

الطنائس

وهناك صفحة من عظمة مصر في الصنعة
طواها الإنسيان ، وكشف عنها البحث الأثري
هي تنوع مصر في المعثور الوسطى في صناعة

تدرك مدى الفرق بين عمل الأستاذ وعمل
التلميذ .
ويلاحظ أنه لم يصل إلينا من التحف



٢١- ليدال صنم من البرونز وجد في جرابلس
الفسطاط - بالمتحف الإسلامي بالقاهرة .



٢٢- تمثال من البرونز من العصر المسطاسمي
موجود الآن في مدينة بيزا بإيطاليا .

الأمثلة ذات الغمل أو الخنافس كما ينبغي
أن تسمى . وقد كانت حيثه أكبر مناسف
ليلاد المعجم في هذه الصناعة ، وأمدتنا حفائر
الفسطاط بما يثبت قيام هذه الصناعة عندنا
منذ العصر العباسي ، واستمرت كذلك حتى
العصر المملوكي الذي بلغت فيه ذروة
لزوجها (الصورة رقم ٣٨) والأمثلة القليلة
المروجة بين متاحف أوروبا لا سيما في لينا
تشهد بهذا النضوج ، وفي متحفنا بالقاهرة
مثال منها يش في أهميته وجسالة عن تلك
لأمثلة التي تمش في دار الغربية ، وتؤدي لنا
هناك رسالة عظيمة إذ هي في الواقع سلم
سابق يكشفه للغير عن مجدهنا وحضارتنا في
العصور الوسطى .

المعادن

ولقد سرنا في صناعة المعادن في العصور
الوسطى على النهج القديم الذي كان يسير
عليه أجدادنا من قبل ولكننا أضفنا إلى طرق
المعرفة القديمة : من حصر خالر أو بارو ،
أو تفرم ، أو ترصيح بالمينا ، طريقة جديدة
هي طريقة التكنيت . . أي لطبعم الألوان
بالذهب أو بالفضة أو بهما معا - التي
ابتكرها أجددنا من المسلمين ، وقد شاعت
هذه الطريقة ، وتعلمها الأوربيون على أيدينا ،
ويمكن أن نشاهد في المتحف الإسلامي عندنا
أمثلة مصرية إسلامية ، وأمثلة قد صنعت في
إيطاليا تقليدا لهذه التحف الإسلامية حتى



١٤ كرسى (عائلة صفوية) من النحاس المنقوش
بالمغصنة من عصر المماليك - بالتحف الإسلامي
بالقاهرة

المعدنية إلا القليل ، إذ جرت العادة بصهر
الأواني المعدنية كلما تقادم عليها العهد لكي
تستبدل بآخران جديدة . وفي المتحف الإسلامي
بالقاهرة بعض التماثيل النحاسية المصنوعة من
البرنز (الصورة رقم ٣٩) على أن أروع تماثيل
برونزية من هذا العصر موجودة في مدينة بيزا
بإيطاليا وهو يمثل حيوانا له جسم أسد ورأس
سروبي وخاروف محفورة من سنها كتابات
عربية (الصورة رقم ٤٠) . وقد ولع الناس في
عصر المماليك - كما يشول المقرئ
بالأواني المعدنية ، وفي المتحف مجموعة قيمة
من هذا العصر تستل في تلك الثريات والقصائد
والأباريق والأواني ، ولتفنن بالذكر منها
كرسى (عاتده سميرة) من عصر السلطان
الناصر محمد بن علاون (الصورة رقم ٤٦)
ودواة من عصر حفيد هذا السلطان (الصورة
رقم ٤٧) وكلاهما من أروع التحف المعدنية
في العالم .



الخزف

وإذا كانت الخزف المدينة التي وصلت إليها قليلة كما ذكرنا فإن الخزف المصنوع من الصغار والخزف كثيرة لا نحصى ولا عجب في ذلك ، فالأولى من السير صمغها والثانية لا تجلى مما تقدم عندها .

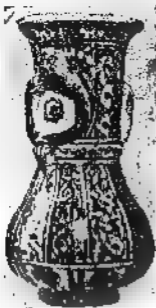
وصناعة الأواني من الفخار عريقة في القدم ، أتقنها أجدادنا الترامنة فأخرجوا لنا أواني فخارية جميلة ، وابتكروا الخزف أي الفخار المصطنع بطبقة زجاجية « وحدثوا صناعته ، وعلموها لغريم من الأمم ، والملاحظ أن صناعة الأواني الفخارية أو الخزفية في العصور السابقة على الإسلام لم تكن موضع رعاية الحكام والملوك لأن هؤلاء لم يهتموا بمعلم أوانيهم من الذهب والفضة والبرلا ، وعندما ظهر المسلمون على مسرح التاريخ لم تشهد هذه الصناعة في أول الأمر تطوراً يذكر ، ويظهر أن الفلمساء الأسمين في الشام قد ساروا على نهج ملوك المومنين الساسانية والبيزنطية ففضلوا استعمال الأواني المصنوعة على غيرها ، أما في العصر العباسي فقد تسحر الحال ، إذ كان من أمر تبادل الرحلات والتجارة بين البلاد الإسلامية وبلاد الصين أن وجدت الأواني الخزفية الصينية طريقها إلى أسواقنا ، وأصبح لها مكانة ممتازة بين السلع المختلفة مما جعلنا على تقليدها وقد نجحنا في هذا التقليد نجاحاً باهماً بتجلى في « خزف القزوم » الذي نشاهد من أمثلة جميلة في

المتحف الإسلامي ، ثم اتقلنا من مرحلة التقليد إلى مرحلة الابتداع وكان لبعض الأحاديث النبوية التي كرهت الناس في استعمال الأواني المصنوعة من الذهب أو الفضة أثر واضح في هذا الابتداع فظهر نوع جديد من الخزف لم يعرفه الشرق القديم ولا الصين نفسها ، له طريق كبير الذهب هو المعروف « بالخزف ذي البريق المندى » الذي رآه لأول مرة في العصر الطولوني (ولا يستبعد أن تكون الفكرة قد أتت إلينا من العراق مع أحمد بن طولون) ، ولطوفنا في صنعه في العصر الفاطمي فوصلنا به إلى درجة سامية يؤمن بها كل من يشاهد الأمثلة الفاطمية المروضة من هذا الخزف في المتحف الإسلامي (الصورة رقم ٤٣) .

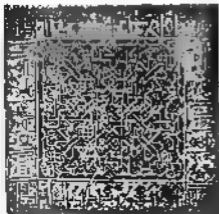
وقد نستمر اتجاننا في شتى أنواع الخزف بنقدم عبر العصور ، وأبدعنا في عصر الماليك أوانا جديدة منها ما هو مبتكر (الصورة رقم ٤٤) ومنها ما هو تقليد لأصراع شتى من خزف الصين (الصورة رقم ٤٥) ولعلنا نرى

وقد عرفنا الكثير من أسماء الخزافين الذين عاشوا في العصر الفاطمي أو العصر المملوكي ولكن معرفتنا بهم لا تتجاوز أسماءهم المنقوشة على الأواني التي صنعوها . وفي حلال عصر الماليك ظهرت صناعة التراميد (الأواح الفانسان) التي تستعمل في توكسية الجدران ولا تزال بقاياها ماثلة في بعض المساكن المملوكية . (الصورة رقم ٤٦) .

يحسن اللون يشوون على ذلك آفة عظيم
الصنوعة من الذهب ، وآفة الطير المشهورة



٦٥ آفة من الخزف الذي للديا به حرف بلاد
الصين في العصر السلطاني - بالتحف الاسلامي
بالقاهرة

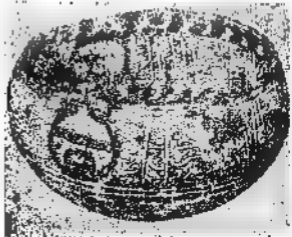


٦٦ - ترجمات من القاشاني من العصر السلطاني
- بالتحف الاسلامي بالقاهرة -

وثمة سلعة تعتبر أرخص مما يمكن أن
يصنعها صانع ، وهي على رخصها تكشف لنا
عن ميزة توغرت لأجدادنا في العمور الراسخة
هي أنهم أحبوا الفن للفن ، وحرصوا على أن
يلتفوا على كل ما أخرجته أيديهم عمالا
إلخريا يصعب القبضة في النفوس ويسعد ألبان

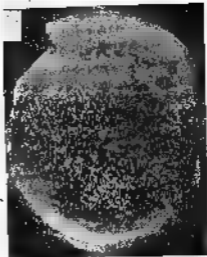


٦٧ سلطانية من الخزف ذي البريق المعدني به
صورة للبه السج بالتحف الاسلامي
بالقاهرة



٦٨ آفة من العصر السلطاني من العصر السلطاني
بالتحف الاسلامي بالقاهرة -

وسخ ، وإذا امتخت قالمه وحده ينطقها ،
 ومنى عملت بالماء عادت جديدة ومن يشرّب
 فيها مكاناً يشرّب في إناه وماء وحواء وضياء .
 وفي العصر الكوروني أخذت الصمغاط
 مكان العذارة في صناعته ، وأمدتنا حناجرها
 بكثير من القطع الإيجابية ومن القنينات
 الصغيرة ذات الأشكال المختلفة الجميلة
 ما يدل على أننا قد سرنا بهذه الصناعة إلى
 الأمام خطوات واسعة . (الصورة رقم ١٨) .
 وفي العصر الفاطمي استمرت عجلة التطور
 تدور ، وقد اثبت ذلك الرحالة الفارسي طبري
 إذ قال انه كان يصنع بصير زجاج شفاف
 عظيم النقاوه ، وقال أيضاً ان التجار في مصر
 كانوا يبيعون المشربين أوالي من الزجاج لكي
 يضحوا بها السلع التي يترها مما يدل على
 انتشار صناعة الزجاج وتبويبها ، وقد اشكرنا
 في هذا العصر لا الزجاج ذا البريق المذهبي ،
 وأضفنا إلى هذا الاشكار اشكاراً جديداً
 اعتدينا اليه في العصر الأيوبي هو : الزجاج
 المورق بالينا ، الذي وصلنا فيه إلى ذروة
 الاتقان في العصر المملوكي (الصورة رقم ١٩)
 والمصاييح الزجاجية أو : المنسكارات ،
 كما تسمى عادة التي ينخر بها متحف الفن
 الاسلامي (الصورة رقم ٢٠) هي شجر
 ما يعرض علينا جمال هذه الطريقة
 التي ابتدعناها لزخرفة الزجاج في العصور
 الوسطى ، والتي تطلعا سنأ الايطاليون
 وقلدونا فيها تقليداً نراه في بعض التحف
 المعروضة بجماعة الزجاج في المتحف الاسلامي .



١٧ - مسالك فلة من الصغار بالمتحف الاسلامي
 بالقاهرة .

من الطين ، هذه السلعة الرخيصة ليست سوى
 « ظل » من الضار نبتني الفخاري في زخرفة
 شباهيها (الصورة رقم ١٧) تمننا نزرع
 الاحباب من كل من يراها .

الزجاج

ولقد كانت صناعة الزجاج مزدهرة في
 مصر منذ عصر الفراعنة ، وكانت مدينة
 الاسكندرية في عصر البطالمة والرومان
 والبيزنطيين من اعظم مراكز صنعه في العالم ،
 وقد حافظت مصر في العصور الوسطى على
 هذه المكتانة ، ولا عجب فلقد أدرك آجدادنا
 حينئذ الدور الذي يلمع الزجاج في الحضارة
 فأقبلوا على صنعه ، وأشاروا في كتب الأثر
 إلى ما له من مزايا على غيره من المواد ، فقالوا
 ان أوابه لا تصدأ ، ولا تندي ، ولا يتغلها

٤٨ - آنية من
الزجاج من العصر
الطولوني بالمتحف
الإسلامي بالقاهرة.



٤٩ - دورق من
الزجاج المعمر بالمينا
من العصر الأيوبي
بالمتحف الإسلامي
بالقاهرة.





٥٥ - مشكاة من الزجاج المصنوع بالهند من عصر المماليك بالمعهد الاسلامي .

احراج الكتاب في الصورة التي نراه عليها الآن ، وهو فن منتسب التواحي يتصل بالمواد التي كان يكتب عليها ، وبالخط الذي كان يكتب به ، وبالصورة التي توضح موضوع الكتاب ، وبالتذهيب والتجليد .

فن الكتاب

وكلمة فن ما نختص به هذا الموضع السريع للجانب الفني من حياة مصر الاسلامية هو ما كان لأجدادنا في العصور الوسطى من فضل عظيم على « فن الكتاب » أي فن

البردي قد أحكم لصقها ببعضها التي يفض
 حتى أصبحت كأنها ألواح اقشوى (الكرتون)
 ثم كسوها بالجلد ، وزخرفوا هذا الجلد
 وهذه تكاد تكون نفس الطريقة التي تتبع
 اليوم في تجليد الكتب .

واختراع الورق ، لم يستطع بدلا من
 الرقي ، لم يحدث تغييرا في صناعة التجليد التي
 ظلت تسير على نهجها القديم ، على أننا
 نستطيع أن نسجل لأجدادنا في المصور
 الاسلامية فضل التقدم نحو الأسماء خطوة
 جديدة في هذه الناحية هي ابتكار « اللسان »

وقد كتب أجدادنا على الحجر والخشب
 وعلى الفخار والمظم وعلى الكتان والجلد ،
 وفي معرض دار الكتب المصرية بالناصرة أمثلة
 كثيرة لذلك ، على أن أهم ما استخدم للكتابة
 عليه هو البردي والرق والورق ، والبردي
 نبات كان يلبث بكثرة في مصر ، وقد نجس
 في المصور القديمة والمصور الوسطى نفس
 الدور الذي يلعبه الورق في عصرنا الحاضر ،
 ولم يكن لمصر منافس في التاج ، والكتاب
 المنفذ منه كان يتكون في معظم الأحيان من
 صحائف مختلفة يلمص بعضها إلى بعض بحيث
 يتكون من ذلك شريط طويل مستطيل الشكل
 يلف ليصبح في شكل الأسطوانة ، وقد كانت
 الصحيفة الأولى في هذا الملف أكثر مسكنا من
 الصحائف الأخرى لأنها كانت تغطي الملف
 وتكون له بمثابة غلاف .

ولكن سرعان ما اتخذ الكتاب شكلا
 آخر غير شكل الملف هو الشكل الذي نراه
 عليه الآن وذلك في الغالب عندما استعمل الرق
 (وهو ما اتخذ من مادة الحيوان لا سيما
 القاشية والفزالي) للكتابة عليه ، إذ كان جميع
 الرقوق المختلفة بعضها إلى بعض يحتاج إلى
 غلافه يمسكها ، ويحفظها من التلف ، فوضعت
 بين لوحين من الخشب . وقد عني أجدادنا
 قبل الإسلام بزخرفة هذه الألواح الخشبية ،
 وتجميلها بالمادن النخبة والأحجار الكريمة ،
 ثم خطروا نحو التطور خطوة جديدة عندما
 استبدلوا هذه الألواح الخشبية بقطع من



٥١ - الصفحة الأولى من مصحف المسلمان
 شهبان احمد سلطان المالك - في معرض
 دار الكتب المصرية بالناصرة .

الذي يطوى لحماية الأطراف الإمامية
للصفحات . وإذا كنا قد تملنا صناعة تجليد
الكتب من البيزنطيين فقد عثناها بلورنا
للإيطاليين في البندقية ومن هناك تملها باقي
الأوربيين .

وقد عني أجدادنا بإنشاء المكتبات في
كل عصر حياتهم منسابة عظيمة ، ومكتبة
الاستكبرية الشهيرة ، ومكتبات الإدارة
والكنائس والمساجد خير شاهد على ذلك ،
ولولا الفتن والاضطرابات الداخلية لوصلت

بموضنا بعضي الموضي .
والواقع أن « فن الكتاب » قد بلغ ذروة
نفسه في عصر المماليك ، كما تشهد بذلك
المصاحف الجميلة المفروضة في دار الكتب ،
(الصورة رقم ٥١) .

وكتبت الأديرة
مكتبات الإدارة
والكنائس والمساجد خير شاهد على ذلك ،
ولولا الفتن والاضطرابات الداخلية لوصلت

فهرس

سلسلة تاريخ الحضارة المصرية
العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي

المجلد الثاني

العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي - للدكتور ابراهيم نصحي
عصر في عصر البطالمة :-

٤	التفصيل الأول - دولة البطالمة :-
٤	الفتح المقدوني
٤	الاستيلاء على مصر
٥	مؤسس البطالمة
٦	قيام دولة البطالمة
٧	ظلال الامبراطورية المقدونية
٨	بناء امبراطورية البطالمة
١١	بداية الديانة
١٢	زوال امبراطورية البطالمة
١٣	صحرة المرد
١٦	التفصيل الثاني - ادارة الحكم - السنطة المركزية - الملك - الوزراء
١٧	المدن الاقليمية
١٨	الامم كندرية
٢٢	نراقسيس - بطولوميس
٢٣	المنطقة المحلية - قوات البطالمة - الجيش
٢٦	الاسطول
٢٧	التمردية
	التفصيل الثالث - سياسة البطالمة الدينية - البطالمة والمصريين - اتخاذ صلوات الفراعنة -
٢٨	احترام الديانة المصرية
٢٩	هولاء البطالمة من الكهنة المصريين
٣١	البطالمة والانجليز - عمادة البطالمة بمساعدة الحربلية عاسية
٣١	احترام الديانة الاثرية
٣٤	الانجيل والديانة المصرية
٣٥	البطالمة وبنواهم الممساكين الأخرى - الجوه - الفرس
٣٦	عناصر أخرى - ديانة سيرايس
٣٩	التفصيل الرابع - السياسة الاقتصادية - الزراعة
٤١	الصناعة
٤٢	التجارة

٤٧	القنود
٥٠	الفصل الخاص - النظام المالي - الإدارة المالية
٥٦	نظام الأراضي - أرض الملك
٥٦	أرض العطاء - الأرض المحصنة
٥٧	الإقطاعات العسكرية
٥٨	أرض المهدت - أرض الامتلاك الخاص
٥٥	نظام الصحايات والحرف - صناعة الزيت
٥٦	صناعة النسيج - الصايف المالية
٥٧	نظام التجارة - التجارة الداخلية
٥٩	التجارة الخارجية
٦٠	عراقب شتى
٦١	نظام جباية العراقب
٦٢	الفصل السادس - انقضاء - القانون المدني - الأحوال الشخصية
٦٤	الأحوال المدنية
٦٦	العراقب الجبالي
٦٧	الهيئات القضائية - محاكم المصريين - محاكم الاغريق
٦٨	الحكمة المختلطة
٦٩	محاكم انقضاء الخاص
٧٠	الفصل السابع - الحداة الاستعمارية - الاغريق - حالهم على عهد البطالة الأوائل
٧١	علاقتهم بالمصريين
٧٢	حالهم على عهد البطالة الأواخر
٧٣	علاقتهم بالمصريين
٧٤	منازل الاغريق
٧٤	حضارة اغريق مصر
٧٥	مصريون - البطالة و لطبقات - نصرية العتمة
٧٨	حضارة المصريين
٧٩	التوراة القومية
٧٩	الاسباب
٧٩	النسرات
٨٢	الانبا
٨٢	دار المعلم والمكتبة

٨٢	التسحر
٨٤	التضرب
٨٥	المسحور
٨٥	الطب والحراصة
٨٥	علمنا الحيوان والنبات
٨٦	العلوم الرياضية
٨٧	الفنون والمعمار والمقام
٩٢	المدلول والمساهد
٩٤	المنحت

مصر في عصر الرومان - لندكتور ابراهيم نصحي

١٠٨	الفصل الاول - مصر تصبح ولاية رومانية
١٠٨	الفتح الروماني
١١١	سياسة اباطرة الرومان في مصر
١٢٤	الفصل الثاني - اداة الحكم
١٢٤	السلطة المركزية
١٢٥	السلطة المحلية في القرنين الاول والثاني
١٢٩	المدن الاخرى
١٣٠	الامتدادات التي ادخلت في القرن الثالث
١٣٢	الخرنقة
١٣٣	انجيش الروماني
١٣٥	الفصل الثالث - السياسة الدينية
١٤٠	الفصل الرابع - السياسة الاقتصادية - الزراعة - الصناعة - التجارة
١٤١	الفسود
١٤٢	المصارف
١٤٣	حالة البلاد الاقتصادية
١٥٠	الفصل الخامس - النظام المالي - الادارة المالية
١٥١	هدف النظام المالي
١٥٢	تقسيم الأراضي
١٥٨	البحر والصناعات
١٦٢	التجارة - التجارة الخارجية
١٦٤	التجارة الداخلية

١٦٥	خرائب شتى
١٦٨	نظام جباية الضرائب
١٧٠	الفصل السادس - النظام القضائي
١٧١	القضاة المدنيون
١٧١	الأحوال المتعلقة
١٧٢	الأحوال المدنية
١٧٣	القانون الجنائي
١٧٣	الهيئات القضائية
١٧٥	الفصل السابع - الهيئة الاجتماعية
١٧٥	عند السكان وحالاتهم
١٧٦	طبقات السكان
١٧٦	الأمم : وضعهم وتطورهم
١٨٠	حضارة الأمم
١٨٢	اليهود
١٨٤	المسيحيون : شعوبهم
١٨٥	حداثة المسيحية
١٨٦	توراة المسيحية
١٨٧	الفصل الثامن - الآداب والعلوم والفنون
١٨٧	الآداب - دار العلم (الجامعة) والمكتبة
١٨٩	الشمس
١٨٩	النور
١٩١	العلوم
١٩١	الطب والجراحة
١٩٢	العلوم الرياضية
١٩٣	الفنون
١٩٣	فن المنسج
١٩٣	المنسج
١٩٤	المسائل
١٩٤	المسائل العامة
١٩٥	المسائل
١٩٥	فن المنسج

١٩٧	مقدمة
١٩٧	من ديوقليديانوس الى هرقل
١٩٧	ديوقليديانوس
١٩٨	من قسطنطين الى يوستينيانوس
١٩٩	اميرة يوستينييانوس
١٩٩	أعماله التشريعية
٢٠٠	اصلاحاته القضائية
٢٠١	المقالة الانتصارية في عهد يوستينيانوس
٢٠١	خلفاء يوستينيانوس
٢٠٢	هرقل
٢٠٣	النظام الإداري والمالي ونظام الجيش والحالة الانتصارية في عصر اليمبر البيزنطي
٢٠٣	النظام الإداري
٢٠٥	الجيش
٢٠٥	النظام المالي
٢٠٦	الحالة الاقتصادية
٢٠٩	الفصل الأول - الحياة السياسية
٢١٠	الصراع مع الأباطرة الوثنيين
٢١٢	الصراع مع الأباطرة المنصرين للبراطية
٢١٣	مرحلة أريوس
٢١٤	النيستوس وجهاده
٢١٧	فترة خسرو
٢١٧	أبابا كيرلس وبدعة نسطور
٢١٨	الصراع مع الأباطرة المنصرين أبابا رومة
٢٢٠	بداية التسامح الكنيسة
٢٢١	فترة هيرود
٢٢٢	خروج الأميطة هاتك
٢٢٦	الفصل الثاني - المسيحية القسرية
٢٢٦	مراحل تطور اللغة المصرية
٢٢٦	اللغة المصرية القديمة
٢٢٦	اللغة المصرية الحديثة
٢٢٦	اللغة المصرية المتوسطة

٢٢٦	الديموطيقية
٢٢٦	القبطية
٢٢٧	اسمها
٢٢٧	الخط الهروغليفي
٢٢٨	الخط الهيراطيقي
٢٢٨	الجنس الديموطيقي
٢٢٨	الخط البسيط
٢٢٨	التهجيات القبطية
٢٢٨	لهجات مصر المسفل
٢٢٨	لهجات مصر العليا
٢٢٩	احصاء اللمة القبطية
٢٢٩	أثر اللغة القبطية خارج مصر
٢٣٠	اللغة القبطية وأثرها على العربية
٢٣٢	الفصل الثالث - الحسابات الكبرية
٢٣٢	الإساح العاقل والمناسبة
٢٣٢	العائلة الكبرية وقت ظهور المسيحية
٢٣٣	أشراع بن المسحة والفلسفة الروسة
٢٣٤	الفلسفة القوسية
٢٣٤	القوسه وتاريخها ومدارسها
٢٣٥	فالتينوس
٢٣٥	أولائق القبطية
٢٣٥	الفلووفيون الإروذكس
٢٣٦	الافلاطونية الصديئة
٢٣٦	أمرينوس سيقايس
٢٣٧	مدارس الإسكندرية اللاهوتية وأثرها الثقافي
٢٣٧	الخاصة إلى إلهام هذه المدرسة
٢٣٨	تاريخ المدرسة وشهرتها
٢٣٩	شهرتها أساسياتها
٢٤٠	الكليمنس الإسكندري
٢٤٠	أوريجنوس
٢٤٢	ديديموس الصمير
٢٤٢	باقى الأساقفة

٢٤٣	العلاقة بين المذوسين الوثنية والمسيحية
٢٤٥	الانتاج العلمي والأدبي والثقافة الشعبية
٢٤٥	الانتاج المسموع
٢٤٧	صناعة الورق
٢٤٨	التاريخ الكنسي
٢٤٨	تاريخ بطارقة الاسكندرية
٢٤٩	المصادر التاريخية لسبع البطارقة
٢٤٩	يوحنا المهيوس
٢٤٩	مسكوبوس بن الممنج
٢٤٩	الأببا ميخائيل اسكف تيس
٢٥٠	الاسا برسب اسكف لوف
٢٥٠	السنكسار
٢٥٠	تاريخ انجساع
٢٥٠	المصاعج الخلية
٢٥٠	المجامع العالمية (الديكرليه)
٢٥١	يرحنا الصيوس
٢٥٢	الإنتاج الأدبي والثقافة الشعبية
٢٥٢	ترجمة الكتاب المقدس
٢٥٢	الحوال الآباء
٢٥٢	مصمخ القديسين
٢٥٣	العصص
٢٥٣	الإصلاح الاجتماعي
٢٥٣	أغراض الحسوي
٢٥٣	الظنم
٢٥٤	الغضب
٢٥٤	نسخة الأدب
٢٥٥	الحوال الآباء : انرها رشميتها
٢٥٥	كبابك الآباء اللاهوتية
٢٥٦	قوائم الأبناء غير السبع
٢٥٧	احسام العالم والخطوط انجليزية
٢٥٩	الفصل الرابع - الحياة الفنية
٢٥٩	الفنون القبطية
٢٥٩	الصفات العامة للفن القبطي

٢٥٩	فن شمسي
٢٦٠	فن ديس ومدني
٢٦٠	فن نبع من آنية المصرية وغير مها
٢٦٠	نورة ما يجعه من فنون ومؤثرات فية
٢٦١	فن جمال لا عظمه
٢٦١	فن الخزفة
٢٦١	فن يستخدم الاشكال الهندسة والرمزية
٢٦١	صرد من الفنون القبطية
٢٦١	الصنارة
٢٦٣	الصنير
٢٦٥	الفضي بل الصخر والصنير
٢٦٤	المسوحات
٢٧٢	الفنون الصغرى
٢٧٥	الخط والمخطوط
٢٧٥	حالة
٢٨٠	الرواسب القلبي
٢٨٠	الموصلى والالمان
٢٨٤	الفصل الخامس = العيساة الاجتماعية
٢٨٤	مركز المرأة في الحياة المصرية
٢٨٨	الأسرة
٢٩٢	العادات
٢٩٥	الأصوام
٢٩٦	الأعياد
٢٩٧	المسواك
٢٩٩	العسديم القبطى
٣٠١	كلمة الشورى في مصرين
٣٠١	شهر يون
٣٠٢	شهر باية
٣٠٢	شهر حاتور
٣٠٢	شهر كوك
٣٠٢	شهر طوية
٣٠٢	شهر اعشير

٣٠٢	شهر برمهاث
٣٠٢	شهر برموده
٣٠٢	شهر بشيس
٣٠٢	شهر بزونة
٣٠٢	شهر ايب
٣٠٢	شهر مسرى
٣٠٣	الدوقة الرومانية والتقويم المصري
٣٠٣	نظور القسوس المصري الى قبلى
٣٠٣	افراض التقويم القبطى
٣٠٤	التقويم القبطى القبرى
٣٠٤	التقويم القبطية
٣٠٥	التقويم الاثيوبى
٣٠٥	الرحبة لبيدبا في مصر
٣٠٦	أطوار الرحبة
٣٠٦	المرحبه
٣٠٦	القسديس انطونيوس
٣٠٧	الرحبة الاجتماعية
٣٠٧	القديس مسماريوس
٣٠٨	الرحبة الديرية احياء الشركة
٣٠٨	الآباء باثوميوس
٣٠٩	نظام الآباء شواودة
٣١١	آثار الرحبة
٣١١	القبورية
٣١١	الاجتماعية
٣١٢	انتشارها في ابعاد العالم المسيحي
٣١٢	في الشرق
٣١٤	في السمولا
٣١٥	في الغرب
	فهرس اسماء الأباطرة وسكام مصر وبطاوة الاسكندرية من عصر ديوقلديانوس
٣١٧	الى دعول الشرق
٣١٧	الأباطرة الرومان
٣١٧	أباطرة العصر البيزنطى

٣١٧	أسرة شهنشايين
٣١٨	أسرة زيود ومسرجوس
٣١٩	أسرة ليو
٣١٩	أسرة يوستيانيوس
٣٢٠	أسرة عرقميسل

القسم الثاني

المصر الاسلامي

	تاريخ مصر من الفتح العربي الى أن دخلها الفاطميون = بقلم الدكتور حسين حارس
٣٢٣	الفتح العربي لمصر
٣٢٥	مشكلات تصنع بالاعلام - الخونسري
٣٢٩	سيرة الفتح
٣٣٢	بابليون ومصر
٣٣٥	موقعة عين شمس (بابليون) والاستيلاء على الحصن
٣٣٨	معاهدة بابليون
٣٤٠	استكمال فتح الوجه البحري والصعيد واليهود
٣٤١	فتح الإسكندرية
٣٤٣	مصر جزء من الدولة الاسلامية
٣٤٨	العزاتان الامرية والعباسية
٣٤٨	الادابية
٣٥٢	شئون المال
٣٦٣	الاسلام والمسيحية
٣٧٢	الاصول السامية
٣٧٢	الزراعة والصناعة والحجارة
٣٧٦	الفسطاط والحجرة وسماتك العرب في الاسكندرية
٣٨٠	أهم أحداث مصر من الفتح العربي الى قيام دولة أحمد بن طولون
٣٨٨	دولة بني طولون
٣٨٨	أحمد بن طولون
٣٩٩	حمادويه وأبو الصداكر وحارون بن خسارويه
٤٠٢	نظرة عامة على دولة بني طولون
٤٠٥	من الطرونيين الى الاخشسيديين
٤٠٦	الاخشسيديين

٤١٨	مصر في العصر الفاطمي - صلاح مصر في العصر الإسلامي الأول - لندكتور جمال الدين الشيال
٤١٩	من هم الفاطميون
٤٢٠	الحزب الشيعي
٤٢٠	نشأته وتطوره
٤٢٣	قيام الدولة الفاطمية في المغرب
٤٢٥	الحكام الفاطميون في المغرب ومصر
٤٢٩	الدولة الفاطمية في المغرب
٤٢٨	الفتح الفاطمي لمصر
٤٣١	مصر في العصر الفاطمي
٤٣١	تأسيس القاهرة
٤٣٥	الجمامع الأزهر
٤٣٨	العصر الفاطمي الأول - مصر العروة والاردهار
٤٤٤	العصر الفاطمي الثاني - مصر الضعف والاضلال
٤٥٤	النهضة الدولة
٤٥٨	القبولة الأيوبية - لندكتور محمد مصطفى زمامه
٤٨١	الدولة المملوكية الأولى - لندكتور محمد مصطفى زمامه
٥٠٨	القبولة المملوكية الثانية
	الفتحة الديرية في مصر الإسلامية (من جهود الإسلام في مطلع العصر الحديث)
	فلاستاد أمين الشبول
٥٢٩	الدين والقدس
٥٣٢	الساريج النصارى
٥٣٣	ملامح الشخصية المصرية الحديثة
٥٣٤	عمل الروح الدينية
٥٣٦	قوة الإيمان بالحياة الأخرى
٥٣٨	سبحة الأقل الدينى
٥٣٧	مصر لتلقى الإسلام
٥٤١	احمدول غير سويح
٥٤٣	روحية مصر في الإسلام
٥٤٦	حبوية مصر في الإسلام
٥٤٨	إسلام مصر بلا محل ولا مقالات اعتقادية
٥٥٣	مصر ورد الخلفاء المعمر
٥٥٦	الإسلام والشخص المصري

التحيلة الفنية في عصر الإسلام

٥٦١	من القنقح العربي إلى القنقح العربي - للدكتور محمد عبد العزيز حوزوف.
٥٦٣	المسيرة (العصر القبولي)
٥٦٧	(العصر القبولي)
٥٦٩	(العصر انطاكي)
٥٧٦	(العصر الأرمي)
٥٨١	(العصر المملوكي)
٥٨١	المصباح
٥٨٢	القباب
٥٨٣	المسائل
٥٨٤	المسائل
٥٨٦	المسور
٥٩٠	المسائل
٥٩١	الأسئلة
٥٩١	المسور الخزفية
٥٩١	مواد التفسير
٥٩٣	الأسئلة
٥٩٤	المسور
٥٩٦	المسوريات
٥٩٦	المسائل
٥٩٨	المسائل
٦٠٠	المسور
٦٠٣	المسوريات
٦٠١	من الكتب

تاريخ الحضارة المصرية

المجلد الثاني

العصر اليوناني و الروماني

و العصر الإسلامي

تأليف

أمين الخولي * محمد مصطفى زيادة * إبراهيم نصحي * مراد كامل
حسين مؤنس * جمال الدين الشيال * محمد عبد العزيز مرزوق

